تفسير المظهري

تأليف

القاضي محمد ثناء الله العثماني الحنفي المظهري

النقشبندي

١١٤٣ - ١٢٢٥

تحقيق

أحمد عزو عناية

الجزء السابع

دار إحياء التراث العربي

بيروت - لبنان

جميع الحقوق محفوظة للناشر

جميع حقوق الملكية الأدبية والفنية محفوظة **لدار إحياء التراث العربي** بيروت - لبنان ويحظر طبع أو تصوير أو ترجمة أو إعادة تنضيد الكتاب كاملاً أو مجزءاً أو تسجيله على أشرطة كاسيت أو إدخاله على الكمبيوتر أو برمجته على إسطوانات ضوئية إلا بموافقة الناشر خطياً.

Copyright @

All rights reserved

All rights of this publication are reserved exclusively to **DAR EHIA AL -TOURATH AL-ARABI** Beirut - Lebanon. No part of this publication may be translated, reproduced, photocopied, photagraphed, taped on audio cassettes, or stored in a data base or saved on a retrievable system distributed in any form or by any means, without the prior written permission of the publisher.

الطبعة الأولى

1425 هـ - 2004 م

دار إحياء التراث العربي - بيروت لبنان

جميع الحقوق محفوظة في باكستان للمكتبة الحقانية

جلال الدين حقاني

بشاور بازار كتبخانه

تلفون: 220493/091 - موبيل: 5902280/0300 - باكستان

بيروت - لبنان - بناية كليوبترا - شارع دكاش

ص.ب: 7957/11 الرمز البريدي: 2250 1107

هاتف: 540000 - 544440 فاكس: 850717

Beirut - Liban - Imm Kileopatra - Rue Dakkache

P.O.Box 11\7957 Postal Code 1107 2250

Tel.Off: 544440 - 540000 Fax: 850717

سورة الفرقان

آياتها سبع وسبعون وهي مكيّة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا (١) ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ
تَقْدِيرًا (٢) وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ
ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا (٣) وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ
إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا (٤) وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ
ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (٥) قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا (٦) وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى
ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا (٧) أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ
جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا (٨) ٱنظُرْ
كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَٰلَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا (٩)﴾.

﴿تَبَارَكَ﴾ تفاعل من البركة وهي كثرة الخير يعني تكاثر خيره وهذه الصيغة لا يتصرف فيه ولا يستعمل إلا لله تعالى، قال ابن عباس معناه جاء كل بركة من قبله كذا قال الحسن، وقيل معناه تزايد عن كل شيء وتعالى عنه في صفاته وأفعاله فإن البركة تتضمن معنى الزيادة ومن هاهنا قال الضحاك معناه تعظم ﴿ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾ مصدر فَرَّق بين الشيئين إذا فصل بينهما سمّي به القرآن لفصله بين الحق والباطل بتقريره والمحق والمبطل بإعجازه أو لكونه مفصولاً بعضه عن بعض في الإنزال، رتب الله سبحانه قوله تبارك على إنزال القرآن لما فيه من كثرة الخير ولدلالته على تعظمه سبحانه وتعاليه ﴿عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ محمد ﷺ ﴿لِيَكُونَ﴾ أي العبد أو الفرقان ﴿لِلْعَٰلَمِينَ﴾ أي للإنس والجن عامة وعموم الرسالة من خصائصه ﷺ ﴿نَذِيرًا﴾ أي منذراً أو إنذاراً كالنكير بمعنى الإنكار وهذه

الجملة وإن كانت في حيز الإنكار لأهل مكة المخاطبين بها ولا بد من أن تكون الصلة معلومة لكنها لقوة دليلها أجريت مجرى المعلوم ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي سلطانه والموصول بدل من الأول، وجاز الفصل بين البدل والمبدل منه بقوله ليكون لأن المبدل منه أي الموصول مع الصلة وقوله ﴿لِيَكُونَ﴾ من متعلقات الصلة تعليل له فكان المبدل منه لم يتم إلا به وجاز أن يكون الموصول مرفوعاً بتقدير المبتدأ أي هو أو منصوباً بتقدير أعني أو أمدح ﴿وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ كما زعم النصارى ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾ كما يقول المجوس والثنوية أثبت له الملك مطلقاً ونفى ما يقاومه فيه ثم نبّه على ما يدل عليه فقال ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ يعني أحدث كل شيء مراعى فيه التقدير كخلقه الإنسان من مواد مخصوصة على صور وأشكال معينة ﴿فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ فسواه وهيأه لما أراد منه من الخصائص والأفعال كتهيئة الإنسان للإدراك والفهم والنظر والتدبير واستنباط الصنائع المتنوعة ومزاولة الأعمال المختلفة، أو المعنى فقدره للبقاء إلى أجل مسمى وقد يطلق الخلق لمجرد الإيجاد من غير نظر إلى وجه الإستقامة فيكون المعنى وأوجد كل شيء فقدره في إيجاده حتى لا يكون متفاوتاً، وقيل قدر لكل شيء تقديراً من الأجل والعمل والرزق فجرت المقادير على ما خلق، ولمّا تضمّن الكلام إثبات التوحيد والنّبوة أخذ في الرد على من أنكرهما في بيان نقص آلهتهم الباطلة فقال ﴿وَٱتَّخَذُوا۟﴾ أي المنذرون يدل عليه قوله ﴿نَذِيرًا﴾ والمراد كفار مكة والجملة معطوفة على قوله تبارك ﴿مِن دُونِهِۦٓ﴾ أي غير الله، من زائدة وهو في محل النصب على الحال من قوله آلهة ﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا﴾ من الجواهر والأعراض والأعمال والأحوال صفة الآلهة ﴿وهم يخلقون﴾ حيث خلق الله كل شيء، وهذا المعنى يعم الآلهة الباطلة كلها وإن كان المراد بالآلهة الأصنام فجاز أن يكون المعنى وهم ينحتون ويصورون أي حصلت لهم صورهم بكسب عبدتهم والجملة معطوفة على ما سبق أو حال، أو رد صيغة المضارع والمعنى على الماضي للاستحضار ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ﴾ أي لا يقدرون ﴿لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا﴾ أي دفع ضر أريد بهم ﴿إن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه﴾[1] ﴿وَلَا نَفْعًا﴾ ولا جلب نفع وهذا حال الأصنام بل حال كل شيء سوى الله تعالى فإن عيسى وعزيراً والملائكة مع علو مرتبتهم ﴿لا يملكون لأنفسهما نفعاً ولا ضراً إلا ما شاء الله﴾ قال الله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ

---

(١) سورة الحج، الآية: ٧٣.

﴿ٱلسُّوٓءُ﴾(١) ﴿وَلَا يَمۡلِكُونَ مَوۡتٗا وَلَا حَيَوٰةٗ وَلَا نُشُورٗا﴾ يعني لا يملكون إماتة أحد ولا إحياءه أولاً ولا بعثه ثانياً، وهذه الأمور من لوازم الألوهية فكل من ليس كذلك فليس بإله وفيه إشارة إلى أن الإله يجب أن يكون قادراً على البعث والجزاء ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ عطف على اتخذوا، وضع الظاهر موضع الضمير للإشعار بأن إنكار النبوّة كفر كإنكار التوحيد وذلك لأن التوحيد على ما ينبغي لا يتأتى بمجرد العقل بل حقيقة التوحيد ما ورد به الشرع ألا ترى إلى الفلاسفة وأمثالهم كيف خبطوا في الإلهيَّات حتى ضلوا وأضلوا، في الصحيحين عن ابن عباسٌ في قصة وفد عبد القيس قال رسول الله ﷺ: «أتدرون ما الإيمان بالله وحده؟ قالوا الله ورسوله أعلم، قال: أن تشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله»(٢) الحديث ﴿إِنۡ هَٰذَآ﴾ أي القرآن الذي جاء به محمد ﷺ ﴿إِلَّآ إِفۡكٌ﴾ أي كذب مصروف عن وجهه، يعني ليس هذا من كلام الله كما يقول محمد ﷺ بل ﴿ٱفۡتَرَىٰهُ﴾ ويعني اختلقه محمد ﷺ ﴿وَأَعَانَهُۥ﴾ أي محمداً ﷺ ﴿عَلَيۡهِ﴾ أي على اختلاق القرآن ﴿قَوۡمٌ ءَاخَرُونَۖ﴾ قال مجاهد يعنون اليهود وقال الحسن عبيد بن الحصر الحبشي الكاهن وقيل جبر ويسار وعداس عبيد كانوا بمكة من أهل الكتاب، زعم المشركون أن محمداً ﷺ يأخذ منهم ﴿فَقَدۡ جَآءُو﴾ يعني قائلي هذه المقالة ﴿ظُلۡمٗا﴾ حيث حكموا على الكلام المعجز بكونه إفكًا مختلقاً متلفقاً من اليهود ﴿وَزُورٗا﴾ حيث نسبوا الإفتراء إلى من هو بريء منه، قال البيضاوي أتى وجاء يطلقان بمعنى فعل فيعديان تعديته، وقيل هذان منصوبان بنزع الخافض تقديره فقد جاءو بظلم وزور ﴿وَقَالُوٓاْ﴾ عطف على ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ أي قال بعضهم يعني النضر بن الحارث فإنه كان يقول القرآن ليس من الله إنما هو ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ يعني ممّا سطره أي كتبه الأولون أي المتقدمون مثل قصة رستم واسفنديار ﴿ٱكۡتَتَبَهَا﴾أي استكتبها محمد ﷺ من جير ويسار وعداس وأمثالهم ﴿فَهِيَ﴾ أي تلك الأساطير ﴿تُمۡلَىٰ﴾ أي تقرأ ﴿عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا﴾ ليحفظها فإنه أميّ لا يقدر أن يكتب ولا أن يكرر من الكتاب ﴿قُلۡ﴾ استئناف فإنَّه في جواب ماذا أقول لهم يعني له لهم ردّاً عليهم ليس الأمر كما قلتم بل ﴿أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ كما يدل على ذلك إعجازه البلغاء عن آخرهم عن معارضته وكونه مشتملاً على علوم لا يعلمها إلا عالم السر والخفيان فكيف تحكمون عليه بكونه

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٨٨.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الإيمان، باب: أداء الخمس من الإيمان (٥٣)، وأخرجه مسلم في كتاب: الإيمان باب الأمر بالإيمان بالله تعالى ورسوله ﷺ وشرائع الدين (١٧).

من كلام البشر من المتأخرين أو المتقدمين ﴿إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ فلذلك لا يعجلكم بالعقوبة على ما تقولون مع كمال قدرته عليها واستحقاقكم إياها ﴿وَقَالُوٓاْ﴾ عطف على ﴿قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ يعني وقالوا في مقام الاستدلال على إنكارهم النبوة ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ﴾ أي ما لهذا الذي يدعي الرسالة وفيه إستهانة وتهكم ﴿يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ﴾ كما يأكل أحدنا، حال من المشار إليه والعامل فيه معنى الإشارة ﴿وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ كما يمشي أحدنا يعني لو كان نبياً لامتاز عن غيره من الناس وليس فليس، قال البغوي كانوا يقولون لست أنت بملك لأنك تأكل والملك لا يأكل ولست أنتَ بمِلك لأن المِلك لا يتسوق وأنت تتسوق وتتبدل، قلتُ كلامهم هذا فاسد لأنه ﷺ لم يدع الملكية ولا السلطان بل قال: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾(١) فادعاؤه النبوة غير مناف لأكل الطعام والمشي في الأسواق الذي هو مقتضى البشرية التي هي من لوازم النبوة لأن النبي لا يكون إلا بشراً لأن المجانسة شرط للإفاضة والإستفاضة قال الله تعالى: ﴿لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكاً رسولاً﴾(٢) ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ﴾ نراه ﴿فَيَكُونَ﴾ جواب لولا معنى هلا منصوب بتقدير أن بعد الفاء ﴿مَعَهُۥ نَذِيرًا﴾ فنعلم صدقه بتصديق المَلَك، جملة لولا مع جوابه بدل إشتمال من الجملة السابقة، يعني ما لهذا الرسول بشراً ليس ملكاً قوياً بذاته ولا مؤيداً بأحد الأمور الثلاثة المذكورة أنزل إليه ملك ﴿أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ﴾ من السماء ﴿كَنزٌ﴾ ينفقه فلا يحتاج إلى المشي في الأسواق لطلب المعاش ﴿أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾ صفة لجنة قرأ حمزة والكسائي نأكل بالنون على صيغة المتكلم مع الغير، ذكروا كلاً من الثلاثة على سبيل التنزل يعنون أنه إن كان رسولاً كان ملكاً وإن لم يكن ملكاً كان معه ملك يصدقه وإن لم يكن كذلك كان يلقى إليه من السماء كنز وإن لم يكن كذلك فلا أقل أن يكون له بستان كما يكون المدهاقين والمياسير فيعيش بربحه ﴿وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ وضع الظالمين موضع ضميرهم تسجيلاً عليهم بالظلم فيما قالوا ﴿إِن تَتَّبِعُونَ﴾ أيها المسلمون أحداً حين تتبعون محمداً ﷺ ﴿إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ يعني سحر فغلب على عقله، وقيل أي مخدوعاً، وقيل مصروفاً عن الحق، وقيل مسحوراً أي ذا سحر وهو الرئة أي بشراً، وقيل هو مفعول بمعنى الفاعل ﴿ٱنظُرْ﴾ يا محمد ﴿كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلْأَمْثَٰلَ﴾ كيف ظرف متعلق بضربوا قدم عليه لتضمنه مصدر الكلام والجملة بتأويل المفرد مفعول لا نظر أي

---

(١) سورة الكهف، الآية: ١١٠.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٩٥.

انظر إلى كيفية ضربهم الأمثال أي الأشباه، يعني جعلوك مثل المفترين والقاصين حتى حكموا عليه بالإفتراء وإستكتاب القصص ومثل المسحورين ومثل من يدعي الملكية والسلطنة حتى حكموا عليك باستحالته الأكل والتسوُّق واستلزام لوازم الأغنياء والسلاطين من الكنز والجنة (فَضَلوا) عطف على ضربوا أي كيف ضربوا وكيف ضلوا عن الطريق الموصل إلى الحق ومعرفة نبوتك بمعرفة خواص الأنبياء من كونه بشراً معصوماً يوحى إليه من ربه ومعرفة ما يميّز بينه وبين المتنبيّ من المعجزات الدالة على نبوته ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ إلى الرشد والهدى عطف على ضلوا أو المعنى ضربوا لك أمثالاً متناقضة فلا يستطيعون سبيلاً إلى القدح في نبوتك لأن الكلام المتناقض ساقط والله أعلم.

﴿تَبَارَكَ الَّذِي إِن شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا ﴿١٠﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَّا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾ قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْئُولًا ﴿١٦﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَٰؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَا أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا ﴿١٨﴾ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ۚ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾﴾.

أخرج ابن أبي شيبة في المصنف وابن جرير وابن أبي حاتم عن خيثمة قال قيل للنبي ﷺ إن شئت أعطيناك مفاتيح الأرض وخزائنها لا ينقص ذلك عندنا شيئاً في الآخرة وإن شئتَ جمعتها لك في الآخرة قال لا اجمعهما لي في الآخرة، فنزلت ﴿تَبَارَكَ الَّذِي إِن شَاءَ جَعَلَ لَكَ﴾ في الدنيا ﴿خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ﴾ الذي قالوا من الكنز والبستان، ولكن أخّره للآخرة لأنه خير وأبقى، خيراً مفعول أول لجعل ولك مفعول ثان له، قال البغوي وروي

عن عكرمة عن ابن عباس قال يعني خيراً من المشي في الأسواق والتماس المعاش ثم بين ذلك الخير بقوله ﴿جَنَّٰتٍ﴾ فهو بدل من خيراً ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ صفة لجنات ﴿وَيَجْعَل لَّكَ﴾ عطف على جعل، قرأ ابن كثير وابن عامر وعاصم برواية أبي بكر بالرفع والباقون بالجزم لأن الشرط إن كان ماضياً جاز في جزائه الجزم والرفع ويجوز أن يكون الرفع على الاستئناف على أنه وعد بما يكون له في الآخرة ﴿قُصُورًا﴾ أي بيوتاً مشيدةً والعرب تسمي كل بيت مشيد قصراً، روى أحمد والترمذي وحسنه عن أبي أمامة عن النبيّ ﷺ قال «عرض عليَّ ربي أن يجعل لي بطحاء مكة ذهباً فقلتُ لا يا رب ولكن أشبع يوما وأجوع يومًا»[١] وفي رواية عند البغوي أو قال ثلاثاً ونحو هذا «فإذا جعتُ تضرعت إليك وإذا شبعت حمدتُك وشكرتك» وعن عائشة قالت قال رسول الله ﷺ: «لو شئت لسارت معي جبال الذهب جاءني ملك إن حجزته لتساوى الكعبة فقال إن ربك يقرأ عليك السلام ويقول إن شئت نبيّاً عبداً وإن شئت نبيّاً ملكاً فنظرتُ إلى جبرئيل فأشار إليَّ أن ضَع نفسك، فقلتُ نبيّاً عبداً، قالت فكان رسول الله ﷺ بعد ذلك لا يأكل متكئاً ويقول آكل كما يأكل العبيد وأجلس كما يجلس العبيد»[٢] ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ﴾ عطف على قالوا، يعني قالوا ذلك بل قالوا أعجب من ذلك أو متصل بما يليه يعني بل قصرت أنظارهم على الحطام الدنيوية وظنوا أن الكرامة إنما هي بالمال فكذبوك وطعنوا فيك بالفقر وبما تَحَلّوا من المطاعن الفاسدة، أو المعنى بل كذبوا بالساعة فكيف يلتفتون إلى هذا الجواب ويصدقونك بما وعد الله لك في الآخرة أو فلا تعجب تكذيبهم إياك فإنه أعجب منه ﴿وَأَعْتَدْنَا﴾ عطف على كذبوا ﴿لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾ ناراً شديد الإسعار، وقيل اسم لجهنم فيكون صرفه باعتبار المكان ﴿إِذَا رَأَتْهُم﴾ أي إذا رأت النار الكفار، حمل بعض المحققين إسناد الرؤية إلى النار على الحقيقة لما قال البغوي إنه روي عن رسول الله ﷺ قال: «من كذب عليَّ متعمداً فليتبوأ مقعده بين عيني النار، قالوا وهل لها من عينين؟ قال ألم تسمع قول الله تعالى: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ وقيل الإسناد مجازي فقيل والتقدير إذا رأتهم زبانيتها على حذف المضاف، وقيل يعني إذا كانت بمرأى من الأخرى ﴿مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ قال الكلبي من مسيرة مائة عام، وقيل من مسيرة خمس مائة سنة ﴿سَمِعُوا۟﴾ أي الكفار ﴿لَهَا﴾ أي للنار ﴿تغيظا﴾، أي صوت تغيظ، هي صوت غليانها شبيها بصوت

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: الزهد، باب: ما جاء في الكفاف والصبر عليه (٢٣٤٧).

(٢) رواه أبو يعلى وإسناده حسن، انظر: مجمع الزوائد في كتاب: علامات النبوة، باب: في تواضعه ﷺ (١٤٢١).

المتغيظ ﴿وَزَفِيرًا﴾ وهو صوت يسمع من جوفه والجملة الشرطية صفة لسعير وتأنيث ضمير رأتهم لأنه بمعنى النار أو جهنم ﴿وَإِذَآ أُلْقُوا۟﴾ يعني الكفار عطف على الشرطية الأولى ﴿مِنْهَا﴾ أي من جهنم حال مما بعده ﴿مَكَانًا﴾ ظرف لألقوا ﴿ضَيِّقًا﴾ لزيادة العذاب فإن الكرب مع الضيق والرَّوح مع السعة، قرأ ابن كثير بسكون الياء والباقون بتشديدها. أخرج ابن أبي حاتم عن يحيى بن أسيد أن رسول الله ﷺ سئل عن هذه الآية قال: «والّذي نفسي بيده ليستكرهون في النار كما يستكره الوتد في الحائط» وأخرج عن ابن عمر في الآية قال مثل الزُّج في الرمح، وقال ابن المبارك من طريق قتادة قال ذكر لنا أن عبد الله كان يقول: إن جهنم لتضيق على الكافرين كضيق الزج على الرمح، فأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن أبي الدنيا والبيهقي عن ابن مسعود قال إذا ألقي في النار من يخلد في النار جعلوا في توابيت من حديد فيها مسامير من حديد ثم جعلت تلك التوابيت في توابيت من حديد ثم قذفوا في أسفل جهنم فما يرى أحدهم أنه يعذب غيره، وأخرج أبو نعيم والبيهقي عن سويد بن غفلة نحوه ﴿مُّقَرَّنِينَ﴾ حال من الضمير المرفوع في ألقوا يعني وقد قرنت أيديهم إلى أعناقهم بالسلاسل وقيل مقرنين مع الشياطين ﴿دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ جزاء للشرط، قال ابن عباس يعني ويلاً، وقال الضحاك هلاكًا، أخرج أحمد والبزار وابن أبي حاتم والبيهقي بسند صحيح عن أنس رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «أول من يكسى حلة من النار إبليس فيضعها على حاجبيه ويسحبها من بعده وذريته من بعده وهو ينادي يا ثبوراه ويقولون يا ثبورهم حتى يقفوا على النار» فيقال لهم ﴿لا تدعوا اليوم ثبوراً واحداً وادعوا ثبوراً كثيراً﴾ استئناف كأنه في جواب ماذا يقال لهم حين يدعون ثبوراً يعني هلاككم أكثر من أن تدعوا مرةً واحدةً فادعوا أدعية كثيرةً وذلك لأن عذابكم أنواع كثيرة كل نوع منها ثبور لشدته أو لأنه يتجدد كقوله تعالى: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ﴾[1] أو لأنه لا ينقطع فهو في كل وقت ثبوراً قال الله تعالى ﴿قُلْ﴾ يا محمد استئناف ﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي ذكرت لك من صفة النار وأهلها، أو أذلك الكنز والجنة التي في الدنيا ﴿خَيْرٌ﴾ من جنة الخلد ﴿أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ﴾ خير من ذلك إستفهام تقرير للتقريع مع التهكم والتوبيخ للكفار وإضافة الجنة إلى الخلد للمدح أو للدلالة على خلودها أو للتميز عن جنات الدنيا ﴿ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ العائد إلى الموصول محذوف والمراد بالمتقين من يتقي الشرك والتكذيب بدلالة مقابلة الكفار، وأن الجنة يكون جزاء لكل مؤمن ﴿كانت

---

(١) سورة النساء، الآية: ٥٦.

لهم﴾ في علم الله أو اللوح المحفوظ أو لأن ما وعد الله في تحققه كالواقع ﴿جَزَآءً﴾ ثواباً على أعمالهم ﴿وَمَصِيرًا﴾ مرجعاً ينقلبون إليه، التنكير فيها للتعظيم وجزاء ومصيراً حالان من الضمير المرفوع في كانت أو خبر ثان له وجملة كانت لهم حال من المفعول المقدر لوعد أي (جنة الخلد التي وعد المتقون إياها وقد كانت لهم جزاء ومصيراً) أو حال من المتقون، والرابط ضمير لهم ﴿لَّهُمْ فِيهَا﴾ أي في الجنة ﴿مَا يَشَآءُونَ﴾ العائد محذوف أي ﴿ما يشاؤونه﴾ العائد محذوف أي ما يشاؤونه من النَّعيم يعني على ما يليق برتبته إذ الظاهر أن الناقص لا يدرك ما يدركه الكامل بالتشهي، وفيه تنبيه على أن جميع المرادات لا يحصل إلا في الجنة ﴿خَٰلِدِينَ﴾ حال من أحد ضمائرهم ﴿كَانَ﴾ الضمير الراجع إلى ما يشاءون ﴿عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا﴾ أي موعوداً من الله وكلمة على للوجوب استعمل لاستحالة الخلف في الموعود ولا يلزم منه الإلجاء لأن تعلق الإرادة بالموعود مقدم على الوعد الموجب للإنجاز، وهو تحقق الاختيار ﴿مسؤولاً﴾ أي حقيقيًا بأن يسأل ويطلب أو مسؤولاً سأله الناس في دعائهم ﴿ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك﴾[1] قال محمد بن كعب القرظي كان مسؤولاً من الملائكة بقولهم ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ﴾[2] ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ﴾ متعلق بقالوا سبحانك، وجملة قالوا سبحانك مع متعلقاتها عطف على ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً﴾ قرأ ابن كثير وأبو جعفر ويعقوب وحفص بالياء على الغيبة والباقون بالنون على التكلم والتعظيم ﴿وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي كل معبود سواه عبد بالباطل عاقلاً كان أو غير عاقل لأن كلمة ما يعمهما على الأصح، وقال مجاهد يعني من الملائكة والجن وعيسى وعزير خص لهؤلاء بقرينة السؤال والجواب، وقال عكرمة والضحاك والكلبي يعني الأصنام لأن ما لغير ذوي العقول وهذا القول محمول على أن الله سبحانه يجعلها في الآخرة ذات حياة ونطق فتنطق كما تنطق الجوارح والأمكنة ونحو ذلك ﴿فَيَقُولُ﴾ للمعبودين بالباطل عطف على يحشر، قرأ ابن عامر بالنون على التكلم والتغظيم والباقون بالياء على الغيبة أي يقول الله سبحانه لهم ﴿ءأنتم أضللتم عبادي هؤلاء﴾ بدل من عبادي يعني أضللتم إياهم بدعوتكم إياهم إلى عبادة أنفسكم ﴿أم هم ضلوا السبيل﴾ أي معرفة الحق لإخلالهم بالنظر الصحيح وإعراضهم عن المرشد النصيح الفصيح، وهو استفهام تقريع وتبكيت للعبيد وأصله أضللتم أم ضلوا فغير النظم ليلي حرف الاستفهام

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٩٤.

(٢) سورة غافر، الآية: ٨.

المقصود بالسؤال وهو المتولى للفعل دون نفس الفعل لأنه قطعي لا شبهة فيه وإلا لما توجه العتاب ﴿قَالُوا﴾ أورد صيغة الماضي للمستقبل لتحقق الوقوع ﴿سُبْحَانَكَ﴾ تعجباً لما قيل لهم لعصمتهم إن كانوا ملائكة أو أنبياء أو لعدم قدرتهم على الإضلال إن كانوا جمادات أو غير ذلك، أو إشعاراً بأنهم الموسومون بتسبيحه وتحميده حيث قال الله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾(١) فكيف يليق بهم إضلال عبيده أو تنزيهاً لله تعالى من أن يكون له شريك ﴿مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَا﴾ جملة ينبغي خبر كان واسمه ضمير الشأن ﴿أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ من مزيدة لتأكيد النفي أي ما يصح لنا أن نوالي أحداً غيرك للعصمة وعدم القدرة فكيف يصح لنا أن ندعو غيرنا إلى أن يتخذ ولياً دونك ولهذا جواب صحيح للأنبياء والملائكة وكذا للجمادات، وأما من ادعى في الدنيا ألوهيَّةً باطلةً من شياطين الجن والإنس فهذا الجواب منهم كقولهم ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾(٢) وكقول الشيطان ﴿لما قضى الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لي عليكم من سلطان﴾(٣) الآية ﴿وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ﴾ بطول العمر والصحة وأنواع النعم فاستغرقوا في الشهوات ﴿حَتَّىٰ نَسُوا الذِّكْرَ﴾ عطف على متعتهم يعني حتى غفلوا عن ذكرك وتذكر آلائك والتدبر في آياتك المنصوبة الدالَّة على ذلك وعن احتياجهم إليك، أو تركوا الموعظة والإيمان بالقرآن فهو نسبة للضلال إليهم من حيث أنه بكسبهم وإسناد له إلى ما فعل الله بهم فحملهم عليه فهذه الآية حجة لنا على المعتزلة لا لهم علينا ﴿وَكَانُوا﴾ في قضائك عطف على نسوا ﴿قَوْمًا بُورًا﴾ أي هلكى، مصدر وصف به ولذلك يستوى فيه الواحد والجمع وقيل جمع بائر كعائذ وعوذ ﴿فَقَدْ كَذَّبُوكُم﴾ خطاب مع المشركين في الدنيا يعني فسيكذبكم في الآخرة آلهتكم التي تعبدونها، أو رد صيغة الماضي للقطع بوقوعها كما في قوله تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ۝١﴾(٤) وجاز أن يكون بتقدير القول يعني فنقول حينئذ للمشركين فقد كذبكم المعبودون ﴿بِمَا تَقُولُونَ﴾ الباء بمعنى في أي في قولكم أنهم آلهة أو هؤلاء أضلونا وجاز أن يكون ﴿بِمَا تَقُولُونَ﴾ بدل اشتمال من الضمير المنصوب في ﴿كَذَّبُوكُم﴾ يعني كذبوا قولكم ﴿فَمَا تَسْتَطِيعُونَ﴾ عطف على فقد كذبوكم قرأ حفص بالتاء على الخطاب للعابدين والباقون بالياء على أن الضمير راجع إلى المعبودين ﴿صَرْفًا﴾ أي لا يستطيع المعبودون صرف العذاب عنكم ﴿وَلَا

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٤٤.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ٢٣.

(٣) سورة إبراهيم، الآية: ٢٢.

(٤) سورة الإنشقاق، الآية: ١.

﴿نَصۡرًاۚ﴾ لكم أو لا تستطيعون أنتم صرف العذاب عن أنفسكم ولا نصر أنفسكم، وقيل الصرف الحيلة ومنه قول العرب أنه يتصرف أي يحتال ﴿وَمَن يَظۡلِم مِّنكُمۡ﴾ أيها الناس ﴿نُذِقۡهُ عَذَابٗا كَبِيرٗا﴾ إن كان المراد بالظلم الشرك فالجزاء لازم إجماعاً وإن كان يعم الكفر والفسق فاقتضاء الجزاء مقيد بعدم المزاحم وفاقاً وهو التوبة والإحباط بالطاعة إجماعاً وبالعفو عندنا، أخرج الواحدي من طريق جويبر والبغوي عن الضحاك عن ابن عباس وابن جرير نحوه من طريق سعيد أو عكرمة عنه أنه لما عير المشركون رسول الله ﷺ بالفاتحة ﴿وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ﴾ حزن رسول الله ﷺ فنزل ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمۡ لَيَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشُونَ فِي ٱلۡأَسۡوَاقِۗ﴾ يعني إلا رسلاً أنهم ليأكلون فحذف الموصوف لدلالة المرسلين عليه وأقيمت الصفة مقامه والمعنى إلا رسلاً آكلين الطعام والماشين في الأسواق كقوله تعالى: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٞ مَّعۡلُومٞ ١٦٤﴾[1] أي ما منا من أحد إلا من له مقام معلوم وجاز أن يكون حالاً إكتفى منها بالضمير يعني ﴿ما أرسلنا قبلك أحدا من المرسلين﴾ في حال من الأحوال إلاّ والحال إنهم ليأكلون، وجملة ما أرسلنا معترضة لتسلية النبيّ ﷺ ﴿وَجَعَلۡنَا بَعۡضَكُمۡ لِبَعۡضٖ فِتۡنَةً﴾ أي بلية فالغني فتنة للفقير يقول الفقير مالي لم أكن مثله والصحيح فتنة للمريض والشريفُ للوضيع، وقال ابن عباس أي جعلت بعضكم لبعض بلاءً لتصبروا على ما تسمعون فيهم وترون من خلافهم وتتبعوا الهدى، وقيل نزلت في إبتلاء الشريف بالوضيع وذلك أن الشريف إذا أراد أن يسلم فرأى الوضيع قد أسلم قبله أنف وقد أسلم بعده، فيكون له على الشريف السابقة والفضل فيقيم على الكفر ويمتنع عن الإسلام فذلك افتتان بعضهم ببعض وهذا قول الكلبي، وقال مقاتل نزلت في أبي جهل والوليد بن عتبة والعاص بن وائل والنضر بن الحارث وذلك أنهم إذا رأوا أبا ذر وابن مسعود وعماراً وبلالاً وصهيباً وعامر بن فهيرة قالوا نسلم ونكون مثل هؤلاء، وقال قتادة نزلت في ابتلاء المؤمنين بالمستهزئين من قريش كانوا يقولون أنظروا الذين اتبعوا محمداً من موالينا ورذالتنا فقال الله تعالى لهؤلاء المؤمنين ﴿أَتَصۡبِرُونَۗ﴾ على هذه الحالة من الفقر والشدة والأذى فتؤجروا أم لا تصبرون فتزدادوا غمّاً إلى غمكم وحاصل المعنى اصبروا ﴿وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرٗا﴾ بمن صبر وجزع، عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «**إذا نظر أحدكم إلى من فضل عليه في**

---

(١) سورة الصافات، الآية: ١٦٤.

المال والجسم فلينظر إلى من هو أسفل منه»(١) رواه الشيخان في الصحيحين وأحمد.

﴿۞ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾ الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي ۗ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنسَانِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾ وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَٰذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾﴾.

﴿وَقَالَ﴾ عطف على ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ﴿الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ﴾ أي لا يأملون ﴿لِقَاءَنَا﴾ بالخير لإنكارهم البعث ولا لقاءنا بالشر إما مجاز أو إما على لغة تهامة، قال الفراء إن الرجاء بمعنى الخوف على لغتهم، ومنه قوله تعالى: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾﴾(٢) أي لا يخافون لله عظمة، وأصل اللقاء الوصول إلى الشيء ومنه الرؤية فإنه وصول إلى المرئي والمراد به الوصول إلى جزائه ﴿لَوْلَا﴾ أي هلا ﴿أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ﴾ فيخبروننا بصدق محمد أو يكونون رسلاً من الله إلينا ﴿أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا﴾ فيأمرنا باتباعه ﴿لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا﴾ جواب قسم محذوف ﴿فِي﴾ شأن ﴿أَنفُسِهِمْ﴾ حيث طلبوا لأنفسهم ما ينفق لأفراد من الأنبياء الّذين هم أكمل خلق الله في أكمل أوقاتها وما هو أعظم من ذلك ﴿وَعَتَوْ﴾ تجاوزوا الحد في الظلم، وقال مجاهد طغوا، وقال مقاتل علوا في القول، وقال البغوي العتو أشد الكفر وأفحش الظلم ﴿عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ بالغاً أقصى مراتبه حيث طلبوا رؤية الله ولا شيء فوق ذلك، وقيل عتوهم أنهم عاينوا المعجزات الباهرة فأعرضوا عنها وطلبوا لأنفسهم الخبيثة ما تقطعت دونه أعناق الطالبين الكاملين ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ﴾ أي الكفار ﴿الْمَلَائِكَةَ﴾ يعني حين

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الرقاق، باب: لينظر إلى من هو أسفل منه ولا ينظر إلى من هو فوقه (٦٤٩٠)، وأخرجه مسلم في أوائل كتاب: الزهد والرقائق (٢٩٦٣).

(٢) سورة نوح، الآية: ١٣.

الموت أو يوم القيامة جملة معترضة والظرف إما متعلق باذكر ﴿وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ عطف على يرون وجملة ﴿لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ معترضة أخرى وإما متعلق بقوله تعالى: لا بشرى بتقرير القول يعني يوم يرون الملائكةي يقولون أي الملائكة ﴿لَا بُشْرَىٰ﴾ للمجرمين، قال عطية أن الملائكة يبشرون المؤمنين يوم القيامة ويقولون للكافرين لا بشرى لكم، وقيل معناه يوم يرون الملائكة لا يبشرون كما يبشرون المؤمنين بالجنة ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ تكرير أو خبر للا، أو ظرف لما تعلق به اللام في للمجرمين ﴿لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ إما متعلق بالظرف المستقر أعني يومئذ أو خبر للا أو متعلق بالبشرى إن قدرت منونة غيرمبنية مع لا فإنها لا تعمل وللمجرمين إما عام يتناول حكمه حكمهم وإما خاص وضع موضع ضميرهم تسجيلاً على جرمهم وإشعاراً بما هو المانع للبشرى والموجب لما يقابله ﴿وَيَقُولُونَ﴾ أي الملائكة عطف على يقولون لا بشرى ﴿حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ كذا قال البغوي عن عطاء عن ابن عباس أنه تقول الملائكة حراماً محرماً أن يدخل الجنة إلا من قال لا إله الا الله محمد رسول الله، وعن مقاتل أنه إذا خرج الكفار من قبورهم قالت الملائكة لهم حراماً محرما عليكم أن تكون لكم الجنة، وقال بعضهم معنى الآية يقولون أي المجرمون حين يخرجون من قبورهم ويرون الملائكة حجراً محجوراً، قال البغوي قال ابن جريج كانت العرب إذا نزلت بهم شدة ورأوا ما يكرهون قالوا حجراً محجوراً فهم يقولون ذلك إذا عاينوا الملائكة ومعناه عوذاً معوذاً، قال مجاهد يستعيذون من الملائكة يعني يوم يرون الملائكة وتقول الملائكة لا بشرى ويقول المجرمون حجراً محجوراً أي يطلبون من الله أن يمنع لقاءهم ﴿وَقَدِمْنَآ﴾ أي عمدنا ذلك اليوم عطف على ويقولون ﴿إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟﴾ أي الكفار ﴿مِنْ عَمَلٍ﴾ صالح كقرى الضيف وصلة الرحم وإغاثة الملهوف ونحوها ﴿فَجَعَلْنَٰهُ﴾ عائد إلى ما عملوا ﴿هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ أي باطلاً لا ثواب له لفوات شرط الثواب عليه من الإيمان والإخلاص لله تعالى قال علي الهباء ما يرى في الكوى إذا وقع الشمس فيها كالغبار ولا يمس منها بالأيدي ولا يرى في الظل وسعيد بن جبير هو ما تسفه الريح وتذريه من التراب وحطام الشجر، وقال مقاتل هو ما يطير من حوافر الدّواب عند السير، وقيل الهباء المنثور ما يرى في الكوة والهباء المنبتّ ما يطيره الريح من سنابك الخيل شبه عملهم المحبط في حقارته وعدم نفعه بالهباء ثم بالمنثور منه في انتثاره بحيث لا يمكن نظمه أو في تفرقه نحو أغراضهم التي كانوا يتوجهون نحوها أو مفعول ثالث من حيث أنه كالخبر كقوله تعالى: ﴿كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾[1] ﴿أَصْحَٰبُ

(١) سورة البقرة، الآية: ٦٥.

﴿ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ﴾ أي يوم يرون الملائكة ﴿خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا﴾ أي مكاناً يستقر في أكثر الأوقات ﴿وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ مكاناً يؤوى إليه للاسترواح بالأزواج وهو التمتع بهن ويجوز أن يراد به مكان القيلولة على التشبيه إذ لا نوم في الجنة، وقال الأزهري القيلولة والمقيل الاستراحة نصف النهار وإن لم يكن مع ذلك نوم لأن الله تعالى قال ﴿وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ والجنة لا نوم فيها وفي أحسن رمز إلى ما يتزين به مقيلهم من حسن الصور وغيره من المحاسن ويحتمل أن يراد بالمستقر المقيل المصدر أو الزمان وإشارة إلى أن مكانها وزمانها أطيب ما يتخيل من الأمكنة والأزمنة والتفضيل إما لإرادة الزيادة مطلقاً أو بالإضافة إلى ما للمترفين في الدنيا، أخرج ابن المبارك في الزهد وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم والحاكم وصححه عن ابن مسعود قال لا ينتصف النهار من يوم القيامة حتى يقيل هؤلاء وهؤلاء وذكر البغوي عن ابن مسعود ينتصف النهار يوم القيامة حتى يقيل أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار وقرأ ﴿ثم إن مقيلهم لإلى الجحيم﴾[1] هكذا كان يقرأه، وأخرج ابن المبارك وسعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وأبو نعيم في الحلية عن إبراهيم النخعي قال كانوا يرون أنه يفرغ من حساب الناس يوم القيامة نصف النهار فيقيل أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار، وقال البغوي كان ابن عباس رضي الله عنه يقول في هذه الآية الحساب ذلك اليوم في أوله وقال القوم حين قالوا في منازلهم في الجنة، قال البغوي ويروى أن يوم القيامة يقصر على المؤمنين حتى يكون كما بين العصر إلى غروب الشمس ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ﴾ عطف على يوم يرون، قرأ أهل الكوفة وأبو عمر وبتخفيف الشين هاهنا وفي سورة ق بحذف إحدى التائين والباقون بالتشديد بإدغام التاء في الشين ﴿ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ﴾ أي بسبب طلوع الغمام وهو الغمام المذكور في قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾[2] وقد مر في سورة البقرة، وهو غمام أبيض رقيق مثل الضبابة ولم يكن إلا لبني إسرائيل في تيههم وقال البغوي الباء بمعنى عن يتعاقبان يقال رميت السهم بالقوس، وعن القوس فالمعنى تشقق السماء عن الغمام ﴿وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ قرأ العامة بنون واحدة وتشديد الزاء وفتح اللام على صيغة الماضي المبني للمفعول ورفع الملائكة على أنه مسند إليه، وقرأ ابن كثير بنونين وتخفيف الزاء وضم اللام على صيغة المضارع المبني للفاعل المتكلم على التعظيم من الإنزال ونصب الملائكة على المفعولية ﴿تَنزِيلًا﴾ أخرج الحاكم وابن أبي حاتم وابن جرير

---

(١) الآية هي: ﴿ثم إن مرجعهم لإلى الجحيم﴾ سورة الصافات، الآية: ٦٨.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢١٠.

وابن أبي الدنيا في كتاب الأهوال عن ابن عباس أنه قرأ ﴿يوم تشقق السماء بالغمام﴾ قال يجمع الله الخلق يوم القيامة في صعيد واحد الجن والإنس والبهائم والسباع والطير وجميع الخلق فتشقق السماء الدنيا فينزل أهلها وهم أكثر ممَّن في الأرض من الجن والإنس وجميع الخلق فيحيطون بالجن والإنس وجميع الخلق فيقول أهل الأرض أفيكم ربنا؟ فيقولون لا، ثم ينزل أهل السماء الثانية وهم أكثر من أهل السماء الدنيا وأهل الأرض فيقولون أفيكم ربنا؟ فيقولون لا، فيحيطون بالملائكة الذين نزلوا قبلهم وبالجن والإنس وجميع الخلائق، ثم ينزل أهل السماء الثالثة وهم أكثر من أهل السماء الثانية والأولى وأهل الأرض فيقولون أفيكم ربنا؟ فيقولون لا، ثم ينزل أهل السماء الرابعة وهم أكثر من أهل السماء الثالثة والثانية والأولى وأهل الأرض فيقولون أفيكم ربنا؟ فيقولون لا، ثم ينزل أهل السماء الخامسة وهم أكثر ممن تقدم ثم أهل أهل السماء السادسة كذلك ثم أهل السماء السابعة وهم أكثر من أهل السماوات وأهل الأرض فيقولون أفيكم ربنا؟ فيقولون لا، ثم ينزل ربُّنا في ظلل من الغمام وحوله الكروبيون وهم أكثر من أهل السماوات السبع والأرضين وحملة العرش لهم قرون ككعوب القناما بين قدم أحدهم كذا وكذا ومن أخمص قدمه إلى كعبه خمس مائة عام ومن كعبه إلى ركبته خمس مائة عام ومن أرنبة إلى ترقوته مسيرة خمس مائة عام. ومن ترقوته إلى موضع القوط خمس مائة عام وقد مر هذا الحديث وأقوال العلماء في تأويل نزوله تعالى في سورة البقرة في تفسير قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ﴾(١) وأخرج ابن جرير وابن المبارك عن الضحاك قال إذا كان يوم القيامة أمر الله السماء فتشقق بأهلها فيكون الملائكة على حافتها حين يأمرهم الرب فينزلون فيحيطون بالأرض ومن عليها ثم الثانية ثم الثالثة ثم الرابعة ثم الخامسة ثم السادسة ثم السابعة فصفُّوا صفاً دون صف ثم ينزل ملك على مجنته اليسرى جهنم فإذا رآها أهل الأرض ندوا فلا يأتون قطراً من أقطار الأرض إلا وجدوا سبعة صفوف من الملائكة فرجعوا إلى المكان الذي كانوا فيه وذلك قوله تعالى: ﴿إني أخاف عليكم يوم التناد يوم تولون مدبرين﴾(٢) وقوله تعالى ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ﴾(٣) وقوله تعالى: ﴿يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من اقطار السماوات والأرض فانفذوا﴾(٤) وقوله تعالى ﴿وانشقت السماء فهي يومئذ

(١) سورة البقرة، الآية: ٢١٠.
(٢) سورة غافر، الآية: ٣٢ ـ ٣٣.
(٣) سورة الفجر، الآية: ٢٢ ـ ٢٣.
(٤) سورة الرحمن، الآية: ٣٣.

واهية والملك على أرجائها﴾[١] يعني ما تشقق منهما فبينما كذلك إذ سمعوا الصوت وأقبلوا إلى الحساب ﴿ٱلْمُلْكُ﴾ مبتدأ ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي يوم إذ تشقق السماء متعلق بالملك ﴿ٱلْحَقُّ﴾ صفة للملك ﴿لِلرَّحْمَٰنِ﴾ خبر للمبتدأ يعني الملك الثابت المتحقق الذي لا زوال له يومئذ ثابت للرحمن دون غيره وجاز أن يكون يومئذٍ خبراً للمبتدأ وللرحمن متعلق به ﴿وَكَانَ يَوْمًا﴾ خبر كان واسمه ضمير مستتر ﴿عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا﴾ صفة ليوم وعلى الكافرين متعلق به يعني كان ذلك اليوم يوماً شديداً على الكافرين، وجاء في الحديث عن أبي سعيد قال: سئل رسول الله ﷺ عن يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ما أطول هذا اليوم؟ فقال «والَّذي نفسي بيده إنه ليخفف على المؤمن حتى يكون أهون عليه من الصلاة المكتوبة يصليها في الدنيا»[٢] والله أعلم، قال البغوي كان عقبة بن أبي معيط لا يقدم من سفر إلا صنع طعاماً يدعوا إليه إشراف قومه وكان يكثر مجالسة النبيّ ﷺ فقدم ذات يوم من سفر فصنع الطعام فدعا الناس ودعا رسول الله ﷺ فلمَّا قرب الطعام، قال رسول الله ﷺ «ما أنا بآكل طعامك حتى تشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، فقال عقبة أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله فأكل رسول الله ﷺ من طعامه، وكان عقبة صديقاً لأبي بن خلف فلمَّا أخبر أبي بن خلف قال له يا عقبة صبأت، قال لا والله ما صبأت ولكن دخل علي رجل فأبى أن يأكل طعامي إلا أن أشهد له فاستحييت أن يخرج من بيتي ولم يطعم فشهدت له فطعم، فقال ما أنا بآلذي أرضى منك أبداً إلا أن تأتيه فتبزق في وجهه ففعل ذلك عقبة.

فقال النبيّ ﷺ لا ألقاك خارجاً من مكة إلا علوت رأسك بالسيف فقتل عقبة يوم بدر صبراً وأما أبي بن خلف فقتله النبيّ ﷺ يوم أحد بيده» وكذا أخرج ابن جرير مرسلاً، وفيه وقال أبي لعقبة أرضى منك إلا أن تأتيه فتطأ قفاه وتبزق في وجهه فوجده ساجداً في دار الندوة ففعل ذلك، فقال عليه السلام ولا ألقاك خارجاً من مكة إلا علوت رأسك بالسيف فأسر يوم بدر فأمر علياً بقتله وطعن أبيّاً بأحد في المبارزة فرجع إلى مكة فمات، ففي شأن عقبة وأبي نزلت ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ﴾ عطف على يوم تشقق ﴿ٱلظَّالِمُ﴾ يعني عقبة بن أبي معيط ﴿عَلَىٰ يَدَيْهِ﴾ من فرط الحسرة. أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال كان أبي بن خلف يحضر النبيّ ﷺ فزجره عقبة بن أبي معيط فنزلت هذه الآية إلى قوله خذولاً وأخرج

---

(١) سورة الحاقة، الآية: ١٦ ـ ١٧.

(٢) رواه أحمد وأبو يعلى وإسناده حسن على ضعف في راويه. انظر مجمع الزوائد في كتاب: البعث، باب: خفة يوم القيامة على المؤمنين (١٨٣٤٧).

مثله عن الشعبي ومقسم، قال البيضاوي عض اليدين وأكل البنان وحرق الأسنان ونحوها كنايات عن الغيظ والحسرة، قال الضحاك: لما بزق عقبة في وجه رسول الله ﷺ عاد بزاقه في خده فاحترق خداه وكان أثر ذلك فيه حتى الموت، وقال الشعبي كان عقبة بن أبي معيط خليل أمية بن خلف فأسلم عقبة فقال أمية وجهي من وجهك حرام إن بايعت محمداً فكفر وارتد فأنزل الله عزَّ وجلَّ ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ﴾ يعني عقبة بن أبي معيط بن أمية بن عبد الشمس بن عبد مناف ﴿عَلَىٰ يَدَيْهِ﴾ ندماً وأسفاً على ما فرط في جنب الله وأويق نفسه بالمعصية والكفر لطاعة خليله الّذي صده عن سبيل ربه، قال عطاء يأكل يديه حتى يبلغ مرفقيه ثم تنبتان ثم يأكل هكذا كلمّا نبتت يده أكلها تحسراً على ما فعل ﴿يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي﴾ تقديره يا قوم ليتني، قرأ أبو عمرو بفتح الياء والآخرون بإسكانها قال من فاعل يعض ﴿ٱتَّخَذْتُ﴾ في الدنيا ﴿مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا﴾ يا ليتني اتبعتُ محمداً أو اتخذتُ معه سبيلاً إلى الهدى والنجاة طريقاً واحداً وهو طريق الحق ولم ينشعب بي طريق الضلالة ﴿يا ويلتي ليتني لم أتخذ فلانا﴾ يعني أبي بن خلف وفلان كناية عن الإعلام ﴿خَلِيلًا لَّقَدْ أَضَلَّنِي﴾ فلان ﴿عَنِ ٱلذِّكْرِ﴾ أي عن ذكر الله أو كتابه أو موعظة الرسول أو كلمة الشهادة جواب قسم محذوف ﴿بَعْدَ إِذْ جَآءَنِي﴾ أي الذكر مع الرسول ﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ يعني الخليل المضلّ فإن كل متمرد عاتٍ من الإنس والجن وكل من صد عن سبيل الله فهو شيطان ﴿لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا﴾ فعول من الخذلان وهو ترك الإعانة والنصر يعني لا يواليه حتى يؤديه إلى الهلاك ثم يتركه ولا ينفعه، وهذه الآيات وإن كان موردها خاصاً لكنها عامة من حيث العبارة يشتمل حكمه كل متحابين اجتمعا على معصية. عن أبي موسى رضي الله عنه عن النبيّ ﷺ قال: «مثل الجليس الصالح والسوء كحامل المسك ونافخ الكير، فحامل المسك إما أن يحذيك وإما أن تبتاع منه أو تجد ريحاً طيبة ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك وإما أن تجد ريحاً خبيثة»(١) رواه البخاري، وعن أبي سعيد الخدري أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «لا تصاحب إلا مؤمناً ولا يأكل طعامك إلا تقي»(٢).

رواه أحمد وأبو داود والترمذي وابن حبان والحاكم، وعن أبي هريرة قال قال

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الذبائح والصيد، باب: المسك (٥٥٣٤)، وأخرجه مسلم في كتاب: البر والصلة والآداب، باب: استحباب مجالسة الصالحين ومجانبة قرناء السوء (٢٦٢٨).

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: الزهد، باب: ما جاء في صحبة المؤمن (٢٣٩٥)، وأخرجه أبو داود في كتاب: الأدب، باب: من يؤمر أن يجالس (٤٨٢٤).

رسول الله ﷺ: «المرء على دين خليله فلينظر من يخالل»[١] رواه البغوي، وفي الصحيحين وعند أحمد وأصحاب السنن عن أنس وفي الصحيحين عن ابن مسعود عن النبيّ ﷺ قال: «المرء مع من أحب»[٢] ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ﴾ محمد ﷺ يومئذٍ عطف على يَعَضّ الظالم ﴿يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى﴾ قرأ نافع وأبو عمرو والبزي بفتح الياء والباقون بإسكانها يعني قريشاً ﴿ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾ أي متروكاً فأعرضوا عنه ولم يؤمنوا به ولم يعملوا بما فيه، وقيل معناه جعلوه بمنزلة الهجر والهذيان والقول السيء فزعموا أنه شعر أو سحر أو كهانة وهو قول النخعي ومجاهد، وقيل معناه قال الرسول الله ﷺ في الدنيا يشكوا قومه إلى ربه ﴿إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾ وعلى هذا قال الرسول عطف على ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ﴾ ولما شكى رسول الله ﷺ قومه إلى ربه عزاه الله تعالى بقوله ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي جعل مثل ما جعلنا لك أعداء من مشركي قريش ﴿جَعَلْنَا﴾ عطف على قال الرسول ﴿لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا﴾ لفظ العدو يحتمل الواحد والجمع ﴿مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أي من المشركين فأصبر كما صبروا فإني ناصرك وهاديك ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا﴾ إلى طريق قهرهم ﴿وَنَصِيرًا﴾ عليهم هادياً ونصيراً حال من فاعل كفى أو تمييز من النسبة مثل قوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾[٣] ولله دره فارساً، جملة كفى بربك عطف على كذلك جعلنا.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٣٤﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُواْ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ أَتَوْاْ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُواْ يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُواْ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤٠﴾ وَإِذَا رَأَوْكَ

(١) أخرجه أبو داود في كتاب: الأدب، باب: من يؤمر أن يجالس (٤٨٢٥)، وأخرجه الترمذي في كتاب: الزهد (٢٤١٨).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الرقاق، باب: علامة حب الله عز وجل (٦١٦٨)، وأخرجه مسلم في كتاب: البر والصلة والآداب، باب: المرء مع من أحب (٢٦٤٠).

(٣) سورة النساء، الآية: ٧٩.

إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ ﴾.

وأخرج ابن أبي حاتم والحاكم وصححه والضياء في المختار عن ابن عباس أنه قال المشركون إن كان محمد (كما يزعم) نبيّاً فلم يعذبه ربه ألا ينزل عليه القرآن جملة واحدة فأنزل الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ عطف على قال الذي لا يرجون ﴿لَوْلَا﴾ هلا ﴿نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ أي أنزل عليه كخبر معنى أخبر كيلا يناقض قوله ﴿جُمْلَةً وَٰحِدَةً﴾ دفعة واحدة حال من القرآن كما أنزل التوراة على موسى والإنجيل على عيسى والزبور على داود عليهم الصلاة والسلام، قال البيضاوي هذا إعتراض لا طائل تحته لأن الإعجاز لا يختلف بنزوله جملة أو مفرقاً مع أن التفريق فوائد منها ما أشار إليه بقوله ﴿كَذَٰلِكَ﴾ متعلق بمحذوف أي أنزلناه كذلك مفرقاً ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ أي لنقوي بتفريقه قلبك على حفظه وفهمه ولأن نزوله بحسب الوقائع يوجب بصيرة في المعنى ولأنه إذا نزل منجماً وهو يتحدى كل نجم فيعجزون عن معارضة ذلك زاد ذلك في قوة قلبه ولأنه إذا نزل به جبرئيل حالاً بعد حال يثبت به فؤاده، ومن فوائد التفريق في النزول معرفة الناسخ من المنسوخ ومنها انضمام القرائن الحالية إلى الدلالات اللفظية فإنه يعين على البلاغة ﴿وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾ عطف على أنزلناه المقدر الذي تعلق به لنثبت، قال ابن عباس بينّه بياناً والترتيل القراءة في ترسل وتثبت، وقال السدي فصلناه تفصيلا، وقال مجاهد بعضه في أثر بعض، وقال النخعي والحسن فرقناه تفريقاً وأصل الترتيل في الأسنان وهو تفليجها ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ﴾ أي سؤال عجيب كأنه مثل يريدون به القدح في نبوتك ﴿إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾ يعني إلا جئنا لك في جواب سؤالهم بما يحق لرد ما جاءوك ﴿وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ عطف على الجار والمجرور أي بما هو أحسن بياناً يزيل إشكالها أو المعنى لا يأتونك بحال عجيب يقولون هذا كان حاله إلا أعطيتك من الأحوال ما يحق لك في حكمتنا وما هو أحسن كشفاً لما بعثت له، والفسر الإبانة وكشف المغطى كذا في القاموس ﴿ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾ ذم منصوب أو مرفوع أو مبتدأ خبره ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ والمفضل عليه هو الرسول على طريقة قوله تعالى: ﴿قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب عليه﴾[1] كأنه قيل إن حاملهم على هذه الأسئلة تحقير مكانه بتضليل سبيله ولا يعلمون حالهم ليعلموا أنهم هم شر مكاناً وأضل سبيلاً وقيل إنه متصل بقوله

(١) سورة المائدة، الآية: ٦٠.

تعالى: ﴿أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا وأحسن مقيلا﴾ فالمفضل عليه عام كما كان هناك يعني أولئك شر مكاناً من كل مكين وأضل سبيلاً من كل سالك ضالّ فكلمتا مكاناً وسبيلاً تمييزان من النسبة ووصف السبيل بالضلال من الإسناد المجازي للمبالغة. عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يحشر الناس يوم القيامة على ثلاثة أصناف ركباناً ومشاةً وعلى وجوههم، فقال رجل يا رسول الله أو يمشون على وجوههم؟ قال الذي أمشاهم على أقدامهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم»(١) رواه أبو داود والبيهقي، وعن أنس سئل رسول الله ﷺ كيف يحشر الكافر على وجهه؟ قال: «أليس الذي أمشاه على رجليه في الدنيا قادراً على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة»(٢) متفق عليه، وعن معاوية بن حيدة قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إنكم تحشرون رجالاً وركباناً وتجرون على وجوهكم»(٣) رواه الترمذي وحسنه، وعن أبي ذر قال: حدثني الصادق المصدوق صلّى الله عليه وسلّم: «إن الناس يحشرون يوم القيامة على ثلاثة أفواج فوج طاعمين كاسين راكبين وفوج يمشون ويسعون وفوج يسحبهم الملائكة على وجوههم»(٤) رواه النسائي والحاكم والبيهقي.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي التوراة ﴿وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا﴾ يوادده يعينه في الدعوة وإعلاء كلمة الله ولا ينافي ذلك مشاركته في النبوة لأن المتشاركين في الأمر متوازران عليه ﴿فقلنا﴾ لهما ﴿اذهبا إلى القوم الذين كذبوا بآياتنا﴾ فادعواهم إلى الإيمان بالله وآياته الدالة على وجوده ووحدته وصفاته الكاملة فإنهم كانوا ينكرون الصانع أو يشركون به غيره ويعبدون الأصنام، وجاز أن يكون المراد بالآيات معجزات موسى عليه السلام وعلى هذا قوله تعالى: ﴿الذين كذبوا بآياتنا﴾ صادق بالنسبة إلى زمان الحكاية يعني حين نزول القرآن ولا يجوز أن يكون المراد بالآيات التوراة لأنها ما نزلت إلا بعد هلاك فرعون وقومه ﴿فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا﴾ في الكلام حذف للإيجاز تقديره فذهبا إليهم فدعواهم إلى الإيمان بالله وآياته فكذبوهما فدمرناهم تدميراً، اقتصر على ما هو المقصود من القصة وهو الكلام الحجة ببعثة الرسل واستحقاق التدمير بتكذيبهم ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ﴾

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة بني إسرائيل (٣١٤٢).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الرقاق، باب: كيف الحشر (٦٥٢٣)، وأخرجه مسلم في كتاب: صفة القيامة والجنة والنار، باب: يحشر الكافر على وجهه (٢٨٠٦).

(٣) أخرجه الترمذي في كتاب: صفة القيامة والرقائق والورع، باب: ما جاء في شأن الحشر (٢٤٢٤).

(٤) أخرجه النسائي في كتاب: الجنائز، باب: البعث (٢٠٧٧).

منصوب باذكر أو بفعل مضمر يفسره قوله ﴿أَغْرَقْنَٰهُمْ﴾ يعني أغرقنا قوم نوح ولا يجوز أن يكون معطوفاً على هم في دمرناهم إذ لو كان كذلك لزم تعقيب تدمير قوم نوح بإتيان موسى وقد كان قبل ذلك ﴿لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ﴾ ظرف بفعل مضمر ناصب لقوم نوح أو ظرف لما بعده، والمراد بتكذيب الرسل تكذيب نوح ومن قبله من الرسل عليهم السلام أو تكذيب نوح وحده وأورد صيغة الجمع لأن تكذيب واحد من الرسل كتكذيب الكل أو المعنى كذبوا بعثة الرسل ﴿أَغْرَقْنَٰهُمْ﴾ بالطوفان ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ﴾ أي جعلنا إغراقهم أو قصتهم ﴿لِلنَّاسِ ءَايَةً﴾ عبرة ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ﴾ على أنفسهم بالكفر ﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾ وعادا وثمودا عطف على هم في جعلناهم وجاز أن يكون منصوباً بفعل محذوف دلّ عليه سياق الكلام، يعني أهلكنا عاداً وثموداً وبأذكر وقد مر قصتهما فيما سبق من سورة الأعراف وغيرها ﴿وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ﴾ في القاموس الرسُّ إبتداء الشيء ومنه رس الحمى ورسيسها والبئر المطوية بالحجارة والإصلاح والإفساد ضد ووادٍ بأذربيجان عليه ألف مدينة والحفر ودفن الميت، ولعل إطلاق أصحاب الرس على قوم معهودين لكونهم بادين بالشر والكفر مفسدين في الأرض أو لكونهم أهل بئر أو ساكني تلك الوادي أو لأنهم قتلوا نبيهم ودفنوه، والمراد هاهنا قوم كانوا أهل بئر قعود عليها أصحاب مواش يعبدون الأصنام فوجه الله عليهم شعيباً عليه السلام يدعوهم إلى الإسلام فتمادوا في طغيانهم وفي أذى شعيب عليه السلام فبينما هم حول البئر في منازلهم إنهارت البئر فخسف الله بهم وبديارهم ورباعهم فهلكوا جميعاً كذا، قال وهب بن منبه وأخرجه ابن جرير وابن عساكر عن قتادة قال البغوي قال قتادة والكلبي الرس بئر بفلح اليمامة قتلوا نبيهم فقتلهم الله عزَّ وجلَّ، وقال بعضهم هم بقية ثمود قوم صالح وهم أصحاب البئر التي ذكرها الله تعالى في قوله: ﴿وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾(١) وكذا أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة، وقال البغوي قال سعيد بن جبير كان لهم نبي يقال له حنظلة بن صفوان فقتلوه فأهلكهم الله، قيل إبتلاهم الله بطير عظيم كان فيها من كل لون وسموها عنقاً لطول عنقها وكانت تسكن جبلهم الذي يقال له فتح ادمخ وتنقض على صبيانهم فتخطفهم فدعا عليها حنظلة فأصابتها الصاعقة ثم إنهم قتلوه وأهلكوا، وقال البغوي قال كعب ومقاتل والسدي الرس بئر بأنطاكية قتلوا فيها حبيب النجار وهم الذين ذكرهم الله في سورة يس وقيل هم أصحاب الأخدود الذي حفروه، وقال عكرمة هم رسُّوا لنبيهم في البئر

(١) سورة الحج، الآية: ٤٥.

أي دفنوه، وقيل الرس المعدن وجمعه رساس ﴿وَقُرُونًا﴾ عطف على أصحاب الرس يعني وأهلكنا قروناً وهو جمع الكثرة لقرن وهو قوم مقترنون من زمن واحد، القرن إذا كان مضافاً إلى شخص معين أو جمع معلوم يراد به من يقترن ويلاقي ذلك الشخص أو تلك الجماعة يعني أكثرهم أو واحداً منهم ومنه ما يقال القرون الثلاثة المشهود لهم بالخير بقوله ﷺ «خير القرون قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم»[١] فقرن النبيّ ﷺ هم الصحابة الذين رأوا النبيّ ﷺ والقرن الثاني الذين رأوا واحداً من الصحابة أو أكثر والثالث الذين رأوا واحداً منهم أو أكثر وإن كان غير مضاف يراد به قوم مقترنون في زمن واحد ولا شك في أنه إذا إقترن جماعة في زمان فكبارهم تقترن في صغرهم بكبار سبقوا أو صغارهم تقترن في كبرهم بصغار تلحقهم، فوضعوا لإطلاق القرن مدة فقيل أربعون أو عشرة أو عشرون أو ثلاثون أو خمسون أو ستون أو سبعون أو تسعون أو مائة أو مائة وعشرون والأصح أنها مائة سنة بقوله ﷺ لغلام «عش قرناً» فعاش مائة سنة، والعنى على هذا أو أهلكنا أهل أعصار كثيرة كافرة ﴿بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ أي بين عاد وثمود وأصحاب الرس وقوم موسى ﴿كَثِيرًا﴾ صفة لقرون ﴿وَكُلًّا﴾ منصوب بفعل مضمر يدل عليه ﴿ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ والتنوين عوض من المضاف إليه تقديره وأنذرنا كل واحد من تلك القرون ضربنا له الأمثال أي بيَّنا له القصص العجيبة من القصص الأولين ليعتبروا بها ﴿وَكُلًّا﴾ أي كل واحد منهم ﴿تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا﴾ أي أهلكنا إهلاكاً لما لم يعتبروا بالأمثال وكذبوا المنذرين، قال الأخفش معناه كسرناه تكسيراً، قال الزجاج كل شيء كسرته وفتّته فقد تبرته ومنه التبر لفتات الذهب والفضة ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا﴾ جواب لقسم محذوف معطوف على ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ والضمير راجع إلى أهل مكة أسند فعل البعض إلى الكل كما في قوله ﴿فكذبوه فعقروها﴾[٢].

يعني والله لقد مر أهل مكة يعني أكثرهم مروا مراراً في أسفارهم إلى الشام ﴿عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ﴾ يعني سدوم عظمى قريات قوم لوط لما أمطرت عليها الحجارة لما كانوا يعملون الخبائث إتيان الرجال في أدبارهم، قال البغوي: قريات قوم لوط كانت خمساً فأهلك الله تعالى منها أربعاً ونجت واحدة وهي صغيرة وكان أهلها لا

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب: فضائل الصحابة، باب: فضل الصحابة ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم (٢٥٣٣).

(٢) سورة الشمس، الآية: ١٤.

يعملون الخبيث وكانت تلك القرى على طريق أهل مكة عند ممرهم إلى الشام ﴿أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا﴾ الاستفهام للإنكار وإنكار النفي إثبات وتقرير يعني لقد كانوا يرونها فما لهم لم يعتبروا بها ولم يتذكروا ﴿بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا﴾ يعني ليس عدم اتعاظهم لأجل عدم رؤيتهم بل لعمه في قلوبهم لا يتوقعون نشوراً ولا عاقبة أو لا يأملون نشوراً كما يأمله المؤمنون علماً في الثواب أو لا يخافونه على لغة تهامة.

﴿وَإِذَا رَأَوْكَ﴾ يعني كفار قريش عطف على لا يرجون ﴿إِن يَتَّخِذُونَكَ﴾ أي ما يتخذونك ﴿إِلَّا هُزُوًا﴾ إستثناء مفرغ منصوب على أنه مفعول ثان ليتخذونك مصدر بمعنى المفعول أي مهزوّاً إستثناء نزلت في أبي جهل وأصحابه مروا على رسول الله ﷺ فقالوا إستهزاء ﴿أَهَٰذَا﴾ يعنون محمداً ﷺ مبتدأ خبره ﴿الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ﴾ أي بعثه الله ﴿رَسُولًا﴾ جملة أهذا معمول لفعل محذوف تقديره يقولون ﴿أهذا الذي بعثه الله رسولا﴾ والاستفهام للتعجب والإنكار وكلمة هذا للتحقير وجملة يقولون بيان لما سبق يعني يتخذونك مهزأواً به يقولون فيك كذا ﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا﴾ أي ليصرفنا عن عبادتها بفرط اجتهاده في الدعاء إلى التوحيد وكثرة إتيانه بما يسبق إلى الذهن أنها حجج ومعجزات، أن مخففة من الثقيلة واللام فارقة، وفيه دليل على فرط اجتهاده صلّى الله عليه وسلّم وفي دعوتهم وعرض المعجزات المتكاثرة المتوافرة عليهم حتى شارفوا بزعمهم أن يتركوا دينهم المعوج إلى دينه القويم لولا فرط لجاجهم واستمساكهم بعبادة آلهتهم ومن هذا شأنه أن لا يتذكر بمشاهدة المعجزات المتوافرة الباهرة فكيف يعتبر برؤية حجارة القرى الخالية ﴿لَوْلَا أَن صَبَرْنَا﴾ أي ثبتنا ﴿عَلَيْهَا﴾ واستمسكنا بعبادتها وجواب لولا محذوف دل عليه ما قبله تقديره لولا صبرنا ثابت أو لولا ثبت صبرنا لأضلّنا، ولولا في مثله تفيد الحكم المطلق من حيث المعنى دون اللفظ، ولمّا كان كلامهم هذا مشعراً بنسبة الضلال إلى رسول الله ﷺ وأصحابه قال الله سبحانه رداً عليهم ﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ أهم أضل سبيلاً أم المؤمنون، وفيه وعيد ولادلة على أنه لا يهملهم الله ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾﴾ بأن أطاع هواه وبنى عليه دينه لا يسمع حجة ولا يتبصر دليلاً قدم المفعول الثاني للعناية به، قال البغوي قال ابن عباس أرأيت من ترك عبادة الله خالقه وهوى حجراً فعبده، من شرطية جزاءه أفأنت تكون عليه وكيلاً حفيظاً يمنعه عن ذلك والجملة الشرطية قائم مقام المفعولين لرأيت والإستفهام الأول للتقرير والتعجيب والثاني للإنكار يعني لست عليهم حفيظاً قال الكلبي نسختها آية القتال ﴿أَمْ تَحْسَبُ﴾ أم منقطعة يعني بل أتحسب ﴿أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ﴾ كلام الله منك ﴿أَوْ

يَعۡقِلُونَۚ﴾ ما يستفاد منه والإستفهام للإنكار يعني أنهم لا يسمعون ولا يعقلون حيث (ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم) والمراد بالسمع هاهنا سمع قلوبهم فهم لا ينتفعون المواعظ والحجج وفيه دليل على أن إفادة البرهان العلم بالنتيجة أمر عادي منوط بمشيئة الله تعالى وتخصيص الأكثر لأنه كان منهم من آمن ومنهم من تعقل الحق وكابر استكباراً أو خوفاً على الرياسة (إنْ هم) أي ما هم الضمير راجع إلى أكثرهم ﴿إلا كالأنعام﴾ حيث يسمعون بآذانهم كالأنعام ولا يسمعون بقلوبهم فلا ينتفعون بها ولا يتدبرون فيما شاهدوا من الدلائل والمعجزات ﴿بَلۡ هُمۡ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ من الأنعام فإن الأنعام إن لم يدركوا الحق حقاً والباطل باطلاً فهم لا يزعمون الحق باطلاً والباطل حقاً فالأنعام في جهل بسيط والكفار في جهل مركب ولا شك أن الجاهل بالجهل المركب أضل وأبعد من الحق من الجاهل بالجهل البسيط فالأنعام لا يميزون بين الحق والباطل والكفار يحكمون بحقيقة الشرك ويعبدون الحجارة بلا دليل بل مع ظهور بطلانها وينكرون الرسل مع شواهد الحجج والمعجزات وسطوع برهانها، وقيل لأن البهائم تنقاد من يتعهدها وتميز من يحسن إليها ممن يسيء إليها وتطلب ما ينفعها وتهرب مما يضرها وهؤلاء لا ينقادون لديهم ولا يعرفون إحسانه من إساءة الشيطان، ويمكن إن يقال أن الأنعام تعرف خالقها وتسجد له وتسبح له بحمده وتعقل وإن كان تعقلهم غير مدرك للعوام.

وقد روى الشيخان في الصحيحين عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: «بينما رجل يسوق بقرة إذ عيي فركبها فقالت لم نخلق لهذا إنما خلقنا لحراثة الأرض، فقال الناس: سبحان الله بقرة تكلم، فقال رسول الله ﷺ فإني أومن به وأبو بكر وعمر وما هما ثم، وقال بينما رجل في غنم له إذ عدا الذئب على شاة منها فأخذها فأدركها صاحبها فاستنقذها فقال له الذئب فمن له يوم السبع إذ لا راعي لها غيري، فقال سبحان الله ذئب يتكلم فقال رسول الله ﷺ أومن به أنا وأبو بكر وعمر وما هما ثم»[(١)].

فائدة:

للملائكة روح وعقل وللبهائم نفس وهوى والآدمي مجمع للجميع فإن غلب نفسه وهواه على الروح والعقل كان أضل من البهائم وإن غلب عقله وروحه على النفس والهوى

(١) أخرجه البخاري في كتاب: أحاديث الأنبياء (٣٤٧١) وأخرجه مسلم في كتاب: فضائل الصحابة، باب: من فضائل أبي بكر الصديق رضي الله عنه (٢٣٨٨).

كان أفضل من الملائكة، ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ ألم تنظر إلى صنعه ﴿كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾ كيف بسطه أو المعنى ألم تنظر إلى الظل كيف مده ربك فغير النظم إشعاراً بأن المعقول من هذا الكلام بوضوح برهانه هو دلالة حدوث الظل وتصرفه على الوجه النافع بأسباب ممكنة على أن ذلك فعل للصانع الحكيم كالمشاهد المرئي فكيف بالمحسوس، أو المعنى ألم ينته علمك إلى ربك كيف مد الظل وهو ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس جعله ممدوداً لأنه ظل لا شمس معه كما قال في ظل الجنة ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾﴾[1] أو المراد بالظل ما يقع للجدران والأشجار بعد طلوع الشمس، قال أبو عبيدة الظل ما نسخته الشمس والفيء ما نسخ الشمس فقبل الزوال يسمى ظلاً وبعد الزوال فيئاً لأنه فاء من جانب المشرق إلى جانب المغرب، ويمكن أن يقال أن الظل هو ظلمة الليل تنسخه الشمس بطلوعها ﴿وَلَوْ شَآءَ﴾ ربك ﴿لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا﴾ أي ثابتاً مستقراً من سكن بمعنى قر بأن جعل الليل سرمد إلى يوم القيامة أو غير متقلص من السكون أن يجعل الشمس مقيمة على وضع واحد وجملة ولو شاء إما حال من ربك أو معترضه ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ﴾ أي على الظل ﴿دَلِيلًا﴾ يعني لو لم تكن الشمس لما عرف الظل ظلاً ولولا النور لما عرف الظلمة ظلمة فإن الأشياء تعرف بأضدادها وأيضاً لا يوجد الظل ولا يتفاوت إلا بسبب حركات الشمس وفيه إلتفات من الغيبة إلى التكلم ﴿ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ﴾ أي أزلناه بطلوع الشمس وارتفاعها ووقوع شعاعها موقع الظل لما عبر أحداثه بالمد عبر عن إزالته بالقبض ﴿إِلَيْنَا﴾ أي إلى حيث ما أردناه.

قيل القبض إلى نفسه كناية عن الكف ﴿قَبْضًا يَسِيرًا﴾ سهلاً غير عسير أو قليلاً قليلاً حيثما ترتفع الشمس تنقص الظل وإن كان المراد بالظل ظلمة الليل، فقبضه اليسير وإزالة الظلمة قليلاً قليلاً حين طلوع الفجر تقل الظلمة آنا نآنا حتى تسفر جداً ثم إذا طلعت الشمس تزول الظلمة عن مواضع تقع فيها شعاع الشمس وتقل الظلمة عن مواضع تقع فيها أنوارها مع الحجب على حسب تفاوت الحجب، وثُمَّ في الموضعين لتفاضل أوقات ظهورها شبَّه تباعد ما بينهما في الفضل بتباعد ما بين الحوادث في الوقت، ولي ههنا تأويل آخر وهو أن يراد بالظل عالم الإمكان فإنه ظلٌّ لمرتبة الوجوب موجود بوجود ظلّي في خارج ظلي ويراد بالشمس مراتب صفات الله سبحانه وأسمائه، والمعنى ألم تر إلى صنع ربك كيف أوجد عالم الإمكان ومدَّ الوجود المنبسط على هياكل الماهيات الممكنة

---

(١) سورة الواقعة، الآية: ٣٠.

الذي هو ظل للوجود الحق ﴿وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا﴾ مستقراً على حالة واحدة ولكن لم يشأ ذلك بل جعله محلاً للحوادث مستعداً للتغير والفناء حتى يتضح إمكانه وافتقاره إلى ماهية متأصلة الوجود ذات الوجوب والبقاء قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾ وذلك حين يتجلى على الصوفي أسماء الله تعالى وصفاته وشاهد ببصيرة القلب لوجود الحق فحينئذٍ ظهر له كون عالم الإمكان ظلاً من ظلاله وكان يزعم قبل تلك التجلّيات والمشاهدات أن عالم الإمكان هو الموجود على الحقيقة دون غيره ثم يعني بعد تلك التجليات والمشاهدات قبضناه إلينا يعني اجتبيناه وقربناه قرباً غير متكيف إلينا أي إلى مرتبة الصفات والذات قبضاً يسيراً، قال رسول الله ﷺ حكايةً عن ربه عز وجل: «لا يزال عبدي يتقرب إلّي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببتُه كنت سمعه الّذي يسمع به»(١) الحديث، وقالت الصوفية من استوى يوماه فهو مغبون.

﴿وَهُوَ﴾ يعني ربك ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا﴾ شبه ظلمة الليل باللباس في ستره ﴿وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا﴾ أي راحة للأبد أن يقطع المشاغل، وأصل السبت القطع أو موتاً كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ﴾(٢) ومنه المسبوت للميت ﴿وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا﴾ أي ذا نشور وانتشار ينتشر فيه الناس لاكتساب المنافع الدينية والدنيوية ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ﴾ قرأ ابن كثير الريح على التوحيد إرادةً للجنس والباقون على الجمع ملاحظة للإفراد ﴿بُشْرًا﴾ قرأ الجمهور بضم النون والشين من النشور وابن عامر بضم النون وسكون الشين على التخفيف وأصله ضم الشين جمع ناشرة يعني ناشرات للسحاب، وقرأ حمزة والكسائي بفتح النون على أنه مصدر وصف به، وقرأ عاصم بضم الباء التحتانية وتخفيف الشين تخفيف بشر جمع بشير بمعنى مبشرين ﴿بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾ أي قدام المطر ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا﴾ عطف على أرسل على سبيل الالتفات من الغيبة إلى التكلم، والطهور إما اسم لما يتطهر به كالسحور لما يتسحر به والفطور لما يفطر به كما في قوله صلّى الله عليه وسلم: «إن الصعيد الطيب طهورُ المسلم ما لم يجد الماء ولو إلى عشر حجج»(٣) رواه أحمد وأبو داود والترمذي عن أبي ذر وصححه، وقوله ﷺ: «جعلت لنا

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الرقاق، باب: التواضع (٦٥٠٢).

(٢) سورة الأنعام، الآية: ٦٠.

(٣) أخرجه الترمذي في كتاب: الطهارة، باب: ما جاء في التيمم للجنب إذا لم يجد الماء (١٢٤)، وأخرجه أبو داود في كتاب: الطهارة، باب: الجنب يتيمم (٨٣٣١

الأرض كلها مسجداً وترابها طهوراً»[(١)] وإما مصدر كالقبول ومنه قوله ﷺ: «**طهور إناء أحدكم إذا ولغ فيه الكلب أن يغسل سبع مرات أُولاهن بالتراب**»[(٢)] رواه مسلم، وأبو داود عن أبي هريرة، وإنما وصف الماء به مبالغة وما صفة للمبالغة كالصبور والشكور والقطوع بمعنى الكامل في الطاهرية، قال البغوي ذهب قوم إلى أن الطهور ما يتكرر به التطهير كالصبور اسم لما يتكرر منه الصبر والشكور اسم لما يتكرر منه الشكر وهو قول مالك حتى جوزوا الوضوء بالماء الذي استعمل في الوضوء مرة، قلتُ وهذا ليس بشيء لأن الفعول ليس من التفعيل في شيء وأيضاً لا دلالة فيه على التكرار بل على المبالغة إلا أن يقال الكمال في الطاهرية إما بأن يكون طاهراً في نفسه مطهراً لغيره وقد ثبت كون الماء على هذه الصفة بالنصوص والإجماع والنقل المتواتر وإما بأن كان طاهراً بحيث لا ينجسه شيء وبه قال مالك محتجاً بقوله ﷺ: «**الماء لا ينجسه شيء**»[(٣)] رواه أحمد وابن خزيمة وابن حبان عن ابن عباس، وروى أصحاب السنن الأربعة بلفظ «إن الماء لا يخبث» ورواه الدارقطني عن عائشة والطبراني في الأوسط وأبو يعلى والبزار وأبو علي بن السكن في صحاحه من حديث شريك، وروى أحمد والترمذي وأبو داود والنسائي عن أبي سعيد الخدري قال قيل يا رسول الله أنتوضأ من بئر بضاعة وهي بئر يلقى فيها الحيض ولحوم الكلاب والنتن؟ فقال رسول الله ﷺ: «إن الماء طهور لا ينجسه شيء»، وروى ابن ماجه عن أبي سعيد قوله ﷺ في الحياض تردها السباع والكلاب والحمر «لها ما حملت في بطونها ولنا ماء غير طهور»، فإن قيل هذه الأحاديث متروكة بالإجماع حتى أن مالكاً يقول إن الماء إذا تغير أحد أوصافه يتنجس بوقوع النجاسة فيه، قلنا: إذا تغير أحد أوصاف الماء فهو ليس بماء مطلق وكلامنا في الماء المطلق.

والجواب عن هذا الاحتجاج أن المراد بالماء هاهنا الماء المعهود يعني الماء الكثير المستقر في الحياض وفي بئر بضاعة ونحو ذلك حتى يندفع التعارض بين هذه الأحاديث وأحاديث أُخر تدل على تنجس الماء بوقوع النجاسة فيه وإن لم يتغير أحد أوصافه منها قوله ﷺ: «طهور إناء أحدكم إذا ولغ الكلب فيه أن يغسل سبع مرات أولهن بالتراب» رواه

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الطهارة (٥٢٢).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب: الطهارة، باب: حكم ولوغ الكلب (٢٧٩)، وأخرجه أبو داود في كتاب: الطهارة، باب: الوضوء بسؤر الكلب (٧١).

(٣) أخرجه الترمذي في كتاب: الطهارة، باب: ما جاء أن الماء لا ينجسه شيء (٦٦)، وأخرجه أبو داود في كتاب: الطهارة، باب: ما جاء في بئر بضاعة (٦٧)، وأخرجه النسائي في كتاب: المياه (٣٢٠).

مسلم وأبو دواد، ومنها قوله ﷺ: «لا يبولن أحدكم في الماء الدائم الّذي لا يجري ثم يتوضأ منه»[١] متفق عليه، وهذا لفظ البخاري ومنها قوله ﷺ «إذا استيقظ أحدكم من نومه فلا يدخل يده في الإناء حتى يغسلها ثلاثاً فإن أحدكم لا يدري أين باتت يده»[٢] رواه مالك والشافعي وأحمد والبخاري ومسلم وأصحاب السنن الأربعة عن أبي هريرة، وقد روى نحوهذا الحديث عن رسول الله ﷺ ابن عمر وجابر وعائشة، فحملنا أحاديث تنجس الماء على القليل وأحاديث عدم التنجس على الكثير فاختلف العلماء في حد الكثير؟ فقال الشافعي وأحمد الماء إذا بلغ القلتين (وهي خمسمائة رطل بالبغدادي وبالمساحة ذراع وربع ذراع طولاً وعرضاً وعمقاً) فهو كثير لا يتنجس إلا إذا تغير بالنجاسة طعمه أو لونه أو ريحه وما دونه قليل يتنجس، وقال أبو حنيفة ما لا يصل فيه النجاسة من جانب إلى جانب آخر على أكبر رأي المبتلي به فكثير وإلا فقليل، وقدّره بعض المتأخرين بعشر في عشر وقيل خمسة عشر، في خمسة عشر وقيل إثني عشر في اثني عشر وقيل ثمان في ثمان وقيل سبع في سبع بذراع الكرباس وهي سبع قبضات كل قبضة أربع أصابع، والتقدير غير منقول عن أبي حنيفة ولا عن صاحبه، وجه قول أبي حنيفة أن التقدير لم يرد من جهة الشارع وحديث القلتين ضعيف فيجب تفويضه إلى رأي المبتلي به، واحتج الشافعي وأحمد بحديث القلتين والحق أنه حديث صحيح رواه الشافعي وأحمد والأربعة وابن خزيمة وابن حبان والحاكم والدارقطني والبيهقي من حديث عبد الله بن عبد الله بن عمر بن الخطاب عن أبيه ولفظ أبي داود «سئل رسول الله ﷺ عن الماء وما ينوبه من السباع والدواب؟ فقال رسول الله ﷺ: «إذا كان الماء قلتين لم يحمل الخبث»[٣] ولفظ الحاكم «إذا كان الماء قلتين لم ينجسه شيء» وفي رواية لأبي داود وابن ماجه «فإنه لا ينجس» قال الحاكم صحيح على شرطهما وقد احتجا بجميع رواته، وقال ابن مندة إسناده على شرط مسلم وقد اعترف الطحاوي بصحة الحديث أيضاً. فإن قيل مدار هذا الحديث على

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الوضوء، باب: البول في الماء الدائم (٢٣٦)، وأخرجه مسلم في كتاب الطهارة، باب: النهي عن البول في الماء الدائم (٢٨٢).

(٢) أخرجه مالك في أبواب: الصلاة، باب: غسل اليدين في الوضوء (٩)، وأخرجه البخاري في كتاب: الوضوء، باب: الاستجمار وتراً (١٦٠)، وأخرجه مسلم في كتاب الطهارة، باب: كراهة غسل المتوضئ وغيره يده المشكوك في نجاستها في الإناء قبل غسلها (٢٧٨).

(٣) أخرجه أبو داود في كتاب: الطهارة (٦٧)، وأخرجه الترمذي في كتاب: الطهارة، باب: ما ينجس الماء (٦٣).

الوليد بن كثير فقيل عنه عن محمد بن جعفر بن الزبير، وقيل عنه عن محمد بن عباد بن جعفر تارة عن عبيد الله بن عبد الله بن عمر وتارة عن عبد الله بن عبد الله بن عمر، قلنا: قال الحافظ هذا الإضطراب ليس بقادح فإنه على تقدير كون الجميع محفوظاً إنتقال من ثقة إلى ثقة وعند التحقيق الصواب عن الوليد بن كثير عن محمد بن عباد بن جعفر عن عبد الله بن عبد الله بن عمر المكبر وعن محمد بن جعفر بن الزبير عن عبيد الله بن عبد الله بن عمر المصغر ومن رواه على غير هذا الوجه فقد وهم وقد رواه جماعة عن الوليد بن كثير على الوجهين، قال الدارقطني القولان صحيحان عن الأسامة عن الوليد وله طريق ثالث رواه الحاكم وغيره من طريق حماد بن سلمة عن عاصم بن المنذر عن عبدالله بن عبد الله بن عمر سأل ابن معين عن هذا الطريق فقال إسناده جيد، فإن قيل قد روي لم يحمل خبثاً وقد روي لم ينجسه شيء وقد روي لا يتنجس؟ قلنا هذا مبني على الرواية بالمعنى وهي صحيحة والاضطراب في المتن لا يقال إلا عند التعارض. فإن قيل قد روى بالشك قلتين أو ثلاثاً، روى أحمد عن وكيع والدارقطني عن يزيد بن هارون كلاهما عن حماد بن سلمة عن عاصم بن المنذر عن عبيد الله بن عبد الله بن عمر عن أبيه مرفوعاً «إذا بلغ الماء قلتين أو ثلاثاً لم ينجسه شيء» قلنا: قال ابن الجوزي قد اختلف عن حماد فروى عنه إبراهيم بن الحجاج وهذبه وكامل بن طلحة فقالوا قلتين أو ثلاثاً وروى عنه عقان ويعقوب بن إسحاق الحضرمي وبشر بن السري والعلاء بن عبد الجبار وموسى بن إسماعيل وعبيد الله بن موسى العبسي «إذا كان الماء قلتين» ولم يقولوا ثلاثاً واختلف عن يزيد بن هارون فروى عنه ابن السباح بالشك وروى عنه ابن مسعود بغير شك فوجب العمل على قول من لم يشك، قلت ويمكن أن يقال أن كلمة أوليس للشك بل للترديد والتخبير والمعنى أي المبلغين بلغ الماء لا يتنجس فلا يتنجس إذا بلغ القلتين كما لا يتنجس إذا بلغ ثلاثاً. فان قيل قد روي أربعين قلة رواه الدارقطني وابن عدي والعقيلي عن القاسم بن عبد الله العمري عن محمد بن المنكدر عن جابر بن عبد الله قال قال رسول الله ﷺ: «إذا بلغ الماء أربعين قلة فإنه لا يحمل الخبث» قلنا: قال أحمد المقاسم كان يكذب ويضع الحديث وكذا قال يحيى بن معين وأبو حاتم الرازي وابو زرعة فلا يضطرب بروايته الحديث الصحيح. فإن قيل روى الدارقطني بإسناد صحيح من طريق روح بن القاسم عن محمد بن المنكدر عن ابن عمر موقوفاً إذا بلغ الماء أربعين قلة لم يتنجس، ومن طريق وكيع عن سفيان الثوري عن ابن المنكدر عنه نحوه ومن طريق عبد الرزاق عن معمر عن ابن المنكدر عنه نحوه وقول الراوي على خلاف ما رواه طعن

الحديث، قلنا: أولاً أن مفهوم الشرط ليس بحجة عند أبي حنيفة مطلقاً وكذا عند الشافعي وغيره إذا خرج على طبق السؤال وثانياً بأن القلة لفظ مشترك يطلق على الكوز والجرة أيضاً صغرت أو كبرت فيحمل حديث الأربعين على الصغيرة التي تساوي عشرون منها قلة واحدة كبيرة لدفع التعارض، فإن قيل إذا كان القلة لفظاً مشتركاً بين الجرة والقربة والدلو ورأس الجبل وغير ذلك قال في القاموس القُلَّةُ بالضم أعلى الرأس والسنام والجبل أو كل شيء والجب العظيم والجرة العظيمة أو عامة أو من الفخار والكوز الصغير ضد، والتقييد بقلال هجر لم يثبت في الحديث الصحيح المرفوع وما رواه ابن عدي من حديث ابن عمر رضي الله عنه «إذا بلغ الماء قلتين من قلال هجر لم ينجسه شيء» ففي إسناده صغيرة بن صقلان وهو منكر الحديث فلا بد أن يترك العمل بالحديث ما لم يتبين المراد منه كما هو الحكم في المجمل ومن ثم قال الطحاوي هذا حديث صحيح لكنا تركنا العمل به لعدم علمنا بالقلتين، قلنا: قد ترجح أحد معانيه وهي قلال هجر بوجوه فوجب العمل به لأن رأس الجبل وكذا أعلى الرأس والسنام غير مراد بالإجماع لأن وصول الماء إلى رأس الجبلين في الإرتفاع لا يتصور إلا في البحر المحيط أو عند الطوفان وأعلى الرأس والسنام أيضاً غير مراد للإجماع على أن الماء أقل من ذلك القدر يصير كثيراً فوجب الإنصراف إلى الأواني وبعد الإنصراف إلى الأواني ترجح قلال هجر بوجوه أحدها كثرة إستعمال العرب لفظ القلة لهذا المعنى في أشعارهم كذا قال أبو عبيدة في كتاب الطهور، قال البيهقي قلال هجر كانت مشهورة عندهم ولهذا شبّه رسول الله ﷺ ما رأى ليلة المعراج من سدرة المنتهى فإذا أوراقها مثل إذان الفيلة وإذا نبقها مثل قلال هجر، ثانيها أن قلال هجر أكبرها كذا قال الأزهري فجعل الشارع الحد مقدراً بالعدد يدل على أن المراد بها أكبرها لأنه لا فائدة في تقديرها لقلتين صغيرتين مع القدرة على تقديره بواحدة كبيرة، ثالثها أن الكبيرة إن كانت مرادة مذاك وإن كانت الصغيرة مرادة فعدم تنجس الماء عند البلوغ قدر القلتين الكبيرتين أولى للقطع لوجود الصغيرة في الكبيرة فحملنا القلتين على الكبيرتين إحتياطاً وبه يحصل التيقن والله أعلم، فإن قيل قد ضعَّفَ حديث القلتين الحافظ ابن عبد البر والعاصي إسماعيل بن إسحاق وأبو بكر بن الولي المالكيون، قال ابن عبد البر ما ذهب إليه الشافعي مذهب ضعيف من جهة النظر غير ثابت من جهة الأثر لأنه حديث تكلم فيه جماعة من أهل العلم ولأن القلتين لم يوقف على مبلغهما في أثر ثابت ولا إجماع، قلنا أقوالهم إجمالات للأسئلة المتقدمة ولم يقل أحد بتضعيف واحد من رواته فإنهم رجال الصحيحين فإذا ظهر لك أجوبة الأسئلة اندفع ما قالوا والله أعلم.

مسألة:

لا يجوز الوضوء والغسل بغير الماء من المائعات الطاهرة إجماعاً لقوله تعالى: ﴿فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾[(١)] وهل يجوز التطهير من النجاسة الحقيقية بغير الماء من المائعات الطاهرة أم لا؟ قال الجمهور لا يجوز وقال أبو حنيفة يجوز، احتج البغوي للجمهور بهذه الآية وقال الطهور في الآية بمعنى المطهر لما قال في آية أخرى ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم﴾[(٢)] فثبت أن التطهير مختص بالماء ولو جاز إزالة النجاسة بها لجاز إزالة الحدث بها، وهذا الإستدلال غير صحيح لأن كون الماء مطهراً لا يدل على حصر التطهير فيه كما أن كونه طاهراً لا يدل على حصر الطهارة فيه، والفرق لأبي حنيفة في الأحداث والأنجاس أن الحدث نجاسة حكمية غير مرئية لا يدركه وجوده ولا زواله إلا عن الشرع وزواله باستعمال الماء ثابت بالنص والإجماع وأما باستعمال غير الماء فلم يثبت بنص ولا إجماع ولا يجوز إثباته بالقياس لأن الأصل معدول عن سنن القياس، والنجاسة الحقيقية أمر مرئي وإزالته بالماء معقول لكونه طاهراً مزيلاً فيقاس عليه سائر المائعات لأجل هذا المعنى، قلت لكن يرد عليه إن الماء إذا صب على النجس تنجس بأول الملاقاة فحصول الطهارة بالغسل ثلاثا أو سبعاً أمر تعبدي وبالعصر لا يخرج الماء بجميع أجزائه فكان القياس أن لا يتطهر الثوب ونحوه بالغسل ومن ثم كان في شرائع من قبلنا قطع موضع النجاسة من الثوب ولما كان حصول الطهارة بالغسل ثابتاً بالشرع على خلاف القياس فلا يجوز قياس المائعات على الماء.

مسألة:

الماء كما يتنجس بورود النجاسة عليه يتنجس بوروده على النجاسة عندنا لأن المنجس إنما هو اختلاط النجاسة بالماء ولا فرق في الوجهين، وذكر ابن الجوزي مذهب أحمد أن غسالة النجاسة إذا انفصلت غير متغيره بعد طهارة المحل فهي طاهرة وكذلك البول على الأرض ونحوه إذا كوثر بالماء ولم يتغير الماء يحكم بطهارة الماء والمكان قال وهو قول مالك والشافعي واحتج على ذلك بحديث أنس بن مالك قال: كان رسول الله ﷺ قاعداً في المسجد إذ جاء أعرابي فبال في المسجد فقال رسول الله ﷺ لرجل من القوم

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٦.

(٢) سورة الأنفال، الآية: ١١.

«قم فأتتا بدلو من الماء فصبه عليه»(١) رواه أحمد والبخاري ومسلم في الصحيحين، وروى البخاري عن أبي هريرة نحوه، قلنا: هذا الحديث مخالف للقياس الصحيح فهو محمول على أنه ﷺ أمر بصب الماء بعد نقل التراب من ذلك المكان ورواية بعض الحديث شائع من الصحابة والتابعين وغيرهم. وقد روي ذلك بوجوه منها ما روى الدارقطني من طريق عبد الجبار عن ابن عيينة عن يحيى بن سعيد عن أنس، أن أعرابياً بال في المسجد فقال النبيّ ﷺ «أحفروا مكانه ثم صبوا عليه ذنوباً من ماء» قال الحافظ رجاله ثقات فإن قيل قال الدارقطني وهم عبد الجبار على بن عيينة لأن أصحاب ابن عيينة الحفاظ رووه عنه عن يحيى بن سعيد ولم يذكر والحفر؟ قلنا: عبد الجبار ثقة والزيادة من الثقة مقبولة ومنها ما رواه الدارقطني عن ابن مسعود نحوه وسنده ضعيف لكن أحد من رواته لم يتهم بالكذب، ومنها ما رواه الدارقطني وأبو داود عن عبد الله بن مغفل بن مقرن المزني قال الدارقطني عبد الله بن مغفل تابعي ورواته ثقات غير أن من رواته جرير بن حازم قال الذهبي ثقة إمام تغير قبل موته فحجبه ابنه وهب فما حدث حتى مات قال ابن معين هو في قتادة ضعيف، قُلت: وهذا الحديث ليس من قتادة بل هو عن عبد الملك بن عمير وعبد الملك ثقة مخرج في الصحيحين. فإن قيل قال أحمد هذا حديث منكر قلتُ هذا جرح إجمالي وهو غير مقبول وإنما قال ذلك أحمد لعدم وقوع الحفر في الرواية المشهورة وذا ليس بجرح لأن الزيادة من الثقة مقبولة، ومنها ما أخرج الطحاوي من طريق ابن عيينة عن عمرو بن دنيا عن طاووس وكذا روى سعيد بن منصور عن ابن عيينة أن النبيّ ﷺ قال «احفروا مكانه» وهذا أيضاً مرسل والمرسل عند أبي حنيفة أقوى من المرسل وعند مالك وأحمد دونه لكنه حجة مطلقاً وعند الشافعي لا يقبل المرسل إلا بأحد أمور خمسة أن يسند غيره أو يرسله غيره وعلم أن شيوخهما مختلفة أو يعضده صحابي أو قول أكثر أهل العلم أو يعلم من حاله أنه لا يرسل إلا برواية عن عدل وهاهنا مرسل طاووس صحيح أيده مرسل عبد الله بن مغفل وهو حسن ومسند أنس صحيح أو حسن ومسند ابن مسعود ضعيف. فإن قيل رواية أنس التي في الصحيحين أقوى وأرجح من تلك الروايات؟ قلنا: أولاً أن حديث الصحيحين صحيح من حيث السند ضعيف من حيث المعنى لتعارضه بالأحاديث التي تكاد أن تكون متواترة الدلالة على نجاسة الماء باختلاط النجاسة وثانياً أن الترجيح إنما يعتبر عند التعارض ولا تعارض هاهنا بل ما ذكرنا من

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الأدب، باب: الرفق في الأمر كله (٦٠٢٥)، وأخرجه مسلم في كتاب الطهارة، باب: وجوب غسل البول وغيره من النجاسات إذا حصلت في المسجد (٢٨٤).

الأحاديث ناطق بحفر التراب وحديث أنس ساكت عنه فلا يترك العمل بشيء منها.

مسألة:

الماء المستعمل في إزالة الحدث أو إقامة القربة طاهر عند الجمهور، وروى الحسن عن أبي حنيفة أنه نجس نجاسةً غليظةً وروى أبو يوسف عنه أنه نجس نجاسة خفيفة لمكان الإختلاف وروى محمد عن أبي حنيفة مثل قول الجمهور وبه قال محمد، احتج الحنفية على نجاسة الماء بالنص والقياس أما النص فما رواه مسلم من حديث أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «**لا يغتسل أحدكم في الماء الدائم وهو جنب**»[(١)] وروى أبو داود بلفظ «لا يبولن أحدكم في الماء الدائم ولا يغتسل فيه من الجنابة» والنهي للتحريم يدل على تنجس الماء قلنا لا بل النهي للتنزيه لاحتمال تلوث بدن المجنب من المنى غالباً فهو كالنهي للمستيقظ عن إدخال يده في الإناء لاحتمال كون اليد نجساً بالنجاسة الحقيقية كما يدل عليه قوله ﷺ «فإنه لا يدري أين باتت يده» وأما القياس فقياسهم على ما يزيل النجاسة الحقيقية بجامع الإستعمال في النجاسة، قلنا هذا قياس مع الفارق فإن استعمال الماء في إزالة النجاسة الحقيقية يوجب اختلاط الماء بأجزاء النجاسة وذلك سبب لتنجس الماء ولا اختلاط في إزالة النجاسة الحكمية لأن الحدث أمر حكمي لا يتجزى زوالها فكل ماء وإستعمل في عضو من الأعضاء لا يرفع به الحدث بل استعمال الماء في جميع البدن للمجنب وفي الأعضاء الأربعة كلها للمحدث شرط لزوال الحدث يزول الحدث بعد ذلك فكل جزء من أجزاء ماء الوضوء طاهر فكذا جميعه لأن انضمام ما ليس بنجس إلى ما ليس بنجس لا يوجب التنجس إجماعاً، وأستدلوا على تنجس الماء بإقامة القربة بقوله ﷺ: «من توضأ فأحسن الوضوء خرجت خطاياه من جسده حتى تخرج من تحت أظفاره»[(٢)] متفق عليه عن عثمان، وعن أبي هريرة نحوه رواه مسلم، قالوا هذا الحديث يدل على أن الخطايا تخرج من بدنه مع الماء ولا شك أن الخطايا قاذورات فيتنجس الماء باختلاطها كما يتنجس باختلاط سائر القاذورات وهذا ليس بشيء فإن الخطايا ليست بأجسام ولا أعراض تقوم بالماء وليست مثل النجاسة الحقيقية من كل وجهٍ وليس خروجها من البدن كخروج النجاسة الحقيقية حتى يلزم به تنجس الماء بل هو عبارة عن العفو والمغفرة ولو كانت الخطايا قاذورات لماجازت صلاة العصاة من المؤمنين وهي جائزة إجماعاً بل هي مكفرة للخطايا

(١) أخرجه أبو داود في كتاب: الطهارة، باب: النهي عن اغتسال الجنب في الماء الدائم (٢١٧).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب: الطهارة، باب: خروج الخطايا مع ماء الوضوء (٢٤٥).

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾(١) وقال رسول الله ﷺ: «الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن إذا اجتنب الكبائر»(٢) رواه مسلم عن أبي هريرة وحديث ابن مسعود في رجل أصاب من امرأة قبلة فأخبر النبيّ ﷺ فأنزل الله ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ﴾(٣) الآية متفق عليه، ولنا على طهارة الماء المستعمل أحاديث منها حديث جابر قال: جاء رسول الله ﷺ يعودني وأنا مريض لا أعقل فتوضأ وصبَّ وضوءه عليَّ فعقلتُ وقلتُ يا رسول الله إنما يرثني كلالة فنزلت آية الفرائض»(٤) متفق عليه، ومنها حديث السائب بن يزيد قال: ذهبتُ بي خالتي إلى النبيّ ﷺ فقالت يا رسول الله إن ابن أختي وجع فدعا بالبركة ثم توضأ فشربت عن وضوئه فنظرت إلى خاتم النبوة بين كتفيه مثل ذي الحجلة»(٥) متفق عليه، ومنها حديث المسور بن مخرمة ذكر في صلح الحديبية قال: «فوالله ما تنخم رسول الله ﷺ بنخامة إلا وقع في كف رجل منهم فدلك بها وجهه وصدره وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه»(٦) رواه البخاري.

مسألة:

إزالة النجاسة الحقيقية بالماء المستعمل في إزالة الحدث أو إقامة القربة جائز اتفاقاً إلا عند من يقول بكونه نجساً وهل يجوز به الغسل أو الوضوء؟ إختلفوا فيه فقال محمد الماء المستعمل في إقامة القربة لا يجوز به التوضأ والغسل فهو طاهر غير مطهر، وقال زفر والشافعي المستعمل في إزالة الحدث طاهر غير مطهر، وقال أبو حنيفة كل ماء استعمل في إزالة الحدث أو إقامة القربة لا يجوز به التوضأ والاغتسال فهو طاهر غير

---

(١) سورة هود، الآية: ١١٤.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب: الطهارة، باب: الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن ما اجتنبت الكبائر (٢٣٣).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: مواقيت الصلاة، باب: الصلاة كفارة (٥٢٥)، وأخرجه مسلم في كتاب: التوبة، باب: قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ﴾ (٢٧٦٣).

(٤) أخرجه البخاري في كتاب: الوضوء، باب: صب النبي ﷺ وضوءه على المغمى عليه (١٩٤)، وأخرجه مسلم في كتاب: الفرائض، باب: ميراث الكلالة (١٦١٦).

(٥) أخرجه البخاري في كتاب: الوضوء، باب: استعمال فضل وضوء الناس (١٨٧)، وأخرجه مسلم في كتاب: الفضائل، باب: إثبات خاتم النبوة وصفاته ومحله (٢٣٤٥).

(٦) أخرجه البخاري في كتاب: الشروط، باب: الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط (٢٧٣١).

مطهر، استدلوا على كونه غير مطهر بالنص والقياس أما النص فقوله ﷺ «لا يغتسل أحدكم في الماء الراكد» قالوا هذا نهيء مقتضاه أحد الأمرين إما نجاسة الماء بالإستعمال وإما سلب طهوريته لكن الأول لا يتصور فتعين الثاني قلنا ليس الأمر كذلك بل النهي للتنزيه يقتضي احتمال النجاسة بالنجاسة الحقيقية واحتمال النجس لا يوجب التنجس فإن الطهارة اليقينية لا يزول بالشك وأيضاً كون الماء مطهراً وصف لازم للماء المطلق، وأما القياس فالقياس على مال الزكاة بجامع إقامة القربة وإسقاط الفرض تقريره أن من المعلوم أن إسقاط الفرض وإقامة القربة يوجب في الآلة تدنساً لا يصل إلى التنجس كما في مال الزكاة حيث حرم على الهاشمي ولم يتنجس فكذا يوجب الإستعمال للقربة إسقاط الفرض تدنساً يسلب عنه وصف التطهير ولا يصل إلى التنجس، والجواب أنا لا نسلم أن إقامة القربة أو إسقاط الفرض موجب للتدنس مطلقاً وحرمة مال الزكاة على الهاشمي أمر تعبدي ألا ترى أن الجسد والثوب يتأدى بهما الصلاة ويسقط الفرض ويقام القربة ولا يتدنس منها شيء وكذا الأضحية يسقط بها الواجب ولا يتدنس لحمها حيث أكلها رسول الله ﷺ، وأيضاً كون الماء مطهراً وصف لازم للماء المطلق الطاهر لقوله تعالى: ﴿فَلَمْ تَجِدُوا مَآءً فَتَيَمَّمُوا﴾[1] علّق التيمم بفقد الماء المطلق ولا شك أن الماء المستعمل ماء مطلق فلا يجوز التيمّم مع وجوده فيجب به الوضوء لا محالة، فإن قيل هو ليس بماء مطلق لأن الماء المطلق ما لم يقوم به خبث ولا معنى يمنع جواز التوضيء به للصلاة فخرج الماء المقيد والماء المتنجس والماء المستعمل؟ قلنا: أولاً إنا لا نسلم أن الماء المستعمل قام به معنىً يمنع جواز التوضيء به فهو مصادرة على المطلوب وثانياً أن الماء المطلق ما يطلق عليه اللغوي لفظ الماء بلا تقييد ولا شك أن اللغوي لا يفرق عند إطلاق لفظ الماء بين الماء الطاهر والمتنجس الذي لم يتغير أحد أوصافه والمستعمل في قربة والمستعمل في تبرد ومن ثم قال الزهري إذا ولغ الكلب في إناء أحدكم وليس له وضوء غيره يتوضأ به، وقال سفيان هذا الفقه بعينه يقول الله تعالى: ﴿فلم تجدوا ماء فتيمموا﴾ وهذا ما ذكره البخاري تعليقاً، لكنَّا نقول لمَّا منع الشارع عن استعمال النجاسات وأمرنا الإجتناب عنها حيث قال: ﴿وثيابك فطهر والرجز فاهجر﴾[2] وقال في آية الوضوء: ﴿ولكن يريد ليطهركم﴾[3] وقال عليه السلام «وإذا ولغ الكلب في إناء أحدكم فليرقه ثم ليغسله سبع

---

(١) سورة الماغئدة، الآية: ٦.

(٢) سورة المدثر، الآية: ٤ ـ ٥.

(٣) سورة المائدة، الآية: ٦.

مرات»[١] رواه مسلم عن أبي هريرة، وقال عليه السلام «من «ابتلي منكم بشيء من هذه القاذورات فليستتر بستر الله»[٢] وقال الله تعالى: ﴿يحل لكم الطيبات ويحرم عليكم الخبائث﴾[٣] فمن كان قادراً على الماء المتنجس فهو غير واجد للماء حكماً لكونه ممنوعاً عن استعماله شرعاً كالقاعد على شفير البئر من غير دلو ونحوه ممنوع عن استعمال الماء طبعاً فإن الطبع يمنعه عن السقوط في البئر وكذا المريض الواجد للماء ممنوع عن استعماله طبعاً وشرعاً فإن الممنوع شرعاً كالممنوع طبعاً، وأما الماء المستعمل فليس بواجب الاجتناب عنه شرعاً لكونه طاهراً فواجده واجد للماء حقيقةً وحكماً فلا يجوز له التيمم ويجب عليه الوضوء فثبت أن كون الماء مطهراً لازم لكونه طاهراً.

مسألة:

إذا وقع في الماء شيء طاهر فإن لم يتغير به أحد أوصافه ولم يزد على الماء أجزاءً جاز به الوضوء إجماعاً، وإن تغير به أحد أوصافه أو اكثر فإن كان الاحتراز عنه متعذراً كالطين والأوراق في الخريف جاز به الوضوء إجماعاً ما لم يخرجه عن طبع الماء أي رقته كما إذا تغير الماء بطول المكث وإن لم يكن الإحتراز عنه متعذراً كالخل والزعفران والأشنان، فإن تغير به أحد أوصاف الماء لا يجوز به الوضوء عند الشافعي لأنه ماء مقيد والوظيفة عند فقد الماء المطلق التيمم، وعند أبي حنيفة رحمه الله يجوز به الوضوء إلا إذا اختلط الماء جامدٌ أزال رقته أو غيّر أكثر أوصافه من الطعم أو اللون أو الريح كالأنبذة أو مائع غلب عليه بالأجزاء أو غيّر أكثر أوصافه أو طبخ في الماء غيره فغيّره كالمرق وماء الباقلاء إلا ما يقصد به النظافة والسدر والأشنان ولا بأس لو تغير الماء باختلاط الطاهر تغيراً يسيراً لما دوي ابن خزيمة والنسائي من حديث أم هانىء أن رسول الله ﷺ اغتسل هو وميمونة في قصعة فيها أثر العجين[٤].

وما روى البخاري عن أم عطية الأنصارية قالت: دخل علينا رسول الله ﷺ حين

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الطهارة، باب: حكم ولوغ الكلب (٢٧٩)، وأخرجه النسائي في كتاب: المياه، باب: سؤر الكلب (٣٣٠).

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك والبيهقي في السنن ورمز السيوطي لصحته. انظر الجامع الصغير (١٧٥).

(٣) الآية هي: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ﴾ سورة الأعراف، الآية: ١٥٧.

(٤) أخرجه النسائي في كتاب: الطهارة، باب: ذكر الاغتسال في القصعة التي يعجن فيها (٢٣٧).

توفيت ابنته فقال «اغسلنها ثلاثاً أو خمساً أو أكثر من ذلك إن رأيتن ذلك بماء وسدر واجعلن في الآخرة كافوراً أو شيئاً من كافور»[١]. وما رواه البزار من حديث أبي هريرة أن ثمامة بن أثال أسلم فأمره النبيّ ﷺ أن يغتسل بماء وسدر، وحديث قيس بن عاصم أنه أسلم فأمره النبيّ ﷺ أن يغتسل بماء وسدر ﴿لنحيى به﴾ أي بالماء ﴿بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ ذكر ميتاً لأن البلدة بمعنى البلد، أو بتأويل المكان أو لأن تأنينه غير حقيقي أو لأنه غير جار على الفعل كسائر أبنية المبالغة فأجري مجرى الجامد ﴿وَنُسْقِيَهُۥ﴾ سقى وأسقى لغتان بمعنى واحد ﴿مما خلقنا أنعاماً وأناسي كثيراً﴾ يعني أهل البوادي الذين يعيشون بالمطر ولذلك نكر الأنعام والأناسيَّ وتخصيصهم لأن أهل المدن والقرى يقيمون بقرب الأنهار والآبار والمنابع فيستغنون لأنفسهم ولأنعامهم عن سقي السماء، ولأن سياق الآية لتعداد النعم على الإنسان وعامة منافعهم وغالب معايشهم منوط بالأنعام ولذلك قدم سقيها على سقيهم كما قدم عليها إحياء الأرض فإنه سبب لحياتها وتعيشها، وأناسيّ جمع إنسي أو جمع إنسان كظرابي جمع ظربان على أن أصله أناسين كبساتين جمع بستان فقلبت النون ياء ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ﴾ يعني المطر ﴿بَيْنَهُمْ﴾ مرةً ببلد ومرةً ببلد آخر، قال البغوي قال ابن عباس ما من عام بأمطر من عام ولكن الله يصرفه في الأرض وقرأ هذه الآية، وروي مرفوعاً «ما من ساعة من ليل ولا نهار إلا السماء يمطر فيها يصرفه الله حيث يشاء»، وذكر ابن إسحاق وابن جرع ومقاتل وبلغوا ابن مسعود يرفعه قال «ليس من سنة بأمطر من أخرى ولكن الله قسم هذه الأرزاق فجعلها في السماء الدنيا في هذا القطر ينزل منه كل سنة بكيل معلوم ووزن معلوم وإذا عمل قوم بالمعاصي حول الله ذلك إلى غيرهم فإذا عصوا جميعاً صرف ذلك إلى الفيافي والبحار»، وقيل المراد بتصريف المطر تصريفه وابلاً وطلاً ورذاذاً ونحوها وقيل المراد تصريفه في الأنهار أو في المنابع وقيل التصريف راجع إلى القول يعني صرفنا هذا القول بين الناس في القرآن وسائر الكتب ﴿لِيَذَّكَّرُوا۟﴾ أي ليتفكروا ويعرفوا كمال القدرة وحق النعمة في ذلك ويقوموا بشكره أو ليعتبروا بالصرف عنهم وإليهم ﴿فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ أي إلا كفران النعمة إذا مطروا قالوا مطرنا بنوء كذا عن زيد بن خالد الجهني رضي الله عنه قال: «صلّى لنا رسول الله ﷺ الصبح بالحديبية في أثرة سماء كانت بالليل فلمّا انصرف أقبل على النّاس فقال هل تدرون ماذا قال ربكم؟ قالوا الله ورسوله أعلم، قال قال: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر فأما من قال مطرنا بفضل الله

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الجنائز، باب: غسل الميت ووضوءه بالماء والسدر (١٢٥٣).

ورحمته فذلك مؤمن بي وكافر بالكواكب وأما من قال مطرنا بنوء كذا فذلك كافر بي ومؤمن بالكواكب»[١] متفق عليه.

﴿وَلَوْ شِئْنَا﴾ بعث الرسول في كل قرية ﴿لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا﴾ نبيّاً ينذر أهلها فيخف عليك أعياء التبليغ ولكن بعثناك إلى الناس كافةً إجلالاً لك وتعظيماً لشأنك وتفضيلاً لك على سائر الرسل ﴿فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ﴾ فيما يدعونك إليه من موافقتهم ومداهنتهم ولكن اشكر إنعامنا عليك بالرسالة العامة فاثبت على ما أنت عليه من الدعوة وإظهار الحق ﴿وَجَاهِدْهُم بِهِ﴾ أي بالله يعني بعونه وتوفيقه أو بالقرآن أو بترك طاعتهم الّذي يدل عليه فلا تطع، والمعنى أنهم يجتهدون في إبطال الحق فقابلهم بالإجتهاد في مخالفتهم وإحقاق الحق ﴿جهاداً كبيراً﴾ شديداً بالقلب واللسان والسيف والسنان ﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ﴾ أي خلاهما متجاورين متلاصقين يقال هرجت الدابة وأمرجتها إذا أرسلتها في المرعى وخلّيتها تذهب حيث تشاء عطف على قوله ﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ﴾ وما بينهما معترضات ﴿هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ﴾ قامع للعطش من فرط عذوبته ﴿وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ أي حر شديد الملوحة من تأجج النار إذا تلهب فإنه يريد في العطش هذان الجملتان بتقدير القول حال من البحرين أو صفة له على طريقة ولقد أمرُّ على اللئيم يسبني، أو بحذف الموصول مع الصلة والتقدير مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ اللذين يقال في شأنهما هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج ﴿وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا﴾ عطف على مرج يعني جعل بينهما بقدرته ﴿بَرْزَخًا﴾ حاجزاً مانعاً لاختلاط بعضها ببعض ﴿وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ أي ستراً ممنوعاً فلا يبغيان ولا يفسد الملح العذب، قال البيضاوي وذلك كدخيلة تدخل البحر فتشقه فتجري في خلاله فراسخ لا يتغير طعمها، وقيل المراد بالبحر العذب النهر العظيم مثل النيل وبالبحر الملح البحر الكبير وبالبرزخ ما يحول بينهما من الأرض فيكون القدرة في الفصل واختلاف الصفة مع أن مقتضى طبيعة أجزاء كل عنصر أن تضامت وتلاصقت وتشابهت في الكيفية ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ﴾ أي من النطفة ﴿بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا﴾ أي قسمه قسمين ذوي نسب أي ذكوراً ينسب إليهم وذوات مهر أي إناثاً يصاهر بهن فهو كقوله تعالى: ﴿وجعل منه الزوجين الذكر والأنثى﴾[٢] وقيل ﴿جعله نسبا وصهراً﴾ أي ذا نسب منسوب إلى الآباء ذكراً كان أو

(١) أخرجه البخاري في كتاب: صفة الصلاة، باب: يستقبل الإمام الناس إذا سلم (٨٤٦)، وأخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: بيان كفر من قال مطرنا بالنوء (٧١).

(٢) سورة القيامة، الآية: ٣٩.

أنثى وذا مهر بأن يتزوج ذكراً أو أنثى ﴿وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾ أي قادراً على ما يشاء حيث خلق من مادة واحدة بشراً ذا أعضاء مختلفة وطباع متباعدة وجعله قسمين متقابلين وربما يخلق من نطفة واحدة توأمين ذكراً وأنثى ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ﴾ ان عبدوه عطف على الجملة السابقة أو حال بتقدير المبتدأ يعني وهم يعبدون ما لا ينفعهم ﴿وَلَا يَضُرُّهُمْ﴾ أن هجروه ﴿وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا﴾ أي معيناً للشيطان على ربه بالمعاصي، وقيل معناه كان الكافر على ربه هيّناً ذليلاً يقال جعلني ظهيراً أي ذليلاً من ظهرت الشيء إذا جعلته خلف ظهرك ولم تلتفت إليه ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا﴾ للمؤمنين بالجنة ﴿وَنَذِيرًا﴾ للكافرين من النار جملة معترضة ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ أي على تبليغ الرسالة يدل عليه قوله ﴿مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ ﴿مِنْ أَجْرٍ﴾ حتى يشق عليكم اتباعي خوف الغرامة جملة مستأنفة ﴿إِلَّا﴾ فعل ﴿مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ ليتقرب إليه ويطلب الزلفى عنده جعل طاعة الرسول في امتثال أوامر الله والإنتهاء عن مناهيه أجراً على الرسالة من حيث أنه مقصود منه واستثناه من الأجر المنفي سؤاله قلعاً لشبهة الطمع وإظهاراً لغاية الشفعة حيث جعل ما ينفعهم أجراً لنفسه وافياً مرضيّاً به مقصوداً عليه، وإشعاراً بأن طاعتهم يعود عليه بالثواب من حيث أنها بدلالته قال رسول الله ﷺ: «الدال على الخير كفاعله»[(١)] رواه البزار عن ابن مسعود والطبراني عن سهل بن سعد، وعن أبي مسعود ورواه أحمد وأصحاب الكتب الستة والضياء بزيادة «والله يحب إغاثة اللهفان» عن بريدة وابن أبي الدنيا في قضاء الحوائج عن أنس نحوه، وقال رسول الله ﷺ: «من سنَّ في الإسلام سنةً حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها من غير أن ينقص من أجورهم شيء»[(٢)] رواه مسلم في حديث طويل عن جرير، وقيل هذا إستثناء منقطع ولكن من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلاً بالإنفاق من ماله في سبيله فليتخذ يعني لا أسألكم لنفسي أجراً ولكن لا منع من إنفاق المال في سبيل الله وطلب مرضاته واتخاذ السبيل إلى جنته، ولعل الله سبحانه دفعاً لتهمة سؤال الأجر في الأمر بأداء الزكاة وغيرها من الصدقات حرَّم الصدقات على نبيه وأهل بيته.

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: العلم، باب: ما جاء الدال على الخير كفاعله (٢٦٧٠).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب: الزكاة، باب: التحريض على الصدقة ولو بشق تمرة أو كلمة طيبة وأنها حجاب من النار (١٠١٧).

مسألة:

يستنبط من هذه الآية أنه لا يجوز الاستئجار للطاعة كتعليم القرآن والأذان والإمامة ونحو ذلك وقوله إلى ربه أي إلى ثواب ربه حال من سبيلاً وهو مفعول ليتخذ ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ في دفع شرهم أو الاستغناء عن أجورهم فإنه الحقيق بأن يتوكل عليه دون الأحياء الذين يموتون فإنهم إذا ماتوا ضاع من توكّل عليهم عطف على قل لا أسألكم ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ﴾ ونزّهه عن صفات النقصان مثنياً عليه بصفات الكمال طالباً لمزيد الإنعام فقل سبحان الله وبحمده.

وقيل معناه صل لله شكراً على نعمه ﴿وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا﴾ أي عالماً فيجازيهم بها جملة كفى به حال من الحي ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ لعل ذكره زيادة تقرير لكونه حقيقاً بأن يتوكل عليه من حيث أنه الخالق للكل والمتصرف، وفيه إشارة إلى الثبات والتأني في الأمور، فإنه تعالى مع كمال قدرته وسرعة نفاذ أمره في كل مراد خلق الأشياء على تؤدة وتدرج، الموصول مبتدأ وخبره ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ أو الموصول صفة للحي أو منصوب على المدح بتقدير أعني أو أمدح والرحمن خبر مبتدأ محذوف أي هو الرحمن أو بدل من فاعل استوى ﴿فاسأل به﴾ أي بما ذكر من الخلق والإستواء ﴿خَبِيرًا﴾ أي عالماً يخبرك بحقيقته كذا قال الكلبي والخبير هو الله أو جبرئيل أو من قرأ في الكتب المتقدمة ليصدقك فيه.

وقيل الضمير للرحمن والمعنى إن أنكروا إطلاقة على الله فسأل عنه من يخبرك من أهل الكتاب ليعرفوا مجيء ما يرادفه في كتبهم وعلى هذا يجوز أن يكون مبتدأ والخبر ما بعده والسؤال كما يعدى بعن يعدى بالباء وقيل معناه فسأل إليها الإنسان بالرحمان خبيراً يخبرك بصفاته ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ﴾ عطف على قوله الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش الرحمٰن أو على جملة هو الرحمٰن ﴿ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا الرحمن﴾ لأنهم ما كانوا يطلقونه على الله وكانوا يقولون لا نعرف الرحمن إلا رحمن اليمامة يعنون مسيلمة الكذاب يسمونه رحمن لليمامة ﴿أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا﴾ أنت يا محمد كذا قرأ الجمهور بصيغة المخاطب خطاباً للنبي ﷺ وقرأ حمزة والكسائي ﴿لما يأمرنا﴾ بصيغة الغائب يعنون لما يأمرنا محمد ﷺ ﴿وزادهم﴾ عطف على قالوا يعني وزادهم الأمر بالسجود للرحمن ﴿نُفُورًا﴾ عن الإيمان.

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى

جَعَلَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ خِلۡفَةٗ لِّمَنۡ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوۡ أَرَادَ شُكُورٗا ﴿٦٢﴾ وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ
ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ
لِرَبِّهِمۡ سُجَّدٗا وَقِيَٰمٗا ﴿٦٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصۡرِفۡ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَۖ إِنَّ عَذَابَهَا
كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا ﴿٦٦﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ
وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا ﴿٦٧﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ
ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامٗا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ
يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَيَخۡلُدۡ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلٗا صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ
يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَإِنَّهُۥ
يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابٗا ﴿٧١﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَشۡهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغۡوِ مَرُّواْ كِرَامٗا ﴿٧٢﴾
وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ لَمۡ يَخِرُّواْ عَلَيۡهَا صُمّٗا وَعُمۡيَانٗا ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا
هَبۡ لَنَا مِنۡ أَزۡوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعۡيُنٖ وَٱجۡعَلۡنَا لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ
يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوۡنَ فِيهَا تَحِيَّةٗ وَسَلَٰمًا ﴿٧٥﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ حَسُنَتۡ
مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا ﴿٧٦﴾ قُلۡ مَا يَعۡبَؤُاْ بِكُمۡ رَبِّي لَوۡلَا دُعَآؤُكُمۡۖ فَقَدۡ كَذَّبۡتُمۡ فَسَوۡفَ يَكُونُ
لِزَامَۢا ﴿٧٧﴾﴾.

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي جَعَلَ فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجٗا﴾ قال الحسن ومجاهد وقتادة البروج هي النجوم الكبار سميت بروجاً لظهورها، وقال عطية العوفي بروجاً قصوراً فيها الحرس ﴿وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجٗا﴾ يعني الشمس لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلشَّمۡسَ سِرَاجٗا﴾[1] قرأ حمزة والكسائي سُرُجاً على الجمع وهي الشمس وسائر الكواكب سوى القمر فإنه ليس بسراج لأن السراج ما يضيء بنفسه والقمر نوره مستفاد من نور الشمس كما يدل عليه كماله ونقصانه على حسب مقابلة الشمس ويدل عليه العطف بقوله ﴿وَقَمَرٗا مُّنِيرٗا﴾ مضيئاً بالليل ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ خِلۡفَةٗ﴾ أي ذوي خلفة يخلف كل واحد منهما الآخر بأن يقوم **أحدهما** مقام صاحبه فمن فاته عمله في أحدهما قضاه في الآخر قال البغوي جاء رجل إلى عمر بن الخطاب قال فاتتني صلاة الليلة قال أدرك ما فاتك من ليلك في نهارك قال الله تعالى: ﴿جَعَلَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ خِلۡفَةٗ لِّمَنۡ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ﴾ وقال مجاهد يعني كل واحد منهما مخالف للآخر هذا

(١) سورة نوح، الآية: ١٦.

أسود وهذا أبيض ﴿لِمَنْ أَرَادَ﴾ متعلق بجعل ﴿أَن يَذَّكَّرَ﴾ قرأ حمزة والكسائي بتخفيف الذال والكاف وضمها مع سكون الذال من المجرد أي يذْكر الله سبحانه والباقون بتشديد الذال والكاف وفتحهما من التفعل بإدغام التاء في الذال يعني لمن أراد أن يتذكر آلاء الله ويتفكر في صنعه فيعلم أنه لا بد له من صانع حكيم واجب لذاته رحيم على العباد، أو المعنى أراد أن يذكر ما فاته في أحد الملوين من خير يفعله في الآخرة ﴿أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ أي شكر نعمة ربه عليه يعني أن خلق الليل والنهار وما أظلم عليه الليل وأشرق عليه النهار وما فيها من المنافع لأجل أن يتذكر فيهما المتذكرون ويشكر على نعمائه الشاكرون فمن خلا وقته عن الذكر والشكر والتذكر والتفكر فقد ضاع وقته وهلك رأس ماله، ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ﴾ مبتدأ خبره ﴿أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ﴾ أضاف إلى نفسه تشريفاً لهم وإظهاراً لفضلهم أو لأنهم موصوفون بكمال الرحمة على الخلق وموعودون بكمال رحمة الله عليهم ﴿الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ هينين أو مشياً هيّناً مصدر وصف به والمعنى أنهم يمشون على الأرض بالسكينة والوقار متواضعين غير أشرين ولا متكبرين.

والهون في اللغة الرفق واللين وفي القاموس الهون الوقار ومنه قوله ﷺ «المؤمن هين لين حتى تخاله من اللين أحمق» رواه البيهقي بسند ضعيف عن أبي هريرة ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ﴾ عطف على يمشون يعني إذا خاطبهم السفهاء بما يكرهون ﴿قَالُوا سَلَامًا﴾ قال مجاهد يعني سداداً من القول ما يسلمون فيه من الإيذاء والإثم كذا قال مقاتل بن حبان، قال الحسن لو جهل عليهم جاهل حملوا ولم يجهلوا وروى عن الحسن معناه سلموا عليهم دليله قوله عزَّ وجلَّ ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾[1] قال الكلبي وأبو العالية هذا قبل أن يؤمر بالقتال ثم نسختها آية القتال والحق أن الآية محكمة غير منسوخة فإنما الأمر بالقتال إنما هو لإعلاء كلمة الله حقا لله سبحانه وهو منتهٍ بقول لا إله إلا الله أو إعطاء الجزية قال رسول الله ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله»[2] الحديث متفق عليه عن ابن عمر، قال الله سبحانه ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ إلى قوله ﴿حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾[3]، وهذا بيان لحال المؤمنين في مقابلة السفهاء وإعراضهم عن انتقامهم

---

(١) سورة القصص، الآية: ٥٥.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الزكاة، باب: وجوب الزكاة (١٣٩٩)، وأخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله محمد رسول الله (٢٠).

(٣) سورة التوبة، الآية: ٢٩.

وعدم مؤاخذتهم لأجل أنفسهم، عن أبي هريرة أن رجلاً قال يا رسول الله: «إن لي قرابة أصلهم ويقطعوني وأحسن إليهم ويسيئون إليّ وأحلم عنهم ويجهلون عليّ فقال: لئن كنت كما قلت فكأنما تسفهم المل ولا يزال معك من الله ظهير ما دمتَ على ذلك»[١] رواه مسلم، روى عن الحسن البصري أنه إذا قرأ هذه الآية قال هذا وصف نهارهم ثم قرأ ﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ﴿٦٤﴾﴾ فقال هذا وصف ليلهم وخص البيتوتة لأن العبادة بالليل أشق وأبعد من الرياء وأوفق للقلب باللسان ولأن النهار خص لنوع آخر من العبادة وهو أنهم يجاهدون في سبيل الله لا يخافون في الله لومة لائم ويصاحبون خيار الناس للتعليم والتعلم والإرشاد والإسترشاد، قوله لربهم متعلق بسجّداً وهو جمع ساجد وقياماً جمع قائم أو مصدر أجرى مجراه وتأخير القيام المروي عن ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ: «أشراف أمتي حملة القرآن وأصحاب الليل» رواه البيهقي في شعب الإيمان، وعن أبي هريرة قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أفضل الصلاة بعد المفروضة صلاة في جوف الليل» رواه أحمد، وعن أبي أمامة قال قال رسول الله ﷺ «عليكم بقيام الليل فإنه دأب الصالحين قبلكم وهو قربة إلى ربكم ومكفرة للسيئات ومنهاة عن الإثم»[٢] رواه الترمذي، وعن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة يضحك الله إليهم الرجل إذا قام بالليل يصلي والقوم إذا صفوا في الصلاة والقوم إذا صفوا في قتال العدو»[٣] رواه البغوي في شرح السنة، قال البغوي قال ابن عباس من صلّى بعد العشاء الآخرة ركعتين أو أكثر فقد بات لله ساجداً أو قائماً، وعن عثمان بن عفان قال قال رسول الله ﷺ: «من صلّى العشاء في جماعة كان كقيام نصف ليلة ومن صلّى الفجر في جماعة كان كقيام ليلة»[٤] رواه أحمد ومسلم في الصحيح. ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ﴾ يعني أنهم مع حسن معاشرتهم مع الخلق واجتهادهم في عبادة الحق خائفون من عذاب الله مبتهلون إلى الله في صرفه عنهم لعدم إعتذارهم بأعمالهم وعدم وثوقهم على استمرار حالهم، عن علي رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «إن الله تبارك وتعالى

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب: البر والصلة والآداب، باب: صلة الرحم وتحريم قطيعتها (٢٥٥٨).

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: الدعوات، باب: في دعاء النبي ﷺ (٣٥٤٩).

(٣) رواه أحمد وأبو يعلى بسند صحيح.
انظر: الجامع الصغير (٣٥٥).

(٤) أخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب: في فضل صلاة الجماعة (٥٥٤)، وأخرجه الترمذي في كتاب: الصلاة، باب: ما جاء في فضل العشاء والفجر في الجماعة (٢٢٠).

أوحى إلى نبي من أنبياء بني إسرائيل قل لأهل طاعتي من أمتك أن لا يتكلوا على أعمالهم فإني لا أناصب عند الحساب يوم القيامة أشاء أن أعذبه إلا عذبته وقل لأهل معصيتي من أمتك لا يلقوا بأيديهم فإني أغفر الذنوب العظيمة ولا أبالي» رواه أبو نعيم ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ أي لازماً ومنه الغريم للملازمة، وقال البغوي الغرام أشد اللازم، وقيل غراماً يعني هلاكا، وقيل الغرام ما يصيب الإنسان من شدة ومصيبة، قال محمد بن كعب القرظي سأل الله الكفار عن شكر نعمه فلم يؤدوا فأغرمهم الله فبقوا في النار، قال الحسن كل غريم يفارق غريمه إلا جهنم ﴿إِنَّهَا﴾ يعني جهنم ﴿سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ ساءت فعل ذم بمعنى بئست وفيها ضمير مبهم يفسره الضمير والمخصوص بالذم ضمير محذوف أي هي به يرتبط باسم إن ومستقراً حال أو تمييز والجملة تعليل للجملة الأولى أو تعليل ثان وكلاهما يحتملان الحكاية والإبتداء من الله، وجاز أن يكون ساءت من الأفعال المتصرفة من ساء يسوء سوءاً ومساءة بمعنى مضاد لحسنت ويؤيد هذا المعنى قوله تعالى في وصف الجنة ﴿حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾[1] وعلى هذا في ساءت وضمير مستتر راجع إلى اسم إن مستقراً حال أو تمييز عن النسبة بمعنى ساء الإستقرار والإقامة فيها ﴿وَالَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا﴾ قرأ ابن كثير وأهل البصرة يقتروا بفتح الياء وكسر التاء وقرأ أهل المدينة وابن عامر بضم الياء وكسر التاء وقرأ الآخرون بفتح الياء وضم التاء وكلها لغات يقال اقتر يقتر وقتّر بالتشديد وقتر يقتر ويقتر على وزن ينصر ويضرب، والإسراف الإنفاق في معصية الله وإن قلّت والإقتار منع حق الله تعالى وهو قول ابن عباس ومجاهد وقتادة وابن جريج وبه قال الحسن في هذه الآية أن معناه لم ينفقوا في معاصي الله ولم يمسكوا عن فرائض الله، وقال قوم الإسراف مجاوزة الحد في الإنفاق حتى يدخل في حد التبذير، والإقتار التقتير عما لا بد منه هذا معنى قول إبراهيم لا يجيعهم ولا يعريهم ولا ينفق نفقة يقول الناس قد أسرف، قلتُ وهذا القول راجع إلى القول الأول بل هو أخص منه فإنه مجاوزة الحد المشروع في الإنفاق المباح حتى دخل في حد التبذير وذلك حرام معصية حيث قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴿٢٧﴾﴾[2] وإنفاق من وجب نفقته عليه بحيث لا يجيعهم ولا يعريهم فريضة والإمساك عنه إمساك عن فريضة الله ﴿وَكَانَ﴾ أي الإنفاق ﴿بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ أي بين الإسراف والإقتار ﴿قَوَامًا﴾ قصداً وسطاً حسنة بين السيئتين سمى الوسط قواماً لاستقامة الطرفين كما سمى سواء لاستوائهما

(١) سورة الفرقان، الآية: ٧٦.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٢٧.

وهو خبر ثان أو حال مؤكدة وجاز أن يكون خبراً لكان وبين ذلك ظرفاً لغوا، وقيل إنه اسم كان مبني لإضافته إلى غير متمكن وهو ضعيف لأنه بمعنى القوام فيكون كالإخبار بالشيء عن نفسه، أخرج الشيخان في الصحيحين عن ابن مسعود قال سألت رسول الله ﷺ: أي الذنب أعظم؟ قال «أن تجعل لله نداً وهو خلقك، قلت ثم أي؟ قال أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك» قلت ثم أي؟ قال أن تزاني حليلة جارك»[1] فأنزل الله تصديقها ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ متعلق بمحذوف أي لا يقتلون قتلاً إلا قتلاً بالحق أو متعلق بلا يقتلون أي لا يقتلون بسبب إلا بالحق يعني بقود أو رجم أو نحو ذلك ﴿وَلَا يَزْنُونَ﴾ نفى عنهم أمهات المعاصي بعدما أثبت لهم أصول الطاعات إظهاراً لكمال إيمانهم وإشعاراً بأن الأجر موعود للجامع بين ذلك وتعريضاً للكفرة من الإتصاف بأضدادها كأنه قال والذين ظهرهم الله عما أنتم عليه من الشرور والسيئات ولذلك عقبه بالوعيد تهديداً لهم فقال ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾ أي أشياء من هذه الأمور ﴿يَلْقَ أَثَامًا﴾ يعني جزاء إثم كذا قال ابن عباس، وقال أبو عبيدة الآثام العقوبة، وقال مجاهد الآثام واد في جهنم، قال البغوي يروى ذلك عن عبد الله بن عمرو بن العاص ويروى في الحديث الغيُّ والآثامُ بئران يسيل فيهما صديد أهل النار، قلت: أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عمر في هذه الآية قال واد في جهنم وأخرج هناد عن سفيان مثله وأخرج ابن جرير والطبراني والبيهقي قال قال رسول الله ﷺ: «لو أن صخرة زنة عشر أواق قذف بها من شفير جهنم ما بلغت سبعين خريفاً ثم تنتهي إلى غي وأثام قلتُ وما غي وأثام قال نهران في أسفل جهنم يسيل فيهما صديد أهل النار» وهما اللذان ذكرهما الله تعالى في كتابه ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا، يُضَاعَفْ﴾ قرأ ابن كثير وابن عامر يضعف من التفعيل والباقون من المفاعلة ﴿لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ لانضمام المعصية إلى الكفر ﴿وَيَخْلُدْ﴾ قرأ ابن عامر وأبو بكر يضاعف ويخلد بالرفع على الاستئناف أو الحال والباقون بجزمهما بدلاً من يلق ﴿فِيهِ﴾ قرأ ابن كثير على أصله وحفص هاهنا خاصة بصلة الضمير المجرور مبالغة في الوعيد والباقون على ما هو الأصل في الضمير المجرور إذا سكن ما قبله باختلاس كسرتها ﴿مُهَانًا﴾ أي ذليلاً حال، أخرج الشيخان عن ابن عباس أن ناساً من أهل الشرك قتلوا فأكثروا وزنوا فأكثروا ثم أتوا

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الأدب، باب: قتل الولد خشية أن يأكل معه (٦٠٠١)، وأخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: كون الشرك أقبح الذنوب وبيان أعظمها بعده (٨٦).

محمداً ﷺ فقالوا إن الّذي تقول وتدعو إليه لحسن لو تخبرنا أن لعملنا كفارة فنزلت ﴿والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاماً يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهاناً﴾ ﴿إِلَّا مَن تَابَ﴾ عن الشرك ﴿وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ إلى قوله تعالى: ﴿غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ ونزلت ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾[1] الآية، قال ابن عباس إلاَّ من تاب من ذنبه ﴿وآمن بربه وعمل عملاً صالحاً﴾ فيما بينه وبين ربه، وأخرج البخاري وغيره، عن ابن عباس قال لما أنزل في الفرقان ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى﴾ الآية قال مشركو مكة قد قتلنا النفس بغير الحق ودعونا مع الله إلهاً آخر وأتينا الفواحش فنزلت ﴿إِلَّا مَن تَابَ﴾[2] وقال البغوي أخبرنا عن ابن عباس قال قرأنا على عهد رسول الله ﷺ سنتين ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ الآية ثم نزلت ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ﴾ فما رأيت النبيّ ﷺ فرح بشيء وفرحه بها فرحه ﴿إنا فتحنا لك فتحا مبينا ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر﴾ فإن قيل: لا يجوز الاستثناء مفصولاً فكيف يقال بنزوله بعد سنتين؟ قلنا: نزلت هذه الآية أول مرة بغير الاستثناء ثم نزلت تلك الآيات مع الاستثناء فهذه الآية ناسخة الأولى في المقدار المستثنى. فإن قيل تقرر في الأصول أن محل النسخ الأحكام دون الاخبار وهذه الآية إخبار فكيف يمكن نسخه؟ قلنا: عدم جواز النسخ في الاخبار لعدم إحتمال التخلف فيها كيلا يلزم الكذب وآية الوعيد يجوز نسخه لأنه أنشىء للوعيد يحتمل التخلف فيه تفضلاً ومغفرة، هذه الآية تدل على أن الاستثناء من الإثبات نفي وبالعكس كما يدل على ذلك الاستثناء المفرغ وليس كما قالوا إن المستثنى في حكم المسكوت عنه والاستثناء تكلم بالباقي بعد الثنيا إذ لو كان كذلك لما جاز نسخ المنطوق بالمسكوت، وقوله عملاً صالحاً منصوب على المفعولية أو المصدر به ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ﴾ فذهب جماعة إلى أن المراد أن يمحو الله سوابق معاصيهم بالتوبة ويثبت مكانها لواحق طاعتهم أو يبدل الله في الدنيا ملكة المعصية في النفس بملكة الطاعة ويوفقه لأضداد ما سلف منهم من المعاصي وهذا معنى، قال ابن عباس والحسن

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: كون الإسلام يهدم ما قبله وكذا الهجرة والحج (١٢٢)، وأخرجه البخاري في كتاب: التفسير، باب: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ (٤٨١٠).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، باب: ﴿يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾﴾ (٤٧٦٥)، وأخرجه مسلم في كتاب: التفسير (٣٠٢٣).

وسعيد بن جبير ومجاهد والضحاك والسدي يبدل الله بقبائح ما عملوا في الشرك محاسن الأعمال في الإسلام فيبدل الله لهم بالشرك التوحيد وبقتل المؤمنين قتل المشركين المحاربين وبالزنى عفة وإحصاناً، وذهب جماعة إلى أن المراد أن الله تعالى يبدل سيئاتهم التي عملوها في الإسلام حسنات يوم القيامة تفضلاً وهو قول سعيد بن المسيب ومكحول وعائشة وأبي هريرة وسلمان رضي الله عنهم أجمعين، ويؤيده حديث أبي ذر قال قال رسول الله ﷺ: «يؤتى بالرجل يوم القيامة فيقال اعرضوا صغائر ذنوبه فتعرض عليه صغائرها وتخبأ كبائرها، فيقال أعملت كذا وكذا وهو يقرُّ ليس ينكر وهو مشفق من الكبائر، فيقال أعطوه مكان كل سيئة حسنةً فيقول إن لي ذنوباً لا أراها هاهنا فلقد رأيتُ رسول الله ضحك حتى بدت نواجذه»(١) رواه مسلم، وأخرج ابن أبي حاتم عن سلمان قال يعطى رجل يوم القيامة صحيفة فيقرأ أعلاها فإذا يكاد ليسوء ظنه نظر في أسفلها فإذا حسناته ثم ينظر في أعلاها فإذا هي قد بدِّلَت حسنات، وأخرج أيضاً عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: ليأتين الله بناس يوم القيامة ودوا أنهم أكثروا من السيئات، قيل من هم؟ قال الذين يبدل الله سيئاتهم حسنات. فإن قيل كيف يتصور تبديل السيئة على هذا المعنى بالحسنة وكيف يثاب على السيئة فإن السيئة أمر مكروه غير مرضي لله تعالى فكيف يتصور كونه مرضياً له تعالى فإن الله لا يرضى لعباده الكفر والعصيان؟ قلت: توجيه ذلك عندي بوجهين، أحدهما: أن عباد الله الصالحين كلما صدر عنهم ما كتب الله عليهم من العصيان ندموا غاية الندم واستحقروا أنفسهم غاية الاستحقار والتجئوا إلى الله تعالى كمال الالتجاء وخافوا عذاب الله مع رجاء المغفرة فاستغفروه حتى صاروا مهبطاً لكمال الرحمة بحيث لو لم يذنبوا لم يصيروا بهذه المثابة فعلى هذا صار عصيانهم الذي كان سبباً للعقاب سبباً للثواب ولو بتوسط الندم والتوبة، ومن هاهنا قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله ويغفر لهم»(٢) رواه مسلم من حديث أبي هريرة، وقال رسول الله ﷺ: «استغفروا لماعز بن مالك لقد تاب توبة لو قسمت بين أمة لو سعتهم»(٣) وقال رسول الله ﷺ لخالد بن الوليد حين سبَّ المرأة الغامدية «مهلاً يا خالد فوالذي نفسي بيده لقد تابت توبة لو تابها صاحب مكس

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: أدنى أهل الجنة منزلة فيها (١٩٠).
(٢) أخرجه مسلم في كتاب: التوبة، باب: سقوط الذنوب بالاستغفار توبة (٢٧٤٩).
(٣) أخرجه مسلم في كتاب: الحدود، باب: من اعترف على نفسه بالزنا (١٦٩٥).

لغفر له»(١) رواه مسلم في قصة ماعز والغامدية عن بريدة، وهذا ما قيل معصية أولها غفلة وآخرها ندامة خير من طاعة أولها عجب وآخرها رؤية. **ثانيهما** أن الغائصين في بحار المحبة قد يصدر منهم أمور لا يتزن بميزان الشرع ككلمات الشيخ والسماع والوجد ورهبانية ابتدعوها يجعل الله تعالى هذه الأمور الصادرة منهم كلها حسنات لصدورها عن محبة صرفة، ومن هاهنا قال العارف الرومي مثنوى:

فرجه گيرد علتي علت شرد   كفر گيرد كاملي ملت شرد

كاريا كان راقياس ازخودمگير   گرجه ماندو نوشتن شيرشير

أو بدل گشت وبدل شدكاراو   لطف گشت ونورشد هرناراو

ولعل ما ورد في حديث أبي ذرأنه يقال «أعرضوا صغائر ذنوبه فيعرض عليه صغائرها ويخبأ عنه كبائرها» إشارة إلى هذا فإن هذه الأمور التي تصدر من الكاملين لغلبة المحبة إنما هي بميزان الشرع صغار الذنوب دون كبائرها يجعلها الله تعالى لهم حسنات، لكونها ناشئة من منابع المحبة وأما كبار الذنوب التي صدرت عنهم على سبيل الندرة لما كتب الله تعالى صدورها عنهم فيخبأ عنهم ويغفر ويسترو لا يذكركما أشير إليه بقوله تعالى.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ يغفر الذنوب جميعاً صغائرها وكبائرها بالتوبة وبلا توبة قلت لعل قوله تعالى والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر إشارة إلى فناء القلب فإن المرء بعد فناء قلبه لا يقصد شيئاً غير الله ولا يرجوا شيئاً إلا منه ولا يخاف غيره وكل ما هو مقصودٌ لك فهو معبود لك بل لا يرى غيره موجود الموجود متأصل والإله هو الوجود بوجود متأصل يقتضي ذاته وجوده، فإن قيل أليس المؤمنون عامة قبل الفناء يعتقدون بأن الله موجود بوجود يقتضيه ذاته وغيره ليس كذلك؟ قلت: بلى يعتقدون ذلك لكن بالاستدلال دون الرؤية والشهود ويشهد على ذلك بداهة الوجدان وخوفهم وطمعهم من الخلق، وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾ إشارة إلى فناء النفس وأن النفس الأمارة بالسوء إذا فنيت واطمأنت بمرضاة الله تعالى إنسلخ عن دواعي العصيان والدليل على هذه الإشارة وصفهم بهذه الصفات بعد وصفهم بصفات الكمال بقوله ﴿عباد الرحمن الذين يمشون﴾ إلى آخره ولو كان المراد به التوحيد المجازي والتقوى الظاهري

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الحدود، باب: من اعترف على نفسه بالزنا (١٦٩٥).

لقدم ذلك على الصفات المذكورات فيما سبق ﴿وَمَن تَابَ﴾ عن الشرك والمعاصي بتركها والندم عليها والاستغفار ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ بتلافي ما فرط أو خرج عن الشرك والمعاصي ودخل في الطاعة ﴿فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ﴾ أي يرجع ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا﴾ لا إلى غيره فحقٌ عليه تعالى أن يثيبه ويبدل سيئاته بالحسنات، وهذه الجملة معترضة معطوفة على معترضة سابقة وهي قوله تعالى ﴿ومن يفعل ذلك يلق أثاماً﴾ والجملتان وقعتا بين الموصولات التي هي صفات مادحة لعباد الرحمن الأولى منهما لبيان عقاب المسيئين المفهومين من قوله تعالى ﴿والذين لا يدعون﴾ إلى آخره والثانية منهما لبيان عاقبة التوابين المذكورين في الاستثناء، قيل التنكير في متاباً للتعظيم والترغيب إلى التوبة لئلا يتحد الشرط يعني أنه يتوب إلى الله متاباً فرضياً عند الله ماحياً للعقاب محصلاً للثواب، وقيل معناه فإنه يرجع إلى الله أي ثوابه مرجعاً حسناً وهذه تعميم بعد تخصيص، وقال البغوي قال بعض أهل العلم هذه الآية في التوبة عن غير ما ذكر في الآية الأولى من القتل والزنى يعني من تاب ورجع عن الشرك وأدى الفرائض فمن لم يقتل ولم يزن فإنه يتوب إلى الله أي يعود إليه بعد الموت متاباً حسناً يفضل على غيره ممن قتل وزنى ثم تاب، فالتوبة الأولى أي الشرط أعني قوله ومن تاب معناها رجع عن الشرك والثانية أي الجزاء أعني فإنه يتوب إلى الله متاباً معناها رجع إلى الله للجزاء والمكافآت فافترقا، وقال بعضهم هذه الآية في التوبة عن جميع المعاصي ومعناه ومن أراد التوبة وعزم عليها فليتب لوجه الله فقوله يَتُوبُ إلى الله متاباً خبر بمعنى الأمر أي ليتب إلى الله وقيل معناه فليعلم أن توبته ومصيره إلى الله، قلتُ وعلى تقدير كون المراد بقوله تعالى يُبدّل الله سيئاتهم التائبين الذين صدر عنهم بعض الأمور التي لم يتزن بميزان الشرع لغلبة السكر والمحبة فبدل الله سيئاتهم حسنات لأجل محبتهم جاز أن يكون المراد بالتائبين في هذه الآية عباد الله الصالحين الذين لم يصدر عنهم شيء من تلك الأمور يعني من رجع عن جميع ما كره الله ولم يعملوا شيئاً منها ولو بغلبة المحبة والسكر فإنه يتوب إلى الله متاباً أحسن من الأولين وهم أصحاب الصحو من الأولياء كالنقشبندية الذين هم على هيئة أصحاب رسول الله ﷺ في إتباع السنة والله أعلم.

﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ﴾ قال البغوي قال الضحاك وأكثر المفسرين يعني الشرك فإنه شهادة بالزور قلت ويلزم على ذلك التكرار لما مر من قوله تعالى والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر وقال علي بن طلحة يعني لا يشهدون على الناس شهادة الزور.

مسألة:

قال البغوي قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه يجلد شاهد الزور أربعين جلدة ويسخّم وجهه ويطاف به في السوق، وروى ابن أبي شيبة ثنا أبو خالد عن حجاج عن مكحول عن الوليد عن عمر أنه كتب إلى عماله بالشام في شاهد الزور يضرب أربعين سوطاً ويسخم وجهه ويحلق رأسه ويطال حبسه وروى عبد الرزاق في مصنفه عن مكحول أن عمر ضرب شاهد الزور أربعين سوطا وقال أخبرنا يحيى بن العلاء أخبرني الأحوص بن الحكيم عن أبيه أن عمر أمر بشاهد الزور أن يسخم وجهه ويلقى عمامته في عنقه ويطاف به في القبائل، ومن هاهنا قال مالك والشافعي وأبو يوسف ومحمد أنه يعزر شاهد الزور بالضرب ويوقف في قومه حتى يعرفوا أنه شاهد الزور وزاد مالك فقال ويشهد في الجوامع والأسواق، قالوا إنه كبيرة من الكبائر على ما صرح به النبيّ ﷺ في حديث أنس رواه الشيخان في الصحيحين وفيها رواه البخاري أنه ﷺ قال: «ألا أخبركم بأكبر الكبائر؟ قالوا بلى يا رسول الله، قال: الشرك بالله وعقوق الوالدين (وكان متكئاً فجلس فقال): ألا وقول الزور وشهادة الزور» «فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت»[1] وقرن الله تعالى بينها وبين الشرك حيث قال: ﴿فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور﴾[2] فإذا كان كبيرة وليس فيها تقدير شرعي في الحد ففيها التعزير، وقال أبو حنيفة يكتفى في تغريره بالتشهير ولا يضرب ولا يحبس فإن المقصود الإنزجار ويحصل ذلك بالتشهير وأما الضرب وغير ذلك فمبالغة في الزجر لكنه يقع مانعه من الرجوع وشهادة الزور لا يظهر إلا بالإقرار والرجوع فوجب التخفيف نظراً إلى هذا الوجه وأثر عمر محمول على السياسة ومثل مذهب أبي حنيفة روي عن شريح، روى محمد بن الحسن في كتاب الآثار من طريق أبي حنيفة عن أبي الهيثم عمن حدثه عن شريح أنه كان إذا أخذ شاهد الزور فإن كان من السوق قال للرسول قل لهم أي لأهل السوق إن شريحاً يقرئكم السلام ويقول لكم إنا وجدنا هذا شاهد زور فاحذروه فإن كان من العرب أرسل إلى مسجد قومه أجمع ما كانوا فقال للرسول مثل ما قال في المرة الأولى وكذا روى ابن أبي شيبة عن شريح، وقال ابن جريج المراد بشهادة الزور الكذب مطلقاً، وقيل معنى الآية لا يحضرون مجالس الكذب

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الشهادات، باب: ما قيل في شهادة الزور (٢٦٥٤)، وأخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب: بيان الكبائر وأكبرها (٨٧).

(٢) سورة الحج، الآية: ٣٠.

فإن مشاهدة الباطل شركة فيه فلا يجوز أن يسمع قصة فيها أباطيل أو يقرأ شعراً كذلك، قال مجاهد يعني لا يحضر أعياد المشركين، وقيل المراد به النوح، وقال قتادة لا يساعدون أهل الباطل على باطلهم، وقال محمد بن الحنفية لا يشهدون اللغو والغناء، قال ابن مسعود الغناء ينبت النفاق في القلب كما ينبت الماء الزرع، قال البغوي وأصل الزور تحسين الشيء ووضعه على خلاف صفته فهو تمويه الباطل بما يوهم أنه حق قلت الزور في اللغة الميل قال الله تعالى: ﴿تَزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ﴾(١) وفي الكذب ميل من الحق إلى الباطل وكذا في كل لغو، وفي القاموس الزور بالضم الكذب والشرك بالله وأعياد اليهود والنصارى والرئيس ومجلس الغناء وما يعبد من دون الله والقوة، قلتُ: وهذه الآية يصلح كل ما ذكر من المعاصي إلا الرئيس والقوة ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ عطف على ﴿لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾ فهما صلتان لموصول واحد والأظهر في وجه إشتراكهما أن يراد بالزور المعاصي كلها بالشهود الحضور وباللغو أيضاً المعاصي كلها كما قال الحسن والكلبي والمعنى الذين لا يحضرون مجالس المعاصي باختيارهم وإذا مروا هناك اتفاقاً واكراماً مسرعين معرضين غير مقبلين عليه يقال كرم فلان عما يشينه إذا تنزه وأكرم نفسه عنه، وقال مقاتل معنى الآية وإذا سمعوا من الكفار الشتم والأذى أعرضوا وصفحوا وهو رواية ابن جريج عن مجاهد نظيره ﴿وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه﴾(٢) قال السدي هي منسوخة بآية القتال قلت بل هي غير منسوخة إذا القتال منته بإعطاء الجزية ولا يجوز القتال بالشتم والأذى.

﴿والذين إذا ذكروا بآيات ربهم﴾ بالوعظ والقراءة أو بالدلالة على دلائل التوحيد والتنزية ﴿لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ أي لم يقيموا غير واعين لها وغير متبصرين بعيون متغافلين عنها كأنهم صم لم يسمعوها وعمي لم يروها بل يسمعون ما يذكرون به سماع قبول فيفهمونه ويرون الحق فيتبعونه، والمراد نفي الحال دون الفعل كقولك لا يلقاني زيد راكباً ويقول الهاء للمعاصي المدلول عليها باللغو ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا﴾ قرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي وأبو بكر وذريتنا بغير ألف والباقون بالألف على الجمع ﴿قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ تنكير الأعين لإرادة تنكير القرة تعظيماً وأورد الأعين بصيغة جمع القلة لأن المراد أعين المتقين وهي قليلة بالإضافة إلى عيون غيرهم ومن إبتدائية يعني هب

---

(١) سورة الكهف، الآية: ١٧.

(٢) سورة القصص، الآية: ٥٥.

لنا قرة أعين كائنة من أزواجنا وذرياتنا يعني اجعلهم صالحين تقربهم أعيننا، قال القرطبي ليس شيء أقر لعين المؤمن من أن يرى زوجته وأولاده مطيعين لله عزَّ وجلَّ، قال الحسن وحد القرة لأنها مصدر وأصلها من البرد لأن العرب تتأذى من الحر وتستريح من البرد وتذكر قرة العين عند السرور وسخنة الأعين عند الحزن ويقال دمع العين عند السرور بارد وعند الحزن حار، وقال الأزهري معنى قرة الأعين أن يصادف قلبه من يرضاه وتقر عينه عن النظر إلى غيره ﴿وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ تأكيد للجملة السابقة فإن أزواجهم وذرياتهم إذا كانوا متقين وهم أئمة لأزواجهم وذرياتهم صاروا للمتقين إماماً واحداً إماماً للدلالة على الجنس وعدم اللبس كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾[١] ﴿فإنهم عدو لي إلا رب العالمين﴾[٢] وقيل لأنه مصدر كالقيام والصيام يقال أمَّ إماماً كما يقال قام قياماً وصام صياماً أو لأن المراد أجعل كل واحد منا للمتقين إماماً كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[٣] أو لكون كلهم كنفس واحدة لا تحاد طريقتهم وإتفاق كلمتهم، وقيل هي جمع أم كصائم وصيام والمعنى قاصدين للمتقين سالكين سبيلهم ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي عباد الله الصالحين الموصوفين بتلك الصفات ﴿يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ﴾ أي يثابون أعلى مواضع الجنة روى الشيخان في الصحيحين وأحمد عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه والترمذي عن أبي هريرة أن النبيّ ﷺ قال: «إن أهل الجنة يتراءون أهل الغرف فوقهم كما ترون الكوكب الدري الغابر من أفق المشرق أو المغرب لتفاضل ما بينهم، قالوا يا رسول الله تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم؟ قال رسول الله ﷺ بلى والذي نفسي بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين»[٤] وروي عن سهل بن سعد مثله، وأخرج أحمد والحاكم وصححه والبيهقي عن ابن عمرو الترمذي والبيهقي عن علي وأحمد عن أبي مالك الأشعري عن رسول الله ﷺ قال: «**إن في الجنة غرف يرى ظاهرها من باطنها من ظاهرها، قالوا لمن يا رسول الله؟ قال لمن أطاب الكلام وأطعم الطعام وبات قانتاً والناس نيام**»[٥] كذا في حديث ابن عمر وفي حديث عليّ «لمن أطاب الكلام وأفشى السلام ويطعم الطعام وصلّى بالليل

---

(١) سورة غافر، الآية: ٦٧.

(٢) سورة الشعراء، الآية: ٧٧.

(٣) سورة الشعراء، الآية: ١٦.

(٤) أخرجه البخاري في كتاب: بدء الخلق، باب: ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة (٣٢٥٦)، وأخرجه مسلم في كتاب: الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: ترائي أهل الجنة أهل الغرف (٢٨٣١).

(٥) أخرجه الترمذي في كتاب: البر والصلة، باب: ما جاء في قول المعروف (١٩٩٠).

والناس نيام» وفي حديث أبي مالك «لمن أطعم الطعام وألان الكلام وتابع الصيام وصلّى بالليل والناس نيام» وأخرج البيهقي وأبو نعيم عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال قال لنا النبيّ ﷺ: «ألا أخبركم بغرف الجنة؟ قلنا بلى يا رسول الله، قال إن في الجنة غرفاً من أصناف الجواهر يرى ظاهرها من باطنها من ظاهرها فيها من النعيم واللذات والشرف ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، قلنا يا رسول الله لمن هذه الغرف؟ قال: لمن أفشى السلام وأطعم الطعام وأدام الصيام وصلّى بالليل والناس نيام، قلنا يا رسول الله ومن يطيق ذلك؟ قال: أمتي يطيق ذلك وسأخبركم عن ذلك من لقي أخاه وسلم عليه ورد عليه فقد أفشى السلام ومن أطعم أهله وعياله من الطعام حتى يشبعهم فقد أطعمهم الطعام ومن صام رمضان ومن كل شهر ثلاثة فقد أدام الصيام ومن صلّى العشاء الأخيرة وصلّى الغداة في جماعة فقد صلّى بالليل والناس نيام اليهود والنصارى والمجوس» وإسناده غير قوي، وأخرج ابن عدي والبيهقي عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «إن في الجنة لغرفاً فإذا كان ساكنها فيها لم يخف عليه ما خلفها وإذا كان خلفها لم يخف عليه ما فيها، فقيل لمن هي يا رسول الله؟ قال: لمن أطاب الكلام وواصل الصيام وأطعم الطعام وأفشى السلام وصلّى بالليل والناس نيام، قيل وما طيب الكلام؟ قال سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر فإنه يأتي يوم القيامة وهن مقدمات ومنجّيات ومعقّبات، قيل وما وصال الصوم؟ قال من صام شهر رمضان فصامه، قيل فما إطعام الطعام؟ قال من قات عياله، قيل فما إفشاء السلام؟ قال مصاحبة أخيك وتحيته، قيل وما الصلاة والناس نيام؟ قال صلاة العشاء الآخرة» وأخرج الحكيم الترمذي عن سهل بن سعد مرفوعاً في هذه الآية قال: الغرفة من ياقوتة حمراء وزبرجد خضراء ودرة بيضاء ليس فيها قصم ولا وصم» ﴿بِمَا صَبَرُوا۟﴾ أي بصبرهم على المشاق من مضض الطاعات ورفض الشهوات وعلى تحمل المجاهدات وعلى أذى المشركين، وأخرج أبو نعيم عن أبي جعفر قال بما صبروا على الفقر في دار الدنيا ﴿وَيُلَقَّوْنَ﴾ قرأ حمزة والكسائي وأبو بكر بفتح الياء وسكون اللام وتخفيف القاف والباقون بضم الياء وفتح اللام وتشديد القاف ﴿فِيهَا﴾ أي في تلك الغرفة ﴿تَحِيَّةً وَسَلَـٰمًا﴾ أي يحييهم الملائكة ويسلمون عليهم أي يدعون الله لهم أو يبشرهم بالبقاء والسلامة من كل آفة، وقال الكلبي يحياء بعضهم على بعض بالسلام ويرسل الرب إليهم السلام، وأخرج أحمد والبزار وابن حبان عن ابن عمر عن رسول الله ﷺ قال: «أول من يدخل الجنة من خلق الله فقراء المهاجرين الذين تسد بهم الثغور وتتقى بهم المكاره ويموت أحدهم وحاجته في صدره لا يستطيع لها قضاءً فيقول الله تعالى لمن يشاء من الملائكة

ائتوهم فحيوهم، فيقول الملائكة ربنا نحن سكان سمائك وخيرتك من خلقك فتأمرنا أن نأتي هؤلاء ونسلم عليهم، قال إنهم كانوا يعبدونني لا يشركون بي شيئاً وتسد بهم الثغور وتتقى بهم المكاره يموت أحدهم وحاجته في صدره لا يستطيع لها قضاء قال فتأتيهم الملائكة عند ذلك فيدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار»[1] وقيل معناه يلقون فها تحية أي بقاء دائماً وسلاماً من الآفات ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ حَسُنَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا ۝٧٦﴾ أي موضع في قرار وإقامة، وأخرج مسلم عن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة عن النبيّ ﷺ قال: «ينادي مناد إن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبداً وإن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبداً وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبداً وإن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبداً»[2].

﴿قُلۡ﴾ يا محمد ﴿ما يعبؤا بكم ربي﴾ جملة مستأنفة من عبأت الجيش عبواً أي رتبتهم وهيئتهم كذا في النهاية يعني ما يهيئكم لدخول الجنة ﴿لَوۡلَا دُعَآؤُكُمۡۖ﴾ إياه بالاستغفار وقيل لولا عبادتكم وقيل لولا إيمانكم وقيل لولا دعاؤه إياكم إلى الإسلام فإذا آمنتم هيأكم لدخول الجنة، وقيل ما يعبؤا من العبا بمعنى الثقل يعني ما يرى ربكم لكم وزناً وقدراً ولا يعتد بكم لولا دعاؤكم أي عبادتكم وطاعتكم إياه فإن شرف الإنسان وكرامته بالمعرفة والطاعة وإلا فهو كالأنعام بل هو أضل سبيلا أو لولا دعاؤه إياكم إلى الإسلام فإذا آمنتم ظهر لكم قدر، وقيل معناه ما يعبؤكم ولا يعتدبكم أي يخلقكم لولا عبادتكم وطاعتكم يعني أنه خلقكم لعبادته كما قال: ﴿ما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾[3].

وقال البغوي هذا قول ابن عباس ومجاهد، وقيل معناه ما يبالى بكم وهذا المعنى مأخوذ من الثقل والوزن والقدر فإن الشيء الثقيل ذا القدر والوزن يبالي به فقيل معناه ما يبالي بمغفرتكم ربي لولا دعاؤكم معه آلهة وما يفعل بعذابكم لولا شرككم كما قال الله تعالى: ﴿مَّا يَفۡعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمۡ إِن شَكَرۡتُمۡ وَءَامَنتُمۡۚ﴾[4] وقيل معناه ما يبالي بعذابكم

---

(١) رواه أحمد والبزار ورجاله ثقات.
انظر مجمع الزوائد في كتاب: الزهد، باب: فضل الفقراء (١٧٨٨٦).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب: الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: في دوام نعيم أهل الجنة (٢٨٣٧).

(٣) سورة الذاريات، الآية: ٥٦.

(٤) سورة النساء، الآية: ١٤٧.

لولا دعاؤكم إياه في الشدائد كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين﴾(١) وقيل معناه ما خلقكم ربكم وله إليكم حاجة وليس لكم في جنبه تعالى قدر إلا أن تسألوه فيعطيكم وتستغفروه فيغفر لكم فما على هذه الوجه نافية وإن جعلتها استفهامية فمحلها النصب على المصدر كأنَّه قيل أي عبأ يعبؤا بكم ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ﴾ خطاب لكفار مكة يعني أن الله دعاكم بالرسول إلى توحيده وعبادته فقد كذبتم الرسول فلم تجيبوا فكيف يهيئكم لدخول الجنة أو فكيف يكون لكم عنده وزن وقدر أو فكيف يبالي بعذابكم أو فكيف لا يبالي بمغفرتكم ﴿فَسَوْفَ يَكُونُ﴾ تكذيبكم ﴿لِزَامًا﴾ أي لازماً لكم فلا ترزقون التوبة حتى تجازى أعمالكم، أو المعنى يكون جزاء تكذيبكم لازماً لكم يحيق بكم لا محالة أو أثره لازماً بكم حتى يكبكم في النار، وقال ابن عباس لزاماً يعني موتاً، وقال أبو عبيدة هلاكاً، وقال ابن زيد قتالاً، وقال ابن جرير عذاباً دائماً لازماً وهلاكاً مفنياً يلحق بعضكم ببعض، قال البغوي اختلفوا فيه فقال قوم هو يوم بدر قتل منهم سبعون وهو قول ابن مسعود وأبي بن كعب ومجاهد يعني أنهم قتلوا يوم بدر وأتصل به عذاب الآخرة لازماً، روى البخاري في الصحيح عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «خمس قد مضين الدخان والقمر والروم والبطشة واللزام»(٢) وقيل اللزام هو عذاب الآخرة والله أعلم.

الحمد لله رب العالمين وصلّى الله تعالى على خير خلقه محمد وأله وأصحابه أجمعين قد تم تفسير سورة الفرقان بعون لله تعالى وحسن توفيقه سادس عشر صفر من السنة الخامسة سنة ١٢٠٥ بعد ألف ومائتين ويتلوه إن شاء الله تعالى تفسير سورة الشعراء.

---

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٦٥.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، باب: ﴿فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾ (٤٧٦٧).

سورة الشعراء

إلا أربع آيات من آخر السورة مكيَّة «والشعراء يتبعهم الغاوون»
وهي مائتان وسبع وعشرون آية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

روى الحاكم في المستدرك عن معقل بن يسار قال قال رسول الله ﷺ: «**أعطيت طه والطواسين والحواميم من ألواح موسى**».

﴿طسٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ۝٣ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ۝٤ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ۝٥ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٦ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ۝٧ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۝٨ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٩﴾.

﴿طسٓمٓ ۝١﴾ قرأ حمزة والكسائي وأبو بكر هاهنا وفي القصص والنمل بإمالة الطاء وأهل المدينة بين بين والباقون بالفتح وأظهر النون عند الميم هاهنا وفي القصص أبو جعفر وحمزة وأدغمها الباقون، قال البغوي روى عكرمة عن ابن عباس أنه قال ﴿طسٓمٓ ۝١﴾ عجزت العلماء عن تفسيرها، وروى علي بن طلحة الوالبي عن ابن عباس أنه قسم وهو اسم من أسماء الله عز وجل وقال قتادة إسم من أسماء القرآن، وقال مجاهد اسم للسورة، وقال محمد بن كعب القرظي أقسم الله بطوله وسنانه ومجده والحق أنه رمز بين الله وبين رسوله ﴿تِلْكَ﴾ إشارة إلى السورة أو القرآن ﴿ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ الظاهر إعجازه وصحته أو المظهر للأحكام وسبيل الهدى ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ﴾ أي قاتل نفسك عمّا يقال بخع نفسه كمنع قتلها غمّاً وأصل البخع أن يبلغ الذبح بالفتح وهو عرق في الصلب ويجري في أعظم الرقبة وذلك حد الذبح وهو غير النخاع بالنون فيما زعم الزمخشري ثم استعمل في كل مبالغة ﴿أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ أي لئلا يؤمنوا أو كراهة ألا يكونوا مؤمنين

نزلت هذه الآية حين كذّبه أهل مكة وشق ذلك عليه لما كان يحرص على إيمانهم، وجاز أن يكون شدة غمه ﷺ إيمانهم خوفاً من الله تعالى أن يعاقب لأجل إنكار قومه فهذه الآية تسلية للنبي ﷺ، وكلمة لعل للترجي وهاهنا للإشفاق يعني أشفق على نفسك ولا تغتمّ فإنك إن تغنم فلعلك تقتل نفسك غمّاً فإنا لم نشأ إيمانهم فإنه ﴿إِن نَّشَأْ﴾ إيمانهم ﴿نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً﴾ أي دالة ملجئة إلى الإيمان أو بلية قاصرة عليه ﴿فَظَلَّتْ﴾ عطف على ننزل ومعناه فتظل ﴿أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ﴾ أي منقادين، قال قتادة لو شاء الله لأنزل عليهم آية يذلون بها فلا يلوي أحد منهم بعده معصية لا تزول عليهم، وقال ابن جريج معناه لو شاء الله لأنزل بهم أمراً من أموره لا يعمل أحد منهم بعده معصية، أو رد خاضعين موضع خاضعة لوفاق رؤوس الآي، وقيل أصله فظلوا لهذا خاضعين فزيدت الأعناق مقحماً لبيان موضع الخضوع وترك الخبر على أصله، وقيل أصله ظلت أصحاب الأعناق لها خاضعين فحذف الأصحاب وأقام الأعناق مقامهم لأن الأعناق إذا خضعت فأربابها خاضعون فجعل الفعل أولاً للأعناق ثم جعل خاضعين للرجال، وقال الأخفش رد الخضوع على المضمر الّذي أضاف الأعناق إليه، وقيل لما وصفت الأعناق بالخضوع وهو من صفات العقلاء أجريت مجراهم، وقال قوم ذكر الصفة لمجاورتها المذكر وهو قوله هم على عادة العرب في تذكير المؤنث إذا أضافوه إلى المذكر وتأنيث المذكر إذا أضافوه إلى المؤنث، وقيل أراد بالعنق جميع البدن كما في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾[1] و﴿أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾[2] والمعنى فظلوا خاضعين، وقال مجاهد أراد بالأعناق الرؤساء الكبراء والمعنى فظلت كبراؤهم لها خاضعين، وقيل أراد بالأعناق الجماعات يقال جاء القوم عنقاً عنقاً أي جماعات وطوائف.

﴿وَمَا يَأْتِيهِم﴾ أي كفار مكة عطف على مضمون جملة سابقة أو حال ﴿مِّن ذِكْرٍ﴾ موعظة أو طائفة من القرآن يذكر الله سبحانه، من زائدة في محل الرفع ﴿مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ من الابتداء صفة للذكر أي منزل منه على نبيه ﴿مُحْدَثٍ﴾ إنزاله وإن كان قديماً في الوجود ﴿إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾ إستثناء مفرغ حال من الضمير المنصوب في يأتيهم أو المرفوع يعني ما يأتيهم في حال إلا في حال إعراضهم عن الإيمان به ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا۟﴾ بالذكر بعد إعراضهم وأمعنوا في تكذيبه بحيث أدى بهم إلى الاستهزاء المخبر به عنهم ضمناً في قوله تعالى:

---

(١) سورة الحج، الآية: ١٠.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ١٣.

﴿فَسَيَأْتِيهِمْ﴾ إذا نزل بهم العذاب يوم بدر أو يوم القيامة ﴿أنباء ما كانوا به يستهزؤون﴾ من أنه كان حقاً أو باطلاً كان حقيقاً بأن يصدّق ويعظم قدره أو يكذب فيستخف أمره ويستهزأ به ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ﴾ الإستفهام للإنكار والواو للعطف على محذوف والتقدير يطلبون آية على ما يدعيه محمد ﷺ من التوحيد والبعث بعد الموت ولم ينظروا إلى الأرض يعني لا ينبغي لهم طلب الآية وقد نظروا إلى الأرض وهي آية فإن إنكار النفي إثبات ﴿كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا﴾ بدل اشتمال من الأرض وكم خبرية يعني ألم ينظروا إلى كثرة إنباتنا فيها ﴿مِن كُلِّ زَوْجٍ﴾ صنف من النبات ﴿كَرِيمٍ﴾ حسن محمود كثير المنفعة غذاء للناس أو الدواب ودواءً مفيدة فائدة ما إما وحده أو مع غيره وأيضاً كرم كل زوج من نبات الأرض دلالته على قدرة الخالق على إيجاده وإعادته بعد الإعدام وتوحده وصفات كماله كل لإحاطة الأفراد وكم لكثرتها ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي في أنبات تلك الأصناف أو في واحد منها ﴿لَآيَةً﴾ حوالة على فاعل واجب لذاته تام القدرة والحكمة سابغ النعمة والرحمة ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ في علم الله وقضائه فلذلك لم ينفعهم تلك الآيات العظام، وقال سيبويه كان هاهنا زائدة والمعنى وما كان أكثرهم مؤمنين بعد مشاهدة الآيات ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الغالب القادر على إنتقام من الكفرة ﴿الرَّحِيمُ﴾ حيث أمهلهم أو العزيز في إنتقامه ممن كفر الرحيم لمن تاب وآمن.

﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ (١٠) قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ (١١) قَالَ رَبِّ
إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ (١٢) وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ (١٣) وَلَهُمْ عَلَىَّ
ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ (١٤) قَالَ كَلَّا ۖ فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ ۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ (١٥) فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ
فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (١٦) أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ (١٧) قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا
وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ (١٨) وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ (١٩) قَالَ
فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ (٢٠) فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ
ٱلْمُرْسَلِينَ (٢١) وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ (٢٢) قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ
(٢٣) قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ (٢٤) قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ
(٢٥) قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ (٢٦) قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ (٢٧) قَالَ
رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ (٢٨) قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ
ٱلْمَسْجُونِينَ (٢٩) قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ (٣٠) قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ

﴿٣١ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ٣٢ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ٣٣﴾.

أذكر ﴿إذ نادى ربك موسى﴾ حين رأى الشجرة والنار معطوف على مضمون قوله: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ﴾[1] فإن التقدير لا تحزن على كفر قومك ولا تبخع نفسك واذكر وقت نداء ربك موسى وفيه تسلية للنبي ﷺ، جاز أن يكون كلاماً مستأنفاً والظرف متعلق بقوله قال رب ﴿أَنِ ائْتِ﴾ أن مفسرة لنادى أو مصدرية أي ائت أو بأن ائت ﴿الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ بالكفر واستعباد بني إسرائيل وسومهم سوء العذاب من ذبح الأبناء وغير ذلك ﴿قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾ بدل أو عطف بيان لما سبق ولعل الاقتصار على القوم للعلم بأن فرعون كان أولى بذلك ﴿أَلَا يَتَّقُونَ﴾ استفهام للإنكار والتوبيخ ومعناه الأمر أي ليتقوا أنفسهم عن عذاب الله بطاعته، ويحتمل أن يكون التقدير ألا يا قوم اتقون فهو بتقدير القول حال من فاعل ائت يعني ائت قائلاً لهم من الله ألا يا قوم اتقون نظيره ألا يسجدوا بتقدير ألا يا قوم اسجدوا ﴿قَالَ﴾ موسى ﴿رَبِّ إِنِّي﴾ قرأ نافع وابن كثير وأبو عمر وبفتح الياء والباقون بإسكانها ﴿أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ وَيَضِيقُ صَدْرِي﴾ قرأ الجمهور بالرفع عطفاً على أخاف ويعقوب بالنصب عطفاً على تكذبون وكذا الخلاف في قوله ﴿وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي﴾ لأجل عقدة كانت فيه ويضيق صدري لأجل عدم مساعدة اللسان ببيان المرام في إقامة الحجة الدافعة للتكذيب، وقال البغوي أي يضيق صدري من تكذيبهم ﴿فَأَرْسِلْ﴾ الوحي أو أرسل جبرئيل بالوحي ﴿إِلَىٰ هَارُونَ﴾ الفاء للسببيّة، قال البيضاوي رتَّب استدعاء ضم أخيه إليه وإشراكه له في الأمر على الأمور الثلاثة خوف التكذيب وضيق القلب انفعالاً عنه أي عن التكذيب وازدياد الحبسة في اللسان بانقباض الروح إلى باطن القلب عند ضيقه بحيث لا ينطلق لأنها إذا اجتمعت الأمور مست الحاجة إلى مُعِين يقوي قلبه وينوب منابه متى يعتريه الحبسة حتى لا يحمل دعوته وليس ذلك تعللا منه وتوقفاً في امتثال الأمر بل طلباً لما يكون معونةً على امتثاله ﴿ولهم على ذنب﴾ على حذف المضاف أي تبعة ذنب أو دعوى ذنب والمراد قتل القبطي سماه ذنباً على زعمهم وإلا فهو كان مباح الدم غير معصوم لأجل كفره وهذا اختصار قصة مبسوطة في غير هذا الموضع ﴿فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾ أي أخاف أن يقتلوني قبل أداء الرسالة وهذا أيضاً ليس تعللاً وعدم امتثال الأمر بالتبليغ لخوف القتل بل استدفاعاً للبلية المتوقعة المانعة من التبليغ ﴿قَالَ﴾ الله تعالى: ﴿كَلَّا فَاذْهَبَا﴾ إجابة إلى الطلبين بوعده للدفع اللازم لروعه وضم أخيه إليه في الإرسال والخطاب في ﴿فَاذْهَبَا﴾ على تغليب

(١) سورة الشعراء، الآية: ٣.

الحاضر وهو معطوف على الفعل الذي دل عليه كلا كأنه قال ارتدع يا موسى عن توهم قتلك فاذهب أنت ومن طلبت ضمه إليك ﴿بآياتنا إنا معكم﴾ يعني مع موسى وهارون ومن تبعهما بالنصر أو معكما ومن عاداكما بالعلم ﴿مُّسْتَمِعُونَ﴾ أي سامعون ما جرى بينكم من الكلام فأظهركما عليهم خبر ثان أو هو الخبر وحده ومعكم ظرف لغو ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾﴾ أفرد الرسول لأنه هاهنا بمعنى الرسالة وهو مشترك بين المرسل والرسالة، في القاموس الاسم الرسالة بالكسر والفتح وكصبور وأمير والرسول أيضاً المرسل.

قال البيضاوي لذلك ثنى تارة وأفرد أخرى يعني إذا أريد به المرسل مثنى وإذا أريد به الرسالة أفرد والمعنى هاهنا إنا ذو رسالة رب العالمين أو لأن الفعول يطلق على الواحد والجمع، قال في القاموس لم يقل ﴿إنا رسل رب العالمين﴾ لأن مفعولا وفعيلاً تستوي فيه المذكر والمؤنث والواحد والجمع، وقال أبو عبيدة يجوز أن يكون الرسول بمعنى إثنين والجمع يقول العرب هذا رسولي ووكيلي وهذان رسولي ووكيلي كما قال الله تعالى: ﴿وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾[1] وقيل أفرد لاتحادهما للأخوة أو الوحدة المرسل به أو أراد أن كل واحد منا رسول رب العالمين ﴿أن﴾ مفسرة لتضمن الرسول معنى الإرسال المتضمن معنى القول ﴿أَرْسِلْ﴾ أي خلّ ﴿مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ تذهب إلى الشام ولا تستعبدهم، قال البغوي كان فرعون استعبدهم أربع مائة سنة وكانوا في ذلك الوقت ستة مائة وثمانين ألفاً، فأنطلق موسى إلى مصر وهارون بها فأخبره وفي القصة أن موسى رجع إلى مصر وعليه جبة صوف وفي يده عصاه والمكتل معلق في رأس العصا وفيه زاده فدخل وأخبر هارون بأن الله أرسلني إلى فرعون وأرسل إليك حتى ندعو فرعون فخرجت أمهما وصاحت وقالت إن فرعون يطلبك ليقتلك ولو ذهبتما إليه لقصا.

فلم يمتنع لقولها وذهبا إلى باب فرعون ليلاً ودق الباب ففزع البوابون وقالوا من بالباب وروي أنه إطلع البواب عليهما فقال من أنتما فقال موسى (إنّا رسول رب العالمين) فذهب البواب إلى فرعون، وقال أن مجنوناً بالباب ويقول إنه رسول رب العالمين فترك حتى أصبح ثم دعاهما. وروي أنهما أنطلقا جميعاً إلى فرعون فلم يؤذن لهما سنة في الدخول إليه فدخل البواب، وقال لفرعون هاهنا إنسان يزعم إنه رسول رب العالمين فقال فرعون أائذن له لعلنا نضحك منه فدخلا عليه وأديا رسالة الله عزَّ وجلَّ فعرف فرعون

(١) سورة الكهف، الآية: ٥٠.

موسى لأنه نشأ في بيته و﴿وقال ألم نر بك فينا﴾ في منازلنا ﴿وَلِيدًا﴾ طفلاً سمي به لقربه من الولادة ﴿وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ قيل لبث فيهم ثلاثين سنة ثم خرج إلى مدين عشر سنين ثم عاد إليهم ودعاهم إلى الله ثلاثين سنة ثم بقي بعد الغرق خمسين سنة ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ﴾ يعني قتل القبطي ﴿وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي من الجاحدين بنعمتي وحق تربيتي حتى عمدت إلى قتل خواصي كذا روى العوفي عن ابن عباس وهو قول أكثر المفسرين، وقال إن فرعون لم يكن يعلم بالكفر بالله، وقال الحسن والسدي أراد وأنت كنت من الكافرين بإلهك الذي تدعو إليه الآن وتعبده حيث كنت معنا على ديننا والجملة حال من إحدى التاءين ويجوز أن يكون حكماً مبتدءاً عليه بأنه من الكافرين بألوهيته أو بنعمته لما عاد إليه من المخالفة أو من الذين كانوا يكفرون في دينهم ﴿قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا﴾ يعني إذاً فعلتها ﴿وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ الجملة حال من التاء في فعلت يعني فعلت ما فعلت ﴿وأنا من الضالين إذا فعلت من الجاهلين﴾ لم يأتني من الله شيء أو الجاهلين بأن ذلك يؤدي إلى قتله لأنه أراد به التأديب دون القتل وقيل من الضالين عن طريق الصواب من غير تعمد يعني من المخطئين، وقيل من الفاعلين فعل أولياء الجهل والسفه وقيل من الناسين من قوله: ﴿أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى﴾[1] ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ﴾ إلى مدين ﴿لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا﴾ أي حكمة وعلماً ﴿وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ وَتِلْكَ﴾ مبتدأ إشارة إلى تربيته وليداً ﴿نِعْمَةٌ﴾ بدل من اسم الإشارة أو خبر منه ﴿تَمُنُّهَا عَلَىَّ﴾ صفة لنعمة و﴿أن عبدت بني إسرائيل﴾ مرفوع على أنه خبر مبتدأ محذوف أي هي أو على أنه بدل من نعمة أو مجرور بإضمار الباء وهو خبر المبتدأ يعني بمقابلة جفائك أو بسبب جفائك والتي هي أن عبدت أو النصب بحذف الباء أو على الظرف بتقدير الوقت أو على الحال، وقيل تلك إشارة إلى خصلة شنعاء صهمة ﴿وأن عبدت﴾ عطف بيان لها ومعنى عبدت اتخذتهم عبيداً لك يقال عبدت فلانا وأعبدته استعبدته وتعبدنه اتخذته عبداً، اختلف المفسرون في تأويل هذه الآية.

قال بعضهم هو إقرار وعدّها موسى نعمة منه عليه حيث رباه ولم يقتله كما قتل سائر غلمان بني إسرائيل فكأنه قال بلى وتلك نعمة تمنّها عليّ أن عبدت بني إسرائيل وتركتني ولم تستعبدني، وقال بعضهم هو إقرار ظاهراً أو إنكار معنى رد موسى أولاً ما وبخّه به قدحاً في أبوته ثم كر على ما عدّه من النعمة ولم يصرح بإنكاره لأنه كان صادقاً في دعواه

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٨٢.

بل نبه على أنه كان في الحقيقة نعمة لكونه في مقابلة الجفاء أو مسبباً عنه فقال وتلك نعمة تمنها على أن عبدت بني إسرائيل فتلك النعمة مقابلة بالجفاء أو بسبب الجفاء فإنه بسبب إستعبادك بني إسرائيل وقتلك أبناءهم رُفِعتُ إليك حتى ربّيتني وكفلتني ولو لم تستعبدهم كان لي من أهلي من يربيني ولم يلقوني في اليم فتضمن هذا الإقرار الإنكار، وقيل هو إنكار وهمزة الإستفهام للإنكار مقدرة تقديره أتلك التربية نعمة لك عليّ أن عبدت بني إسرائيل يعني أتربيتك إياي نعمة وقت تعبدك بني إسرائيل أو الحال إنك عبدت بني إسرائيل فتعبيدك قومي بني إسرائيل أحبط إحسانك إلي، وإنما وحد الخطاب في تمنها وجمع فيما قبله لأن المنة كانت منه وحده والخوف والفرار منه ومن قومه ولما سمع فرعون جواب ما طعن في موسى ورأى أنه لم يرعو بذلك شرع في الإعتراض على دعواه فبدأ بالاستفسار عن حقيقة المرسل و﴿قَالَ فِرۡعَوۡنُ وَمَا رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٣﴾ ولما كان بيان حقيقة الواجب تعالى مستحيلاً بما هو داخل فيه لاستحالة التركيب في ذاته والإمتناع تعريف الإفراد إلا بذكر الخواص والأفعال ذكر موسى أظهر خواصه وآثاره و ﴿قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ﴾ خبر مبتدأ محذوف أي يعني ﴿رب العالمين رب السماوات والأرض وما بينهما﴾ من الكائنات ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ بثبوت حقائق الأشياء فاستدلوا بها على خالقها فإنها أجرام محسوسة ممكنة لتركها وتعددها وتغير أحوالها فلا بد لها من مبدأ واجب لذاته وذلك المبدأ لا بد أن يكون مبدأ لسائر الممكنات ما يمكن أن يحس بها وما لا يمكن وإلا لزم تعدد الواجب أو استغناء بعض الممكنات عنه وكلاهما محالان أما التعدد فلاستلزامه تركبهما مما فيه اشتراكهما وما به امتياز كل منهما عن الآخر والتراكب دليل الحدوث مناف للوجوب وأما الإستغناء فهو مناف للإمكان، ثم ذلك لا يمكن تعريفه إلا بلوازمه الخارجية لامتناع التعريف بنفسه وبما هو داخل فيه لاستحالة التركيب في ذاته هذا شرط مستغن عن الجزاء بما مضى ولما كان فرعون غبيّاً لم يدرك حسن الجواب ﴿قَالَ لِمَنۡ حَوۡلَهُۥٓ﴾ تعجباً ﴿أَلَا تَسۡتَمِعُونَ﴾ جوابه يعني إني سألته عن حقيقته وهو يذكر أفعاله أو يزعم أن للسموات ربا وهي قديمة واجبة لذواتها كما هو مذهب الدهرية أو غير معلوم إفتقارها إلى مؤثر، فحينئذ ﴿قَالَ﴾ موسى ﴿رَبُّكُمۡ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ عدولاً إلى ما لا يمكن توهم القدم والوجوب ولا يشك في افتقارها إلى مصور حكيم ويكون أقرب للناظر وأوضح عند التأمل ﴿قَالَ﴾ فرعون ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِيٓ أُرۡسِلَ إِلَيۡكُمۡ لَمَجۡنُونٞ﴾ أسئلة عن شيء يعني عن حقيقته ويجيبني عن آخر وسماه رسولاً على السخرية ﴿قَالَ رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ﴾ تشاهدون كل يوم أنه يأتي بالشمس من المشرق ويحركها على مدار غير المدار اليوم الذي

قبله حتى يبلغها إلى المغرب على وجه نافع ينتظم به أمور الكائنات ﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ يعني إن كان لكم عقل أدركتم أنه لا جواب لكم فوق ذلك لا ينهم أولاً ثم لما رأى شكيمتهم أي شدتهم خاشنهم وعارضهم بمثل مقالهم ﴿قَالَ﴾ فرعون عدولاً عن المحاجة بعد الانقطاع إلى التهديد كما هو دأب الجاهل المحجوج ﴿لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي﴾ جواب قسم محذوف ﴿لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ أي من المحبوسين واللام للعهد أي ممن عرفت حالهم في سجني، قال الكلبي كان سجنه أشد من القتل لأنه كان يأخذ الرجل فيطرحه في مكان وحده فرداً لا يسمع ولا يبصر فيه شيئاً يهوي به في الأرض، إستدل فرعون بقدرته على التعذيب على ألوهيته وإنكاره للصانع وكان قوله ﴿أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾ صادراً منه تعجباً من نسبة الربوبية إلى غيره ولعله كان دهرياً يعتقد أن من الملك قطراً من الأرض وتولى أمره بقوة طالعة استحق العبادة من أهله.

﴿قَالَ﴾ موسى في جواب تهديده ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ﴾ الهمزة للاستفهام للتوبيخ والإنكار والواو للحال بعد حذف الفعل تقديره أتجعلني من المسجونين ولو جئتك بشيء مبين توبيخ على الإساءة حال فجيئة بالحجة الواضحة على صدقه، وقيل الواو للعطف على شرطية محذوفة والشرطيتان حال من فاعل فعل محذوف تقديره أتجعلني من المسجونين لو لم أجبك على دعواي بحجة ولو جئتك بشيء مبين حجة والمآل واحد ﴿قَالَ﴾ فرعون ﴿فَأْتِ بِهِ﴾ أي بشيء مبين ﴿إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ في أن ذلك بينة أو في دعواك فإن مدعي النبوة لا بد له من حجة ﴿فَأَلْقَىٰ﴾ موسى ﴿عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ ظاهر ثعبانيته أو مبين أي مظهر لصدق دعواه عطف على قال ﴿وَنَزَعَ﴾ موسى ﴿يَدَهُ﴾ إذا قال فرعون وهل غيرها ﴿فَإِذَا هِيَ﴾ أي يده ﴿بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ﴾ لها شعاع يكاد يغشى الأبصار ويسد الأفق فتحير فرعون وعجز.

﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِن كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ

وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُوا۟ لَا ضَيْرَ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾﴾.

﴿قال للملأ حوله﴾ أي مستقرين حوله ظرف وقع موقع الحال ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ يعني موسى ﴿لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾ فائق في علم السحر ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾ لما غلب عليه سلطان المعجزة حطّه عن دعوى الربوبية إلى الإستظهار من القوم وجعلهم أمراء على نفسه وتنفيرهم عن موسى وإظهار الخوف عن ظهوره وإستيلائه على ملكه ﴿قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾ يعني أخر أمرهما ﴿وابعث في المدائن حاشرين﴾ ناساً يحشرون أي يجمعون السحرة ﴿يَأْتُوكَ﴾ مجزوم في جواب الأمر ﴿بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾ يفضلون عليه في السحر، أمال سحار ابن عامر وأبو عمرو والكسائي ﴿فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾﴾ يوم معين وهو وقت الضحى من يوم الزينة.

قال البغوي روى عن ابن عباس قال وافق ذلك يوم السبت في أول يوم السنة وهو النيروز ﴿وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾﴾ استفهام بمعنى الأمر وفيه استبطاء لهم في الإجتماع حثاً على عدم الاستبطاء والمبادرة إليه ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ﴾ يعنون موسى وهارون وقومهما أي نتبعهم في دينهم.

قلتُ: وجاز أنهم يعنون به السحرة الذين طلبهم أي لعلنا نتبع السحرة في إيطال أمر موسى ﴿إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾ والترجي يناسب التأويل الثاني وأما على التأويل الأول فالترجي بأعتبار الغلبة المقتضية للإتباع ومقصودهم الأصلي أن لا يتبعوا أمر موسى ﴿فلما جاء السحرة قالوا لفرعون أئن لنا لأجراً إن كنا نحن الغالبين﴾ إستفهام للتقرير ﴿قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ﴾ عطف على مضمون نعم يعني أن لكم أجراً وأنكم ﴿إِذًا﴾ أي إذا كان لكم الغلبة متعلق بما بعده ﴿لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ إلتزم لهم القربة زيادة على ما طلبوا من الأجر عند الغلبة.

فقال السحرة لموسى (إما أن تلقي وأما أن تكون نحن الملقين)[1] كما مرّ في الأعراف فحينئذ ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ﴾ لم يرد به الأمر بالسحر بل أراد به الإذن في تقديم ما هم فاعلون لا محالة توسلاً إلى إظهار أمره فلا يرد عليه أن الأمر

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١١٥.

بالمعصية حرام أو يقال هذا الأمر للتحقير أي لتحقير سحرهم في مقابلة المعجزة فليس من باب الطلب في شيء ﴿فَأَلْقَوْا﴾ أي السحرة ﴿حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾ تبركوا بعزة فرعون لفرط إعتقادهم أنه من السعداء، أو أقسموا بعزته على إتيانهم بأقصى ما يمكن أن يؤتى به من السحر ﴿فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ﴾ أي تبتلع قرأ حفص بالتخفيف والباقون بالتشديد ﴿مَا يَأْفِكُونَ﴾ ما موصولة يعني ما يقلبونه عن وجهه بتمويههم وتزويرهم فيخيَّل حبالهم وعصيهم أنهما حيات تسعى أو مصدرية أي تبتلع إفكهم تسمية للمأفوك به مبالغة ﴿فألقى السحرة ساجدين﴾ يعني أنهم لما رأوا ما رأوا لم يتمالكوا أنفسهم لعلمهم بأن مثله لا يتأتى بالسحر فطرحوا على وجوههم وأنه تعالى ألقاهم بما وفقهم للتوبة وفيه دليل على أن منتهى السحر تمويه وتزوير يخيَّل شيئاً لا حقيقة له ﴿قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢١﴾﴾ بدل من ألقى بدل إشتمال أو حال بإضمار قد ﴿رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ إبدال للتوضيح ودفع التوهم والإشعار على أن الموجب لإيمانهم، ما أجرى على أيديهما من المعجزة ﴿قَالَ﴾ فرعون تعنتاً ليلبس على قومه كيلا يعتقدوا أنهم آمنوا عن بصيرة وظهور حق ﴿ءَامَنتُمْ لَهُ﴾ قرأ حمزة والكسائي وأبو بكر وروح ءأمنتم بالهمزتين والباقون بهمزة واحدة وحذف همزة الإستفهام الانكاري ﴿قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾ فعلّمكم شيئاً دون شيء ولذلك غلبكم أو المعنى أنه وادعكم ذلك وتواطئتم عليه ﴿فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ تهديد إجمالاً ثم فصله بقوله ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ قَالُوا لَا ضَيْرَ﴾ أي لا ضرر علينا في ذلك لاستلزامه الشهادة والأجر الجزيل الذي يتلاشى في مقابلته المصائب الدنيوية ﴿إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ﴾ أتوعدنا به أو بسبب آخر من أسباب الموت وقتلك أنفعها وأرجاها تعليل لنفى الضير ﴿إنا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا أن كنا﴾ أي لأن كنا ﴿أول المؤمنين﴾ من إتباع فرعون أو من أهل المشهد، قلتُ: والظاهر أن معناه أن كنا من أول المؤمنين وأول المؤمنين هم الذين يقتدى بهم غيرهم والجملة تعليل ثان لنفي الضمير أو تعليل للعلة المتقدمة أو بدل اشتمال لها.

﴿۞ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٥٩﴾ فَأَتْبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ

كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾ .

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ﴾ بعدما أقام بين أظهرهم سنين يدعوهم إلى الحق ويريهم الآيات فلم يزيدوا إلا عتوّاً وفساداً ﴿أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي﴾ قرأ نافع بفتح الياء والباقون بإسكانها ﴿إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾ يتبعكم فرعون وقومه ليحولوا بينكم وبين الخروج من مصر تعطيل للإسراء، قال البغوي روى عن ابن عباس قال أوحى الله إلى موسى عليه السلام أن جمع بني إسرائيل أهل كل أربعة أبيات في بيت ثم أذبحوا أولاد الضأن فاضربوا بدمائها على أبوابكم فإني سآمر الملائكة فلا تدخل بيتاً على بابه دم وسآمرها فيقتل ابكار آل فرعون من أنفسهم وأموالهم، ثم اخبزوا خبزاً فطيراً فإنه أسرع لكم ثم أسر بعبادي حتى تنتهي إلى البحر فيأتيك أمري ففعل ذلك فلمّا أصبحوا قالوا لفرعون هذا عمل موسى وأتباعه قتلوا بكارنا من أنفسنا وأموالنا فأرسل في أثره ألف ألف وخمس مائة ألف ملك سود مع كل ملك ألف وخرج فرعون في الكرسي العظيم لكن قلت عدد جنوده بهذه المثابة مما يستبعده العقل ولم يرو من النقل ما يوجب العلم به ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ﴾ معطوف على محذوف تقديره فأسرى موسى قومه فبلغ الخبر فرعون وأراد أن يتبعهم فارسل ﴿فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾ يعني الشرط ليحشروا أي ليجمعوا الجيش.

قلت: لعله بعث ناساً ليجمعوا أهل المدائن المتصلة بمصر بحيث يمكن إجتماعهم في تلك الليلة إلى الصباح قائلاً لهم ﴿إِنَّ هَٰؤُلَاءِ﴾ يعني بني إسرائيل ﴿لَشِرْذِمَةٌ﴾ بالكسر القليل من الناس كذا في القاموس ثم أكده بقوله ﴿قَلِيلُونَ﴾ لإشعاره غاية القلة فهذه الآية تدل على بطلان ما روى أنهم كانوا ست مائة وسبعين ألفاً وإنما استقلهم بالإضافة إلى جنوده على ما قيل في مدد جنوده أنه كانت مقدمته سبع مائة ألف والساقة والجناحين والقلب على قياس ذلك فإنه لا يجوزه العقل نظراً إلى أجياد ملوك الأرض لاسيما ملك مصر، قلت لعل ايراد الشرذمة لبيان قلتهم بالنسبة إلى جنود فرعون وايراد قليلون لبيان قلتهم في نفس الأمر ﴿وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ ﴿٥٥﴾﴾ لنا متعلق بغائظون والمعنى أنهم أصحاب غيظ وعداوة لنا يعني مبغضون لنا أو المعنى إنهم لفاعلون بنا ما يغيظنا ﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ قرأ أهل الحجاز والبصرة حذرون وفرهين بغير ألف ووافقهم هشام في حذرون والباقون حاذرون وفارهين بالألف فيهما والأول للثبات والثاني للتجدد وهذا معنى ما قال

الفراء الحاذر الذي يحذرك الآن والحذر المخاوف، وقيل حاذرون مؤدون مفرُّون أي ذووا إذاءة وقوة أي مستعدون السلاح كذا قال الزجاج ومعنى حذرون خائفون مستيقظون أي غير غافلين ﴿فأخرجناهم﴾ تقديره فاجتمعوا واتفقوا على الإتباع فأخرجناهم يعني أنهم خرجوا بتقديرنا ومشيئتنا ﴿مِّن جَنَّٰتٍ﴾ أي بساتين ﴿وَعُيُونٍ﴾ أنهار ﴿وَكُنُوزٍ﴾ أي أموال من الذهب والفضة ﴿وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ أي منازل حسنة ومجالس بهية يعني مجالس الأمراء والرؤساء تحفها الاتباع ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي الأمر كذلك ﴿وَأَوْرَثْنَٰهَا﴾ يعني تلك الجنات والعيون والكنوز والمقام الكريم ﴿بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ وذلك بأن الله تعالى رد بني إسرائيل إلى مصر بعدما أغرق فرعون وقومه وأعطاهم جميع ما كان لفرعون وقومه من الأموال والمساكن ﴿فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾﴾ أي داخلين في وقت شروق الشمس ﴿فلما تراء﴾ قرأ حمزة بإمالة فتحة الراء فإذا وقف أتبعها الهمزة فأمالها مع جعلها بين بين على أصله فيصير بين ألفين ممالتين الأولى أميلت لإمالة فتحة الراء والثانية أميلت لإمالة فتحة الهمزة وهذا بحكم المشابهة غير أن هذا حقيقته على مذهبه والباقون يخلصون فتحة الراء والهمزة في حال الوصل فأما الوقف فالكسائي يقف بإمالة فتحة الهمزة فيميل الألف التي بعدها المنقلبة من الباء لإمالتها وورش يجعلها فيه بين بين على أصله في ذوات الياء والباقون يقفون بالفتح ﴿ٱلْجَمْعَانِ﴾ أي تقاربا بحيث يرى كل فريق من قوم موسى وقوم فرعون آخرين ﴿قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ يعني سيدركنا قوم فرعون ولا طاقة لنا بهم ﴿قَالَ﴾ موسى ثقة بوعد الله ﴿كَلَّآ﴾ لن يدركونا ﴿إن معي﴾ قرأ حفص بفتح الياء والباقون بإسكانها ﴿ربى﴾ بالعون والحفظ ﴿سَيَهْدِينِ﴾ أي يدلني على طريق النجاة ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ﴾ مفسرة لأوحينا لما فيه معنى القول ﴿ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ﴾ عطف على محذوف تقديره فضرب موسى عصاه على البحر فانفلق البحر إلى النيل ﴿فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ﴾ من الماء ﴿كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ﴾ كالجبل الضخم الثابت في مقره فدخل كل سبق في شعب من شعابها ﴿وَأَزْلَفْنَا﴾ أي قربنا ﴿ثَمَّ﴾ في ذلك المكان ﴿ٱلْءَاخَرِينَ﴾ يعني قوم فرعون ﴿وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾﴾ بحبس البحر عن الجريان إلى أن عبروا ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٦﴾﴾ يعني قوم فرعون ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ أي أنجاء موسى ومن معه وإهلاك فرعون وقومه ﴿لَءَايَةً﴾ حجة واضحة على صدق موسى عليه السلام ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم﴾ أي أكثر أتباع فرعون ﴿مُّؤْمِنِينَ﴾ قيل لم يكن آمن لموسى من آل فرعون إلا آسية إمرأة فرعون وحزئيل مؤمن آل فرعون الذي يكتم إيمانه وإمرأته ومريم بنت ناموسيا التي دلت على قبر يوسف عليه السلام ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ في الإنتقام من أعدائه ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ بأوليائه.

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ (٧٠) قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا
فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ (٧١) قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ (٧٢) أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ (٧٣) قَالُوا
بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ (٧٤) قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (٧٥) أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ
الْأَقْدَمُونَ (٧٦) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ (٧٧) الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (٧٨) وَالَّذِي هُوَ
يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (٧٩) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (٨٠) وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ (٨١) وَالَّذِي
أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ (٨٢) رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (٨٣)
وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ (٨٤) وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ (٨٥) وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ
مِنَ الضَّالِّينَ (٨٦) وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ (٨٧) يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (٨٨) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ
بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٩) وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ (٩٠) وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ (٩١) وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ
تَعْبُدُونَ (٩٢) مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ (٩٣) فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ (٩٤) وَجُنُودُ
إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ (٩٥) قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ (٩٦) تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٩٧) إِذْ
نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٩٨) وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ (٩٩) فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ (١٠٠) وَلَا صَدِيقٍ
حَمِيمٍ (١٠١) فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٢) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ
(١٠٣) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٠٤)﴾.

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ﴾ أي على أهل مكة عطف قوله ﴿إذ نادى ربك موسى﴾(١) لكونه مقدراً باذكر ﴿نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ، إِذْ قَالَ﴾ إبراهيم متعلق بمحذوف أي أذكر إذ قال بدل من قوله واتل عليهم ﴿لِأَبِيهِ﴾ آزر سماه الله أباً لكونه عماً ومربياً له ﴿وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ﴾ سألهم ليريهم أن ما يعبدونه لا يستحق العبادة ﴿قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ (٧١)﴾ أطالوا في الجواب تبجحاً وافتخاراً ونظل هاهنا بمعنى ندوم، وقال البغوي كانوا يعبدونها بالنهار دون الليل ﴿قَالَ﴾ إبراهيم ﴿هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ﴾ أي هل يسمعون دعاءكم، وقال ابن عباس معناه هل يسمعون لكم ﴿إِذْ تَدْعُونَ﴾ أورد صيغة المضارع مع إذ على حكاية الحال لماضية ﴿أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ﴾ على عبادتكم لها ﴿أَوْ يَضُرُّونَ﴾ أعرض عنها ﴿قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون﴾ يعنون أنها لا تسمع قولاً ولا تنفع نفعاً ولا تدفع ضرّاً بل اقتدينا بآبائنا يفعلون مفعول ثان لوجدنا وكذلك صفة لمصدر محذوف ليفعلون يعني بل ﴿وجدنا آباءنا يفعلون﴾

(١) سورة الشعراء، الآية: ١٠.

فعلاً كذلك الفعل أي كفعلنا ذلك ﴿قَالَ﴾ إبراهيم ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ﴾ ﴿أنتم وأباؤكم الأقدمون﴾ همزة الإستفهام للتقرير أي حمل المخاطب على الإقرار والفاء للعطف على محذوف وما إستفهامية والجملة الإستفهامية قائمة مقام مفعولي رأيتم أو موصولة وهي مع صلتها أول مفعولي رأيتم والثاني مقدر وتقدير الكلام أتأملتم فرأيتم الذي تعبدونه شيء لا ينفعكم لا يضركم ووصف الآباء بالتقدم للإشعار بأن التقدم لا يدل على الصحة ولا ينقلب به الباطل حقاً ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ﴾ قرأ نافع وأبو عمرو وورش بفتح الياء والباقون بإسكانها، يعني إن عبدتهم فإنهم عدولي أسند عداوتهم إلى نفسه تعريضاً وإشعاراً بأنهم أعداء لكم حيث يتضررون بعبادتها فوق ما يتضرر الرجل من عدوه، وهذا دأب الناصح الكريم يبدأ بنفسه والتعريض أنفع من التصريح ونظيره قوله تعالى: ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾[(١)] يعني مالكم لا تعبدونه وإطلاق العدو على الجمادات مبني على التجوز إما لوصول الضرر من جهتها أو بأعتبار ما يؤل الأمر إليه يوم القيامة قال الله ﴿سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾[(٢)] وإفراد العدو لأنه في الأصل مصدر على وزن فعول كالقبول أو على معنى أن كل معبود لكم فهو عدولي، وقيل يجوز إطلاق العدو والصديق على الواحد والجمع لأن كلَّ صفةٍ على وزن فعول أو فعيل يستعمل كذلك يقال رجل عدو وقوم عدو قال الله تعالى: ﴿فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾[(٣)] وقال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾[(٤)] ﴿إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ استثناء منقطع كأنه قال فأنهم عدو لي لكن رب العالمين وليي، وقيل إنهم كانوا يعبدون الأصنام مع الله تعالى فقال إبراهيم كل من تعبدونه عدو لي إلا ربَّ العالمين أو يقال كان من آبائهم من يعبد الله ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾﴾ فإنه يهدي كل مخلوق لما خلق له من أمور المعاش والمعاد قال الله ﴿وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾﴾[(٥)] هداية مدرجة من مبدأ الإيجاد إلى منتهى أجله يتمكن بها من جلب المنافع ودفع المضارّ مبدأها بالنسبة إلى الإنسان هداية الجنين إلى امتصاص دم الطمث من السرة ومنتهاها إلى طريق الجنة ولذائذها، الموصول مع صلتها صفة لرب العالمين أو خبر مبتدأ محذوف أي هو الّذي خلقني أو منصوب على

---

(١) سورة يس، الآية: ٢٢.
(٢) سورة مريم، الآية: ٨٢.
(٣) سورة النساء، الآية: ٩٢.
(٤) سورة الأنعام، الآية: ١١٢.
(٥) سورة الأعلى، الآية: ٣٠.

المدح والفاء للعطف واختلاف النظم لتقدم الخلق واستمرار الهداية والموصولات الثلاثة معطوفات عليه أو الموصول مبتدأ خبره ﴿فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ والفاء للسببية وقوله ﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾﴾ على هذا مبتدأ محذوف الخبر لدلالة ما قبله عليه وكذا اللذان بعده وتكرير للموصول على الوجوه كلها للدلالة على أن كل واحد من الصلات مستقلة لاقتضاء الحكم ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾﴾ عطفه على ﴿يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ﴾ لكونهما من روادفها فإن الصحة والمرض في الغالب يتبعان المأكول والمشروب، ولم ينسب المرض إلى الله تعالى مع أن المرض والشفاء كلاً منهما بخلقه سبحانه رعاية لحسن الأدب كما قال خضر ﴿فأردت أن اعيبها﴾[1] وقال ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا﴾[2] وأسند إلى نفسه هضماً ونظراً إلى أن ما أصاب الإنسان من مصيبة فبما كسبت يداه ولأن المقصود تعديد النعم، وأسند الموت إلى الله سبحانه لأن الموت من حيث أنه لا يحس به لا ضرر فيه وإنما الضرر في مقدماته وهي المرض ولأن الموت لأهل الكمال خلاص من أنواع المحن ووصلة إلى نيل النعم التي يستحقر دونها الحياة الدنيوية كما قيل الموت جسر يوصل الحبيب إلى الحبيب.

وفي الحديث «موت الفجاءة راحة للمؤمن وأخذة الأسف للفاجر» رواه أحمد والبيهقي بسند حسن عن عائشة مرفوعاً وفي الحديث «الموت كفارة لكل مسلم» رواه أبو نعيم في الحلية والبيهقي بسند ضعيف عن أنس ولأن المريض في الغالب يحدث بتفريط الإنسان في مطاعمه ومشاربه ولما بين الأخلاط والأركان من التنافي والتنافر والصحة إنما يحصل باستحفاظ اجتماعهما والاعتدال المحفوظ عليها قهراً بقدرة العزيز الحكيم ﴿وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾﴾ في الآخرة ﴿وَالَّذِيٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴿٨٢﴾﴾ ذكر ذلك هضماً لنفسه أو تعليماً لأمته أن يجتنبوا المعاصي ويكونوا على حذر منها ويطلبوا المغفرة لما صدر عنهم أو استغفاراً لما فات منه العزيمة وعمل بالرخصة شفقةً على أمته كيلا يضيق عليهم نطاق الأمر وحمل الخطيئة على كلماته الثلاث قوله ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾[3] وقوله ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ﴾[4] وقوله لسارة هذه أختي كما قال به

---

(١) سورة الكهف، الآية: ٧٨.

(٢) سورة الكهف، الآية: ٨٢.

(٣) سورة الصافات، الآية: ٨٩.

(٤) سورة الأنبياء، الآية: ٦٣.

مجاهد، وقوله للكوكب هذا ربي كما قال الحسن زائداً على الثلاث ضعيف لأنها معاريض وليست بخطايا والله أعلم. روى البغوي عن مسروق عن عائشة أنها قالت يا رسول الله ابن جدعان في الجاهلية كان يصل الرحم ويطعم المساكين فهل كان نافعه؟ قال لا ينفعه إنه لم يقل يوماً ﴿رب أغفر لي خطيئتي يوم الدين﴾. وهذا كله احتجاج من إبراهيم على قومه وإشعار بأنه من لا يستطيع أن يفعل هذا لا يصلح للألوهية ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا﴾ أي كمالاً في العلم والعمل بحيث يستعد خلافة الحق ورياسة الخلق ﴿وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ ووفقني الكمال في العمل حتى أنتظم في سلك الصالحين الذين لا يشوبهم فساد أصلاً وهم الأنبياء المعصومون ﴿وأجعل لي لسان صدق في الآخرين﴾ يعني ثناءً حسناً وذكراً جميلاً مطابقاً للواقع وقبولاً عامّاً في الأمم اللآتي يأتين من بعدي والمعنى يكون لسان الآخرين في ثنائي صادقاً ﴿وأجعلني من ورثة جنة النعيم﴾ في الآخرين ﴿واغفر لأبي﴾ قرأ نافع وأبو عمرو وورش بفتح الياء والباقون بإسكانها يعني إغفره بالهداية والتوفيق للإيمان ﴿إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ﴾ عن طريق الحق، وكان هذا الدعاء قبل أن يتبين له أنه عدو لله ولم يقدر له الهداية والإيمان قال الله تعالى: ﴿وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه﴾(١) أو لأنه لم يمنع بعد الإستغفار للكفار ﴿وَلَا تُخْزِنِي﴾ أي لا تفضحني بمعاتبتي على ما فرطت أو ينقص مرتبتي عن مرتبة الصالحين من الخزي بمعنى الهوان أو من الخزاية بمعنى الحياء ﴿يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ الضمير للعباد لكونهم معلومين أو للضالين، أخرج الشيخان في الصحيحين عن ابن عمر أنه سئل كيف سمعت رسول الله ﷺ يقول في النجوى قال: «يدنو أحدكم من ربه حتى يضع كنفه عليه فيقول عملت كذا وكذا فيقول نعم ثم يقول نعم ثم يقول إني سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم ثم يعطى كتاب حسناته بيمينه، وأما الكافر والمنافق فينادى به على رؤوس الأشهاد هؤلاء الَّذين كذَّبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين»(٢) ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ أي خالص من الشرك والشك فأما الذنوب فليس يسلم منها أحد، قال البغوي هذا قول أكثر المفسرين، قال سعيد بن جبير القلب السليم قلب المؤمن وقلب الكافر والمنافق مريض، قال أبو عثمان النيشافوري

---

(١) سورة التوبة، الآية: ١١٤.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: المظالم، باب: قول الله تعالى ﴿أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ (٢٤٤١)، وأخرجه مسلم في كتاب: التوبة، باب: قبول توبة القاتل وإن كثر قتله (٢٧٦٨).

هو القلب الخالي عن البدعة المطمئن إلى السنة يعني أهل السنة والجماعة يعني لا ينفع مال ولا بنون أحداً إلا مؤمناً فالمستثنى مفرغ في محل النصب أولا ينفع مال ولا بنون إلا مال مؤمن وبنوه فالمستثنى في محل الرفع على البدلية، والحاصل أن الكافر وإن بذل ماله في صلة الرحم وإطعام المساكين لا ينفعه لعدم إسلامه وكذا بنوه وإن كانوا صلحاء أو أنبياء لا ينفعون أبائهم بالشفاعة أو الاستغفار ﴿ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربي﴾[١] روى البخاري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «يلقى إبراهيم أباه آزو يوم القيامة وعلى وجه آزر قترة وغبرة فيقول له إبراهيم ألم أقل لك لا تعصني فيقول له أبوه فاليوم لا أعصيك، فيقول إبراهيم يا رب إنك وعدتني أن لا تخزني يوم يبعثون فأي خزي أخزى من أبي الأبعد، فيقول الله إني حرمت الجنة على الكافرين، ثم يقال يا إبراهيم أنظر ما تحت رجليك فينظر فإذا بذبح متلطخ فيؤخذ بقوائمه فيلقى في النار فيتبرأ منه يومئذٍ»[٢] إنتهى. وأما المؤمن فينفعه ماله الذي أنفقه في الطاعة وولده بالشفاعة والإستغفار، وقيل الإستثناء منقطع والمعنى ولكن سلامة من أتى الله بقلب سليم ينفعه ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ۝٩٠﴾ بحيث يرونها من الموقف بأنهم للمحشورون ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ۝٩١﴾ فيرونها مكشوفة ويرون أنهم يساقون إليها، قال البيضاوي وفي اختلاف القولين ترجيح لجانب الوعد ﴿وَقِيلَ لَهُمْ﴾ أي للغاوين ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ﴾ يعني أين الذين كنتم تعبدونها وترجون شفاعتها ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ حال من الضمير المنصوب ﴿هَلْ يَنصُرُونَكُمْ﴾ الاستفهام للإنكار والتوبيخ أي هل يمنعونكم من العذاب ﴿أَوْ يَنتَصِرُونَ﴾ أي يدفعون العذاب عن أنفسهم بل هم وما يعبدون من دون الله حصب جهنم ﴿فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا﴾، قال البغوي قال ابن عباس أي جمعوا وقال مجاهد دهوروا قال مقاتل قذفوا وقال الزجاج طرح بعضهم على بعض، وقال القتيبي ألقوا على رؤوسهم وفي القاموس كبه أي قَلَّبه وصرعه كأكبّه وكبكبه فأكب وهو لازم يعني كبّ وكبكب بمعنى واحد، وقال البيضاوي كبكب تكرير الكب لتكرير معناه كأنّ من ألقى في النار ينكب مرّة بعد أخرى حتى يستقر في قعرها ﴿هُمْ﴾ يعني الآلهة الباطلة ﴿وَٱلْغَاوُۥنَ﴾ أي عابدوها ﴿وَجُنُودُ إِبْلِيسَ﴾ أي متبعوه من عصاة الثقلين ويقال ذريته ﴿أَجْمَعُونَ﴾ تأكيد للجنود إن جعل مبتدأ خبره ما بعده أو للضمير المرفوع في كبكبوا مع ما عطف عليه ﴿قَالُوا۟﴾ يعني الغاوون للشياطين والمعبودين ﴿وَهُمْ

(١) سورة التوبة، الآية: ١١٣.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: أحاديث الأنبياء، باب: قول الله تعالى ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ (٣٣٥٠).

﴿فِيهَا يَخْتَصِمُونَ﴾ حال من فاعل قالوا والضمير المرفوع المنفصل يعود إلى العابدين والمعبودين جميعاً، ينطق الله الأصنام فيخاصمون العبدة ﴿تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾﴾ إن مخففة من الثقيلة واللام فارقة والجملة مقولة قالوا ﴿إِذْ نُسَوِّيكُم﴾ أيها المعبودون في استحقاق العبادة ﴿برب العالمين﴾ إذ نسويكم متعلق بقوله كنا ويجوز أن يكون الضمير المنفصل وما يعود إليه راجعاً إلى العبدة فحسب كما في قالوا بناءً على عدم صلاحية الإختصاص في الأصنام والخطاب إلى الأصنام وفائدة الخطاب المبالغة في التحسر والندامة والمعنى أنهم مع تخاصمهم في مبدأ إضلالهم معترفون بانهماكهم في الضلالة فيتحسرون عليها ﴿وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾﴾ قال مقاتل يعنون الشياطين، وقال الكلبي الأولين الذين اقتدوا بهم ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾﴾ كما أن للمؤمنين شفعاء من النبيين والملائكة وإخوانهم الصالحين ﴿وَلَا صَدِيقٍ﴾ أي صادق في المودة جمع الشافع ووحّد الصديق لكثرة الشفعاء في العادة وقلة الصديق ولأن الصديق الواحد يسعى أكثر مما يسعى الشفعاء ولإطلاق الصديق على الجمع كالعدو كما ذكرنا أن وزن فعول وفعيل يجيىء في الجمع والواحد ولأنه في الأصل مصدر كالجنين والصهيل ﴿حَمِيمٍ﴾ أي قريب، في القاموس حميم كأمير القريب جمعه أحماء وقد يكون الحميم للجمع والمؤنث يعنون أنه ليس لنا صديق ولا ريب يشفع لنا فإن ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾﴾[1] روى البغوي عن جابر بن عبد الله يقول سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الرجل ليقول في الجنة ما فعل صديقي فلان وصديقه في الجحيم فيقول الله تعالى أخرجوا له صديقه إلى الجنة فيقول من بقي فَمَا لَنَا من شَافعين وَلاَ صديقُ حميم» قال الحسن استكثروا من الأصدقاء المؤمنين فإن لهم شفاعة يوم القيامة ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً﴾ أي رجعة إلى الدنيا تمنى للرجعة أقيم فيه لو مقام ليت لاشتراكهما في معنى التقدير أو شرط حذف جوابه يعني لكان خيراً ﴿فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ جواب للتمني أو عطف على كرة ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ أي فيما ذكر من قصة إبراهيم ﴿لَءَايَةً﴾ أي لحجة واضحة لمن أراد أن يستبصر بها ويعتبر فإنها جاءت على نظم ترتيب وأحسن تقرير يتفطن المتأمل فيها لغزارة علمه لما فيها من الإشارة إلى أصول العلوم الدينية والتنبيه على دلائلها وحسن دعوته للقوم وحسن مخالفته معهم وكمال إشفاقه عليهم وتصوير الأمر في نفسه وإطلاق الوعد والوعيد على سبيل الحكاية تعريضاً وإيقاظاً ليكون أدعى لهم إلى الاستماع والقبول وأيضاً فيه حجة

---

(١) سورة الزخرف، الآية: ٦٧.

واضحة على صدق دعوى محمد ﷺ ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم﴾ أي أكثر قومه ﴿مُّؤْمِنِينَ﴾ به ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ القادر على الانتقام ﴿الرَّحِيمُ﴾ بإهمال الكفار لكي يؤمنوا به هم أو واحد من ذريتهم. وإنعام المؤمنين.

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١١٠﴾ قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿١١٥﴾ قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾﴾.

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾﴾ القوم مؤنث ولذلك تصغر على قويمة، أورد المرسلين بصيغة الجمع والمراد به الجنس يقال فلان يركب الخيل وإن لم يكن له إلا فرس واحد أو لأنهم كانوا ينكرون بعث الرسل، وروي عن الحسن البصري أنه قيل له يا أبا سعيد أرأيت قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾﴾ كذبت عادٌ المرسلين وكذبت ثمود المرسلين.

وإنما أرسل إليهم رسول واحد قال إن الآخر جاء بما جاء الأول فإذا كذّبوا واحداً كذّبوا الرسل ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ﴾ في النسب لا في الدين ﴿نُوحٌ﴾ عطف بيان للأخ ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ الله فتتركون عبادة غيره ﴿إِنِّي لَكُمْ﴾ لهدايتكم إلى ما هو خير لكم ﴿رَسُولٌ﴾ من الله ﴿أمين﴾ على وحيه مشهور فيكم بالصدق والأمانة ﴿فاتقوا الله﴾ اجتنبوا من عذابه ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ فيما أمركم به من التوحيد والعبادة لله وحده ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ أي على دعائكم إلى الله والنصح ﴿مِنْ أَجْرٍ﴾ حتى تتهموني في النصح بالطبع ﴿إن أجري﴾ قرأ نافع وابن عامر وأبو عمرو وحفص بفتح الياء والباقون بإسكانها ﴿إلا على رب العالمين، فاتقوا الله وأطيعون﴾ كرره للتأكيد والنسبية على أن دلالة كل واحد من أمانته وعدم طمعه مستقلة على وجوب طاعته فيما يدعوهم إليه فكيف إذا اجتمعا ﴿قَالُوا﴾ يعني قومه إنكاراً عليه ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ﴾ حال بتقدير قد قرأ يعقوب أتباعك جمع تابع كشاهد وإشهاد أو تبع كبطل وإبطال ﴿الْأَرْذَلُونَ﴾ جمع أرذل على وزن أعوس على السلامة في القاموس وهو

الدون الخسيس، قال البيضاوي الأقل جاهاً ومالاً، قال البغوي السفالة وعن ابن عباس الصاغة، قال عكرمة الحاكة والأساكفة وهذا من سخافة عقلهم وقصور رأيهم على حطام الدنيوية حتى جعلوا الاتباع فيها مانعاً عن إتباعهم وإيمانهم بما يدعوهم إليه ودليلاً على بطلانه وأشاروا بذلك إلى أن إتّباعهم ليس عن نظر وبصيرة وإنما هو لتوقع مال ورفعة فلذلك ﴿قَالَ﴾ نوح ﴿وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ يعني أني لا أعلم أنهم عملوا ذلك الإتباع إخلاصاً لله أو طمعاً في رفعة في الدنيا وما عليَّ إلا اعتبار الظاهر ﴿إِنْ حِسَابُهُمْ﴾ يعني ما حسابهم على بواطنهم ﴿إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي﴾ فإنه المطلع عليها ﴿لَوْ تَشْعُرُونَ﴾ يعني لو كان لكم شعور لأدركتم ذلك ولكن الله عطل مشاعركم عن درك الحق وأعمى بصائركم، قال البغوي يعني لو علمتم ذلك عبدتم لصنائعهم، قال الزجاج الصناعات لا يضر في الديانات ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾﴾ جواب لما أوهم قولهم من إستدعاء طردهم ﴿إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٥﴾﴾ كالعلة لعدم الطرد يعني سواء كانوا أعزاء وأذلاء فكيف يسوغ لي طرد الفقراء لاستتباع الأغنياء إذ ما عليَّ إلا إنذاركم.

قال الضحاك: إنذاراً بيناً بالبرهان الواضح فلا عليَّ أن أطردهم لاسترضائكم ﴿قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ﴾ عما نقول ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ﴾ من المشتومين كذا، قال الضحاك أو من المقتولين بالحجارة كذا قال مقاتل والكلبي ﴿يا رب إن قومي كذبون﴾ إظهار لما يدعو إلى دعائه عليهم وهو تكذيب الحق لا تخويفهم إياه واستخفافهم به ﴿فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا﴾ من الفتاحة ﴿وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ﴾ قرأ ورش وحفص بفتح الياء والباقون بإسكانها ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ من قصدهم أو شؤم عملهم ﴿فأنجيناه ومن معه في الفلك المشحون﴾ المملوء ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ﴾ أي بعد إنجائه والمؤمنين ﴿ٱلْبَاقِينَ﴾ من قومه وهم الكافرون ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً﴾ شاعت وتواترت ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩﴾﴾.

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾ قَالُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾﴾.

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ أنثه باعتبار القبيلة وهو في الأصل اسم أبيهم ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ﴾ في النسب في الدين ﴿هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ عذاب الله بالتوحيد وترك الإشراك ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾﴾ أمين على الرسالة، قال الكلبي أمين فيكم قبل الرسالة يعني ما كنتم تتهموني قبل ذلك فكيف تتهموني اليوم ﴿فأتقوا الله وأطيعون وما أسألكم عليه من اجر إن أجرى﴾ قرأ نافع وابن عامر وأبو عمرو وحفص بفتح الياء والباقون بإسكانها ﴿إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فإن أداء الرسالة طاعة لله تعالى فأجره عليه.

مسألة:

لا يجوز أخذ الأجرة على الطاعة وإلا لا تكون الطاعة طاعة لله تعالى ولا يستحق الأجر من الله تعالى ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ﴾ الإستفهام للتوبيخ أو التقرير والإستغراق في كل ريع غير حقيقي بل المراد به الكثير بالكثرة في نفسها دون الكثرة بالإضافة، قال الوالبي عن ابن عباس أي بكل شرف يعني بكل مكان مرتفع وريع الأرض لنمائها.

وقال الضحاك ومقاتل بكل طريق وهو رواية العوفي عن ابن عباس وعن مجاهد هو الفج بين الجبلين وعنه أيضاً المنظر، وفي القاموس الريع بالكسر والفتح المرتفع من الأرض والطريق المنفرج في الجبل أو الجبل المرتفع أو مسيل الوادي من كل مكان مرتفع وبالكسر الصومعة وبرج الحمام ﴿ءَايَةً﴾ أي علامة مذكرة للباني ﴿تَعْبَثُونَ﴾ أي تفعلون فعلاً لا يفيدكم في الآخرة بل في الدنيا أيضاً أو معنى الآية علامة للمارّة تعبثون ببنائها إذ كانت المارة والسابلة فيسخرون منهم ويعبثون بهم، وعن سعيد بن جبير هذا في بروج الحمام أنكر عليهم هود اتخاذها بدليل قوله تعبثون أي تلعبون وهم كانوا يلعبون بالحمام، قلت: والظاهر أنهم كانوا يبنون قصوراً أو بروجاً وقلاعاً تبقى على وجه الأرض بمر الدهور تكون ذلك علامة مذكرة لمن بناه كما هو دأب أهل الدنيا يدل عليه قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٨﴾﴾[1] وكل ذلك عبث فأنكر عليهم هود عليه السلام كما أنكر النبيّ ﷺ حيث قال: «إذا أراد الله بعبد شرّاً حصر له في اللبن والطين حتى يبنى» رواه الطبراني بسند جيد من

---

(١) سورة الفجر، الآية: ٦ ـ ٨.

حديث جابر ورواه في الأوسط من حديث أبي البشر الأنصاري بلفظ «إذا أراد الله بعبد هواناً أنفق ماله في البنيان» وقال ﷺ: «كل بنيان وبال على صاحبه إلا ما كان هكذا، وأشار بكفه» رواه الطبراني بسند حسن عن واثلة بن الأسقع، وعن أنس أن رسول الله ﷺ «خرج يوماً ونحن معه فرأى قبة مشرفة فقال ما هذه؟ قال أصحابه هذه لفلان رجل من الأنصار فسكت وحملها في نفسه حتى إذا جاء صاحبها رسول الله ﷺ سلَّم عليه في الناس فأعرض عنه صنع ذلك مراراً حتى عرف الرجل الغضب منه والإعراض عنه فشكى ذلك إلى أصحابه، فقال والله إني لأنكر رسول الله ﷺ قالوا خرج فرأى قبتك فرجع الرجل إلى قبته فهدمها حتى سواها بالأرض فخرج رسول الله ﷺ ذات يوم فلم يرها، قال ما فعلت القبة؟ قالوا شكى إلينا صاحبها إعراضك عنه فأخبرناه فهدمها، فقال أما إن كل بناء وبال على صاحبه إلا مالا إلا مالا»[1] رواه أبو داود واللفظ له يعني إلا ما لا بد منه، وروى أحمد وابن ماجه عن أنس عنه ﷺ «أما إن كل بناء فهو وبال على صاحبه يوم القيامة إلا ما كان في مسجد أو دارٍ» ويدل على ما ذكرت قوله تعالى ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ﴾ مأخذ الماء وقصوراً مشيدة وحصوناً عطف على تبنون ﴿لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ كأنكم تبقون فيها أبداً فتحكمون بنائها.

مسألة:

يكره طول الأمل ويستحب قصره، عن ابن عمر قال «أخذ رسول الله ﷺ ببعض جسدي فقال: «كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل وعدّ نفسك من أصحاب القبور»[2] رواه البخاري، وعن عبد الله بن عمرو قال: «مرَّ بنا رسول الله ﷺ وأنا وأمي نطين شيئاً، فقال ما هذا يا عبد الله؟ قلت شيء نصلحه، قال الأمر أسرع من ذلك»[3] رواه أحمد والترمذي، وقال هذا حديث غريب، وعن ابن عباس أن رسول الله ﷺ كان يهريق الماء فيتيمم بالتراب فأقول يا رسول الله إن الماء منك قريب فيقول: «ما يدريني لعلي لا أبلغه» رواه البغوي في شرح السنة وابن الجوزي في كتاب الوفاء ﴿وَإِذَا بَطَشْتُم﴾

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب: الأدب، باب: في البناء (٥٢٢٨).

(٢) أخرج البخاري فقط «كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل» في كتاب: الرقاق، باب: قول النبي ﷺ «كن في الدنيا كأنك غريب» (٦٤١٦).
أما الحديث بكامله فهو عند الترمذي في كتاب: الزهد، باب: ما جاء في قصر الأمل (٢٣٣٣).

(٣) أخرجه الترمذي في كتاب: الزهد، باب: ما جاء في قصر الأمل (٢٣٣٥).

أخذتم أخذاً بالعنف تعذيباً، الظرف متعلق بقوله ﴿بَطَشْتُم﴾ معطوف على تبنون ﴿جَبَّارِينَ﴾ قتالين في غير حق بلا رأفة في القاموس الجبار المتكبر وقلب لا يدخله رحمة والقتال في غير حق ﴿فأتقوا الله﴾ بترك هذه الأشياء ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ فيما أدعوكم إليه فإنه أنفع لكم ﴿وَاتَّقُوا الَّذِيٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ كرر الأمر بالتقوى مرتباً على إمداد الله إياهم بما يعرفونه من أنواع النعم تعليلاً له وتنبيهاً على الواعد بدوام الإمداد والوعيد على تركه بالانقطاع ثم فصّل بعض تلك النعم كما فصل بعض مساوئهم المدلول عليها آجلاً بالإنكار في ألا تتّقون مبالغة في الاتعاظ والحث على التقوى فقال ﴿أمدكم بانعام وبنين وجنات وعيون﴾ بدل من أمدكم السابق ثم أوعدهم فقال ﴿إِنِّي﴾ فتح الياء حرميان وأبو عمرو والباقون يسكنونها ﴿أَخَافُ عَلَيْكُمْ﴾ إن عصيتموني كذا قال ابن عباس ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ في الدنيا أو الآخرة فإن القادر على الإنعام قادر على الإنتقام والجملة في مقام التعليل.

﴿قَالُوا﴾ يعني قوم هود في جوابه ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ﴾ مصدر بمعنى المفعول غير مقدم لقوله ﴿أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ﴾ مبتدأ بتأويل المصدر، يعني مستوٍ عندنا وعظك إيانا وعدمه لا نترك ما نحن عليه بوعظك والوعظ كلام يلين القلب بذكر الوعد والوعيد غيَّر شق النفي عما يقتضيه المقابلة حيث لم يقل أوعظت أم لم تعِظ للمبالغة في عدم اعتدادهم لوعظه ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾﴾ قرأ أبو جعفر وأبو عمرو والكسائي ويعقوب بفتح الخاء وسكون اللام يعني ما هذا الذي جئتنا به من الوعظ إلا كذب الأولين.

واختلاقهم كما في قوله تعالى: ﴿وتخلقون إفكا﴾[1] أو المعنى ما خلقنا هذا إلا خلق الأولين نحيى ونموت، مثلهم لابعث ولا حساب، وقرأ نافع وابن عامر وعاصم وحمزة وابن كثير بضمتين أي ما هذا الّذي جئتنا به إلاعادة أولين كانوا يكذبون مثله وما هذا الذي نحن عليه من الدين إلا خلق الأولين وعادتهم، ونحن بهم مقتدون أو ما هذا الذي نحن عليه من الحياة والموت إلا عادة قديمة لم يزل الناس عليها ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾﴾ على ما نحن عليه ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ تأكيد وتقرير لما سبق من قوله: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾﴾ على بعض التأويلات ﴿فَأَهْلَكْنَاهُمْ﴾ السبب التكذيب بريح صرصرٍ كما ذكر في غير هذا الموضع ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾﴾ فيه إشارة إلى أنه لو آمن أكثرهم أو شطرهم لما أخذوا بالعذاب وأن قريشاً إنما عصموا عن مثله ببركة من آمن منهم

---

(١) سورة العنكبوت، الآية: ١٧.

قال الله تعالى: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ﴾ إلى قوله: ﴿لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾[١] ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩﴾﴾.

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٥﴾ أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا۟ نَٰدِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾﴾.

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ﴾ قرأ نافع وابن عامر وأبو عمرو وحفص بفتح الياء والباقون بإسكانها ﴿إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَٰهُنَآ﴾ إنكار لتركهم فيما أنعموا في الدنيا أو تذكير بالنعمة في تخلية الله إياهم في أسباب التنعم ﴿ءَامِنِينَ﴾ غير خائفين من العذاب، ثم فسر ما هاهنا بقوله ﴿فِى جَنَّٰتٍ﴾ مع ما عطف عليه بدل من قوله فيما هاهنا ﴿وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا﴾ أي ثمرتها ﴿هَضِيمٌ﴾ قال ابن عباس أي لطيف ومنه هضيم الكشح إذا كان لطيفاً، وروى عطية عنه نافعٌ نضيح، وقال عكرمة هو اللين، وقال الحسن هو الرخو وقال مجاهد منهشهم متفتت إذا يبس وذلك أنه أما دام رطباً فهو هضيم فإذا يبس فهو هشيم، وقال الضحاك ومقاتل قد رَكِبَ بعضها بعضاً أي كثير، وقال أهل اللغة هو المنضم بعضه إلى بعض في دعائه قبل أن يظهر، قال الأزهري هو الداخل بعضه في بعض، وقيل هضيم أي هاضم يهضم الطعام وكل هذا للطافة ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا﴾ عطف على قوله آمنين لتضمنه معنى الفعل على طريقة ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا﴾[٢] والتقدير تأمنون وتنحتون أو حال من ضمير آمنين بتقدير وأنتم

---

(١) سورة الفتح، الآية: ٢٥. (٢) سورة الأنعام، الآية: ٩٦.

تنحتون ﴿فارهين﴾ قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو فرهين وهو أبلغ لأنه صفة مشبهة يدل على الدوام والباقون فارهين، يعني حاذقين بنحتها من قولهم فره الرجل فراهة فهو فاره، وقال عكرمة معناه ناعمين، وقال قتادة معجبين بصنيعكم وقال السديُّ متحيرين، وقال الاخفش فرحين والعرب يعاقب بين الحاء والهاء مثل مدحته ومدهته وقال أي شرهين يعني حريصين والشره غلبة الحرص، وقال أبو عبيدة مرحين أشرين بطرين وهو الطغيان بالنعمة وعدم قبول الحق تكبراً ﴿فاتقوا الله وأطيعون﴾ ﴿وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمۡرَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿١٥١﴾﴾ قال ابن عباس أي المشركين وقال مقاتل هم التسعة الذي عقرو الناقة ﴿ٱلَّذِينَ يُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ بالمعاصي ﴿وَلَا يُصۡلِحُونَ﴾ ولا تطيعون الله فيما أمرهم به.

﴿قَالُوٓاْ﴾ يعني ثمود ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ﴾ أي من المسحورين المخدوعين كذا قال مجاهد وقتادة، وقال الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس من المخلوقين المعللين بالطعام والشراب يقال سحره أي علله بالطعام والشراب يعني أنك تأكل الطعام والشراب ولست بملك بل ﴿مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا﴾ فلا أنت بنبي أو المعنى إنك ذو سحر وهي الرية أي إنسان فحينئذ ما أنت إلا بشرٌ مثلنا تأكيد له ﴿فأت بآية﴾ دليل على صحة قولك ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ في دعواك، فأخرج الله سبحانه ناقة من الصخرة بدعائه على ما اقترحوا آية على صدقه حتى ﴿قَالَ﴾ صالح ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةٞ﴾ آية صدقي ﴿لَّهَا شِرۡبٞ﴾ أي حظ ونصيب من الماء صفة لناقة ﴿وَلَكُمۡ شِرۡبُ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ﴾ فأقتصروا على شربكم ولا تزاحموها في شربها والجملة حال عن الضمير المستكن في لها شرب، فكانت الناقة تشرب الماء كله في يوم نوبتها ولا تشرب أصلاً في يوم نوبتهم وهذا دليل على جواز المهايأة ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ﴾ أي بضرب وعقر عطف على هذه ناقة ﴿فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابُ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ أي يوم عظيم عذابه وهو أبلغ من تعظيم العذاب لأن الوقت إذا عظم بسببه كان وقعه من العظمة أشد ﴿فَعَقَرُوهَا﴾ عطف على قال نسب العقر إلى الكل مع صدوره من بعضهم لأمرهم ورضائهم به وكذلك أخذوا في العذاب كلهم ﴿فَأَصۡبَحُواْ نَٰدِمِينَ﴾ على عقرها خوفاً من نزول العذاب لا توبة أو عند معاينة العذاب حين لا ينفعهم ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلۡعَذَابُ﴾ الموعود ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩﴾﴾.

﴿كَذَّبَتۡ قَوۡمُ لُوطٍ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ ﴿١٦٢﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٦٤﴾ أَتَأۡتُونَ ٱلذُّكۡرَانَ مِنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُمۚ بَلۡ

أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ الْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾».

«كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ» قرأ نافع وأبو عمرو وابن عامر وحفص بفتح الياء والباقون بإسكانها «إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٥﴾» جملة أتأتون بيان أو بدل، لقوله ألا تتقون يعني أتأتون من دون من عداكم من العالمين الذكران تجامعونهم لا يشارككم فيه غيركم أو أتأتون الذكران بالجماع دون النساء من العالمين من أولاد آدم عليه السلام مع كثرتهم وغلبة النساء فيهم، فالمراد بالعالمين على الأول كل من ينكح وعلى الثاني الناس «وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم» لأجل إستمتاعكم «مِّنْ أَزْوَاجِكُم» من للبيان إن أريد بما جنس الإناث وللتبعيض إن أريد به العضو المباح منهن فإنهم كانوا يفعلون ذلك بنسائهم أيضاً كما تفعله الرافضة. وفيه دليل على حرمة إدبار الزوجات والمملوكات «بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ» مجاوزون من حد الحلال إلى الحرام في قضاء الشهوة زدتم في قضائها على سائر الناس بل على الحيوانات أو مفرطون في المعاصي وهذا من جملة ذلك أو أحقاء بأن توصفوا بالعدوان لأرتكاب هذه اللائمة.

«قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ» جواب قسم محذوف «يَا لُوطُ» عما تدعيه أو عن نهينا بقبيح أمرنا «لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ» من قريتنا «قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ الْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾» من المبغضين، فآية البغض لا أبالي من الإخراج وهو أبلغ من أن يقول إني لعملكم قال لدلالته على أنه معدود في زمرتهم مشهور بأنه من جملتهم وكذلك قوله «بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ» مكان تعدون ثم لما ظهر عند لوط عدم تأثير دعوته فيهم دعا ربه أن ينجوه من مصاحبتهم ويعافيهم عما يلحقهم من العذاب فقال «رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾» أي من شؤمه وعذابه «فَنَجَّيْنَاهُ» عطف على قال المقدر قبل قوله «رَبِّ نَجِّنِي» «وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ» أي أهل بيته ومتبعيه في دينه إخراجهم من بينهم وحلول العذاب بهم دونه «إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴿١٧١﴾» مقدرة في الباقين في العذاب والهلاك أصابها حجر في الطريق فأهلكها لأنها كانت مائلة إلى القوم راضية بفعلهم وقيل كانت فيمن بقي في القرية و لم يخرج مع لوط عليه السلام «ثُمَّ دَمَّرْنَا» أي أهلكنا «الْآخَرِينَ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا» قال وهب بن منبه الكبريت والنار «فساء مطر المنذرين»اللام فيه

للجنس حتى يصح وقوع المضاف إليه فاعل ساء والمخصوص بالذم محذوف وهو ممطرهم

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾
كَذَّبَ أَصْحَابُ لْئَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ
﴿١٧٨﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ
﴿١٨٠﴾ ۞ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا
تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ
﴿١٨٤﴾ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ
﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ
﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ
وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾ وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ
﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾
وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٩٧﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ
بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾

قرأ أبو عمرو وعاصم وحمزة وبفتح اللام والتاء غير مهموز وهو إسم بلد غير منصرف ولم يختلفوا في سورة الحجر وق فإنهما مهموزتان مكسورتان مع سكون اللام غير أن ورشاً يلقي حركة الهمزة على اللام على أصله والأيكة الغيضة من الشجر الملتف كانت غيضة بقرب مدين يسكنها طائفة فبعث الله تعالى إليهم شعيباً كما بعثه إلى مدين وكان شعيب من أهل مدين ولم يكن من أصحاب الأيكة ولذلك قال ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ﴾ ولم يقل أخوهم شعيب كما قال في ذكر مدين ﴿أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾[1] لأنه كان منهم نسباً ﴿أَلَا تَتَّقُونَ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ﴾ قرأ نافع وأبو عمرو وابن عامر وحفص بفتح الياء والباقون بإسكانها ﴿إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ إنما كانت دعوة هؤلاء الأنبياء كلهم فيما حكى الله عنهم على صيغة واحدة لاتفاقهم على الأمر بالتقوى والطاعة والإخلاص في العبادة، والإمتناع من طلب الأجر على الدعوة وتبليغ الرسالة ومن ثم قال الله تعالى: ﴿إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٨٥.

بعده﴾[١] وقال الله تعالى: ﴿أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾[٢] ﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ﴾ يعني أتموه الجملة مع ما عطف عليه بيان للتقوى ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ﴾ الناقصين لحقوق الناس بالتطفيف ﴿وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ﴾ قرأ حمزة والكسائي بكسر القاف والباقون بضمها وهو الميزان وهو إن كان عربياً فإن كان من القسط بمعنى العدل ففعلاع بتكرير العين وإلا فهو فعلال رباعي ﴿الْمُسْتَقِيمِ﴾ المستوي الذي لا تطفيف فيه ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ أي لا تنقصوا شيئاً من حقوقهم ﴿وَلَا تَعْثَوْا﴾ أي لا تفسدوا ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ بالقتل والغارة وقطع الطريق والنهب وغير ذلك ﴿مُفْسِدِينَ﴾ يعني قاصدين الفساد فمن وقع منه نوع فساد بنية الإصلاح كمن رمىٰ كافراً (تترس بأسير مسلم) يليه الكافر وأصاب الأسير المسلم فلا غرم عليه ومن وقع منه فساد خطأ من غير قصد فهو غير مفسد ﴿واتقوا الذي خلقكم والجبلة الأولين﴾ أي ذوي الجبلة الأولين يعني من تقدمهم من الخلائق.

﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ الواو للعطف على ما سبق للدلالة على أنه جامع بين وصفين متنافيين للوسلة مبالغةً في تكذيبه وجاز أن يكون حالاً مما سبق ﴿وَإِنْ نَظُنُّكَ﴾ يعني وإنا نظنك ﴿لَمِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ في دعواك ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا﴾ قرأ حفص هاهنا وفي سبأ بفتح السين والباقون بسكونها أي قطعة ﴿مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ في دعواك ﴿قَالَ﴾ شعيب ﴿رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من بخس الكيل والوزن وغير ذلك وهو يجازيكم عليه إن شاء وليس العذاب إليّ وما علي إلا الدعوة ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ﴾ وذلك أنه أخذهم حر شديد وكانوا يدخلون الأسراب فإذا دخلوها وجدوها أشد حراً فأظلهم سحابة وهي الظلة فاجتمعوا إليها فأمطرت عليهم ناراً فاحترقوا قد ذكر القصة في سورة هود ﴿إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٩﴾﴾هذا آخر القصص السبع المذكورة على الاختصار تسلية لرسول الله ﷺ وتهديداً للمكذبين به.

﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٩٧﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأْتِيَهُمْ

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٦٣. (٢) سورة الشورى، الآية: ١٣.

بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَاءَهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾ وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢٠٩﴾ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾ فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾﴾.

﴿وَإِنَّهُ﴾ أي القرآن ﴿لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ مصدر بمعنى المفعول يعني منزل من رب العالمين عطف على قوله ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾﴾ حال بتقدير قد أو تأكيد لما سبق أو علة لكونه تنزيلاً من الله، قرأ أهل الحجاز وأبو عمرو وحفص نزل بالتخفيف ﴿الروح الأمين﴾ بالرفع على الفاعلية يعني نزل بالقرآن الروح الأمين يعني جبرائيل عليه السلام وهو أمين الله على الوحي إلى الأنبياء، وقرأ ابن عامر وأبو بكر وحمزة والكسائي بتشديد التاء ونصب الروح الأمني على المفعولية يعني نزّل الله جبرئيل بالقرآن ﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ يا محمد حتى وعيته والمراد بالقلب هو القلب الصنوبري دون اللطيفة الربانية اللامكانية التي أصلها فوق العرش وبرزتها في القلب الصنوبري لأنه من عالم الأمر وهو لا يحتمل إعياء الوحي والنبوة بل الحامل لها هو القلب الصنوبري الجامع للعناصر والنقش وبرزات عالم الأمر ومن ثم لم يوجد الإيحاء إلا بعد كمال، البدن أو بلوغه أشُدَّه عند أربعين سنة ﴿لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ أي المخوفين عمّا يؤدي إلى العذاب من فعل أو ترك ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾ واضح المعنى، قال ابن عباس يعني بلسان قريش لئلا يكون لهم عذر بأنا لم نفهم ما أوحي إلينا متعلق بنزل أو بالمنذرين، قيل معناه نزل به على قلبك بلسان عربي ولو كان أعجمياً لكان نازلاً على سمعك دون قلبك لأنك حينئذ تسمع صوتاً لا تفهم معناه وقد يكون الرجل عارفاً بعدة لغات فإذا كلمه أحد بلغة نشأ عليها أحاط قلبه أولاً بمعاني الكلام وإن كلمه بغيرها كان قلبه أولاً متوجهاً إلى ألفاظها ثم في معانيها فيقول بلسانٍ عربي تقرير لقوله نزل على قلبك ﴿وَإِنَّهُ﴾ أي ذكر إنزال القرآن كذا قال أكثر المفسرين، وقال مقاتل أي ذكر محمد ﷺ، وقيل معناه أي القرآن ﴿لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ﴾ أي كتبهم وهذه الجملة معطوفة على ما سبق أو حال وعلى التأويل الأخير قال بعض الحنفية القرآن اسم للمعنى فقط لأنه لم يكن في الزبر السابقة بهذا اللفظ العربي

قطعاً ومن أجل ذلك أجاز أبو حنيفة القراءة في الصلاة بالفارسي وهذا القول مردود بل القرآن اسم للنظم والمعنى جميعاً حيث قال الله تعالى: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾[١] فإن العربي صفة للنظم ولأن القرآن معجز والإعجاز من خواص النتظم ومن أجل ذلك جاز للجنب أن يقرأ ترجمة القرآن بالفارسي، وإنما أجاز أبو حنيفة القرآن بالفارسي في حق جواز الصلاة خاصة لجعله النظم ركناً غير لازم في الصلاة خاصة رعاية للخضوع وقد رجع أبو حنيفة عن هذا القول وقال بعدم جواز القراءة بالفارسي كما قال صاحباه وأكثر الأئمة وبه يفتى ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً﴾ الهمزة للإنكار والواو للعطف على محذوف تقديره ألم يعرفوا رسولهم ولم يكن لهم آية على رسالته، قرأ ابن عامر تكُن بالتاء الفوقانية وآية بالرفع على أنه اسم كان وخبره لهم وأن يعلمه بدل من آية أو خبر مبتدأ محذوف وجاز أن يكون لم تكن تامة فاعله آية لهم حال منه وأن يعلمه بدل من الفاعل، أو خبر مبتدأ محذوف أو يكون في لم تكن ضمير القصة وأن يعلمه مبتدأ وآية خبره مقدم عليه ولهم حال من آية والعامل معنى الثبوت المستفاد من الحمل والجملة خبر كان وقرأ الباقون بالياء التحتانية وآية منصوب على الخبرية واسمه ان يعلمه ولهم حال من آية (أن يعلمه) يعني محمداً ﷺ بنعته المذكورة في التوراة كما يعرفون أبناءهم، أو يعلمون القرآن أنه منزل من الله ﴿عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ قال عطية كانوا خمسة عبد الله بن سلام وابن عامين وثعلبة وأسد وأسيد وقال ابن عباس بعث أهل مكة إلى اليهود وهم بالمدينة فسألوهم عن محمد ﷺ فقالوا إن هذا لزمانه وإنا لنجد في التوراة نعته وصفته ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ﴾ أي القرآن ﴿عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ﴾ هو جمع أعجم، وهو الذي لا يفصح ولا يحسن العربية وإن كان عربياً في النسب والعجمي هو المنسوب إلى العجم وإن كان فصيحاً بالعربية ومعنى الآية ولو نزلناه على رجل غير فصيح اللسان بالعربية، وقال البيضاوي هو جمع أعجمي على التخفيف ولذلك جمع جمع السلامة يعني لو كان جمع أعجم لما جاز جمعه للسلامة لأن مؤنثه عجماء فإن أفعل فعلاء لا يجمع جمع السلامة ونظيره شعر من جمع أشعري على التخفيف أصله أشعريون والمعنى ولو نزّلنا القرآن عربيّاً كما هو على بعض الأعجمين زيادة في الإعجاز أو بلغة العجم ﴿فَقَرَأَهُۥ﴾ أي الأعجمي ﴿عَلَيْهِم﴾ أي على أهل مكة ﴿مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ﴾ لفرط عنادهم واستكبارهم واستنكافهم من اتباع الأعجمي أو لعدم فهمهم يقولون ما نفقه ما تقول نظيره قوله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ﴾ ﴿كَذَٰلِكَ﴾ في محل النصب

(١) سورة يوسف، الآية: ٢.

بفعل مضمر يفسره ما بعده ﴿سَلَكْنَٰهُ﴾ الضمير عائد إلى الشرك التكذيب المدلول عليه بقوله ﴿مَا كَانُواْ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ﴾ كذا قال ابن عباس والحسن ومجاهد يعني أدخلنا الشرك والتكذيب في قلوب المجرمين فتدل الآية على أنه بخلق الله تعالى، وقيل الضمير للقرآن أي أدخلنا القرآن في قلوبهم فعرفوا معانيه وإعجازه ومع ذلك لم يؤمنوا به عناداً ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ أي بالقرآن بيان لقوله ﴿كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ﴾(١) أو حال أو دليل على ما سبق وفي الآية إخبار بحال من علم الله موته على الشرك ﴿حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ الملجيء إلى الإيمان وذلك بعد الموت في القبور ﴿فَيَأْتِيَهُم﴾ العذاب ﴿بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بإتيانه ﴿فَيَقُولُواْ﴾ حينئذ تحسراً وتأسفاً ﴿هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ﴾ الإستفهام للتمني يتمنون الرجعة والنظرة، قال مقاتل لما أوعدهم الله سبحانه على لسان نبيه ﷺ بالعذاب قالوا إلى متى ما توعدنا به ومتى هذا العذاب قال الله تعالى ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾﴾ الهمزة للإنكار والفاء للعطف على محذوف تقديره أبو عيدنا لا يستيقنون فبعذابنا يستعجلون وحالهم عند نزول العذاب طلب النظرة وقيل هذا كناية عن قولهم ﴿أنزل علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم﴾(٢) وقولهم ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾(٣) ولمّا كان استعجالهم العذاب بناء على اعتقادهم أنه غير كائن وأنهم يتمتعون أعماراً طوالاً في سلامة وأمن، أنكر الله تعالى على استعجالهم ثم قال على تقدير التسليم ﴿أَفَرَءَيْتَ﴾ الإستفهام للتقرير والفاء للعطف على المحذوف تقديره أتفكرت فرأيتَ يعني فعلمت ﴿إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ﴾ كثيرة ولو مدة حياة الدنيا ﴿ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾﴾ والمعنى أنهم إذا رأوا العذاب الأليم حين يأتيهم بغتة يقولون هل نحن منظرون ولكنهم لا ينظرون أي لا يمهلون ولو سلمنا إهمالهم فلو تفكرت علمت أنا إن متعناهم سنين كثيرة ثم جاءهم ما كانوا يوعدون به من العذاب ما أغنى عنهم تمتيعهم وإهمالهم المتطاول في دفع العذاب وتخفيفه بل صار التمتع نسياً منسياً كأنهم لم يكونوا في نعيم قط ﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا﴾ قرية ﴿لَهَا مُنذِرُونَ﴾ أي رسل أنذروا أهلها فلم ير تدعوا ﴿ذِكْرَىٰ﴾ أي تذكرة ومحلها النصب على العلة أو المصدرية لأنها في معنى الإنذار أو الرفع لأنها صفة منذرون بإضمار ذووا أو يجعلهم ذكرى مبالغةً لإمعانهم في التذكرة أو خبر مبتدأ محذوف والجملة إعتراضية ﴿وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾.

﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾﴾ عطف على نزل به الروح الأمين ويعني ليس كما

---

(١) سورة فصلت، الآية: ٤٤.

(٢) الآية هي: **﴿فأمطر علينا حجارة﴾** سورة الأنفال: الآية: ٣٢.

(٣) سورة الأعرفا، الآية: ٧٠.

زعمت المشركون أن الشياطين يلقون القرآن على محمد ﷺ ﴿وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمۡ﴾ أي للشياطين أن يلقوا القرآن على محمد فإن القرآن هداية والشياطين إنما هم دعاة إلى الضلال ﴿وَمَا يَسۡتَطِيعُونَ﴾ أن يلقوا الأخبار بالمغيبات المذكورة في القرآن ﴿إِنَّهُمۡ﴾ أي الشياطين ﴿عَنِ ٱلسَّمۡعِ﴾ لكلام الملائكة من السماء ﴿لَمَعۡزُولُونَ﴾ أي محجوبون مرجومون بالشهب ﴿فَلَا تَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾﴾ تهيج لازدياد الإخلاص ولطف لسائر المكلفين، قال ابن عباس يحذر به غيره يقول أنت أكرم الخلق عليّ ولو أتخذت إلهاً غيري لعذبتك ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ الأقرب منهم فالأقرب فإنهم أولى باهتمام شأنهم أو لنفي التهمة فإن الإنسان يأهل قرابته أو ليعلموا أنه لا يغني عنهم من الله شيئاً وأن النجاة في اتباعه، قال البغوي روى محمد بن إسحاق بسنده عن ابن عباس عن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم أنه قال: لما نزلت هذه الآية على رسول الله ﷺ دعاني رسول الله ﷺ فقال يا علي إن الله أمرني أن أنذر عشيرتي الأقربين فضقتُ بذلك ذرعاً وعرفتُ أني متى أنذرهم وأناديهم بهذا الأمر أرى منهم ما أكره فصمتُّ عليها حتى جاءني جبرئيل فقال يا محمد إن لم تفعل ما تؤمر يعذبك ربك فاصنع لنا صاعاً من طعام وأجعل عليه رجل شاة واملأ لناعساً من لبن ثم اجمع لي بني عبد المطلب حتى أبلغهم ما أمرت به ففعلتُ ما أمرني به ثم دعوتُهم وهم يومئذٍ أربعون رجلاً يزيدون رجلاً أو ينقصون فيهم أعمامه أبو طالب وحمزة والعباس وأبو لهب، فلمّا اجتمعوا له دعا بالطعام الذي صنعت فجئتُ به فلَمَّا وضعته تناول رسول الله ﷺ حذية، من اللحم فشقها بأسنانه ثم ألقاها في نواحي الصحفة، ثم قال خذوا بسم الله فأكل القوم حتى ما بهم حاجة وايم الله وإن كان الرجل الواحد ليأكل مثل ما قدمت لجميعهم ثم قال اسق القوم فجئتهم بذلك العش فشربوا حتى رووا جميعاً وايم الله الرجل أو أحد يشرب مثله، فلما رأى رسول الله ﷺ أن يكلمهم بدره أبو لهب فقال سحركم صاحبكم فتفرق القوم ولم يكلمهم رسول الله ﷺ فقال لغد يا علي إن هذا الرجل قد سبق إلى ما علمت من القول فتفرق القوم قبل أن أكلمهم فعدلنا بمثل ما صنعت ثم جمعهم ففعلت ثم جمعتهم ثم دعاني بالطعام فقربته ففعل كما فعل بالأمس فأكلوا وشربوا، ثم تكلم رسول الله ﷺ فقال يا بني عبد المطلب إني قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة وقد أمرني الله أن أدعوكم إليه فأيُّكم يؤازرني على أمري ويكون أخي ووصيي وخليفتي فأحجم القوم عنها جميعاً فقلت وأنا أحدثهم سنّاً انا يا نبي الله أنا وزيرك عليه فأخذ برقبتي ثم قال إن هذا أخي ووصيي وخليفتي فيكم فاسمعوا له وأطيعوا فقام القوم يضحكون أمرنا أن نسمع لعلي ونطيع وفي الصحيحين عن سعيد بن جبير عن ابن عباس

قال: لما نزلت ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ صعد النبيّ ﷺ على الصفا فجعل ينادي يا بني فهر يا بني عدي لبطون قريش حتى اجتمعوا فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولاً فينظر ما هو، فجاء أبو لهب وقريش فقال: أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي يريد أن يغير عليكم أكنتم مصدقي؟ قالوا نعم ما جربنا عليك إلا صدقاً قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد، قال أبو لهب تبّاً لك سائر اليوم ألهذا جمعتنا فنزلت ﴿تبت يدا أبي لهب وتب. ما اغنى عنه ماله وما كسب﴾ «إلى آخر السورة»(١) وفي الصحيحين عن أبي هريرة قال قام رسول الله ﷺ حين أنزل الله ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾ قال: يا معشر قريش أو كلمة نحوها اشتروا أنفسكم لا أغني عنكم من الله شيئاً يا بني عبد مناف لا أغني عنكم من الله شيئاً يا عباس بن عبد المطلب لا أغني عنك من الله شيئاً يا صفية عمة رسول الله لا أغني عنك من الله شيئاً يا فاطمة بنت محمد سليني ما شئت من مالي لا أغني عنك من الله شيئاً» وذكر البغوي حديث ابن عباس بلفظ لما نزلت ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ خرج رسول الله ﷺ حتى صعد على الصفا فهتف يا صباحاه فقالوا من هذا فاجتمعوا إليه فقال أرأيتم إن أخبرتكم أن خيلاً يخرج من سفح هذا الجبل أكنتم مصدقي قالوا ما جربنا عليك كذباً، قال إني نذير لكم بين يدي عذاب شديد، قال أبو لهب تبّاً لك ما جمعتنا إلا لهذا ثم قام فنزلت تبت يدا ابي لهب قد تب هكذا قرأ الأعمش يومئذ، وروى البغوي عن عبد الله بن حمار المجاشعي رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «إن الله أمرني أن أعلمكم ما جهلتم مما علمني يومي هذا وإنه قال كل مال نحلته عبادي فهو لهم حلال وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم فأتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللتُ لهم، وأمرتهم أن لا يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً، وإن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب وإن الله أمرني أن أخوف قريشاً فقلت يا رب إذاً يتلفوا رأسي حتى يدعوه خبزة، فقال بعثتُ لأبتليك وأبتلي بك قد أنزلتُ عليك كتاباً لا يغسله الماء تقرأه في المنام واليقظة فاغزهم تغزك وأنفق تنفق عليك وأبعث جيشاً فمددك بخمسة أمثاله وقاتل بمن أطاعك من عصاك، ثم قال: أهل الجنة ثلاثة إمام مقسط ورجل رحيم رقيق القلب بكل ذي قربى ومسلم ورجل غنى عفيف متعفف متصدق، وأهل النار خمسة الضعيف الذي لا

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، باب: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ (٤٧٧٠)، وأخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: قول الله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ (٢٠٤).

زبر له الذين هم فيكم تبع لا يبتغون بذلك أهلاً ولا مالاً ورجل إن أصبح أصبح يخادمك عن أهلك ومالك ورجل لا يخفى له طمع وإن دق إلا ذهب به والشنظير وذكر البخل والكذب» والله أعلم، أخرج ابن جرير عن ابن جريج قال لما نزلت ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ بدأ بأهل بيته فشق ذلك على المسلمين فأنزل الله تعالى: ﴿واخفض جناحك﴾ أي لين جانبك ﴿لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ﴾ مستعار من خفض الطائر جناحه إذا أراد أن ينحط ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بيان لمن اتبعك لأن من اتبع أعم ممن اتبع الدين أو غيره أو للتبعيض على أن المراد بمن اتبعك كمال الاتباع وبالمؤمنين أعم منهم ومن عصاة المؤمنين كما يدل عليه قوله ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ﴾ في بعض الأمور ﴿فقل إني بريء مما تعملون﴾ يعني بريء مما تعملون من المعاصي والسيئات وليس فيه براءة من أنفسهم ﴿وَتَوَكَّلْ﴾ قرأ أهل المدينة والشام فَتَوَكَّلْ بالفاء وكذا في مصاحفهم على أنه بدل من قوله: ﴿فقل إني بريء مما تعملون﴾ والباقون بالواو عطفاً على قوله ﴿وأخفض جناحك﴾ والتوكل تفويض أمره إلى غيره وذالا يجوز عقلاً وشرعاً إلا على من كان قادراً على نفعه ودفع الضرر عنه سميعاً بأقواله بصيراً بأحواله عليماً بعاقبة أمره رقيباً عليه ولذلك قال ﴿عَلَى ٱلْعَزِيزِ﴾ أي الغالب الذي يقدر على قهر أعدائه ونصر أوليائه ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ الذي يرحم عليك وعلى أتباعك ﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾﴾ داعياً للناس إلى التوحيد ومجاهداً في سبيل الله والمراد حين تقوم إلى الصلاة كذا قال المفسرون ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾﴾ عطف على الضمير المنصوب في يراك يعني ويرى تقلبك في صلاتك في حال قيامك وركوعك وسجودك وقعودك أومن محل تقوم يعني يراك حين تقوم وحين تقلبك، وقال عطية وعكرمة عن ابن عباس في الساجدين أي في المصلين، وقال مقاتل ومع المصلّين في الجماعة يعني يراك حين تصلّي وحدك وحين تصلّي مع المصلّين في الجماعة، وقال مجاهد يرى تقلب بصرك في المصلّين فإنه كان يبصر من خلفه كما كان يبصر من أمامه، روى البغوي عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «هل ترون قبلتي هاهنا فوالله لا يخفى عليّ خضوعكم إني لأراكم من وراء ظهري»[1] وقال الحسن تقلبك في الساجدين أي تصرفك في ذهابك ومجيئك في أصحابك المؤمنين، وقال سعيد بن جبير يعني وتصرفك في أحوالك كما كانت الأنبياء من قبلك والساجدون هم الأنبياء، وقيل معناه تزودك في تصفح أحوال المتهجدين، قال البيضاوي روى أنه لما نسخ فرض قيام الليل طاف تلك الليلة ببيوت أصحابه لينظر ما يصنعون حرصاً على كثرة طاعتهم فوجدها كبيوت الزنابير لما سمع لها من

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الأذان، باب: الخشوع في الصلاة (٧٤١)، وأخرجه مسلم في كتاب: الصلاة، باب: الأمر بتحسين الصلاة وإتمامها والخشوع فيها (٤٢٤).

دندنتهم بذكر الله والتلاوة وإنما ذكر تقلبه في الساجدين من أحواله لكونه من أسباب الرحمة المقتضية للتوكل على من يتصف به.

وقال عطاء عن ابن عباس أراد تقلبك في أصلاب الآباء من نبي إلى نبي، لكن في هذا التأويل ليس كمال المدح لاشتراك قريش بل جميع الناس فيه بل الأولى أن يقال المراد منه تقلبك من أصلاب الطاهرين الساجدين لله إلى أرحام الطاهرات الساجدات ومن أرحام الساجدات إلى أصلاب الطاهرين أي الموحدين والموحدات حتى يدل على أن أباء النبيّ ﷺ كلهم كانوا مؤمنين كذا قال السيوطي وقال الحافظ شمس الدين بن ناصر الدين الدمشقي شعر:

وينقل أحمدُ نوراً عظيماً تلألأ في وجوه الساجدين

تقلب فيهم قرنا فقرناً إلى أن جاء خير المرسلين

وممّا يؤيد هذا التأويل ما رواه البخاري في الصحيح عنه ﷺ قال: «بعثتُ من خير قرون بني آدم قرناً فقرناً حتى بعثتُ من القرن الذي كنتُ فيه»[1] وروى مسلم من حديث واثلة بن الأسقع قوله ﷺ: «إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل واصطفى من ولد إسماعيل بني كنانة واصطفى من بني كنانة قريشاً واصطفى من قريش بني هاشم واصطفاني من بني هاشم»[2] وروى البيهقي في دلائل النبوة من حديث أنس قال: «ما افترق الناس فرقتين إلا جعلني الله من خيرهما فأخرجتُ من بين أبويّ ولم يصبني شيء من عهد الجاهلية خرجت من نكاح لم أخرج من سفاح من لدن آدم حتى انتهيت إلى أبي وأمي فأنا خيركم نفساً وخيركم أباً» وقد صنف السيوطي رحمه الله في إثبات إيمان آباء النبيّ ﷺ إجمالاً وتفصيلاً كتاباً وذكر فيه ما له وما عليه ولخصت منه رسالة فليرجع إليها ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ بأقواله ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بأفعاله ونيّاته وعواقب أموره فهو الحقيق بالتوكل.

﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: المناقب، باب: صفة النبي ﷺ (٣٥٥٧).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب: الفضائل، باب: فضل نسب النبي ﷺ وتسليم الحجر عليه قبل النبوة (٢٢٧٦).

﴿وَانتَصَرُوا مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾﴾.

﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ﴿٢٢١﴾﴾ متصل بقوله: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ ﴿٢١٠﴾﴾ جواباً عن قولهم تنزل عليه شيطان ثم بين فقال ﴿تَنَزَّلُ﴾ في الموضعين مضارع من التفعل بإسقاط إحدى التائين ﴿عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ﴾ كثير الإفك أي الكذب ﴿أثيم﴾ كثير الإثم غير مطيع لله تعالى، ففيه بيان أن محمداً لا يصح أن يكون من يتنزل عليه شيطان بوجهين أحدهما أنه إنما يتنزل على شرير كذاب كثير الإثم لاشتراط التناسب بين المفيض والمستفيض ومحمد ﷺ ليس كذلك، وثانيهما قوله ﴿يُلْقُونَ السَّمْعَ﴾ إلى الشياطين فيتلقون منهم أشياء فيضمون إليها أشياء على حسب تخيلاتهم لا يطابق أكثرها مواقع وذلك قوله تعالى: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ﴾ ومحمد ﷺ ليس كذلك فإنه يخبر عن مغيبات كثيرة لا تحصى وكلما يخبر بشيء يطابق الواقع لا محالة، والجملة صفة لأثيم أو استئناف عن عائشة قالت «سأل أناس رسول الله ﷺ عن الكهان؟ فقال لهم رسول الله ﷺ: إنهم ليسوا بشيء، قالوا يا رسول الله فإنهم يحدثون أحياناً بالشيء يكون حقاً؟ فقال رسول الله ﷺ تلك الكلمة من الحق يخطفها الجني فيقرها في أذن وليه قرّ الدجاجة فيخلطون فيها أكثر من مائة كذبة»[(١)] متفق عليه، وعنها قالت سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إن الملائكة تنزل في العنان وهو السحاب فيذكر الأمر الذي قضى في السماء فتسترق الشياطين السمع فيسمعه فيوحيه إلى الكهان فيكذبون معها مائة كذبة من عند أنفسهم»[(٢)] رواه البخاري، وعن أبي هريرة أن نبي الله ﷺ قال: «إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله كأنه سلسلة على صفوان فإذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا للذي قال الحق وهو العلي الكبير فسمعها مسترتوا السمع ومسترقاً لسمع هكذا بعضه فوق بعض (ووصفه سفيان بكفه فحرفها وبدر بين أصابعه فيسمع الكلمة فيلقيها إلى من تحته ثم يلقيها الآخر إلى من تحته حتى يلقيها على لسان الساحر أو الكاهن فربما أدرك الشهاب قبل أن يلقيها وربما يلقيها قبل أن يدركه فيكذب معها مائة كذا فيقال أليس قد قال لنا يوم كذا كذا ويوم كذا كذا فيصدق بتلك الكلمة التي سمعت من السماء»[(٣)] رواه البخاري، وعن ابن عباس عن

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الطب، باب: الكهانة (٥٧٦٢)، وأخرجه مسلم في كتاب: السلام، باب: تحريم الكهانة وإتيان الكهان (٢٢٢٨).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: بدء الخلق، باب: ذكر الملائكة (٣٢١٠).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، باب: قوله: ﴿إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾﴾ (٤٧٠١).

رجل من الأنصار «أنهم بيناهم جلوس ليلة مع رسول الله ﷺ رمى بنجم واستنار فقال لهم رسول الله ﷺ ما كنتم تقولون في الجاهلية إذا رمى مثل هذا؟ قالوا الله ورسوله أعلم كنا نقول ولد الليلة رجل عظيم، فقال رسول الله ﷺ فإنها لا ترمى لموت أحد ولا لحياته ولكن ربنا تبارك وتعالى اسمه إذا قضى أمراً سبح حملة العرش ثم سبح أهل السماء الذين يلونهم حتى يبلغ التسبيح أهل هذه السماء الدنيا ثم قال الذين يلون حملة العرش لحملة العرش ماذا قال ربكم فيخبرونهم عما قال فيستخبر بعض أهل السماوات بعضاً حتى يبلغ هذه السماء الدنيا فيخطف الجنُّ السمع فيقذفون إلى أوليائهم ويرمون فما جاءوا به على وجهه فهو حق ولكنهم يقذفون فيه ويزيدون»(١) رواه مسلم والله أعلم.

أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم من طريق العوفى عن ابن عباس قال تهاجا رجلان على عهد رسول الله ﷺ أحدهما من الأنصار والآخر من قوم آخرين وكان مع كل واحد منهما غواة من قومه وهم السفهاء فأنزل الله تعالى: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾﴾ كذا ذكر البغوي عن الضحاك قال وهي رواية عطية عن ابن عباس وأخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة نحوه، وقال أكثر المفسرين أراد به شعراء الكفار الذين كانوا يهجون رسول الله ﷺ، وذكر مقاتل أسماءهم فقال عبد الله بن زبير السهمي وهبيرة بن أبي وهب المخزومي وشافع بن عبد مناف وأبو غرة عبد الله بن عمر الجمحي وأمية بن أبي الصَّلت الثقفي فتكلموا بالكذب والباطل.

وقالوا نحن نقول مثل ما يقول محمد ويقولون أشعاراً ويجمع إليهم غواة قومهم يسمعون أشعارهم حين يهجون نبي ﷺ وأصحابه فيروون عنهم فذلك قوله تعالى: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾﴾ هم الرواة الذين يروون هجاء رسول الله ﷺ المسلمين وقال قتادة ومجاهد الغاوون هم الشياطين وهذ الجملة مستأنفة لإبطال كون النبيّ ﷺ شاعراً ويقرره قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أيها المخاطب ﴿أَنَّهُمْ﴾ أي الشعر ﴿فِى كُلِّ وَادٍ﴾ من أودية الكلام كالمدح والذم والافتخار وبيان الحب والبغض وغيره ذلك. والوادي نوع من أنواع الكلام يقال أنا في وادٍ آخر ﴿يَهِيمُونَ﴾ جملة ألم تر تعليل لما سبق والهائم الذاهب على وجهه بحيث لا يقف على حد يعني يبالغون في الكلام كل المبالغة لا يبالون الكذب وأكثر مقدمتهم خيالية لا حقيقة لها، قال قتادة يمدحون بالباطل ويهجون بالباطل، وقيل في كل واد يهيمون أي على كل حرف من حروف الهجاء يصوغون القوافي.

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب: السلام، باب: تحريم الكهانة وإتيان الكهان (٢٢٢٩).

﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾﴾ أي يكذبون كثيراً في أشعارهم ولمّا كان إعجاز القرآن من جهة النظم والمعنى وكانوا يقدحون في المعنى بأنه مما تنزلت به الشياطين وفي اللفظ بأنه من جنس الشعر رد الله سبحانه قولهم ببيان المباينة والمضادة بين حال رسول الله ﷺ وحال الكهنة والشعراء عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبيّ ﷺ «لأن يمتلىء جوف قيحاً حتى يفسده خيراً له من أن يمتلىء شعراً»[١] رواه البخاري ومسلم وأحمد وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه، وروي عن أبي سعيد الخدري قال: بينا نحن نسير مع رسول الله ﷺ بالعرج إذ عرض شاعر ينشد فقال رسول الله ﷺ: «خذوا الشيطان أو أمسكوا الشيطان لأن يمتلىء جوف رجل قيحاً خيراً له من أن يمتلىء شعراً» عن ابن مسعود قال قال رسول الله ﷺ: «هلك المتنطعون[٢] قالها ثلاثاً» رواه مسلم يعني الغالون في الكلام، وعن أبي ثعلبة الخشني أن رسول الله ﷺ قال: «إن أحبكم إلي وأقربكم مني يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً وإن أبغضكم إليَّ وأبعدكم مني مساوئكم أخلاقاً الثرثارون والمتشدقون والمتفيهقون» رواه البيهقي في شعب الإيمان، قال في النهاية الثرثارون الذين يكثرون الكلام تكلفاً وخروجاً عن الحق والمتشدقون المتوسعون في الكلام من غير احتياط واحتراز، قلت: وهذا صفة الشعراء. وروى الترمذي عن جابر نحوه وفي رواية قالوا يا رسول الله ﷺ علمنا الثرثارون والمتشدقون فما المتفيهقون؟ قال: «المتكبرون»[٣] وعن أنس قال قال رسول الله ﷺ: «مررتُ ليلة ما أسري بي بقوم يقرض شفاههم بمقاريض من نار فقلت يا جبرئيل من هؤلاء؟ قال خطباء أمتك الّذي يقولون ما لا يفعلون»[٤] رواه الترمذي وقال هذا حديث غريب والله أعلم، أخرج ابن أبي حاتم عن عروة قال لما نزلت والشعراء يُتبعهم الغاوون إلى قوله ما لا يفعلون قال عبد الله بن رواحة قد علم الله إني منهم فأنزل ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ إلى آخر السورة، وأخرج هو وابن جرير والحاكم عن أبي الحسن البراد قال لما نزلت والشعراء يتبعهم الغاوون، الآية جاء عبد الله بن رواحة وكعب بن مالك وحسان بن ثابت فقالوا يا رسول الله ﷺ لقد أنزل الله هذه الآية وهو يعلم أنا شعراء هلكنا فأنزل الله ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ الآية فدعاهم رسول الله ﷺ

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الأدب، باب: ما يكره أن يكون الغالب على الإنسان الشعر حتى يصده عن ذكر الله والعلم والقرآن (٦١٥٤)، وأخرجه مسلم في كتاب الشعر (٢٢٥٧).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب: العلم، باب: هلك المتنطعون (٢٦٧٠).

(٣) أخرجه الترمذي في كتاب: البر والصلة، باب: ما جاء في معالي الأخلاق (٢٠١٨).

(٤) أخرجه أحمد في المسند المجلد الثالث/ مسند أنس بن مالك رضي الله عنه.

وتلا عليهم ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ أي لم يشغلهم الشعر عن الإكثار في الذكر ويكون أكثر أشعارهم في الذكر والتوحيد والثناء على الله والحث على طاعته، قال أبو يزيد الذكر الكثير ليس بالعدد لكنه الحضور ﴿وأنتصروا من بعد ما ظلموا﴾ ولو كان في كلامهم هجو لأحد أرادوا به الانتصار مما هجاهم ومكافحة هجاء المسلمين، روى البغوي في شرح السنة والمعالم عن كعب بن مالك أنه قال للنبي ﷺ إن الله تعالى قد أنزل في الشعر ما أنزل قال النبيّ ﷺ «إن المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه والّذي نفسي بيده لكأنّما ترمونهم به نضح النبل»، وفي الإستيعاب لابن عبد البر أنه قال يا رسول الله ماذا ترى في الشعر؟ قال «إن المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه».

وروى البغوي عن أنس أن النبيّ ﷺ دخل مكة في عمرة القضاء وابن رواحة يمشي بين يدي رسول الله ﷺ وفي حرم الله يقول الشعر فقال النبيّ ﷺ: «خل عنه يا عمر فهي أسرع فيهم من نضح النبل» وفي الصحيحين عن البراء بن عازب قال قال النبيّ ﷺ يوم قريظة لحسان بن ثابت «اهج المشركين فإن جبرئيل معك» وكان رسول الله ﷺ يقول: لحسان: «أجب عني اللهم أيده بروح القدس»[1] وروى مسلم عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال: «اهجوا قريشاً فإنه أشد عليهم من رشق النبل» وروي عنها أيضاً قالت سمعت رسول الله ﷺ يقول لحسان: «إن روح القدس لا يزال يؤيدك ما نافحت عن الله ورسوله» وقالت كان رسول الله ﷺ يضع لحسان منبراً في المسجد يقوم عليه قائماً يفاخر عن رسول الله ﷺ أو ينافح ويقول رسول الله ﷺ إن الله يؤيد حسان بروح القدس ما نافح أو فاخر عن رسول الله ﷺ[2] وروى البغوي عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال: «أهجوا قريشاً فإنها أشد عليهم من رشق النبل» فأرسل إلى ابن رواحة فقال اهجهم وهاجهم فلم يرض فأرسل إلى كعب ثم أرسل إلى حسان بن ثابت فلمّا دخل عليه حسان قال قد آن لكم أن ترسلوا إلى هذا الأسد الضارب بذنبه ثمّ أدلع لسانه يحركه، فقال والذي بعثك بالحق لأفرينهم بلساني فري الأديم فقال رسول الله ﷺ لا تعجل فإن أبا بكر أعلم قريش بأنسابها وإن لي فيهم نسباً حتى يلخص لك فيهم نسبي فأتاه حسان، ثم رجع فقال يا

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الصلاة، باب: الشعر في المسجد (٤٥٣)، وأخرجه مسلم في كتاب: فضائل الصحابة، باب: من فضائل حسان بن ثابت رضي الله عنه (٢٤٨٥).

(٢) ذكره البخاري تعليقاً، وأما روايته متصلاً أخرجه أبو داود في كتاب: الأدب، باب: ما جاء في الشعر (٥٠٠٧)، وأخرجه الترمذي في كتاب: والآداب، باب: ما جاء في إنشاد الشعر (٢٨٤٦).

رسول الله قد لخص لي نسبك فالّذي بعثك بالحق لأسلنك كما يسلى الشعر من العجين قال حسان شعر:

هجوت محمّداً فأجبت عنه ... وعند الله في ذاك الجزاء
هجوت محمّداً براً حنيفاً ... رسول الله شيمته الوفاء
فإن أبي ووالده وعِرضي ... لِعرض محمد منكم وفاء
أمن يهجو رسول الله منكم ... ويمدحه وينصره سواء
وجبريلُ رسولُ الله فينا ... وروح القدس ليس له كفاء

وعن ابن سيرين مرسلاً قال رسول الله ﷺ لكعب بن مالك هيه فأنشده فقال لهو أشد عليهم من وقع النبل.

فائدة:

ثبت من هذه الأحاديث أن الشعر لا بأس به ما اجتنب الكذب وأشباهه من المحرمات، روى الدارقطني عن عائشة قالت: ذكر عند رسول الله ﷺ الشعر فقال رسول الله ﷺ: «هو كلام فحسنه حسن وقبيحه قبيح» ورواه الشافعي عن عروة مرسلاً، وذكر البغوي أنه قالت عائشة الشعر كلام فمنه حسن ومنه قبيح فخذ الحسن ودع القبيح، عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «أصدق كلمة قالها الشاعر كلمة لبيد ألا كل شيء ما خلا الله باطل»[١] متفق عليه، وعن عمرو بن الشريد عن أبيه قال: ردفت رسول الله ﷺ يوماً فقال هل معك من شعر أمية بن الصلت شيء؟ قال نعم قال هيه فأنشدته بيتاً فقال هيه ثم أنشدته بيتاً فقال هيه حتى أنشدته مائة بيت»[٢] رواه مسلم، وعن جندب أن النبيّ ﷺ كان في بعض المشاهد وقد دميت أصبعه فقال: «هل أنت إلا إصبع دميت، وفي سبيل الله ما لقيت»[٣] متفق عليه، وعن الشعبي قال كان أبو بكر يقول الشعر وكان عمر يقول الشعر وكان علي أشعر الثلاثة، وروي عن ابن عباس أنه كان ينشد الشعر في المسجد ويستنشد

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الأدب، باب: ما يجوز من الشعر والرجز والحداء وما يكره منه (٦١٤٧)، وأخرجه مسلم في كتاب الشعر (٢٢٥٦).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب: الشعر (٢٢٥٥).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: الجهاد والسير، باب: من ينكب في سبيل الله (٢٨٠٢)، وأخرجه مسلم في كتاب الجهاد والسير، باب: ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين (١٧٩٦).

فروى أنه دعا عمرو بن ربيعة فاستنشده القصيدة أولها شعر:

أمـن آل نـعـمـى أنـت غـاد ومـبـكـر غـداة غـد أم رائـح فـمـهـجـر

فأنشد ابن ربيعة القصيدة إلى آخرها وهي قريب من سبعين بيتاً ثم أن ابن عباس أعاد القصيدة جميعاً وكان يحفظها بمرة واحدة.

فائدة:

الشعر طاعة إن كان فيه ذكر الله أو علماً من علوم الدين أو نصحاً ووعظاً للمسلمين عن أبي بن كعب قال قال: رسول الله ﷺ «إن من الشعر حكمة»[1] رواه البخاري، وعن الصخر بن عبد الله بن بريدة عن أبيه عن جده قال سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إن من البيان سحراً وإن من العلم جهلاً وإن من الشعر حكماً وإن من القول عيالاً»[2] رواه أبو داود، وعن ابن عباس «إنَّ مِنَ البيان سحراً وإن من الشعر حكما» رواه أبو داود وأحمد وقد مرَّ فيما سبق «إن المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه» وروى أبو داود والنسائي والدارمي عن أنس عن النبيّ ﷺ قال: «جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم»[3] وبعدما ذكر الله سبحانه شعراء المشركين والمسلمين أوعد شعراء المشركين» فقال ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾ أي أشركوا وهجوا رسول الله ﷺ ﴿أَىَّ مُنقَلَبٍ﴾ مصدر أو ظرف منصوب بما بعده قدمه لاقتضاء الاستفهام صدر الكلام والجملة الاستفهامية قائمة المفعولين ليعلم والإستفهام للتهديد.

﴿يَنقَلِبُونَ﴾ يعني أي رجوع أي مرجع يرجعون بعد الموت، قال ابن عباس إلى جهنم والسعير قال البيضاوي تهديد شديد لما في سيعلم من الوعيد البليغ وفي الذين ظلموا من الإطلاق والتعميم وفي أي منقلب من الإيهام والتهويل والمعنى أن الظالمين يطمعون أن ينقلبوا من عذاب وسيعلمون أن ليس لهم وجه من وجوه الإنقلاب، أخرج ابن أبي حاتم عن عائشة رضي الله عنها قالت كتب أبي في وصية سطرين بسم الله الرحمن الرحيم هذا

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الأدب، باب: ما يجوز من الشعر والرجز والحداء وما يكره منه (٦١٤٥).

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب: الأدب، باب: ما جاء في الشعر (٥٠٠٤).

(٣) أخرجه أبو داود في كتاب: الجهاد، باب: كراهية ترك الغزو (٢٥٠٢)، وأخرجه النسائي في كتاب: الجهاد، باب: وجوب الجهاد (٣٠٨٧).

ما أوصى أبو بكر بن أبي قحافة عند خروجه من الدنيا حين يؤمن الكافر ويتقي الفاجر ويصدق الكاذب إني استخلفت عليكم عمر بن الخطاب، فإن يعدل فذاك ظني به ورجائي فيه وإن يجر ويبدّل فلا أعلم الغيب ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾.

الحمد لله رب العالمين وصلّى الله تعالى على خير خلقه محمد وآله أصحابه أجمعين قد وقع الفراغ من تفسير سورة الشعراء من التفسير المظهري يوم الخميس رابع رجب من السنة الخامسة بعد الألف ومائتين من الهجرة النبوية على صاحبها الصلاة والسلام والتحية ويتلوه سورة النمل إن شاء الله تعالى.

سورة النمل

آياتها ثلاث وتسعون وهي مكيَّة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿طسٓ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ وَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٥﴾ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٦﴾﴾.

﴿طسٓ تِلْكَ﴾ إشارة إلى آيات السورة ﴿ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ أي اللوح المحفوظ وإبانته أنه خط فيه ما هو كائن فهو تنبيه للناظرين فيه وتأخيره هاهنا باعتبار تعلق علمنا به وتقديمه في الحجر باعتبار سبقه على القرآن في الكتابة، أو المراد به القرآن المبين للأحكام من الحلال والحرام وغير ذلك ومبين لصحته بإعجازه وعطفه على القرآن كعطف إحدى الصفتين على الأخرى وتنكيره للتعظيم، نكر الكتاب هاهنا وعرفه في الحجر ونكر القرآن هناك وعرف هاهنا لأن القرآن والكتاب اسمان علمان لما نزل على محمد ﷺ ووصفان له لأنه يقرأ ويكتب فحيث جاء بلفظ التعريف أريد به العلم وحيث جاء بالتنكير أريد به الوصف ﴿هُدًى وَبُشْرَىٰ﴾ منصوبان حالان من القرآن والعامل فيهما معنى الإشارة أو مجرور بدلان منه أو مرفوعان خبران آخران لتلك أو خبران لمحذوف أي هي هدىً وبشرى ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ متعلق بهدىً وبشرىٰ على سبيل التنازع أو ببشرى فقط يعني هُدًى لجميع الخلق فمن لم يهتد فبسوء إختياره وبشرىٰ للمؤمنين خاصة ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي يحافظون على فرائضها وسننها وآدابها ﴿وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ من تتمة الصلة والواو للحال أو للعطف وتغير النظم بتقديم المسند إليه على الفعل للدلالة على قوة يقينهم وثباته وقصد الحصر يعني ما يوقنون بالآخرة حق الإيقان إلا هؤلاء الجامعين بين الإيمان والأعمال الصالحة فإن الجد في الأعمال دليل على إيقانهم، وجاز

أن يكون خارجاً عن الصلة استئنافاً كما يدل عليه تغير النظم يعني الذين كذلك هم الموقنون لا غير.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَـٰلَهُمْ﴾ القبيحة بتسليط النفس وجعلها مشتهاة لها ﴿فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾ لا يدركون عواقب أمرها جملة زيّنا خبر لإن وقوله فهم يعمهون معطوف عليها أو هذا خبر لإن والفاء لتضمن الموصول معنى الشرط وزينا حال من فاعل لا يؤمنون بتقدير قد وجملة إن الذين لا يؤمنون معترضة لبيان حال من يخالف المذكورين ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾ في الدنيا إخبار بما يلحقهم يوم بدر من قتل وأسرٍ وذلٍ ﴿وَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾ من غيرهم حيث أكرمهم الله من بين الناس حيث بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يريد أن يطهرهم ويزكيهم ويوصلهم إلى أكرم الكرامات في الدنيا والآخرة فاختاروا على هذا في الدنيا القتل والأسر وفي الآخرة النار المؤبدة المؤصدة، جملة أولئك إلى آخرها وما عطف عليها استئناف لبيان عاقبة أمرهم ﴿وَإِنَّكَ﴾ يا محمد ﴿لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ عطف على آيات القرآن وتنكير الحكيم والعليم للتعظيم يعني من عند أيّ حكيم وأيّ عليم لا يذكرك كنه علمه ولا حكمته أحد والجمع بين الوصفين مع أن العلم داخل في الحكمة لعموم العلم ودلالة الحكمة على إتقان الفعل والإشعار بأن علوماً منها ما هو حكمة كالعقائد والشرائع ومنها ما ليس كذلك كالقصص والأخبار بالمغيبات وهذا تمهيد لما يذكر فيه من القصص منها ما قال ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ﴾ في مسيره من مدين إلى مصر الظرف متعلق باذكر وجاز أن يكون متعلقاً بعليم ﴿إِنِّىٓ﴾ قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء والباقون بإسكانها ﴿آنست﴾ أي أبصرت ﴿ناراً سآتيكم﴾ أي آمكثوا مكانكم سآتيكم ذكر هاهنا سآتيكم على التيقن وفي القصص ﴿لعليّ آتيكم﴾ على الترجي لأن الراجي على تقدير حصول رجائه يَعِدُ بالإتيان قطعاً إشعاراً على عزمه وجزمه بما يعدُ به، وفيه دليل على جواز نقل الحديث بالمعنى وجواز النكاح بغير لفظ النكاح والتزويج مما يؤدي معناه ﴿مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾ عن الطريق لأنه قد ضل الطريق والسين للدلالة على بُعد المسافة الوعد بالإتيان ولن أبطأ ﴿أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ﴾ قرأ الكوفيون بالتنوين على أن ﴿قَبَسٍ﴾ بدل منه أوصف له فإن الشهاب شعلة من نار ساطعة والقبس شعلة يقتبس من معظم النار كذا في القاموس، والباقون بلا تنوين بإضافة الشهاب إلى القبس والإضافة بيانية لجواز إطلاق القبس على الشهاب، وقال البغوي الشهاب والقبس متقاربان في المعنى فإن القبس هو العود الذي أحد طرفيه نار وليس في طرفه الآخر نار ﴿لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ افتعال من الصلي وهو الإيقاد بالنار أي راجياً أن تستدفئوا بها من البرد وكان

في شدة الشتاء ﴿فَلَمَّا جَآءَهَا﴾ يعني لما قرب موسى من النار التي رآها يقال بلغ فلان المنزل إذا قرب منه وإن لم يبلغه بعد ﴿نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ﴾ أن مفسرة لما في النداء معنى القول أو التقدير بأن بورك على أنها مصدرية أو مخففة من الثقيلة والتخفيف وإن إقتضى التعويض بلا أوقد أو السين أو سوف لكنه دعاء وهو يخالف غيره في أحكام كثيرة ﴿مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ روي عن ابن عباس وسعيد بن جبير والحسن معناه قدس من في النار وهو الله سبحانه على معنى أنه تعالى نادى موسى وأسمعه، قيل كان ذلك نوره عزّ وجلَّ حِسبه موسى ناراً فلذلك ذكر موسى بلفظ النار، روى مسلم عن أبي موسى «قال قام فينا رسول الله ﷺ بخمس كلمات فقال: «إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام يخفض القسط ويرفعه يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار وعمل النهار قبل عمل الليل حجابه النور لو كشفت لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه»[(١)] وقال سعيد بن جبير كانت النار بعينها وهي إحدى حجب الله تعالى كما ورد في بعض الروايات حجابه النار لو كشفها لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه وعلى هذا التأويل هذه الآية من المتشابهات كقوله تعالى: ﴿هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظل من الغمام﴾[(٢)] ولما كان في هذا الكلام إيهام التحيز والتشبيه نزه الله سبحانه نفسه وهو المنزه من كل سوء وعيب فقال: ﴿وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وروى مجاهد عن ابن عباس أنه قال بوركت النار وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه قال سمعت أبيّاً يقول أن بوركت النار ومن حولها، وكلمة من على هذا زائدة وبورك النار وبورك في النار معناهما واحد فإن العرب يقول بارك الله وبارك فيه وبارك عليه بمعنى واحد والمعنى بورك في النار وفيمن حولها وهم الملائكة وموسى عليه السلام ويسمى النار مباركة كما يسمى البقعة مباركة قال الله تعالى: ﴿فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ﴾[(٣)] وقيل معناه بورك من في طلب النار أو من في مكان النار بحذف المضاف وهو موسى عليه السلام ومن حولها وهم الملائكة الذين حول النار حاضرين هناك فهذه تحية من الله لموسى بالبركة كما حيًّا إبرهيم على ألسنة الملائكة حين دخلوا على إبراهيم فقالوا ﴿رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾[(٤)] وقيل من في النار هم الملائكة وذلك أن النور الذي رآه موسى كان فيه ملائكة لهم رجل بالتسبيح والتحميد

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: في قوله عليه السلام: «إن الله لا ينام» (١٧٩).

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢١٠.

(٣) سورة القصص، الآية: ٣٠.

(٤) سورة هود، الآية: ٧٣.

والتقديس ومن حولها موسى لأنه كان بالقرب منها وقيل من حولها عام شامل لكل من في ذلك الوادي وحواليهما من أرض الشام الموسومة بالبركات لكونها مبعث الأنبياء، وتصدير الخطاب بذلك بشارة بأنه قد قضى له أمر عظيم ينتشر بركته في أقطار الشام وعلى هذه التأويلات قوله تعالى: ﴿وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ لدفع توهم التشبيه الناشىء من سماع كلامه وللتعجيب من عظم ذلك الأمر يا موسى ﴿إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ الضمير الشأن اسم إن وأنا الله خبرها أو الضمير للمنادى اسمها وأنا خبرها والله عطف بيان له والعزيز الحكيم صفتان له ممهدتان لما أراد أن يظهره يعني أنا القوي القادر على ما يبعد من الأوهام كتقليب العصا حيّة الفاعل لكل ما يفعله بحكمة وتدبير ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ﴾ عطف على بورك داخل في حيز أن المفسرة يدل عليه قوله تعالى في غير هذه السورة (وأن الق عصاك) بعد قوله ﴿أن يا موسى إني أنا الله﴾[1] بتكرير أن والتقدير فنودي هذا المقول وهذا القول فهو من قبيل عطف للمفرد على المفرد وليس من عطف الإنشاء على الخبر ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا﴾ أي رأى موسى عصاه ﴿تَهْتَزُّ﴾ تتحرك بالإضطراب ﴿كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾ أي حية خفيفة في سرعة سيره وكثرة اضطرابه ﴿وَلَّىٰ﴾ أي هرب موسى من الخوف ﴿مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ أي لم يرجع من عقب المقاتل إذا كرَّ بعد الفرار ﴿يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ﴾ جملة النداء ومابعده في محل النصب على تقدير القول يعني قلنا يا موسى لا تخف من هذه الحية ﴿إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ﴾ يعني لأجل قربهم بي وإستقرارهم بحضرتي ﴿ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ الجملة في مقام التعليل لعدم الخوف يعني الذين يبلغون رسالاتي فإنهم يخشونني وحدي ولا يخشون أحداً غيري، فلا منافاة بين هذه الآية وبين قوله عليه السلام «أنا أخشاكم بالله» أو المعنى لا يخافون مطلقاً عند نزول الوحي لفرط الإستغراق أو المعنى أنهم لا يكون لهم سوء عاقبة فيخافون ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ﴾ قيل هذا استثناء متصل وفيه إشارة إلى موسى حيث قتل القبطي والمعنى لا يخيف الله أنبياءه من أحد غيره إلا بذنب أصابه أحدهم والمراد بالظلم الذنب الصغيرة أو ترك الأفضل وعلى هذا قوله ﴿ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ﴾ يعني توبة بعد ذنب عطف على ظلم داخل في الصلة وإنما قيد بهذا إيذاناً بأنه لا يجوز صدور ذنب من الأنبياء وإن كانت صغيرة أو قبل النبوة إلا مستعقباً للتوبة ﴿فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ معطوف على بدل تقديره فإني أغفر له وأرحمه وقيل قوله ثم بدل إلى آخره كلام مبتدأ معطوف على محذوف بيان لحال من ظلم من الناس كافة تقديره فمن ظلم ثم بدل حسنا بعد سوء فإني غفور رحيم وقيل

(١) سورة القصص، الآية: ٣١.

الإستثناء منقطع لأن المرسلين لا يجوز منهم الظلم وعلى انقطاعه تقديره لكن من ظلم من الناس وهم غير المرسلين فإنهم يخافون غير الله تعالى، وقيل هو استدراك لما يختلج في الصدور من نفي الخوف عن كلهم مع أن فيهم مَن فرطَتْ منه صغيرة فالتقدير لكن من صدر منه صغيرة منهم فإنه وإن فعلها فقد أتبعها ما يبطلها واستحق به من الله مغفرة ورحمة فهو أيضاً لا يخاف غير الله، لكن هذين التأويلين يقتضيان أن موسى لم يخف من الحية وذلك غير واقع لقوله: (فلما رآها ولى مدبراً ولم يعقب) وقوله تعالى: ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾﴾[1] إلا أن يراد بنفي الخوف من الأنبياء ففي مطلق الخوف منهم لانتقاء سوء العاقبة نظيره قوله تعالى: ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[2] لكن سوق الكلام يأبى عنه الموجود المنهي عنه إنما هو الخوف من الحية وقال بعض العلماء إلا هاهنا بمعنى ولا يعني لا يخاف لدي المرسلون ولا المذنبون التائبون أي هم صلحاء المؤمنين فإن غير المعصوم لا يخلو عن ذنب لكن من إستدرك ذنبه بالتوبة صار كمن لا ذنب له وهذا التأويل أيضاً يناسب نفي مطلق الخوف لا خوف غير الله فقط كالتأويلين السابقين ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ﴾ عطف على ألق عصاك ﴿فِي جَيْبِكَ﴾ أي جيب قميصك وهو طرفه كذا في القاموس، وقيل الجيب هو القميص لأنه يجاب أي يقطع، قال البغوي قال أهل التفسير كان عليه مدرعة من صوف لا كم لها ولا أزر ﴿تَخْرُجْ﴾ أي يدك مجزوم في جواب الأمر بتقدير أن تدخل يدك تخرج ﴿بَيْضَآءَ﴾ نيرة تغلب نور الشمس حال من الضمير المستتر في تخرج ﴿مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ أي كائناً من غير برص صفة لبيضاء أو حال مرادف له أو حال من الضمير في بيضاء ﴿في تسع إيات﴾ يعني هاتان آيتان لك في تسع آيات أي في جملتها أو معها على التسع هي فلق البحر والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والطمسة والجدب في بواديهم والنقصان في مضارعهم ومن عد العصا واليد مع التسع عدّ الأخيرين واحداً ولم يعد الفلق لأنه لم يبعث به إلى فرعون أو التقدير إذهب في تسع آيات على أنه استئناف بالإرسال فيتعلق به قوله ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ﴾ وعلى الأولين تقدير هاهنا مبعوثاً أو مرسلاً على أنه حال من فاعل ألق فأدخل على سبيل التنازع ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ تعليل للإرسال.

﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا﴾ يعني جاءهم موسى بها ﴿مُبْصِرَةً﴾ أي بينةً واضحةً اسم فاعل

---

(١) سورة طه، الآية: ٦٧.

(٢) سورة يونس، الآية: ٦٢.

بمعنى اسم المفعول إشعاراً بأنها لفرط وضوحها للأبصار صارت بحيث تكاد تبصر نفسها لو كانت مما يبصر أو ذات بصر يبصر بها قالوا يعني فرعون وقومه ﴿هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ واضح سحريته وجملة ﴿لما جاءتهم﴾ معطوفة على جملة محذوفة معطوفة على نودي تقديره نودي أن ألق عصاك وأدخل يدك في جيبك اذهب في تسع آيات إلى فرعون وقومه أو مبعوثاً إليهم إذهب إليهم فألقى موسى عصاه وأدخل يده في جيبه ثم ذهب إلى فرعون قومه عطف فلما جاءتهم آياتنا مبصرة قالوا هذا سحر مبين ﴿وَجَحَدُوا بِهَا﴾ أي أنكروا بآياتنا أنها من عند الله عطف على قالوا ﴿وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ﴾ أي وقد استيقنتها لأن الواو الحال والإستيقان أبلغ من الإيقان ﴿ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ منصوبان على العلة أو حالان من فاعل جحدوا يعني لأجل الظلم والتكبر أو ظالمين أنفسهم باستيجارهم النار المؤبدة متكبرين عن الإيمان بما جاء به موسى ﴿فَانظُرْ﴾ أيها المخاطب نظر استبصار ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ كيف خبر لكان قدم عليه لاقتضائه الصدارة والجملة مفعول لا نظر يعني انظر كيفية عاقبتهم حيث أغرقوا في الدنيا فأدخلوا ناراً بعد الموت.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ (١٥) وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ ۖ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ (١٦) وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (١٧) حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١٨) فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ (١٩) وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ (٢٠) لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٢١) فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ (٢٢) إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (٢٣) وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ (٢٤) أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (٢٥) اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ۩ (٢٦)﴾.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا ۖ﴾ بذات الله سبحانه على حسب الطاقة البشرية وبصفاته

وأحكامه وبأحوال المبدأ والمعاد ومنطق الطير والدواب وتسبيح الجبال وإلان الحديد ﴿وَقَالَا﴾ شكراً للنعمة ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا﴾ بالنبوة والكتاب وغير ذلك ﴿عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ عطفه بالواو إشعاراً بأن ما قالا بعض ما أتيا به في مقابلة النعمة فهو معطوف على محذوف تقديره فعلا على حسب ما علما وعرفا حق النعمة وقالا هذا القول، ولولا تقدير المحذوف لكان المناسب الفاء موضع الواو كما في قولك أعطيته فشكر وفي الآية دليل على شرف العلم وكونه موجباً للفضل وتقدم العلماء على من سواهم قال رسول الله ﷺ: «فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب وإن العلماء ورثة الأنبياء وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً إنما ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر»(١) رواه أحمد والترمذي وأبو داود وابن ماجه من حديث كثيرين قيس وسماه الترمذي قيس بن كثير، وقال رسول الله ﷺ: «فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم» الحديث رواه الترمذي عن أبي أمامة الباهلي، وفيها تحريض على الشكر على نعمة العلم وعلى أن يتواضع ويعتقد بأنه وإن فضل على كثير فقد فضل عليه كثير ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾(٢).

﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾ نبوته وملكه وعلمه كذا أخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة، واحتجت الروافض بهذه الآية على أن الأنبياء يورثون كغيرهم وهي حجة عليهم لا لهم لدلالتها على أنه ورث سليمان دون سائر الأولاد وقد كان لداود تسعة عشر إبناً. والإرث عبارة عن أن ينقل شيء إلى أحد بعدما كان لغيره من غير عقد جرى بينهم ولا يجري مجرى العقد سواء كان بينهما قرابة أو لا قال الله تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾(٣) ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ﴾(٤) ومعنى قوله ﷺ «لا نورث» أنه لا يملك أحد من الناس مال نبي بعد موته بل يكون ماله موقوفاً محبوساً على ملك الله تعالى، قال البغوي أعطى سليمان ما أعطي داود وزيد له تسخير الريح والشياطين، وقال وقال مقاتل كان سليمان أعظم ملكاً من داود وأقضى منه وكان داود أشد تعبداً من سليمان وكان سليمان

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: العلم، باب: ما جاء في فضل الفقه على العبادة (٢٦٨٢)، وأخرجه أبو داود في كتاب: العلم، باب: في فضل العلم (٣٦٣٧)، وأخرجه ابن ماجه في افتتاح الكتاب، باب: فضل العلماء والحث على طلب العلم (٢٢٣).

(٢) سورة يوسف، الآية: ٧٦.

(٣) سورة الشعراء، الآية: ٥٩.

(٤) سورة الأحزاب، الآية: ٢٧.

شاكراً لنعم الله، قلتُ وكذا داود ﴿وَقَالَ﴾ سليمان ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ﴾ فيه شكر لنعمة الله عليه ودعاء للناس إلى التصديق بذكر المعجزة والنطق، والمنطقُ عبارة عما يعبر به عما في الضمير مفرداً كان أو مركباً، في القاموس نطق ينطق نطقاً ومنطقاً ونطوقاً تكلم بصوت وحروف يعرف بها المعاني ولما كان فهم المعاني للناس منحصراً فيما يتلفظ به الإنسان زعموه من خواص الإنسان، ولمّا كان سليمان عليه السلام بفهم من صوت الطير ما في ضميرها كما كان يفهم من كلام الإنسان سماه منطقاً. قال البغوي روى عن كعب قال صاح ورشان عند سليمان فقال أتدرون ما يقول؟ قالوا لا قال إنه يقول: لدوا للموت وابنوا للخراب، وصاحت فاختة فقال أتدرون ما تقول؟ قالوا لا، قال إنها تقول ليت هذا الخلق لم يخلق، وصاح طاووس فقال أتدرون ما يقول: قالوا لا، قال إنه يقول كما تدين تدان، وصاح هدهد فقال أتدرون ما يقول؟ قالوا لا، قال إنه يقول من لا يرحم لا يرحم، وصاح صرد فقال أتدرون ما يقول؟ قالوا لا، قال إنه يقول استغفروا الله يا مذنبون، قال وصاحت طيطوى فقال أتدرون ما تقول؟ قالوا لا، قال فإنها تقول كل حي ميت وكل جديد بال، وصاح خطاف فقال أتدرون ما تقول؟ قالوا لا، قال إنه يقول قدموا خيراً تجدوه، وهدرت حمامة فقال أتدرون ما تقول؟ قالوا لا، قال تقول سبحان ربي الأعلى ملأ سماواته وأرضه، وصاح قمري فقال أتدرون ما يقول؟ قالوا لا، قال فإنه يقول سبحان ربي الأعلى، قال والغراب يدعوا على العشاء والحدأة تقول كل شيء هالك إلا الله والقسطاة تقول من سكت سلم والببغاء يقول ويلٌ لمن الدنيا همه والضفدع يقول سبحان ربي القدوس والبازي يقول سبحان ربي وبحمده والضفدعة سبحان المذكور بكل لسان. وعن مكحول قال صاح دراج عند سليمان فقال أتدرون ما يقول قالوا لا قال فإنه يقول الرحمن على العرش إستوى، وعن فرقد السبحي قال مرّ سليمان على بلبل فوق شجرة يحرك رأسه ويميل ذنبه فقال أتدرون ما يقول هذا البلبل؟ قالوا الله ونبيه أعلم، قال إنه يقول أكلت ونصف تمرة فعلى الدنيا العفا.

وروي أن جماعة من اليهود قالوا لابن عباس إنا سائلون عن سبعة أشياء فإن أخبرتنا آمناو صدَّقنا، قال سلوا تفقهاً ولا تسألوا تعنتاً، قالوا أخِبرنا ما يقول القنبري في صفيره والديك في صقيعه والضفدع في نقيقه والحمار فن نهيقه والفرس في صهيله وماذا يقول الزرزور والدراج، قال: نعم أما القنبر فيقول اللّهم العن مبغضي محمد ومبغضي آل محمد والديك يقول اذكروا الله يا غافلون والضفدع يقول سبحان المعبود في لجج البحار وأما الحمار فيقول اللّهم العن الغشار وأما الفرس يقول إذا ألتقى الصفان سبوح قدوس رب

الملائكة والروح وأما الزرزور يقول اللّهم إني أسألك قوت يوم بيوم وأما الدراج يقول الرحمن على العرش إستوى فأسلم اليهود وحسن إسلامهم. وروي عن جعفر بن محمد الصادق عن أبيه عن جده عن الحسين بن علي عليهم السلام قال إذا صاح النسر قال ابن آدم عشت ما شئت آخره الموت وإذا صاح العقاب قال السلامة في البعد من الناس وإذا صاح القنبر قال إلهي العن مبغضي آل محمد وإذا صاح الخطاف قرأ ﴿الحمد لله رب العالمين﴾ ويمد الضالين كما يمد القارىء. قلت ما روي عن كعب شرح أصوات الطيور عن سليمان عليه السلام وكذا ما روي عن مكحول وعن فرقد عنه عليه السلام يحتمل حمله على أن كل واحد منها واقعة ولا يدل على انحصار نطقهم في الكلمات المذكورة وما قص الله تعالى في هذه السورة قصة النمل والهدهد صريح في أنها تتكلم بكل ما سنح لها لكن ماروي من سؤال اليهود وعن ابن عباس رضي الله عنه وجوابه إياهم يدل على انحصار مقالهم فيما ذكر فإن صح هذه الرواية لزم تأويلها والله أعلم ﴿وأوتينا من كل شيء﴾ المراد به كثرة ما أوتي كما يقال فلان يقصد كل أحد ويعلم كل شيء ومثله ﴿وأوتيت من كل شيء﴾(١) والضمير في علمنا وأوتينا له ولأبيه عليهما السلام أوله ولأتباعه فإن أتباعه يأخذون منه ما علمه الله وأعطاه أوله وحده تعظيماً على عادة المدلول لمراعاة قواعد السياسة. وقال ابن عباس المراد كل شيء من أمر الدنيا والآخرة، وقال مقاتل يعني النبوة والملك وتسخير الشياطين والرياح ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ العطاء ﴿لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ﴾ يعني ليس هذا باستحقاق منا أو جزاء لأعمالنا بل تفضل من الله تعالى أو المعنى زيادة ظاهرة على من عدانا. وهذا القول وارد على الشكر كقوله ﷺ: «أنا سيد ولد آدم ولا فخر آدم ومن دونه تحت لوائي يوم القيامة»(٢) امتثالاً لقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾﴾(٣) قال البغوي روي أن سليمان على نبينا وعليه الصلاة والسلام ملك مشارق الأرض ومغاربها فملك سبع مائة سنة وستة أشهر جميع أهل الدنيا الجن والإنس والطير والدواب والسباع وأعطى مع ذلك العلم بمنطق كل شيء وفي زمنه صنعت الصنائع العجيبة ﴿وَحُشِرَ﴾ أي جمع ﴿لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ﴾ في مسيرله ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ أي يكفون ويحبسون أي يحبس أولهم على آخرهم ليتلاحقوا، فيه إشارة إلى أنهم مع كثرتهم لم يكونوا مبعدين، في القاموس وزعته أي كففته ومنه الوزعة جمع وازع وهم

(١) سورة النمل، الآية: ٢٣.

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: المناقب، باب: في فضل النبي ﷺ (٣٦٢٤).

(٣) سورة الضحى، الآية: ١١.

المانعون من المحارم والكلب والزاجر والتوزيع القسمة والتفريق كالإيزاع والتوزع وقال مقاتل يوزعون أي يساقون، وقال السدي يوقضون، قال محمد بن كعب كان معسكر سليمان عليه السلام مائة فرسخ خمسة وعشرون منها للجن وخمسة وعشرون منها للإنس وخمسة وعشرون منها للطير وخمسة وعشرون منها للوحش وكان له ألف بيت من قوارير على الخشب فيها ثلاث مائة منكوحة وسبع مائة سرية يأمر الريح العاصف فترفعه ويأمر الرخاء فتسيره فأوحى الله إليه وهو يسير بين السماء والأرض إني قد زدتُ في ملكك أنه لا يتكلم أحد من الخلائق إلا جاءت به الريح وأخبرتك ﴿حتى إذا أتوا على واد﴾ وقف الكسائي بالياء فقال وادي والباقون بغير ياء ﴿ٱلنَّمۡلِ﴾ تعدية الإتيان بعلى إما لأن إتيانهم كان من عالٍ وإما لأن المراد قطعه من قولهم أتى على الشيء إذا أنفذه وبلغ آخره، روي عن وهب بن منبه عن كعب كان سليمان إذا ركب حمل أهله وخدمه وحشمه وقد أخذ مطابخ ومخابز فيها تنانير الحديد وقدور عظام تسع في قدر منها عشر جزائر وقد اتخذ ميادين الدواب له أمامه فيطبخ الطباخون ويخبز الخبازون ويجري الدواب من بين يديه بين السماء والأرض والريح تهوى فسار من إصطخر إلى اليمن، فسلك مدينة رسول الله ﷺ فقال هذه دار هجرة نبي آخر الزمان طوبى لمن آمن به وطوبى لمن اتبعه ورأى حول البيت أصناماً تعبد من دون الله فلما جاوز سليمان البيت بكى البيت فأوحى الله إلى البيت ما يبكيك؟ فقال يا رب أبكاني إن هذا نبيٌّ من أنبيائك وقوم من أوليائك مروا بي ولم يصلّوا عندي والأصنام تعبد حولي من دونك فأوحى الله إليه أن لا تبك فإني سوف أملؤك وجوهاً سجداً وأنزل فيك قرآناً جديداً أبعث منك نبياً في آخر الزمان أحب أنبيائي وأجعل فيك عماراً من خلقي يعبدونني وأفرض على عبادي فريضةً يدفون إليك دفيف النسور إلى وكرها ويحنون إليك حنين الناقة إلى ولدها والحمامة إلى بيضها وأطهرك من الأوثان وعبده الشياطين ثم مضى حتى مرّ بواد السدير واد من الطائف فأتى على واد النمل هكذا قال كعب إنه واد بالطائف، وقال مقاتل وقتادة هو أرض بالشام، وقيل هو واد كان يسكنه الجن وأولئك النمل مراكبهم، قال فرق الحميري كان نمل ذلك الوادي أمثال الذباب، وقيل كالبخاتي والمشهور أنه النمل الصغير ﴿قَالَتۡ نَمۡلَةٞ﴾ قال الشعبي كانت تلك النملة ذات جناحين، وقيل كانت نملة عرجاء، وقال الضحاك كان اسمها طاحية، وقال مقاتل كان اسمها حذمى ﴿يأيها النمل ادخلوا مساكنكم﴾ لم يقل أدخلن لأن الإنسان إذا تكلم وهو يرى غيره من الحيوانات غير عاقلة فيجعل لها ضمائر الجمادات كما يجعل للنساء ضمائرها إلحاقاً إياهن بغير ذوي العقول لضعف عقولهن وأما الحيوانات إذا تكلم بعضها

بعضاً ترى أنفسها من ذوي العقول فتخاطب العقلاء فحكى الله سبحانه قول النملة كما قالت ﴿لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ﴾ نهى لهم عن الحطم والمراد نهيهن عن التوقف والبروز كيلا يؤدي إلى حطمهم إياهن كقولهم لا أرينك هاهنا أي لا تقف هاهنا فهو استئناف أو بدل عن الأمر لا جواب له فإن النون لا تدخله في السعة ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أنهم يحطمونكم ولو شعروا لم يفعلوا كأنها شعرت عصمة سليمان وأصحابه من الإيذاء عمداً فويل للروافض لم يشعروا شعور النملة حتى نسبوا الظلم إلى أصحاب سيد الأنبياء. فإن قيل كيف يتصور الحطم من سليمان وجنوده وكانت الريح تحمل سليمان وجنوده على بساط بين السماء والأرض؟ قيل كان بعض جنوده ركباناً ومنهم مشاة على الأرض تطوى لهم وقيل يحتمل أن يكون هذا قبل تسخير الريح لسليمان، وقال بعض أهل العرفان معناه لا يحطمنكم اشتغالكم برؤية جنود سليمان وملكه وما أعطاه الله من زهرة الحياة الدنيا فيشغلكم عن ذكر الله ويهلككم فسمع سليمان قولها من ثلاثة أميال كذا قال مقاتل وذلك لما أنه كلما كان يتكلم خلق إلا حملت الريح فألقته في مسامع سليمان ﴿فَتَبَسَّمَ﴾ سليمان عطف على محذوف تقديره فسمع سليمان مقالها وأدرك معناها ففرح مما سمع وأدرك ما لا يسمع ولا يدرك غيره وبوصفها إياه وجنوده بالعدل أو تعجب من حذرها وتحذيرها واهتدائها إلى مصالحها فتبسم سروراً أو تعجباً ﴿ضَاحِكًا﴾ حال من فاعل تبسم يعني تبسم مبالغاً في التبسم واصلاً إلى الضحك وجاز أن يكون مصدراً أي تبسم تبسماً شديداً أنه ضحك على طريقة قمت قائماً، قال الزجاج أكثر ضحك الأنبياء التبسم، وقيل كان أوله التبسم وآخره الضحك. عن عائشة قالت: «ما رأيتُ رسول الله ﷺ قط ضاحكاً مستجمعاً حتى أرى لهواته إنما كان يتبسم»(١) رواه البخاري، وعن عبد الله بن الحارث بن جزء «ما رأيت أحداً أكثر تبسماً من رسول الله ﷺ»(٢) رواه الترمذي ﴿مِّن قَوْلِهَا﴾ أي لأجل قول النملة فحبس جنوده حتى دخل النمل مساكنهم ﴿وَقَالَ﴾ شكراً لله وهضماً لنفسه من أداء الشكر واستعانة من الله على شكره ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ﴾ قرأ ورش والبزي بفتح الياء والباقون بإسكانها والمعنى ألهمني، قيل هذا أيضاً بمعناه الحقيقي كما أن معناه الحبس والمنع كذا في القاموس، وقال البيضاوي معناه إجعلني أزع شكر نعمتك عندي أي أكفه وأرتبطه لا ينفلت عني بحيث لا أنفك عنه، وقال بعض المحققين معناه إجعلني بحيث أزع أي أحبس

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الأدب، باب: التبسم والضحك (٦٠٩٢).

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: المناقب، باب: في بشاشة النبي ﷺ (٣٦٥٠).

نفسي عن الكفر وقيل معناه أحبس نفسي عن كل شيء غيرك ﴿أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ﴾ فإن الإنعام على الوالدين وجعل أحب ولداً الخيار الناس نعمة عليه قال الله تعالى: ﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ﴾(١) ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ﴾ في بقية عمري ﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي﴾ زمرة ﴿عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ قال ابن عباس يريد مع إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب ومن بعدهم من الأنبياء.

﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ﴾ أي طلبها وبحث عنها والتفقد طلب ما فقد فلم يجد فيها الهدهد وكان سبب تفقده أن سليمان كان إذا نزل منزلاً تظله جنده الطير من الشمس فأصابته من موضع الماء تحت الأرض كما يرى في الزجاجة ويعرف قربه وبعده فينقر الأرض فتجيء الشياطين فيسلخونه ويستخرجون الماء، كذا أخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه عنه قال سعيد بن جبير لما ذكر ابن عباس هذا قال له نافع بن أزرق يا وصاف أنظر ما تقول إن الصبي يضع الفخ ويحثو عليه التراب فيجيء الهدهد ولا يبصر الفخ حتى يقع في عنقه فقال له ابن عباس ويحك إن القدر إذا جاء حال دون البصر، وفي رواية إذا جاء القضاء والقدر ذهب وعمي البصر، فنزل سليمان منزلاً فاحتاج إلى الماء فطلبوا فلم يجدوا فتفقد الهدهد ليدل على الماء فلم ير الهدهد وظن أنه حاضر ولم يره لساتر أو غير ذلك ﴿فَقَالَ﴾ هذه الجملة معطوفة على ﴿تفقد الطير﴾ وهي معطوفة على محذوف معطوف على ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ﴾ تقديره وأمر الطيور بالإظلال فوقع الشمس على سريره فنظر وتفقد الطير ويقال حشر لسليمان جنوده فنزل منزلاً فلم يجد الماء فطلب الهدهد وتفقد الطير فقال ﴿مَا لِيَ﴾ قرأ عاصم وابن كثير والكسائي وهشام بفتح الياء والباقون بإسكانها ﴿لَا أَرَى الْهُدْهُدَ﴾ الإستفهام للتعجب وجملة لا أرى حال من الضمير للمتكلم والعامل فيه معنى التعجب فلما لم يره بعد التفقد ولاح له أنه غائب فأضرب عن ذلك وسأل عن صحة ما لاح له فقال ﴿أَمْ كَانَ﴾ أم منقطعة بمعنى بل والهمزة يعني بل أكان الهدهد ﴿مِنَ الْغَائِبِينَ﴾ ولما ثبت أنه غائب قال ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ ليعتبر به أبناء جنسه قيل العذاب الشديد أن ينتف ريشه وذنبه ويلقيه في الشمس ممعطاً لا يمتنع من النمل ولا من هوام الأرض، وقال مقاتل لأطلينّه بالقطران ولأشمسنّه، وقيل لأود عنه القفص وقيل لأفرقنّ بينه وبين إلفه، وقيل لأحبسنه مع ضده، وقيل أو لألزمنه خدمة أقرانه وكان التعذيب جائزاً له عليه السلام ﴿أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ

---

(١) سورة الطور، الآية: ٢١.

﴿أَوۡ لَيَأۡتِيَنِّي﴾ قرأ ابن كثير بنونين الأولى مشددة مفتوحة والثانية نون الوقاية والباقون بنون واحدة مشددة مكسورة ﴿بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ﴾ أي بحجة بينة في غيبته وعذر ظاهر والحلف في الحقيقة على أحد الأمرين بتقدير عدم الثالث لكن لما اقتضى ذلك وقوع أحد الثلاثة ثلّث المحلوف عليه بعطفه عليهما وجاز أن يكون أوفي أو ليأتيني معنى إلاّ أن كما في قولك لألزمنك أو تعطيني حقي يعني إلا أن تعطيني حقي. ﴿فَمَكَثَ﴾ الهدهد قرأ عاصم ويعقوب بفتح الكاف والباقون بضمها وهما لغتان ﴿غَيۡرَ بَعِيدٖ﴾ أي مكثاً غير طويل أو زماناً غير مديد يريد به الدلالة على سرعة رجوعه خوفاً من سليمان على نفسه وكان سبب غيبة الهدهد على ما ذكره العلماء أن سليمان لمّا فرغ من بناء البيت المقدس عزم على الخروج إلى أرض الحرم وأقام هناك ما شاء الله أن يقيم وكان ينحر كل يوم طول مقامه بمكة خمسة الآف ناقة ويذبح خمسة آلاف ثور وعشرين ألف كبش، وقال لمن حضره من أشراف قومه إن هذا مكان يخرج منه نبيّ عربيٌّ صفته كذا يعطى النصر على جميع من عاداه ويبلغ هيبته مسيرة شهر القريب والبعيد عنده سواء لا تأخذه في الله لومة لائم، قالوا بأيّ دين يدين يا نبي الله؟ قال بدين الحنيفة فطوبى لمن أدركه وآمن به. فقالوا كم بيننا وبين خروجه؟ قال مقدار ألف عام فليبلّغ الشاهد منكم الغائب فإنه سيد الأنبياء وخاتم الرسل، قال فأقام بمكة حتى قضى نسكه ثم خرج من مكة وسار صباحاً نحو ألفين ووافى صنعاء وقت الزوال وذلك مسيرة شهر فرأى أرضاً حسناً تزهر خضرتها فأحب النزول بها ويصلي ويتغدّى، فلمّا نزل قال الهدهد إن سليمان قد اشتغل بالنزول فارتفع نحو السماء فانظر إلى طول الدنيا وعرضها ففعل ذلك فنظر يميناً وشمالاً فرأى بستاناً لبلقيس فسال إلى الخضرة فوقع فيه فإذا هو بهدهد فهبط إليه وكان اسم هدهد سليمان يعفور وإسم هدهد اليمن عنفير، فقال عنفير اليمن ليعفور سليمان من أين أقبلت وأين تريد؟ قال أقبلت من الشام مع صاحبي سليمان بن داود، فقال من سليمان؟ قال ملك الجن والإنس والشياطين والطير والوحوش والرياح فمن أين أنت؟ قال من هذه البلاد. قال ومن ملكها؟ قال امرأة يقال لها بلقيس وإن لصاحبكم ملكاً عظيماً ولكن ليس ملك بلقيس دونه ملكة اليمن كلها وتحت يدها إثني عشر ألف قائد تحت يد كل قائد مائة ألف مقاتل فهل منطلق معي حتى تنظر إلى ملكها، قال أخاف إن تفقدني سليمان في وقت الصلاة إذا احتاج إلى الماء، قال الهدهد اليماني إن صاحبك يسره أن تأتيه بخبر هذه الملكة فانطلق معه ونظر إلى بلقيس وملكها وما رجع إلى سليمان إلا وقت العصر، قال فلمّا نزل سليمان ودخل عليه وقت الصلاة، وكان نزل على غير الماء فسأل الجن والإنس والشياطين عن الماء فلم

يعلموا فتفقد الطير ففقد الهدهد فدعا عريف الطير وهو النسر فسأله عن الهدهد فقال أصلح الله الملك أنا لا أدري أين هو وما أرسلته فغضب عند ذلك ثم قال: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾﴾ ثم دعا العقاب سيد الطير فقال عليَّ بالهدهد الساعة فرفع العقاب دون السماء حتى التزق بالهواء فنظر إلى الدنيا كالقصعة بين يدي أحدكم ثم التفت يميناً وشمالاً فإذا هو بالهدهد مقبلاً من نحو اليمن، فانقض العقاب نحوه يريده فلما رأى الهدهد ذلك علم أن العقاب يقصده بسوء فناشده الله الذي قواك وأقدرك عليَّ إلا رحمتني ولم تتعرض لي بسوء قال فولى عنه العقاب، فقال له ويلك ثكلتك أمك إن نبي الله قد حلف أن يعذبك أو يذبحك ثم طارا متوجهين نحو سليمان فلمّا انتهيا إلى العسكر تلقاه النسر والطير فقالوا له ويلك أين غبت في يومك هذا لقد توعدك نبي الله وأخبره بما قال فقال الهدهد ما استثنى رسول الله قالوا بلى قال أوليأيتيني بسلطان مبين، قال فنجوت إذاً ثم طار العقاب والهدهد حتى أتيا سليمان وكان قاعداً على كرسيه فقال العقاب قد أتيتُك به يا نبي الله فلما رآه الهدهد رفع رأسه وأرخى ذنبه وجناحيه يجرهما على الأرض تواضعاً لسليمان فلما دنى منه أخذ برأسه فمده إليه فقال له أين كنت لأعذبنك عذاباً شديداً، فقال الهدهد اذكر وقوفك بين يدي الله عزَّ وجلَّ فلَمَّا سمع سليمان ذلك ارتعد وعفا عنه ثم سأله فقال ما الّذي أبطأك عني ﴿فَقَالَ﴾ الهُدهُد عطف على محذوف تقديره فإني فقال ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾ الإحاطة العلم بالشيء من جميع جهاته واستعماله في غير علم الله سبحانه إما بطريق المجاز أو المبالغة والمعنى علمت مستيقناً ما لم تعلم، وفي مخاطبته إياه بذلك تنبيه على أن في أدنى خلق الله تعالى من أحاط علماً ما لم يحط به سليمان ليتحاقر إليه نفسه ويتصاغر لديه علمه وفيه دليل على بطلان قول الروافض أن الإمام لا يخفى عليه شيء ولا يكون في زمانه أعلم منه ﴿وجئتك من سبإ﴾ اسم بلد باليمن بينها وبين صنعاء مسيرة ثلاثة أيام قرأ أبو عمرو والبزي من سبأ وبسبأ في سورة سبأ مفتوحة الهمزة بلا تنوين غير منصرف على تأويل البلدة أو المدينة وقرأ قنبل ساكنة الهمزة على نية الوقف والباقون بكسر الهمزة والتنوين منصرفاً لما كان في الأصل إسم رجل. قال البغوي جاء في الحديث أن النبيّ ﷺ سئل عن سبأ فقال: «كان رجلاً له عشرة من البنين تيامن منهم ستة وتشام أربعة»[1]

---

(١) رواه أحمد والطبراني في الكبير وفيه ضعف. انظر مجمع الزوائد في كتاب: العلم، باب: في علم النسب (٩٣٦).

يعني ستة منهم أخذوا اليمن وطناً والباقون أخذوا الشام وطناً ﴿بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ أي بخبر متيقن قال سليمان وما ذاك قال ﴿إِنِّي وَجَدتُّ﴾ أي أصبتُ ﴿ٱمۡرَأَةٗ تَمۡلِكُهُمۡ﴾ صفة لامرأة كان إسمها بلقيس بنت شرحبيل من نسل يعرب بن قحطان وكان أبوها ملك عظيم، الشأن قد ولد له أربعون ملكاً وهو في آخرهم وكان يملك أرض اليمن كلها وكان يقول لملوك الأطراف ليس أحد منكم كفواً لي وأبى أن يتزوج فيهم فزوجوه امرأة من الجن يقال لها ريحانة بنت السكن فولدت له بلقيس ولم يكن له ولد غيرها. وورد في الحديث أن إحدى أبوي بلقيس كان جنياً فلمّا مات أبو بلقيس طمعت في الملك فطلبت من قومها أن يبايعوها فأطاعها قوم وعصاها آخرون فملكوا عليهم رجلاً وافترقوا فرقتين كل فرقة استولت على طرف من اليمن، ثم إن الرجل الّذي ملكوه أساء السيرة في أهل مملكته حتى كان يمد يده إلى حرم رعيته ويعجز بهن فأراد قومُه خلعه فلم يقدروا عليه، فلما رأت بلقيس ذلك أدركتها الغيرة فأرسلت إليه تعرض نفسها عليه وأجابها الملك وقال ما منعني أن أبتدأك بالخطبة إلا الإياس منك، فقالت لا أرغب عنك كفو كريم فاجمع رجال قومي فاخطبني إليهم فجمعهم وخطبها إليهم فقالوا لا نراها تفعل ذلك، فقال لهم إنما ابتدأتُ وأنا أحب أن تسمعوا قولها فجاءوها فذكر لها فقالت نعم أحببتُ الولد فزوجوها فلمّا زفت إليه خرجت في أناس كثير من جيشها فلما رأته سقته الخمر حتى سكر ثم حزت رأسه وانصرفت من الليل إلى منزلها، فلمّا أصبح الناس رأوا الملك قتيلاً ورأسه منصوب على باب داره فعلموا أن تلك المناكحة كانت مكراً وخديعةً منها فاجتمعوا إليها وقالوا أنت بهذا الملك أحق من غيرك.

حديث:

روى أحمد والبخاري في الصحيح والترمذي والنسائي عن أبي بكرة رضي الله عنه قال لما بلغ رسول الله ﷺ أن أهل فارس تملكوا عليهم بنت كسرى قال: «لن يفلح قوم ولوّا أمرهم امرأة»[1] قوله تعالى ﴿وَأُوتِيَتۡ﴾ حال بتقدير قدمن فاعل تملكهم ﴿مِن كُلِّ شَيۡءٖ﴾ يحتاج إليه الملوك من الآلة والعدة أو المراد به الكثرة كما سبق ﴿وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ﴾ حال بعد حال أي سرير ضخم كان مضروباً من الذهب مكللاً بالدر والياقوت الأحمر والزبرجد الأخضر وقوائمه من الياقوت والزمرد عليه سبعة أبيات على كل بيت باب يغلق،

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: المغازي، باب: كتاب النبي ﷺ إلى كسرى وقيصر (٤٤٢٥)، وأخرجه النسائي في كتاب: آداب القضاة، باب: النهي عن استعمال النساء في الحكم (٥٣٨٦)، وأخرجه الترمذي في كتاب: الفتن (٢٢٦٢).

روى ابن أبي حاتم عن زهير بن محمد قال سرير من ذهب وصفحتاه موصول بالياقوت والزبرجد طوله ثمانون ذراعاً في عرض أربعين ذراعاً، وقال ابن عباس كان عرش بلقيس ثلاثون ذراعاً في ثلاثين ذراعاً وطوله في السماء ثلاثون ذراعاً وقال مقاتل كان طوله ثمانين ذراعاً وأرتفاعه ثلاثين ذراعاً ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ ظرف متعلق بيسجدون ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ القبيحة من عبادة الشمس وغيرها جملة وزين مع ما عطف عليه حال من فاعل يسجدون بتقدير قد ﴿فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ المستقيم ﴿فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ إليه عطف على يسجدون ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا۟﴾ قرأ أبو جعفر والكسائي ألا بالتخفيف على أنه حرف تنبيه ويا للنداء ومناداه محذوف تقديره ألا يا لهؤلاء اسجدوا، قال أبو عبيدة أمر مستأنف من الله تعالى وجاز كونه أمراً من سليمان لمن حضره وعلى هذا حذفت همزة الوصل في الدرج والألف من حرف النداء لالتقاء الساكنين في اللفظ وفي خط مثبتان واذا وقف على إلا أو على يا وابتدأ بقوله اسجدوا وقرأ الباقون ألا يسجدوا بالتشديد لأجل إدغام نون أن المصدرية في اللام من حرف النفي الداخلة على المضارع وإن مع صلته بتقدير حرف الجر متعلق بزين لهم أو يصدهم، والمعنى ﴿زين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم لئلا يسجدوا لله﴾ ويقال أن لا يسجدوا بدل من أعمالهم يعني زين لهم الشيطان أن لا يسجدوا وجاز أن يكون لا زائدة وأن مع صلتها متعلق بلا يهتدون تقديره فهم لا يهتدون أن يسجدوا ﴿لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ الخبء بمعنى المخبوء وهو ما خفى غيره وإخراجه إظهاره قال أكثر المفسرين خبء السماوات المطر وخبء الأرض النبات، وقيل يريد علم غيب السماوات والأرض واللفظ يعم إشراق الكواكب وإنزال المطر وإنبات النبات وإخراج ما في الشيء من القوة إلى الفعل وإخراج ما في الإمكان والعدم إلى الوجوب والوجود ومعلوم أنه يختص بالواجب لذاته فهو يستحق بالاستحقاق للسجود دون غيره ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ﴾ في سرائركم ﴿وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ فيجب الحذر من إشراكه غيره في العبادة سرّاً وعلانية، قرأ الكسائي وحفص بالتاء فيهما على الخطاب والباقون بالياء على الغيبة ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩ ﴿٢٦﴾﴾ بدل من الضمير أو خبر ثان الله، والجملة تعليل لاسجدوا يعني فهو المستحق للسجود لا غير.

﴿قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟

﴿أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا نَحْنُ أُولُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿قَالَ﴾ سليمان للهدهد ﴿سَنَنظُرُ﴾ أي سنستعرف مشتق من النظر بمعنى التأمل ﴿أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ غير النظر ولم يقل أم كذبت للمبالغة (حيث جعلها منسلكاً في الكاذبين معدوداً فيهم ويلزمه كونها كاذباً البتة) ورعاية الفواصل. فدلهم الهدهد على الماء فاحتفروا الركايا وروى الناس والدواب، ثم كتب كتاباً من عبد الله سليمان بن داود إلى بلقيس ملكة سبأ بسم الله الرحمن الرحيم السلام على من اتبع الهدى أما بعد فلا تعلوا عليّ وأتوني مسلمين قال ابن جريج لم يزد سليمان على ما قص الله في كتابه، وقال قتادة كذلك الانبياء يكتب جملاً لا يطيلون ولا يكثرون فلما كتب الكتاب وطبقه بالمسك وختمه بخاتمه قال للهدهد ﴿إذهب بكتابي هذا فألقه﴾ قرأ أبو عمرو وعاصم وحمزة بإسكان الهاء وأبو جعفر ويعقوب باختلاسها كسراً والباقون بإشباع الكسرة ﴿إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ﴾ أي تنح ﴿عَنْهُمْ﴾ مكان قريب ﴿فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ أي ماذا يرجع بعضهم إلى بعض من القول، وأخذ الهدهد الكتاب وأتى به بلقيس وكانت بأرض يقال لها مارب من صنعاء إلى ثلاثة أيام فوافاه في قصرها وقد غلقت الأبواب وأخذت المفاتيح فوضعتها تحت رأسها فأتاها الهدهد وهي نائمة مستلقية قفاها فألقى الكتاب على نحرها كذا أخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة، وقال مقاتل حمل الهدهد الكتاب بمنقاره حتى وقف على رأس المرأة وحولها القادة والجنود فرفرف ساعة والناس ينظرون إليه حتى رفعت المرأة رأسها فألقى الكتاب في حجرها، وقال ابن منبه وابن زيد كانت كوة مستقبلة الشمس تقع فيها حين تطلع فإذا نظرت إليها سجدت لها فجاء الهدهد الكوة فسدها بجناحيه فأرتفعت الشمس فلم تعلمها فلما استبطأت الشمس قامت تنظر فرما الصحيفة إليها، فأخذت بلقيس الكتاب وكانت قارئة فلما رأت الخاتم ارتعدت وخضعت لأن ملك سليمان كان في خاتمه وعرفت أن الّذي أرسل الكتاب أعظم ملكاً منها فقرأت الكتاب وتأخر الهدهد غير بعيد فجاءت فقعدت على سرير ملكها وجمعت الملأ من قومها وهم اثنا عشر ألف قائد مع كل قائد مائة ألف مقاتل، وقال ابن عباس كان مع بلقيس مائة ألف

قيل مع كل قيل مائة ألف والقيل الملك دون الملك الأعظم، وقال قتادة ومقاتل كان أهل مشورتها ثلاث مائة وثلاثة عشر رجلاً كل رجل منهم على عشرة الآف قال فجاءوا فأخذوا مجالسهم ﴿قَالَتِ﴾ لهم بلقيس ﴿يأيها الملؤا﴾ وهم أشراف الناس وكبراؤهم ﴿إِنِّيَ أُلْقِيَ﴾ قرأ نافع وأبو جعفر وأبو محمد بفتح الياء والباقون بإسكانها ﴿إِلَيَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ﴾ قال عطاء والضحاك سمته كريماً لأنه كان مختوماً قال رسول الله ﷺ: «كرامة الكتاب ختمه» رواه الطبراني بسند ضعيف عن ابن عباس، وأخرج ابن مردويه في ﴿أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ﴾ قال مختوم، وروي عن ابن جريج: كريم أي حسن وهو اختيار الزجاج، وروي عن ابن عباس كريم أي شريف لشرف صاحبه، قيل سمته كريماً لغرابة شأنه إذ كانت مستلقية في بيت مغلقة الأبواب فدخل الهدهد من كوة وألقاه على نحرها بحيث لم تشعر به، وقيل سمته كريماً لكونه مصدراً ببسم الله الرحمن الرحيم ثم بينت عمن الكتاب فقالت ﴿إِنَّهُۥ﴾ أي الكتاب أو العنوان ﴿مِن سُلَيْمَٰنَ﴾ ثم بينت ما فيها فقالت ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ أي المكتوب أو المضمون ﴿بسم الله الرحمن الرحيم ألا تعلوا على﴾ أن مفسرة أو مصدرية وهو لصلته خبر محذوف أي هو أو المقصود أن لا تعلوا أو بدل من كتاب والمعنى لا تتكبروا ولا تمتنعوا من الإجابة فإن ترك الإجابة من العلو والتكبر ﴿وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾ مؤمنين أو منقادين وهذا كلام في غاية الوجازة مع كمال الدلالة على المقصود لاشتماله على البسملة الدلالة على ذات الصانع وصفاته صريحاً والتزاماً والنهي عن الترفع الذي هي أم الرذائل والأمر بالإسلام الجامع لأمهات الفضائل وليس فيه الأمر بالإنقياد قبل إقامة الحجة على رسالته حتى يكون استدعاء للتقليد فإن إلقاء الكتاب إليها على تلك الحالة من أعظم الدلائل.

﴿قالت يأيها الملؤا أفتوني في أمري﴾ أي أشيروا إليَّ فيما عرض لي وأجيبوني فيما أشاوركم فيه، والفتيا والفتوى الجواب عما يشكل من الأحكام ﴿مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا﴾ أي حاكمة بأمر حكماً قطعياً يقطع اختيار المحكوم عليه ﴿حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾ أي حتى تحضروني وتشيروني أو تشهدوا على كونه صواباً، جملة قالت مع ما في حيزها بدل اشتمال من قالت السابقة ﴿قَالُوا۟﴾ مجيبين لها ﴿نحن أولوا قوة﴾ في القتال ﴿وأولوا بأس شديد﴾ عند الحرب، قال مقاتل أرادوا بالقوة كثرة العدد وبالبأس شدة الشجاعة. لما أن الاستشار منها دائراً بين الصلح والقتال وكان القتال أصعب الأمرين أجابوا بامتثال أمرها في القتال على خلاف ما قالت اليهود: ﴿اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون﴾[1]

(١) سورة المائدة، الآية: ٢٤.

وهذا يدل على إجابة أمرها في الصلح بالطريق الأولى ولذلك خيروها في الأمرين حيث قالوا ﴿وَٱلۡأَمۡرُ﴾ في الصلح والقتال وفي كل شيء موكول ﴿إِلَيۡكِ فَٱنظُرِي مَاذَا تَأۡمُرِينَ﴾ من المقاتلة والصلح، ما استفهامية والجملة بتأويل المفرد مفعول لأنظري يعني فانظري وتأملي حتى يتعين لك أمرك الذي ينفعك نطيعك ونتبع رأيك ﴿قَالَتۡ إِنَّ ٱلۡمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرۡيَةً﴾ قهراً وعنوة ﴿أَفۡسَدُوهَا وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهۡلِهَآ أَذِلَّةٗۚ﴾ بنهب أموالهم وتخريب ديارهم حتى يستقيم لهم أمرهما، حذرتهم من دخول سليمان عليهم قهراً ثم صرحت التحذير وقالت ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ﴾ يعني سليمان وجنوده، وقيل هذا تأكيد لما وصف من حال الملوك وتقرير بأن ذلك من عادتهم الثابتة المستمرة وتصديق من الله لقولها، وفي هذا الكلام إشعار بأنها ترى الصلح أصلح ﴿وَإِنِّي مُرۡسِلَةٌ إِلَيۡهِم بِهَدِيَّةٖ﴾ بيان لما يرى تقديمه في المصالحة والمعنى أني مرسله إليهم رسلاً بهدية أدفعه بها عن ملكي، والهدية اسم لما يهدى به كالعطية اسم لما يعطى، قال البغوي أرادت بلقيس بإرسال الهدية اختبار سليمان أملك هو أم نبي تعني إن كان ملكاً قبل الهدية وانصرف وإن كان نبياً لم يرض إلا بأتباعه على دينه ﴿فَنَاظِرَةُۢ بِمَ يَرۡجِعُ ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾ فأهدت إليه وصفاً ووصائف، قال ابن عباس ألبستهم لباساً واحداً لئلا يعرف ذكر من أنثى، وقال مجاهد ومقاتل ألبس الغلمان لباس الجواري وألبس الجواري لباس الغلمان. واختلفوا في عددهم قال ابن عباس مائة وصف ومائة وصيفة، وقال مجاهد مائتي غلام ومائتي جارية، وقال سعيد بن جبير أرسلت إليه بلبنة في حرير وديباج، وقال ثابت البناني أهدت له صعاع الذهب في أوعية الديباج، وقيل كانت أربعة لبنات من ذهب، وقال وهب وغيره عمدت بلقيس إلى خمس مائة غلام وخمس مائة جارية فألبست الجواري لباس الغلمان الأقبية والمناطق وألبست الغلمان لباس الجواري وجعلت في سواعدهم أساور من ذهب وفي أعناقهم أطواقاً من ذهب وفي آذانهم أقراطاً وشنوفاً مرصعات بأنواع الجمال وحملت الجواري على خمس مائة رمكة والغلمان على خمس مائة برذون على كل فرس لجام من ذهب مرصع بالجواهر وغواشيها من الديباج الملونة وبعثت إليه خمس مائة لبنة من فضة وتاجاً مكَلّلاً بالدُّر والياقوت المرتفع وأرسلت إليه المسك والعنبر والعود الإلنجوج وعمدت إلى حقة فجعلت فيها درة ثمينة غير مثقوبة وخوزة جزعية مثقوبة معوّجة الثقب، ودعت رجلاً من أشراف وقومها يقال له المنذر بن عمرو وضمت إليه رجالاً من قومها أصحاب رأي وعقل وكتبت معه كتاباً بنسخة الهدية وقالت إن كنت نبيّاً فميز بين الوصفاء والوصائف وأخبر بما في الحقة قبل أن تفتحها واثقب الدرة ثقباً مستويّاً وأدخل خيط الخرزة المثقوبة من غير علاج إنس

ولا جن، وأمرت بلقيس الغلمان إذا تكلم لكم سليمان فكلموه بكلام تأنيث وتخنيث يشبه كلام النساء وأمرت الجواري أن تكلمنه بكلام فيه غلظة يشبه كلام الرجال ثم قالت للرسول أنظر إلى الرجل فإن نظر إليك نظر غضب فاعلم أنه ملك ولا يهولنك منظره فأنا أعز منه وإن رأيت الرجل بشاشاً لطيفاً فأعلم أنه نبي مرسل فتفهم قوله ورد الجواب، فأنطلق الرسل بالهدايا وأقبل الهدهد مسرعاً إلى سليمان فأخبره كله فأمر سليمان الجن أن يضربوا لبنات الذهب والفضة ففعلوا ثم أمرهم أن يبسطوا من موضعه الذي هو فيه إلى تسع فراسخ ميداناً واحداً لبنات الذهب والفضة وأن يجعلوا حول الميدان حائطاً مشرفها من الذهب والفضة ففعلوا، ثم قال أي الدواب أحسن ممّا رأيتم في البحر والبر؟ قالوا يا نبي الله إنا رأينا دواباً في بحر كذا منقطعة مختلفة ألوانها لها أجنحة وأعراف ونواص، قال عليّ بها الساعة فأتوا بها، قال شددوها عن يمين الميدان وعن يساره على لبنات الذهب والفضة وألقوا علوفها، ثم قال للجن عليّ بأولادكم فاجتمع خلق كثير فأقام على يمين الميدان ويساره ثم قعد سليمان في مجلسه على سريره ووضع له أربعة آلاف كرسي عن يمينه ومثله عن يساره فأمر الشياطين أن يصفوا صفوفاً فراسخ عن يمينه ويساره، فلما دنا القوم ونظروا إلى ملك سليمان ورأوا الدواب التي لم تر أعينهم مثلها قط تروث على لبن الذهب والفضة تقاصرت أنفسهم ورموا ما معهم من الهدايا. وفي بعض الروايات أن سليمان لما أمر بفرش لبنات الذهب والفضة أمرهم أن يتركوا على طريقهم موضعاً على قدير اللبنات التي معهم، فلما رأى الرسل موضع اللبنات خالياً وكل الأرض معروضة خافوا أن يتهموا بذلك فطرحوا ما معهم في ذلك المكان، فلمّا رأوا الشياطين نظروا إلى منظر عجيب ففزعوا فقال لهم الشياطين جوزوا فلا بأس عليكم فكانوا يمرُّون على كردوس كردوس من الجن والإنس والطير السباع والوحوش حتى وقفوا بين يدي سليمان فنظر إليهم نظراً حسناً بوجه طلق قال ما وراءكم فأخبره رئيس القوم بما جاءوا به وأعطاه كتاب الملكة فنظر فيه فقال أين الحقة؟ فأتي بها فحركها وجاءه جبرئيل فأخبره بما في الحقة، فقال إن فيها درة ثمينة غير مثقوبة وخرزة مثقوبة معوجة الثقب، فقال الرسول صدقت فاثقب الدرة وأدخل الخيط في الخوزة، فقال سليمان من لي بثقبها فسأل سليمان الإنس ثم الجن فلم يكن عندهم علم بذلك، ثم سأل الشياطين فقالوا ترسل إلى الأرضة فأخذت شعرة في فيها فدخلته فيها حتى خرجت من الجانب الآخر فقال لها ما حاجتك؟ فقالت تصير رزقي في الشجرة فقال لك ذلك. وروي أنها جاءت دودة في الصفصاف فقالت أنا أدخل الخيط في الثقب على أن يكون رزقي في الصفصاف فجعل لها ذلك

فأخذت الخيط في فيها ودخلت في الثقب وخرجت من الجانب الآخر، فقال سليمان ما حاجتك قالت أن يجعل رزقي في الفواكه، قال لك ذلك ثم ميزّه بين الجواري والغلمان بأن أمرهم أن يغسلوا وجوههم وأيديهم فجعلت الجارية تأخذ الماء من الآنية بإحدى يديها ثم تجعل على اليد الأخرى ثم تضرب بها الوجه والغلام كما يأخد من الآنية يضرب به وجهه وكانت الجارية تصب على باطن ساعدها والغلام على ظهر الساعد وكانت الجارية تصب صبّاً وكان الغلام يحدر الماء على يده حدراً فميَّز بينهن، ثم رد سليمان الهدية كما قال الله عزّو جل هذا ما ذكره البغوي وهو مأخوذ من روايات مختلفة أخرج بعضها ابن أبي حاتم عن السديّ وبعضها ابن المنذر وابن أبي حاتم عن يزيد بن رومان.

﴿فَلَمَّا جَآءَ سُلَيۡمَٰنَ﴾ الرسول أو ما أهدت إليه ﴿قَالَ أَتُمِدُّونَنِ﴾ قرأ حمزة ويعقوب ﴿تمدوني﴾ بنون واحدة مشددة وإثبات ياء المتكلم في الحالين والباقون بنونين خفيفتين وأثبت ابن كثير الياء في الحالين وأثبتها في الوصل فقط نافع وأبو عمرو والباقون يحذفونها في الحالين ﴿بِمَالٖ﴾ تنوين مال للتحقير والخطاب للرسول ومن معه أو للرسول والمرسل على تغليب المخاطب والاستفهام للإنكار يعني لا حاجة لي إلى إمدادكم إيّاي بالهدية ولا وقع لها عندي ﴿فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ﴾ من الدين والنبوة والحكمة والملك لا مزيد عليه، قرأ قالون وحفص وأبو عمرو بخلاف عنهم بإثبات الباء مفتوحة في الوصل ساكنةً في الوقف وورش بالياء المفتوحة وصلاً وحذفها وقفاً والباقون بحذف الياء في الحالين خيرٌ أي أفضل ﴿مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم﴾ تطيل الإنكار المذكور ﴿بَلۡ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمۡ تَفۡرَحُونَ﴾ لأنكم لا تعلمون إلا ظاهراً من الحياة الدنيا فتفرحون بما أهديتم حبّاً لزيادة أموالكم أو بما تهدونه إلى غيركم افتخاراً على أمثالكم إضراب عن مفهوم ما سبق من الإنكار يعني لا أفرح بل أنتم تفرحون وبيان لما حملهم عليه وهو قياس حاله على حالهم في قصور الهِّمة بالدنيا والزيادة فيها ثم قال للمنذر بن عمرو ﴿ٱرۡجِعۡ إِلَيۡهِمۡ﴾ ويعني إلى بلقيس وقومها ﴿فَلَنَأۡتِيَنَّهُم﴾ جواب قسم محذوف والفاء للسببية ﴿بِجُنُودٖ لَّا قِبَلَ﴾ لا طاقة ﴿لَهُم بِهَا﴾ أي مقاومتها الجملة صفة لجنود ﴿وَلَنُخۡرِجَنَّهُم مِّنۡهَآ﴾ أي من أرضهم ﴿أَذِلَّةٗ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ﴾ أي ذليلون تأكيد لقوله ﴿أذلة﴾ وقيل أذلة ضد أعزة وذلك بذهاب عزهم وملكهم والصغار وقوعهم في الأسر يعني لنخرجنهم منها إن لم يأتوني مسلمين.

﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ أَيُّكُمۡ يَأۡتِينِي بِعَرۡشِهَا قَبۡلَ أَن يَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفۡرِيتٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَۖ وَإِنِّي عَلَيۡهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٞ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِي عِندَهُۥ عِلۡمٞ مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ أَنَا۠

ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾ قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾﴾.

قال وهب وغيره أنه لما رجع رُسُل بلقيس إليها من عند سليمان، قالت قد عرفت والله ما هذا بملك وما لنا به من طاقة فبعثت إلى سليمان أني قادمة إليك بملوك قومي حتى أنظر إليك وما تدعوننا إليه من دينك ثم أمرت بعرشها فجعل في آخر سبعة أبيات بعضها في بعضها أو في قصر من سبع قصور لها، ثم أغلقت دونه الأبواب ووكلت به حرساً يحفظونه ثم قالت لمن خلفتْ على سلطانها احتفظ بما في قبلك وسرير ملكي لا يخلص إليه أحد ولا يرينه حتى آتيك، ثم أمرت منادياً ينادي في أهل مملكتها يؤذّنهم بالرحيل وشخصت إلى سليمان في اثني عشر ألف، قيل من مملوك اليمن تحت يدي كل قيل ألوف كثيرة، قال ابن عباس كان سليمان رجلاً مهيباً لا يبتدا بشيء حتى يكون هو الذي يسأل عنه فخرج يومه فجلس على سرير مملكته فرأى رهجاً قريباً منه فقال ما هذا؟ قالوا بلقيس قد نزلت منها بهذا المكان وكان على مسيرة فرسخ من سليمان، قال ابن عباس وكان بين الحيرة والكوفة قدر فرسخ فأقبل سليمان حينئذ على جنوده ﴿وقال يا أيها الملؤا أيكم يأتيني بعرشها﴾ أراد ذلك أن يريها قدرة الله وعظم سلطانه في معجزة يأتي بها في عرشها ويختبر عقلها بأن ينكر عرشها فينظر أتعرفة أم تنكره ﴿قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾ فإنها إذا أتت مسلمة لم يحل أخذه إلا برضاها.

﴿قَالَ عِفْرِيتٌ﴾ قال الضحاك هو الخبيث، وقال الفراء هو القويُّ الشديد، قال ابن قتيبة العفريت الموثق الخلق وأصله من العفر أي التراب، يقال عافره إذا صارعه فألقاه على العافر أي التراب ﴿مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ قال وهب إسمه لوذي وقيل ذكمان وقيل صخر الجني وكان بمنزلة الجبل يضع قدمه عند منتهى طرف ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾ أي مجلسك الذي تقضي فيه، قال ابن عباس له كل غداة مجلس يقضي فيه إلى نصف النهار ﴿وَإِنِّى عَلَيْهِ﴾ على حمله ﴿لقوي أمين﴾ على ما فيه من الجواهر، هذه الجملة حال من فاعل آتيك، قال سليمان أنا أريد أسرع من هذا ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أخرج ابن

أبي حاتم عن ابن لهيعة أنه خضر وقال بعضهم هو جبرئيل عليه السلام وقيل هو ملك من الملائكة أيد الله به نبيه سليمان عليه السلام وقال أكثر المفسرين هو آصف بن برخيا وكان صدّيقاً يعلم اسم الله الأعظم الذي إذا دعي به أجاب وإذا سئل به أعطي، روى جرير ومقاتل عن الضحاك عن ابن عباس أن آصف قال لسليمان حين صلّى مدّ عينيك حتى ينتهي طرفك فمدّ سليمان عينيه فنظر نحو اليمن ودعا آصف فبعث الله الملائكة فحملوا السرير تحت الأرض تخد خدّاً حتى تخرقت الأرض بالسرير بين يدي سليمان، وقال الكلبي خرَّ آصف ساجداً فدعا باسم الله الأعظم فمال عرشها تحت الأرض حتى نبع عند كرسي سليمان، قيل كانت مقدار شهرين واختلفوا في الدعاء الذي دعا به آصف فقال مجاهد ومقاتل يا ذا الجلال والإكرام، وقال الكلبي يا حي يا قيوم وروي ذلك عن عائشة رضي الله عنها وروي عن الزهري قال دعاء الذي عنده علم الكتاب يا إلهنا وإله كل شيء إلهاً واحداً لا إله إلا أنت ائتني بعرشها، وقد بحثنا عن اسم الله الأعظم في صدر سورة آل عمران وقول الزهري يوافق ما اخترتُ، وقال محمد بن المنكدر الذي عنده علم من الكتاب هو سليمان عليه السلام نفسه آتاه الله علماً وفهماً فيكون التعبير عنه بذلك للدلالة على شرف العلم وإن هذه الكرامة كانت بسببه والخطاب في ﴿أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك﴾ للعفريت كأنه أراد إظهار معجزة فتحداهم أولاً فلما قال عفريت ما قال استبطأه فقال له ذلك وأراد به أنه يتأتى له ما لا يتهيأ لعفاريت من الجن فضلاً عن غيرهم، والمراد بالكتاب جنس الكتب المنزلة أو اللوح وآتيك في الموضعين صالح للفعلية والاسمية، والطرف تحريك الأجفان للنظر ولما كان الناظر يوصف بإرسال الطرف وصف بردّ الطرف والطرف بالارتداد والمعنى أنك ترسل طرفك نحو شيء فقبل أن ترده أحضر عرشها وهذا غاية الإسراع ومُثّل فيه.

﴿فَلَمَّا رَءَاهُ﴾ سليمان معطوف على محذوف تقديره فأمره سليمان بالإتيان بالسرير فدعا باسم الله الأعظم فمال عرشها تحت الأرض فنبع عند سرير سليمان فلما رآه ﴿مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ﴾ شكراً للنعمة كما هو دأب المخلصين من عباد الله ﴿هَٰذَا﴾ أي التمكن من إحضار العرش في مدة ارتداد الطرف من مسيرة شهرين بنفسه أو غيره ﴿مِن فَضْلِ رَبِّى﴾ أي بعض أفضاله على ﴿لِيَبْلُوَنِىٓ﴾ قرأ نافع بفتح الياء والباقون بإسكانها أي فضل علي لأجل ابتلائي ﴿أَشْكُرُ﴾ نعمة فأراه فضلاً من الله من غير حولٍ ولا قوة وأقوم بحقه ﴿أَمْ أَكْفُرُ﴾ بأن أجد نفسي أهلاً لها أو أقصر في أداء موجبه ومحلهما النصب على البدل من الضمير المنصوب في ليبلوني ﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾ لأنه به يستحب دوام النعمة ومزيدها

فإن الشكر قيد النعمة الموجودة وصيد النعمة المفقودة وبه يفرغ ذمته عن الواجب ويرتفع درجته عند الله تعالى ويستحق أجراً في دار الجزاء، قال رسول الله ﷺ «الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر»[(١)] رواه أحمد والترمذي وابن ماجه والحاكم بسند صحيح عن أبي هريرة ورواه أحمد وابن ماجه بسند صحيح عن سنان بن سنة بلفظ «الطاعم الشاكر له مثل أجر الصائم الصابر».

﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ﴾ عن شكره ﴿كَرِيمٌ﴾ ينعم على الشاكر والكافر جواب الشرط محذوف أقيم دليله مقامه تقديره ومن كفر فلا يضر ربي لأنه غني كريم ﴿قَالَ﴾ سليمان ﴿نَكِّرُوا لَهَا﴾ أي لبلقيس ﴿عَرْشَهَا﴾ يعني اجعلوه بحيث لا تعرفها إذا رأت، روى أنه جعل أسفله أعلاه وأعلاه أسفله وجعل مكان الجوهر الأحمر الأخضر ومكان الأخضر الأحمر ﴿نَنظُرْ﴾ مجذوم على جواب الأمر ﴿أتهتدي﴾ إلى معرفته أو للجواب الصواب ﴿أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾ وإنما حمل سلميان على ذلك (على ما ذكره كعب ووهب وغيرهما) أن الشياطين خافت أن يتزوجها سليمان فتفشي إليه أسرار الجن لأن أمها كانت جنيَّة وإذا ولدتُ ولداً لا ينفكون من تسخير ولده وذريته من بعده فأساءوا الثناء عليها ليزهدوه فيها وقالوا إن في عقلها شيئاً وإن رجليها كحافر الحمار وإنها شعراء الساقين فأراد سليمان أن يختبر عقلها بتنكير عرشها وينظر إلى قدمها ببناء الصرح.

﴿فَلَمَّا جَاءَتْ﴾ عطف على قوله ﴿فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ﴾[(٢)] وما بينهما معترضات ﴿قِيلَ﴾ لها ﴿أَهَكَذَا عَرْشُكِ﴾ شبّه الأمر عليها زيادة في امتحان عقلها ﴿قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ﴾ قال مقاتل عرفته ولكنها شبّهت عليهم كما شبّهوا عليها وقيل اشتبه الأمر عليها فلم تقل نعم ولا لا خوفاً من الكذب فعرف سليمان عقلها حيث لم تقر ولم تنكر، وقيل لها فإنه عرشك فما أغنى عنك إغلاق الأبواب والحرس فقالت ﴿وَأُوتِينَا الْعِلْمَ﴾ بكمال قدرة الملك وصحة نبوة سليمان ﴿مِن قَبْلِهَا﴾ أي قبل آية العرش بآيات أخر من إلقاء هدهد الكتاب وأمر الهدية والرسل، وقيل إنه من كلام سليمان عليه السلام وقومه عطفه على جوابها لما فيه من الدلالة على إيمانها بالله تعالى ورسله، جوّزت أن يكون ذلك عرشها تجويزاً غالباً وإحضاره ثمة من المعجزات التي لا يقدر عليها غير الله ولا يظهر إلا على

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: صفة القيامة والرقائق والورع (٢٤٨٦)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب: الصيام، باب: فيمن قال الطاعم الشاكر كالصائم الصابر (١٧٦٤).

(٢) سورة النمل، الآية: ٣٦.

أيدي الأنبياء عليهم السلام والمعنى وأوتينا العلم بالله تعالى وقدرته وصحة ما جاء من عنده قبلها ﴿وكنا مسلمين﴾ منقادين لحكمه لم نزل على دينه ويكون غرضهم فيه التحدث بما أنعم الله عليهم من التقدم في ذلك شكراً له، وقيل معناه وأوتينا العلم بإسلامها ومجيئها طائعة من قبل مجيئها وكنا مسلمين طائعين لله عزّ وجلّ ﴿وَصَدَّهَا﴾ أي منعها سليمان عليه السلام ﴿مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ يعني عن عبادة الشمس فما في محل النصب بحذف حرف الجر وإيصال الفعل إليه، وقيل ما في محل الرفع والمعنى وصدَّها عن التوحيد ﴿مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ لا نقصان عقلها كما قالت الجن أن في عقلها شيئاً ﴿إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾ إستئناف أخبر الله تعالى أنها كانت من قوم تعبد الشمس فنشأت فيهم ولم تعرف إلا عبادة الشمس.

ثم أراد سليمان أن ينظر إلى قدميها وساقيها من غير أن يسألها كشفها لما قالت الشياطين أن رجليها كحافر الحمار وهي شعراء الساقين، فأمر الشياطين أن يبنوا له صرحاً أي قصراً من زجاج وقيل بيتاً من زجاج كأنه الماء بياضاً، وقيل الصرح صحن الدار والحضري تحته الماء وألقي فيه كل شيء من دوابّ البحر السمك والضفادع وغيرهما، ثم وضع سريره على صدره وجلس عليه وعكفت عليه الطير والإنس والجن، وقيل اتخذ صحناً من قوارير وجعل تحتها تماثيل الحيطان والضفادع فكان إذا رآه أحد ظنّه الماء فلما جلس على السرير دعا بلقيس فلما جاءت ﴿قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ﴾ عطف على محذوف تقديره فدخلته يعني من الباب ورأته أي الصرح بلا حجاب قبل ورودها فلما رأته ﴿حَسِبَتْهُ لُجَّةً﴾ من ماء ﴿وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا﴾ لتخوضه، قرأ قنبل عن ساقيها هاهنا وفي صّ بالسؤق وفي الفتح على سؤقه بالهمزة في الثلاثة. والباقون بغير همزة. أخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي ما تم في حديث طويل عن ابن عباس أن سليمان أمر قبل قدومها ببناء قصر صحنه من زجاج أبيض وأجرى من تحته الماء وألقى فيه حيوانات البحر ووضع سريره في صدره فجلس عليه فلما أبصرته ظنته ماء راكداً فكشفت عن ساقيها لتخوضه وتخلص إلى سليمان فنظر سليمان فإذا هي أحسن الناس ساقاً وقدماً إلا أنها شعراء الساقين فلمّا رأى سليمان ذلك صر بصره عنها ومن هاهنا يظهر أن النظر إلى الأجنبية على إرادة خطبة النكاح جائز، قال رسول الله ﷺ: «إذا خطب أحدكم المرأة فإن استطاع أن ينظر إلى ما يدعوه إلى نكاحها فليفعل»[١] رواه أبو داود عن جابر، وروى

(١) أخرجه أبو داود في كتاب: النكاح، باب: في الرجل ينظر إلى المرأة وهو يريد تزويجها (٢٠٨٣).

أحمد والترمذي والنسائي وابن ماجه والدارمي عن مغيرة بن شعبة قال خطبت امرأة فقال لي رسول الله ﷺ هل نظرت إليها؟ قلت لا قال: «فانظر إليها فإنه أحرى أن يؤدم بينكما»[1] ﴿قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ﴾ أي مملس ومنه الأمرد ﴿مِّن قَوَارِيرَ﴾ من زجاج ﴿قَالَتْ﴾ حين رأت المعجزة من سليمان ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ بالكفر وعبادة الشمس فتبت عنه الآن ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي أخلصت له التوحيد، وقيل أنها لما بلغت الصرح وظنته لجة قالت في نفسها أن سليمان يريد أن يغرقها وكان القتل أهون من هذا فقالت إني ظلمت نفسي بذلك الظن لسليمان عليه السلام فتبتُ عنه وأسلمتُ.

واختلفوا في أمرها بعد إسلامها؟ فقال عون بن عبد الله سأل رجل عبد الله بن عيينة هل تزوجها سليمان قال إنتهى أمرها إلى قولها: «وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين» يعني لا علم لنا وراء ذلك، وقال بعضهم تزوجها أخرجه ابن عساكر عن عكرمة، ولما أراد أن يتزوجها كره ما رأى من كثرة شعر ساقيها فسأل الإنس ما يذهب هذا؟ قالوا الموسى، فقالت المرأة لم تمسني حديدة قط، فكره سليمان الموسى وقال إنه يقطع فسأل الجن فقالوا لا ندري ثم سأل الشياطين فقالوا إنا نحتال لك حتى تكون كالفضة البيضاء فاتخذوا النورة والحمام فكانت النورة والحمامات من يومئذ، فلمّا تزوجها سليمان أحبها حبّاً شديداً فأقرها على ملكها وأمر الجن فابتنوا لها بأرض اليمن ثلاثة حصون لم ير الناس مثلها ارتفاعاً وحسناً وهي سلحون وسنون وعمدان، ثم كان سليمان يزورها كل شهر مرة بعد أن ردها إلى ملكها يقيم عندها ثلاثة أيام يبتكر من الشام إلى اليمن ومن اليمن إلى الشام وولد له منها ذكر. وروى عن وهب قال زعموا أن بلقيس لما أسلمت قال لها سليمان اختاري رجلاً من قومك أزوجكه قالت ومثلي يا نبي الله تنكح الرجال وقد كان لي في قومي من الملك والسلطان ما كان، قال نعم إنه لا يكون في الإسلام إلا ذلك ولا ينبغي لك أن تحرمي ما أحل الله لكِ فقالت زوجني إن كان لا بد ذلك من ذي تبع ملك همدان فزوجها إياه، ثم ردها إلى اليمن وسلط زوجها ذا تبع على اليمن ودعا رديعه أمير جن اليمن فقال إعمل لذي تبع ما استعملك فيه فلم تزل ملكاً يعمل له فيه ما أراد حتى مات سليمان فلما أن حال الحول وتبينت الجن موت سليمان أقبل رجل منهم فسلك تهامةً، حتى إذا كان في جوف اليمن صرخ بأعلى صوته يا معشر الجن إن ملك سليمان قد

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: النكاح، باب: ما جاء في النظر إلى المحطوبة (١٠٨١)، وأخرجه النسائي في كتاب: النكاح، باب: إباحة النظر قبل التزويج (٣٢٢٦)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب: النكاح، باب: النظر إلى المرأة إذا إراد أن يتزوجها (١٨٦٥).

مات فارفعوا أيديكم فرفعوا أيديهم وتفرقوا وانقضى ملك ذي تبع وملك بلقيس مع ملك سليمان. قلت: نظر سليمان إلى ساق بلقيس يؤيد قول من قال أنه نكحها ويأبى قول من قال أنه أنكحها ذا تبع والله أعلم، قيل إن الملك وصل إلى سليمان وهو ابن ثلاث عشر سنة ومات وهو ابن ثلاث وخمسين سنة سبحان الله من لا زوال لملكه. شعر:

لا ملك سليمان ولا بلقيس لا آدم في الكون ولا إبليس
والكل فصورة وأنت المعنى يامن هو للقلوب مغناطيس

والله أعلم.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ ۖ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾ وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾ جواب قسم محذوف وهذه الجملة معطوفة على قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ﴾[1] وقوله صالحاً بدل من أخاهم ﴿أَنِ﴾ مفسرة لأرسلنا أو مصدرية بتقدير الباء أي بأن ﴿أعبدوا الله﴾ وحده ﴿فَإِذَا هُمْ﴾ مبتدأ خبره ﴿فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾ صفة لفريقين أي ففاجرا التفرق والإختصام فآمن فريق وكفر فريق والواو في يختصمون لمجموع الفريقين قال اختصامهم ما ذكر في سورة الأعراف ﴿قال الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا﴾ إلى قوله ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾[2] ﴿قَالَ﴾ لهم صالح ﴿يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾ أي بالعقوبة حيث تقولون ﴿يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾[3] ﴿قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ﴾ أي قبل التوبة حيث تؤخرونها إلى نزول

---

(١) سورة النمل، الآية: ١٥.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ٧٥ ـ ٧٧.
(٣) سورة الأعراف، الآية: ٧٧.

العذاب الإستفهام للإنكار والتوبيخ ﴿لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ﴾ بالتوبة من كفركم قبل نزول العذاب ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ أي لكي ترحموا بقبولها فإنها لا تقبل بعدما ترون العذاب ﴿قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ﴾ أي تشاءمنا بكم إذ وقع بيننا الإفتراق حين إخترعتم ديناً أو تتابع علينا الشدائد وأمسك عنا المطر قالوا هذه الضراء والشدة من شؤمك وشؤم أصحابك ﴿قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ﴾ أي شؤمكم يعني سبب شؤمكم الذي جاء منه شر ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ وهو قضاؤه أو عملكم المكتوب عنده، سمى القضاء طائراً لسرعة نزوله بالإنسان فإنه لا شيء أسرع من قضاء مختوم وسمى العمل طائراً لسرعة صعوده إلى السماء، وقال ابن عباس طائركم عبد الله يعني شؤمكم أتاكم من عند الله لكفركم، وقيل سمى الشؤم طائراً لأن أهل الجاهلية كانوا يتشاءمون بصوت الطائر ومروره على نهج معين معروف عندهم إذا سافروا المستعير لفظ الطائر للشؤم لذلك العرف ﴿بل أنتم قوم تفتنون﴾ إضراب عن مفهوم الكلام السابق يعني ليس طائركم مني ومن أصحابي ﴿بل أنتم تفتنون﴾ أي تعذبون بكفركم كذا قال محمد بن كعب وقال ابن عباس تختبرون بالخير والشر نظيره قوله تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾[1].

﴿وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾ أي مدينة ثمود وهي الحجر ﴿تِسْعَةُ رَهْطٍ﴾ أي تسعة أنفس وقع الرهط تمييزاً للتسعة باعتبار المعنى فإن معناه الجماعة من الثلاثة أو السبعة إلى العشرة كما أن النفر من الثلاثة إلى التسعة يفسدون في الأرض خبر لكان واسمه ﴿تسعة رهط وفي المدينة﴾ حال منه أو ظرف ﴿وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ يعني كان شأنهم الإفساد الخالص عن شوب الصلاح وهم أبناء أشرافهم الذين اتفقوا على عقر الناقة وهم غواة قوم صالح وأشقياؤهم وأشقاهم قدار بن سالف وهو الذي تولى عقرها ﴿قَالُوا۟﴾ استئناف أوحال بتقدير قد يعني قال بعضهم لبعض ﴿تَقَاسَمُوا۟﴾ يعني تحالفوا ﴿بِٱللَّهِ﴾ هو أمر مقولة قالوا أو فعل ماضي وقع بدلاً من قالوا أو حال بإضمار قدمن فاعل قالوا ﴿لَنُبَيِّتَنَّهُۥ﴾ أي لنقتلن صالحاً بياتاً أي ليلاً ﴿وَأَهْلَهُۥ﴾ أي قومه الذين أسلموا به ﴿ثُمَّ لَنَقُولَنَّ﴾ قرأ الأعمش وحمزة والكسائي ﴿لتبيته ولتقولن﴾ بالتاء للخطاب فيما بينهم فيهما وضم التاء الثانية في الأولى وضم اللام في الثانية لدلالتها على الواو المحذوفة للجمع والباقون بالنون للتكلم وفتح التاء واللام ﴿لِوَلِيِّهِۦ﴾ لولي دمه ﴿مَا شَهِدْنَا﴾ أي ما حضرنا ﴿مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ﴾ قرأ الجمهور بضم الميم وفتح اللام من الإهلاك يحتمل المصدر والزمان والمكان وكذا على قراءة حفص بفتح

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٣٥.

الميم وكسر اللام من الهلاك فإن مفعلاً قد جاء مصدراً كمرجع وقرأ أبو بكر بالفتح فيكون مصدراً ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ يعني ونحلف أو والحال إنا لصادقون فيما ذكر لأن الشاهد للشيء غير المباشر له عرفاً أو لأنا ما شهدنا مهلكهم وحده بل مهلكه ومهلكهم كقولك ما رأيت ثم رجلاً بل رجلين.

﴿وَمَكَرُواْ مَكۡرًا﴾ أي غدروا غدراً حيث قصدوا تبييت صالح ﴿وَمَكَرۡنَا مَكۡرًا﴾ بأن جعلناها سبباً لإهلاكهم ﴿وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ حال من فاعل مكرنا ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكۡرِهِمۡ﴾ عاقبة اسم كان وكيف خبره مقدم عليه لصدارته والإستفهام للتعجب، والجملة الإستفهامية بتأويل المفرد مفعول لأنظر ﴿أَنَّا دَمَّرۡنَٰهُمۡ﴾ قرأ الكوفيون ويعقوب أنا بفتح الهمزة على أنه خبر بمبتدأ محذوف أو بدل من اسم كان خبر له وكيف حال أو التقدير لأنا دمرناهم والباقون بكسر الهمزة على الاستئناف وعلى هذا إن كان ناقصة فخبرها كيف وإن كان تامة فكيف حال ولا يجوز أن يكون انا دمرناهم خبر كان لعدم العائد. اختلفوا في كيفية إهلاكهم؟ قال ابن عباس أرسل الله الملائكة تلك الليلة إلى دار صالح يحرسونه فأتى التسعة دار صالح شاهرين سيوفهم فرمتهم الملائكة بالحجارة من حيث يرون الحجارة ولا يرون الملائكة فقتلهم، وقال مقاتل حبسوا في سفح الجبل ينتظرون بعضهم ليأتوا دار صالح فجثم عليهم الجبل فأهلكهم الله تعالى، أخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة قال مكر الله بهم رماهم بصخرة فأخذتهم ﴿وَقَوۡمَهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ أهلكهم الله بالصيحة ﴿فتلك بيوتهم خاوية﴾ أي خالية من خوى البطن إذا خلا أو ساقطة منهدمة من خوى النجم إذا سقط منصوب على الحال والعامل فيه معنى الإشارة ﴿بِمَا ظَلَمُوٓاْۚ﴾ أي خاوية بسبب كفرهم وظلمهم ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي فيما فعل بثمود ﴿لَأٓيَةً﴾ على كمال قدرتنا وصدق الأنبياء ﴿لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾ فيتعظون به ﴿وَأَنجَيۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾﴾ الكفر والمعاصي وهم صالح ومن معه وكانوا أربعة آلاف ﴿وَلُوطًا﴾ منصوب بفعل مضمر يدل عليه قوله ﴿لقد أرسلنا إلى ثمود﴾ تقديره وأرسلنا لوطاً وجاز أن يكون منصوباً باذكر ﴿إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ﴾ ظرف لفعل مقدر وهو أذكر أو متعلق بأرسلنا على تقدير كونه عاملاً في لوطاً أو بدل من لوط على تقدير كونه منصوباً باذكر ﴿أَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ﴾ أي الفعلة البالغة في القبح الاستفهام للإنكار والتوبيخ وكذا الاستفهام الثاني ﴿وَأَنتُمۡ تُبۡصِرُونَ﴾ أي تعلمون فحشها من بصر القبائح مع أن اقتراف القبائح من العالم بقبحها أقبح، وقيل معناه ويبصر بعضكم بعضاً فإنهم كانوا يعلنون بها ويفعلونها بمشهد القوم فيكون أفحش، أو المعنى وأنتم تبصرون آثار من قبلكم

يعلنون بها ويفعلونها بمشهد القوم فيكون أفحش، أو المعنى وأنتم تبصرون آثار من قبلكم من العصاة وما نزل بهم ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ﴾ اللائي خلقن لذلك بيان لإتيانهم الفاحشة وشهوة منصوب على العلية للدلالة على قبحه والتنبيه على أن الحكمة في المواقعة طلب النسل لاقتضاء الشهوة ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ أي تفعلون فعل من يجهل بقبحها أو يكون سفيهاً لا يميز بين الحسن والقبح أو تجهلون العاقبة والتاء في تجهلون كلون الموصوف به في معنى المخاطب قيل اجتمع هاهنا الخطاب بقوله أنتم والغيبة بقوله قومٌ فغلب الخطاب على الغيبة. وهذه الآيات تدل على أن حسن الأفعال وقبحها ثابتة لها في أنفسها قبل ورود الشرع وإن كانت معرفة بعضها متوقفة على الشرع ﴿۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ أي يتنزهون عن أفعالنا أو عن الأقذار وجملة إنهم أناس في مقام التعليل للإخراج ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا﴾ أي قدرنا كونها ﴿مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ أي الباقين في العذاب ﴿وأمطرنا عليهم مطراً افساء مطر المنذرين﴾.

﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ ۗ آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦٤﴾﴾.

﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ﴾ أمر الله تعالى رسوله ﷺ بعدما قص عليه القصص الدالة على كمال قدرته وعظمة شأنه وما خص به رسله من الآيات والتشريفات أن يحمد الله على إهلاك الكفار من الأمم الخالية وعلى جميع نعمه وعلى إعلامه ما جهل من أحوالهم وأن يسلم على من اصطفاه من عباده عرفاناً بفضلهم وحق تقدمهم واجتهادهم في الدين وقوله ﴿الَّذِينَ اصْطَفَىٰ﴾ قال مقاتل هم الأنبياء والمرسلون

بدليل قوله تعالى: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٨١﴾[1] وقال ابن عباس في رواية مالك هم أصحاب محمد ﷺ، عن سفيان الثوري أنها نزلت في أصحاب محمد ﷺ وقال الكلبي هم أمة محمد ﷺ بدليل قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾[2] الآية، وقيل هم المؤمنون كلهم السابقون واللاحقون. وقيل هذا من تمام قصة لوط عليه السلام وخطاب للوط عليه السلام بتقدير القول، يعني وقلنا له قل الحمد لله الخ أمره بأن يحمد الله على هلاك كفار قومه ويسلّمُ على من اصطفاه بالعصمة عن الفواحش والنجاة من الهلاك أو على محمد وأمته فإن ما وصل بالأنبياء والأمم من الكرامات ودفع البليّات كان ببركة نوره ﷺ، قال رسول الله ﷺ: «كنت أول الناس في الخلق وآخرهم في البعث» رواه أبو سعد عن قتادة مرسلاً، وقال رسول الله ﷺ: «كنتُ نبيّاً وآدم بين الروح والجسد» رواه ابن سعد بسند صحيح عن ميسرة بن سعد عن أبي الجدعاء والطبراني عن ابن عباس ﴿آلله خير أما يشركون﴾ متصل بما سبق في صدر السورة ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ﴾ إلى قوله ﴿هم الأخسرون﴾ وهذا إلزام وتهكم بهم وتسفيه لرأيهم بعدما ذكر من القصص الدالة على قدرته تعالى على إكرام عباده الصالحين وكبت أعدائه يعني من هذا شأنه هو مستحق للعبادة والخوف والرجاء خَيرٌ من غيره أمّا يُشركون من الأصنام وغيرها مما لا يضر ولا ينفع ضره أقرب من نفعه خير من الله القادر القاهر لمن يعبد. قرأ أبو عمرو وعاصم ويعقوب يشركون بالياء التحتانية على الغيبة والباقون بالتاء الفوقانية خطاباً بالأهل مكة.

﴿أمن خلق السموات والأرض﴾ أم متصلة وما عطف عليه بأم محذوف تقديره آلهتكم التي لم يخلقوا شيئاً وهم يخلقون خير أم من خلق، وقيل منقطعة بمعنى بل والهمزة قيل للإضراب عن الاستفهام السابق لبداهة كون الله تعالى مبدأً لكل خير وعدم الخيرية رأساً فيما أشركوه فكيف يمكن الموازنة والإستفهام عنه والهمزة للتقرير أي حمل المخاطب على الإقرار بخيرية من خلق السماوات والأرض ﴿وَأَنزَلَ لَكُم﴾ أي لأجل انتفاعكم ﴿من السماء ماء فانبتنا به حدائق﴾ أي بساتين جمع حديقة، قال الفراء الحديقة البستان المحاط عليها فإن لم يكن عليه حائط فليس بحديقة، قال البيضاوي من الإحداق وهو الإحاطة ﴿ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾ أي حسن المنظر يبتهج به صفة لحدائق وإفراد بهجة لتأويل حدائق بجماعة حدائق، وفي الكلام التفات من الغيبة إلى التكلم لتأكيد إختصاص الفعل

---

(١) سورة الصافات، الآية: ١٨١. (٢) سورة فاطر، الآية: ٣٢.

بذاته تعالى والتنبيه على أن إثبات الحدائق البهية المختلفة الأنواع المتباعدة الطبائع من المواد المتشابهة لا يقدر عليه غيره كما صرح بقوله ﴿مَا كَانَ﴾ أي ما يمكن ﴿لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ﴾ أي شجرة من أشجارها والإضافة للجنس والجملة ما كان لكم الخ صفة لحدائق ﴿ءإله مع الله﴾ أعانه على ذلك الإستفهام للإنكار يعني ليس أحد أعانه على ذلك فلا مستحق للعبادة غيره معه لانفراده بالخلق ﴿بَلْ هُمْ﴾ يعني كفار مكة ﴿قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ من لا يخلق بمن يخلق فيشركون به أو المعنى بل هم قوم يعدلون عن الحق الذي هو التوحيد فيه التفات من الخطاب إلى الغيبة.

﴿أمن جعل الأرض قراراً﴾ بدل من ﴿أمن خلق السماوات﴾ الخ والكلام في أم في هذا وفي ما بعدها مثل ما سبق وجعلها قراراً إبداء بعضها من الماء وتسويتها بحيث يمكن الاستقرار عليها ﴿وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ﴾ وسطها ظرف مستقر وقع ثاني مفعول جعل وكذا في الجملة التاليتين ﴿أنهاراً﴾ جارية ﴿وَجَعَلَ لَهَا﴾ أي للأرض ﴿رَوَٰسِىَ﴾ جبالاً ثابتة منعها من الحركة وأنبع منها الأنهار ﴿وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ العذب والملح ﴿حَاجِزًا﴾ مانعاً من الإختلاط ﴿ءإله مع الله﴾ ليس كذلك ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنه لا إله إلا هو لإهمالهم النظر الصحيح مع الأدلة القاطعة فيشركون به جهلاً وبعضهم يعلمون ذلك ولكن يمكرونه تعنتاً وعناداً.

﴿أمن يجيب المضطر﴾ اسم فاعل من الاضطرار وهو افتعال من الضر يعني من إبتلى بضر أحوجه شدته إلى إلجاء إلى الله تعالى يجيبه ﴿إِذَا دَعَاهُ﴾ بفضله إن شاء فإن اللام في المضطر للجنس دون الاستغراق فلا يلزم منه إجابة كل مضطر ﴿وَيَكْشِفُ﴾ أي يدفع ﴿ٱلسُّوٓءَ﴾ الذي ألجأه إلى الدعاء ﴿وَيَجْعَلُكُمْ﴾ عطف على يجيب ﴿خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ﴾ أي خلفاء من قبلكم في الأرض بأن ورثكم سكناها والتصرف فيها أو سلطانها، وقيل يعني جعلكم خلفاء الجن في الأرض قلت ويمكن أن يقال معناه جعل منكم خلفاء الله تعالى في أرضه بدليل قوله تعالى: ﴿إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[1] ﴿ءإله مع الله﴾ الذي خلقكم بهذه النعم العامة والخاصة يعني ليس كذلك ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ إلا الله ما مزيدة وقليلاً منصوب بتذكرون على المصدرية أو على الظرفية والمراد بالقلة العدم أو الحقارة المربحة للفائدة قرأ أبو عمرو وهشام يذكرون بالياء للغيبة والباقون بالتاء للخطاب وقرأ حمزة والكسائي وحفص بتخفيف الذال والباقون بتشديدها.

(١) سورة البقرة، الآية: ٣٠.

﴿أمن يهديكم﴾ بالنجوم وعلامات الأرض ﴿فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ إذا سافرتم في الليالي أضاف الظلمات إلى البحر والبر للملابسة ﴿وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ﴾ يعني المطر ﴿ءإله مع الله﴾ يقدر مثل ذلك ﴿تَعَٰلَى ٱللَّهُ﴾ القادر الخالق ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ عن إشراك العاجز المخلوق.

﴿أمن يبدؤا الخلق ثم يعيده﴾ بعد الإماتة والكفار وإن أنكروا الإعادة فهم محجوجون بالحجج الدالة عليها من النقل المشهود عليه بالمعجزات مع إمكانها عقلاً ﴿وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي من أسباب سماوية وأسباب أرضية ﴿ءإله مع الله﴾ يقدر على ذلك ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ﴾ على أن مع الله إلهاً آخر يقدر على شيء من ذلك ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في الإشراك فإن كمال القدرة من لوازم الألوهية.

﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

قال البغوي ولمّا سأل المشركون النبيّ ﷺ عن وقت قيام الساعة نزلت ﴿قُل﴾ يا محمد في جوابهم ﴿لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ من الملائكة ﴿وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ من الجن والإنس ومنهم الأنبياء عليهم السلام من موصول أو موصوف ﴿ٱلْغَيْبَ﴾ يعني ما غاب عن مشاعرهم ولم يقم عليه دليل عقلي ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾ لكن الله يعلم ما غاب عنهم وغيره تعالى لا يعلم إلا بإعلامه فالاستثناء منقطع لأنه تعالى منزه عن الإستقرار في السماوات والأرض ورفعه على لغة بني تميم فإنهم يجيزون النصب والمبدل في المنقطع كما في المتصل وعليه قول الشاعر. شعر:

وبلدة ليس بها أنيس ... إلا اليعافير وإلا العيس

وقيل الإستثناء متصل ودخول المستثنى في المستثنى منه على سبيل فرض المحال وفرض المحال ليس بمحال، وقال في البحر المواج المستثنى منه محذوف وفي الكلام حذف تقديره لا يعلم من في السماوات والأرض الغيب لا يعلمه أحد إلا الله فهذه الجملة تعليل لنفي العلم، قلت ويمكن أن يكون التقدير لا يعلم من في السماوات والأرض

الغيب بشيء إلا بالله أي بتعليمه ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ أي متى يحشرون يعني وقت حشرهم مما لا يدرك بالمشاعر فهو من الغيب الذي لا يمكن العلم به والاطلاع عليه إلا بتعليم من الله تعالى وأنه تعالى لم يطلع على ذلك أحداً بل استأثر علمه لنفسه فلا يتصور لهم العلم به، وهذا تخصيص بعد تعميم وفائدته التأكيد ومطابقة الجواب السؤال وحتم إحتمال التخصيص فإن قوله تعالى لا يعلم من في السماوات والأرض الغيب يفيد نفي علمهم بالغيب وذلك مخصوص بما حصل لهم بتعليم من الله تعالى بتوسط الرسل.

﴿بَلِ أَدَّرَكَ﴾ كذا قرأ أبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو بهمزة القطع على وزن أكرم من الأفعال أي بلغ ولحق ﴿عِلْمُهُمْ﴾ فاعل لادارك ﴿فِي ٱلْآخِرَةِ﴾ ظرف لادارك والمفعول محذوف دل عليه ما سبق والمعنى أنهم لا يدركون وقت قيام الساعة في الدنيا قط بل يدرك علمهم ذلك في الآخرة إذا عاينوه، أو المعنى بل أدرك علمهم اليوم بتعليم الرسل ﷺ إياهم في شأن الآخرة ﴿أن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور﴾[1] لكنهم لا يعلمون وقت مجيئها، وقرأ الباقون بل ادَّرك أصله تدارك يعني تدارك وتكامل علمهم وحصل لهم اليوم بتعليم الرسول ﷺ في شأن الآخرة أو يحصل لهم العل بذلك إذا عاينوه يقال تدارك الفاكهة إذا تكاملت نضجاً وحصول العلم القطعي للمؤمنين في الدنيا ظاهر وللكافرين باعتبار قيام الأدلة الموجبة للقطع مقامه ﴿بَلْ هُمْ﴾ يعني كفار مكة ﴿فِي شَكٍّ مِّنْهَا﴾ أي من قيام الساعة بعد وجود ما يوجب القطع من إخبار الرسول الله ﷺ المؤيد بالمعجزات، وقيل قوله بل ادارك على طريقة الإستفهام معناه هل تدارك وتتابع علمهم في الآخرة يعني لم يتتابع وضل وغاب علمهم به فلم يبلغوه ولم يدركوه لأن في الإستفهام ضرباً من الجحد، يدل هذا التأويل قراءة ابن عباس بلى بإثبات الألف المكتوب بصورة الياء أدارك بفتح الهمزة للاستفهام وسقوط همزة الوصل أي لم يدرك وفي قراءة أبي أم تدارك علمهم والعرب يضع بل موضع أم وأم موضع بل، وذكر علي بن عيسى وإسحاق أن بل في بل ادارك بمعنى لو والمعنى لو أدركوا في الدنيا ما ادركوه في الآخرة لم يشكوا بل هم اليوم في شك من الساعة ﴿بَلْ هُم مِّنْهَا﴾ أي من الساعة ﴿عَمُونَ﴾ جمع عمى وهو عمى القلب نفى الله عنهم علم الغيب أولاً ثم أكَّد ذلك بنفي شعورهم بما هو مالهم لا محالة ثم بالغ فيه بأن أضرب عنه وبيَّن أن منتهى علمهم وما تكامل فيه أسباب العلم من الحجج والآيات مقصور على أن القيامة كائنة لا محالة وهم لا يعلمونها كما

---

(١) سورة الحج، الآية: ٧.

ينبغي ثم أضرب عنه وقال ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا﴾ بعد تكامل الأدلة كمن يتحير في أمر لا يجد عليه دليلاً فهم لا يستطيعون إزالة الشك ثم أضرب عنه وقال بل هم في أمره حال منه فإنهم عمون لا يدركون دليلهم لاختلال بصيرتهم وهذا إن اختص بالمشركين فمن في السماوات والأرض نسب إلى جميعهم كما يسند فعل البعض إلى الكل، وقيل الإضراب الأول عن نفي الشعوب بوقت القيامة عنهم بوضعهم باستحكام علمهم في أمر الآخرة تهكماً، وقيل أدرك بمعنى انتهى واضمحل من قولهم أدرك الثمرة لأنها تلك غايتها التي عندها يعدم وما بعدها إضراب عن علمهم بأمر الآخرة مبالغة في نفيه ودلالة على أن شعورهم بها أنهم شاكون فيها ثم أضرب عنه وقال ﴿هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾ ليس لهم صلاحية العلم أصلاً.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ عطف على مضمون قوله تعالى بل هم منها عمون وكالبيان له، وضع المظهر هاهنا موضع الضمير ولم يقل وقالوا لكون ذكر الكافرين مجملاً فيما سبق إذا قرأ نافع إذا بغير همزة الإستفهام على صيغة الخبر وهمزة الإستفهام على هذا مقدرة والباقون بهمزتين على الاستفهام ﴿كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا أَئِنَّا﴾ قرأ ابن عامر والكسائي بنونين أحدهما للوقاية وبهمزة واحدة على صيغة الخبر وتقدير همزة الإستفهام والباقون بنون واحدة وهمزتين على الإستفهام وضمير ائنا راجع إليهم وإلى آبائهم غلبت الحكاية على الغائب ﴿لَمُخْرَجُونَ﴾ من القبور أحياءاً ومن حال الموت إلى الحياة وهذا كالبيان لعمههم والعامل في إذا محذوف دل عليه مخرجون تقديره أنخرج إذا كنا تراباً أنحن مخرجون حينئذ والإستفهام الإنكار، والجملة الإستفهامية الثانية تأكيد للأولى تكرير للإنكار مبالغة له ولا يجوز أن يكون مخرجون عاملاً في إذا لأن كلام من الهمزة وأنَّ واللام مانعة من عمله فيما قبله ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا﴾ أي البعث جواب قسم محذوف ﴿نَحْنُ﴾ على لسان محمد ﷺ ﴿وَآبَاؤُنَا﴾ على لسان غيره من الأنبياء ﴿مِن قَبْلُ﴾ وعد محمد ﷺ وتقديم هذا على نحن هاهنا لأن المقصود بالذكر هاهنا هو البعث وحيث أخّر فالمقصود هو المبعوث ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ يعني أحاديثهم وأكاذيبهم التي كتبوها كالأسمار ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ تهديد لهم على التكذيب وتخويف بأن ينزل بهم مثل ما نزل بالمكذبين قبلهم والتعبير عنهم بالمجرمين ليكون لطفاً بالمؤمنين في ترك الجرائم ﴿وَلَا تَحْزَنْ﴾ يا محمد ﴿عَلَيْهِمْ﴾ أي على تكذيبهم وإعراضهم ﴿وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ﴾ قرأ ابن كثير بكسر الضاد والباقون بالفتح وهما لغتان يعني لا تكن في ضيق صدر وغم ﴿مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ من للسببية وما مصدرية أي بسبب مكرهم

قال البغوي نزلت في المستهزئين الّذين عقاب مكة يعني أن الله بالغ أمرك إلى الكمال.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٧١﴾ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾ وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٧٥﴾ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾﴾.

﴿وَيَقُولُونَ﴾ عطف على قال الذين كفروا وما بينهما معترضات ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ أي الموعود من العذاب ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أن العذاب نازل ﴿قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم﴾ أي ردفكم واللام مزيدة للتأكيد يعني عسى أن يتبعكم ويلحقكم بلا مهلة بعض تنازع فيه الفعلان يكون وترون أعمل أحدهما وأضمر في الآخر ﴿ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ﴾ حلوله وهو عذاب يوم بدر، قال البيضاوي عسى ولعل وسوف في مواعيد الملوك كالجزم بها وإنما يطلقونه إظهاراً لوقارهم وإشعاراً بأن الرمزة منهم كالتصريح من غيرهم وعليه جرى وعد الله ووعيده، وهذا المعنى قول من قال أن عسى ولعل في كلام الله واجبة الوقوع يعني وأما في الوعيد فيجوز العفو بشرط الإيمان وأما الكافر فلا يستحق العفو وقوله تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾[1] ليس من هذا الباب ومن ثم لم يوجد من فرعون تذكر ولا خشية ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ فيغفر للمؤمن إن شاءو لا يستعجل الكافر بالعذاب وكذلك لم يعجل على أهل مكة بالعذاب كذا قال مقاتل هذه الجملة إما حال أو معترضة ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ ولا يعرفون حق النعمة فيستعجلون العذاب مجملهم ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ﴾ أي ما تخفي صدور الناس ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ أي الناس من عداوتك فيجازيهم عليه وليس تأخير العذاب عنهم لخفاء حالهم، وهذه الجملة معطوفة على عسى فإن عسى في كلام الله كالتحقق ﴿وَمَا مِنْ

(١) سورة طه، الآية: ٤٤.

غَآئِبَةٍ﴾ إسم ما ومن زائدة أي ما من شيء غائب عن أبصار الناس وهي من الصفات الغالبة كالخافية والتاء فيهما للمبالغة كما في الرواية أو إسمان لما يغيب ويختفي فالتاء فيه كالتاء في عافية وعاقبة، وقال البغوي هي صفة لمحذوف أي جملة غائبة من مكتوم سر وخفي أمر وشيء غائب كائنة ﴿فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ظرف لغو متعلق بغائبة ﴿إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ مستثنى مفرغ خبر ما أي بين أو مبين ما فيه لمن يطالعه وهو اللوح المحفوظ.

﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي يبيّن لهم ﴿أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ من أمر الدين قال الكلبي إن أهل الكتاب اختلفوا بينهم وصاروا أحزاباً يطعن بعضهم فنزل القرآن ببيان ما اختلفوا فيه، هذه الجملة مع ما عطف عليه متصل بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ۝٦﴾[1] واقعة عنها مقام التعليل وما بينهما معترضات ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ أي القرآن ﴿لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ فإنهم هم المنتفعون به دون الكفار من أهل الكتاب وغيرهم ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى﴾ أي يحكم ﴿بَيْنَهُم﴾ أي بين المختلفين في أمر الدين يوم القيامة ﴿بِحُكْمِهِۦ﴾ متعلق بيقضي. فإن قيل قوله يقضى معناه يحكم فيكيف يتعلق به بحكمه فإنه نظير ينصره بنصره وذا لا يجوز؟ قلنا المراد الحكم هذا بمعنى المحكوم والمعنى يحكم بما حكم به في القرآن أو المراد بحكمته ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالب الذي لارادّ لقضائه ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بحقيقة ما يقضى فيه وحكمته ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ ولا تبال بمن عاداك متصل بقوله ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم﴾ ﴿إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ﴾ البين حقيقة علل التوكل بأنه على الحق الظاهر الذي لا مساغ فيه، إشارة إلى أن صاحب الحق حقيق بالوثوق على الله ونصره ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ أي الكفار شبههم بالموتى لعدم الإنتفاع لهم بتسامع ما يتلى عليهم كما شبهوا بالأصم في قوله تعالى ﴿وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ﴾ والدعاء مفعول للفعلين على التنازع قرأ ابن كثير ﴿لَا يَسْمَعُ﴾ بالياء وفتحها وفتح الميم على صيغة الغائب من المجرد والصُّمُّ بالرفع على الفاعلية وكذلك في سورة الروم والباقون بالتاء وضمها وكسر الميم على صيغة المخاطب من الإستماع ونصب الصُّمَّ على المفعولية ﴿إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ﴾ فإن قيل ما معنى لهذا القيد فإن الأصم الذي لا يسمع سواء عليه أن يولى أولا قيل ذكره على التأكيد والمبالغة وقيل الأصم إذا كان حاضراً قد يسمع برفع الصوت أو يفهم بالإشارة أو الكتابة فإذا ولى لم يسمع ولم يفهم رأساً يعني أن الكفار لفرط إعراضهم عما يدعون إليه

(١) سورة النمل، الآية: ٦.

كالميت الّذي لا سبيل إلى استماعه وكالأصم المدبر الذي لا سبيل إلى إفهامه، قيل الظرف متعلق بالفعلين على سبيل التنازع ويرد عليه أن نسبة التولي إلى الأصم جائز وإلى الموتى لا يجوز فكيف يتصدى التنازع والجواب أن الموتى والأصم كلاً منهما مستعار للكافر وهو من أهل التولي، ويسمى هذا الاستعارة استعارة مجرورة وهي أن يوصف المستعار بوصف ملائم للمستعار له والله أعلم.

﴿وما أنت بهادي العمى﴾ قرأ الأعمش وحمزة هاهنا وفي الروم تهدي بالتاء المفتوحة وإسكان الهاء بغير ألف على صيغة المضارع والعمى بالنصب وإذا وقف أثبت ياء تهدى في السورتين والباقون بالياء المكسورة وصيغة اسم الفاعل مضافاً والعمى بالياء وقفوا هاهنا بالياء وفي الروم بغير ياء إتباعاً للمصحف ﴿عَن ضَلَٰلَتِهِمۡۖ﴾ يعني ما أنت بمرشد من أعمى الله قلبه عن الإيمان ﴿إِن تُسۡمِعُ﴾ يعني لا تسمع ولا ينفع إسماعك القرآن أحداً ﴿إلا من يؤمن بآياتنا﴾ يعني من قدّرنا إيمانه ﴿فَهُم مُّسۡلِمُونَ﴾ مخلصون من أسلم وجهه لله.

﴿۞ وَإِذَا وَقَعَ ٱلۡقَوۡلُ عَلَيۡهِمۡ أَخۡرَجۡنَا لَهُمۡ دَآبَّةً مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ تُكَلِّمُهُمۡ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾ وَيَوۡمَ نَحۡشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوۡجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُمۡ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبۡتُم بِـَٔايَٰتِي وَلَمۡ تُحِيطُواْ بِهَا عِلۡمًا أَمَّاذَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٨٤﴾ وَوَقَعَ ٱلۡقَوۡلُ عَلَيۡهِم بِمَا ظَلَمُواْ فَهُمۡ لَا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾ أَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا جَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ لِيَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٨٦﴾﴾.

﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلۡقَوۡلُ عَلَيۡهِمۡ﴾ يعني إذا دنا وقوع معنى ما قيل عليهم أي ما وعدوا به من البعث والعذاب ﴿أَخۡرَجۡنَا لَهُمۡ دَآبَّةً﴾ قال البغوي روي عن علي رضي الله عنه ليس بدابة لها ذنب ولكن لها لحية كأنه يشير إلى أنه رجل والأكثر على أنها دابة ذات أربع قوائم، أخرج عبد بن حميد عن ابن عباس قال الدابة ذات وبرو وريش مؤلفة فيها من كل لون لها أربع قوائم ثم يخرج بعقب من الحاج، وروى عن جريح عن أبي الزبير أنه وصف الدابة فقال رأسها رأس الثور وعينها عين الخنزير وأذنها أذن الفيل قرنها قرن إبل وصدرها صدر أسد ولونها لون نمر وخاصرتها خاصرة هرة وذنبها ذنب كبش وقوائمها قوائم بعير بين كل مفصلين إثني عشر ذراعاً معها عصا موسى وخاتم سليمان فلا يبقى مؤمن إلا نكتت في مسجده بعصا موسى نكتة بيضاء يضيء بها وجهه ولا يبقى كافر إلا نكتت وجهه بخاتم

سليمان نكتة سوداء فيسود بها وجهه حتى أن الناس يتبايعون في الأسواق بكم بامؤمن بكم يا كافر ثم تقول لهم الدابة يا فلان أنت من أهل الجنة يا فلان أنت من أهل النار وذلك قول عزّ وجلّ ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً﴾ ﴿مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ متعلق بأخرجنا، روى البغوي عن ابن عمر رضي الله عنهما قال تخرج من صدع في الصفا كجري الفرس ثلاثة أيام ثلاثاً، وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قرع الصفا بعصاه وهو محرم وقال إن الدابة تسمع قرع عصاي، وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال تخرج الدابة من شعب فيمس رأسها السحاب ورجلاها في الأرض ما خرجتا فتمرّ بالإنسان يصلي فتقول ما الصلاة من حاجتك فتخطمه.

وذكر البغوي حديث أبي شريحة الأنصاري رضي الله عنه عن النبيّ ﷺ قال: «تكون للدابة ثلاث خرجات من الدهر فتخرج خروجاً باليمن فيفشو ذكرها في البادية ويدخل ذكرها القرية يعني مكة ثم بينا الناس يوماً في أعظم المساجد على الله حرمة وأكرمها على الله عزّو جل يعني المسجد الحرام لم تر عنهم إلا هو في ناحية المسجد يدنو ويدنو كذا قال عمرو ما بين الركن الأسود إلى باب بني مخزوم في وسط من ذلك ـ فارفض الناس عنها وثبت لها عصابة عرفوا أنهم لم يعجزوا الله فخرجت عليهم تنفض رأسها من التراب فمرّت بهم فجلّت عن وجوههم حتى تركتها كأنها الكواكب الدرية ثم دكت في الأرض لا يدركها طالب ولا يعجزها هارب، حتى أن الرجل ليقوم فيعود منها بالصلاة فيأتيه من خلفه فتقول يا فلان الآن تصلّي فتقبل بوجهه وتسمه في وجهه فتجاوز الناس في ديارهم وتصطحبون في أسفارهم وتشتركون في الأموال ويعرف الكافر من المؤمن فيقال للمؤمن يا مؤمن وللكافر يا كافر» عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال ذكر رسول الله ﷺ الدابة قلت يا رسول الله من أين تخرج؟ قال: «من أعظم المساجد حرمة على الله تعالى بينا عيسى يطوف بالبيت ومعه المسلمون إذ تضطرب الأرض تحتهم تحرك القنديل وتنشق الصفا مما يلي المشرق وتخرج الدابة من الصفا أول ما يبدو منها رأسها بلمعة ذات وبر وريش لن يدركها طالب ولن يفوتها هارب وتسم الناس مومناً وكافراً أما المؤمن فتترك وجهه كأنه كوكب دري ونكتت بين عينيه مؤمن وأما الكافر فنكتت بين عينيه نكتة سوداء ونكتت بين عينيه كافر» رواه البغوي وكذا أخرج ابن جرير، وروى البغوي عن سهل بن صالح عن أبيه عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبيّ ﷺ قال: «بئس الشعب شعب حناد مرتين أو ثلاثاً، قيل ولم ذلك يا رسول الله؟ قال: تخرج منه الدابة فتصرخ ثلاث صرخات يسمعها بين الخافقين قال وجهها وجه رجل وسائر خلقها كخلق الطير فتخبر من

رآها أن أهل مكة كانوا بمحمد والقرآن لا يوقنون».

﴿تُكَلِّمُهُمْ﴾ صفة لدابة يعني تكلم الدابة الناس، قال السديُّ تكلم ببطلان سائر الأديان سوى دين الإسلام، وقال بعضهم كلامها أن تقول لواحد هذا مؤمن ولآخر هذا كافر كما مرَّ في الأحاديث، وقيل كلامها ما قال الله تعالى ﴿إن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون﴾ قال مقاتل تكلمهم بالعربية فتقول عن الله تعالى: ﴿إن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون﴾ تخبر الناس أن أهل مكة لم يؤمنوا بالقرآن والبعث. قرأ الكوفيون أن بالفتح وهو حكاية عن قول الدابة أو على تقدير الجار تقديره بأن أو حكاية قول الله الذي قيل عليه ودنا وقوعه أو علة خروجها على حذف اللام على قول غيره، وقرأ الآخرون إن بالكسر على الإستئناف أي إنّ الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون قبل خروجها، قيل أراد بآياتنا خروجها أي خروج دابة الأرض وسائر أشراط الساعة وأحوالها فإنها من آيات الله تعالى، قال البغوي قرأ ابن جبير وعاصم الجحدري وأبو رجاء العطاردي تكلم بفتح التاء تخفيف اللام من الكلم بمعنى الجرح، وقال ابن الحوراء سألتُ ابن عباس عن هذه الآية تكلمهم أو تكلمهم فقال كل ذلك تفعل تكلم المؤمن وتكلم الكافر قال ابن عمر رضي الله عنهما وذلك يعني خروج الدابة حين لا يؤمر بالمعروف والنهي عن المنكر ولا يؤمن كافر بعد ذلك كما أوحى الله إلى نوح ﴿إنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن﴾[(١)] قلت وهذا يستنبط من الأحاديث والآثار.

فصل:

عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «بادروا بالأعمال ستّاً الدخان والدَّجال ودابّة الأرض وطلوع الشمس من مغربها وأمر العامة وخويصة أحدكم»[(٢)] رواه مسلم، وعن عبد الله بن عمرو قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أول الآيات خروجاً طلوع الشمس من مغربها وخروج الدابّة على النّاس ضحًى وأيتهما كانت قبل صاحبتها فالأخرى على أثرها قريباً»[(٣)] رواه مسلم، وعن حذيفة بن أسد الغفار قال: «إطلع النبيّ ﷺ ونحن نتذاكر فقال ما تذكرون؟ قالوا نذكر الساعة، قال: إنها لن تقوم حتى تروا قبلها عشر آيات

---

(١) سورة هود، الآية: ٣٦.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب: الفتن وأشراط الساعة، باب: في بقية من أحاديث الدجال (٢٩٤٧).

(٣) أخرجه مسلم في كتاب: الفتن وأشراط الساعة، باب: في خروج الدجال ومكثه في الأرض (٢٩٤١).

فذكر الدخان والدجال والدَّابة وطلوع الشمس من مغربها ونزول عيسى بن مريم ويأجوج وثلاث خسوف خسف بالمشرق وخسف بالمغرب وخسف بجزيرة العرب وآخر ذلك نار تخرج من اليمن تطرد الناس إلى محشرهم، وفي روايةٍ نار تخرج من قعر عدن تسوق الناس إلى الحشر، وفي رواية «في العاشرة وريح يلقى الناس في البحر» رواه مسلم، وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «تخرج الدّابة ومعها خاتم سليمان وعصا موسى فتجلو وجه المؤمن بالعصا وتختم أنف الكافر بالخاتم حتى أن أهل الخوان ليجتمعون فيقول هذا يا مؤمن ويقول هذا... يا كافر»[1] رواه أحمد والترمذي وابن ماجه والحاكم وصححه، عن أبي أمامة عن النبيّ ﷺ قال: «تخرج الدابَّة فتسم الناس على خراطيمهم ثم يعمرون فيكم حتى يشتري الرجل الدابَّة فيقال ممَّن اشتريت فيقول من الرجل المختم» رواه أحمد، وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال تخرج الدابَّة ليلة جمع والناس يشيرون إلى منى، وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن الحسن أن موسى عليه السلام سأل ربه أن يريه الدّابة فخرجت ثلاث أيام ولياليهن يذهب في السماء لا يرى واحد من طرفيها قال فرأى منظراً فظيعاً فقال رب ردها فردها. قلت: والأحاديث المذكورة تدل على أن الدابَّة تميّز بين المؤمنين الصادقين في إيمانهم وبين المنافقين الذين أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر والمراد بالكفر إما ضد الإسلام المجازي الذي قلوب أهاليهم غير مصدقة بما جاء به النبيّ ﷺ وإما ضد الإسلام الحقيقي الّذي قلوب أهاليهم وافقت ألسنتهم في التصديق لكن لم تؤمن نفوسهم ولم تطمئن، فإن كان المراد بالكافر هذا المعنى فقول الدَّابة يا فلان أنت من أهل النار يراد به دخولها لا خلودها ولا يجوز أن يكون المراد بالكفر المجاهر بالكفر لأن المجاهر بالكفر لم يبق بمكة بعد الفتح، وأيضاً المجاهر بالكفر ممتاز عن المسلمين قبل خروج الدابَّة لا حاجة في إمتيازهم إلى الدابَّة والله أعلم.

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ﴾ يعني يوم القيامة ﴿مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا﴾ أي من كل قرن جماعة كلمة من هاهنا للتبعيض وفوجاً مفعول لنحشر ومن كل أمة حال منه، قلتُ وذلك حين يقول الله تعالى: لأدم أبعث بعث النار من ذريتك وقد مرّ الحديث في صدر سورة الحج، ﴿ممن يكذب بآياتنا﴾ صفة الفوج ومن هاهنا للبيان أي فوجاً مكذبين ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ أي يحبس أولهم على آخرهم حتى يجتمعوا، قال البيضاوي هو عبارة عن كثرة عددهم وتباعد

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة النمل (٣١٨٧).

أطرافهم ﴿حَتَّىٰٓ﴾ إبتدائية داخلة على الشرطية ﴿إذا جاؤوا﴾ إلى المحشر ﴿قَالَ﴾ الله تعالى لهم: ﴿أكذبتم بآياتي﴾ والاستفهام للتوبيخ ﴿وَلَمْ تُحِيطُواْ بِهَا عِلْمًا﴾ الواو للحال يعني أكذبتم بها بادىء الرأي غير ناظرين فيها نظراً يحيط علمكم بكنهها وأنها حقيقة بالتصديق أو التكذيب أو للعطف يعني أجمعتم بين التكذيب بها وعدم النظر والتأمل في حقيقتها ﴿أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ تقديره أم لم تكذبوا فإن لم تكذبوا فماذا كنتم، يعني أيّ شيء كنتم تعملون غير التكذيب وهذا أيضاً توبيخ وتبكيت إذ لم يفعلوا غير التكذيب من الجهل فلا يقدرون أن يقولوا فعلنا ذلك ﴿وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم﴾ عطف على قال في حيز جزاء الشرط أي وجب عليهم العذاب الموعود لهم ﴿بِمَا ظَلَمُوٓاْ﴾ أي بسبب ظلمهم أي تكذيبهم بآيات الله ﴿فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ﴾ باعتذار إذ ليس لهم عذر في نفس الأمر أو لما لا يؤذن لهم فيعتذرون، وقيل لا ينطقون لأن أفواههم مختومة.

وقيل لا ينطقون لشغلهم بالعذاب والظاهر هو الأول يدل عليه قوله: ﴿أَلَمْ يَرَوْاْ﴾ يعني كيف يعتذرون على الكفر بعد رؤية الأدلة الموجبة للإيمان والاستفهام للإنكار وإنكار النفي إثبات يعني قد رأوا ﴿إِنَّا جَعَلْنَا﴾ أي خلقنا ﴿ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُواْ فِيهِ﴾ بالنوم والقرار ﴿وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ كان أصله ليبصروا فيه فبولغ فيه بجعل الإبصار حالاً من أحواله المجعول عليه بحيث لا ينفك عنه وجملة ﴿إِنَّا جَعَلْنَا﴾ قائم مقام المفعولين لقوله: ﴿أَلَمْ يَرَوْاْ﴾ فإن الرؤية بمعنى العلم يعني ألم يعلموا بتعاقب النور والظلمة على وجه مخصوصٍ نافعٍ مناطٍ لمصالح معاشهم ومعادهم إنَّ لها خالقاً حليماً قادراً قاهراً.

وإن من كان قادراً على ذلك قادر على بعثة الرسل ليدعوا الخلق إلى عبادته وقادر على الإنعام والانتقام على إطاعته وعصيانه وقادر على إبدال الموت بالحياة كما هو قادر على إبدال الظلمة بالنور واليقظة بالنوم وقد دلت المعجزات على صدق الرسل وما جاءوا به ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ الأمور ﴿لَأَيَٰتٍ﴾ دالة على التوحيد وصدق الرسول فأيّ عذر للمكذب بعده وقيد ثبوت الآيات بقوله: ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ لأنهم هم المنتفعون بها، قيل جملة ألم يروا إلى آخرها دليل للحشر فإن تعاقب اليقظة النوم يدل على جواز تعاقب الحياة الموت.

﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ

﴿٨٩ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ٩٠ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ٩١ وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ٩٢ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ٩٣﴾.

﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ﴾ معطوف على قوله ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ﴾ وعن ابن عمر أن أعرابياً سأل رسول الله ﷺ عن الصور قال: «**قرن ينفخ فيه**»[(١)] رواه أبو داود والترمذي وحسَّنه والنسائي وابن حبان والحاكم وعن ابن مسعود نحوه رواه مسدد بسند صحيح، وعن زيد بن أرقم قال رسول الله ﷺ: «كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن وأحنى جبهته وأصغىٰ بالسمع متى يؤمر فسمع بذلك أصحاب رسول الله ﷺ فشق عليهم فقال رسول الله ﷺ، «قولوا حسبنا الله ونعم الوكيل»[(٢)].

وروى أحمد والحاكم والبيهقي والطبراني عن ابن عباس رضي الله عنه نحوه والترمذي والحاكم والبيهقي عن أبي سعيد نحوه وأبو نعيم عن جابر نحوه، وأخرج سعيد بن منصور والبيهقي عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «جبرائيل عن يمينه وميكائيل عن يساره وهو صاحب الصور يعني إسرافيل» قال القرطبي علماء الأمة مجمعون على أن ينفخ في الصور إسرافيل ﴿فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ من الملائكة وأرواح المؤمنين ﴿وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ من الإنس إختلف العلماء في هذه النفخة هل هي الصعق أو غير ذلك فقيل النفخات ثلاث أولها نفخة الفزع تفزع منها الخلائق ثانيها نفخة الصعق تصعق أي تموت بها الخلائق ثالثها نفخة البعث، فهذه الآية تدل على نفخة الفزع.

وقوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ٦٨﴾[(٣)] تدل على نفخة الصعق ونفخة البعث وهذا اختيار ابن العربي، وقد صُرِّحَ بالنفخات الثلاث في حديث طويل لأبي هريرة وسنذكره من قريب، وقيل هما نفختان فقط ونفخة الفزع هي نفخة الصعق قالوا الأمران متلازمان أي

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: صفة القيامة والرقائق والورع، باب: ما جاء في شأن الصور (٢٤٣٠)، وأخرجه أبو داود في كتاب: السنة، باب: ذكر البعث والصور (٤٧٢٦).

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: صفة القيامة والرقائق والورع، باب: ما جاء في شأن الصور (٢٤٣١).

(٣) سورة الزمر، الآية: ٦٨.

فزعوا فزعاً ماتوا منه وهذا ما صححه القرطبي وأستدل بأنه استثنى من نفخة الفزع كما استثنى من نفخة الصعق حيث قال الله تعالى فيهما: ﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ فدلّ على أنهما واحد، وهذا الاستدلال غير صحيح لأن الاستثناء منهما بقوله إلا ما شاء الله لا يدل على اتحاد النفختين ولا على إتحاد المستثنى فيهما وإن كان المستثنى منه في الكلامين واحد.

قال البغوي واختلفوا في هذا الاستثناء، روي عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبيّ ﷺ «سئل عن قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ قال: «هم الشهداء لأنهم أحياء عند ربهم لا يصل الفزع إليهم».

ثم ذكر البغوي قول الكلبي ومقاتل وذكر الحديث كما سنذكر من بعد لكن قول البغوي بالاختلاف في هذه الآية مبني على اتحاد نفخة الفزع ونفخة الصعق والظاهر أنهما متغايران. فلنذكر الأحاديث والآثار الواردة في الاستثناء.

روى أبو يعلى والحاكم وصححه والبيهقي عن أبي هريرة عن النبيّ ﷺ قال: «سألتُ جبرئيل عن هذه الآية ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ من الّذين لم يشأ الله أن يصعقهم؟ قال: هم الشهداء متقلدون أسيافهم حول عرشه» قالوا وإنما صح استثناء الشهداء لأنهم أحياء عند ربهم، قال البغوي: وفي بعض الآثار الشهداء ثنية الله عزّ وجل أي الذين استثناهم الله تعالى كذا روى هناد بن السري والبيهقي والنحاس في معاني القرآن عن سعيد بن جبير في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ قال هم الشهداء مقلدون السيوف حول العرش، وقال الكلبي ومقاتل يعني جبرئيل وإسرافيل وملك الموت عليهم السلام وذلك لما أخرج الفريابي في تفسيره عن أنس قال قال رسول الله ﷺ: «ونفخ في الصور فصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله»، قالوا: يا رسول الله من هؤلاء الذين استثنى الله؟ قال جبرئيل ومكائيل وملك الموت وإسرافيل وحملة العرش فإذا قبض الله أرواح الخلائق قال لملك الموت من بقي؟ قال سبحانك ربي تباركت وتعاليت ذا الجلال والإكرام بقي جبرئيل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت، فيقول خذ نفس إسرافيل فيأخذ نفس إسرافيل، فيقول يا ملك الموت من بقي؟ فيقول سبحانك تباركت وتعاليت ذا الجلال والإكرام بقي جبرئيل وميكائيل وملك الموت، فيقول خذ نفس ميكائيل فيأخذ نفس ميكائيل فيقع كالطود العظيم، فيقول يا ملك الموت من بقي؟ فيقول بقي جبرائيل وملك الموت فيقول مت يا ملك الموت فيموت، فيقول يا جبرائيل من بقي فيقول وجهك الكريم الباقي الدائم وجبرائيل الميت الفاني قال فلا بد من موتة فيقع ساجداً يخفق جناحيه، قال رسول الله ﷺ:

«إن فضل خلقه على خلق ميكائيل كالطود العظيم على ظرب من الظراب» وأخرج البيهقي عن أنس رفعه في قوله: «فنفخ في الصور» الآية قال فكان ممن استثنى الله ثلاثة جبرائيل وميكائيل وملك الموت فيقول الله وهو أعلم يا ملك الموت من بقي؟ فيقول وجهك الباقي الكريم وعبدك جبرائيل وميكائيل وملك الموت فيقول: توف نفس ميكائيل فيقول وهو أعلم من بقي؟ فيقول بقي وجهك الباقي الكريم وعبدك جبرائيل وملك الموت، فيقول توف نفس جبرائيل ثم يقول: وهو أعلم يا ملك الموت من بقي؟ فيقول بقي وجهك الباقي الكريم وعبدك ملك الموت وهو ميت، فيقول: مت ثم يقول أنا بدأت والخلق ثم أعيده فأين الجبارون المتكبرون فلا يجيبه أحد ثم ينادي لمن الملك اليوم فلا يجيبه أحد فيقول هو الله الواحد القهار ثم ينفخ فيه أخرى فإذا هم قيام تنظرون.

وأخرج البيهقي عن زيد بن أسلم قال الذي استثنى اثنا عشر جبرئيل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت وحملة العرش ثمانية، وقال البغوي يروى أنه يقبض روح جبرائيل وميكائيل ثم روح حملة العرش ثم روح إسرافيل ثم روح ملك الموت، وأخرج البيهقي عن مقاتل بن سليمان يقبض روح ميكائيل ثم روح جبرائيل ثم روح إسرافيل ثم يأمر ملك الموت فيموت.

وأخرج أبو الشيخ في كتاب العظمة عن وهب قال هؤلاء الأربعة جبرائيل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت أول من خلقهم الله وآخر من يميتهم وأول من يحييهم هُم المدبرات أمراً والمقسمات أمراً قال السيوطي لا تنافي بين هذه الروايات يعني روايات الاستثناء لإمكان الجمع بأن الجميع من المستثنى.

قلت: الأحاديث والآثار المذكورة كلها واردة في بيان الاستثناء الواقع في نفخة الصعق لا ما وقع في نفخة الفزع، وعندي المستثنى في نفخة الفزع ما دل عليه قوله تعالى فيما بعد: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾﴾ وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَـٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ﴾[1] فإنه نص في أن المؤمنين الذين لا يدخلون النار ويدخلون الجنة لا يلحقهم الفزع لكن عند نفخة الفزع لا يكون من الناس إلا الكفار لقوله ﷺ: «لا تقوم الساعة إلا على الأشرار» رواه أحمد ومسلم عن ابن مسعود، وقوله ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى يرفع الركن والقرآن» رواه السنجري عن ابن

(١) سورة الأنبياء، الآية: ١٠١ ـ ١٠٣.

عمرو يدل على ذلك غيرها من الأحاديث ولهذا حمل رسول الله ﷺ المستثنى على أرواح الشهداء فإنهم أحياء عند ربهم وأما الملائكة وأرواح الأنبياء عليهم السلام فهم أيضاً داخلون في المستثنى ولا يفزعون البتة والله أعلم.

روى ابن جرير في تفسيره والطبراني في المطولات وأبو يعلى في مسنده والبيهقي في البعث وأبو موسى المديني في المطولات وعلي بن معبد في كتاب الطاعة والعصيان وعبد بن حميد وأبو الشيخ في كتاب العظمة حديثاً طويلاً عن أبي هريرة ذكر فيه: «فينفخ ثلاث نفخات الأولى نفخة الفزع والثانية نفخة الصعق والثالثة نفخة القيام لرب العالمين فيأمر الله إسرافيل بالنفخة الأولى فيقول الله انفخ نفخة الفزع فينفخ فيفزع أهل السماء والأرض إلا من شاء الله، إلى أن قال فتذهل المراضع وتضع الحوامل ويشيب الولدان وتطير الشياطين هاربة من الفزع حتى تأتي أقطار الأرض فتتلقاهم الملائكة فتضرب وجوهها فترجع وتولى الناس مدبرين ينادي بعضهم بعضاً والذي يقول الله يوم التّناد إلى أن قال قال رسول الله ﷺ: «والأموات يومئذ لا يعلمون بشيء من ذلك قلت يا رسول الله فمن استثنى الله في قوله: ﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ قال: أولئك الشهداء وإنما يصل الفزع إلى الأحياء وهُمْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِم يُرْزَقُونَ وقاهم الله من فزع ذلك اليوم وأمنهم منه وهو عذاب يبعثه على أشرار خلقه يقول الله يا أيها النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ انَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شيءٌ عَظِيمٌ الآية فيمكثون في ذلك ما شاء الله فيقول ملك الموت قد مات أهل السماوات والأرض إلا من شئت فيقول وهو أعلم فمن بقي ثم ذكر موت جبرائيل وميكائيل وحملة العرش وموت ملك الموت نحو ما تقدم من حديث أنس ثم ذكر الحديث بطوله إلى دخول أهل الجنة الجنة وبقاء أهل الخلود في النار.

فإن قيل هذا الفزع لا يكون إلا على شرار خلق الله من شياطين الإنس والجن وليس أحد منهم في السماء فما معنى قوله تعالى: ﴿فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾؟ قلت: لعل ذلك على سبيل الفرض أو يقال إن الشياطين قد يذهبون إلى السماء لإستراق السمع أو يقال المراد بالسماء السحاب ونحو ذلك فإنه قد يطلق السماء على كل ما بفوقك قال الله تعالى: ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾(١) يعني سقف بيتك، أو يقال المراد بمن يفزع من أهل السماء أرواح بعض المؤمنين ويكون المراد بمن سبقت لهم الحسنى الأنبياء والمقربون الصديقون.

---

(١) سورة الحج، الآية: ١٥.

وأما المستثنى من نفخة الصعق فالقول فيه ما قال صاحب المفهم التحقيق أن المراد الضعف ما هو أعم من الموت فلمن لم يمت الموت ولمن مات الغشية وهذا من قبيل عموم المجاز وهذه الغشية يعم الأنبياء عليهم السلام إلا موسى عليه السلام فإنه حصل فيه تردد. روى الشيخان في الصحيحين والترمذي وابن ماجه واللفظة عن أبي هريرة قال: قال رجل من اليهود بسوق المدينة والذي اصطفى موسى على البشر، فرفع رجل من الأنصار يده فلطمه وقال أتقول هذا وفينا رسول الله ﷺ، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال: قال الله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾﴾ «فأكون أول من رفع رأسه فإذا أنا بموسى آخذ بقائم من قوائم العرش فلا أدري أرفع رأسه قبلي أو كان ممن استثنى الله»[1] ولمّا كان الصعق بمعنى الموت أو الغشية يعم الأنبياء فيعم الشهداء بالطريق الأولى والملائكة أيضاً والمستثنى منهم جبرائيل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت وحملة العرش فإنهم لا يموتون بالنفخة ويموتون بعد ذلك» كما مرَّ في الأحاديث والله أعلم.

﴿وَكُلٌّ﴾ أي كل واحد من أهل السماوات والأرض ﴿أتوه﴾ أي حاضرون الموقف بعد نفخة البعث أو راجعون إلى أمره كذا قرأ الجمهور بالمد وضم التاء على صيغة إسم الفاعل وقرأ حفص وحمزة مقصوراً وفتح التاء على صيغة الماضي ومعناه الإستقبال لتحقيق وقوعه عطف على فزع ﴿داخرين﴾ صاغرين ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ﴾ أي تبصرها أيها الناظر وقت نفخة الفزع عطف على يوم ينفخ أو على يوم نحشر أن يقدر هنا ترى ما ترى ﴿تَحْسَبُهَا جَامِدَةً﴾ أي واقفة مكانها الجملة حال من فاعل ترى مفعوله أي تظنها قائمة غير متحركة ﴿وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِۚ﴾ حال من الضمير المنصوب في تحسبها يعني تسير الجبال كسير السحاب في السرعة حتى تقع على الأرض فتستوي بها وذلك لأن الأجرام الكبار إذا تحركت في سمت واحد لا تكاد يتبين حركتها ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ﴾ مصدر مؤكد لمضمون جملة متقدمة لا محتمل لها غيره ويسمى تأكيداً لنفسه معنى صنع الله صنعاً ﴿الذي اتقن كل شيء﴾ أحكم خلقه وسواه على ما ينبغي ﴿إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو بالياء على الغيبة والباقون بالتاء على الخطاب أي يجازي كلاً من العاصي والمطيع على حسب فعله ثم بينه فقال: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ﴾ قال: أبو معشر كان إبراهيم يحلف ولا

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: أحاديث الأنبياء، باب: وفاة موسى وذكره بعد (٣٤٠٨)، وأخرجه مسلم في كتاب: الفضائل، باب: من فضائل موسى عليه السلام (٣٢٢٧)

يستثني أن الحسنة لا إله إلا الله، وقال قتادة بالإخلاص، وقيل: هي كل طاعة ﴿فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَا﴾ قيل من للسببية وليس للتفضيل إذ لا شيء خير من قول لا إله إلا الله فالمعنى يحصل له خير وهو الثواب وإلا من العذاب من جهة تلك الحسنة وبسببها، وقال محمد بن كعب وعبد الرحمان ابن زيد من تفضيلية والمعنى فله عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى ما شاء الله نظيره قوله تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَاۖ﴾ ﴿وَهُم مِّن فَزَعٖ يَوۡمَئِذٍ﴾ أي يوم ينفخ في الصور ﴿ءَامِنُونَ﴾ قرأ الكوفيون فزع بالتنوين للتنكير ويؤمئذ بالنصب على الظرفية والتنكير يفيد الاستغراق لأن الجملة في قوة النفي لأن قوله آمنون بمعنى لا يخافون ولا يفزعون والنكرة في حيز النفي يفيد الاستغراق، وقرأ الآخرون بلا تنوين بإضافة فزع إلى يومئذ والإضافة أولٌ على الاستغراق أو هي للعهد، لتقدم ذكر الفزع فقرأ أكثرهم يومئذ بالجر للإضافة ونافع بفتح الميم على أنه مبني إكتسب البناء ممّا أضيف إليه ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾ أي الشركة ﴿فَكُبَّتۡ وُجُوهُهُمۡ﴾ الفاء للعطف على محذوف لا للجزاء لا تدخل على الماضي بغير قد تقديره من جاء بالسيئة فله جزاء السّيئة أو استحق العذاب ﴿فَكُبَّتۡ وُجُوهُهُمۡ﴾ أي فكبوا على وجوههم ﴿فِي ٱلنَّارِ﴾ أو المراد بالوجوه أنفسهم ﴿هَلۡ تُجۡزَوۡنَ﴾ يعني ما تجزون ﴿إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ أي إلا جزاؤه وفاقاً لما عملوا فإن الشرك أعظم الجرائم لا شيء فوقه في السوء وجهنم أشد الأجزية، فيه التفات من الغيبة إلى الخطاب والتقدير ويقول لهم خزنة جهنم ﴿هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾.

﴿إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ﴾ يعني مكة أضاف الرّب إلى البلدة تشريفاً لها وإشعاراً بما في الكعبة الحسناء من التجليات المختصة ﴿ٱلَّذِي حَرَّمَهَا﴾ صفة للرب أي جعلها حرماً آمناً لا يسفك فيها دم ولا يظلم فيها أحد ولا ينفر صيدها ولا يختلا خلاها، ذكر هذا الوصف منه على قريش حيث جعل مسكنهم آمناً من الفتن الشائعة في العرب ﴿وَلَهُۥ كُلُّ شَيۡءٖۖ﴾ خلقاً وملكاً مع تلك البلدة عطف على حرمها أو حال من الضمير المرفوع المستكن فيها ﴿وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ بتقدير الباء أي أمرت بأن أكون من المنقادين لله تعالى أو ثابتين على ملة الإسلام عطف على ﴿أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ﴾ ﴿وأن أتلوا﴾ تلاوة الدعوة إلى الإيمان أو هو من التلو بمعنى الاتباع والمعنى أن أتبع ﴿ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ عطف على أن أكون وجملة إنما أمرت متصلة بقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ ﴿وإنه لهدى ورحمة للمؤمنين﴾ وقال البيضاوي أمر الله سبحانه لرسوله أن يقول لهم ذلك بعد ما بين لهم المبدأ والمعاد وشرح أحوال القيامة إشعاراً بأنه قد أتم الدعوة وأدى ما كان عليه فلم يبق عليه إلا الاشتغال بشأنه والإستغراق في عبادة ربه والتقدير قل إنما

أمرت بكذا ﴿فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ﴾ بدعوتك وعبد ربه وحده كما أمرت ﴿فإنما يهتدي لنفسه﴾ فإن منافعه تعود إليه فليس له أن يمن عليك ﴿وَمَن ضَلَّ﴾ أي أخطأ طريق الحق يتبعك بعد تمام الدعوة منك ﴿فَقُلۡ﴾ له ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ﴾ يعني لست عليكم بوكيل ولا عليَّ من وبال ضلالك أصلاً إذ ليس عليّ إلا البلاغ.

﴿وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ على نعمة النبوة وعلى ما وفقك من تمام التبليغ والدعوة الواجبة عليك ﴿سَيُرِيكُمۡ﴾ الله أيها الضالون ﴿ءَايَٰتِهِۦ﴾ القاهرة على حقيقة ما دعوتكم إليه في الدنيا كما وقع يوم بدر من قتل وسبي وضرب الملائكة وجوههم فإدبارهم وكما رأوا من إنشقاق القمر وتسبيح الحصا ونحو ذلك وكما يجيء من خروج الدابَّة وغير ذلك نظيره قوله تعالى: ﴿سَأُوْرِيكُمۡ ءَايَٰتِي فَلَا تَسۡتَعۡجِلُونِ﴾[1] أو المعنى سيريكم آياته في الآخرة وقال ﴿سَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ﴾ في السماء وفي الأرض وفي أنفسكم كما ﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم﴾[2] ﴿فَتَعۡرِفُونَهَاۚ﴾ أي فتعرفون أنها آيات الله ولكن لا ينفعكم حينئذ المعرفة ﴿وَمَا رَبُّكَ﴾ يا محمد ﴿بغافل عما تعملون﴾ فيجازي كلاً على حسب عمله بوقتهم.

تم تفسير سورة النمل من التفسير المظهري في التاريخ الثاني والعشرون من شعبان سنة الخامسة بعد ألف ومائتين (سنة ١٢٠٥هـ) ويتلوه: تفسير سورة القصص إن شاء الله تعالى.

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٣٧.

(٢) سورة فصلت، الآية: ٥٣.

سورة القصص

آياتها ثمان وثمانون وهي مكيّة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ
بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ
طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ
عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى
ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ
مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ
وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ
فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ
لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ
فَٰرِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾
وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ۖ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾﴾.

﴿طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ أبان لازم ومتعد يعني ظاهر في كونه من عند الله لإعجازه أو مظهر لأحكامه ومواعيده وما فيها من القصص ﴿نتلو﴾ أي نقرأه بقراءة جبرئيل ﴿عَلَيْكَ﴾ ويجوز أن يكون نتلوا بمعنى ننزل مجازاً ﴿مِن نَّبَإِ﴾ أي بعض نبأ ﴿مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ﴾ ظرف مستقر حال من نبأ أي مقروناً بالصدق أو من فاعل نتلوا أي محقين أو ظرف لغو متعلق بنتلوا ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ فإنهم هم المنتفعون ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا﴾ أي استكبر وتجبر وتعظم إستئناف بيان لذلك البعض ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي أرض مصر ﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا﴾ أي أهل تلك الأرض ﴿شِيَعًا﴾ أي فرقاً يشيعونه فيما يريد من الخدمة أو يشيع بعضهم بعضاً أو فرقاً أكرم منهم طائفة وهم القبط وأهان آخرين وهم بنوا إسرائيل أو

أصنافاً في الخدمة استعمل كل صنف في عمل أو أحزاباً أغرى بينهم العداوة كيلا يتفقوا عليه، وفي القاموس شيعة الرجل أتباعه وأنصاره والفرقة على حدة ﴿يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ﴾ وهم بنوا إسرائيل الجملة حال من فاعل جعل أو استئناف ﴿يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ﴾ لأن كاهناً قال يولد مولود في بني إسرائيل يذهب ملكك على يديه كذا أخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة ﴿ويستحيي نسائهم﴾ أي يترك بناتهم أحياء بدل من قوله يستضعف سمى ذلك إستضعافاً لأنهم عجزوا وضعفوا عن دفعه عن أنفسهم ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ ولذلك اجترأ على قتل خلق كثير من أولاد الأنبياء لتخيل فاسد إذ لا ينفعه القتل سواء صدق الكاهن أو كذب.

﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ﴾ أي نفضل ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بإنقاذهم من بأسه جملة نريد حكاية حال ماضية معطوفة على إن فرعون علا من حيث أنهما واقعان تفسيراً للنبأ، أو حال من فاعل يَسْتَضْعِفُ بتقدير ونحن نريد أو عطف على يَسْتَضْعِفُ والرابط بالموصوف وضع المظهر أي الذين استضعفوا موضع الضمير ولا يلزم من مقاربة الإرادة للإستضعاف مقارنة المراد له لكون تعلق الإرادة حينئذ تعلقاً استقبالياً مع أن منة الله بخلاصهم لمّا كانت قرينة الوقوع منه جاز أن يجري مجرى المقارن ﴿وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً﴾ يقتدى بهم في أمر الدين دعاة الخير كذا قال مجاهد، وقال قتادة ولاة وملوكاً بدليل قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا﴾[1] ﴿وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ لما كان في ملك فرعون وقومه ﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي أرض مصر والشام وأصل التمكن أن يجعل للشيء مكاناً يستقر فيه ثم أستغير للتسليط ونفاذ الأمر ﴿وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا﴾ قرأ الأعمش والحمزة والكسائي يرى بالياء مفتوحة فتح الراء وإمالة فتحها ورفع الأسماء الثلاثة على المفعولية ﴿مِنْهُم﴾ أي من بني إسرائيل ﴿مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ﴾ والحذر هو التوقى عن الضرر وذلك أنهم أخبروا أن هلاكهم على يد رجل من بني إسرائيل وكانوا على وجل منه فأراهم الله ما كانوا يحذرون.

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ﴾ وهي يوخابذ بنت لاوى بن يعقوب عليه السلام كذا ذكر البغوي أجمعوا على أنه ليس بوحي نبوة وأن النبي لا يكون إلا رجلاً، قال قتادة قذف في قلبها وهو الإلهام في اصطلاح الصوفية ومن جنسه المنام الصادق الموجب لليقين واطمئنان القلب وهو أيضاً من قبيل الإلهام، وهذه الآية تدل على أن الإلهام أيضاً من

(١) سورة المائدة، الآية: ٢٠.

أسباب العلم وإن كان علماً ظِنّيا والمعتبر إلهام القلوب الزاكية والنفوس المطمئنة والفرق بين الوسوسة الإلهام بحصول اليقين واطمئنان القلب ﴿أَنْ أَرْضِعِيهِۖ﴾ أن مفسرة لأوحينا لأن فيه معنى القول أو مصدرية يعني أرضعي موسى ما أمكنك إخفاؤه، قال البغوي إختلفوا في مدة إرضاع موسى عليه السلام أمه؟ قيل هي ثمانية أشهر وقيل أربعة أشهر وقيل ثلاثة أشهر كانت ترضعه في حجرها وهو لا يبكي ولا يتحرك ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ﴾ بأن يحس به ﴿فَأَلْقِيهِ فِي ٱلْيَمِّ﴾ في البحر يريد النيل ﴿وَلَا تَخَافِي﴾ عليه الضياع ﴿وَلَا تَحْزَنِيٓۖ﴾ لفراقه ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ﴾ من قريب بحيث تأمنين عليه ﴿وجاعلوه من المرسلين﴾.

روى عطاء والضحاك عن ابن عباس: أن بني إسرائيل لما كث٤روا بمصر واستطالوا على الناس وعملوا بالمعاصي ولم يأمروا بالمعروف ولم ينهوا عن المنكر فسلط الله عليهم القبط فاستضعفوهم إلى أن ناهم الله على يدي نبيه موسى عليه السلام، قال ابن عباس رضي ا عنهما: إن أم موسى لما دنى ولادتها وكانت قابلة من القوابل اللاتي وكّلمهن فرعون بحبالى بني إسرائيل مصافيه لأم مولى فلما ضربها الطلق أرسلت إليها وقالت: قد نزل بي ما نزل فلينفعني حبك إياي اليوم، قال: فعالجت فلما أن وقع موسى عليه السلام بالأرض هالها نور بين عيني موسى عليه السلام فارتعش كل مفصل منها ودخل حب موسى عليه السلام في قلبها ثم قالت: يا هذه ما جئت إليك حين دعوتني إلا ومن ورائي قتل مولودك ولكن وجدتُ لابنك حباً ما وجدت حب شيء مثل حبه فاحفظي ابنك فإني أراه مناونا، فلما خرجت القابلة من عندها أبصر بعض العيون فجاؤوا إلى بابها ليدخلوا على أم موسى فقالت أخته: يا أماه هذا الحرس بالباب، فلفّت موسى في خرقة فوضعته في التنور وهو مسجور فطاش عقلها فلم تعقل فدخلوا فإذا التنور مسجور ورأوا أم موسى لم يتغير لها لون ولم يظهر لها لبن، فقالوا لها: ما أدخل عليك القابلة؟ قالت: هي مصافية لي فدخلت عليّ زائرة فخرجوا من عندها ورجع إليها عقلها، فقالت لأخت مولى عليه السلام: فأين الصبي؟ قالت: لا أدري، فسمعت بكاء الصبي من التنور فانطلقت إليه وقد جعل الله سبحانه وتعالى النار عليه برداً وسلاماً فاحتملته.

قال ثم إن أم موسى لما رأت إلحاح فرعون في طلب الولدان خافت على ابنها فقذف الله في نفسها أن تتخذ له تابوتاً ثم تقذف التابوت في اليم وهو النيل فانطلقت إلى رجل من قوم فرعون نجار فاشترت منه تابوتاً صغيراً فقال لها النجار ما تصنعين بهذا التابوت، قالت ابن لي أخبأه في التابوت وكرهت الكذب، قال ولم تقل أخشى عليه كيد فرعون فلما اشترت التابوت وحملته فانطلقت إنطلق النجار إلى الذبّاحين ليخبرهم بأمر أم

موسى فلمّا هم بالكلام أمسك الله تعالى فلم يطق الكلام وجعل يشير بيده فلم يدر الأمناء ما يقول فلما أعياهم أمره، قال كبيرهم إضربوه وأخرجوه فلمّا انتهى النجار إلى موضعه رد الله عليه لسانه فتكلم فانطلق أيضاً يريد الأمناء فأتاهم ليخبرهم فأخذ لسانه وبصره فلم يطق الكلام ولم يبصر شيئاً فضربوه وأخرجوه ووقع في واد يهوي فيه حيران فجعل عليه أن رد لسانه وبصره أن لا يدل عليه وأن يكون معه ويحفظه حيث ما كان فعرف الله منه الصدق فرد الله عليه بصره ولسانه فخر لله ساجداً فقال يا رب دلّني على هذا.

وقال وهب بن منبه: لما حملت أم موسى بموسى كتمت أمرها من جميع الناس فلم يطلع على حملها أحد من خلق الله وذلك شيء ستره الله لما أراد أن يمن على بني إسرائيل، فلمّا كانت السنة التي يولد فيها بعث فرعون القوابل وتقدم إليهن ففتشن النساء تفتيشاً لم يفتش قبل ذلك وحملت أم موسى بموسى فلم ينت بطنها ولم يتغير لونها ولم يظهر لبنها وكانت القوابل لا تتعرض لها فلمَّا كانت الليلة التي ولد فيها ولدته ولا رقيب عليها ولا قابلة ولم يطلع عليها أحد إلا أخته مريم وأوحى الله إليها ﴿أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي ٱلْيَمِّ﴾[1] الآية فكتمته أمه ثلاثة أشهر ترضعه في حجرها لا يبكي ولا يتحرك فلمَّا خافت عليه عملت له تابوتاً مطبقاً، قيل وضعته في تابوت مطلى بالقار من داخل ممهداً له فيه وأغلقته ثم ألقته في البحر ليلاً.

قال ابن عباس وغيره: فكان لفرعون يومئذ بنت ليس له ولد غيرها وكانت أحب الناس عليه وكان لها كل يوم ثلاث حاجات ترفعها إلى فرعون وكان بها برص شديد وكان فرعون قد جمع لها أطباء مصر والسحرة فنظروا في أمرها فقالوا لها أيتها الملكة لا تبرئي إلا من قبل البحر يوجد فيه شبه الإنسان فيؤخذ من ريقه فيطلح به برصها فتبرأ من ذلك وذا يوم كذا وساعة كذا حين تشرق الشمس، فلما كان يوم الإثنين غدا فرعون إلى مجلس كان له على شفير النيل ومعه إمرأته آسية بنت مزاحم وأقبلت ابنة فرعون في جواريها حتى جلست على شاطىء النيل مع جواريها حتى تلاعبهن وتنضح الماء على وجوههن إذ أقبل النيل بالتابوت يضربه الأمواج فقال فرعون إن هذا الشيء في النيل قد تعلق بالشجرة ائتوني به، فابتدروا بالسفن من كل جانب حتى وضعوه بين يديه فعالجوا فتح الباب فلم يقدروا عليه وعالجوا كسره فلم يقدروا عليه، فدنت آسية فرأت في جوف التابوت نوراً لم يره غيرها فعالجت ففتحت الباب فإذا هي بصبيّ صغير في مهده وإذا نورٌ بين عينيه وقد

(١) سورة القصص، الآية: ٧.

جعل الله رزقه في إبهاميه يمصهما لبناً فألقى الله تعالى المحبة لموسى في قلب آسية وأحبه فرعون وعطف عليه وأقبلت ابنة فرعون فلمّا أخرجوا الصبيّ من التابوت عمدت بنت فرعون إلى ما كان من ريقه فلطخت ببرصها فبرأت فقبّلته وضمته إلى صدرها، فقالت الغواة لفرعون أيها الملك إنا نظنُّ أن ذلك المولود الّذي تحذر منه من بني إسرائيل هو هذا رمُي به في البحر خوفاً منك أن نقتله فهمَّ فرعون بقتله قالت آسية (قرة عين لي ولك لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً)[1] وكانت لا تلد فاستوهبت موسى من فرعون فوهبه لها وقال فرعون أما أنا فلا حاجة لي فيه، قال رسول الله ﷺ: «لو قال يومئذ هو قرة عين لي كما هو لكِ لهداه الله كما هداها»[2]، فقيل لآسية سميّه فقالت سميته موسى لأنا وجدناه بين الماء والشجر «فمو» هو الماءُ ـ «سا» هو الشجر.

﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ﴾ اللام للعاقبة تشبهاً لعاقبة الأمر ومراده بالغرض الباعث على الفعل لتحقق وقوعها ﴿لَهُمْ عَدُوًّا﴾ يقتل رجالهم ﴿وَحَزَنًا﴾ يستعبده نساءهم، قرأ حمزة والكسائي بضم الحاء وسكون الزاء والباقون بفتحهما وهما لغتان في المصدر وهو هاهنا بمعنى الفاعل ﴿إن فرعون و﴾ وزيره ﴿هامان وجنودهما كانوا خاطئين﴾ في كل شيء فليس منهم أن قتلوا ألوفاً لأجله ثم أخذوه يربونه ليكبر ويفعل بهم ما كانوا يحذرون أو المعنى كانوا مذنبين فعاقبهم الله تعالى بأن ربّى عدوهم على أيديهم فالجملة اعتراض لتأكيد خطاءهم أو لبيان الموجب لما ابتلوا به ﴿وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ﴾ لفرعون عطف على ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ﴾ قال وهب بن منبه لما وضع التابوت بين يديه وفتحوه وجدوا فيه موسى فلما نظر إليه قال عبراني من أهل الأعداء فغاظه ذلك وقال كيف أخطأ هذا الغلام، وكان فرعون قد استنكح امرأة من بني إسرائيل يقال لها آسية بنت مزاحم وكانت من خيار النساء وكانت من بنات الأنبياء وكانت أمّاً للمساكين ترحمهم وتتصدق عليهم وتعطيهم قالت لفرعون وهي قاعدة إلى جنبه هذا الوليد أكبر من ابن سنة وإنما أمرتَ بذبح الولد لهذه السنة فدعه يكن قرت عين لي ولك خبر ومبتدأه محذوف ﴿لَا تَقْتُلُوهُ﴾ خطاب بلفظ الجمع على التعظيم، وروي أنها قالت أتانا من أرض أخرى ليس من بني إسرائيل ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ﴾ علة لقوله تعالى: لا تقتلوه فإن فيه مخايل اليمن ودلائل النفع وذلك بما رأت من نور بين عينيه وارتضاعه إبهامه لبناً وبرء البرصاء بريقه

(١) سورة القصص، الآية: ٩.

(٢) رواه إسحاق بن بشر في المبتدأ وابن عساكر انظر كنز العمال (٣٠٢٢).

﴿أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ أو نتبناه فإنه أهل له فأطاعوها ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ حال من الملتقطين يعني هم لا يشعرون أن هلاكهم على يديه فاستحياه فرعون فألقى الله عليه محبته، أخرج بن جرير عن محمد بن قيس مرفوعاً أنه قال فرعون قرة عين لك لا لي ولو قال قرة عين لي كما هو لك لهداه الله كما هداها، وقال ابن وهب قال ابن عباس لو أن عدو الله قال في موسى كما قالت آسية عسى أن ينفعنا لنفعهُ الله ولكن أبى للشقاء الذي كتبه الله عليه.

﴿وَأَصْبَحَ﴾ يعني صار عطف على قالت امرأة فرعون ﴿فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَـٰرِغًا﴾ أي خالياً من العقل لشدة الخوف والحزن حين سمعت وقوعه في يد فرعون كقوله تعالى: ﴿وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ﴾(١) أي خلاء لا عقول فيها، وقال أكثر المفسرين أي خالياً من كل شيء سوى ذكر موسى وهمّه، وقال الحسن فارغاً أي ناسياً للوحي الذي أوحى الله إليها حين أمرها أن تلقيه في البحر ﴿وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾(٢) فجاءه الشيطان وقال كرهت أن يقتل فرعون ولدك فيكون لك أجره وثوابه وتوليت أنت قتله فألقيته في البحر وأغرقته. فلمّا جاءها الخبر بأن فرعون أصابه في النيل قالت أنه وقع في يد عدوه فأنساها عظم البلاء ما كان من عهد الله إليها، قلتُ: لعل حزنها لمّا كان إلهام الأولياء دليلاً ظنياً فأفزعته احتمال الخطأ في الإلهام، وقال أبو عبيدة معناه فارغاً من الحزن لعلمها بصدق وعد الله تعالى، وأنكر القتيبي هذا وقال كيف يكون هذا والله يقول ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ﴾ أن مخففة من الثقيلة اسمها ضمير الشأن واللام فارقة أي إنها كادت ليظهر به أي بموسى يعني بأمره أنه ابنها من شدة جزعها كما قال عكرمة عن ابن عباس أنها كادت تقول وإبناه، وقال مقاتل لما رأت التابوت يرفعه موج ويضعه آخر خشيت عليه الغرق فكادت تصيح من شفقتها، وقال الكلبي كادت تظهر أنه إبنها وذلك حين سمعت الناس يقولون لموسى بعدما شبَّ موسى بن فرعون فشق عليها فكادت تقول هو إبني فقيل معنى الآية وأصبح فؤاد أم موسى فارغاً من الحزن حين سمعت أن فرعون تبناه فكادت لتبدى به أي بأنه ابنها حيث لم تملك نفسها من شدة الفرح، وروى ابن جرير وابن أبي نعيم عن السديّ أنه قالت أخت موسى هل أدلكم إلى آخره وجاءت بأمها فأخذ موسى ثديها فكادت تقول هو ابني فعصمها الله، وقال أبو عبيدة معنى الآية أصبح فؤاد أم موسى فارغاً من الخوف والحزن لقوله تعالى: ﴿لا تخافي ولا تحزني﴾ وإن كادت لتبدي

---

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٤٣.

(٢) سورة القصص، الآية: ٧.

به يعني أنها لشدة وثوقها بوعد الله كادت أن تظهر أنه ابنها أو تظهر بالوحي إليها بأن الله وعدني برده إليّ وجعله من المرسلين ﴿لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ ظرف لغو متعلق بقوله ربطنا وهي بتأويل المصدر لولا ربطنا ثابت على قلبها يعني لولا ربطنا بالصبر على الجزع أو على كتمان الفرح على التأويل الأول والثاني أو الصبر على كتم أسرار الله تعالى على تأويل أبي عبيدة، وجواب لولا محذوف أيضاً دلّ عليه ما قبله يعني لأبدت به ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ متعلق بربطنا يعني ربطنا على قلبها بالصبر على الجزع أو على كتم الفرح لتكون من المصدقين بوعد الله أو متعلق بأصبح، والمعنى اصبح فؤاد أم موسى فارغاً من الخوف والحزن لتكون من المؤمنين الموقنين بوعد الله وعلى ما ذكرنامن التأويل إندفع إنكار القتيبي على تأويل أبي عبيدة وجملة ﴿لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا﴾ معترضة حينئذ، قال يوسف بن حسين أمرت أم موسى بشيئين ونهيت عن شيئين وبشرت ببشارتين فلم ينفعها الكل حتى تولى الله حفظها فربط على قلبها وسكن قلقها الذي وجدت من شدة الحزن أو الفرح لتكون من المؤمنين الواثقين بوعد الله لا بتبني فرعون.

﴿وَقَالَتْ﴾ أم موسى عطف على أصبح ﴿لِأُخْتِهِۦ﴾ مريم بنت عمران ﴿قُصِّيهِ﴾ أي إتبعي أثره وتبتغي خبره ﴿فَبَصُرَتْ بِهِۦ﴾ عطف على محذوف معطوف على قالت تقديره فبصرت له ﴿عَن جُنُبٍ﴾ أي عن بُعد حال من أحد الضميرين المرفوع أو المجرور وفي القصة أنها تمشي جانباً وتنظر إختلاساً ترى أنها لا تنظر ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أنها أخته وأنها ترقبه.

﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾﴾.

﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ﴾ عطف على بصرت والمراد بالتحريم المنع التكويني دون

التكليفي والمراضع إما جمع مُرضع بالضم يعني منعنا عنه لبن كل مرضعة فلم يرتضع من إحداهن وإما جمع مراضع بالفتح على أنه مصدر ميمي بمعنى الرضاع أو ظرف وهو الثدي ﴿مِن قَبْلُ﴾ قصصها، قال ابن عباس إن امرأة فرعون كان همها من الدنيا أن تجد له مرضعة وكانوا كلما أتوا بمرضعة لم يأخذ موسى ثديها حتى رأته أخت موسى في ذلك الحال وفي القصة أن موسى مكث ثماني ليال لا يقبل ثدياً ويصيح ﴿فَقَالَتْ﴾ عطف على حرمنا ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ﴾ أي لأجلكم صفة لأهل بيت ﴿وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ﴾ أي لا يقصرون في إرضاعه وتربيته والنصح ضد الغش وهو تصفية العمل عن شوب الفساد حال من فاعل يكفلونه، قال ابن جريج والسديُّ لمّا قالت أخت موسى (وهم له ناصحون) اخذوها وقالوا إنّك قد عرفت هذا الغلام فدلينا على أهله قالت ما أعرفه وقلت وهم للملك ناصحون كذا أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن السدي، وقيل إنها قالت إنما قلت هذا رغبةً في سرور الملك وإتصالنا به وقيل إنها لمَّا قالت هل أدلكم على أهل بيت قالوا لها من قالت لأمي قالوا لأمك ابن قالت نعم هارون (وكان هارون ولد في سنة لا يقتل فيها الولدان) قالوا صدقت فأتينا بها فانطلقت إلى أمها فأخبرتها بحال ابنها وجاءت بها إليهم فلمَّا وجد موسى ريح أمه قبل ثديها وجعل يمصه حتى امتلأ جنباه، قال السديُّ كانوا يعطونها أجرة كل يوم ديناراً، قيل إنما أخذتها لأنها كانت مال حربي وذلك قوله عزَّ وجلَّ: ﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ﴾ عطف على جمل محذوفة معطوفة بعضها على بعض معطوفة على فَقَالَتْ هل أدلكم تقديره فقالوا دلني فدلت على أمها فقالوا ائتي بها فانطلقت فأتت بها فوضعوه في حجرها فأرضعته فرضعه فسلموه إليها للإرضاع فرددناه إلى أمه ﴿كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾ برد موسى إليها ﴿وَلَا تَحْزَنَ﴾ لفراقه عطف على تقر ﴿وَلِتَعْلَمَ﴾أم موسى عطف على لا تحزن ﴿أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ برده إليها ﴿حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ﴾ أي أكثر الناس ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ أن وعد الله حق ولو علموا ذلك لما ارتكبوا منهيات الله خوفاً من وعيده وما تركوا أوامره طمعاً في وعده وفيه تعريض على أم موسى لما فرط منها حين جزعت على تأويل اصبح فؤاد أم موسى فارغاً بمعنى خالياً من الصبر، وقيل يعني لا يعلمون بهذا الوعد ولا بأن هذه أخته وهذه أمه فمكث عندها إلى أن فطمته فأتت به إلى فرعون فتربى عنده كما قال الله تعالى حكايةً عنه في سورة الشعراء: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا﴾[1].

(١) سورة الشعراء، الآية: ١٨.

﴿وَلَمَّا بَلَغَ﴾ موسى ﴿أَشُدَّهُۥ﴾ جمع شدة بمعنى القوة كالنعم جمع نعمة يعني مبلغه الذي لا يزيد إليه نشؤه قال الكلبي الأشد ما بين ثماني عشرة سنة إلى ثلاثين سنة، وقال مجاهد وغيره ثلاث وثلاثون سنة ﴿وَٱسْتَوَىٰٓ﴾ عقله أي بلغ اربعين سنة كذا روى سعيد بن جبير عن ابن عباس وقيل استوى أي انتهى شبابه ﴿ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا﴾ أي النبوة ﴿وَعِلْمًا﴾ أي معرفة بالله وبأحكامه قيل ليس المراد به الإستنباء لأنه يكون بعد الهجرة في المراجعة من هذين بل المراد به الفقه والعلم بالشرائع، قلت: العطف بالواو للجمع المطلق لا دليل فيه على الترتيب فالاستنباء وإن كان بعد الهجرة لكن ذكره بالشرائع، قلت: العطف بالواو للجمع المطلق لا دليل فيه على الترتيب فالاستنباء وإن كان بعد الهجرة لكن ذكره هاهنا لبيان إنجاز الوعد بتمامه حيث قال إنا راده إليك وجاعلوه من المرسلين ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ صفة المصدر محذوف تقديره ﴿نجزي المحسنين﴾ جزاء كذلك أي مثل ذلك الذي جزينا موسى وأمه على إحسانهما.

﴿وَدَخَلَ﴾ موسى ﴿ٱلْمَدِينَةَ﴾ عطف على ﴿لما بلغ أشده﴾ قال السديُّ هي مدينة مدين من أرض مصر وقال مقاتل كان قرية تدعى خانين على رأس فرسخين من مصر، وقيل مدينة عين الشمس وقال المحلي مدينة منف دخلها بعد أن غاب عنها مدة ﴿عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ وهو وقت القائلة واشتغال الناس بالقيلولة، وقال محمد بن كعب القرظي دخلها فيما بين المغرب والعشاء، قال السدي وذلك أن موسى يسمى ابن فرعون فكان يركب مراكب فرعون ويلبس ملابسه فركب فرعون يوماً وليس عنده موسى فلمَّا جاء موسى قيل له إن فرعون قد ركب فركب في أثره فأدركه المقيل بأرض منف فدخلها نصف النهار وليس في طرقها أحد، وقال ابن إسحاق كان لموسى شيعة من بين إسرائيل يستمعون منه ويقتدون به فلمَّا عرف ما هو عليه من الحق رأى فراق فرعون وقومه فخالفهم في دينه حتى ذكر ذلك منه وأخافوه وخافوه وكان لا يدخل قرية إلا خائفاً مستخفياً فدخلها حين غفلة من أهلها، وقال ابن زيد لما عدا موسى فرعون بالعصا في صغره وأراد فرعون قتله فقالت إمرأة فرعون هو صغير فترك قتله وأمر بإخراجه من مدينته فلم يدخل إلا بعد أن كبر وبلغ أشده (فدخل المدينة على حين غفلة من أهلها) يعني حين غفلة عن ذكر موسى من بعد نسائهم خبره وأمره لبعد عهدهم به، قال البغوي وروي عن علي رضي الله تعالى في قوله تعالى حين غفلة من أهلها يوم عيد لهم قد اشتغلوا بلهوهم ولعبهم ﴿فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ﴾ صفة لرجلين أي يختصمان ويتنازعان ﴿هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ﴾ يعني من بني إسرائيل هذه الجملة مع ما عطف عليها حال من رجلين بترك الواو على طريقة كلمته فوه إلى فيّ

بتقدير تقديره فوجد رجلين يقال فيهما هذا من شيعته ﴿وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ أي من القبط وجاز أن يكون هذا وهذا بدلاً من رجلين، وقوله من شيعته ومن عدوه حال من المشار إليه والعامل فيه معنى الإشارة ﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ﴾ عطف على وجد ﴿عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ والإستغاثة طلب الغوث إستغاث الإسرائيلي على الفرعوني فغضب موسى واشتد غضبه لأنه تناوله وهو يعلم منزلة موسى من بني إسرائيل وحفظه لهم ولا يعلم الناس إلا من قبل الرضاعة من أم موسى، فقال للفرعوني خل سبيله فقال إنما نأخذه ليحمل الحطب إلى مطبخ أبيك فتنازعه فقال الفرعوني لقد هممت أن أحمله عليك وكان موسى قد أوتي بسطة في الخلق وشدة القوة والبطش ﴿فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ﴾ قرأ ابن مسعود فلكزه موسى ومعناهما واحد وهو الضرب يجمع الكف، وقيل الوكز الضرب في الصدر واللكز في الظهر، وقال الفراء معناهما الدفع وقال أبو عبيدة الوكز الدفع بأطراف الأصابع وفي بعض التفاسير عقد موسى ثلاثاً وثمانين فضربه في صدره ﴿فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾ أي قتله ودفنه في الرمل كذا قال المحلي ومعناه فرغ من أمره فكل شيء فرغت منه فقد قضيته وقضيت عليه ولم يكن لموسى قتله فندم عليه موسى و﴿قال﴾ الخ الجملة مستأنفة ﴿هَٰذَا﴾ أي القتل ﴿مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ إنما قال ذلك لأنه لم يكن مأموراً حينئذ بقتل الكفار أو لأنه كان مأموناً فيهم فلم يكن له إغتيالهم وهذا لم يكن مناف لعصمه لكونه خطأ وإنما عد ذلك الأمر من عمل الشيطان وسماه ظلماً واستغفر عنه على عادة المقربين في إستعظام محقرات صدرت منهم ﴿إِنَّهُۥ﴾ أي الشيطان ﴿عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾ أي ظاهر العداوة.

﴿قَالَ﴾ جملة مستأنفة ﴿رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى﴾ بقتل نفس من غير أمرك ﴿فاغفر لي﴾ خطيئتي ﴿فَغَفَرَ لَهُۥٓ﴾ عطف على قال أي غفر الله لموسى حقه ولم يكن القبطي معصوم الدم حتى لا يتصور المغفرة من غير قصاص أو عفو من المقتول أو ورثته ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ﴾ لذنوب عباده ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ بهم ﴿قَالَ﴾ مستأنفة أخرى ﴿رب بما أنعمت عليّ فلن أكون﴾ الباء في (بما أنعمت) للقسم وجوابه ما بعده وقوله: (فلن أكون) معطوف على محذوف تقديره أقسم بإنعامك عليَّ بالنبوة والمغفرة غير ذلك تُبتُ فلن أكون، أو الباء متعلق بمحذوف تقديره رب اعصمني من الزلات بحق إنعامك عليَّ وعلى هذا قوله فلن أكون جوابٌ للدعاء أي ليكن منك إعصامي فعدم كوني ﴿ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ قال ابن عباس أي للكافرين وهذا لو صحّ لدلَّ على أن الإسرائيلي كان كافراً وهو قول مقاتل، وقال قتادة معناه لن أعين بعد هذا على خطيئة وقيل معناه لن أكون معيناً لمن أدت معاونته إلى جرم.

﴿فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ
إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَا مُوسَىٰ أَتُرِيدُ أَنْ ١
تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ
الْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ
لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ
الظَّالِمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿فَأَصْبَحَ﴾ موسى ﴿فِي الْمَدِينَةِ﴾ التي قتل فيها القبطي عطف على (فقضى عليه) ﴿خَائِفًا﴾ على نفسه ﴿يَتَرَقَّبُ﴾ الإنتقام من ورثة المقتول أو يترقب النصر من ربه حالان من فاعل أصبح ﴿فَإِذَا﴾ للمفاجأة ﴿الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ﴾ أي يستغيثه مشتق من الصراخ قال ابن عباس أتى فرعون فقيل له إن بني إسرائيل قتلوا منّا رجلاً فخذلته بحقنا فقال انجوا إلى قاتله ومن يشهد عليه فلا يستقيم أن يقضى بغير بينة فبيناهم يطوفون لا يجدون ثبتاً إذ مر موسى من الغد فرأى ذلك الإسرائيلي يقاتل فرعونياً فاستغاثه على الفرعوني فصادف موسى وقد ندم ما كان منه بالأمس من قتل القبطي ﴿قَالَ لَهُ﴾ أي للإسرائيلي ﴿مُوسَىٰ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ﴾ بين الغواية حيث تسببت قتل رجل بالأمس وتقاتل اليوم رجلاً آخر وتستغيثني وقيل إنما قال للفرعوني (إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ) بظلمك ثم أدرك موسى الرقة بالإسرائيلي لما رأى ظلم الفرعوني عليه فمد يده لبطش الفرعوني ﴿فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ﴾ موسى ﴿أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا﴾ أي لموسى والإسرائيلي لأنه لم يكن على دينهما ولأن القبط كانوا أعداء بني إسرائيل ظن الإسرائيلي أنه يريد بطشه لما رأى من غضبه وسمع قوله إنك لغوي مبينٌ ﴿قَالَ﴾ الإسرائيلي ﴿يَا مُوسَىٰ أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ﴾ أو قال ذلك القبطي لما توهم من قوله أنه الذي قتل القبطي بالأمس لهذا الإسرائيلي والأول أظهر ﴿إِنْ تُرِيدُ﴾ أي ما تريد ﴿ألا أن تكون جبارا﴾ قتالاً بالغضب ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ أي في أرض مصر حيث تطاول على الناس ولا تنظر العواقب ﴿وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ﴾ بين الناس فتدفع التخاصم بالتي هي أحسن فلما سمع القبطي قول الإسرائيلي (أتريد أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس) علم أن قاتل القبطي بالأمس كان موسى إنطلق إلى فرعون وأخبره بذلك فأمر فرعون بقتل موسى أو سمع الناس مقالاتهم واشتهر أن موسى قتل القبطي وأرتفع إلى فرعون وملئه فهموا بقتله ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ﴾ عطف على (قال يا موسى) قال أكثر أهل التأويل هو حزئيل مؤمن آل فرعون وقيل اسمه شمعون وقيل

سمعاً ﴿من أقصا المدينة﴾ ظرف مستقر صفة لرجل وليس متعلقاً بجاء لأن تخصيصها ألحقه بالمعارف فصح أن يكون قوله ﴿يَسْعَىٰ﴾ حالاً منه يعني جاء ذلك الرجل يسرع في مشيه فأخذ طريقاً قريباً حتى سبق إلى موسى فأخبره وأنذره و﴿قال يا موسى إن الملأ يأتمرون﴾ أي يأمر بعضهم بعضاً متلبساً ذلك الأمر ﴿بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾ أي لكي يقتلوك أو يأمر بعضهم بعضاً بقتلك واللام زائدة، وقيل معناه يتشاورون بك سمي التشاور ائتماراً لأن كلاً من المتشاورين يأمر الآخر لكي يقتلوا ﴿فَٱخْرُجْ﴾ من المدينة ﴿إِنِّي لَكَ﴾ متعلق بمحذوف خبر لإن يعني أني نافع لك ﴿من الناصحين﴾ خبر ثان ولا يجوز أن يكون لك متعلقاً بناصحين لأن معمول الصلة لا يتقدم على الموصول، وقيل متعلق بناصحين والكلام محمول على التقديم والتأخير وقيل لك بيان لمبهم كأنه قال (إني من الناصحين) ثم أن يبيّن فقال لك أي أنصح لك واللام فيه لتقوية عمل فعل محذوف ﴿فَخَرَجَ﴾ موسى ﴿مِنْهَا﴾ من تلك القرية ﴿خَآئِفًا﴾ على نفسه ﴿يَتَرَقَّبُ﴾ أي ينتظر الطالب من خلفه وقيل يترقب النصر من ربه فإن قيل هذه الآية تدل على جواز الخوف للأنبياء من غير الله سبحانه وقد قال الله تعالى فيهم: ﴿وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ﴾ فما التوفيق؟ قلنا: الخوف على نفسه من مقتضيات الطبيعة لا ينافي النبوة والمراد بقوله تعالى: ﴿لا يخشون أحداً إلا الله﴾[1] إنهم لا يبالون في إتيان أوامره تعالى والإنتهاء عن مناهيه لحوق مضرة بهم من أحد سوى الله تعالى بخلاف سائر الناس فإنهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية ﴿فإذا أُوذى في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله﴾[2] ﴿قَالَ﴾ موسى استئناف أو حال بتقدير قد من فاعل خرج ﴿رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي الكافرين يعني خلصني منهم واحفظني من لحوقهم وفي القصة أن فرعون بعث في طلبه حين أخبره ربه فقال إركبوا بينات الطريق فإنه لا يعرف كيف الطريق.

﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ﴾ قال الزجاج أي سلك الطريق التي يلقى فيها مدين وهي قرية سميت باسم مدين بن إبراهيم عليه السلام، وكان موسى قد خرج بلا ظهر وبلا زاد وكان مدين على مسافة ثمانية أيام من مصر ولم يكن في سلطنة فرعون، ولمّا ظرف فيه معنى الشرط متعلق بقوله: ﴿قَالَ﴾ يعني موسى توكلاً على الله وحسن ظن به ﴿عَسَىٰ رَبِّيٓ﴾ قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بالفتح والباقون بالإسكان ﴿أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ والجملة معطوفة على ﴿قَالَ رَبِّ نَجِّنِى﴾ وإضافة سواء إلى السبيل إضافة صفة إلى موصوفه

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٣٩. (٢) سورة العنكبوت، الآية: ١٠.

والمعنى أن يهديني السبيل السوي الذي لا زحمة فيه ولم يكن موسى يعرف الطريق إليها فلما قال هذا جاءه ملك بيده عنزة فانطلق به قال المفسرون خرج موسى من مصر ولم يكن معه إلا ورق الأشجار والبقل حتى يرى خضرته في بطنه وما وصل إلى مدين حتى وقع خف قدميه، قال ابن عباس هو أول إبتلاء من الله لموسى عليه السلام.

﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾﴾.

﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ﴾ أي وصل إليه وهو بئر كانوا يسقون منها مواشيهم ﴿وَجَدَ عَلَيْهِ﴾ أي على الماء يعني جانب البئر ﴿أُمَّةً﴾ أي جماعة كثيرة ﴿مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ﴾ مواشيهم ﴿وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ﴾ أي في مكان أسفل من مكانهم ﴿امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ﴾ حال من إمرأتين أو صفة لهما أنهما تمنعان أغنامهما عن الماء لئلا تختلط بأغنامهم ﴿قَالَ﴾ موسى للمرأتين.

﴿مَا خَطْبُكُمَا﴾ أي ما شأنكما حيث تمنعان مواشيكما عن الماء والخطب بمعنى الشأن كذا في القاموس قيل هو مصدر بمعنى المفعول يعني ما مخطوبكما يعني ما مطلوبكما من هذا المنع ﴿قَالَتَا لَا نَسْقِي﴾ أغنامنا ﴿حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ﴾ قرأ أبو جعفر وأبو عمرو وابن عامر يصدر بفتح الياء وضم الدال على أنه فعل لازم بمعنى يرجع، والباقون بضم الياء وكسر الدال من الأفعال يعني حتى يصرف الدعاء مواشيهم عن الماء حذف المفعول من يسقون وتذودان ولا تسقى لأن الغرض هو الفعل دون المفعول ألا ترى أنه إنما رحمهما لأنهما كانتا على الذود مع الحاجة إلى السقي لأجل ضعفهما والناس على السقي ولم يرحمهما لأن مزودهما غنم وسقيهم إبل وأيضاً الغرض بيان ما يدل على عفتهما واحترازهما عن مزاحمة الرجال ﴿وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ السن لا يقدر أن

يسقي مواشيه ولذلك احتجنا إلى سقي المواشي، والجملة حال من فاعل لا نسقي ووجه مطابقة جوابهما سؤاله أنه سألهما عن سبب الذود فقالتا السبب في ذلك أنا امرأتان ضعيفتان مستورتان لا نقدر على مزاحمة الرجال ونستحي من اختلاطهم فلا بد لنا من الذود وتأخير السقي كيلا يختلط الغنم، قال البغوي إختلفوا في اسم أبيهما؟ فقال مجاهد والضحاك والسدي والحسن هو شعيب عليه السلام، وقال وهب وسعيد بن جبير هو ثيرون بن أخي شعيب وكان شعيب قد مات قبل ذلك بعد ما كف بصره فدفن بين المقام والزمزم، وقيل رجل ممن آمن بشعيب عليه السلام.

فلما سمع موسى قولهما رحمهما ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا﴾ غنمهما قال ابن عباس زاحم القوم ونجاهم عن رأس البئر فسقى غنم المرأتين، وقيل اقتلع موسى صخرة من رأس بئر أخرى كانت بقربها لا يطيق رفعها إلا الجماعة من الناس قيل عشرة أنفس ويقال أنه نزع دلواً واحداً ودعا فيه بالبركة فروى منه جميع الغنم ﴿ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ﴾ ظل شجرة فجلس في ظلها من شدة الحرّ ولمَّا طال البلاء بموسى آنس بالشكوى إلى مولاه ولا بأس في الشكوى إذا كان إلى المولى دون غيره ﴿فَقَالَ﴾ موسى ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ﴾ قال أهل العلم اللام بمعنى إلى يقال فقير له وفقير إليه والمراد بالإنزال الإعطاء، يقال أنزل الله تعالى نعمه أو نعمته على الخلق أي أعطاهم إياه وذلك قد يكون بإنزال الشيء نفسه كإنزال القرآن وإنزال المطر وقد يكون بإنزال أسبابه والهداية إليه كما في قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ﴾[1] و﴿أنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج﴾[2] و ﴿أنزلنا عليكم لباساً﴾[3] وأنزلت هاهنا صيغة ماض أريد به المستقبل أو بمعنى قدرت إنزاله إليَّ والمعنى أن ما تعطيني أو قدرت إعطاءه إيّاي ﴿مِنْ خَيْرٍ﴾ أي طعام قليل أو كثير ﴿فَقِيرٌ﴾ محتاج سائل يعني أعطني ما شئت قليلاً أو كثيراً ولتضمنه معنى السؤال عدي باللام موضع إلى قال ابن عباس سأل الله لقمة يقيم بها صلبه، قال الباقر عليه السلام لقد قالها وإنه لمحتاج إلى شق تمرة، وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس لقد قال موسى عليه السلام (رب إني لما انزلت إلي من خيرٍ فقيرٌ) وهو أكرم على الله وقد افتقر إلى شق تمرة، قال مجاهد ما سأله إلا الخير، وقيل معناه إني لما إنزلت أي بسبب ما أنزلت إليّ من خير أي الدين والحكمة فقير أي صرت فقيراً في الدنيا لأجل مخالفة فرعون في الدين فإنه كان في سعة عند فرعون والغرض منه

(١) سورة الحديد، الآية: ٢٥. (٢) سورة الزمر، الآية: ٦.
(٣) سورة الأعراف، الآية: ٢٦.

إظهار التبهج والشكر على ذلك، قلتُ: وجاز أن يكون المعنى وإني إلى ما أنزلت إليّ من خير أي الدين والحكمة فقير سائل منك المزيد فيه كأنه قال رب زدني علماً، قلتُ: وجاز أن يكون أنزلت مشتقاً من النُزُل بضم النون والزاء وهو ما يُعَدُّ للنازل من الزاد يقال أنزلتُ فلاناً أي أضفته والمعنى إلى فقير محتاج سائل لما تعد لي من الطعام.

﴿فَجَآءَتْهُ﴾ عطف على محذوف تقديره فرجعتا إلى أبيهما سريعاً قبل الناس وأغناهما حنك لطان فقال لهما أبوهما ما أعجلكما قالتا وجدنا رجلاً صالحاً رحمنا فسقى أغنامنا فقال لأحدهما إذهبي فادعيه لي (فجاءته) ﴿إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ﴾ الظرف حال من فاعل تمشي وجملة تمشي حال من فاعل جاءت، قال البغوي قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه ليست بسلفع من النساء خرَّاجةٌ دلأَّجةٌ ولكن جاءت مستترة وضعت كمّ درعها على وجهها إستحياءً ﴿قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَاۚ﴾ أخرج ابن عساكر وكذا ذكر البغوي أنه قال أبو حازم سلمة بن دينار لما سمع موسى ذلك أراد أن لا يذهب ولكن كان جائعاً فلم يجد بدّاً من الذهاب فمشت المرأة ومشى موسى خلفها فكانت الريح تضرب ثوبها فتكشف ساقها فكره موسى أن يرى ذلك منها فقال لها امشي خلفي ودلّيني على الطريق إن أخطأت ففعلت ذلك، فلمَّا دخل على شعيب إذا هو قد تهيّأ للعشاء فقال إجلس يا شابُّ فتعش فقال موسى أعوذ بالله فقال شعيب ولم ذلك ألستَ بجائع قال بلى ولكن أخاف أن يكون هذا عوضاً لما سقيتُ لهما وأنا من أهل بيت لا نطلب على عمل من أعمال الآخرة عوضاً من الدنيا فقال شعيب لا والله يا شابُّ ولكن عادتي وعادة آبائي نقرىء الضيف ونطعم الطعام فجلس موسى فأكل، قلتُ: قوله تعالى: ﴿قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَاۚ﴾ صريح في أنها دعت موسى إلى إعطاء الأجر وموسى أجاب دعوتها ومشى معها ولم يكن ذلك بعدما أراد أن لا يذهب على ما قال أبو حازم فالآية تدل على بطلان هذه القصة فإنها تدل على الإنكار بعد الدعوة وأيضاً هذه القصة يعارض قول موسى في قصة الخضر ﴿لو شئت لاتخذت عليهِ أجراً﴾[1] وعن أبي هريرة عن النبيّ ﷺ قال: «ما بعث الله نبياً إلا رعى الغنم، فقال أصحابه وأنت يا رسول الله؟ قال كنت أرعى على قراريط لأهل مكة»[2] رواه البخاري، وسنذكر قوله ﷺ: «إن موسى أجر نفسه ثمان سنين أو عشراً على عفة فرجه وطعام بطنه» والحق أن المكروه إنما هو

---

(١) سورة الكهف، الآية: ٧٧.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الإجارة، باب: رعي الغنم على قراريط (٢٢٦٢).

أخذ الأجر واشتراطه على عملٍ هو عبادة مقصودة بنفسها أو شرط لعبادة مقصودة كالأذان والإمامة وتعليم القرآن لا على ما هو مباح في نفسه يصير طاعة بنية صالحة وقد أجاز الشافعي أخذ الأجرة على الأذان ونحو ذلك وأجاز المتأخرون من الحنفية أخذ الأجرة على تعليم القرآن والله أعلم.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُۥ﴾ معطوف على جمل محذوفة تقديره فلما جاءته وقالت ما ذكر جاء موسى شعيباً عليه السلام (فلما جاءه) أي جاء موسى عنده أي عند شعيب وأقيم المضاف إليه مقامه ﴿وَقَصَّ﴾ موسى عليه السلام ﴿عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ﴾ معنى الآية أخبر موسى خبره أجمع من قتله القبطي وقصد فرعون قتله ﴿قَالَ﴾ شعيب ﴿لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ يعني من فرعون وقومه وإنما قال ذلك لأن فرعون لم يكن سلطانه على مدين وجملة نجوت تعليل لقوله لا تخف ﴿قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا﴾ يعني التي استدعته ﴿يأبت استأجره﴾ أي إتخذه أجيراً ليرعى أغنامنا ﴿إن خير من استأجرت القوي الأمين﴾ أي خير من استعملت من قويٌّ على العمل وأدى الأمانة تعليلٍ سائغ تجري مجرى الدليل على أنه حقيق بالاستئجار وللمبالغة فيه جعل خبر اسم إنَّ وذكر الفعل بلفظ الماضي وإن كان المعنى على الاستقبال للدلالة على أنه مجرب معروف، أخبر الخطيب في تاريخه عن أبي ذر يرفعه أنه قال لها أبوها وما أعلمك بقوته وأمانته قالت أما قوته فإنه رفع حجراً من رأس البئر لا يرفعها إلا عشرة وقيل أربعون رجلاً وأما أمانته فإنه قال لي امشي خلفي حتى لا تصف الريح بدنك، روي عن ابن مسعود قال أفرس الناس ثلاثة بنت شعيب وصاحب يوسف حيث قال (عسى أن ينفعنا) وأبو بكر في عمر حيث جعله خليفةً في حياته ﴿قَالَ﴾ شعيب عند ذلك ﴿إِنِّي﴾ قرأ نافع بفتح الياء والباقون بإسكانها ﴿أريد أن أنكحك إحدى ابنتي هاتين﴾ إسمهما صفورة وليّا في قول شعيب الجبائي وقال ابن إسحاق صفورة وشرقا وقال غيرهما الكبرى صفرا والصغرى أصفيرا، قال وهب بن منبه زوجه الكبرى وذهب أكثرهم إلى أنه زوجه الصغرى واسمها صفورة وهي التي ذهبت لطلب موسى كذا روى البزار والطبراني من حديث أبي ذر مرفوعاً وكذا أخرج البخاري عن أنس، قال البغوي روى أبو ذر مرفوعاً «إذا سُئِلتُ أيُّ الامرأتين أنكحها إياه فقل الصغرى منهما وهي التي جاءت فقالت يا أبت استأجره فتزوج صغراهما» ﴿عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِي﴾ أي تأجر نفسك مني وتكون لي أجيراً وقال الفراء أن تجعل ثوابها من تزويجها بقول العرب أجرك يأجرك أي أثابك والمعنى على أن تثيبني من تزويجها أن ترعى غنمي ﴿ثَمَٰنِيَ حِجَجٍ﴾ ظرف على التأويلين الأولين ومفعول به على تأويل الفراء بإضمار مضاف والحجج السنوات واحده

حجة ﴿فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا﴾ أي عشر سنين في رعي الغنم ﴿فَمِنْ عِندِكَ﴾ أي فذلك تفضل من عندك وتبرع وليس بواجب عليك، وهذا استدعاء لعقد النكاح لانفسه إذ لو كان عقداً لقال قد أنكحتُك هذه بتعين إحداهما فالظاهر أنه جرى بعد ذلك العقد على واحدة معينة منهما لكن هذه الآية تدل على أن رعي الغنم ثمان سنين جعل تمام المهر أو بعضه بانضمام مال آخر معه، ويدل عليه ما رواه أحمد وابن ماجه عن عتبة بن المنذر قال: كنا عند رسول الله ﷺ فقرأ طَسمّ حتى بلغ قصة موسى فقال: «إن موسى عليه السلام آجر نفسه ثمان سنين على عفة فرجه وطعام بطنه»[(١)].

مسألة:

بهذه الآية والحديث استدل الفقهاء على أنه من نكح إمرأة على أن يرعى الزوج غنمها جاز حيث ذكر رسول الله ﷺ قصة موسى من غير بيان نفيه في شريعتنا وبه قال أبو حنيفة رحمه الله في رواية ابن سماعة عنه ولا يجوز ذلك عند أبي حنيفة في رواية الأصل والجامع، وجه قول أبي حنيفة أن الاستدلال بهذه الآية والحديث المذكور في هذه المسألة لا يجوز إلا إذا ثبت كون الغنم ملكاً للبنت للإجماع على أن المهر في شريعتنا يكون للزوجة لا لوليها والغنم كانت لشعيب عليه السلام فالإجماع دل على أن هذا الحكم كان في شريعتهم لا في شريعتنا وقد ذكرنا هذه المسألة في سورة النساء في تفسير قوله تعالى: ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَاءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُم﴾[(٢)] ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ﴾ بإلزام تمام العشرة أو المناقشة في مراعاة الأوقات واستيفاء الأعمال المشقة مشتقة من الشق بمعنى الفرق فإن ما يصعب عليك يشق أي يفرق عليك اعتقادك في إطاقته ورأيك في مزاولته ﴿سَتَجِدُنِي﴾ قرأ نافع بفتح الياء والباقون بإسكانها ﴿إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ قال عمر في حفظ الصحبة والوفاء بما قلتُ، وهذه الجملة تأكيد لقوله: ﴿ما أريد أن اشق عليك﴾ والمراد بالاشتراط بمشيئة الله فيما وعد من الصلاح الإتكال على توفيقه فيه ومعونته وعدم الاتكال على نفسه لا التردد في الوعد.

﴿قَالَ﴾ موسى ﴿ذَٰلِكَ﴾ الشرط ثابت ﴿بَيْنِي وَبَيْنَكَ﴾ مما شرطت على ذلك وما شرطت لي من تزويج إحداهما فلي ﴿أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ﴾ أي منصوب بقضيت وما زائدة مؤكدة

---

(١) أخرجه ابن ماجه في كتاب: الإجارة، باب: إجارة الأجير على طعام بطنه (٢٤٤٤)، وإسناده ضعيف لأن فيه بقية وهو مدلس.

(٢) سورة النساء، الآية: ٢٤.

للإبهام والمعنى أي الأجلين أطولهما أو أقصرهما ﴿قَضَيْتُ﴾ أي وفيتك ﴿فلا عدوان عليّ﴾ جزاء لما تضمن أيما معنى الشرط والجملة الشرطية بدل من قوله: (ذلك بيني وبينك) يعني لا تعتدي عليّ بطلب الزيادة فكما لا أطالب بالزيادة عند قضاء عشر سنين كذلك لا أطالب بالزيادة عند قضاء ثمان أو فلا أكون معتدياً بترك الزيادة عليه كقولك لا إثم عليَّ وهو أبلغ في إثبات الخيرة وتساوي الأجلين في القضاء من أن يقال إن قضيتُ الأقصر فلا عدوان عليّ ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ﴾ من المشارطة ﴿وكيل﴾ قال ابن عباس فيما بيني وبينك والجملة حال مما سبق والوكيل هو من وكل إليه الأمر واستعمل هاهنا موضع الشاهد والرقيب ولذلك عدي بعلى، وروى شداد بن أوس مرفوعاً «بكى شعيب النبيّ ﷺ حتى عمي فرد الله بصره فقال الله ما هذا البكاء أشوقاً إلى الجنة أم خوفاً من النار؟ فقال لا يا رب ولكن شوقاً إلى لقائك فأوحى الله إليه إن يكن ذلك فهنيئاً لك لقائي يا شعيب لذلك أخدمتك موسى»[١].

ولمّا تعاقدا هذا العقد بينهما أمر شعيب ابنته أن تعطي موسى عصا يدفع بها السباع عن غنمه. واختلفوا في تلك العصا؟ قال عكرمة خرج بها آدم من الجنة فأخذها جبرئيل بعد موت آدم فكانت معه حتى لقي بها موسى ليلاً فدفعها إليه، وقال آخرون كانت من آس الجنة حملها آدم من الجنة فتوارثها الأنبياء وكان لا يأخذها غير نبي إلا كلمته فصار من آدم إلى نوح ثم إلى إبراهيم ثم وصلت إلى شعيب وكانت عصا الأنبياء عنده فأعطاها موسى، وقال السدي كانت تلك العصا أودعها ملك في صورة رجل فأمر ابنته أن تأتيه بعصا فأتته بها فلما رآها شعيب قال لها ردي هذه العصا وأتيه بغيرها فألقتها وأرادت أن تأخذ غيرها ولا تقع في يدها إلا هي حتى فعلت ذلك ثلاث مرات فأعطاها موسى فأخرجها موسى معه ثم إن الشيخ ندم وقال كانت وديعة فذهب في أثره وطلب أن يرد العصا فأبى موسى أن يعطيه وقال هي عصاي فرضيا أن يجعلا بينهما أول رجل يلقاهما، فأتاهما ملك في صورة رجل فحكم أن يطرح العصا فمن حملها فهي له فطرح فعالجها ليأخذها فلم يطقها فأخذها موسى فرفعها فتركها له الشيخ، ثم إن موسى لما أتم الأجل وسلَّم شعيب ابنته قال موسى للمرأة أطلبي من أبيك أن يجعل لنا بعض الغنم فطلبت من أبيها فقال شعيب لكما كل ما ولدت هذا العام على غير شيتها، قيل أراد شعيب أن

---

(١) رواه الخطيب وابن عساكر، قال الخطيب الحديث منكر، وقال الذهبي في الميزان حديث باطل لا أصل له.

يجازي موسى على حسن رعيته إكراماً له ووصلةً لابنته فقال إني قد وهبتُ لك من الجدايا التي تضع هذه السنة كل أبلق وبلقاء فأوحى الله إلى موسى في المنام أن اضرب بعصاك الماء الذي في مسقى الأغنام فضرب بعصاه الماء ثم سقى الأغنام منه فما أخطأت واحد منها إلا وضعت حملها ما بين أبلق وبلقاء، فعلم شعيب أن ذلك رزق ساقه الله عز وجلّ إلى موسى فأمره فوفى له بشرطه وسلم الأغنام إليه.

﴿۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلۡأَجَلَ وَسَارَ بِأَهۡلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارٗاۖ قَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ جَذۡوَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلۡوَادِ ٱلۡأَيۡمَنِ فِي ٱلۡبُقۡعَةِ ٱلۡمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنۡ أَلۡقِ عَصَاكَۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهۡتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنّٞ وَلَّىٰ مُدۡبِرٗا وَلَمۡ يُعَقِّبۡۚ يَٰمُوسَىٰٓ أَقۡبِلۡ وَلَا تَخَفۡۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلۡأٓمِنِينَ ﴿٣١﴾ ٱسۡلُكۡ يَدَكَ فِي جَيۡبِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٖ وَٱضۡمُمۡ إِلَيۡكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهۡبِۖ فَذَٰنِكَ بُرۡهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلۡتُ مِنۡهُمۡ نَفۡسٗا فَأَخَافُ أَن يَقۡتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفۡصَحُ مِنِّي لِسَانٗا فَأَرۡسِلۡهُ مَعِيَ رِدۡءٗا يُصَدِّقُنِيٓۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجۡعَلُ لَكُمَا سُلۡطَٰنٗا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيۡكُمَا بِـَٔايَٰتِنَآۚ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلۡغَٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلۡأَجَلَ﴾ أي أتمه وفرغ منه، روى البغوي عن سعيد بن جبير قال سألني يهودي من أهل الحيرة أيُّ الأجلين قضى موسى؟ قلتُ لا أدري حتى أقدم على حبر العرب فأسئله فقدمتُ فسألتُ ابن عباس فقال قضى أكثرهما وأطيبهما إن رسول الله إذا قال فعل، قال البغوي روى أبو ذر إذا سألتَ أيُّ الأجلين قضى موسى فقل خيرهما وأبرهما رواه البزار، وقال مجاهد لما قضى موسى الأجل مكث بعد ذلك عند صهره عشراً أخر فأقام عنده عشرين سنة ثم استأذنه في العود إلى مصر فأذن له فخرج إلى مصر ﴿وَسَارَ بِأَهۡلِهِۦٓ﴾ حتى إذا بلغ بريةً قريباً من طور سيناء في ليلة مظلمة شديدة الشتاء وأخذ إمرأته الطلق ﴿ءَانَسَ﴾ أي أبصر ﴿مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ﴾ أي من جهة التي تلي الطور ﴿نَارٗاۖ قَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ﴾ مكانكم وجمع الضمير وإن صح أن لم يكن معه غير إمرأته لماكنى عنها بالأهل ﴿إِنِّيٓ﴾ قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء والباقون بإسكانه ﴿ءَانَسۡتُ نَارٗا﴾ الجملة في مقام التعليل لامكثوا ﴿لَّعَلِّيٓ﴾ قرأ الكوفيون بإسكان الياء في الباقون بفتحها

﴿ءَاتِيكُم مِّنْهَا﴾ أي من النار لأجل إضاءتها الطريق ﴿بِخَبَرٍ﴾ الطريق وكان قد أخطأ الطريق ﴿أَوْ جَذْوَةٍ﴾ قرأ عاصم بفتح الجيم وحمزة بضمها والباقون بكسرتها ثلاث لغات، قال البغوي قال قتادة ومقاتل هي العود الذي قد احترق بعضها وجمعها جذى وفي القاموس الجذوة مثلثة القبسة من النار والجمرة ﴿مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ أي نتخذه من النار ومن للإبتداء أو للتبعيض، وقال البيضاوي هي عود غليظ سواء كان في رأسه نار أو لم يكن ولذلك بينه بقوله من النار فمن للبيان ﴿لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ أي تستدفئون بها.

﴿فلما أتاها نودي من شاطىء﴾ أي جانب ﴿الواد الأيمن﴾ أي الوادي الذي عن يمين موسى ﴿فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ﴾ متعلق بنودي يعني مباركة لموسى حيث كلمه الله تعالى هناك وبعثه نبياً، وقال عطاء يريد المقدسة ﴿مِنَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ بدل إشتمال من الشاطىء، لأنها كانت نابتة على الشاطىء قال ابن مسعود كانت شجرة خضراء تبرق، وقال قتادة ومقاتل والكلبي كانت عوجة، وقال وهب من العليق وعن ابن عباس أنها العذب ﴿أن﴾ مفسرة لنودي ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ﴾ قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء والباقون بإسكانها ﴿أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وقال في طه ﴿إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ﴾[1] وفي النمل ﴿إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[2] والمقصود واحد، فهو إما رواية بالمعنى أو ذكر الله سبحانه في المحكي بالصفات المذكورة كلها واقتصر في الحكاية على بعضها كما اقتصر على بعض ما تكلم به في كل موضع فإنه ذكر في طه ﴿إخلع نعليك إنك بالواد المقدس طوى﴾[3] الخ ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾﴾[4] وقال في النمل ﴿بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَٰنَ﴾[5] الخ ﴿وأن ألق عصاك فلما رآها﴾ عطف على محذوف تقديره فألقاها فصارت ثعباناً واهتزت فلما رآها ﴿تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾ يعني كأنها حية صغيرة في سرعة حركتها وشدة اضطرابها ﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا﴾ هارباً منها ﴿وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ أي لم يرجع فنودي ﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ﴾ عن المخاوف فإنه لا يخاف لدي المرسلون.

﴿ٱسْلُكْ﴾ أي أدخل ﴿يَدَكَ فِى جَيْبِكَ﴾ أي جيب قميصك ﴿تَخْرُجْ﴾ مجزوم في جواب الأمر ﴿بَيْضَآءَ﴾ حال من المفعول المحذوف لتخرج أي تخرجها بيضاء ذات شعاع ﴿مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ متعلق ببيضاء ﴿وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ﴾ قرأ الكوفيون غير حفص

---

(١) سورة طه، الآية: ١٢.
(٢) سورة النمل، الآية: ٩.
(٣) سورة طه، الآية: ١٢.
(٤) سورة طه، الآية: ١٧.
(٥) سورة النمل، الآية: ٨.

وأهل الشام بضم الراء وسكون الهاء وحفص بفتح الراء وسكون الهاء والباقون بفتحهما وكلها لغات بمعنى الخوف، قال عطاء عن ابن عباس أمره الله أن يضم يده إليه ليذهب عنه الخوف وقال ما من خائف بعد موسى إلا إذا وضع يده على صدره زال خوفه، وقال مجاهد كل من فزع فضم جناحيه إليه ذهب عنه الفزع والجناح اليد كلها وقيل العضد، وقيل المراد من ضم الجناح السكون والتجلد والثبات عند انقلاب العصا حيةً إستعارة من حال الطائر فإنه إذا خاف نشر جناحيه وإذا أمن واطمأن ضمهما إليه، قال البغوي أي أسكن روعك وأخفض عليك جانبك لأن من شأن الخائف أن يضطرب قلبه ويرتعد بدنه ومثله قوله تعالى: ﴿واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين﴾(١) وقوله تعالى: ﴿واخفض لهما جناح الذل من الرحمة﴾(٢) يريد الرفق بهم، وقال الفراء أراد بالجناح عصا معناه أضمم إليك عصاك، وقيل الرهب الكم بلغة حمير، قال الأصمعي سمعتُ بعض العرب يقول أعطني ما في رهبك أي ما في كمك معناه اضمم إليك يدك مخرجاً من الكم لأنه تناول العصا ويده في كمه حين قال له الله تعالى: ﴿خُذْهَا وَلَا تَخَفْ﴾(٣) والظاهر عندي أن هذا عطف تفسيري لقوله: ﴿أسلك يدك في جيبك﴾ ﴿وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ﴾ أي أدخلها في جيبك والغرض من التكرير ترتب الأمرين عليه أحدهما التجلد وضبط النفس ودفع الخوف وإظهار الجراءة وهو المراد بقوله أضمم إليك جناحك أي يديك المبسوطتين اللتين تتقي بهماالحية في جيبك من الرهب أي من أجل دفع الرهب وثانيهما ظهور معجزة أخرى وهو المراد بقوله: ﴿تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ ويدل على هذا قوله تعالى في سورة طه: ﴿وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾﴾(٤) ﴿فَذَٰنِكَ﴾ إشارة إلى العصا واليد قرأ ابن كثير وابن عمرو بتشديد النون والباقون بتخفيفها ﴿بُرْهَٰنَانِ﴾ أي حجتان قال في القاموس البرهان بالضم الحجة وبرهن عليه أقام البرهان فهو فعلالٌ وقيل هو فعلان من البره يقال بره الرجل إذا ابيض ويقال برهاء وبرهرهة للمرأة البيضاء وفي القاموس أبره أتى بالبرهان أو بالعجائب وغلب الناس ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ أي كائنان من ربك صفة لبرهانان ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ متعلق بمحذوف أي مرسلاً بهما إلى فرعون ﴿وملائه﴾ فهو صفة بعد صفة لبرهانان أو استئناف متعلق بمحذوف أي اذهب بهما إلى فرعون وملائه ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ في مقام التعليل أي لأنهم كانوا أحقاء بأن يرسل إليهم.

---

(١) سورة الشعراء، الآية: ٢١٥.
(٢) سورة الإسراء، الآية: ٢٤.
(٣) سورة طه، الآية: ٢١.
(٤) سورة طه، الآية: ٢٢.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾﴾ ضمير المفعول محذوف أي يقتلوني ﴿وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا﴾ وإنما قال لعقدة كانت في لسانه من وضع الجمرة في فيه ﴿فَأَرْسِلْهُ﴾ يعني هارون ﴿مَعِيَ﴾ قرأ حفص بفتح الياء والباقون بإسكانها ﴿رِدءاً﴾ أي معيناً يقال أرادأتهُ أي أعنتهُ حال من الضمير المنصوب، وهو في الأصل اسم ما يعان به كالدفء، قرأ نافع بفتح الدال من غير همزة والباقون بإسكان الدال والهمزة وحمزة على مذهبه في الوقف ﴿يُصَدِّقُنِيٓ﴾ قرأ عاصم وحمزة بالرفع صفة لردأ أي ردءاً مصدقاً لي وقرأ الآخرون بالجزم على جواب الدعاء والضمير المرفوع عائد يعني إن أرسلته معي يصدقني بتقرير الحجة وإزاحة الشبهة وفصاحة اللسان وقيل المراد تصديق القوم لتقريره وتوضيحه لكنه أسند إليه الفعل إسناده إلى المسبب، وقال مقاتل الضمير المرفوع عائد إلى فرعون والمعنى إن أرسلت مع هارون يصدقني فرعون بحسن تقرير هارون ﴿إِنِّي﴾ قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء والباقون بإسكانها ﴿أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾ قرأ الجمهور بحذف الياء وأثبتها ورش في الوصل فقط يكذبوني يعني فرعون وقومه حيث لا يطاوعني لساني عند المحاجة ﴿قَالَ﴾ الله تعالى ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ﴾ أي سنقويك فإن شدة العضد مستعار للتقوية فإن قوة الشخص بشدة اليد على مزاولة الأقوى ولذلك يعبر عنه باليد وشدتها بشدة العضد ﴿بِأَخِيكَ﴾ أي بإرسال أخيك هارون معك وكان هارون يومئذ بمصر ﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا﴾ أي غلبة أو حجة ﴿فَلَا يَصِلُونَ﴾ أي فرعون وقومه ﴿إِلَيْكُمَا﴾ بمكروه ﴿بآياتنا﴾ متعلق بمحذوف أي اذهبا بآياتنا أو بنجعل أي نجعل لكما بآياتنا أي بالمعجزات التي سلطاناً على الأعداء أو بمعنى لا يصلون والمعنى تمتنعون أي فرعون وقومه بآياتنا أي بسبب المعجزات أو قسم جوابه لا يصلون أو بيان للغالبون في قوله تعالى: ﴿أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ بمعنى أنه صلة لما بينه أو صلة له على أن اللام فيه للتعريف لا بمعنى الذي به.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا
بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ وَمَن
تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ
لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ
إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ
ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ

كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾﴾.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُم﴾ معطوف على محذوف تقديره فجاء موسى إلى فرعون وقومه بالآيات البينات وهي العصا واليد فلما جاءهم ﴿موسى بآياتنا بينات قالوا ما هذا﴾ أي العصا ونحوه ﴿إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى﴾ أي مختلق لم يفعل قبله مثله أو سحر يعمله موسى ثم يفتريه على الله أو سحر موصوف بالإفتراء كسائر أنواع السحر ﴿وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا﴾ السحر أو ادعاء النبوة ﴿في آبائنا الأولين﴾ كائناً في أيامهم ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّىٓ﴾ قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء والباقون بإسكانها ﴿أَعْلَمُ﴾ منكم ﴿بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ﴾ فيعلم أني محق وأنتم مبطلون تجحدون بالحق بعد وضوح الآيات وبعدما استيقنت به أنفسكم ظلماً وعلوّاً معطوف على قالوا، والمراد حكاية القولين حتى ينظر فيهما فيميز الصحيح من الفاسد، وقرأ ابن كثير قال موسى بغير واو والعطف كذلك هو في مصاحفهم لأنه في جواب كلامهم فهو استئناف في جواب ما قال موسى في جواب قولهم ﴿وَمَن تَكُونُ﴾ قرأ حمزة والكسائي بالياء التحتانية والباقون بالتاء الفوقانية لكون المسند إليه مؤنثاً غير حقيقي يجوز فيه الأمران ﴿لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾ عطف على من جاء بالهدى يعني أعلم بمن تكون له عاقبة محمودة في الدار الآخرة، وقال البيضاوي المراد بالدار الدنيا وعاقبتها الأصلية هي الجنة لأن الدنيا خلقت مزرعة للآخرة مجازاً إليها والمقصود منها الثواب والعقاب إنما قصد بالعرض، وقال المحققون العقبى والعاقبة يطلقان على ما يعقب الحسنات من الثواب، والعقاب والعقوبة والمعاقبة يختص بما يعقب السيّئات ويترتب عليها من العذاب قال الله تعالى: ﴿خير ثواباً وخير عقبى﴾[(١)] وقال ﴿لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾[(٢)] و ﴿فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾[(٣)] و ﴿ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾[(٤)] وقال الله تعالى: ﴿فَحَقَّ عِقَابِ﴾[(٥)] وقال ﴿شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ وقال ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾[(٦)] ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ يعني لا يفوزون بالهدى في الدنيا وحسن الثواب في الآخرة.

---

(١) سورة الكهف، الآية: ٤٤.
(٢) سورة الرعد، الآية: ٢٢.
(٣) سورة الرعد، الآية: ٢٤.
(٤) سورة القصص، الآية: ٨٣.
(٥) سورة ص، الآية: ١٤.
(٦) سورة النحل، الآية: ١٢٦.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ نفى علمه بإله غيره دون وجوده إذ لم يكن عنده ما يقتضي الجزم بعدمه ولذلك قال ﴿فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ﴾ وهو كان وزير فرعون قال له فاطبخ لي الآجر، وقيل هو أول من إتخذ الآجر وبنى به ﴿على الطين فأجعل لي صرحا﴾ قصراً عالياً فإن التنكير للتعظيم ﴿لَّعَلِّىٓ﴾ قرأ الكوفيون بإسكان الياء والباقون بفتحها ﴿أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ توهم أنه لو كان لكان في السماء ويمكن الترقي إليه ﴿وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ﴾ يعني موسى عليه السلام ﴿من الكاذبين﴾ فيما يقولون أن للأرض والسماء خالقاً كان فرعون دهرياً لم يعتقد وجوب إستناد الممكنات إلى الواجب ويزعم أنه من كان سلطاناً متغلباً كان إلهاً مستحقاً للعبادة، قال البغوي قال أهل التفسير جمع هامان العملة والفعلة حتى إجتمع خمسون ألف بناء سوى الأتباع والأجراء ومن يطبخ الآجر والجص ومن ينجر الخشب ويضرب المسامير فرفعوه وشيدوه حتى ارتفع إرتفاعاً لم يبلغه بنيان أحد من الخلق أراد الله عزَّ وجلَّ أن يفتنهم فيه، فلمَّا فرغوا منه ارتقى فرعون وقومه فأمر بشأنه فرمى بها في السماء فردت إليه وهي متلطخة دماً فقال قد قتلت إله موسى وكان فرعون يصعده على البرازين، فبعث الله جبرئيل حين غروب الشمس فضربه بجناحه وقطعه ثلاث قطع فوقعت قطعة منها على عسكر فرعون فقتلت منهم ألف ألف رجل ووقعت قطعة في البحر وقطعة في المغرب ولم يبق من عمل بشيء إلا هلك.

﴿وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ أي بغير الإستحقاق فإن الإستكبار بالحق لمن لا يكون فوقه كبير ولا مثله ولا دونه وما هو إلا الله سبحانه خالق كل ما سواه فهو المتكبر على الحقيقة المبالغ في الكبرياء ومن ثم قال الله تعالى: «الكبرياء ردائي والعظمة إزاري فمن نازعني في واحد منهما قذفته في النار»[1].

رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه بسند صحيح عن أبي هريرة وابن ماجه عن ابن عباس ورواه الحاكم بسند صحيح عن أبي هريرة بلفظ «الكبرياء دائي فمن نازعني في ردائي قصمته» ورواه سمويه عن أبي سعيد وأبي هريرة بلفظ «الكبرياء ردائي والعزُّ إزاري فمن نازعني في شيء منهما عذبته» ﴿وظنوا أنهم إلينا لا يرجعون﴾ قرأ نافع ويعقوب وحمزة والكسائي بفتح الياء وكسر الجيم على البناء للفاعل من المجرد والباقون بضم الياء وفتح الجيم على البناء للمفعول من الإرجاع ﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ﴾ أي ألقيناهم

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب: اللباس، باب: ما جاء في الكبر (٤٠٨٥)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب: الزهد، باب: البراءة من الكبر والتواضع (٤١٧٤).

﴿فِي ٱلۡيَمِّۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ إحذر قومك عن مثلها ﴿وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةً﴾ قدوة لأهل الضلال بالحمل على الإضلال أو قدوة ورؤساء في الدنيا بإعطاء المال والجاه ﴿يَدۡعُونَ﴾ الناس ﴿إِلَى ٱلنَّارِۖ﴾ إلى موجباتها من الكفر والمعاصي جملة يدعون صفة لأئمة ﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾ يعني لا يدفع أحد عنهم عذاب الله تعالى عطف على يدعون ﴿وأتبعناهم في هذه الدنيا لعنة﴾ طرداً عن الرحمة أو لعن اللاعنين يلعنهم الله والملائكة والمؤمنون عطف على جعلنا ﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ متعلق بمقبوحين ﴿هُم مِّنَ ٱلۡمَقۡبُوحِينَ﴾ أي المبعدين الملعونين، قال أبو عبيدة من المهلكين، وعن ابن عباس من المشبوهين لسواد الوجه وزرقة العين يقال قبحه الله وكذا يقال شوهه الله إذا جعله قبيحاً ويقال قبحه قبحاً وقبوحاً إذا أبعده من كل خير.

﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَهۡلَكۡنَا ٱلۡقُرُونَ ٱلۡأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لَّعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلۡغَرۡبِيِّ إِذۡ قَضَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلۡأَمۡرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَٰكِنَّآ أَنشَأۡنَا قُرُونٗا فَتَطَاوَلَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡعُمُرُۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيٗا فِيٓ أَهۡلِ مَدۡيَنَ تَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذۡ نَادَيۡنَا وَلَٰكِن رَّحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٖ مِّن قَبۡلِكَ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوۡلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوۡلَآ أَرۡسَلۡتَ إِلَيۡنَا رَسُولٗا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٤٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ مِنۡ عِندِنَا قَالُواْ لَوۡلَآ أُوتِيَ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ مُوسَىٰٓۚ أَوَلَمۡ يَكۡفُرُواْ بِمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبۡلُۖ قَالُواْ سِحۡرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓاْ إِنَّا بِكُلّٖ كَٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾ قُلۡ فَأۡتُواْ بِكِتَٰبٖ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهۡدَىٰ مِنۡهُمَآ أَتَّبِعۡهُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِن لَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهۡوَآءَهُمۡۚ وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيۡرِ هُدٗى مِّنَ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾﴾.

﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ﴾ التوارة جواب قسم محذوف ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَهۡلَكۡنَا﴾ ما مصدرية ﴿ٱلۡقُرُونَ ٱلۡأُولَىٰ﴾ قوم نوح وهود وصالح ولوط وغيرهم ﴿بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ﴾ حال من الكتاب أي حال كونه موجباً للبصائر جمع بصيرة وهي نور في القلوب يبصر به قلوبهم حقائق الأشياء من الواجب والممكن على ما هي عليه بقدر الطاقة البشرية ويميز الحق من الباطل والرشد من الغي.

﴿وَهُدٗى﴾ يهتدوا به إلى طريق النجاة وما فيه صلاح المعاش والمعاد ﴿وَرَحۡمَةٗ﴾ أي

حال كون الكتاب سبيلاً لنيل رحمة الله إن جعلوا بها أو حال كونه مقتضًى لرحمة الله الأزلية عليهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أي لكي يتذكروا أو يكونوا على حال يرجى منهم التذكر فإن التذكر والخشية من ثمرات العلم ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾[١].

﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ﴾ من مقام موسى وهو الطور، قال قتادة والسدي أي بجانب الجبل الغربي، وقال الكلبي بجانب الوادي الغربي عنوا أنه ليس من باب إضافة الصفة إلى الموصوف بل الموصوف محذوف، قال ابن عباس يريد حيث ناجى موسى ربه والخطاب لرسول الله ﷺ يعني ما كنت يا محمد حاضراً ﴿إِذْ قَضَيْنَآ﴾ أي أوحينا ﴿إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ﴾ بالرسالة إلى فرعون وقومه ﴿وما كنت من الشاهدين﴾ للوحي إليه أو على الوحي إليه وهم السبعون الذين اختارهم من قومه لميقات ربه، يعني إخبارك بقصة موسى إخبار بالغيب لا يمكن الإطلاع عليه إلا بالوحي فهو معجزة لك وبرهان على دعواك النبوة ولذلك استدرك بقوله ﴿وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا﴾ أي رجالاً مقارنين في كل عصر أو أهل قرون بحذف المضاف إن كان القرن بمعنى الزمان ﴿فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ﴾ يعني ولكنا أوحينا إليك لبعد الفترة واندراس العلوم وتغير الشرائع والإضطراب والتعارض في الإخبار لما أنا أنشأنا قروناً مختلفة بعد موسى فتطاولت عليهم المدد ووقع التكاذب والتخالف فيما بينهم فحذف المستدرك وأقيم سببه مقامه، وقال البغوي إن الله قد عهد إلى موسى وقومه عهوداً في محمد ﷺ والإيمان به فلما طال عليهم العمر وخلقت القرون بعد القرون نسوا تلك العهود وتركوا الوفاء بها، فمعنى الآية ما كنت حاضراً عهدنا إلى موسى في أمرك ولم يكن ذلك باستدعائك ولكنا فعلنا ذلك تفضلاً إبتدائياً حسماً لاعتذار من خالفك إذاً نشأنا قروناً فتطاول عليهم نظيره قوله تعالى: ﴿وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم﴾ إلى قوله: ﴿أن تقولوا إنا كنا عن هذا غافلين﴾[٢] ﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا﴾، أي مقيماً ﴿فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ كمقام موسى وشعيب فيهم ﴿تتلوا عليهم آياتنا﴾ تذكرهم بالوعد والوعيد خبر ثان لكنت أو حال من الضمير في ثاوياً قال مقاتل يعني لم تشهد في أهل مدين فتقرأ على أهل مكة خبرهم ﴿وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ إياك إلى أهل مكة وسائر الناس بالمعجزات وإخبار المغيبات ولولا ذلك لما تلوت قصص على هؤلاء ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ﴾ أي بناحية الجبل الذي علم الله عليه موسى ﴿إِذْ نَادَيْنَا﴾ موسى أن خذ الكتاب بقوة فالمراد بهذا وقت إعطائه التوراة وبالأول وقت استنبائه، وقال وهب قال موسى يا رب أرني محمداً ﷺ قال

---

(١) سورة فاطر، الآية: ٢٨.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٧٢.

إنك لن تصل إلى ذلك وإن شئتَ ناديتُ أمته وأسمعتُك صوتهم قال نعم يا رب قال الله تعالى يا أمة محمد فأجابوا من أصلاب آبائهم. وقال أبو زرعة بن عمرو بن جرير نادى يا أمة محمد قد أجبتكم قبل أن تدعوني وأعطيتكم قبل أن تسألوني، وروى عن ابن عباس قال الله تعالى يا أمة محمد فأجابوا من أصلاب الآباء وأرحام الأمهات لبيك اللّهم لبيك إن الحمد والنعمة لك والملك لك لا شريك لك قال الله تعالى يا أمة أحمد إن رحمتي سبقت غضبي وعفوي عقابي قد أعطيتكم من قبل أن تسألوني وقد أجبتُكم من قبل أن تدعوني وقد غفرتُ لكم من قبل أن تعصوني من جاء يوم القيامة بشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبدي ورسولي دخل الجنة وإن كان ذنوبه أكثر من زبد البحر ﴿وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ أي لكن رحمناك رحمةً من ربك بإرسالك والوحي إليك وإطلاعك على المغيبات أو أرسلناك أو علمناك رحمة من ربك (لتنذر) متعلق بمحذوف وهو الفعل الناصب لقوله تعالى رحمة يعني رحمناك وأرسلناك وعلمناك لتنذر (قوماً ما أتاهم) صفة لقوم ﴿مِّن نَّذِيرٍ﴾ فاعل أتاهم بزيادة من ﴿مِّن قَبْلِكَ﴾ والمراد بالقوم أهل مكة لم يبعث نبي بمكة بعد إسماعيل عليه السلام وكانت دعوة موسى وعيسى وغيرهما في بني إسرائيل ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أي لكي يتذكروا ويتعظوا متعلق بقوله لتنذر ﴿ولولا أن تصيبهم مصيبة﴾ أي عقوبة ونقمة ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ أي بسبب ما أتوا به من الكفر والمعاصي ولما كان أكثر الأعمال بتزاول الأيدي نسبت الأعمال إلى الأيدي تغليباً وإن كان بعضها من أفعال القلوب ﴿فَيَقُولُوا﴾ منصوب لكونه معطوفاً على تُصيبهم والعطف بالفاء للسببية المنبهة بأن يكون سبباً لانتفاء ما يجاب به لولا الامتناعية وإنه لا يصدر عنهم هذا القول إلا بعدما أصابهم العقوبة ﴿رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ﴾ منصوب في جواب لولا التحضيضية تشبيهاً له بالأمر تقديره هلا كان منك إرسال رسول إلينا فاتباعاً منا ﴿ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ﴾ عطف على نتبع ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وجواب لولا الإمتناعية محذوفة والمعنى لولا قولهم إذا أصابتهم عقوبة بسبب كفرهم ومعاصيهم ربنا هلا أرسلت إلينا رسولاً يبلغنا آياتك فنتبعها ونكون من المصدقين لما بعثناك إليهم رسولاً وعاقبناهم بكفرهم من غير إنذار سابق على العقاب ولكن بعثناك إليهم قطعاً لاعتذارهم وإلزاماً للحجة عليهم نظير قوله تعالى: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾(١) ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ﴾ يعني القرآن أو محمداً ﷺ رسولاً مصدقاً بالكتاب المعجز ﴿مِنْ عِندِنَا قَالُوا﴾ يعني كفار مكة تعنتاً وإقتراحاً ﴿لَوْلَا﴾

(١) سورة النساء، الآية: ١٦٥.

هلا ﴿أُوتِيَ﴾ محمد ﷺ ﴿مثل ما أوتي موسى﴾ من الآيات كالعصا واليد البيضاء أو الكتاب جملة واحدة، وهذه الجملة معطوفة على مضمون جملة سابقة ولكن بعثناك إليهم قطعاً لاعتذارهم وإلزاماً للحجة فلما جاءهم الحق إلخ ﴿أولم يكفروا بما أوتي موسى من قبل﴾ القرآن الإستفهام للإنكار وإنكار النفي إثبات والواو للعطف على محذوف تقديره ألم يكذبوا موسى أولم يكفروا بما أوتي موسى يعني قد كذبوا موسى وكفروا بما أوتي موسى من قبل هذا فكيف يطلبون منك مثل ما أوتي موسى يعني أن أبناء جنسهم في الرأي والمذهب وهم كفرة زمان موسى كفروا بما أوتي موسى، وقال الكلبي لما دعا النبيّ ﷺ أهل مكة إلى الإسلام بعثوا رجالاً إلى أحبار اليهود بالمدينة فسألوهم عن أمر محمد ﷺ فأخبروهم أن نعته في كتابهم التوراة فرجعوا فأخبروهم بقول اليهود فكفروا يعني أهل مكة بموسى وبما أوتي به ﴿قَالُوا۟﴾ كذا قرأ أهل الحجاز والبصرة والشام على وزن اسم الفاعل يعنون محمداً وموسى صلّى الله عليهما وسلم، وقرأ الكوفيون سِحْران بكسر السين وإسكان الحاء على المصدر على حذف المضاف أو جعلهما سحرين مبالغةً أو عنوا بالسحرين التوراة والفرقان وعلى قول غير الكلبي قالوا يعني كفرة زمان موسى ساحران يعنون موسى وهارون ﴿تَظَٰهَرَا﴾ أي تعاوناً يعني محمد أو موسى بتوافق الكتابين أو موسى وهارون ﴿وَقَالُوٓا۟﴾ أي كفار مكة أوكفار من موسى ﴿إِنَّا بِكُلٍّ﴾ أي بكل منهما أو بكل واحد من الأنبياء ﴿كَٰفِرُونَ﴾ والظاهر قول الكلبي على ما يقتضيه السياق وبدليل قوله تعالى.

﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿فَأْتُوا۟﴾ يا أهل مكة والفاء في جواب شرط مقدر يعني إن كفرتم بالكتابين القرآن والتوراة وقلتم أنهما سحران فأتوا ﴿بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ﴾ أي مما أوتي محمد وموسى من القرآن والتوراة وإضمارهما لدلالة المعنى ﴿أَتَّبِعْهُ﴾ مجزوم في جواب الأمر يعني إن تأتوا بأهدى منهما أتبعه ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في دعواكم إنهما ساحران ومن جاءا بهما ساحران وجواب الشرط محذوف دلّ عليه ما قبله أعني فأتوا وهذا من الشروط التي يراد بها الإلزام والتبكيت ومجيىء حرف الشك للتهكم بهم ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ﴾ دعاءك إلى الإتيان بالكتاب الأهدى حذف المفعول للعلم به ولأن فعل الإستجابة يعدى بنفسه إلى الدعاء وباللام إلى الداعي فإذا عدى إليه حذف الدعاء غالباً والمعنى أنه إن لم يأتوا بكتاب أهدى ﴿فَٱعْلَمْ﴾ أنهم ألزموا ولم يبق لهم حجة و ﴿أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ﴾ إذ لو اتبعوا حجةً لأتوا بها عند الحاجة إليها ﴿وَمَنْ أَضَلُّ﴾ يعني لا أحد أضل ﴿مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ﴾ في موضع حال للتوكيد أو التقييد فإن هوى

النفس قد يوافق الحق إذا كمل إيمان المرء قال رسول الله ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئتُ به»[(١)] رواه البغوي في شرح السنة عن عبد الله بن عمرو وقال النووي حديث صحيح ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الذين ظلموا أنفسهم بالانهماك في اتباع الهوى.

﴿۞ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ وَقَالُوٓا۟ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ﴾ قال الفراء يعني أنزلنا آيات القرآن يتبع بعضها بعضاً، قال البيضاوي يعني في الإنزال ليتصل التذكير أو في النظم ليتقرر الدعوة بالحجة والمواعظ بالمواعيد والنصائح بالعبر، قال في المدارك التوصيل تكثير الوصل وتكريره، وقال ابن عباس معناه بيّنا، قلتُ: يعني بيّن بعض الكتاب ببعض، وقال قتادة وصّل لهم القول في هذا القرآن كيف صنع بمن مضى، وقال ابن زيد وصّلنا لهم خبر الدنيا بخبر الآخرة حتى كأنهم عاينوا الآخرة في الدنيا ﴿لعلهم يتذكرون﴾ أي لكي يتذكروا متعلق بوصلنا.

أخرج ابن جرير والطبراني عن رفاعة القرظي قال نزلت ﴿ولقد وصلنا لهم القول﴾ في عشرة أنا أحدهم، وأخرج ابن جرير عن علي بن رفاعة قال خرج عشرة رهط من أهل

---

(١) أخرجه الحكيم وأبو نصر السجري في الإبانة وقال: حسن غريب، ورواه الخطيب عن ابن عمرو. انظر كنز العمال (١٠٨٤).

الكتاب منهم رفاعة يعني أباه إلى النبيّ ﷺ فآمنوا فأوذوا فنزلت ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ﴾ أي من قبل محمد ﷺ وقيل من قبل القرآن ﴿هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾ أخرج ابن جرير عن قتادة قال كنا نحدث أنهانزلت في أناس من أهل الكتاب كانوا على الحق حتى بعث الله محمداً ﷺ فآمنوا به منهم عثمان وعبد الله بن سلام وكذا ذكر البغوي وكذا أخرج ابن مردويه عن ابن عباس، وأخرج الطبراني في الأوسط عن ابن عباس أن أربعين من أصحاب النجاشي قدموا فشهدوا وقعة خيبر فكانت فيهم جراحات ولم يقتل منهم فلمَّا رأوا ما بالمؤمنين من الحاجة قالوا يا رسول الله إنَّا أهل ميسرة فأئذن لنانجيء بأموالنا نواسي بها المسلمين فأنزل الله فيهم ﴿الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون﴾ وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير قال لما أتى جعفر وأصحابه والنجاشي أنزلهم وأحسن إليهم فلما أرادوا أن يرجعوا قال من آمن من أهل مملكته ائذن لنا فلنخدم هؤلاء في البحر ونأتي هذا النبي فنحدث به عهداً فانطلقوا وقدموا على رسول الله ﷺ فشهدوا معه أحداً وحنيناً وخيبر ولم يصب أحد منهم، فقالوا للنبي ﷺ ائذن لنا فلنأت أرضنا فإن لنا أموالاً فنجيء بها فننفقها على المهاجرين فإنَّا نرى بهم جهداً فأذن لهم فانطلقوا فجاءوا بأموالهم وأنفقوها على المهاجرين فأنزل الله فيهم الآية، وذكر البغوي عن سعيد بن جبير نحوه قال فأنزل الله فيهم (الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون) إلى قوله: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ وذكر البغوي عن ابن عباس إن الآية نزلت في ثمانين من أهل الكتاب أربعون من نجران وإثنان وثلاثون من الحبشة وثمانية من الشام. ثم وصفهم الله تعالى فقال ﴿وَإِذَا يُتْلَىٰ﴾ يعني القرآن ﴿عَلَيْهِمْ﴾ الظرف متعلق بقوله: ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ﴾ أي بأنه كلام الله عطف على يؤمنون ﴿إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ﴾ استئناف لما أوجب إيمانه ﴿إنا كنا من قبله﴾ أي من قبل نزوله ﴿مُسْلِمِينَ﴾ مخلصين لله في التوحيد مؤمنين بمحمد ﷺ أنه نبي وذلك لما بشر به عيسى عليه السلام حيث قال ﴿مبشراً برسولٍ يأتي من بعدي اسمه أحمد﴾[1] وكان ذكره في التوراة والإنجيل. وهذا استئناف آخر للدلالة على أن إيمانهم به ليس مما أحدثوه حينئذ وإنما هو أمر تقادم عهده وجاز أن يكون هذه الجملة بيان لقوله: ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا﴾ فإنه يحتمل البعيد والقريب وبهذه الآية حمل على البعيد وأندفع احتمال القريب.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ﴾ مرة على إيمانهم بكتابهم وبالقرآن قبل نزوله بشهادة نبيهم وكتابهم ومرةً على إيمانهم بالقرآن بعد نزوله ﴿بِمَا صَبَرُواْ﴾ أي بصبرهم وبقائهم على

---

(١) سورة الصف، الآية: ٦.

الإيمان بالقرآن بعد نزوله كما كان قبل نزوله بخلاف غيرهم من أهل الكتاب الذين كانوا يؤمنون به قبل نزوله ويستفتحون به على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به حسداً ولم يصبروا على الإيمان.

روى الشيخان في الصحيحين عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة لهم أجران رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بمحمد والعبد المملوك إذا أدى حق الله وحق مواليه ورجل كانت عنده أمة يطأها فأدّبها فأحسن تأديبها وعلمها فأحسن تعليمها ثم أعتقها فتزوجها فله أجران»[1] ﴿ويدرؤون بالحسنة السيئة﴾ قال ابن عباس يدفعون بشهادة أن لا إله إلا الله الشرك، وقال مقاتل يدفعون ما سمعوا من الأذى والشتم من المشركين بالصفح والعفو، قلت: وجاز أن يقال يدفعون عداوة من عاداهم بالإحسان إليهم ﴿فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾[2] وقيل معناه يدفعون بالطاعة المعصية قال الله تعالى: ﴿إن الحسنات يذهبن السيآت﴾[3] وقال رسول الله ﷺ: «أتبع الحسنة السيئة تمحها»[4] ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ في سبيل الخير ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ﴾ أي القبيح من القول ﴿أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ قال البغوي كان المشركون يسبون مؤمني أهل الكتاب ويقولون تباً لكم تركتم دينكم فيعرضون عنهم ولا يردون عليهم ﴿وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ﴾ أي لنا ديننا ولكم دينكم ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾ ليس المراد التحيّة ولكنه سلام المتاركة معناه سلمتم منا لا نردكم بالشتم والقبيح ﴿لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ أي لا نطلب دين الجاهلين ولا نحب دينكم الذي أنتم عليه قيل معناه لا نطلب صحبة الجاهلين، وقيل معناه لا نريد أن نكون من الجاهلين يعنون أنه إن صدر منا شتمكم وسبّكم في مقابلة ما صدر منكم شتمنا فنكون حينئذ مثلكم ونحن لا نريد ذلك نعوذ بالله أن نكون من الجاهلين والجملة الشرطية أعني ﴿إذا سمعوا اللغو﴾ إلى آخره معطوف على قوله: ﴿وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ قال البغوي وهذا كان قبل أن يؤمر المسلمون بالقتال، قلتُ: وهذا القول من البغوي لا يطابق ما ذكر من سبب نزول الآية فإن الآية نزلت إمّا في عبد الله بن سلام وأصحابه وكان إسلامهم بعد الهجرة، وإما في أصحاب النجاشي حين قدموا مع جعفر بن أبي طالب

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: العلم، باب: تعليم الرجل أمته وأهله (٩٧)، وأخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ إلى جمع الناس (١٥٤).

(٢) سورة فصلت، الآية: ٣٤.

(٣) سورة هود، الآية: ١١٤.

(٤) أخرجه الترمذي في كتاب: البر والصلة، باب: ما جاء في معاشرة الناس (١٩٩٣).

وذلك في غزوة خيبر سنة ست من الهجرة، وإما في أربعين من أهل نجران وثمانية من أهل الشام وكل ذلك كان بعد الهجرة بعدما أمرنا بالقتال والله أعلم.

أخرج مسلم وغيره عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ لعمه أبي طالب «قل لا إله إلا الله أشهد لك يوم القيامة، قال لولا تعيرني نساء قريش يقلن أنه حمله على ذلك الجزع لأقررتُ بها عينك فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾(١) هدايته أو من أحببته لقرابته ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ هدايته ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ قال مجاهد ومقاتل بمن قدر له الهدى وأخرج النسائي وابن عساكر في تاريخ دمشق بسند جيد عن أبي سعيد بن رافع قال سألتُ ابن عمر عن هذه الآية ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ في أبي جهل وأبي طالب قال نعم. وأخرج الشيخان والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقي من حديث سعيد بن المسيب عن أبيه قال حضرت أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله ﷺ فوجد عنده أبا جهل وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة، فقال أي عم قل لا إله إلا الله كلمة أحاجّ لك بها عند الله، فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية أترغب عن ملة عبد المطلب فلم يزل رسول الله ﷺ يعرضها عليه ويعيدانه بتلك المقالة حتى قال أبو طالب آخر ما كلمهم على ملة عبد المطلب وأبى أن يقول لا إله إلا الله قال رسول الله ﷺ: «لأستغفرن لك ما لم أنه عنك» فأنزل الله ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ الآية وأنزل الله في أبي طالب ﴿إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء﴾(٢).

أخرج ابن جرير من طريق العوفي عن ابن عباس أن أناساً من قريش قالوا للنبي ﷺ إن نتبعك يتخطفنا الناس فأنزل الله ﴿وَقَالُوٓا۟﴾ يعني أهل مكة عطف على ﴿قالوا لولا أوتى مثل ما أوتى موسى﴾ وما بينها اعتراضات ﴿إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ﴾ قال البغوي نزلت في الحارث بن عثمان بن نوفل بن عبد مناف أنه قال للنبي ﷺ إنا لنعلم أن الّذي تقول حق والكنا إن اتبعناك خفنا أن تخرجنا العرب من أرض مكة وهو معنى قوله: ﴿نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ﴾ كذا أخرج النسائي وابن المنذر عن ابن عباس وأخرج النسائي عن

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: الدليل على صحة إسلام من حضره الموت ما لم يشرع في النزع (٢٥)، وأخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: سورة القصص (٣١٨٨).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، باب: ﴿إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء﴾ (٤٧٧٢)، وأخرجه النسائي في كتاب: الجنائز، باب: النهي عن الاستغفار للمشركين (٢٠٢٦).

ابن عباس أن الحارث بن عامر بن نوفل الذي قال ذلك، والاختطاف الانتزاع بسرعة فرد الله عليهم ذلك وقال ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ﴾ الاستفهام للإنكار والواو للعطف على محذوف تقديره ألم نسكنهم بمكة ولم نمكن لهم ﴿حَرَمًا ءَامِنًا﴾ وذلك أن العرب في الجاهلية كان يغير بعضهم على بعض ويقتل بعضهم بعضاً وكان أهل مكة آمنون حيث كانوا لحرمة الحرم ومن المعروف أنه كان يأمن فيه الظباء من الذئاب والحمام من الحدأة ﴿يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ﴾ قرأ نافع ويعقوب بالتاء الفوقانية لأجل الثمرات والباقون بالياء التحتانية للحائل بين الاسم المؤنث والفعل ولأن التأنيث غير حقيقي أي يجلب ويجمع إليه ﴿ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من كل جانب ﴿رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾ فإذا كان هذا حالهم وهم عبدة الأوثان فكيف يعرضهم للتخويف والتخطف إذا ضموا إلى حرمة البيت حمة التوحيد ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ﴾ جهلة ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ لا يتفطنون له ولا يتفكرون ليعلموا وقيل إنه متعلق بقوله: ﴿مِّن لَّدُنَّا﴾ أي قليل منهم يتدبرون فيعلمون أن ذلك رزق من عند الله إذ لو علموا لما خافوا غيره، وانتصاب رزقاً على المصدر من معنى يجبى فإن معناه يرزق رزقاً أو على الحال من الثمرات لتخصيصها بالإضافة ثم بيَّن أن الأمر بالعكس فإن الواجب أن يخافوا من بأس الله على ما هو عليه من الكفر والمعاصي بقوله ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ﴾ أي من أهل قرية كانت حالهم كحالكم ﴿بَطِرَتْ﴾ أي أشرت وطغت وصفت القرية بوصف أهلها يعني طغى بنعم الله ولم يشكروها، قال عطاء عاشوا في البطر فأكلوا رزق الله وعصوه وعبدوا الأصنام ﴿مَعِيشَتَهَا﴾ منصوب على الظرفية يعني طغت مدة معيشتها فدمَّر الله وخرَّب ديارهم ﴿فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ﴾ خربة وهي حجر وقرى قوم لوط تعليل لما سبق من إهلاك القرى ﴿لَمْ تُسْكَن﴾ حال من مساكنهم والعامل فيه معنى الإشارة ﴿مِّنۢ بَعْدِهِمْ﴾ أي بعدما أهلكوا ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ منصوب على المصدرية أو الظرفية يعني إلا سكونا قليلاً أو زماناً قليلاً، قال ابن عباس لم يسكنها إلا مسافر أو مار طريقاً يوماً أو ساعةً، وقيل معناه لم يبق من يسكنها إلا قليلاً من شؤم معاصيهم ﴿وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ إذ لم يخلفهم أحد يتصرف بصرفهم في ديارهم وسائر متصرفاتهم ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ﴾ أي لم يكن عادته إهلاك ﴿ٱلْقُرَىٰ﴾ الكافر ﴿حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا﴾ يعني أكبرها وأعظمها ﴿رَسُولًا﴾ ينذرهم خص الأعاظم ببعثة الرسل فيها لأن الرسل يبعث إلى الأشراف فإن الأتباع يتبعهم في الإيمان والكفر، ومن أجل ذلك كتب رسول الله ﷺ إلى هرقل: «أسلم تسلم وإلا فعليك إثم الأريسيين» والأشراف يسكنون المدائن والمواضع التي هي أم ما حولها ﴿يتلوا عليهم آياتنا﴾ قال مقاتل يخبرهم أن العذاب نازل بهم إن لم يؤمنوا فيه التفات من الغيبة إلى الخطاب ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى

﴿ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ﴾ بتكذيب الرسل والعتو بالكفر ﴿وما أوتيتم من شيء﴾ من زخارف الدنيا ﴿فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا﴾ تتمتعون وتتزينون بها مدة حياتكم المنقضية ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ من الجنة ومراتب قربه تعالى: ﴿خَيْرٌ﴾ في نفسه من ذلك لأنه لذة خالصة وبهجة كاملة ﴿وَأَبْقَىٰٓ﴾ لأنه أبدي ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ الاستفهام للإنكار والفاء للعطف والتعقيب على محذوف تقديره ألا تتفكرون فلا تعقلون ﴿أفمن وعدناه﴾ عطف على قوله ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ والهمزة لإنكار تعقيب المعطوف للمعطوف عليه يعني أبعد هذا التفاوت الجلي جعلتم ﴿أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ۖ تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ وَقِيلَ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۚ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿٦٦﴾ فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾﴾ ﴿وَعْدًا حَسَنًا﴾ أي بالجنة فإن حسن الوعد بحسن الموعود ﴿فَهُوَ لَٰقِيهِ﴾ أي مدركه لا محالة لامتناع الخلف في وعد الله سبحانه ولذلك عطف بالفاء المفيدة للسببية ﴿كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ المشوب بالآلام المكدر بالمتاعب المستعقب للتحسر على الانقطاع ﴿ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾ للحساب أو العذاب وثم للتراخي في الزمان أو الرتبة قرأ نافع وابن عامر في رواية والكسائي ثم هو بسكون الهاء تشبيهاً للمنفصل بالمتصل قال قتادة يعني المؤمن والكافر لا يستويان بل المؤمن أحسن حالاً، قال البغوي وكذا أخرج ابن جرير أنه قال مجاهد نزلت في النبيّ ﷺ وأبي جهل. وأخرج من وجه آخر عنه أنها نزلت في حمزة وأبي جهل، وقال البغوي قال مقاتل ومحمد بن كعب نزلت في حمزة أو عليّ وفي أبي جهل، وقيل نزلت في عمار ووليد بن المغيرة ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ عطف على يوم القيامة أو منصوب باذكر ﴿فَيَقُولُ﴾ الله سبحانه للمشركين ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ أي تزعمونهم في الدنيا شركائي حذف مفعولي تزعمون لدلالة الكلام عليه قلت لعل المراد بالشركاء رؤساء الكفرة الذين ترك الأتباع عبادة الله واختاروا عبادتهم واتباعهم وتسميتهم شركاء على سبيل الإستهزاء ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ﴾ أي وجب ﴿عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ﴾

لوجوب مقتضاه والمراد بالقول: ﴿لأملأن جهنم من الجنة والناس اجمعين﴾[١] وغيره من آيات الوعيد يعني قال رؤساء الكفار ﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ﴾ أي الاتباع مبتدأ خبره ﴿ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ﴾ الضمير المنصوب العائد إلى الموصول محذوف ويعني أغويناهم ﴿أَغْوَيْنَٰهُمْ﴾ فغووا ﴿كَمَا غَوَيْنَا﴾ الكاف صفة لمصدر فعل محذوف دل عليه أغويناهم تقديره فغووا غياً كما غوينا أي مثل ما غوينا وهو استئناف للدلالة على أنهم غووا باختيارهم مثل ما غوينا باختيارنا وإنا لم نفعل بهم إلا وسوسةً وتسويلاً وتسويلنا وإن كان داعياً لهم إلى الكفر فقد كان دعاء الله تعالى لهم بإقامة الحجج وبعث الرسل وإنزال الكتب أولي بالإتباع من تسويلنا وهذا كقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ﴾[٢] الآية ويجوز أن يكون الموصول صفة وأغويناهم الخبر لأجل ما أتصل به من المقدر والملفوظ أعني فغووا كما غوينا فأفاد زيادة على الصفة وهو وإن كان فضلة لكنه صار من اللوازم ﴿تَبَرَّأْنَآ﴾ منهم ومما اختاروا من الكفر هوًى منهم ﴿إِلَيْكَ﴾ متعلق بتبرأنا بتضمين معنى التوجه يعني تبرأنا منهم متوجهين إليك ﴿مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾ أي ما كانوا يعبدوننا بل كانوا يعبدون أهواءهم وقيل ما مصدرية متصلة بتبرأنا أي تبرأنا من عبادتهم إيانا ﴿وَقِيلَ﴾ يعني للكفار عطف على ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ﴾ ﴿ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ﴾ لتخلصكم من العذاب والمراد بالشركاء هاهنا الأصنام ونحوها المعبودون بالباطل ﴿فَدَعَوْهُمْ﴾ من فرط الحيرة أو لأجل ما كانوا يزعمون أنهم يشفعون عند الله ﴿فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ﴾ لعجزهم عن الإجابة والنصرة ﴿وَرَأَوُاْ﴾ يعني الكفار ﴿ٱلْعَذَابَ﴾ لأنفسهم ولآلهتهم ﴿لَوْ أَنَّهُمْ كَانُواْ يَهْتَدُونَ﴾ جواب لو محذوف تقديره لو أنهم يهتدون في الدنيا لم يروا العذاب والأظهر أن لو للتمني أي تمنوا أنهم كانوا مهتدين ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾﴾ عطف على الأول فإنه تعالى يسألهم أولاً سؤال توبيخ عن إشراكهم وثانياً عن تكذيبهم الرسل ﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ﴾ أي فصارت الأنباء عليهم كالعميان لا يهتدي إليهم وأصله فعموا عن الأنباء لكنه عكس مبالغةً ودلالةً على أن ما يحضر الدهر إنما يغيض ويرد عليه من خارج فإذا أخطأه لم يكن حيلة إلى استحضاره والمراد بالأنباء الأعذار في تكذيب الرسل، وقال مجاهد الحجج والمعنى أنهم لا يحييون بشيء ولا يأتون بحجة أم لم يكن عندهم حجة ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ تأكيد لقوله ﴿يوم يناديهم﴾ قال البيضاوي وإذا كانت الرسل في الجواب عن مثل ذلك من الهول ويفوضون إلى علم الله تعالى فما ظنك بالكفار، وتعدية الفعل بعلى لتضمنه معنى الخفاء ﴿فَهُمْ لَا

(١) سورة هود، الآية: ١١٩.
(٢) سورة إبراهيم، الآية: ٢٢.

﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾ أي لا يسأل بعضهم بعضاً عن الجواب لفرط الدهشة أو العلم بأنه مثله ﴿فَأَمَّا مَن تَابَ﴾ من الشرك ﴿وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ أي جمع بين الإيمان والعمل الصالح ﴿فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ﴾ عند الله وعسى تحقيق على عادة الكرام أو ترجي من التائب والمعنى فليتوقع الفلاح.

﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾ من يشاء لما يشاء فاختار محمداً ﷺ للنبوة من بين سائر الناس، قال البغوي نزلت جواباً للمشركين حين قالوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾[١] يعنون الوليد بن المغيرة وعروة بن مسعود الثقفي ﴿مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ الخيرة إسم من الاختيار قائم مقام المصدر ويطلق بمعنى المفعول أيضاً يقال محمد خيرة الله من خلقه، ومعنى الآية ليس للعباد الاختيار في ذلك حتى يقولوا لولا أرسل إلينا فلان فهذا بمنزلة التأكيد فما سبق ولذلك خلا من العاطف ويؤيده سياق القصة أنها نزلت جواباً لما قال المشركون ويناسبه قوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ أي تنزيهاً له أن ينازعه أحد أو يزاحم اختياره اختيار غيره ﴿وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي عن إشراكهم أو مشاركة ما يشركونه به، وقيل ما في قوله: ﴿مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ موصولة في محل النصب على المفعولية ليختاروا العائد محذوف والمعنى ربك يختار ما كان لهم أي للعباد فيه الخيرة أي الخير والصلاح يعني كان إرسال محمد ﷺ لهم خيراً دون إرسال غيره، وعلى هذا التأويل مع ما فيه من التكلف لا حجة للمعتزلة على وجوب الأصلح على الله تعالى بل المراد أنه يفعل مفضلاً ما هو خير لهم غالباً وقيل ما كان لهم الخيرة نفي لاختيار العباد رأساً ودليل على كون العباد مجبورين في أفعالهم وهذا أيضاً باطل إذ لو كان المراد ذلك لنكر الخيرة ولم يورد بلام العهد المشير إلى اختيار معين وهو اختيار الرسل كما يدل عليه سبب النزول ﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ﴾ كعداوة الرسول وحقده ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ كالطعن فيه ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ﴾ المستحق للعبادة ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ لا يستحقها غيره تقرير لما سبق ﴿لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ لأنه الجميل على الإطلاق وجمال غيره مستعار منه هو المولى للنعم كلها عاجلها وآجلها يحمده المؤمنون في الآخرة كما حمدوه في الدنيا يقولون ﴿الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن﴾[٢] ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ﴾[٣] إبتهاجاً بفضله والتذاذاً بحمده لأجل التكليف ﴿وَلَهُ ٱلْحُكْمُ﴾ القضاء النافذ في

(١) سورة الزخرف، الآية: ٣١. (٢) سورة فاطر، الآية: ٣٤.
(٣) سورة الزمر، الآية: ٧٤.

كل شيء، قال ابن عباس حكمه لأهل طاعته بالمغفرة ولأهل معصيته بالشقاء ﴿وَإِلَيْهِ﴾ أي إلى حكمه ﴿تُرْجَعُونَ﴾ بالنشور بعد الموت ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾أخبروني يا أهل مكة ﴿إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا﴾ أي دائماً من السرود وهو المبالغة والميم زائدة ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ لا تطلع عليكم الشمس ﴿مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ﴾ تطلبون فيه المعيشة ومن الاستفهام للإنكار والمعنى لا إله غير الله يأتيكم به، قال البيضاوي كان حقه هل إله فذكر بمن على زعمهم أن غيره آلهة ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ موعظتي سماع تدبر واستبصار ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا﴾ بإسكان الشمس في وسط السماء ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ﴾ إستراحة عن تعب الأشغال ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ آياتنا ولعله لم يصف الضياء بما يقابل السكون لأن الضوء نعمة بذاته مقصودة بنفسه ولا كذلك الليل ولأن منافع اليوم وأكثر من أن يذكروا، لذلك قرن به أفلا تسمعون وبالليل أفلا تبصرون لأن استفادة العقل من السمع أكثر من استفادته من البصر ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ﴾ من للسببية متعلق بجعل لكم قدم عليه للحصر ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ﴾ أي في الليل ﴿وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ أي من منافع الدنيا والآخرة في النهار فهو لف ونشر مرتب، وقال الزجاج يجوز أن يكون معناه لتسكنوا فيهما ولتبتغوا من فضله فيهما قلتُ وعلى هذا إنما ذكر بالليل والنهار ولم يقل وجعل لكم الزمان لتغاير أنحاء السكون والابتغاء فيهما ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي لكي تشكروا على نعماء الله تعالى ﴿ويوم يناديهم فيقول أين شركائي الذين كنتم تزعمون﴾ أنهم يشفعون لكم وينجوكم من عذاب الله تقريع بعد تقريع للإشعار بأنه لا شيء أجلب لغضب الله من الإشراك به وكان الأول توبيخ على ابتاعهم رؤساءهم وترك عبادة الله بإتباعهم وهذا بيان لفساد رأيهم ورجائهم الشفاعة من الحجارة ونحوها ﴿وَنَزَعْنَا﴾ أي أخرجنا عطف على يقول على سبيل الإلتفات أو إعتراض ﴿مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ يشهد عليهم بما كانوا عليه وهو نبيهم ﴿فَقُلْنَا هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ﴾ أي حجتكم على صحة ما كنتم تدينون به ﴿فَعَلِمُوٓا۟﴾ حينئذ ﴿أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ﴾ في الألوهية لا يشاركه فيها أحد ﴿وَضَلَّ عَنْهُم﴾ غاب عنهم غيبة الضائع ﴿مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ في الدنيا من الباطل.

﴿۞ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ

إِلَيْكَۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِي ٱلْأَرْضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ
عِندِيٓۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًاۚ
وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِي زِينَتِهِۦۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ
ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ
وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًاۚ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا
بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾
وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْاْ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ
وَيَقْدِرُۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَاۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ﴾ قال البغوي كان ابن عمه لأنه كان قارون بن يصهر بن قاهت بن لاوى بن يعقوب عليه السلام وموسى بن عمران بن قاهت بن لاوى بن يعقوب عليهما السلام كذا أخرج ابن المنذر عن ابن جريج. وقال ابن إسحاق كان قارون عم موسى كان أخا عمران وهما ابنا يصهر بن قاهت ولم يكن في بني إسرائيل أقرأ للتوراة من قارون ولكنه نافق كما نافق السامري، وقال جلال الدين المحلي كان ابن عمه وابن خالته ﴿فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْۖ﴾ قيل كان عاملاً لفرعون على بني إسرائيل فكان يبغي عليهم أي يظلمهم، وقال الضحاك بغى عليهم بالشرك، وقيل بغى عليهم بالكبر والعلو وقيل معناه حسدهم وطلب الفضل عليهم، وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن قتادة قال كان قارون ابن عم موسى أخي أبيه وكان قطع البحر مع بني إسرائيل وكان يسمى بمن حسن صوته بالتوراة لكن عدو الله نافق كما نافق السامريّ فأهلكه الله لبغيّه إنما بغى الكثرة ماله ولده لكن قوله تعالى في سورة المؤمن ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُواْ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾﴾[1] يدل على أن قارون لم يؤمن بموسى قط لا ظاهراً ولا باطناً، قال شهر بن حوشب زاد قارون في طول ثيابه شبراً عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «لا ينظر الله إلى من جرثوبه خيلاء» رواه البغوي، وروى مسلم عن أبي هريرة عنه ﷺ: «إن الله لا ينظر إلى من يجر رداءه بطراً»[2] وروى أحمد

---

(١) سورة غافر، الآية: ٢٣ ـ ٢٤.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب: اللباس والزينة، باب: تحريم جر الثوب خيلاء وبيان ما يجوز إرخاؤه إليه وما يستحب (٢٠٨٧).

والنسائي بسند صحيح عن ابن عباس مرفوعاً قال: «إن الله لا ينظر إلى مسبل بإزاره»(١) ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ﴾ أي الأموال المدخرة ﴿مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ﴾ أي مفاتح صناديقه جمع مفتح بكسر الميم وهي التي يفتح بها وهذا قول قتادة ومجاهد وجماعة، وقيل مفاتحه أي خزائنه كما قال الله تعالى ﴿وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو﴾(٢) أي خزائنه، وقياس واحدها الفتح، لكن على هذا التأويل قوله تعالى: ﴿لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ﴾ لا يدل على كثرة خزائنه غاية الكثرة فإن ما يحمله أربعون من الرجال لا يبلغ غالباً أربع مائة ألف درهم، وقال جرير عن منصور عن خيثمة قال وجدت في الإنجيل مفاتح خزائن قارون وقرستين بغلاً ما يزيد مفتاح منها على أصبع لكل مفتاح كنز، ويقال إن قارون أين ما ذهب يحمل معه مفاتيح كنوزه وكانت من حديد فلمّا ثقلت عليه جعل من خشب فثقلت عليه فجعلت من جلود البقر على طول أصبع وكانت تحمل معه إذا ركب على أربعين بغلاً وهذه الروايات لا يساعدها القرآن إذ العصبة لا يطلق إلا على الرجال دون البغال، قال البغوي واختلفوا في العصبة قال مجاهد ما بين العشرة إلى خمسة عشر، وقال الضحاك عن ابن عباس ما بين الثلاثة إلى العشرة وقال قتادة ما بين العشرة إلى الأربعين وكذا في القاموس وقيل سبعون، وروي عن ابن عباس أنه قال كان يحمل مفاتحه أربعون رجلاً أقوى ما يكون من الرجال. ومعنى قوله ﴿لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ﴾ أي تنتقلهم وتميل بهم إذا حملوها لثقلها، وقال أبو عبيدة هذا من المقلوب تقديره ما أن العصبة لتنوء بها يقال ناء فلان بكذا إذا نهض به مثقلاً والجملة خبر إن وهي مع جملتها صلة ما وهي ثاني مفعولي آتيناه ومن الكنوز حال مقدم عليه ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ﴾ ظرف لتنوء ﴿لَا تَفْرَحْ﴾ الفرح السرور وانكشاف الصدر بوجدان المرغوب والفرح المنهي عنه هو البطر بمعنى الطغيان والتكبر عن قبول الحق عندما يرى نفسه غنياً قال الله تعالى: ﴿إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى﴾(٣) في القاموس الفرح السرور والنظر وفسر البغوي لا تفرح بقوله لا تبطر ولا تأشر ولا تمرح وإنما ذلك لأن الفرح بمعنى السرور عند وجدان المرغوب أمر طبعي لا اختيار للعبد فيه فلا يتصور عنه النهي، وقال البيضاوي والفرح بالدنيا مذموم مطلقاً لأنه يحبسه حبها والرضاء بها والذهول عن ذهابها فإن العلم بأن ما فيها من اللذات مفارقة لا محالة توجب التبرج وذلك قال الله تعالى: ﴿لا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم﴾(٤) وعلل النهي هاهنا بكونه

---

(١) أخرجه النسائي في كتاب: الزينة، باب: إسبال الإزار (٥٣٣١).

(٢) سورة الأنعام، الآية: ٥٩. (٣) سورة العلق، الآية: ٦ ـ ٧.

(٤) سورة الحديد، الآية: ٢٣.

مانعاً من محبة الله إيانا فقال ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾ بزخارف الدنيا المتكبرين بها غير شاكرين عليها، قال بعض المحققين قد ورد ذم الفرح في مواضع عديدة من القرآن، قال الله تعالى: ﴿ولما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم﴾[١] وقال ﴿وَفَرِحُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾[٢] وقال ﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾[٣] وقال ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ﴾[٤] ولم يرخص في الفرح إلا في قوله تعالى: ﴿فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ﴾[٥] وقوله: ﴿ويؤمئذ يفرح المؤمنون بنصر الله﴾[٦] وعندي أن الفرح في الدنيا بما يفيد في الآخرة محمود مطلقاً ومأمور به في قوله تعالى: ﴿فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ﴾ والفرح بلذّات الدنيا إن كان مقروناً بالشكر فمحمود أيضاً حيث قال رسول الله ﷺ: «الطاعم الشاكر كالصائم الصابر»[٧] والفرح إن كان مقروناً بالطغيان والكفران فمذموم حقّاً فالمدح والذم إنما يتوجه إلى ما يتعلق به الفرح أوما معه من الشكر أو الكفران وأما نفس الفرح والسرور بدرك المرغوب فأمر طبعي لا اختيار للعبد فيه فلا يتوجه إليه التكليف غير أنه إذا أحب العبد الله صادقاً لا يفرح إلا بما يرضى به ربه فلا يتوجه إليه من يحبه فلا يحب الله من يفرح بمرغوبه من حيث و مرغوبه لا من حيث هو مرغوب ربه والله أعلم.

﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ من نعماء الدنيا ﴿ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ﴾ يعني الجنة بأن تقوم بشكرها وتنفقها في مرضاة الله ﴿وَلَا تَنسَ﴾ أي لا تترك ترك المنسي ﴿نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾ يعني ما تحصل بها آخرتك فإن حقيقة نصيب الإنسان من الدنيا أن يعمل للآخرة فإن الدنيا مزرعة الآخرة كذا قال مجاهد وابن زيد، وقال السدي نصيبك من الدنيا الصدقة وصلة الرحم، وقال علي رضي الله عنه لا تنس صحتك وقوتك وشبابك وغناك أن تطلب الآخرة، قال قال رسول الله ﷺ: «أغتنم خمساً قبل خمس حياتك قبل موتك وصحتك قبل سقمك وفراغك قبل شغلك وشبابك قبل هرمك وغناك قبل فقرك» رواه الحاكم والبيهقي بسند صحيح وأحمد في الزهد وروى البغوي وابن حبان وأبو نعيم في الحلية عن عمر بن ميمون الأودي مرسلاً نحوه، وقال الحسن أمر أن يقدم الفضل ويمسك ما يغنيه يعني ما يكفيه وقال منصور بن ناذان ﴿لا تنس نصيبك من الدنيا قوتك وقوة أهلك وأحسن

---

(١) سورة غافر، الآية: ٨٣.
(٢) سورة الرعد، الآية: ٢٦.
(٣) سورة غافر، الآية: ٧٥.
(٤) سورة الأنعام، الآية: ٤٤.
(٥) سورة يونس، الآية: ٥٨.
(٦) سورة الروم، الآية: ٤ ـ ٥.
(٧) أخرجه الترمذي في كتاب: صفة القيامة والرقاق والورع (٢٤٨٦).

إلى عباد الله كما أحسن الله إليك﴾ أو أحسن عبادة الله بدوام الذكر والشكر والطاعة ﴿كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ بإنعام متواتر غير منقطع بحيث لا تعد ولا تحصى ﴿وَلَا تَبْغِ﴾ أي لا تطلب ﴿ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ قال البيضاوي نهي له مما كان عليه من الظلم والبغي، وقال البغوي كل من عصى الله فقد طلب الفساد في الأرض ﴿إن الله لا يحب المفسدين﴾ بسور أعمالهم.

﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ الظرف منصوب على الحال من الضمير المرفوع ﴿عِندِىٓ﴾ قرأ نافع وابن كثير بخلاف عنه وأبو عمرو بفتح الياء والباقون بإسكانها ظرف مستقر صفة لعلم أو لغو متعلق بأوتيته كقولك هذا عندي أي في ظني واعتقادي ويه رد لقولهم ﴿أحسن كما أحسن الله إليك﴾ يعني لم يحسن إليَّ الله من غير استحقاق مني تفضلاً محضاً حتى يجب عليَّ شكره والإحسان إلى عباده بل أوتيتُ الجاه والمال والتفوق على الناس حال كوني على علم كائن عندي أو في اعتقادي، قيل المراد به علم الكيميا، قال سعيد بن المسيب كان موسى يعلم الكيميا فعلَّم يوشع بن نون ثُلث ذلك العلم وعلّم كالب بن يوقنّا ثلثه وعلّم قارون ثُلثه فخدعهما قارون حتى أضاف علمهما إلى علمه وكان ذلك سبب أمواله. وقيل ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ بالصرف في التجارات والزراعات وأنواع المكاسب، قال سهل ما نظر أحد إلى نفسه فأفلح والسعيد من صرف بصره عن أفعاله وأقواله وفتح له سبيل رؤية منة الله في جميع الأفعال والأقوال والشقي من زين في عينيه أقواله وأفعاله وأحواله فافتخر بها وادعاها لنفسه فسوف يهلك يوماً كما خسف بقارون لما ادعى لنفسه فضلاً ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ﴾ جملة معترضة والاستفهام للتعجب والتوبيخ والواو للعطف على محذوف تقديره ألم يتفكر قارون ولم يعلم ﴿أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾ ولوعلم ذلك لما اغتر بماله ولم يتكبر ولو علم أن الله هو المهلك فهو المعطي وهو المانع لا إله غيره ولا استحقاق لأحد عليه وفيه رد لادعائه العلم وتعظمه به بنفي هذا العلم الجلي فإن الله قد أهلك عاداً الأولى وكان أشد منه قوة وأكثر جمعًا فإن شداد بن عاد ملك الأرض كلها ﴿وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ فإنه تعالى مطلع عليها لا يحتاج إلى السؤال والإستعلام فيعاقبهم في الدنيا بإهلاك وفي الآخرة بإدخال النار، لما هدد الله قارون بذكر إهلاك من كان قبله ممن كانوا أقوى منه وأغنى أكد ذلك بأنه لم يكن ذلك ما يخصهم بل الله مطلع على ذنوب المجرمين كلهم متقدميهم ومتأخريهم معاقبهم عليها لا محالة، قال قتادة يدخلون النار بغير سؤال ولا حساب، وقال مجاهد يعني لا يسأل الملائكة عنهم لأنهم يعرفونهم بسيماهم، وقال الحسن لا يسألون

سؤال إستعلام بل يسألون تقريع وتوبيخ ﴿فَخَرَجَ﴾ قارون يوماً عطف على قال ﴿عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦٓ﴾ قال إبراهيم النخعي خرج هو وقومه في ثياب خضر وحمر وقال ابن زيد خرج في سبعين ألف عليهم المعصفرات، وقال مجاهد خرج على براذين بيض عليها سروج الأرجوان عليهم المعصفرات، وقال مقاتل خرج على بغلة شهباء عليها سروج من ذهب عليه الأرجوان ومعه أربعة آلاف فارس عليهم وعلى دوابهم الأرجوان ومعه ثلاث مائة جارية بيض عليهن الحلي والثياب الحمر على البغال الشهب ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ على ما هو عادة الناس في الرغبة في الدنيا ﴿يَـٰلَيْتَ﴾ يعني يا قوم ليت ﴿لنا مثل ما أوتي قارون﴾ تمنوا مثله لا عينه حذراً من الحسد وذلك لما كان بنوا إسرائيل مؤمنين إنه ﴿لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ من الدنيا تعليل للتمني ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ بما وعد الله للمؤمنين في الآخرة للذين تمنوا كذا قال مقاتل، وقال ابن عباس هم الأحبار من بني إسرائيل ﴿وَيْلَكُمْ﴾ الويل مصدر بمعنى الهلاك منصوب على المصدرية يعني هلكتم هلاكاً أو على المفعولية تقديره ألزمكم الله هلاكاً فهو في الأصل دعاء استعمل للزجر عما لا يرتضى ﴿ثَوَابُ ٱللَّهِ﴾ في الآخرة ﴿خَيْرٌ﴾ مما أوتي قارون بل من الدنيا وما فيها ﴿لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا ۚ﴾ متعلق خير أو بثواب الله يعني ثواب الله لمن آمن خير أو متعلق بقال الذين اوتوا العلم يعني قالوا ذلك لمن آمن ﴿وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّـٰبِرُونَ﴾ كلام مستأنف أو حال من من الضمير في خير والضمير للكلمة التي تكلم بها الأحبار أو للثواب فإنه بمعنى المثوبة وللجنة أو للإيمان والعمل الصالح فإنهما في معنى السيرة والطريقة يعني لا يتأتى تلك الكلمة أو الثواب أو الجنة أو السيرة إلا الصابرون على الطاعات وعن المعاصي الزاهدون في الدنيا ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ﴾ أي أعوان يفيء إليهم الرجل عند المصيبة الفاء للتعليل ﴿يَنصُرُونَهُۥ﴾ فيدفعون عنه عذاب الله ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ﴾ أي الممتنعين مما نزل به من الخسف يقال نصره من عدوه فانتصر إذا منعه فامتنع عطف على فما كان، قال أهل العلم بالأخبار كان قارون أعلم بني إسرائيل بعد موسى وهارون وأقرأهم للتوراة وأجملهم وأغناهم وكان حسن الصوت فبغى وطغى وكان أول طغيانه وعصيانه أن الله أوحى إلى موسى أن يأمر قومه يعلّقوا في أرديتهم خيوطاً أربعة في كل طرف خيطاً أخضر كلون السماء يذكرون به السماء إذا نظروا إليها ويعلمون أنه منزل منها كلامي فقال موسى يا رب أفلا تأمرهم أن يجعلوا أرديتهم خضراً كلها فإن بني إسرائيل تحقر هذه الخيوط فقال له ربه يا موسى إن الصغير من أمري ليس بصغير فإذا هم لم يطيعوني في الأمر الصغير لم يطيعوني في الأمر الكبير، فدعاهم موسى وقال إن الله

يأمركم أن تعلقوا على أرديتكم خيوطاً خضراً كلون السماء لكي تذكروا ربكم إذا رأيتموها ففعلت بنوا إسرائيل ما أمرهم به موسى واستكبر قارون فلم يطعه وقال يفعل هذه الأرباب بعبيدهم لكي يتميزوا عن غيرهم وهذا بدء عصيانه وبغيه فلمَّا قطع موسى ببني إسرائيل البحر جعل الحبورة لهارون وهي رئاسة الذبح فكان بنوا إسرائيل يأتون بهديهم إلى هارون فيضعه على المذبح فتنزل نار من السماء فتأكله فوجد قارون من ذلك في نفسه وأتى موسى فقال يا موسى لك الرسالة ولهارون الحبورة ولستُ في شيء من ذلك وأنا أقرأ للتوراة لا صبر لي على هذا، فقال موسى ما أنا جعلتُها في هارون بل الله جعلها له فقال قارون والله لا أصدقك حتى تريني بيانه فجمع موسى رؤساء بني إسرائيل، فقال هاتوا عصيكم فخرجها وألقاها في القبة التي كان يعبد الله فيها فجعل يحرسون عصيهم حتى أصبحوا فأصبحت عصا هارون قد اعتراها ورق أخضر فقال قارون والله ما هذا بأعجب مما تصنع من السحر، واعتزل قارون موسى بأتباعه وجعل موسى يداريه للقرابة التي بينهما وهو يؤذيه في كل وقت ولا يزيد إلا عتواً وتجبراً ومعاداةً حتى بنى داراً وجعل بابها من الذهب وضرب على جدرانها صفائح الذهب وكان الملأ من بني إسرائيل يغدون ويروحون فيطعمهم الطعام ويحدثونه ويضاحكونه.

قال ابن عباس: فلمّا نزلت الزكاة على موسى أباه قارون فصالحه عن كل ألف دينار على دينار وكل ألف درهم على درهم وعن كل ألف شاة على شاة وعن كل ألف شيء على شيء ثم رجع إلى بيته فحسبه فوجده كثيراً فلم يسمح بذلك نفسه فجمع بني إسرائيل، فقال لهم يا بني إسرائيل إن موسى قد أمركم بكل شيء فأطعمتموه وهو الآن يريد أن يأخذ أموالكم قالوا أنت كبيرنا فأمرنا بما شئت فقال آمركم أن تجيئوا بفلانة البغي فنجعل لها جُعلاً حتى تقذف موسى بنفسها فإذا فعلت ذلك خرج بنوا إسرائيل فرفضوه، فدعوها فجعل لها قارون ألف درهم وقيل ألف دينار وقيل طستاً من ذهب، وقيل قال أمولك وأخلطك بنسائي على أن تقذفي موسى بنفسك غداً إذا حضر بنوا إسرائيل فلمّا كان من الغد جمع قارون بني إسرائيل ثم أتى موسى فقال إن بني إسرائيل ينتظرون خروجك فتأمرهم وتنهاهم، فخرج إليهم موسى وهم في براح من الأرض فقام فيهم فقال يا بني إسرائيل من سرق قطعنا يده ومن افترى جلدناه ثمانين ومن زنى وليست له امرأة جلدناه مائة ومن زنى وله امرأة رجمناه حتى يموت، فقال له قارون وإن كنت أنت؟ قال وإن كنت أنا، فقال إن بني إسرائيل يزعمون أنك فجرت بفلانة، قال ادعوها فإن قالت فهو كما قالت فلما أن جاءت قال لها موسى يا فلانة أنا فعلتُ بك ما يقول هؤلاء؟ وعظم عليها

وسأل بالّذي فلق البحر لبني إسرائيل وأنزل التوراة إلا صدقت فتداركها الله تعالى فقالت في نفسها أحدث اليوم توبة أفضل من أن أوذي رسول الله، فقالت لا كذبوا ولكن جعل لي قارون جُعلاً على أن أقذفك بنفسي، فخر موسى ساجداً يبكي ويقول اللّهم إن كنتُ رسولك فاغضب لي فأوحى الله إلى موسى إني أمرتُ الأرض أن تطيعك فمرها بما شئتَ، فقال موسى يا بني إسرائيل إن الله بعثني إلى قارون كما بعثني إلى فرعون فمن معه فليلبث ومن كان معي فليعتزل فاعتزلوا فلم يبق مع قارون إلا رجلان ثم قال موسى يا أرض خذيهم فأخذت الأرض بأقدامهم، وفي رواية كان سريره وفرشه فأخذته حتى غيبت سريره ثم قال خذيهم فأخذتهم إلى الأعناق وقارون وأصحابه في كل ذلك يتضرعون يناشده قارون الله تعالى والرحم حتى أنه ناشده سبعين مرة وموسى في كل ذلك لا يلتفت إليه لشدة غضبه ثم قال يا أرض خذيهم فانطبت عليهم الأرض. وأوحى الله إلى موسى ما أغلظ قلبك له إستغاث بك سبعين مرة فلم تغثه أما وعزتي وجلالي لو استغاث بي مرة لأغثته، وفي بعض الآثار قال لا أجعل الأرض بعدك طوعاً لأحد، قال قتادة خسف به الأرض فهو يتجلجل في الأرض كل يوم قامة رجل لا يبلغ قعرها إلى يوم القيامة وأصبحت بنوا إسرائيل يتناقلون فيما بينهم أن موسى إنما دعا على قارون ليستبد بداره وبكنوزه وبأمواله فدعا الله موسى حتى خسف بداره وبكنوزه وأمواله الأرض فذلك قوله تعالى: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾﴾ ﴿وَأَصْبَحَ﴾ أي صار ﴿ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ﴾ أي منزله، ﴿بِٱلْأَمْسِ﴾ أي منذ زمان قريب ﴿يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ﴾ هذه اللفظة عند البصريين من ذي للتعجب وكأن للتشبيه ومعناه ما أشبه الأمران ﴿ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ﴾ يعني الأمران سيئان مرتبطان بمشيئة الله لا لكرامة يقتضي البسط ولا لهوان يوجب القبض. وقال الخليل وي اسم فعل للتعجب والتندم فإن القوم تندموا فقالوا متندمين على ما سلف وكان معناه أظن ذلك وأقدره كما يقول كان الفرح قد أتاك أي أظن ذلك وأقدره ـ وقال قطرب ويك بمعنى ويلك حذف منه اللام وأن منصوب بفعل مقدر تقديره ويلك اعلم أن الله يبسط ويقدره أي يوسع ويضيق، وقيل ويكأن حرف تنبيه بمنزلة ألا، وعن الحسن أنه قال كلمة إبتداء تقديره وأن الله وقال مجاهد معناه ألم تعلم، وقال قتادة ألم تر، وقال الفراء هي كلمة تقرير كقول الرجل أما ترى إلى صنع الله وإحسانه وذكر أنه سمع أعرابية تقول لزوجها أين ابنك فقال ويكانَّه وراء البيت يعني أما ترينه وراء البيت ﴿لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا﴾ فلم يعطنا ما عنينا ﴿لَخَسَفَ﴾ قرأ حفص ويعقوب بفتح الخاء والسين على البناء للفاعل والعامة بضم

الخاء وكسر السين على البناء للمفعول ﴿بِنَا﴾ كما خسف بقارون ﴿وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ لنعمة الله أو المكذبون برسله وبما وعدوا لهم من ثواب الآخرة لا يصلح هاهنا معنى ما أشبه في ويكأنه ويصلح غير ذلك من المعاني.

﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾ وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾﴾.

﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ﴾ صفة بعد صفة لتلك إشارة تعظيم كأنه قال: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ﴾ التي سمعت خبرها وبلغك وصفها ﴿نَجْعَلُهَا﴾ خبر لتلك ﴿لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ قال الكلبي ومقاتل أي استكباراً عن الإيمان وقال عطاء غلبة وقهراً على الناس وتهاوناً بهم، وقال الحسن يطلبون الشرف والعز عند ذي السلطان، وعن عليّ كرم الله وجهه أنها نزلت في أهل التواضع من الولاة وأهل القدرة يعني من كان من الولاة وأهل القدرة متواضعاً فهو لا يريد علوّاً في الأرض ﴿وَلَا فَسَادًا﴾ قال الكلبي هو الدعاء إلى عبادة غير الله، وقال عكرمة هو أخذ أموال الناس بغير حق، وقال ابن جريج ومقاتل العمل بالمعاصي ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ قال قتادة أي الجنة، قلتُ العاقبة يستعمل فيما يعقب الحسنات ويثاب عليها كما أن العقاب يستعمل فيما يعقب السيئات وتنقم بها ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾ أي عشر أضعافها إلى سبع مائة ضعف وإلى ما شاء الله ﴿ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الذين عملوا السيئات﴾ وضع المظهر موضع المضمر تهجيناً لحالهم بتكرير إسناد السيئة إليهم ﴿إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي إلاّ مثل ما كانوا يعلمون حذف المثل وأقام ما كانوا يعلمون مقامه مبالغةً في المماثلة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ يعني أوجب عليك تلاوته وتبليغه والعمل به كذا قال عطاء، وقال البغوي قال أكثر المفسرين يعني أنزل عليك القرآن ﴿لرادك إلى معاد﴾ يعني إلى مكة وقد رده يوم الفتح وإنما نكّره لأنه في ذلك اليوم له شأن ومرجعا له إعتداد

لغلبة رسول الله وقهره أعداء الله وظهور الإسلام وذل الشرك وهي رواية العوفي عن ابن عباس وهو قول مجاهد قال القتيبي معاد الرجل بلده لأنه ينصرف ثم يعود إلى بلده.

ذكر البغوي أن النبيّ ﷺ لما خرج من الغار مهاجراً إلى المدينة سار في غير الطريق مخافة الطلب فلمّا أمّن ورجع إلى الطريق نزل الجحفة بين مكة والمدينة وعرف الطريق إلى مكة اشتاق إليها فقال له جبرئيل عليه السلام أتشتاق إلى بلدك ومولدك؟ قال نعم، قال فإن الله يقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍۚ﴾ فرده الله يوم الفتح كذا أخرج ابن أبي حاتم عن الضحاك والآية نزلت بجحفة بين مكة والمدينة، وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس المعاد الموت، قلت لأنه عود إلى الحالة الأصلية قال الله تعالى: ﴿كنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم﴾[1] وقال الزهري وعكرمة يعني إلى القيامة وقيل إلى الجنة كأنه لما حكم بأن العاقبة للمتقين أكد ذلك بوعد المحسنين ووعيد المسيئين ووعده بالعاقبة الحسنى في الدارين.

ولمّا قال كفار مكة للنبي ﷺ «إنك لفي ضلال مبين» أنزل الله سبحانه ﴿قُل رَّبِّىٓ﴾ قرأ نافع وأبو عمرو وابن كثير بفتح الياء والباقون بإسكانها وروى أبو ربيعة عن قنبل وعن البزي أيضاً بالإسكان ﴿أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ﴾ وما يستحقه من الثواب والنصر يعني محمداً ﷺ من منصوب بفعل يدل عليها أعلم تقديره ربي أعلم الكائنات يعلم من جاء بالهدى ﴿وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ وما يستحقه من العذاب والإذلال يعني به المشركين وفي هذه الآية تقريراً لوعد السابق ولذا عقبه وكذا قوله ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ﴾ أي يوحى إليك ﴿ٱلْكِتَٰبُ﴾ أي القرآن ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَۖ﴾ قال الفراء الاستثناء منقطع معناه لكن ألقاه ربك رحمة منه ويجوز أن يكون الاستثناء منفصلاً مفرغاً محمولاً على المعنى كأنه قال ما ألقى إليك ربك الكتاب لشيء إلا رحمةً أي لأجل الرحمة ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ بمداراتهم والتحمل عنهم والإجابة إلى طلبهم، قال مقاتل وذلك حين دُعي إلى دين آبائه فذكّر إلى نعمه ونهاه عن مظاهرتهم على ما هم عليه ﴿ولا يصدنك﴾ يعني كفار مكة ﴿عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي عن قراءتها والعمل بها ﴿بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَۖ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ﴾ أي إلى معرفته وتوحيده وعبادته ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ بمظاهرتهم ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ هذا وما قبله يقطع أطماع المشركين عن مساعدته لهم ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ تعليل للنهي ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ يعني إلا ذاته فإن ما عداه ممكن هالك معدوم في حد

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٨.

ذاته لا شيء إلا ووجوده مستفاد مستعار منه تعالى، قيل معناه كل عمل لغو باطل إلا ما أريد به وجهه وجملة كل شيء تعليل ﴿لَهُ ٱلْحُكْمُ﴾ أي القضاء النافذ في الخلق ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ تردون في الآخرة فيجازيكم بأعمالكم.

تمت سورة القصص ويتلوه سورة العنكبوت إن شاء الله تعالى ـ ٢٨ ربيع الأول ـ سنة ١٢٠٦ هجري.

سورة العنكبوت

آياتها تسع وستون وقال الشعبي عشر آيات من أولها وهي مكيّة

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ (١) أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ (٢) وَلَقَدۡ فَتَنَّا
ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ (٣) أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ
ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسۡبِقُونَاۚ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ (٤) مَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٖۚ وَهُوَ
ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ (٥) وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفۡسِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ (٦) وَٱلَّذِينَ
ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَحۡسَنَ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ (٧)
وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حُسۡنٗاۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَآۚ إِلَيَّ
مَرۡجِعُكُمۡ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ (٨) وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدۡخِلَنَّهُمۡ فِي
ٱلصَّٰلِحِينَ (٩)﴾.

أخرج ابن أبي حاتم عن الشعبي أن ناساً كانوا بمكة قد أقروا بالإسلام فكتب إليهم أصحاب رسول الله ﷺ من المدينة أنه لا يقبل منكم إقرار بالإسلام حتى تهاجروا فخرجوا عامدين إلى المدينة فتبعهم المشركون فردوهم فنزلت فيهم ﴿الٓمٓ (١) أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ (٢)﴾ فكتبوا إليهم أنه قد أنزل فيكم كذا وكذا فقالوا نخرج فإن اتبعنا أحد قاتلنا فخرجوا فأتبعهم المشركون فقاتلوهم فمنهم من قتل ومنهم من نجا فأنزل الله فيهم ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا فُتِنُواْ﴾ الآية وأخرج أيضاً عن قتادة قال نزلت في ناس من أهل مكة خرجوا يريدون النبيّ ﷺ فعرض لهم المشركون فرجعوا فكتب إليهم إخوانهم بما نزل فيهم فخرجوا فقتل من قتل وخلص من خلص فنزل فيهم ﴿والذين هاجروا فينا لنهدينهم سبلنا﴾ الآية. وذكر البغوي عن ابن عباس قال أراد بالناس الّذين آمنوا بمكة سلمة بن هشام وعياش بن ربيعة والوليد بن الوليد وعمار بن ياسر وغيرهم، وأخرج ابن سعيد وابن جرير وابن أبي حاتم عن عبيد الله بن عمير قال نزلت في

عمار بن ياسر إذ كان يعذب في الله ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ﴾ الآية وكذا ذكر البغوي قول ابن جريج، وقال قال مقاتل نزلت في مهجع بن عبد الله مولى عمر بن الخطاب وهو أول من يدعى إلى باب الجنة من هذه الأمة. قلتُ: وهو أول من خرج من المسلمين مبارزاً يوم بدر فقتله عامر بن الحضرمي بسهم وكان أول من قتل كذا في سبيل الرشاد ولَمَّا جزع عليه أبواه وامرأته أنزل الله تعالى فيهم هذه الآية.

وقوع الاستفهام بعد ﴿الٓمٓ ۝١﴾ دليل على اسقلاله والمراد بالحسبان الظنُّ وهو متعلق بمضمون جملة للدلالة على جهة ثبوتها ولذلك يقتضي مفعولين أو ما يسدُّ مسدهما كقوله أن يتركوا والإستفهام للإنكار والتوبيخ وأن يقولوا تقديره لأن يقولوا ﴿وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ حال من فاعل يقولوا والمعنى أظنوا تركهم غير مفتونين لقولهم آمنَّا فالترك أوّل مفعوليه وغير مفتونين من تمامه ولقولهم هو الثاني كقولك حسبتُ ضربه للتأديب، أو المعنى أحسبوا أنفسهم متروكين غير مفتونين لقولهم آمنا يعني لا يحسبوا ذلك بل يمتحنهم الله بالمشاق كالمهاجرة والمجاهدة وأنواع المصائب في الأنفس والأموال والأولاد ليتميز المخلص من المنافق والثابت في الدين من المضطر فيه ولينالوا بالصبر عليها عوالي الدرجات، وذكر البغوي أن الله تعالى أمرهم في الابتداء مجرد الإيمان ثم فرض عليهم الصلاة والزكاة وسائر الشرائع فشق على بعضهم فأنزل الله هذه الآية فالمعنى أحسبوا أن يتركوا على مجرد الإيمان وهم لا يفتنون بالأوامر والنواهي فإن مجرد الإيمان وإن كان مانعاً عن الخلود في العذاب لكن نيل الدرجات يترتب على وظائف الطاعات ورفض الشهوات ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ من الأنبياء والمؤمنين فمنهم من نشر بالمناشير ومنهم من قتل وابتلي بنوا إسرائيل بفرعون يسومهم سوء العذاب، الجملة متصل بقوله أحَسَبَ أو بقوله لا يفتنون يعني ذلك سنة قديمة جارية في الأمم كلها فلا ينبغي أن يتوقع خلافه أو معترضة لتسلية المؤمنين ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟﴾ في قولهم أمنا معطوف على قوله: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا﴾ وفيه التفات من التكلم إلى الغيبة ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ الله عالم أزلاً ومعنى الآية ليتعلقن علمه حالياً يتميز به الذين صدقوا في الإيمان من الذين كذبوا فيه وينوط به ثوابهم وعقابهم، وقيل معناه ليظهرن الله الصادقين من الكاذبين حتى يوجد معلومه وقال مقاتل ليرين الله وقيل ليميز الله الخبيث من الطيب.

﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ أي الكفر والمعاصي فإن العمل يعم أفعال القلوب والجوارح ﴿أَن يَسْبِقُونَا﴾ أن يفوتنا فلا نقدر على الإنتقام منهم، وأن مع صلتها ساد مساد مفعولي حَسِبَ معطوف على أحَسِبَ وأم منقطعة بمعنى بل والهمزة والإضراب لأن هذا

الحسبان إبطال من الحسبان الأول لأن في الحسبان الأول يقدر أن لا يمتحن لإيمانه وفي هذا أن لا يجازي بمساويه وقالوا الأول في المؤمنين وهذا في الكافرين، قلتُ: وجاز أن يكون أم متصلة والإنكار ورد على أحد الحسبانين المتردد فيهما بالهمزة وأم والنكرة في حيز النفي المستفاد من الإنكار يعم فالمعنى كلا الحسبانين باطلان فلا تحسبوا أيها المؤمنون أن لا تمتحنوا بل تمتحنون بالمصائب لتنالوا الدرجات الرفيعة ولا يحسب أعداؤكم أن لا يعذبهم الله في الدنيا والآخرة بل يعذبهم الله في الدنيا بأيدي المؤمنين وفي الآخرة بعذاب من عنده والحاصل أن المؤمنين يمتحنون بالمصائب ثم يكون الغلبة لهم في آخر الأمر ﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ ما موصولة مرفوعة على الفاعلية أو موصوفة منصوبة على التميز من الضمير المبهم المرفوع والمخصوص محذوف أي بئس الذي يحكمونه حكمهم هذه أو بئس حكماً يحكمونه حكمهم هذا.

﴿من كان يرجوا لقاء الله﴾ قال ابن عباس الرجاء بمعنى الخوف أي من يخشى البعث والحساب وعذاب الله، وقال سعيد بن جبير من كان يطمع في ثواب الله، قلتُ: وجاز أن يكون المعنى من كان يرجوا رؤية الله فيستدل بهذه الآية أن رؤية الله في الدنيا غير واقع إلا ما قيل أن رسول الله ﷺ رأى ربه ليلة المعراج وكان ذلك خارجاً من الدنيا فمن ادعى رؤية الله في الدنيا برأى العين فقد كذب ﴿فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ﴾ يعني أجل لقائه يحذف المضاف ووقته الموعود له ﴿لَأَتٍ﴾ لا محالة، قال مقاتل يعني يوم القيامة لكائن فليبادر إلى ما يحقق رجاءه وينجوه عما يخاف عنه وهذا كقوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا﴾[1] ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لأقوال العباد ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بعقائدهم وأفعالهم ﴿وَمَن جَٰهَدَ﴾ أعداء الله يعني الكفار في الحرب أو نفسه في الكف عن الشهوات المنهية والترفع والصبر على الطاعات والشيطان في دفع وساوسه عطف على الشرطية السابقة ﴿فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ﴾ لأن منفعته راجعة إليها ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ لا حاجة له إلى طاعتهم وإنما كلف عبادة رحمةً عليهم ومراعاةً لمصالحهم الجملة تعليل لما سبق ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ يعني نذهب سيئاتهم بحسناتهم عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن إذا اجتنب الكبائر»[2] رواه مسلم، وقد مر في

---

(١) سورة الكهف، الآية: ١١٠.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب: الطهارة، باب: الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن ما اجتنبت الكبائر (٢٣٣).

تفسير قوله تعالى: ﴿إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم﴾[١] ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ﴾ منصوب بنزع الخافض ﴿ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي بأحسن أعمالهم وهو الطاعة يعني لا نضيعها وقيل معناه نعطهم أكثر مما عملوا عشر أمثالها إلى سبع مائة ضعف إلى ما شاء الله وقيل أحسن بمعنى حسن.

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾ الوصية التقدم إلى الغير بما يعمل به مقترناً بوعظ ﴿بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا﴾ أمرناه بإتيان فعل ذا حسن أو كان في ذاته حسن تفرط حسنه متلبساً ذلك الفعل بوالديه أي يبرهما ويعطف عليهما، وقيل معناه ووصينا الإنسان ذا حسن بأن يبرهما. أخرج مسلم والترمذي والبغوي وابن أبي حاتم وابن مردويه عن سعد بن أبي وقاص وهو سعد بن مالك أبو إسحاق الزهري أحد العشرة المبشرة رضي الله عنه كان من السابقين الأولين وكان بارّاً بأمه أنه لما أسلم قالت أمه وهي حمنة بنت أبي سفيان بن أمية بن عبد الشمس (قد أمر الله بالبر وفي رواية)، قالت ما هذا الّذي أحدثت والله لا أطعم طعاماً ولا أشرب شراباً حتى أموت أو تكفرَ، وفي رواية حتى ترجع إلى ما كنتَ عليه أو أموت فتعير بذلك أبد الدهر قاتل أمه فنزلت ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا﴾[٢] ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى﴾ بإضمار القول أي وقلنا له وإن جاهداك لتشرك بي ﴿مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ بألوهيته عبر عن نفيها بنفي علم بها إشعاراً بأن ما لا يعلم صحته لا يجوز إتباعه وإن لم يعلم بطلانه فضلاً عما علم بالأدلة لقطعية بطلانه ﴿فَلَا تُطِعْهُمَآ﴾ في ذلك قال رسول الله ﷺ: «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق» رواه أحمد والحاكم، صححه عن عمران والحكم بن عمرو الغفاري، وفي الصحيحين وسنن أبي داود النسائي عن علي رضي الله عنه «لا طاعة لأحد في معصية الله إنما الطاعة في المعروف»[٣] قال البغوي ثم إنها أي أم سعد مكثت يوماً وليلة لم تأكل ولم تشرب، وقيل لبثت ثلاثة أيام كذلك فجاء سعد وقال يا أماه لو كانت لك مائة نفس

---

(١) سورة النساء، الآية: ٣١.

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة العنكبوت (٣١٨٩)، وأخرجه مسلم في كتاب: فضائل الصحابة، باب: في فضل سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه (١٧٤٨).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: أخبار الأحاد، باب: ما جاء في إجازة خبر الواحد الصدوق في الأذان والصلاة والصوم والفرائض والأحكام (٧٢٥٧)، وأخرجه مسلم في كتاب: الإمارة، باب: وجوب طاعة الأمراء في غير معصية وتحريمها في المعصية (١٨٤٠)، وأخرجه النسائي في كتاب: البيعة، باب: جزاء من أمر بمعصية فأطاع (٤٢٠٣)، وأخرجه أبو داود في كتاب: الجهاد، باب: في الطاعة (٢٦٢٣).

فخرجت نفساً نفساً ما تركتُ ديني إن شئت كلي وإن وإن شئتِ فلا تأكلي فلمّا أيست منه أكلت وشربت ﴿إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ بالجزاء عليه ونزلت أيضاً في قصة أم سعد التي في لقمان والتي في الأحقاف ﴿والذين آمنوا وعملوا الصلحات لندخلنهم في الصالحين﴾ من الأنبياء والشهداء والأولياء أي نجعلهم في جملتهم ونحشر معهم أو في مدخلهم وهي الجنة والكمال في الصلاح منتهى درجات المؤمنين ومتمنى أنبياء الله المرسلين فإن كمال الصلاح عبادة عن عدم شيء الفساد في الإعتقاد والأعمال والأخلاق والأشغال عطف على ﴿والذين آمنوا وعملوا الصلحات لنكفرن عنهم﴾ وما بينهما اعتراض.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴿١١﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَىْءٍ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾﴾.

أخرج ابن جرير وابن المنذر عن عكرمة عن ابن عباس قال كان قوم من أهل مكة قد أسلموا وكانوا يخفون الإسلام فأخرجهم المشركون معهم يوم بدر فأصيب بعضهم فقال المسلمون هؤلاء كانوا مسلمين فأكرهوا فاستغفر لهم فنزلت ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ الآية في سورة النساء فكتبوا بها إلى من بقي بمكة منهم وأنه لا عذر لهم فخرجوا فلحقهم المشركون فردوهم فنزلت ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ عطف على ما سبق ذكر المؤمنين أولاً ثم ذكر المنافقين ﴿مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ﴾ بأن عذبهم الكفار على الإسلام ﴿جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ﴾ الأذى الذي لحقهم من الكفار ﴿كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ في الآخرة أي جزع من عذاب الناس ولم يصبر فأطاع الناس وترك الإسلام كما يترك المسلمون الكفر والمعاصي بخوف عذاب الله في الآخرة والجملة الشرطية عطف على صلة من، قال ابن عباس فكتب إليهم المسلمون بذلك فتحزّبوا فقالوا نخرج فإن اتبعنا أحد قاتلناه فنزلت ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟﴾ الآية فكتبوا بذلك فخرجوا فلحقهم فنجا من نجا وقتل من قتل، وأخرج عن قتادة أنها نزلت في القوم الذين ردهم المشركون إلى مكة

﴿وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ﴾ أي فتح وغنيمة للمؤمنين ﴿لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾ في الدين جواب قسم محذوف في اللفظ وفي المعنى جزاء للشرط وهذه الشرطية معطوفة على شرطية سابقة أعني فإذا أوذي، وقيل الآية نزلت في المنافقين ويؤيده قوله تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ الهمزة للإنكار والواو للحال والإنكار راجع إلى الحال والمعنى ليس الحال أنهم يقولون ذلك وليس الله بعالم بما في صدورهم بل الحال أن الله عالم بما ﴿فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ من الإخلاص والنفاق فيجازي المنافقين على نفاقهم أو للعطف على مضمون ما سبق يعني نافقوا ولا يخفى ذلك على الله ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ﴾ جواب قسم محذوف والجملة معترضة وعداً للمؤمنين ووعيداً للمنافقين أو معطوف على مضمون إنكار نفي علمه تعالى تأكيد له ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ مخلصين ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ فيجازي كلاً على حسب ما أضمر، قال الشعبي هذه الآيات العشر من أول السورة إلى هنا مدنية وما بعدها مكية ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ يعني كفار مكة كذا قال مجاهد ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا﴾ قال الكلبي ومقاتل قاله أبو سفيان لمن آمن من قريش إتبعوا ديننا وملة آبائنا عطف على ما سبق من ذكر المنافقين ﴿وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ﴾ أي إن كان ذاك خطيئة أو إن كان ذاك خطيئة إن كان بعث ومؤاخذة أمروا أنفسهم بالحمل عاطفين على أمرهم بالإتباع مبالغة في تعليق الحمل بالإتباع والوعد بتخفيف الأوزار عنهم تشجيعاً لهم، وقال الفراء لفظه أمر ومعناه جزاء مجازه إن اتبعتم سبيلنا حملنا خطاياكم كقوله تعالى: ﴿فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ﴾[1] ولمّا كان في كلامهم تشجيعاً على الكفر والمعاصي ردَّ الله عليهم قولهم وكذبهم بقوله تعالى: ﴿وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَىْءٍ﴾ الجملة حال من فاعل قال ﴿إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ في الإخبار بالحمل عنهم المستفاد من قولهم ولنحمل خطاياكم من الأولى للتبيين والثانية مزيدة والتقدير وما هم بحاملين شيئاً من خطاياهم ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ﴾ أي أوزار أعمالهم التي عملوا بأنفسهم جواب القسم المقدر وهو حكاية قسم لا إنشائية فهو خبرية معطوفة على ما هم بحاملين ﴿وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ لما تسببوا له بالإضلال وهو الحمل على المعاصي من غير أن ينقص من أوزار أتباعهم ﴿وليسئلن يوم القيامة﴾ سؤال تقريع وتبكيت ﴿عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ من الأباطيل التي أضلوا بها.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ

---

(١) سورة طه، الآية: ٣٩.

ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٥﴾
وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾
إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا
يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن
تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟
كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ
فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ
﴿٢٠﴾ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ
وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ
ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يَئِسُوا۟ مِن رَّحْمَتِى وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾ فَمَا كَانَ جَوَابَ
قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ
﴿٢٤﴾ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ
ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم
مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ عطف على قوله: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ وفيه إلتفات من الغيبة إلى التكلم ﴿فَلَبِثَ﴾ عطف على أرسلنا فدل على أنه بعد الإرسال لبث ﴿فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ﴾ طوفان الماء يقال لما طاف بكثرة من سيل ظلام أو نحوها طوفان يعني فغرقوا ﴿وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ بالكفر حال من مفعول أخذهم، قال ابن عباس بعث نوح لأربعين سنة وبقي في قومه يدعوهم ألف سنة إلا خمسين عاماً وعاش بعد الطوفان ستين سنة حتى كثر الناس وفشوا وكان عمره ألفاً وخمسين سنة، أخرجه ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ والحاكم وصححه وابن مردويه وذكره البغوي، وعن وهب أنه عاش الفاً وأربع مائة سنة فقال له ملك الموت يا أطول الأنبياء عمراً كيف وجدت الدنيا قال كدار لها بابان دخلت وخرجتُ ولم يقل تسع مائة وخمسين عاماً لأن اللفظ أخصر ولأن المقصود بيان طول مصابرته على مكائد أمته فكان ذكر الألف أفخم ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ﴾ يعني نوحاً ﴿وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ﴾ الذين ركبوها معه من أولاده وأتباعه وكانوا ثمانين وقيل ثمانية وسبعين، وقيل عشرة نصفهم ذكور ونصفهم إناث

وقد مر في سورة هود وسورة الأعراف تمام القصة ﴿وَجَعَلْنَـٰهَا﴾ أي السفينة أو الحادثة ﴿آية للعالمين﴾ يتعظون ويستدلون بما ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ﴾ عطف على نوح يعني وأرسلنا إبراهيم أو منصوب بإضمار اذكر ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ ظرف لأرسلنا أي أرسلناه حين كمل عقله وتم نظره بحيث عرف الحق وأمر الناس به أو بدل اشتمال منه إن قُدّر اذكر ﴿وَٱتَّقُوهُ﴾ أي خافوا واحذروا عذابه ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ مما أنتم عليه تعليل للأمر بالعبادة والتقوى ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ جزاؤه محذوف والتقدير إن كنتم تعملون الخير والشر وتتميزون بينهما أو كنتم تنظرون بنظر العلم دون نظر التعصب والجدال أو كنتم من أولي العلم والتميز لا يخفى عليكم أن ذلكم خير لكم مما أنتم عليه ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَـٰنًا﴾ حجارة لا تضر ولا تنفع ﴿وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾ منصوب على المصدر أي تكذبون كذباً أو تقولون قولاً ذا إفك، في تسميتها آلهة وإدعاء شفاعتها عند الله أو على العلية أي تخلقونها وتنحتونها للإفك أو على المفعولية على أن المعنى تخلقون شيئاً ذا إفك والجملة معترضة لبيان شناعة حالهم وكذا ما بعده أو إستدلال على شرارة ما هم عليه من حيث أنه زور وباطل ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ الأوثان وغيرها ﴿لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا﴾ دليل آخر على شرارة ذلك من حيث أنه لا يجدي نفعاً ورزقاً يحتمل المصدر أي لا يستطيعون أن يرزقوكم، ويحتمل أن يراد به المرزوق وتنكيره للتعميم والتحقير أي لا يملكون شيئاً من الرزق ﴿فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ﴾ كله فإنه المالك لا غير ﴿وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ﴾ متوسلين إلى مطالبكم مقيدين لما أعطاكم من النعم بشكره مستعدين للقائه بهما فإنه ﴿إليه ترجعون﴾ حال مقدرة من فاعل أشكروا.

﴿وَإِن تُكَذِّبُوا۟﴾ أي تكذبوني ﴿فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ﴾ رسلاً من قبلي فلم يضرهم تكذيبهم إياهم وإنما أضر أنفسهم حيث تسبب لمّا حلّ بهم من العذاب فكذا تكذيبكم ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ الذي يزيل الشك يعني لا يضره تكذيب من كذبه وليس الواجب عليه هداية الخلق إذ ليس ذلك في وسعه هذه الآية وما بعدها إلى قوله: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ﴾ جاز أن يكون من كلام إبراهيم من جملة قصته وجاز أن يكون اعتراضاً بذكر شأن النبيّ ﷺ وقريش وهدم مذهبهم والوعيد على سوء صنيعهم توسط بين طرفي القصة من حيث أن ساقها تسلية لرسول الله ﷺ بأن أباه خليل الله كان في مثل حالك من مخالفة القوم وتكذيبهم إياه ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟﴾ قرأ أبو بكر وحمزة والكسائي بالتاء الفوقانية خطاباً والباقون بالياء التحتانية غيبةً الهمزة للإنكار والواو للعطف على محذوف تقديره ألم ينظروا ولم يروا، الواو للحال والإنكار إنكار لحال عدم الرؤية عند التكذيب

تقديره فقد كذب أمم من قبلكم والحال أنهم قد رأوا ﴿كيف يبدىء الله الخلق﴾ أي كيفية بدء خلقهم قلم يعتبروا به خلقهم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة ثم يخرج طفلاً ثم يتحول أحوالاً حتى يموت ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ﴾ إلى الحياة بعد الموت معطوف على أولم يروا لا على يُبدىء فإن الرؤية غير واقعة عليه ويجوز أن يأوّل الإعادة بأن ينشىء في كل سنة مثل ما كان في السنة السابقة من النبات والثمار ونحوها فحينئذ يعطف على يبدىء ويجوز أن يعطف على يبدىء ويجعل وقوع الرؤية على ما يدل على إمكان الإعادة رؤية عليها مجازاً ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ الإعادة أو ما ذكر من الأمرين ﴿عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ إذ لا يفتقر في فعله إلى شيء ولا يتعب فيه ﴿قُلْ سِيرُوا۟﴾ حكاية خطاب من الله تعالى لإبراهيم عليه السلام بتقدير القول يعني قلنا لإبراهيم قل سيروا أو خطاب لرسول الله ﷺ ﴿فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ﴾ على إختلاف الأجناس والأحوال ﴿ثم الله ينشىء النشأة الآخرة﴾ كان القياس أن يقول ﴿فانظروا كيف بدأ الله الخلق ثم ينشىء النشأة الآخرة﴾ فغيره على هذا النمط لأن المقصود إثبات جواز الإعادة. فلمّا قررهم في الإبداء بأنه من الله إحتج بأن الإعادة مثل الإبداء فمن كان قادراً على الإبداء لا يعجزه الإعادة فكأنه قال ثم الذي أنشأ النشأة الأولى هو الذي ينشىء النشأة الآخرة فللتنبيه على هذا المعنى المعنى أبرز الله إسمه وأوقعه مبتدأ، قال بعض المحققين ثم ينشى النشأة الآخرة معطوف على محذوف مفهوم ممّا سبق تقديره قل: سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق فقد أنشأ الله النشأة الأولى ثم الله الذي أنشأ النشأة الأولى ينشى النشأة الآخرة. قرأ ابن كثير وأبو عمرو النشأة بفتح الشين ممدوداً هاهنا وفي النجم والواقعة والباقعون بإسكان الشين من غير ألف، ووقف حمزة على وجهين في ذلك أحدهما أن يلقى الحركة على الشين ثم يسقطها طرداً للقياس والثاني أن يفتح الشين ويبدّل الهمزة ألفاً إتباعاً للخط قال الداني ومثله قد يسمع من العرب ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ لأن قدرته مقتضى ونسبة ذاته إلى الممكنات بأسرها سواء فيقدر على النشأة الأخرى كقدرته على الأولى ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ تعذيبه في الآخرة بالنار وفي الدنيا بالخذلان وبالحرص أو بسوء الخلق في الآخرة وفي الدنيا بالتائيد والقناعة وحسن الخلق والإقبال على الله وإتباع السنة ﴿وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ﴾ تردون ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ ربكم عن إدراككم ﴿فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ إن فررتم من قضائه بالتواري في الأرض أو الهبوط في مهاربها أو بالتحصن في السماء أو القلاع الذاهبة فيها وجاز أن يكون ولا في السماء تقديره ولا من في السماء عطفاً على اسم ما كقول حسان:

فمن يهجو رسول الله منكم ... ويمدحه وينصره سواء

﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ يحرسكم عن بلاء يظهر في الأرض أن ينزل من السماء ويدفعه عنكم.

﴿والذين كفروا بآيات الله﴾ بدلائل وحدانيته أو بآياته المنزلة في كتبه ﴿وَلِقَآئِهِۦٓ﴾ أي بالبعث ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحْمَتِى﴾ أي ييئسون منها يوم القيامة أو المراد بالرحمة الجنة وهم آيسون في الدنيا منها لإنكارهم البعث ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ هذه إن كان من كلام إبراهيم فالتقدير قال الله: ﴿والذين كفروا بآيات الله ولقائه أولئك يئسوا من رحمتي﴾ وإن كان معترضاً من الله تعالى فمعطوف على قوله قل سيروا لا على مقولة قل ثم رجع إلى قصة إبراهيم فقال ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ﴾ عطف على أرسلنا إبراهيم ﴿إلا أن قالوا أقتلوه أو حرقوه﴾ قال ذلك بعضهم لبعض أو قاله واحد منهم وأسند الفعل إلى كلهم لرضائهم به ﴿فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ معطوف على محذوف تقديره فاتفقوا على تحريقه فقذفوه في النار فأنجاه الله منها بأن جعله برداً وسلاماً ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ الإنجاء ﴿لَءَايَٰتٍ﴾ هي حفظه من أذى النار وإخمادها مع عظمها في زمان يسير وإنشاء روض في مكانها ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ فإنهم هم المنتفعون بها.

﴿وَقَالَ﴾ إبراهيم لقومه عطف على ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ ﴿إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ﴾ مصدر بمعنى المفعول يعني مودوداً أو على تقدير المضاف أي سبب مودة قرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائي ويعقوب بالرفع مضافاً إلى ﴿بَيْنِكُمْ﴾ بالجر على أنه خبر مبتدأ محذوف أي هي مودودة أو سبب مودة بينكم يعني يود بعضكم بعضاً ويتواصلون بسبب اجتماعكم على عبادتها، والجملة صفة أوثاناً أو خبر أن على أن ما مصدرية أو موصولة والعائد محذوف وهو المفعول الأول أي إنما اتخذتوه من دون الله أوثاناً سبب للمودة منكم وقرأ حفص وحمزة مَوَدَّة مضافاً إلى بينكم منصوباً على العلمية أي لتتودوا بينكم وتتواصلوا لاجتماعكم على عبادة الأوثان واوثاناً المفعول الأول لا تخدتم ومفعوله الثاني بتقدير مضاف أو بتأويلها بالمودودة أي اتخذتم أوثاناً سبب المودة بينكم أو مودودةً، وقرأ نافع وابن عامر وأبو بكر مودَّة منونةً ناصبةً بينكم منصوباً على ما ذكرنا في قراءة حفص ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ متعلق بمودة يعني مودة بينكم تنحصر في الدنيا وتنقطع بعده ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ حين يكون الأخلاء بعضهم لبعض عدواً ﴿يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ أي يقع التناكر والتلاعن بين الكفار أو بينهم وبين الأوثان والجملة معطوفة على مقولة قال: ﴿وَمَأْوَىٰكُمُ﴾ جميعاً أيها العابدون والمعبودون ﴿النار وما لكم من ناصرين﴾ يخلصونكم منها.

﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌۘ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓاْ إِنَّا مُهْلِكُوٓاْ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًاۚ قَالُواْ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَاۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُواْ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْۖ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

﴿فآمن﴾ عطف على قال ﴿لَهُۥ﴾ أي لإبراهيم ﴿لُوطٌ﴾ لكونه معصوماً عن تكذيب الأنبياء وهو أول من صدق إبراهيم وكان ابن أخيه هاران ﴿وَقَالَ﴾ إبراهيم ﴿إِنِّى مُهَاجِرٌ﴾ من قومي ﴿إِلَىٰ رَبِّىٓ﴾ أي إلى حيث أمرني ربي أو إلى حيث يتيسّر لي هناك عبادة ربي، أو المعنى إني مهاجر من قومي معرض عنهم متوجهاً إلى ربي وهي السفر في الوطن على اصطلاح الصوفية، قال المفسرون هاجر إبراهيم من كوثى (وهو من سواد كوفة) إلى حران ثم أتى الشام ومعه لوط وامرأته سارة وهو أول من هاجر فنزل إبراهيم فلسطين ولوط السدوم، قالوا كان إبراهيم حين هاجر ابن خمس وسبعين سنة ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الذي يمنعني من أعدائي ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ الذي لا يأمرني إلا بما فيه صلاحي ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ﴾ بعد إسماعيل ﴿إِسْحَٰقَ﴾ بعدما أيس من الولادة لكبر سنه وكبر إمرأته وكونها عاقراً ﴿وَيَعْقُوبَ﴾ ولد الولد نافلةً ﴿وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ﴾ أي إبراهيم ﴿ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾ من التوراة والإنجيل والزبور والفرقان ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ﴾ على هجرته إلينا ﴿فِى ٱلدُّنْيَا﴾، بإعطاء الولد في غير أوانه والذرية الطيّبة كذا قال السديُّ واستمرار النبوة فيهم وانتماء أهل الملل إليه والثناء والصلاة عليه إلى آخر الدهر كذا قالوا، قلتُ لعل أجره في الدنيا اللذة في الذكر والفكر والعبادة لله فوق ما يستلذون بها أهل الدنيا من المستلذات الحسنة نظيره قوله تعالى:

﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾(١) ﴿وَإِنَّهُۥ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّٰلِحِينَ﴾ أي في عداد الكاملين في الصلاح عطف على ﴿آتيناه أجره في الدنيا﴾ وغير الأسلوب من الفعلية إلى الإسمية للدلالة على استمرار الآخرة دون الدنيا ﴿وَلُوطًا﴾ عطف على إبراهيم ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ﴾ قرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي بالهمزتين على الإستفهام للإنكار والتوبيخ والباقون بهمزة واحدة على الخير ﴿لَتَأْتُونَ﴾ جواب قسم محذوف ﴿الْفَٰحِشَةَ﴾ الفعلة البالغة في القبح ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَٰلَمِينَ﴾ هذه الجملة صفة للفاحشة على طريقة ولقد أمر على اللئيم يسبني، أو حال أو مستأنفة لكونه فاحشة ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ﴾ بيان للفاحشة ﴿وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ﴾ وذلك أنهم كانوا يفعلون الفاحشة بمن مرَّ بهم من المسافرين فترك الناس الممرَّ بهم، وقيل معناه تقطعون سبيل النساء بايثار الرجال على النساء ﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ﴾، أي في مجالسكم ولا يقال النادي، إلا لما فيه أهله، روى البغوي عن أبي صالح مولى أم هانىء بنت أبي طالب رضي الله عنها قالت سألت رسول الله ﷺ عن قوله تعالى: ﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ﴾ قلت ما المنكر الذي كانوا يأتون؟ قال كانوا يحذفون أهل الطرق ويسخرون بهم»(٢) رواه أحمد والترمذي وغيرهما، قوله يحذفون أهل الطريق أي يرمونهم بالبنادق، قال البغوي ويروى أنهم كانوا يجلسون في مجالسهم عند كل رجل منهم قصعة فيها حصى فإذا مر بهم عابر سبيل قيل خذوهم فأيُّهم أصابه فهو أولى به، وقيل كان يأخذ ما معه وينكحه ويغرنه ثلاثة دراهم ولهم قاض بذلك، وقال القاسم بن محمد كانوا يتضارطون في مجالسهم، وقال مجاهد كان يجاهد بعضهم بعضاً في مجالسهم، وعن عبد الله بن سلام كان يبزق بعضهم على بعض، وعن مكحول قال كان من أخلاق قوم لوط مضغ العلك وتطريف الأصابع بالحناء وحل الإزار والصفير والحذف واللوطية ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ﴾ عطف على قال ﴿إِلَّآ أَن قَالُوا﴾ استهزاء ﴿ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين﴾ فيما أوعدتنا به من نزول العذاب أو في إستقباح تلك الأفعال أو في دعوى النبوة المفهوم من التوبيخ ﴿قَالَ﴾ لوط ﴿رَبِّ انصُرْنِى﴾ بإنزال العذاب ﴿عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ﴾ بابتداع الفاحشة واستبانها لما بعدهم، وصفهم بذلك مبالغة في استنزال العذاب وإشعاراً بأنهم أحقاء بأن يعجل لهم العذاب.

﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ﴾ بالبشارة بالولد والنافلة أعني إسحاق ويعقوب

---

(١) سورة يونس، الآية: ٦٤.

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة العنكبوت (٣١٩٠).

﴿قَالُوٓاْ إِنَّا مُهۡلِكُوٓاْ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِۖ﴾ قرية سدوم والإضافة لفظية لأن معناه الإستقبال ﴿إِنَّ أَهۡلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ﴾ تعليل لإهلاكهم بإصرارهم وتماديهم في ظلمهم الذي هو الكفر والمعاصي ﴿قَالَ﴾ إبراهيم ﴿إِنَّ فِيهَا لُوطٗاۚ﴾ إعتراض علمهم بأن فيها من لم يظلم أو معارضة للموجب بالمانع وهو كون النبي بين أظهرهم ﴿قَالُواْ﴾ أي الرسل وهم الملائكة ﴿نَحۡنُ أَعۡلَمُ﴾ منك ﴿بِمَن فِيهَاۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ﴾ قرأ حمزة والكسائي بالتخفيف من الأفعال والباقون بالتشديد من التفعيل ﴿وَأَهۡلَهُۥٓ﴾ تسليم لقوله مع إدعاء مزيد العلم وجواب عنه بتخصيص أهل القرية بمن عداه وعدى أهله أو تأقيت الإهلاك بإخراجهم عنها وفيه تأخير البيان عن الخطاب وذلك جائز وإنما لا يجوز تأخيره عن وقت الحاجة ﴿إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ كَانَتۡ﴾ في علم الله تعالى ﴿مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾ الباقين في العذاب أو في القرية تعليل للإستثناء.

﴿وَلَمَّآ أَن جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطٗا سِيٓءَ﴾ أي ألحقه المساءة والغم ﴿بِهِمۡ﴾ أي بسبب الرسل مخافة أن يقصدهم قومه بسوء وأن صلة لتأكيد الفعلين واتصالهم ﴿وَضَاقَ﴾ لوط ﴿بِهِمۡ﴾ بسبب الرسل ﴿ذَرۡعٗا﴾ تميز من النسبة والذرع الطاقة يقال فلان طويل الذراع أي شديد القوة لأن طويل الذراع ينال ما لا يناله قصيرها، والمعنى ضاق طاقته بشأنهم وتدبير أمرهم في الحفظ عن قومه ﴿وَقَالُواْ﴾ أي الرسل لما رأوا فيه أثر الغم والمساءة ﴿لَا تَخَفۡ وَلَا تَحۡزَنۡ﴾ على تمكّنهم منّا أو لا تخف تمكّنهم منا ولا تحزن بإهلاكنا إياهم ﴿إِنَّا مُنَجُّوكَ﴾ تعليل للنهي، قرأ ابن كثير وحمزة والكسائي وأبو بكر بالتخفيف من الأفعال والباقون بالتشديد من التفعيل وموضع الكاف نصب عند الكوفيين ويؤيده عطف ﴿وَأَهۡلَكَ﴾ بالنصب وعندالبصريين محل الكاف جر ونصب أَهْلَكَ بإضمار فعل أي وننجي أهلك أو بالعطف على المحل البعيد للكاف فإن الإضافة اللفظية في حكم الإنفصال وهو في الأصل منصوب ﴿إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾ ﴿إِنَّا مُنزِلُونَ﴾ قرأ ابن عامر بالتشديد من التفعيل والباقون بالتخفيف من الأفعال ﴿عَلَىٰٓ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ رِجۡزٗا﴾ أي عذاباً سمى بذلك لأنه يقلق المعذب من قولهم ارتجز إذا إرتجس أي إضطرب ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ قال مقاتل الخسف والحصب ﴿بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ﴾ ﴿وَلَقَد تَّرَكۡنَا مِنۡهَآ﴾ أي من قريات لوط ﴿ءَايَةَۢ بَيِّنَةٗ﴾ قال ابن عباس: هي آثار منازلهم الخربة، وقال قتادة هي الحجارة الممطورة التي أهلكوا بها أبقاها الله حتى أدركها أوائل هذه الأمة، وقال مجاهد هي ظهور الماء الأسود على وجه الأرض، وقيل هي حكايتها الشائعة ﴿لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ يتدبرون في الآيات تدبر ذوي العقول.

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ ۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾.

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ﴾ متعلق بمحذوف تقديره وأرسلنا إلى مدين معطوفاً على ﴿ولقد ارسلنا نوحا﴾ ﴿أخاهم شعيباً فقال يا قوم أعبدوا الله وارجوا اليوم الآخر﴾ قيل الرجاء هاهنا بمعنى الخوف يعني خافوا عذاب اليوم الآخر والمعنى افعلوا فعلاً ترجون به ثواب الآخرة فأقيم المسبب مقام السبب ﴿وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ حال مؤكدة لعاملها وجاز أن يكون الحال منتقلة والمعنى لا تفسدوا في الأرض على قصد الإفساد إحتراز عما إذا أفسدوا على قصد الإصلاح كالقتل والجرح وتخريب الديار وقطع الأشجار في حرب الكفار من أهل الحرب ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ في دعوى النبوة ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾ الزلزلة الشديدة وقيل صيحة جبرئيل لأن القلوب ترجف ﴿فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ باركين على الركب ميتين والمراد من دارهم بلدهم أو دورهم ولم يجمع للأمن من اللبس ﴿وعاداً وثمودا﴾ منصوبان بإضمار اذكروا فعل دل عليه ما قبله مثل أهلكنا معطوف على قوله: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾ قرأ حمزة وحفص ويعقوب ثمود غير منصرف على تأويل القبيلة ﴿وَقَد تَّبَيَّنَ﴾ مع ما عطف عليه جملة معترضة ﴿لَكُم﴾ يا أهل مكة ﴿مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ﴾ أي بعض مساكنهم أو المعنى قد تبين لكم إهلاكهم من مساكنهم إذا نظرتم إليها عند مروركم بها ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ من الكفر والمعاصي ﴿فَصَدَّهُمْ﴾ الشيطان ﴿عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي سبيل الّذي بيَّن لهم الرسل الموصل إلى الجنة ﴿وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ﴾ قال مقاتل وقتادة والكلبي كانوا معجبين في دينهم وضلالتهم يحسبون أنهم على الهدى، والمعنى أنهم كانوا عند أنفسهم مستبصرين، وقال الفراء كانوا عقلاء ذوي البصائر متمكنين من النظر والاستبصار لكنهم لم يفعلوا وقيل معناه كانوا مبينين أن العذاب لاحق بهم بإخبار الرسل لكنهم ألحوا حتى هلكوا ﴿وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ﴾ معطوفون على عاد قيل قدم قارون لشرف نسبه وفيه إشعار بأن الكفر والعصيان من شريف النسب أقبح ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟

فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ﴾ أي فائتين بل أدركهم أمر الله بالتعذيب من سبق طالبه إذا فاته ﴿فَكُلًّا﴾ أي كل واحدٍ منهم منصوب بقوله ﴿أَخَذْنَا﴾ أي عاقبناه ﴿بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا﴾ أي الريح التي تحمل الحصباء وهي الحصى الضعيف وهم قوم لوط ﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ﴾ ويعني ثمود ومدين ﴿وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ يعني قارون ﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا﴾ يعني قوم نوح وفرعون وقومه ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ أي يعاملهم معاملة الظالم فيعاقبهم بغير جرم إذ ليس ذلك من عادته ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ بالتعريض للعذاب.

﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ﴾ يعني مثل الكفار فيما إتخذوه معتمداً أو متكلاً من الأصنام ﴿كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ﴾ فيما ﴿ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا﴾ في الوهن والخوار بل ذاك أوهن فإن لهذا حقيقةً وانتفاعاً ما يعني مثل دينهم كمثل بيت العنكبوت، أوالمعنى مثل الكفار الذين إتخذوا من دون الله أولياء بالنسبة إلى الموحد كمثل العنكبوت بالنسبة إلى رجل بنى بيتاً من حجر وجصّ والعنكبوت يقع على الواحد والجمع والمذكر والمؤنث والتاء فيه كتاء الطاغوت ويجمع على عناكيب وعكاب وأعكب ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ﴾ لا بيت أوهن وأقل وقاية للحر والبرد منه، هذه الجملة حال أو مستأنفة ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ يرجعون إلى علم لعلموا أن هذا مثلهم وأن دينهم أوهن من ذلك ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ﴾ على إضمار القول أي قل للكفرة إن الله يعلم ﴿مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ﴾ قرأ أبو عمرو وعاصم يدعون بالياء على الغيبة حملاً على ما قبله من ذكر الأمم والباقون بالتاء للخطاب إلى كفار مكة، وما استفهامية منصوبة بيدعون فيعلم معلقة منها ومن للتبيين أو نافية ومن مزيدة وشيء مفعول يدعون والكلام تجهيل لهم وتأكيد للمثل أو مصدرية وشيء مصدر أو موصولة مفعولٌ ليعلم ومفعول يعلم عائده المحذوف والكلام وعيد لهم

﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ تعليل لما سبق فإن من فرط الغباوة إشراك ما لا يعدل شيئاً مبمن هذا شأنه وأن الجما بالإضافة إلى القادر على كل شيء البالغ في العلم وإتقان الفعل كالمعدوم وإن من هذا صفته قادر على مجازاتهم ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعۡقِلُهَآ﴾ أي ما يعقل حسن تلك الأمثال وفائدتها ﴿إِلَّا ٱلۡعَٰلِمُونَ﴾ الذين يتدبرون في الأشياء على ما ينبغي فيعقلون عن الله سبحانه، روى البغوي عن عطاء وأبي الزبير عن جابر رضي الله عنه أنه تلى هذه الآية ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعۡقِلُهَآ إِلَّا ٱلۡعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ قال العالم من عقل عن الله فعمل بطاعته واجتنب معصيته وكذا روى الثعلبي والواحدي، وروى أبو داود بن الحر في كتاب العقل من طريق الحارث بن أسامة وأورده ابن الجوزي في الموضوعات ﴿خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۚ﴾ فإن المقصود بالذات من خلقها إفاضة الخير والدلالة على ذاته وصفاته كما أشار إليه بقوله ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ الخلق ﴿لَأٓيَةٗ﴾ دالة على وجود الله تعالى وعلمة وقدرته وإرادته ووحدته وتنزهه عن المناقص ﴿لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ فإنهم هم المنتفعون بها.

﴿اتل ما أوحي إليك من الكتاب﴾ أي القرآن تقرباً إلى الله بتلاوته وتحفظاً لاتعاظه وأحكامه واعتباراً بأمثاله واستكشافاً لمعانيه فإن القارىء المتأمل قد ينكشف له بالتكرار ما لا ينكشف له أول مرة حتى يتمثل لأوامره وينتهي عن مناهيه ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ المفروضة ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ﴾ هذه الجملة تعليل للأمر بإقامة الصلاة ﴿عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ﴾ أي ما ظهر قبحه شرعاً وعقلاً ﴿وَٱلۡمُنكَرِ﴾ للانتهاء عن المعاصي من حيث أنها تذكر الله وتورث للنفس خشية، قال البغوي روي عن أنس رضي الله عنه قال كان فتًى من الأنصار يصلي الصلوات الخمس مع رسول الله ﷺ ثم لم يدع شيئاً من الفواحش إلا ركبه فوصف لرسول الله ﷺ حاله فقال رسول الله ﷺ: «إن صلاته تنهاه يوماً، فلم يلبث أن تاب وحسن حاله» وفي مسند إسحاق والبزار وأبي يعلى عن أبي هريرة قال: جاء رجل إلى النبيّ ﷺ قال: إن فلاناً يصلّي بالليل فإذا أصبح سرق قال «إن صلاته تنهاه» قال البغوي قال ابن عباس وابن مسعود في الصلاة منتهى ومزدجر عن معاصي فمن لم تأمره صلاته بالمعروف ولم تنهه عن المنكر لم يزدد صلاته من الله إلا بعداً، وقال الحسن وقتادة من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر فصلاته وبال عليه، وقيل المراد بالصلاة القرآن كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجۡهَرۡ بِصَلَاتِكَ﴾[1] يعني بالقرآن في الصلاة ولا شك أن القرآن ينهي عن الفحشاء والمنكر، روى البغوي عن

(١) سورة الإسراء، الآية: ١١٠.

جابر قال قال رجل للنبي ﷺ: إنَّ رجلا يقرأ القرآن بالليل كله فإذا أصبح سرق قال: «ستنهى قراءته» وفي رواية قيل يا رسول الله إن فلاناً يصلّي بالنهار ويسرق بالليل قال: «إن صلاته سترعه» ولذكر الله أكبر قال ابن عطاء ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ من أن يبقى معصية والمراد بذكر الله الصلاة الناهية عن الفحشاء والمنكر، وإنما عبّر عنها بالذكر للتعليل بأن اشتمالها للذكر هو السبب لكونها مفضية إلى الحسنات ناهية عن السيئات.

وقد ورد في فضل الذكر أحاديث منها حديث أبي الدرداء رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم وأرفعها في درجاتكم وخير لكم من إنفاق الذهب والورق وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم؟ قالوا بلى، قال: ذكر الله»[١] رواه مالك وأحمد والترمذي وابن ماجه إلا أن مالكاً وقفه على أبي الدرداء، وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه سئل أي العباد أفضل وأرفع درجة عند الله؟ قال «الذاكرون الله كثيراً والذاكرات، قيل يا رسول الله ومن الغازي في سبيل الله؟ فقال لو ضرب بسيفه الكفار حتى تنكسر وتخضب دماً لكان الذاكرون الله كثيراً أفضل منه درجة»[٢] رواه أحمد والترمذي وقال الترمذي حديث غريب، وعن عبد الله بن بسر قال جاء أعرابي إلى رسول الله ﷺ قال أي الناس خير؟ قال «طوبى لمن طال عمره وحسن عمله، قال يا رسول الله أي الأعمال أفضل؟ قال: أن تفارق الدنيا ولسانك رطب من ذكر الله»[٣] رواه أحمد والترمذي، وعن أبي هريرة قال: كان رسول الله ﷺ يسير في طريق مكة فمر على جبل يقال له حمدان فقال «سيروا هذا حمدان سبق المفردون، قالوا وما المفردون يا رسول الله؟ قال: الذاكرون الله كثيراً والذاكرات»[٤] رواه مسلم، وعن أبي موسى قال قال رسول الله ﷺ: «مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر ربه مثل الحي والميت»[٥] متفق عليه،

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: الدعوات (٣٣٧٧)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب: الأدب، باب: فضل الذكر (٣٧٩٠).

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: الدعوات (٣٣٧٦).

(٣) رواه الطبراني بأسانيد، ورواه البزار من غير طريقه وإسناده حسن.
انظر مجمع الزوائد في كتاب: الأذكار، باب: فضل ذكر الله فقال والإكثار منه (١٦٧٤٧).

(٤) أخرجه مسلم في كتاب: الذكر والدعاء والتوبة، باب: الحث على ذكر الله تعالى (٢٦٧٦).

(٥) أخرجه البخاري في كتاب: الدعوات، باب: فضل ذكر الله عز وجل (٦٤٠٧)، وأخرجه مسلم في كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: استحباب النازلة في بيته وجوازها في المسجد (٧٧٩).

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لله ملائكة يطوفون في الطرق يلتمسون أهل الذكر فإذا وجدوا قوماً يذكرون الله تنادوا هلموا إلى حاجتكم، قال فيحفونهم بأجنحتهم إلى السماء، قال فيسألهم ربهم (وهو أعلم بهم)، ما يقولون عبادي، قال يقولون يسبحونك ويكبرونك ويحمدونك ويمجّدونك، قال فيقول هل رأوني؟ قال فيقولون لا والله ما رأوك، قال فيقول كيف لو رأوني؟ قال يقولون لو رأوك كانوا أشد لك عبادة وأشد لك تمجيداً وأكثر لك تسبيحاً، قال فيقول فما يسألون؟ قالوا يسألونك الجنة، قال يقول هل رأوها؟ فيقولون لا والله ما رأوها، قال يقول كيف لو رأوها؟ قال يقولون لو أنهم رأوها كانوا أشد عليها حرصاً وأشد طلباً وأعظم فيها رغبةً، قال فممّ يتعوذون؟ قال يقولون من النار، قال يقول فهل رأوها؟ قال يقولون لا والله يا رب ما رأوها، قال يقول فكيف لو رأوها قال يقولون لو رأوها كانوا أشد لها فراراً وأشد لها مخافةً، قال فيقول فأشهدكم أني قد غفرتُ لهم، قال يقول ملك من الملائكة فيهم فلان ليس منهم إنما جاء لحاجة، قال هم الجلساء لا يشقى جليسهم»(١) رواه البخاري وروى مسلم نحوه وفيه، «قال يقولون رب فيهم عبد خطأ إنما مرَّ فجلس معهم قال فيقول وله غفرتُ هم القوم لا يشقى بهم جليسهم»(٢) عن أنس قال قال رسول الله ﷺ: «إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا قالوا وما رياض الجنة؟ قال حلق الذكر»(٣) رواه الترمذي، وروى مسلم من حديث معاوية أن رسول الله ﷺ خرج على حلقة من أصحابه فقال وما أجلسكم هاهنا؟ قالوا جلسنا نذكر الله ونحمده على ما هدانا للإسلام ومنَّ به علينا، قال إن الله عزَّ وجلَّ يباهي بكم الملائكة» وعن مالك قال بلغني أن رسول الله ﷺ كان يقول: «ذاكر الله في الغافلين كالمقاتل خلفه الفارين وذاكر الله في الغافلين كغصن أخضر في شجر يابس وذاكر الله في الغافلين مثل مصباح في بيت مظلم وذاكر الله في الغافلين يريه مقعده من الجنة وهو حي وذاكر الله في الغافلين يغفر له بعدد كل فصيح وأعجم من بني آدم والبهائم» رواه رزين، وعن معاذ بن جبل قال: «ما عمل آدمي عملاً أنجاله من عذاب الله من ذكر الله»(٤) رواه مالك والترمذي وابن ماجه، وعن أبي سعيد شهد على رسول الله ﷺ أنه قال: «لا يقعد

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الدعوات، باب: فضل ذكر الله عز وجل (٦٤٠٨).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب: الذكر والدعاء والتوبة، باب: فضل مجالس الذكر (٢٦٨٩).

(٣) أخرجه الترمذي في كتاب: الدعوات (٣٥١٠).

(٤) أخرجه الترمذي في كتاب: الدعوات (٣٣٧٧).

قوم يذكرون الله إلا حفتهم الملائكة وغشيتهم الرحمة ونزلت عليهم السكينة وذكرهم الله فيمن عنده»[١] رواه مسلم، وعن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه إذا ذكرني فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم»[٢] متفق عليه، وقال قوم معنى قوله تعالى: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ لذكر الله إياكم أفضل من ذكركم إياه ويروى ذلك عن ابن عباس وهو قول مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير، قال البغوي ويروى ذلك مرفوعاً عن موسى بن عقبة عن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبيّ ﷺ والمعنى أنه لا تقصروا في ذكر الله فإن ذكركم إياه يفضي إلى ذكره إياكم ولذكره إياكم أفضل من ذكركم إياه ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ لا يخفى عليه شيء كذا قال عطاء.

﴿۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُواْ بِٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٥٢﴾﴾.

﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ﴾ يعني لا تخاصموا عطف على ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي ولا تجادل أنت والمؤمنون ﴿أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى﴾ أي بالخصلة التي ﴿هِىَ أَحْسَنُ﴾ الخصال يعني بالقرآن والدعاء إلى الله بآياته والتنبيه على حججه فالمستثنى مفرغ أو المعنى إلا بالتي هي أحسن

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الذكر والدعاء والتوبة، باب: فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر (٢٦٩٩).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: التوحيد، باب: قول الله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ (٧٤٠٥)، وأخرجه مسلم في كتاب: الذكر والدعاء والتوبة، باب: الحث على ذكر الله تعالى (٢٦٧٥).

مما يفعله الكافرون يعني معارضة الخشونة باللين والغضب بالكظم والمشاغبة بالنصح فالمستثنى منقطع لأن النصح ليس بمجادلة ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ﴾ بنبذ العهد أو عدم قبول الجزية فقاتلوهم حتى يسلموا أو يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون كذا قال سعيد بن جبير أن المستثنى أهل الحرب والباقي بعد الثنيا أهل الذمة، والظاهر أنه كان الحكم بحسن المجادلة قبل الأمر بالقتال لأن الآية مكية فالمراد حينئذ بالذين ظلموا المفرطون في الإعتداء والعناد والقائلون بإثبات الولد وبأن يد الله مغلولة وبأنَّ الله فقيرٌ ونحن أغنياء فحينئذ جاز مجادلتهم بالعنف، وعلى هذا قال قتادة ومقاتل هذه الآية منسوخة بآية السيف وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم بيان لحسن المجادلة ويحتمل أن يكون المعنى ولا تجادلوا أهل الكتاب إذا أخبروا مما ذكر في كتبهم يعني لا تكذبوهم إلا الذين ظلموا منهم يعني إلا من أخبر بشيء معلوم قطعاً أنه كاذب فيه كقولهم بتأييد دين موسى أو قتل عيسى أو كون عيسى ابن الله ونحو ذلك فحينئذ يجب تكذيبه والمباهلة عليه ﴿وَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ﴾(١) ﴿وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ أي مطيعون له خاصة وفيه تعريض باتخاذهم أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «كان أهل الكتاب يقرءون التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام فقال رسول الله ﷺ: «لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إليكم»(٢) الآية، رواه البخاري، وعن أبي نملة الأنصاري أنه بينما هو جالس عند رسول الله ﷺ جاءه رجل من اليهود ومر بجنازة فقال يا محمد هل يتكلم هذا الميت؟ فقال رسول الله ﷺ لا أعلم، فقال اليهودي إنها تتكلم، فقال رسول الله ﷺ: «ما حدثكم أهل الكتاب لا تصدقوهم ولا تكذبوهم وقولوا آمنا بالله وكتبه ورسله فإن كان باطلاً لم تصدقوهم وإن كان حقاً لم تكذبوهم» ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي كما أنزلنا على من قبلك ﴿أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ وحياً مصدقاً لسائر الكتب الإلهية وهو تحقيق لقوله ﴿فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ يعني مؤمني أهل الكتاب عبد الله بن سلام وأمثاله أو المعنى الذين آتيناهم الكتاب كانوا يؤمنون به قبل مبعث النبيّ ﷺ ﴿وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ أي من أهل مكة أو من العرب أو ممن في عهد النبيّ ﷺ من الكتابيءن ﴿مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾ أي بالقرآن ﴿وما يجحد بآياتنا﴾ الإضافة للعهد يعني بآيات القرآن ﴿إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ يعني الكافرون بالله وبالكتب كلها يعني من كذب

(١) أخرجه البخاري في كتاب: التوحيد، باب: ما يجوز من تفسير التوراة وغيرها من كتب الله بالعربية وغيرها (٧٥٤٢).

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب: العلم، باب: رواية حديث أهل الكتاب (٣٦٤٠).

بالقرآن فقد كذب بالتوراة والإنجيل أيضاً لأنهما مصدقان للقرآن فتكذيبه تكذيب بهما فمن أنكر ألقرآن وأدعى الإيمان بالتوراة فدعواه باطل، قال قتادة الجحود إنما يكون بعد المعرفة عرفوا أن محمداً حق والقرآن حق فجحدوا ﴿وما كنت تتلوا﴾ يا محمد عطف على ﴿كذلك أنزلنا إليك الكتاب﴾ ﴿مِن قَبْلِهِۦ﴾ أي من قبل ما أنزل إليك الكتاب ﴿مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ﴾ ولا تكتبه ﴿بِيَمِينِكَ﴾ ذكر اليمين زيادة تصوير للمنفي ونفي للتجوز في الإسناد ﴿إِذًا﴾ يعني إذا كنت قارئاً للكتب المتقدمة كاتباً لها ﴿لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ أي الكافرون يعني أهل مكة وقالوا لعله التقطه من كتب الأقدمين كذا قال قتادة وإنما سماهم مبطلين لكفرهم أو لارتيابهم بانتفاء وجه واحد مع وجود المعجزات المتكاثرة، وقيل معناه لا إرتياب أهل الكتاب لوجدانهم نعتك في كتبهم بالأمي كذا قال مقاتل فيكون على هذا إبطالهم باعتبار الواقع دون المقدر ﴿بَلْ هُوَ﴾ أي القرآن ﴿ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ﴾ واضحة الدلالة على صدقها إضراب عما فهم فيما سبق يعني ما هذا القرآن مختلقاً من عندك ولا مخطوطاً بيمينك بل هو آيات بينات ﴿فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ يعني المؤمنين الذين حملوا القرآن يحفظونه لا يقدر أحد على تحريفه وهي من خصائص القرآن كونه آيات بينات الإعجاز وكونه محفوظاً عن التحريف والإسقاط لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾[1] وكونه محفوظاً في الصدور بخلاف سائر الكتب فإنها لم تكن معجزة فكانوا يحرفون الكلم منها عن مواضعها وما كانت تقرأ إلا من مصحف، وقال ابن عباس بل هو يعني محمداً ﷺ ذو آيات ﴿بينات في صدور الذين أوتوا العلم من أهل الكتاب﴾ لأنهم يجدون نعته ووصفه في كتبهم ﴿وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون﴾ الظلم وضع الشيء في غير موضعه يعني آياتنا معجزة واضحة الدلالة على صدقها نظماً ومعنىً فمن جحد بها بعد وضوح إعجازها فهو الظالم المكابر للحق ﴿وَقَالُوا۟﴾ عطف على ﴿قال الذين كفروا للذين آمنوا اتبعوا سبيلنا﴾ وما بينهما معترضات ﴿لَوْلَآ﴾ هلا ﴿أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ﴾ من ربه كما أنزل على الأنبياء من قبل مثل ناقة صالح وعصا موسى ومائدة عيسى قرأ نافع وابن عامر والبصريان وحفص آياتٌ على الجمع والباقون آية على التوحيد ﴿قل﴾ يا محمّد ﴿إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي في قدرته مربوطاً بإرادته لستُ أملكها فاتيكم بما تقترحون ﴿وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ ليس من شأني إلا الإنذار وإبانة بما أعطيت من الآيات ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ﴾ الهمزة للإنكار والتوبيخ والواو للحال من فاعل فعل مقدر تقديره أتطلبون منك آية والحال أنه لم يكفهم آية قوية

(١) سورة الحجر، الآية: ٩.

مغنية عما اقترحوه ﴿أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ﴾ وأنت اميٌّ ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾المعجز الجامع لأنواع العلوم الشريفة مطابقاً لما قبله من الكتب ﴿يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ يدوم تلاوته عليهم متحدين به:

لم يقترن بزمان وهي تخبرنا عن المعاد وعن عاد وعن إرم
دامت لدنيا ففاقت كل معجزة من النبيّين إذ جاءت ولم تدم

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ الكتاب الذي هواية مستمرة مبينة ﴿لَرَحْمَةً﴾ لنعمة عظيمة ﴿وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي تذكرة لمن همه الإيمان دون التعنت هذه الآية تعليل للتوبيخ، وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم والدارمي في مسنده وأبو داود في في المراسيل من طريق عمرو بن دينار عن يحيى بن جعدة مرسلاً قال جاء ناس من المسلمين بكتف كتب فيها بعض ما سمعوه من اليهود فقال النبيّ ﷺ «كفى بقوم ضلالة أن يرغبوا عما جاء به نبيهم إلى ما جاء به غيره إلى غيرهم» فنزلت ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ روي أن كعبَ بن الأشرف قال يا محمد من يشهد بأنك رسول الله فنزلت ﴿قل كفى بالله بيني وبينكم شهيداً يعلم ما في السماوات والأرض﴾ لا يخفى عليه شيء الجملة صفة لشهيداً أو تعليل لكفى ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ قال ابن عباس يعني بغير الله، وقال مقاتل يعني الذين عبدوا الشيطان ﴿وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ في تجارتهم حيث اختاروا الباطل على الحق واشتروا النار بالجنة هذه الجملة معطوفة على كفى.

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ
﴿٥٣﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٤﴾ يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ
وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ
فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟
ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ
﴿٥٨﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا
وَإِيَّاكُمْ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ
وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ
بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾﴾.

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ﴾ عطف على ﴿قالوا لولا أنزل عليه﴾ نزلت الآية حين قال

النضر بن الحارث أمطر علينا حجارة من السماء ﴿وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ قال ابن عباس يعني ما وعدتك أن لا أعذب قومك ولا أستأصلهم وأؤخر عذابهم إلى يوم القيامة كما قال ﴿بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وامر﴾(١) وقال الضحاك مدة أعمارهم لأنهم إذا ماتوا صاروا إلى العذاب وقيل يوم بدر ﴿لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ عاجلاً (وليأتينهم) العذاب وقيل الأجل ﴿بَغْتَةً﴾ فجأةً في الدنيا كوقعة بدر أو في الآخرة عند نزول الموت بهم ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بإتيانه ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ﴾ إعادة تأكيداً ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾ عطف على ﴿ليأتينهم بغتة﴾ يعني سيحيط بهم يوم يأتيهم العذاب، أو هي الآن كالمحيطة لإحاطة الكفر والمعاصي التي يوجبها لهم واللام للعهد على وضع الظاهر موضع الضمير للدلالة على موجب الإحاطة أو للجنس فيكون استدلالاً بحكم الجنس على حكمهم ﴿يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ ظرف لمحيطة أو لقدر مثل كان كيت وكيت ﴿مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ أي من جميع جوانبهم ﴿وَيَقُولُ﴾ قرأ نافع والكوفيون بالياء يعني ويقول الله أو بعض ملائكته بأمره والباقون بالنون على التكلم ﴿ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ﴾ أي جزاء ما كنتم ﴿تَعْمَلُونَ﴾ ﴿يَٰعِبَادِىَ﴾ قرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي بحذف الياء في الوصل وفتحها الباقون في الوصل أو أثبتوها ساكنه في الوقف ﴿الذين آمنوا إن أرضي﴾ قرأ ابن عامر بفتح الياء والباقون بإسكانها ﴿واسعة فإياي فاعبدون﴾ إيَّاي منصوب بفعل مضمر يفسره الشرطية الواقعة بعدها والفاء جزاء شرط محذوف تقديره إن لم تستطيعوا أن تعبدوني في الأرض التي كنتم فيها فأعبدوني في أرض غيرها فحذف الشرط وعوض من حذفه تقديم المفعول حتى صار الضمير المتصل منفصلاً وأفاد تقديمه معنى الإختصاص وصار فإياي اعبدوا ثم أضمر الفعل الناصب، وفسره بقوله فاعبروني ليفيد التأكيد كأنَّه قال فاعبدوني فاعبدوني. قال مقاتل والكلبي نزلت في ضعفاء والمسلمين بمكة يقول إن كنتم بمكة في ضيق من إظهار الإيمان فاخرجوا إلى أرض غيرها يمكن لكم فيها إظهار الإيمان كالمدينة فإن ارضي واسعة وقال مجاهد إن أرضي واسعة فهاجروا وجاهدوا فيها، وقال سعيد بن جبير إذا عمل في أرض بالمعاصي فأخرجوا منها فإن أرضي واسعة، وقال عطاء إذا أمرتم بالمعاصي فاهربوا فإن أرضي واسعة وكذلك يجب على كل من كان في بلدة يعمل فيها بالمعاصي ولا يمكنه تغيير ذلك أن يهاجر إلى حيث يتهيأ له العبادة، وقيل نزلت في قوم تخلفوا عن الهجرة بمكة وقالوا نخشى من الجوع إن هاجرنا فأنزل الله هذه الآية لم

---

(١) سورة القمر، الآية: ٤٦.

يعذرهم بترك الخروج قال مطرف بن عبد الله إنَّ ارضي واسعة أي رزقي لكم واسع فأخرجوا قال رسول الله ﷺ: «من فرَّ بدينه من أرض إلى أرض ولو شبراً استوجب الجنة وكان رفيق إبراهيم ومحمد ﷺ» رواه الثعلبي من حديث الحسن مرسلاً ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ أي واجد حرارته وكربه لا محالة كما يجد الذائق طعم المذوق فلا تقيموا دار الشر بأمن خوفاً من الموت بل لا بد لكم من الإستعداد لها بعبادة الله ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ فنجازيكم بأعمالكم فهاجروا في سبيل الله نجازيكم عليه قرأ أبو بكر بالياء على الغيبة والباقون بالتاء على الخطاب ففيه الإلتفات من الغليبة إلى الخطاب ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم﴾ قرأ حمزة والكسائي لنثوبينهم بالتاء المثلثة ساكنةً وتخفيف الواو وبالياء من غير همزة يقال ثوى الرجل وأثويته إذا أنزلته منزلاً والباقون بالباء الموحدة وفتحها وتشديد الواو وهمزة بعدها أي لننزلهم ﴿مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا﴾ أعالي، قال صاحب البحر المواج لنبوئنهم بالباء الموحدة فعل متعدٍ إلى مفعول واحد ومجرده لازم وغرفاً منصوب بنزع الخافض ليس مفعولاً ثانياً له إلا على تضمين معنى لننزلن ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ المخصوص بالمدح محذوف دل عليه ما قبله تقديره غرف الجنة أو أجرهم ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾ على أذية المشركين والهجرة للدين إلى غير ذلك من المحن والشاق لأجل مرضاة الله ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ يعتمدون على أن يرزقهم من حيث لم يحتسبوا.

قال البغوي عن النبيّ ﷺ قال للمؤمنين الذين كانوا بمكة أذاهم المشركون: «هاجروا إلى المدينة فقالوا كيف نخرج إلى المدينة وليس لنا بها دار ولا مالٌ فمن يطعمنا ويسقينا فنزلت ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ﴾ محتاجة إلى الغذاء من البهائم والطيور ﴿لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا﴾ معها ولا تدخر لغد، قال سفيان بن علي بن أرقم ليس شيء من خلق الله يدخر إلا الإنسان والفأرة والنمل ﴿ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾ حيثما كنتم يعني إنها مع ضعفها وعدم إدخار أرزاقها وإياكم مع قوتكم واجتهادكم سواء في أنه لا يرزقها وإياكم إلا الله تعيشون كما تعيشون وتموتون كما تموتون فاجتهادكم عبث فلا تخافوا على معاشكم بالهجرة ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لأقوالكم سمع قولكم لا نجد ما ننفق بالمدينة ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بما في قلوبكم من ضعف اليقين، أخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم والبيهقي وابن عساكر بسند ضعيف وكذا ذكر البغوي عن ابن عمر قال دخلتُ مع رسول الله ﷺ حائطاً من حوائط الأنصار فجعل رسول الله ﷺ يلتقط الرطب بيده ويأكل فقال يا ابن عمر كل فقلت لا أشتهيها يا رسول الله، قال لكني أشتهيها وهذه صبح رابعة منذ لم أطعم طعاماً ولم أجده فقلت إنا لله المستعان قال يا ابن عمر لو سألتُ ربي لأعطاني مثل ملك كسرى وقيصر أضعافاً مضاعفة

ولكن أجوع يوماً وأشبع يوماً فكيف بك يا ابن عمر إذا عسرتَ وبقيتَ في قوم يجيئون رزق سنة ويضعف اليقين، قال فوالله ما برحنا ولازمنا حتى نزلت ﴿وكأين من دابة﴾ الآية. عن أنس قال: «إن النبيّ ﷺ كان لا يدخر شيئاً لغد»[١] رواه الترمذي وصححه، وعن عمر بن الخطاب قال سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغذو خماصاً وتروح بطاناً»[٢] رواه الترمذي وابن ماجه، وعن ابن مسعود قال قال رسول الله ﷺ: «ليس من شيء يقربكم من الجنة ويباعدكم من النار إلا قد أمرتكم به وليس من شيء يقربكم من النار ويباعدكم من الجنة إلا قد نهيْتكم عنه وإن روح القدس نفث في روعي أن نفساً لن تموت حتى تستكمل رزقها ألا فاتقوا الله وأجملوا في الطلب ولا يحملنكم إستبطاء الرزق أن تطلبوا بمعاصي الله فإنه لا يدرك ما عند الله إلا بطاعته»[٣] رواه البغوي في شرح السنة وذكره في المعالم.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾ وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا۟ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾ يعني أهل مكة شرط في جواب قسم محذوف ﴿مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ جملة استفهامية واقعة بتأويل المفرد في محل النصب على المصدرية لقوله سألتهم تقديره سألتهم هذا السؤال ﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ فاعل لفعل محذوف

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: الزهد، باب: ما جاء في معيشة النبي ﷺ وأهله (٢٤٠٢).

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: الزهد، باب: في التوكل على الله (٢٣٨٢)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب: الزهد، باب: التوكل واليقين (٤١٦٤).

(٣) رواه البزار وفيه قدامة بن زائدة ولم أجد من ترجمه وبقية رجاله ثقات. انظر مجمع الزوائد في كتاب: البيوع باب: الاقتصاد في طلب الرزق والإجمال فيه (٦٢٨٧).

تقديره ليقولن خلقهن الله، وقوله ليقولن جواب للقسم لفظاً وجزاء للشرط بمعنى يعني والله لا يقولن إلا هذا الجواب لما تقدر في العقول من انتهاء الممكنات إلى واحد واجب لذاته ﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ يعني فكيف يصرفون عن توحيدهم بعد إقرارهم بذلك ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ﴾ يحتمل أن يكون الموسع له والمضيق عليه واحداً على التعاقب في الزمان وأن يكون على وضع الضمير موضع من يشاء أي ويقدر لمن يشاء منهم لأن من يشاء منهم غير معين وكان الضمير مبهماً مثله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ يعلم مصالح كل شيء ومفاسده قال الله تعالى: «إن من عبادي المؤمنين لمن يسألني الباب من العبادة فأكفه عنه لا يدخله عجب فيفسده ذلك، وإن من عبادي المؤمنين لمن لا يصلح إيمانه إلا الغنى ولو أفقرتُه لأفسده ذلك، وإن من عبادي المؤمنين لمن لا يصلح إيمانه إلا الفقر ولو أغنيته لأفسده ذلك، وإن من عبادي المؤمنين لمن لا يصلح إيمانه إلا الصحة ولو أسقمتُه لأفسده ذلك وإن من عبادي المؤمنين لا يصلح إيمانه إلا السقم ولو أصححته ولأفسده ذلك إني أدبر أمر عبادي لعلمي في قلوبهم إني عليم خبير» رواه البغوي في حيديث طويل عن أنس وسنذكره في سورة الشورى إن شاء الله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾ يعني أهل مكة عطف على ﴿لئن سألتهم﴾ والكلام فيه مثل ما مر ﴿من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد موتها ليقولن الله﴾ يعني أهل مكة معترفون بأن موجد الأشياء كلها بسائطها ومركباتها أصولها وفروعها هو الله لا غير ومع ذلك يشركون به في العبادة بعض مخلوقاته الذي لا يقدر على شيء ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ على ما عصمك عن مثل هذه الضلالة أو على تصديقك وإظهار حجتك ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ قبح صنيعهم وتناقض أقوالهم حيث يقرون بأنه المبدأ لكل ما عداه ومع ذلك يشركون به أخس الموجودات وأعجزها ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ﴾ إشارة تحقير ﴿إِلَّا لَهْوٌ﴾ وهو ما يشغله عما يغنيه فإن إشتغال المرء بالدنيا يشغله عما يفيده في الحياة المؤبدة ﴿وَلَعِبٌ﴾ أي عبث سميت بها لأنها فانية وما يفعل المرء في الحياة الدنيا من الطاعات فهي ليست من الدنيا بل هي من أمور الآخرة لظهور ثمرتها فيها ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ﴾ أي دار الحيوان يعني ليس فيها إلا الحياة لامتناع طريان الموت عليها أو جعلت ذاتها حياة للمبالغة، والحيوان مصدر بمعنى الحياة أصله حييان قلبت الياء الثانية واواً وهو أبلغ من الحياة لما في بناء فعلان من الدلالة من الحركة والإضطراب اللازم للحياة ولذلك اختير عنها هاهنا ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ فناء الدنيا وبقاء الآخرة لم يؤثروا الدنيا على الآخرة ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ﴾ وخافوا الغرق متصل بما دل عليه شرح حالهم أي هم على ما وضعوا من الشرك والعناد إذا ركبوا في الفلك

﴿دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ أي يدعون كائنين في صورة من أخلص دينه من المؤمنين حيث لا يذكرون إلا الله ولا يدعون سواه لعلمهم بأنه لا يكشف الضر إلا الله ﴿فَلَمَّا نَجَّاهُمْ﴾ الله ﴿إلى البر إذا هم يشركون﴾ أي فاجئوا المعاودة إلى الشرك عطف على الشرطية السابقة، قال عكرمة كان أهل الجاهلية إذا ركبوا البحر حملوا معهم الأصنام فإذا أشتدت بهم الريح ألقوها في البحر وقالوا يا رب يا رب وعلى قوله مخلصين له الدين على الحقيقة، يعني كانوا عند الشدائد يخلصون الدين لله ويتركون الشرك وعند النجاة يعودون إلى الشرك ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ﴾ هذا لام الأمر ومعناه التهديد والوعيد كقوله تعالى: ﴿اعملوا ما شئتم إني بما تعملون بصير﴾(١) أي ليجحدوا نعمة الله في إنجائه إياهم وقيل هي لا كي أي يشركون ليكونوا كافرين بشركهم نعمة الإنجاء، أو المعنى لا فائدة لهم في الإشراك إلا الكفر والتمتع بما يستمتعون به في العاجلة من غير نصيب في الآخرة على خلاف عادة المؤمنين المخلصين فإنهم يشكرون نعمة الله إذا أنجاهم ويجعلون نعمة النجاة ذريعة إلى ازدياد الطاعة ﴿وَلِيَتَمَتَّعُوا﴾ قرأ ابن كثير وحمزة والكسائي وقالون عن نافع بسكون اللام فهو لام الأمر على قراءتهم والباقون بكسر اللام نسقاً على قوله ليكفروا وحينئذ يحتمل لام الأمر ولام كي ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ عاقبة ذلك حين يعاقبون ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ الاستفهام للإنكار والواو للعطف على محذوف تقديراً لم ينظروا ولم يروا أهل مكة ﴿إِنَّا جَعَلْنَا﴾ مكة ﴿حَرَمًا﴾ مصوناً عن النهيب والتعدي ﴿آمناً﴾ أهله عن القتل والسبي ﴿وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ عطف على جملة محذوفة مفهومة عما سبق تقديره أنّا جعلنا مكة حرماً آمناً لا يغار ولا يتعرض أهلها ويتخطف الناس من حولهم، وقد كان العرب يختلسون الناس قتلاً وسبياً ولا يتعرضون أهل مكة ﴿أَفَبِالْبَاطِلِ﴾ الهمزة للإنكار والفاء للتفريع على مضمون ما سبق يعني أنعم الله على أهل مكة هذه النعمة وهم بعد هذه النعمة الظاهرة وغيرها مما لا يقدر عليه إلا الله سبحانه بالباطل يعني بالأصنام أو بالشيطان، وجاز أن يكون المراد بالباطل كل شيء سوى الله لقوله ﷺ: «ألا إن أحسن القول قول لبيد: ألا كل شيء ما خلا باطل» ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ حيث أشركوا به غيره وتقديمه للاهتمام أو الاختصاص على طريق المبالغة، وقيل المراد بنعمة الله محمد ﷺ والقرآن ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ يعني لا أحد أظلم ﴿مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ بأن زعم أن له شريكاً ﴿أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ﴾ أي الرسول والقرآن ﴿لَمَّا جَاءَهُ﴾ في لما تشبيه لهم بأنهم لم يتوقفوا ولم يتأملوا حين مجيء الرسول بل

---

(١) سورة فصلت، الآية: ٤٠.

سارعوا إلى التكذيب أول ما سمعوا ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾ استفهام تقرير للثواء يعني ألا يستوجبون الثواء أي القرار في جهنم وقد افتروا على الله وكذّبوا بالحق مثل هذا التكذيب، أو تقرير لاجترائهم يعني ألم يعلموا أن في جهنم مثوى للكافرين حتى اجترؤوا هذه الجراءة ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا﴾ الجهاد بذل الوسع والطاقة والمراد الذين بذلوا وسعهم بطاقتهم في محاربة الكفار ومخالفة النفس والهوى ﴿فِينَا﴾ أي في ابتغاء مرضاتنا ونصرة ديننا وإمتثال أوامرنا والإنتهاء عن مناهينا ﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ أي سبل السير إلينا والوصول إلى جنابنا وصولاً بلا كيف أو لنرينهم سبل الخير ونوفّقهم سلوكها قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى﴾[1] وعن أبي الدرداء أنه قال معناه والذين جاهدوا فيما علموا لنهدينهم إلى ما لم يعلموا، وعن عطاء والّذين جاهدوا في رضائنا لنهدينهم سبل ثوابنا، وعن الجنيد الَّذين جاهدوا في التوبة لنهدينهم سبل الإخلاص، وقال سفيان بن عيينة إذا اختلف الناس فانظروا إلى ما عليه أهل الثغور فإن الله قال: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ وقال الحسن أفضل الجهاد مخالفة الهوى وقال الفضيل بن عياض والَّذين جاهدوا في طلب العلم لنهدينهم سبل العمل به، وقال سهيل بن عبد الله والَّذين جاهدوا في إقامة السنة لنهدينهم سبل الجنة، وقال ابن عباس والذين جاهدوا في طاعتنا لنهدينهم سبل ثوابنا، وفي الحديث «من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم»[2] قوله لنهدينهم سبلنا جواب قسم محذوف والجملة القسمية خبر للموصول والموصول المبتدأ مع خبره عطف على الذين آمنوا وعملوا الصلحات ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ بالنصر والإعانة في الدنيا والثواب والمغفرة في العقبى وقالت الصوفية إن الله لمع المحسنين معية غير متكيفة يدركها بصائر أهل البصائر. هذه الجملة عطف على والَّذِيْنَ جاهَدُوْا وَجَاز أن يكون حالاً من فاعل لَنَهْدِيَنَّهُمْ والعائد وضع الظاهر موضع الضمير تقديره وإنَّا لَمَعَ المُحْسِنِيْنَ وَالتصريح باسمه تعالى لمزيد التأكيد والله أعلم.

---

(١) سورة محمد، الآية: ١٧.

(٢) أخرجه أبو نعيم في الحلية من حديث أنس وضعفه. انظر: تخريج أحاديث الإحياء المجلد الأول/ كتاب العلم/ الباب السادس.

سورة الروم

آياتها ستون وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥ وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٦ يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ ۝٧ أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَأَجَلٖ مُّسَمّٗىۗ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمۡ لَكَٰفِرُونَ ۝٨﴾.

أخرج ابن أبي حاتم عن ابن شهاب وأخرج ابن جرير نحوه عن عكرمة ويحيى بن يعمر وقتادة قال ابن شهاب بلغنا أن المشركين كانوا يجادلون المسلمين وهم بمكة قبل أن يخرج رسول الله ﷺ فيقولون تشهدون أنهم أهل الكتاب وقد غلبتهم المجوس وأنكم تزعمون ستغلبوننا بالكتاب الذي أنزل على نبيكم فكيف غلبت المجوس الروم وهم أهل الكتاب فسنغلبكم كما غلبت فارس الروم ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢﴾ ﴿فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي أدنى أرض العرب منهم لأنها الأرض المعهودة عندهم أو في أدنى أرضهم من العرب واللام بدل من الإضافة، قال عكرمة هي أذرعات وكسكر، وقال مجاهد أرض الجزيرة وقال مجاهد الأردن وفلسطين ﴿وَهُم﴾ أي الروم ﴿مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ﴾ مصدر مبني للمفعول أي من بعد أن غلبوا على صيغة المجهول ﴿سَيَغۡلِبُونَ﴾ على فارس ﴿فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ﴾ البضع ما بين الثلاث إلى السبع، وقيل ما بين الثلاث إلى التسع، وقيل ما دون العشرة، وقال الجوهري تقول بضع وبضعة عشر رجلاً فإذا جاوزت العشرين لا تقول بضع وعشرون وهذا يخالف ما جاء في الحديث قال رسول الله ﷺ: «الإيمان بضع وسبعون شعبة»[1].

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: بيان عد شعب الإيمان وأفضلها وأدناها وفضيلة الحياء وكونه من الإيمان (٣٥).

قال البغوي: كان بين فارس والروم قتال فكان المشركون يودّون غلبة فارس على الروم لأن أهل فارس كانوا مجوساً أميين والمسلمون يودُّون غلبة الروم على فارس لأنهم كانوا أهل كتاب فبعث كسرى يعني برويز بن هرمز بن نوشيروان، جيشاً إلى الروم وأستعمل عليهم رجلاً يقال له شهر يزاد وبعث قيصر جيشاً وامّر عليهم رجلاً يقال له يحيس فالتقتا بأذرعان الشام وبصرى (وهو أدنى الشام إلى أرض العرب والعجم) فَغَلَبَ فارسُ الروم فبلغ ذلك المسلمين بمكة فشق ذلك عليهم وفرح به كفار مكة وقالوا للمسلمين أنكم أهل كتاب والنصارى أهل كتاب ونحن أميون وقد ظهر إخواننا أهل فارس على إخوانكم من الروم فإن قاتلتمونا لنظهرن عليكم فأنزل الله تعالى هذه الآية، فخرج أبو بكر الصديق رضي الله عنه إلى الكفار فقال فرحتم بظهور إخوانكم فوالله ليظهرن الروم على فارس على ما أخبرنا بذلك نبينا، فقال أبيُّ بن خلف الجُمحي كذبت، فقال أنتَ أكذب يا عدو الله فقال إجعل بيننا وبينك أجلاً أناجئك (والمناجئة المراهنة) على عشر قلائص مني وعشر قلائص منك فإن ظهر الروم على فارس غرمتُ وإن ظهر فارس على الروم غرمتَ ففعلوا وجعل الأجل ثلاث سنين، فجاء أبو بكر إلى رسول الله ﷺ فأخبره بذلك (وذلك قبل تحريم القمار) فقال رسول الله ﷺ: «ما هكذا ذكرتُ إنما البضع ما بين الثلاث إلى التسع فزائده في الخطر ومادّه في الأجل»، فخرج أبو بكر فرأى أبيّاً فقال لعلك ندمتَ، قال لا أزائدك في الخطر وأمادك في الأجل فجعل مائة قلوص ومائة قلوص إلى تسع سنين، وقيل إلى سبع سنين قال قد فعلتُ، فلمَّا خشي أبيُّ بن خلف أن يخرج أبو بكر من مكة أتاه فلزمه وقال إني أخاف أن تخرج من مكة فأقسم لي كفيلاً فكفل له عبد الله بن أبي بكر ابنه فقال لا والله لا أدعك حتى تعطيني كفيلاً فأعطاه، ثم خرج إلى أحد فرجع أبيُّ بن خلف إلى مكة فمات بمكة من جراحته التي جرحه النبي حين بارزه، فظهرت الروم على فارس يوم الحديبية وذلك عند رأس سبع سنين من مناجئتهم وقيل كان يوم بدر، قال الشعبي لم يمض تلك المدة مدة عقد المناجئة بين أهل مكة وصاحب قمارهم أبيّ بن خلف والمسلمين وصاحب قمارهم أبي بكر الصديق (وكان ذلك قبل تحريم القمار) حتى غلبت الروم وفارس وربطوا خيولهم بالمدائن وبنوا للرمية فقمر أبو بكر أبيّاً وأخذ مال الخطر من ورثته وجاء به وحمله إلى النبيّ ﷺ فقال له النبيّ ﷺ: «تصدق به» وأخرج الترمذي من حديث أبي بكر نحوه.

مسألة:

قال أبو حنيفة: العقود الفاسدة كعقد الربا وغيرها جائزة في دار الحرب بين

المسلمين والكفار مستدلاً بقصة أبي بكر ولأن أموال الكفار غير معصوم يجوز أخذها ما لم يكن غدراً بعد الاستئمان.

قال البغوي: وكان سبب غلبة الروم على فارس على ما قال عكرمة أن شهر يزاد بعدما غلب الروم لم يزل يطيئهم ويخرّب مدائنهم حتى بلغ الخليج، فبينا أخوه فرخان جالس على سريره يشرب فقال لأصحابه لقد رأيتُ أني جالس على سرير كسرى فبلغت حكمته كسرى فكتب إلى شهريزاد إذا أتاك كتابي فابعث إليَّ رأس فرخان فكتب إليه أيها الملك إنك لن تجد مثل فرخان وإن له نكاية وصوتاً في العدو فلا تغفل، فكتب إليه أن في رجال فارس خلقاً منه فعجل إليَّ برأسه فكتب فغضب كسرى ولم يجبه وبعث بريداً إلى أهل الجيش إني قد نزعت منكم شهريزاد واستعملت عليكم فرخان ثم دفع إلى البريد صحيفة صغيرة أمر فيها بقتل شهريزاد فقال إذا ولى فرخان الملك وانقاد له أخوه فأعطه الصحيفة، فلمّا قرأ شهريزاد الكتاب قال سمعاً وطاعةً ونزل عن سريره وجلس فرخان ودفع الصحيفة، فقال أتوني بشهريزاد فقدمه ليضرب عنقه فقال لا تعجل عليَّ حتى أكتب وصيتي قال نعم، فدعى بالسقط وأعطاه ثلاث صحائف وقال كل هذا راجعتُ فيك كسرى وأنت تريد أن تقتلني بكتاب واحد فرد الملك إلى أخيه، فكتب شهريزاد إلى قيصر ملك الروم أن لي إليك حاجة لا يحملها البريد ولا يبلغها الصحف فالقني ولا تلقني إلا في خمسين رومياً فإني ألقاك في خمسين فارسيّاً، فأقبل قيصر في خمسين روميا وجعل يضع العيون بين يديه في الطريق وخاف أن يكون قد مكر حتى أتاه عيون له أنه ليس معه إلا خمسون رجلاً ثم سقط لهما وألقيا في قبة ديباج ثم ضربت لهما ومع كل واحد منهما سكين فدعوا بترجمان بينهما فقال شهريزاد إن الذين خربوا مدائنات أنا وأخي بكيدنا وشجاعتنا وإن كسرى حسدنا وأراد أن أقتل أخي فأبيت ثم أمر أخي أن يقتلني فقد خلقنا جميعاً فنحن نقاتله معك، فقال قد أصبتما ثم استأثر أحدهما على صاحبه أن السر بين إثنين فإذا جاوزهما فشا فقتلا الترجمان معاً بسكينهما فأدليت الروم على فارس عند ذلك فابتغوهم فقتلوهم ومات كسرى وجاء الخبر إلى النبيّ ﷺ يوم الحديبية ففرح هو ومن معه فذلك قوله ﴿الم غلبت الروم في أدنى الأرض﴾ الآية.

وقرىء غلبت بالفتح على صيغة المعروف وسيغلبون بالضم ومعناه أن الروم غلبوا على أرض فارس والمسلمون سيغلبونهم، وفي السنة التاسعة من غلبة الروم غزاهم المسلمون وفتحوا بعض بلادهم وعلى هذا يكون الغلب مصدراً مبنيّاً للفاعل مضافاً إلى الفاعل، ويؤيد هذه القراءة ما أخرج الترمذي عن أبي سعيد قال لما كان يوم بدر ظهرت

الروم على فارس فأعجب ذلك المؤمنين فنزلت ﴿ألم غلبت الروم﴾ بنصر الله بفتح الغين، وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود نحوه وهذه قراءة شاذة، والأولى هي المتواترة ولعل النبيّ ﷺ لما غَلَبَ الروم على فارس علم بالوحي الغير المتلو أنه غلبت اليوم الروم على فارس في أدنى الأرض وهم أي الروم من بعد أن غلبوا على الفارس سيغلبهم المؤمنون فقرأ على ما رواه الترمذي عن أبي سعيد بفتح الغين من غَلَبَتْ على البناء وسيغلبون على البناء للمفعول والله أعلم ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ﴾ أي قبل غلبة الروم على فارس حين كونهم مغلوبين ﴿وَمِنۢ بَعْدِ﴾ أي بعد غلبهم عليهم حين كونهم غالبين ليس شيء منهما إلا بقضائه وقدره هذه الجملة تعليل لقوله سيغْلبُونَ ﴿وَيَوْمَئِذٍ﴾ أي يوم إذا كان الغلبة للروم ﴿يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ ﴿بِنَصْرِ ٱللَّهِ﴾ من له كتاب على من ليس له كتاب وظهور صدقهم فيما أخبروا به المشركين وغلبتهم في رهانهم وازدياد يقينهم وثباتهم في دينهم، قال السدي فرح النبيّ ﷺ بظهورهم على المشركين يوم بدر وظهور أهل الكتاب على أهل الشرك. قال جلال الدين المحلي فرح المسلمون بذلك وعلموا به يوم وقوعه يوم بدر بنزول جبرئيل بذلك فيه مع فرحهم بنصرهم على المشركين فيه، هذه الجملة معطوفة على قوله: ﴿وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾ ﴿يَنصُرُ مَن يَشَآءُ﴾ فينصر هؤلاء تارةً وهؤلاء أخرى ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ ينتقم من عباده بتسليط غيرهم عليهم تارةً ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ ويرحمهم ويتفضل عليهم بنصرهم أخرى ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ أي وعد الله وعداً مصدر مؤكد لنفسه لا ما قبله وهو قوله وهم مّنْ بعد غلبهم سيغلبون في معنى الوعد ﴿لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾ لامتناع الكذب عليه ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ﴾ يعني كفار مكة ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ وعده ولا صحة وعده لجهلهم وعدم تفكرهم ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ يعني أمور معاشهم كيف يكتسبون وكيف يتجرون وكيف يزرعون ونحو ذلك ﴿وَهُمْ عَنِ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ التي هي المستقر أبداً ﴿هُمْ غَٰفِلُونَ﴾ لا تخطر ببالهم، هم الثانية تكرير للأولى أو مبتدأ وغافلون خبره والجملة خبر الأولى والرابطة إعادة لفظ المبتدأ نحو ﴿الحاقة ما الحاقة﴾ وهو على الوجهين مناد على تمكن غفلتهم عن الآخرة، وهذه الجملة محققةٌ لمضمون الجملة السابقة بدل من قوله لا يعلمون تقريراً وتشبيهاً لهم بالحيوانات المقصور إدراكها من الدنيا ببعض ظاهرها دون العلم بجميعها، فإن من العلم بظاهر معرفة حقائقها وصفاتها وخصائصها وأفعالها وأسبابها وكيفية صدورها منها وكيفية التصرف فيها ولذلك نكر ظاهراً وأما باطنها أنها مجاز إلى الآخرة ووصلة إلى نيلها وأنموذج لأحوالها وإشعاراً بأنه لا فرق بين عدم العلم والعلم الذي يختص بظاهر الدنيا ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟﴾ الهمزة للتوبيخ والواو للعطف على محذوف تقديره

أقصروا نظرهم على ظاهر من الحياة الدنيا ولم يتفكروا ﴿فِىٓ أَنفُسِهِم﴾ أي لم يحدثوا التفكر فيها حتى يظهر لهم بعض بواطنها أو المعنى أولم يتفكروا في أمر أنفسهم فإنها أقرب إليهم من غيرها والمرآة يجتلي فيها للمستبصر ما يجتلي له في الممكنات بأسرها فإن الإنسان عالم صغير حتى يعلموا ويقولوا ﴿مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ أي ما خلقها باطلاً عبثاً بغير حكمة بالغة بل خلقها مقرونةً مصحوبةً بالحكمة ﴿وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ يعني ما خلقها للخلود بل لأجل معين ينتهي عنده وبعده قيام الساعة وقت الحساب والثواب والعقاب قال الله ﴿أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون﴾[1] يدل على أن تركهم غير راجعين عبث فمن تفكر في نظام السماوات والأرض وما بينهما يحكم أن خالقه حكيم والحكيم لا يفعل العبث والحكمة في خلقها معرفة الخالق وصفاتها ولولا البعث والنشور والثواب والعقاب يستوي العارف والكافر فمن تفكر فيها يكتسب العلم بالآخرة فلا يكون من الغافلين ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ يعني كفار مكة لأجل غباوتهم وعدم تفكرهم ﴿بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ﴾ أي بجزائه عند انقراض الدنيا ﴿لكافرون﴾ أي لجاحدون يحسبون أن الدنيا أبدية ولا بعث ولا حساب.

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَٰٓؤُا۟ وَكَانُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٣﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآئِ ٱلْءَاخِرَةِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾﴾.

﴿أولم يسيروا﴾ الهمزة للإنكار والتوبيخ وإنكار النفي إثبات وتقرير والواو للعطف على محذوف تقديره ألم يخرج أهل مكة من ديارهم ولم يسيروا ﴿فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟﴾ منصوب في جواب النفي ﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ من الأمم كيف في محل

(١) سورة المؤمنون، الآية: ١١٥.

النصب على أنه خبر كان قدم عليه لما له صدر الكلام، والجملة في محل النصب على أنه مفعول لينظروا يعني أنهم قد ساروا في أسفارهم ونظروا إلى آثار الذين كذبوا الرسل من قبلهم فدمروا على تكذيبهم ﴿كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ﴾ كعاد وثمود وغيرهم فإن القرون الماضية كانوا أشد قوة وأطول أعماراً وأكثر آثاراً من القرون التالية، هذه الجملة مع ما عطف عليه مستأنفة في جواب ﴿كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾ ﴿وَأَثَارُواْ ٱلۡأَرۡضَ﴾ مع ما عطف عليه عطف على كانوا أي قلَّبوا وجهها لاستنباط المياه واستخراج المعادن وكربوها للزرع وغير ذلك ﴿وَعَمَرُوهَآ﴾ أي الأرض عمارة ﴿أَكۡثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾ منصوب على أنه صفة مصدر محذوف يعني عمروها عمارةً أكثر من عمارة أهل مكة إياها فإنهم في واد غير ذي زرع لا تبسط لهم في غيرها، وفيه تهكم بهم حيث كانوا مفترين بالدنيا مفتخرين بها وهم أضعف حالاً في الدنيا فإن مدارها على التبسط في البلاد والتسلط على العباد والتصرف في أقطار الأرض بأنواع العمارة وهم ضعفاء ويلجؤون إلى واد لا نفع لها ولولا رحلتي الشتاء والصيف لهم إلى اليمن والشام لماتوا جوعاً ﴿وَجَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ عطف على ﴿كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ﴾ ﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ﴾ معطوف على جملتين محذوفتين معطوفتين على جاءتهم، تقديره جاءتهم رسلهم بالبينات فكذبوهم فدمرهم الله في الدنيا فما كان الله ليظلمهم أي ما كان صفة الله ظلمهم فإن اللام لام الجحود وأن بعدها مقدرة يعني ما كان صفة الله أن يفعل بهم ما يفعل الظلمة من التعذيب بغير جرم ولا تذكير ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ حيث فعلوا ما أدى إلى تدميرهم ﴿ثُمَّ﴾ أي بعد التدمير في الدنيا عطف على جملة مقدرة وهي فدمرهم الله ثم ﴿كَانَ عَٰقِبَةُ﴾ قرأ أهل الحجاز والبصرة بالرفع على أنه اسم كان وخبره ما بعده أو محذوف كما سنذكر وأهل الكوفة والشام بالنصب على أنه خبر كان والاسم أن كذبوا ﴿ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ﴾ من الأعمال تقديره ثم كان عاقبتهم فوضع المظهر موضع المضمر للدلالة على بعض ما يقتضي تلك العاقبة ﴿ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ تأنيث أسوأ كالحسنى تأنيث أحسن يعني الخصلة التي تسوءهم أو عقوبة هي أسوأ العقوبات أو هو مصدر كالبشرى نعت به مبالغة قبل السواء اسم نم أسماء جهنم كما أن الحسنى إسم من أسماء الجنة ﴿أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزؤون﴾ عطف على كذّبُوا وأن كذبوا مع ما عطف عليه منصوب على العلية لقوله: ﴿فكان عاقبة الذين أساؤوا السوأى﴾ تقديره لأن كذبوا وجاز أن يكون بدلاً أو عطف بيان السوأى يعني ثم كان عاقبة المسيئين التكذيب يعني حملهم تلك السيئات على أن كذبوا بآيات الله.

عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «المؤمن إذا أذنب كانت نكتة سوداء في قلبه فإن تاب ونزع واستغفر صقل قلبه منها وإن زاد زادت حتى تعلو قلبه ذلكم الران الّذي ذكر الله في كتابه: (كلاً بلْ ران على قُلُوبِهِمْ مَّا كانوا يكسبُون)[1] رواه أحمد والترمذي والنسائي وغيرهم، وجاز أن يكون أن كذبوا مع ما عطف عليه خبر كان والسوأى مصدر أساءوا أو مفعوله والمعنى ثم كان عاقبة الذين اقترفوا الخطيئة أن طبع الله على قلوبهم حتى كذبوا بآيات الله، ويجوز أن يكون السوأى مصدراً ومفعولاً للفعل وإن كذّبوا تابعاً لها بدلاً أو عطف بيان والخبر محذوف للإبهام والتهويل تقديره ثم كان عاقبة الذين فعلوا السيئات أي التكذيب جهنم وما لا يعرف ما أعد لهم من العذاب فيها، وجاز أن يكون مفسرة للإساءة فإن الإساءة إذا كانت مفسرة بالتكذيب والاستهزاء كانت متضمنة لمعنى القول.

﴿ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ﴾ أي يخلقهم ابتداءً ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ أي الخلق يبعثهم بعد الموت ﴿ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ فيجزيهم بأعمالهم، قرأ أبو بكر بالياء للغيبة لأن الضمير عائد إلى الخلق والباقون بالتاء التفاتاً من الغيبة إلى الخطاب للمبالغة في المقصود ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾ ظرف متعلق بقوله ﴿يُبۡلِسُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ والجملة معطوفة على قوله: ﴿ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ قال قتادة والكلبي أي ييئسون من كل خير، وقال مجاهد يفتضحون، وقال الفراء ينقطع كلامهم وحجتهم في القاموس البَلَس محركة من لا خير عنده والمبلس الساكت على ما فيه نفسه وأبلس يئس وتحيرو منه إبليس أو هو أعجمي، وقال الجزري في النهاية المبلس الساكت من الحزن أو الخوف والإبلاس الحيرة ﴿وَلَمۡ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمۡ﴾ أي من الذين أشركوهم بالله سبحانه في العبادة على زعم أنهم يشفعون لنا عند الله فهم لا يكونون لهم ﴿شُفَعَٰٓؤُاْ﴾ يجيرونهم من عذاب الله أورد بصيغة الماضي لتحقق وقوعه ﴿وَكَانُواْ بِشُرَكَآئِهِمۡ كَٰفِرِينَ﴾ أي يجحدون بآلهتهم حين يئسوا منهم. وقيل معناه كانوا في الدنيا بسبب شركائهم كافرين بالله تعالى ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾ ظرف متعلق بيتفرقون ﴿يَوۡمَئِذٖ﴾ بدل من يوم تقوم الساعة أو تأكيد له أي يوم إذا كانوا مبلسين وكانوا بشركائهم كافرين ﴿يَتَفَرَّقُونَ﴾ قال مقاتل يتفرقون بعد الحساب سيق المؤمنون إلى الجنة والكافرون إلى النار ثم لا يجتمعون أبداً ثم فصله بقوله ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمۡ فِي

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة ويل للمطففين (٣٣٣٤)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب: الزهد، باب: ذكر الذنوب (٤٢٤٤).

رَوْضَةٍ﴾ أي أرض ذات أزهار وأنهار من رياض الجنة ﴿يُحْبَرُونَ﴾ قال ابن عباس يكرمون، وقال مجاهد وقتادة ينعمون، وقال أبو عبيدة يسرون والحبرة السرور وقيل الحبرة كل نعمة حسنة والتخبير التحسين، وفي النهاية للجزري الحبرة بالفتح النعمة وسعة العيش والحبرة بالكسر وقد يفتح الجمال والهيئة الحسنة وفي القاموس نحوه، وفي حديث أبي موسى لو علمتُ أنك يا رسول تسمع لقراءتي لحبرتُها لك تحبيراً أي حسنتُ صوتي بها، قال البغوي وقال الأوزاعي عن يحيى بن كثير يحبرون هو السماء في الجنة وكذا أخرج هناد والبيهقي عن يحيى بن كثير في هذه الآية، وقال الأوزاعي إذا أخذ في السماع لم تبق شجرة في الجنة إلا ورقت وقال ليس أحد من خلق الله أحسن صوتاً من إسرافيل فإذا أخذ في السماع قطع على أهل سبع سماوات صلاتهم وتسبيحهم، وأخرج ابن عساكر عن الأوزاعي في هذه الآية قال هو السماع إذا أراد أهل الجنة أن يطربوا أوحى الله تعالى إلى رياح يقال لها العفافة فدخلت في أجام قضيب اللؤلؤ الرطب فحركته فضرب بعضه بعضاً فتطرب الجنة فإذا طربت لم يبق شجرة في الجنة إلا ورقت، وأخرج الطبراني والبيهقي عن أبي أمامة عن النبيّ ﷺ قال: «ما من عبد يدخل إلا أن تجلس عند رأسه وعند رجليه ثنتان من الحور العين يغنيان بأحسن صوت سمعه الإنس والجن وليس بمزمار الشيطان ولكن بتحميد الله وتقديسه» وأخرج البيهقي عن ابن عباس أنه سئل في الجنة غناء قال من مسك عليها يمجدون الله تعالى بصوت لم يسمع الأذن مثله قط، قلت: الطرب بالشعر والغناء في الدنيا لا يحصل إلا بذكر المحبوب بكلام موزون في صوت حسن موزون، ولا شك أن الناس إذا فازوا برؤية جمال الله سبحانه ولا جمال فوق جماله فلا محبوب لهم غيره فيطربون بسماع ذكره بصوت حسن موزون وفي بعض الأحاديث أن الحور العين يغنّين لأزواجهن بأصوات ما سمعها أحد قط فيكون ممّا يغنّين:

نحن الخيرات الحسان   أزواج قوم كرام

ومما يغنّين:

نحن الخالدات فلا نموتن   نحن الآمنات فلا نخافن

نحن المقيمات فلا نطحن

كذا أخرج الطبراني عن ابن عمر مرفوعاً وأخرج الطبراني والبيهقي وابن أبي الدنيا عن أنس نحوه، وعن مالك بن دينار عند أحمد في الزهد يقول الله لداود عليه السلام مجدّني بذلك الصوت الحسن فيندفع داود بصوت ستقرع نعيم أهل الجنة، وعن أبي هريرة

عند الأصبهاني مرفوعاً أن الله تعالى ليوصي إلى شجرة الجنة أن اسمعي عبادي الذين شغلوا أنفسهم عن المعازف والمزامير بذكري فيسمعهم بأصوات ما سمع الخلائق مثلها قط بالتسبيح والتقديس، وفي الباب أحاديث كثيرة وأخرج الحكيم في نوادر الأصول عن أبي موسى قال قال رسول الله ﷺ: «من استمع إلى صوت غناء لم يؤذن له أن يسمع صوت الروحانيين، قال يا رسول الله ما الروحانيون؟ قال قراء أهل الجنة» وأخرج دينودي عن مجاهد قال ينادي مناد يوم القيامة إن الذين كانوا ينزهون أصواتهم وأسماعهم عن اللهو ومزامير الشيطان قال فيحلهم الله في رياض من مسك فيقول للملائكة أسمعوا عبادي تحميدي وتمجيدي وأخبروهم أن لا خوف عليهم ولا هم يحزنون. وروى الديلمي عن جابر بن عبد الله مرفوعاً مثله ﴿وأما الذين كفروا وكذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة﴾ أي البعث والقيامة ﴿فَأُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ مدخلون لا يغيبون عنه.

﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ﴾ مصدر لفعل محذوف تقديره فسبحوا الله سبحاناً حذف الفعل وأضيف المصدر إلى المفعول والفاء للسببية والتفريغ على ما سبق من صفاته تعالى من الإبداء والإعادة وغيرها والمراد بالتسبيح الصلاة يعني صلوا لله ﴿حِينَ تُمْسُونَ﴾ أي حين تدخلون في المساء صلاة المغرب شكراً لما أنعم الله من تمام النهار بالسلامة والنعمة والدخول في الليل للسكون والراحة، بدأ بذكر صلاة المغرب لتقدم الليل على النهار في اعتبار الشهور والأيام ﴿وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ شكراً لما أنعم الله عليه من تمام الليل بالسلامة والراحة والدخول

في النهار لكسب المعاش والمعاد ذكر صلاة الصبح بعد المغرب لمقابلة الصباح بالمساء ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ قال ابن عباس أي يحمدون أهل السماوات والأرض ويصلون له الجملة حال من الله أو معترضة ﴿وَعَشِيًّا﴾ أي آخر النهار عن عشى العين إذا نقص نورها عطف على يصبحون يعني صلوا صلاة العصر صلاة الوسط، ولما كان ذلك وقت اشتغال الناس بأمور الأسواق قدم ذكرها على ذكر الظهر اهتماماً يعني لا بد لكم من الإشتغال بالصلاة حين اشتغال الناس بأمور الدنيا كيلا تكونوا من الذين لا يلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ﴿وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ أي تدخلون في الظهيرة يظهر عليكم صولة الشمس ويذكركم حر نار جهنم وحر ذكائها يوم القيامة. خص هذه الأوقات لما تظهر فيها قدرته وتتجدد نعمته ولما يحدث فيها من الشواهد الناطقة بتنزيهه واستحقاقه الحمد والشكر ممن له تميز من أهل السماوات والأرض. ذكر في هذه الآية أربعاً من الصلوات الخمس، وقيل: ﴿حِينَ تُمْسُونَ﴾ إشارة إلى المغرب والعشاء جميعاً، أخرج ابن جرير والطبراني والحاكم قول ابن عباس أن الآية جامعة للصلوات الخمس حين تمسون كناية عن المغرب والعشاء جميعاً. وقال البغوي قال نافع بن الأزرق لابن عباس هل تجد الصلوات الخمس في القرآن؟ قال ابن عباس نعم وقرأ هاتين الآيتين وقال جمعتْ هذه الآية الصلوات الخمس ومواقيتها.

عن ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ: «من قال حين يصبح وحين يمسي ﴿سبحان الله حين تمسون وحين تصبحون وله الحمد في السماوات والأرض عشياً وحين تظهرون﴾ إلى قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ أدرك ما فاته في يومه ذلك ومن قالهن حين يمسي أدركه ما فاته في الليلة»[(١)] رواه أبو داود، وعنه عليه السَّلام: «من سره أن يكتال له بالقفيز الأوفى فليقل فسبحان الله حين تمسون» الآية، رواه الثعلبي من حديث أنس بسند ضعيف جداً، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «من قال سبحان الله وبحمده في يوم مائة مرة حطت خطاياه وإن كانت مثل زبد البحر»[(٢)] متفق عليه، وعنه قال قال رسول الله ﷺ: «من قال حين يصبح وحين يمسي سبحان الله وبحمده مائة مرة لم يأت أحد يوم القيامة بأفضل مما جاء به إلا أحد قال مثل ما قال أو زاد عنه» متفق عليه، وعنه قال قال رسول الله ﷺ:

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب: الأدب، باب: ما يقول إذا أصبح (٥٠٦٨).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الدعوات، باب: فضل التسبيح (٦٤٠٥)، وأخرجه مسلم في كتاب: الذكر والدعاء والتوبة، باب: فضل التسبيح والتهليل والدعاء (٢٦٩١).

«كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان حبيبتان إلى الرحمن سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم»[١] متفق عليه، وعن جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار رضي الله عنها أن النبيّ ﷺ خرج ذات غداة من عندها (وكان اسمها برة) فخرج وهي في المسجد فرجع بعدما تعالى النهار وقال ما زلت في مجلسك هذا منذ خرجتُ بعد؟ قالت نعم، فقال لقد قلتُ بعدكِ أربع كلمات ثلاث مرات لو وزنت بكلماتكِ لوزنتهن سبحان الله وبحمده عدد خلقه ورضاء نفسه وزنة عرشه ومداد كلماته»[٢] رواه مسلم، وعن سمرة بن جندب قال قال رسول الله ﷺ: «أفضل الكلام أربع سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر» وفي رواية «أحب الكلام إلى الله أربع سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر لا يضرك بأيتهن بدأت» رواه مسلم وعن أبي ذر قال: «سئل رسول الله ﷺ أيُّ الكلام أفضل؟ قال ما أصطفى الله لملائكته سبحان الله وبحمده»[٣] رواه مسلم، وعن جابر قال قال رسول الله ﷺ: «من قال سبحان الله العظيم وبحمده غرست له نخلة في الجنة»[٤] رواه الترمذي.

﴿يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾ كالإنسان من النطفة والطائر من البيضة ﴿وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ﴾ النطفة والبيضة من الحيوان أو يعقب الحياة بالموت وبالعكس ﴿وَيُحْيِ ٱلْأَرْضَ﴾ بالنبات ﴿بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أي يبسها ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي مثل ذلك الإخراج ﴿تُخْرَجُونَ﴾ من قبوركم أحياء بعد الموت فلم تنكرونه بعد ماتشاهدون نظيره فهي تعليل للبعث، قرأ حمزة والكسائي بفتح التاء وضم الراء على البناء للفاعل والباقون بضم التاء وفتح الراء على البناء للمفعول.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ أي من آيات قدرته تعالى على البعث ﴿أَنْ خَلَقَكُم﴾ أي خلق أدم ﴿من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون﴾ إذا للمفاجأة مضاف إلى الجملة والعامل فيه معنى المفاجأة والمعنى ثم فاجأتم وقت كونكم بشراً منتشرين في الأرض بعدما كنتم جماداً بلا حس وحركة ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ من للإبتداء لأن حواء خلقت من ضلع

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الدعوات، باب: فضل التسبيح (٦٤٠٦)، وأخرجه مسلم في كتاب: الذكر والدعاء والتوبة، باب: فضل التهليل والتسبيح والدعاء (٢٦٩٤).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة، باب: التسبيح أول النهار وعند النوم (٢٧٢٦).

(٣) أخرجه مسلم في كتاب: الذكر والدعاء والتوبة، باب: فضل سبحان الله وبحمده (٢٧٣١).

(٤) أخرجه الترمذي في كتاب: الدعوات (٣٤٦٤).

أدم وسائر النساء من نطف الرجال أو للبيان لأنهن من جنسهم لا من جنس آخر ﴿أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا﴾ لتميلوا إليها وتألفوا لها فإن الجنسية علة الضم والإختلاف سبب التنافر ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم﴾ أي بين الرجال والنساء أو بين أفراد الجنس ﴿مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ بواسطة الزواج حال الشبق وغيرها بخلاف سائر الحيوانات نظماً لأمر المعاش أو بأن تعيش الإنسان موقوف على التعاون المحوج إلى التواد والتراحم ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في عظمة الله وقدرته فيعلمون ما في ذلك من الحكم ومن التناسل ﴿ومن آياته خلق السموات والأرض وإختلاف ألسنتكم﴾ أي لغاتكم بأن علَّم كل صنف لغة وألهمه وأقدره عليها أو أجناس نطقكم وأشكاله وكيفيات أصواتكم بحيث لا يكاد يلتبس صوت أحد بغيره ﴿وَأَلْوَٰنِكُمْ﴾ أي ألوان الجلد من السواد والبياض وغيرها أو مشخصات الأعضاء وهيآتها وألوانها وجلاها بحيث لا يلتبس أحد بغيره ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ﴾ لا يكاد يخفى على عاقل من ملك أو إنس أو جن، وقرأ حفص بكسر اللام خصهم بالذكر لأنهم أحقاء بالمعرفة قال الله تعالى: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾[1] ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ منامكم في زمانين لاستراحة القوى النفسانية وقوة القوى الطبيعية ﴿وَٱبْتِغَآؤُكُم﴾ المعاش والمعاد ﴿مِّن فَضْلِهِۦ﴾ في كلا الزمانين، أو المعنى منامكم بالليل وابتغاؤكم بالنهار فلف وضم بالزمانين والفعلين بعاطفين إشعاراً بأن كلاً من الزمانين وإن خص بأحدهما فهو صالح للآخر عندالحاجة ويؤيده سائر الآيات الواردة فيه ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ سماع تفهم واستبصار فإن الحكمة فيه ظاهرة ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ﴾ مقدر بأن أو الفعل فيه نزل منزلة المصدر كقوله تسمع للمعيدي خير من أن تراه أو صفة لمحذوف تقديره آية يريكم بها البرق ﴿خَوْفًا﴾ من الصاعقة وفي حالة السفر ﴿وَطَمَعًا﴾ في الغيث إذا كنتم في منازلكم ونصبهما على العلة لفعل يلزم المذكور فإن إراءتهم يستلزم رؤيتهم إلى البرق الخوف أو الطمع أو الفعل مذكور بحذف المضاف أي لإراءة خوف وطمع أو بتأويل الخوف والطمع بالإخافة والأطماع كقولك فعلتُه رغماً للشيطان أو على الحال مثل كلمتُه شفاهاً ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ مطراً ﴿فيحيي به الأرض﴾ بالإنبات ﴿بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾ أي يبسها ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أي يستعلمون عقولهم فيدركون كمال قدرة الصانع وحكمته ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ﴾ أي يبقيان في حيزيهما ﴿بِأَمْرِهِۦ﴾ أي بإقامته لهما وأرادته ببقائهم ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ

---

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٤٣.

دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ الجملة معطوفة على أن تقوم بتأويل المفرد كأنه قال ومن آياته قيام السماء واورض ثم خروجكم من القبور إذا دعاكم دعوةً واحدةً وثم لتراخي زمانه أو لعظم ما فيه قوله من الأرض، قال البغوي أكثر العلماء على أنه متعلق بتخرجون وقال البيضاوي هذا لا يجوز لأن ما بعد إذا لا يعمل فيما قبله بل متعلق بقوله دعاكم كقوله دعوتُه من أسفل الوادي. أخرج ابن عساكر عن زيد بن جابر الشافعي في قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾﴾ قال يقف إسرافيل على صخرة بيت المقدس فيقول يا أيها العظام النخرة والجلود المتمزقة والأشعار المتقطعة إن الله يأمرك أن تجتمع لفصل الحساب، وإذا الثانية للمفاجأة ولذلك ناب مناب الفاء في جواب الأولى ظرف مضاف إلى الجملة والعامل فيه معنى المفاجأة تقديره ففاجأتم وقت خروجكم.

﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ملكاً وخلقاً ﴿كُلٌّ﴾ أي كل واحد منها ﴿لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ مطيعون، قال الكلبي هذا خاص بمن كان منهم مطيعاً والصحيح أنه عام لبيان قهرمانه والمراد الانقياد في الأوامر التكوينية، قال ابن عباس كل مطيع له في الحياة والموت والبعث ونحو ذلك وإن عصوا في العبادة، أخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة قال تعجب الكفار من إحياء الموتى فنزلت ﴿وهو الذي يبدؤا الخلق ثم يعيده﴾ بعد الإهلاك ﴿وَهُوَ﴾ الإعادة وتذكير الضمير لتنكير الخبر أو الإعادة بمعنى أن يعيد ﴿أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ الجملة حال من فاعل يعيد أو معطوفة على ما سبق، قال الربيع بن خيثم والحسن وقتادة والكلبي أهون بمعنى هين ولا شيء على الله بعزيز ويجيىء إفعل بمعنى الفعيل وهو رواية العوفي عن ابن عباس، وقال مجاهد وعكرمة وهو أهون على طريق ضرب المثل أي هو أيسر عليه على ما يقع في عقولكم فإن في عقول الناس الإعادة أهون من الإنشاء وقيل هو أهون عليه

عندكم وقيل هو يعني العود أهون على الخلق فإنهم في العود يقومون بصيحة واحدة فيكون أهون عليهم من أن يكونوا نطفاً ثم علقاً ثم مضغاً إلى أن يصيروا رجالاً ونساءً وهذا معنى رواية حبان عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ أي الوصف الأعلى الذي ليس لغيره ما يساويه أو بدانيه كالقدرة العامَّة والحكمة التامَّة، قال ابن عباس هي أنه ليس كمثله شيء، وأخرج عبد الرزاق وابن أبي حاتم أنه قال قتادة في قوله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ قال شهادة أن لا إله إلا الله، قلتُ: أراد به الوصف بالوحدانية ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يصف به ما فيهما نطقاً ودلالة ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالب في ملكه وخلقه القادر على كل شيء لا يعجزه شيء من الإبداء والإعادة ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ الذي يجري الأفعال على ما يقتضيه الحكمة.

أخرج الطبراني عن ابن عباس قال كان أهل الشرك يلبّون اللهم لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملكت فنزلت ﴿ضَرَبَ﴾ الله أي بيّن ﴿لَكُم﴾ أيها المشركون ﴿مَّثَلًا﴾ كائناً ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ أي شبهاً منتزعاً من أحوالكم فإنها من أقرب الأمور إليكم وهو ﴿هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم﴾ أي من مماليككم ﴿مِّن شُرَكَآءَ﴾ لله (في ما رزقناكم) من الأموال وغيرها ﴿فأنتم﴾ وهم ﴿فيه سواء﴾ في التملك والتصرف يتصرفون فيه كتصرفكم ﴿تَخَافُونَهُمْ﴾ أن تتصرفوا فيها دونهم ﴿كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ أي أمثالكم في الحرية، والإستفهام للإنكار يعني ليس الأمر كذلك وإنها معادة لكم مع أنهم بشر مثلكم فكيف تجوزون كون الحجارة التي هي أعجز المخلوقات شركاء لخالق الأرض والسماوات ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي تفصيلاً مثل ذلك التفصيل ﴿نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ نبيّنها فإن التمثيل ما يكشف المعاني ويوضحها ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أي يستعملون عقولهم في تدبر الأمثال، وأخرج جويبر مثل ما أخرج الطبراني في سبب نزول الآية عن داود بن أبي هند عن أبي جعفر محمد بن علي عن أبيه عليهم السَّلام ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ﴾ إضراب من مضمون الكلام السابق يعني ليس الله شريك بل اتبع ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾ أنفسهم بتعريضها للعذاب بالإشراك بالله ﴿أَهْوَآءَهُم﴾ في الشرك ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ حال من فاعل اتبعوا يعني جاهلين بما يجب عليهم ﴿فمن يهدى﴾ أي إياه الفاء للسببية والإستفهام للإنكار إذا اتبعوا أهواءهم ولم يقبلوا هدى الله فلا أحد يهديهم وضع المظهر يعني قوله ﴿مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ﴾ موضع الضمير إشعاراً بأن الله أضلهم فمن يقدر على هدايته ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ يخلصونهم عن آفاتها ﴿فَأَقِمْ﴾ الفاء للسببية يعني لما ثبت وحدانيته تعالى وظهر أن المشركين إنما إتبعوا أهواءهم جاهلين فأقم أنت ﴿وَجْهَكَ﴾ أي أخلص بوجهك ﴿لِلدِّينِ﴾ أي للإسلام ﴿حَنِيفًا﴾ مائلاً إليه مستقيماً

عليه غير ملتفت عنه إلى غيره ﴿فطرت الله﴾ منصوب على الإغراء أي إلزموا فطرة الله أي خلقته والمراد به دينه يعني الإسلام كذا قال ابن عباس وجماعة من المفسرين، فالآية خطاب للنبي ﷺ ولأمته بتبعيته فالآية بمنزلة التأكيد أو التفسير لما قبله سماه فطرةً لكونه لازماً لكل مخلوق كما يدل عليه قوله: ﴿ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ خلقهم مستعدين لها متمكنين على إدراكها وقيل المراد به العهد المأخوذ من آدم وذريته بقوله: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾[(١)] قالوا كل مولود في العالم مولود على ذلك الإقرار وهو الحنيفة التي وقعت الخلقة عليها وقد مرَّ ما ورد في هذا الباب في تفسير هذه الآية في سورة الأعراف، عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء ثم قرأ (فطرت الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله)[(٢)] متفق عليه، يعني كل مولود يولد في مبدأ الخلقة على الجبلة السليمة والطبع المهيأ لقبول الحق فلو ترك عليها لاستمر على لزومها لأن هذا الدين مركوز في العقول السليمة حسنه وإنما يعدل عنه من يعدل لآفة من الآفات كتقليد الآباء قوله تعالى ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ الظرف المستقر خبر الله والجملة الخبرية معناه النهي يعني لا تبدلوا دين الله، قال مجاهد وإبراهيم النخعي إلزموا فطرة الله واتبعوه ولا تبدلوا التوحيد بالشرك، وقيل فطرة الله منصوب على المصدرية لفعل دل عليه ما بعده يعني فطر الله الناس فطرة التي فطرهم عليها. حكي عن عبد الله بن مبارك قال معنى الحديث «كل مولود يولد على الفطرة» أي على خلقته التي جبل عليها في علم الله من السعادة أو الشقاوة وكل منهم صائر في العاقبة إلى ما فطر الله عليها وعامل في الدنيا بالعمل المشاكل لها، وعلى هذا معنى قوله تعالى: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ يعني ما جبل عليه الإنسان من السعادة والشقاوة لا يتبدل فلا يكون الشقي سعيداً ولا السعيد شقيّاً. عن ابن مسعود قال: حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق «إن خلق أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين يوماً نطفةً ثم يكون علقةً مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يبعث الله إليه ملكا بأربع كلمات فيكتب عمله وأجله ورزقه وشقي أو سعيد ثم ينفخ فيه الروح، فوالذي لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها الإذراع فيسبق عليه

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٧٢.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الجنائز، باب: إذا أسلم الصبي فمات هل يصلى عليه وهل يعرض على الصبي الإسلام (١٣٥٩)، وأخرجه مسلم، في كتاب: البر والصلة والآداب، باب: معنى كل مولود يولد على الفطرة (٢٦٥٨).

الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها»(١) متفق عليه، وعن أبي الدرداء قال: «بينما نحن عند رسول الله ﷺ فتذاكر ما يكون إذ قال رسول الله ﷺ إذا سمعتم بجبل زال عن مكانه فصدقوه وإذا سمعتم برجل تغير عن خلقه فلا تصدقوه فإنه يصير إلى ما جبل عليه» رواه أحمد، والمعنى على هذا التأويل أن الله فطر كلاً على فطرة لا يتبدل وقد فطرك ومن معك سعداء فأقم وجهك للدين كأنه تعليل وتشجيع على الإخلاص وجاز أن يكون فِطرة الله على هذا التأويل منصوباً بتقدير ملتزمين فطرة الله التي فطركم عليها، فوضع الظاهر يعني لفظ الناس موضع الضمير إشعاراً بأن الناس كلهم مفطورون على فطرة غير تاركوها فأنتم أقيموا وجوهكم للدين، قال عكرمة ومجاهد يعني لا تبدلوا خلق الله والمراد منه تحريم إخصاء البهائم ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى الدين المأمور بالإقامة والفطرة على التأويل الأول ﴿ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ المستقيم الذي لا إعوجاج فيه ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ﴾ يعني كفار مكة ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ إستقامة لعدم تدبرهم.

﴿۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾ وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا۟ بِهِۦ يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾ فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾﴾

﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ أي راجعين إليه من أناب إذا رجع مرةً بعد أخرى، وقيل معناه منقطعين إليه من غيره من الناب منصوب بفعل مقدر وهو كونوا بدليل عطف لا تكونوا عليه أو حال من الضمير في الزموا أو ملتزمين الناصب المقدر لفطرت الله أو في أقم لأن

(١) أخرجه البخاري في كتاب: بدء الخلق، باب: ذكر الملائكة (٣٢٠٨).

الآية خطاب للرسول الله ﷺ وأمته صدرت بخطاب الرسول لتعظيمه كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾[1] يدل عليه قوله ﴿وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ﴾ بدل من المشركين يعني تفرقوا واختلفوا فيما يعبدونه على اختلاف أهوائهم، قرأ حمزة والكسائي فارقوا يعني تركوا دينهم الذي أمروا به ﴿وَكَانُوا۟ شِيَعًا﴾ فرقاً تشايع كل إمامها الذي اخترع لهم ديناً، قيل المراد به أهل البدع من هذه الأمة حيث تركوا دين الحق وأتبعوا أهواءهم وأطلق عليهم لفظ المشركين لكونهم ممن اتخذ إلهه هواه، عن عبد الله بن عمر وقال قال رسول الله ﷺ: «تفترق أمتي ثلاثاً وسبعين فرقة كلهم في النار إلا واحدة، قيل من هي يا رسول الله؟ قال ما أنا عليه وأصحابي»[2] رواه الترمذي ﴿كُلُّ حِزْبٍۭ﴾ منهم ﴿بِمَا لَدَيْهِمْ﴾ من الإعتقاد ﴿فَرِحُونَ﴾ مسرورون ظناً بأنهم على الحق، روى الدارمي عن إبراهيم بن إسحاق عن ابن المبارك عن الأوزاعي قال قال إبليس لأوليائه من أي شيء تأتون بني آدم؟ فقالوا من كل شيء، فقال فهل تأتونهم من قبل الاستغفار؟ فقالوا هيهات ذاك شيء قرن بالتوحيد، قال لأبثن فيهم شيئاً لا يستغفرون منه قال فبث فيهم الأهواء ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ﴾ يعني كفار مكة ﴿ضُرٌّ﴾ قحط وشدة ﴿دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ راجعون إليه من دعاء غيره ﴿ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً﴾ خلاصاً من الشدة أو خصباً ورحمة ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ فاجاء فريق منهم بالإشراك بربهم الذي عافاهم ونسبوا معافاتهم إلى غيره، عن زيد بن خالد الجهني قال: صلّى لنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح بالحديبية على أثر سماء كانت من الليل فلما انصرف أقبل على الناس فقال هل تدرون ماذا قال ربكم؟ قالوا الله ورسوله أعلم، قال: قال أصبح من عبادي مؤمن وكافر فأما من قال مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي كافر بالكواكب وأما من قال مطرنا بنوء كذا فذلك كافر بي مؤمن بالكواكب»[3] متفق عليه، وعن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: «ما أنزل الله من السماء بركةً إلا أصبح فريق من الناس بها كافرين ينزل الله الغيث فيقول بكوكب كذا وكذا»[4] رواه مسلم ﴿لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾ اللام فيه للعاقبة وقيل للأمر بمعنى التهديد لقوله تعالى: ﴿فَتَمَتَّعُوا۟﴾ غير أن فيه التفات من الغيبة إلى الخطاب ﴿فَسَوْفَ

(١) سورة الطلاق، الآية: ١.

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: الإيمان، باب: ما جاء في افتراق هذه الأمة (٢٦٤٠).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: صفة الصلاة، باب: يستقبل الإمام الناس إذا سلم (٨٤٦)، وأخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: بيان كفر من قال مطرنا بالنوء (٧١).

(٤) أخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: بيان كفر من قال مطرنا بالنوء (٧٢).

﴿تَعۡلَمُونَ﴾ عاقبة تمتيعكم ﴿أَمۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٗا﴾ أم منقطعة بمعنى بل والهمزة والإستفهام للإنكار عطف على ﴿كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ﴾ وجاز أن يكون متصلة معطوفة على مقدر تقديره أيشركون بلا حجة ﴿أَمۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٗا﴾ قال ابن عباس يعني حجة وعذراً وقال قتادة كتاباً، وقيل ذو سلطان يعني ملكاً معه برهان أو رسولاً مؤيداً بالمعجزة ﴿فَهُوَ يَتَكَلَّمُ﴾ نطقاً أو دلالة كقوله تعالى: ﴿كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيۡكُم بِٱلۡحَقِّۚ﴾(١) ﴿بِمَا كَانُواْ بِهِۦ يُشۡرِكُونَ﴾ أي بإشراكهم وصحته أو بالأمر الذي بسببه يشركون به وبألوهيته والاستفهام في أم أنزلنا للتقرير يعني حمل المخاطب على الإقرار بأنهم يشركون بلا حجة ﴿وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةٗ﴾ نعمة من صحة وسعة ﴿فَرِحُواْ﴾ بطروا بها بسببها ﴿وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةُۢ﴾ شدة ﴿بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ﴾ أي بشؤم معاصيهم ﴿إِذَا هُمۡ يَقۡنَطُونَ﴾ فأجاءوا القنوط من رحمته وهذا خلاف وصف المؤمن فإنه يشكر عند النعمة ويرجو ربه عند الشدة ويصبر ويحتسب ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ﴾ الإستفهام للإنكار والواو للعطف على محذوف تقديره ألم يتفكروا ولم يعلموا ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ﴾ أي يضيق فمالهم بطروا في السراء ولم يشكروا وقنطوا في الضراء ولم يرجعوا إلى الله راجين مغفرته بالندم والتوبة وترك المعصية ولم يصبروا ولم يحتسبوا كالمؤمنين ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ القبض والبسط ﴿لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ يستدلون بهما على كمال القدرة والحكمة ﴿فَـَٔاتِ﴾ الفاء للسببية يعني إذا عرفت أن قبض الرزق والبسط من الله تعالى فآت: ﴿ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ مصدر بمعنى القرابة ﴿حَقَّهُۥ﴾ من البر والصلة والنفقة الواجبة بقوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلۡوَارِثِ مِثۡلُ ذَٰلِكَۗ﴾(٢) وقد مرَّ بحث نفقة المحارم في تفسير تلك الآية في سورة البقرة ﴿وَٱلۡمِسۡكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِۚ﴾ المسافر الذي ليس معه ماله وكان له مال في وطنه آتهم حقوقهم من مال الزكاة ابتغاء مرضات الله ورجاء من فضله في الدنيا والآخرة ﴿ذَٰلِكَ﴾ الإيتاء ﴿خَيۡرٞ﴾ من إيثار اللذات لأنفسهم ﴿لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجۡهَ ٱللَّهِۖ﴾ أي ذاته أو جهته يعني يقصدون به رضاءه ويرجون ثوابه دون من يؤتى رياءً وسمعة ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ عطف على الموصول أو على ذلك ﴿هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ دون غيرهم فإنهم إشتروا بالدنيا الفانية العقبى الباقية ﴿وَمَآ ءَاتَيۡتُم﴾ بالمد عند الجمهور يعني ما أعطيتم أكلة الربا ﴿مِّن رِّبٗا﴾ زيادة محرمةً في المعاملة أو عطيةً مباحةً من هدية أو هبة يتوقع بها مزيد مكافأة، وعلى هذا التأويل سمى العطية بالربا باسم المطلوب وهو الزيادة، وقرأ ابن كثير ما آتيتم في

(١) سورة الجاثية، الآية: ٢٩.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٣٣.

الموضعين مقصوراً أي ما جئتم به من إعطاء زيادة محرمة أو عطية مباحة يتوقعون بها مزيد مكافأة ﴿ليربوا﴾ قرأ أهل المدينة ويعقوب بالتاء للخطاب مضمومةً والباء المضمومة وإسكان الواو أي لتربوا أنتم وتصيرون ذا زيادة ﴿فِيٓ أَمۡوَٰلِ ٱلنَّاسِ﴾ أي أموال المعطين أو المعطى لهم وقرأ الباقون ليربوا بالياء التحتانية المفتوحة وفتح الواو أي ليزيدوا في أموالهم ﴿فلا يربوا عند الله﴾ فلا يزيدوا عنده ولا يبارك فيه. قال البغوي إختلفوا في معنى الآية فقال سعيد بن جبير ومجاهد وطاووس وقتادة وأكثر المفسرين هو الرجل يعطي غيره العطية ليثبت أكثر منها وهذا جائز حلال ولكن لا يثاب عليه يوم القيامة وهو معنى قوله لا يربوا عند الله وكان هذا حراماً على النبي ﷺ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَمۡنُن تَسۡتَكۡثِرُ ۝٦﴾[1] وقال الضحاك هو الرجل يعطي قريبه أو صديقه لتكثير ماله ولا يريد به وجه الله، وقال الشعبي هو الرجل يلتزق بالرجل فيخدمه ويسافر معه فيجعل له ربح ماله التماس عونه لا لوجه الله فلا يربوا عند الله لأنه لا يريد به وجهه قال رسول الله ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل إمرىءٍ ما نوى فمن كانت هجرته إلى ما الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى هاجر إليه»[2] متفق عليه من حديث عمر بن الخطاب ﴿وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن زَكَوٰةٖ﴾ أي ما أعطيتم من صدقتا أو فعلتم أداء الزكاة ﴿تُرِيدُونَ﴾ به ﴿وَجۡهَ ٱللَّهِ﴾ ذاته أو ثوابه ورضاءه ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ يعني الذين يؤتون الزكاة ﴿هُمُ ٱلۡمُضۡعِفُونَ﴾ أي الذين يضاعف لهم الثواب فيعطون بالحسنة عشرة أمثالها إلى سبع مائة ضعف إلى ما لا نهاية له ويضاعف لهم أموالهم ببركة الزكاة أو المعنى هم ذووا الإضعاف من الثواب نظيره المقوي والموسر لذي القوة واليسار. وتغييره عن سنن المقابلة عبارةً ونظماً للمبالغة، والإلتفات فيه للتعظيم كأنه خاطب به الملائكة وخواص الخلق تعريفاً لحالهم أو للتعميم كأنه قال من فعل ذلك فأولئك هم المضعفون والراجع منه محذوف إن جعلت ما موصولة تقديره المضعفون به وقال الزجاج تقديره فأهلها هم المضعفون.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ ثُمَّ رَزَقَكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡۖ هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفۡعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيۡءٖۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ۝٤٠ ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ

---

(١) سورة المدثر، الآية: ٦.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: بدء الوحي، باب: كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ (١)، وأخرجه مسلم في كتاب: الإمارة، باب: قوله ﷺ إنما الأعمال بالنية (١٩٠٧).

بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِى عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ سِيرُوا فِى الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾ لِيَجْزِىَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَٰفِرِينَ ﴿٤٥﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ أَن يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَلِتَجْرِىَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَٰتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ اللَّهُ الَّذِى يُرْسِلُ الرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِى السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَانظُرْ إِلَىٰ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا مِن بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَا أَنتَ بِهَٰدِ الْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾.

﴿اللَّهُ﴾ مبتدأ وما بعده خبره ﴿الَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم﴾ أي ممن أشركتموها بالله من الأصنام وغيرها والإستفهام للانكار أي ليس شيء منها ﴿مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ﴾ ذكر الله سبحانه لوازم الألوهية وأثبتها لنفسه ونفاها عن غيره مؤكداً بالإنكار على ما دلّ عليه البرهان والعيان ووقع عليه الوفاق ثم استنتج من ذلك تقدسه عن أن يكون له شريكاً فقال ﴿سُبْحَٰنَهُ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ قرأ حمزة والكسائي بالتاء الفوقانية والباقون بالياء التحتانية وجاز أن يكون الذي خلقكم صفة لله وهل من شركائكم خبره من الرابط من ذلكم لأنه بمعنى من أفعاله تقديره الله الذي خلقكم هل من شركائكم من يفعل شيئاً من أفعاله من الأولى والثانية تفيد أن شيوع الحكم في جنس الشركاء والأفعال والثالثة مزيدة لتعميم النفي وكل منها مستقلة لتعجيز الشركاء ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ كالجدب والموتان وكثرة الحرق والغرق والقتال والجدال ومحق البركات والظلم وكثرة المضار والأمراض والضلال والرياح المفسدة في البحار ومصادمة الداوب في البحار، وقال البغوي أراد بالبر البوادي والمفاوز وبالبحر المدائن والقرى التي على المياه الجارية، وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن عكرمة

أنه قال العرب يسمي المصر بحراً يقول أجدبت البر وانقطعت مادة البحر، وقال عطية وغيره البر ظهر الأرض من الأمصار وغيرها و البحر هو البحر المعروف وقلة المطر كما تؤثر في البر تؤثر في البحر فتخلوا جواف الأصداف لأن الصدف إذا جاع المطر ترتفع إلى وجه البحر وتفتح فاه فما يقع في فيه من المطر صار لؤلؤاً، وقال ابن عباس ومجاهد الفساد في البر قتل ابن آدم أخاه وفي البحر غصب الملك الجابر السفينة، أخرج الفريابي وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد أنه قال ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ﴾ بقتل قابيل أخاه وفي البحر بأن ملك عمان جلندي كان يأخذ كل سفينة غصباً وقال الضحاك كانت الأرض خضرة مونقة لا يأتي ابن آدم شجرةً إلا وجد عليها ثمرة وكان ماء البحر عذباً وكان لا يقصد الأسد البقر والغنم فلمّا قتل قابيل وهابيل أقشرت الأرض وشاكت الأشجار وصار ماء البحر ملحاً أجاجاً وقصد الحيوان بعضه بعضاً ﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾ أي بشؤم معاصيهم أو بكسبهم إياه يعني وقع القحط والجدب بمكة بشؤم معاصي أهلها حتى أكلوا العظام والجيف ليذيقهم قرأ قنبل بالنون على التكلم والباقون بالياء ﴿بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟﴾ أي بعض جزائه فإن تمام الجزاء في الآخرة واللام للعلة أو العاقبة ﴿لعلهم يرجعون﴾ أي لكي يرجعوا من أعمالهم الخبيثة متعلق بقوله ليذيقهم، قال قتادة امتلأت الأرض ظلماً وضلالة قبل مبعث النبيّ ﷺ فلمّا بعث رجع راجعون من الناس.

﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ﴾ أي من قبلكم لتروا منازل الذين ظلموا خاوية ﴿كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ﴾ الجملة حال بتقدير قد أو استئناف للدلالة على أن سوء عاقبتهم كان لظهور الشرك وغلبته فيهم أو كان الشرك في أكثرهم وما دونه من المعاصي في قليلهم فأهلكوا جميعاً بشؤم الجار السوء أو بتركهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، جملة قُلْ سيروا تأكيد من حيث المعنى ليذيقهم لدلالته على إذاقة العذاب ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ﴾ حذراً عما لحق بمن قبلك فالفاء للسببية ﴿لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ﴾ البليغ في الإستقامة وهو دين الإسلام ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ﴾ أي لا يقدر أحد أن يرده ﴿مِنَ ٱللَّهِ ۖ﴾ متعلق بياتي أو بمرد لأنه مصدر على معنى لا يرده الله لتعلق إرادته بمجيئه يمكن أن يكون المراد بذلك اليوم يوم يأتيهم العذاب في الدنيا والظاهر أن المراد به يوم القيامة ﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾ أصله يتصدعون أي يتصرفون فريق في الجنة وفريق في السعير أو فريق يعذب في الدنيا وفريق لا يعذب كيوم بدر ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ﴾ أي وباله في الدنيا والآخرة ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ أي يسوون منازل حسنة في القبور وفي الجنة ﴿لِيَجْزِىَ﴾ الله متعلق بيمهدون ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ ظاهر موضع الضمير لبيان

مناط جزائهم ﴿مِن فَضْلِهِۦ﴾ متعلق بيجزي، قال ابن عباس ليثيبهم الله أكثر من ثواب أعمالهم اقتصر على جزاء المؤمنين للإشعار بأنه المقصود بالذات وأن الله إنما يريد الإثابة إلا من أبى وظلم على نفسه وأختار النار لأجل كفرهم كما يدل عليه قوله ﴿إِنَّهُۥ﴾ أي الله ﴿لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ فهم بكفرهم لم يستحقوا تفضله، وقال الشيخ جلال الدين قوله ليجزي متعلق بيصَّدَّعُونَ وقد ذكر جزاء الفريقين فإن قوله ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ معناه أنه يعاقبهم والله أعلم.

وقوله: ﴿مِن فَضْلِهِۦ﴾ دالٌّ على أن الإثابة تفضل محض وتأويله بالعطاء أو الزيادة على الثواب عدول عن الظاهر، قلتُ: ويؤيده ما أخرج أحمد في الزهد عن أبي الحارث قال أوحى الله تعالى إلى داود أنذر عبادي الصالحين فلا يعجبوا بأنفسهم ولا يتكلوا على أعمالهم فإنه ليس عبد من عبادي أنصبه للحساب وأقيم عليه عدلي إلا عذبته، وأخرج أبو نعيم عن علي رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «إن الله تبارك وتعالى أوحى إلى نبي من أنبياء بني إسرائيل قل لأهل طاعتي من أمتك أن لا يتكلوا على أعمالهم فإني لا أناصب عبداً لحساب يوم القيامة أشاء أعذبه إلا عذبته وقل لأهل معصيته من أمتك لا يلقوا بأيديهم فإني أغفر الذنوب العظيمة ولا أبالي» وأخرج الطبراني عن واثلة بن الأسقع رضي الله عنه يبعث الله يوم القيامة عبداً لا ذنب له فيقول الله تبارك وتعالى بأي الأمرين أحب إليك أن أجزي بعملك أو بنعمتي عليك، قال أي رب أنت أعلم أني لم أعصك قال خذوا عبدي بنعمة من نعمتي فما يبقى له حسنة إلا استغرقتها تلك النعمة فيقول بنعمتك ورحمتك، وأخرج البزار عن أنس عن النبيّ ﷺ «يخرج لابن أدم يوم القيامة ثلاثة دواوين ديوان فيه العمل الصالح وديوان فيه ذنوبه وديوان فيه النعم من الله تعالى، يقول الله تعالى لأصغر نعمة من ديوان النعم خذي منك من العمل الصالح فتستوعب العمل الصالح فيقول وعزتك ما استوعبت ويبقى الذنوب وقد ذهب العمل الصالح كله فإذا أراد الله تعالى أن يرحم عبداً قال يا عبدي قد ضاعفت لك حسناتك وتجاوزتُ عن سيآتك ووهبتُ لك نعمتي» وأخرج الطبراني في الأوسط عن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبيّ ﷺ قال: «من قال لا إله إلا الله كان له بها عهداً عند الله ومن قال سبحان الله كتب له بها مائة ألف حسنة، فقال رجل يا رسول الله كيف نهلك بعد هذا؟ قال والذي نفسي بيده إن الرجل ليجيء يوم القيامة بعمل لو وضع على جبل لأثقله فتقوم نعمة من نعم الله تعالى فكان كله يستنفد ذلك كله يوماً يتفضل الله به من رحمته» وأخرج الشيخان عن عائشة وعن أبي هريرة عن النبيّ ﷺ قال: «سددوا وقاربوا وأبشروا فإنه لا يُدخل الجنة أحداً عمله، قالوا ولا

أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله بمغفرته ورحمته»[١] وعند مسلم عن جابر نحوه، وقد ورد هذا أيضاً من حديث أبي سعيد أخرجه أحمد ومن حديث ابن أبي موسى وشريك بن طارق أخرجهما البزار ومن حديث شريك بن طريف وأسامة بن شريك وأسد بن كرز أخرجها الطبراني.

وهاهنا إشكالان **أحدهما** أنه لا يبقى حينئذ فائدة في الطاعة وترك المعصية فإن الله تعالى لو لم يتفضل عذّب أهل الطاعة ولو تفضل غفر أهل المعصية وأدخل الجنة **وثانيهما** أنه معارض لقوله تعالى: ﴿ادخلوا الجنة بما كنتم تعلمون﴾[٢] فإنه يدل على أن دخول الجنة مسبب بالأعمال. والجواب عن الأول أن الطاعة يقتضي محبة الله عبده حيث قال الله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾[٣] وقال رسول الله ﷺ حكايةً عن الله سبحانه: «ما يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه»[٤] رواه البخاري عن أبي هريرة في حديث طويل، والمحبة تقتضي التفضل والتفضل سبب لجلب كل خير ودفع كل ضرر، وعن الثاني بأن للجنة منازل تنال فيها بالأعمال فإن درجات الجنة متفاوتة بحسب تفاوت الأعمال وأما أصل دخولها والخلود فيها فبفضل الله ورحمته، يؤيده ما أخرجه هناد في الزهد عن ابن مسعود قال تجوزون الصراط بعفو الله وتدخلون الجنة برحمة الله وتقسمون المنازل بأعمالكم وأخرج أبو نعيم عن عون بن عبد الله مثله والله أعلم.

﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ﴾ دلائل قدرته ﴿أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ﴾ من الشمال إلى الجنوب وبالعكس ومن المشرق إلى المغرب وبالعكس على حسب إرادته من غير محرك كما يشهد به الحس، قرأ حمزة والكسائي الريح على إرادة الجنس ﴿مُبَشِّرَٰتٍ﴾ بالمطر حال من الرياح ﴿وَلِيُذِيقَكُم﴾ المذوقات من الحبوب والثمار وغيرها معطوف على معنى مبشرات كأنه قال ليبشركم وليذيقكم أو على محذوف تقديره يرسل الرياح ليذهب عنكم الحر والسموم وليذيقكم ﴿مِّن

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الرقاق، باب: القصد والمداومة على العمل (٦١٠٢)، وأخرجه مسلم في كتاب: صفة القيامة والجنة والنار، باب: لن يدخل أحد الجنة بعمله بل برحمة الله تعالى (٢٨١٦).

(٢) سورة النحل، الآية: ٣٢.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ٣١.

(٤) أخرجه البخاري في كتاب: الرقاق، باب: التواضع (٦٥٠٢).

﴿رَحْمَتِهِۦ﴾ من للإبتداء ﴿وَلِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ﴾ بالرياح ﴿بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا﴾ الأرباح بالتجارة في البحر ﴿مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي ولتشكروا نعم الله فيها فتجلبوا ثمراته في الدنيا والآخرة جملة من آياته متصل بقوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾ الآية.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ بالدلالات الواضحات على صدقهم فآمن بهم قوم وكفربهم آخرون يدل عليه قوله ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟﴾ أي عذبنا الذين كفروا بهم ﴿وكأن حقاً علينا نصر المؤمنين﴾ معطوف على جملة محذوفة تقديره ونصرنا الذين آمنوا وكان حقاً علينا نصر المؤمنين وفيه إشعار بأن الإنتقام من الكفار كان لأجل نصر المؤمنين وإظهار كرامتهم. فإن قيل هذه الآية تدل على وجوب نصر المؤمنين تفضلاً فيلزم منه أن لا يغلب الكفار عليهم قط وقد يرى خلاف ذلك؟ قلنا: اللام والإضافة في نصر المؤمنين للعهد والمراد أن المؤمنين الذين جاهدوا الكفار خالصاً لإعلاء كلمة الله والموعود من الله أن ينصرهم ولو بعد حين وعن أبي الدرداء قال سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «ما من مسلم يرد عن عرض أخيه إلا كان حقاً على الله................ أن يرد عنه نار جهنم يوم القيامة ثم تلا هذه الآية «وكان حقاً علينا نصر المؤمنين»[(١)] أخرجه الترمذي وحسنه وأخرجه إسحاق بن راهويه والطبراني وغيرهما من حديث أسماء بنت يزيد، وقد يوقف على حقاً على أنه متعلق بالإنتقام ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ﴾ متصلاً تارة ﴿فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ أي في سمتها كقوله تعالى ﴿وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾[(٢)] ﴿كَيْفَ يَشَآءُ﴾ حال من مفعول يبسط أي سائراً أو واقعاً مطبقاً أو غير مطبق من جانب دون جانب إلى غير ذلك ﴿وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا﴾ قطعاً تارةً أخرى، قرأ ابن عامر بسكون السين على أنه مخففاً أو جمع كسفة أو مصدر وصف به ﴿فَتَرَى ٱلْوَدْقَ﴾ المطر ﴿يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾ في التارتين ﴿فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ﴾ يعني بلدهم ﴿إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ يفرحون بمجيء الخصب ﴿وَإِن كَانُوا۟﴾ مخففة من الثقيلة يعني وأنهم كانوا ﴿مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم﴾ المطر خفف المكي والبصري ينزل ﴿مِّن قَبْلِهِۦ﴾ تكرير للتأكيد والدلالة على تطاول عهدهم بالمطر واستحكام يأسهم ليس في قراءة ابن مسعود كلمة من قبله لمبلسين اللام فارقة وقيل إن نافية واللام بمعنى إلا والمعنى وما كانوا من قبله إلا آيسين ﴿فانظر إلى آثار رحمت الله﴾ يعني آثار الغيث من النبات

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: البر والصلة، باب: ما جاء في الذب عن عرض المسلم (١٢٨٧).

(٢) سورة إبراهيم، الآية: ٢٤.

والأشجار والحبوب والثمار ولذلك جمعه ابن عامر وحفص وحمزة والكسائي وقرأ الجمهور أثر رحمت الله مفرداً أي على إرادة الجنس ﴿كيف يحيي الأرض﴾ بالإنبات ﴿بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أي يبسها ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ الذي قدر على إحياء الأرض بعد موتها ﴿لمحيي الموتى﴾ يحييهم بعدما يميتهم فما وجه إنكاركم أيها الكفار بعدما تشاهدون ما يماثله ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أن نسبة قدرته إلى جميع الممكنات على السواء ﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا﴾ موجباً ليبس الأرض ﴿فَرَأَوْهُ﴾ أي رأوا الأثر أو الزرع فإنه مدلول عليه بما تقدم ﴿مُصْفَرًّا﴾ واللام جواب قسم مقدر ﴿لَّظَلُّوا مِن بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ﴾ بنعمة الله جواب للقسم سدَّ مسد الجزاء مبنية حال الكفار لقلة تثبتهم وعدم تدبرهم وسرعة تزلزلهم لعدم تفكرهم وسوء رأيهم، والنظر السوي يقتضي أن يتوكلوا على الله ويلتجؤوا إليه بالإستغفار إذا احتبس المطر عنهم ولا ييئسوا من حرمة الله، وأن يبادروا إلى الشكر والإستدامة بالطاعة إذا أصابهم برحمته و يفرطوا في الاستبشار وأن يصبروا عى بلائه إذا ضرب بزرعهم أفة ولا يكفروا نعمه ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ﴾ وهم مثلهم لسدهم عن الحق مشاعرهم ﴿وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ﴾ قرأ ابن كثير لا يسمع بالياء على الغيب على البناء للفاعل من المجرد ورفع الصم والجمهور على صيغة الخطاب من الأفعال ونصب ﴿الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾ قيد الحكم به ليكون أشد استحالةً فإن الأصم المقبل وإن لم يسمع الكلام يفطن منه بواسطة الحركات شيئاً ﴿وما أنت بهاد العمى﴾ أي الكفار قرأ حمزة تهدي بصيغة المضارع سماهم عمياً لفقدهم المقصود الحقيقي من الابصار أو لعمى قلوبهم ﴿عَن ضَلَالَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ﴾ سماع إفهام وقبول ﴿إلا من يؤمن بآياتنا﴾ فإن إيمانهم يدعوهم إلى تلقي اللفظ وتدبر المعنى ويجوز أن يراد بالمؤمن المشارف للإيمان أو من قدر الله له الإيمان ﴿فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾ لما تأمرهم به.

﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِن فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴿٤٥﴾ وَمِنْ
آيَاتِهِ أَن يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ
وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ
أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي
السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ
عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾
فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ

كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا مِن بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَا أَنتَ بِهَادِ الْعُمْيِ عَن ضَلَالَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَٰلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَٰذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِن جِئْتَهُم بِآيَةٍ لَّيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾﴾.

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ﴾ أي إبتداؤكم ضعف أي ضعف الطفولية أو جعل الضعف أساس أمركم كقوله تعالى: ﴿خُلِقَ الْإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾(١) أو المعنى خلقكم من أصل ضعيف وهو النطفة أي ذي ضعف كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾﴾(٢) ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ﴾ أي ضعف الطفولية ﴿قُوَّةً﴾ أي شباباً ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾ قرأ أبو بكر وحمزة من ضعف في المواضع الثلاثة بفتح الضاد وكذلك روى حفص عن عاصم فيهن غير أنه ترك ذلك وأختار الضم إتباعاً منه لرواية حدثه بها الفضل بن مرزوق عن عطية العوفي عن عبد الله بن عمر أنه ﷺ أقرأ ذلك بالضم وردَّ عليه الفتح، كذا أخرج أبو داود والترمذي عن ابن عمر وهذه الرواية ضعيفة كذا قال الداني وما رواه حفص عن عاصم عن أئمته أصح والباقون بضم الضاد فيهن كذا قال الداني، وقال البغوي في التفسير قرأ حفص بضم الضاد وفتحها والآخرون بفتحها وهما لغتان فالضمة لغة قريش والفتح لغة تميم، وفي القاموس الضعف بالفتح في الرأي وبالضم في البدن ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ من الضعف والقوة والشباب والشيب ﴿وَهُوَ الْعَلِيمُ﴾ بتدبير خلقه ﴿الْقَدِيرُ﴾ على كل ما يشاء ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ﴾ أي القيامة سميت بها لأنها تقوم في آخر ساعة من ساعات الدنيا أو لأنها يقع بغتة وصارت علماً لها بالغلبة كالكواكب للزهرة ﴿يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٣٧.

(٢) سورة المرسلات، الآية: ٢٠.

يحلف المشركون ﴿مَا لَبِثُوا﴾ في الدنيا والقبور بدليل قوله تعالى: ﴿لقد لبثتم إلى يوم البعث﴾(١) ﴿غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ من الزمان إستقلوا مدة لبثهم إضافةً إلى مدة عذابهم في الآخرة أو نسياناً أو لأن ما مضى صار كأن لم يكن قال الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي مثل ذلك الصرف عن الصدق والتحقيق ﴿كَانُوا﴾ في الدنيا ﴿يُؤْفَكُونَ﴾ يصرفون عن الحق حيث كانوا يشركون بالله ويقولون أن لا بعث ﴿وَقَالَ﴾ عطف على يقسم المجرمون ﴿الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ﴾ أي الملائكة والأنبياء والمؤمنون ردّاً لقولهم ﴿لَقَدْ لَبِثْتُمْ﴾ زماناً كتب الله لكم لبثه ﴿فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ أو زماناً كائناً في كتاب الله أي مكتوباً فيه مدة لبثكم أو لبثتم لبثاً كائناً في كتاب الله أي اللوح المحفوظ أو صحف الملائكة الموكلين بالأرحام حيث قال رسول الله ﷺ: «إن خلق أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين يوماً نطفة ثم يكون علقةً مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يبعث الله إليه ملكاً بأربع كلمات فيكتب عمله وأجله» الحديث، أو القرآن وهو قوله تعالى: ﴿وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾(٢) ﴿إِلَىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ﴾ متعلق بقوله لبثتم ﴿فَهَٰذَا يَوْمُ الْبَعْثِ﴾ الذي كنتم تنكرونه في الدنيا، جملة معترضة أو جواب شرط محذوف تقديره إن كنتم تنكرون البعث فهذا يومالبعث أي فأنتم مبطلون وقد تبين بطلان إنكاركم ﴿وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أنه حق لتفريطكم في النظر ﴿فيؤمئذ لا ينفع الذين ظلموا معذرتهم﴾ قرأ الكوفيون لا ينفع بالياء التحتانية والباقون بالتاء الفوقانية لتأنيث الفاعل لكنه غير حقيقي ومفصول ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ أي لا يطلب منهم العتبى أي الرضاء كذا في القاموس يعني لا يطلب منهم موجبات رضاء الله منهم من التوبة والطاعة كما طلب منهم في الدنيا من قولهم استعتبني فلان فأعتبتهُ أي استرضاني فأرضيتُه أو المعنى لا يطلب رضاؤهم بالله كما يطلب من المؤمنين رضاؤهم، عن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله ﷺ: «إن الله يقول لأهل الجنة هل رضيتم؟ فيقولون وما لنا لا نرضى وقد أعطيتَنا ما لم تعط أحداً من الخلق فيقول أما أعطيكم أفضل من ذلك؟ قالوا وما أفضل من ذلك؟ فيقول أحلُّ لكم رضواني فلا أسخط بعده»(٣) متفق عليه، وقال الله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾﴾(٤).

---

(١) الآية هي: ﴿لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ﴾ سورة الروم، الآية: ٥٦.

(٢) سورة المؤمنون، الآية: ١٠٠.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: الرقاق، باب: صفة الجنة والنار (٦٥٤٩)، وأخرجه مسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: إحلال الرضوان على أهل الجنة (٢٨٢٩).

(٤) سورة الليل، الآية: ٢١.

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا﴾ أي بيّناً ﴿لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ أي أنواع الحكايات التي هي في الغرابة كالأمثال مثل صفة المبعوثين من الكفار يوم القيامة وما يقولون وما يقال لهم وما لا يكون لهم من الإنتفاع بالمعذرة وعدم استغنائهم، أو بينّا لهم من كل مثل ينبههم على التوحيد والبعث وصدق الرسول ﴿وَلَئِن جِئْتَهُم﴾ جواب قسم محذوف ﴿بآية﴾ من آيات القرآن لو معجزة كعصا موسى ﴿لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ من فرط غباوتهم وقساوة قلوبهم ﴿إِنْ أَنتُمْ﴾ يعنون الرسول والمؤمنين ﴿إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾ أي قائلون بالأباطيل ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي طبعاً مثل ذلك الطبع الذي طبعنا على قلوب كفار مكة الذين قالوا إن أنتم إلا مبطلون ﴿يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ توحيد الله أو لا يطلبون العلم ويصرون على خرافات اعتقدوها فإن الجهل المركب يمنع عن إدراك الحق ويوجب تكذيب للحق ﴿فأصبر﴾ على أذاهم ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ بنصرتك وإظهار دينك على سائر الأديان ﴿حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ﴾ أي لا يحملنك على الخفة والقلق أو لا يحملنك على الجهل وأتباعهم في الغي ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ بتكذيبهم وإيذائهم - تم تفسير سورة الروم خامس عشر رجب سنة ألف ومائتين وست والحمد لله رب العالمين ويتلوه إن شاء الله تعالى سورة لقمان والحمد لله.

سورة لقمان

آياتها أربع وثلاثون وهي مكيّة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ۝٣ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٥ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٦ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٧ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ۝٨ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٩ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ۝١٠ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝١١﴾.

﴿الٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾ ذي حكمة أو وصف الكتاب بصفة الله عز وجلَّ على الإسناد المجازي والإضافة بمعنى من هدى ورحمة قرأ حمزة بالرفع على أنه خبر بعد خبر لتلك أو خبر لمحذوف أي هي ﴿هُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ والحمل على المبالغة كزيد عدل أو بحذف المضاف أي ذات هدًى والباقون بالنصب على الحال من الآيات والعامل فيه معنى الإشارة ﴿لِّلْمُحْسِنِينَ ۝٣ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤﴾ بيان لإحسانهم أو تخصيص بهذه الثلاثة من شعبه لفضل إعتداد بها وتكرير الضمير للتوكيد ولما جعل بينه وبين خبره ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٥﴾ فائزون مقاصد هم لاستجماعهم العقيدة والعمل الصالح.

أخرج جويبر عن ابن عباس قال اشترى النضر بن الحارث قينة فكان لا يسمع بأحد يريد الإسلام إلا انطلق به إلى قينته فيقول أطعميه وأسقيه وغنيه هذا خير مما يدعوك إليه

محمد من الصلاة والصيام وأن تقاتل بين يديه فنزلت ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ﴾ أي ما تلهي وتشتغل عما يفيد من الأحاديث التي لا أصل لها والأساطير التي لا اعتبار فيها والمضاحيك وفضول الكلام، والإضافة بيانية بمعنى من إن أراد بالحديث المنكر أو تبعيضية أيضاً بمعنى من إن أراد به الأعم منه، وأخرج ابن جرير من طريق العوفي عن ابن عباس أنها نزلت في رجل من قريش إشترى جارية مغنيةً، وروى البغوي عن أبي سلمة قال قال رسول الله ﷺ: «لا يحل تعليم المغنيات وأثمانهن حرام وفي مثل هذا نزلت ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ﴾ الآية وما من رجل يرفع صوته بالغناء إلا بعث الله شيطانين أحدهما على هذا المنكب والآخر على هذا المنكب ولا يزالان يضربان بأرجلهما حتى يكون هو الذي يسكت»، أخرج الترمذي وغيره عن أبي أمامة عن رسول الله ﷺ قال: «لا تبيعوا القينات ولا تشتروهن ولا تعلموهن ولا خير في تجارة فيهن وثمنهن حرام» في مثل هذا أنزلت: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ﴾(١) وقال البغوي قال مقاتل والكلبي نزلت في النضر بن الحارث بن كلدة كان يتَّجر فيأتي الحيرة ويشتري بها أخبار الأعاجم ويحدث بها قريشاً ويقول إن محمداً يحدثكم بحديث عاد وثمود وأنا أحدثكم بحديث رستم واسفنديار وأخبار الأكاسرة فيستملحون حديثه ويتركون استماع القرآن فأنزل الله هذه الآية، وكذا أخرج البيهقي في شعب الإيمان عن ابن عباس وقال مجاهد يعني القينات والمغنين، ومعنى الآية على هذا من يشتري ذات لهو أو ذا لهو الحديث أو المعنى من يشتري لهو الحديث أي يستبدل ويختار الغناء والمزامير والمعازف على القرآن، قال مكحول من اشترى جارية ضرابةً لتمسكها لغنائها وضربها مقيماً عليه حتى يموت لم أصلّ عليه لأن الله تعالى قال: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ﴾ الآية، وعن ابن مسعود وابن عباس والحسن وعكرمة وسعيد بن جبير قالوا لهو الحديث الغناء والآية نزلت فيه، وقال أبو الصهباء البكري سألتُ ابن مسعود عن هذه الآية قال هو الغناء والله الذي لا إله إلا هو يردّدها ثلاث مرات، وقال ابن جريج هو الطبل قلتُ مورد النص وإن كان خاصّاً وهو الغناء أو قصص الأعاجم لكن اللفظ عام والعبرة لعموم اللفظ لا لخصوص السبب ومن هنا قال قتادة هو كل لهو ولعب وقال الضحاك هو الشرك.

مسألة:

إتخاذ المعازف والمزامير حرام باتفاق فقهاء الأمصار عن أبي هريرة أن النبيّ ﷺ

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: البيوع، باب: ما جاء في كراهية بيع المغنيات (١٢٧٩).

«نهى عن ثمن الكلب وكسب الزمارة» رواه البغوي، وعن أبي مالك الأشعري أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «يشربون الناس من أمتي الخمر يسمونها بغير اسمها ويضرب على رؤوسهم المعازف والقينات يخسف الله بهم الأرض ويجعل منهم القردة والخنازير»(١) رواه ابن ماجه وصححه ابن حبان وأصله في صحيح البخاري، وعن علي بن أبي طالب قال قال رسول الله ﷺ: «إذا فعلت أمتي خمس عشرة خصلة حل بها البلاء، قيل وما هي يا رسول الله؟ قال: «إذا كان المغنم دولاً والأمانة مغنماً والزكاة مغرماً وأطاع الرجل زوجته وعقَّ أمه وبرّ صديقه وجفا أباه وارتفعت الأصوات في المساجد وكان زعيم القوم أرذلهم وأكرم الرجل مخافة شرّه وشربت الخمر ولبست الحرير واتخذت القينات والمعازف ولعن آخر هذه الأمة أولها فليرتقبوا عند ذلك ريحاً حمراء أو خسفاً أو مسخاً»(٢) رواه الترمذي وقال غريب.

مسألة:

قالت الفقهاء الغناء حرام بهذه الآية لكونه لهو الحديث وبما ذكرنا من الأحاديث، وقالت الصوفية كان من الرجال ذي قلب مطمئن بذكر الله فارغاً عن غيره لا يلتفت إلى ما سوى الله ولا يكون المغنّى محلاً للشهوة وكان المجلس خالياً عن الأغيار ولا يكون وقت صلاة أو نحوها جاز له السماع بل يستحب، لأن في السماع خاصية أنه يستعمل به نار المحبة الجامدة المستورة في القلب وذلك هو السبب لحرمته فيحق العامة فإن العوام قلوبهم مشغولة بحب النساء أو الغلمان فعند السماع يشتعل ذلك المحبّة ويشغلهم عن ذكر الله فكان في حقهم لهو الحديث، ومن كان قلبه مشغولاً بمحبة الله وذكره فارغاً عن غيره يكون السماع في حقه موجباً لاشتغال محبة الله فيكون في حقه مستحباً، والجواب عن النصوص أن الآية ناطقة بالحرمة لما هو لهو الحديث وسماع الصوفية ليس منه والأحاديث الموجبة لحرمة الغناء مخصوصه بالبعض لورود أحاديث آخر دالة على الإباحة فحملنا أحاديث حرمة الغناء على ما كان منه على قصد اللهو لا لغرض مشروع داعياً إلى الفسوق، فلنذكر الأحاديث الدالة على إباحة الغناء بل على إباحة ضرب الدف أيضاً منها حديث الربيع بنت معوّذ بن عفراء قالت: «جاء النبيّ ﷺ فدخل حين بنى عليَّ فجلس على

---

(١) أخرجه ابن ماجه في كتاب: الفتن، باب: العقوبات (٤٠٢٠).

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: الفتن، باب: ما جاء في علامة حلول المسخ والخسف (٢٢١٠)، وفيه من ضعّف من قبل حفظه.

فراشي كمجلسك مني فجعلت جويريات لنا يضربن بالدف ويندبن من قتل من أبائي يوم بدر إذ قالت إحداهن:

وفـيـنـا نـبـي يـعـلـم مـا فـي غـد

فقال: دعي هذه وقولي ما كنت تقولين»[(١)]

رواه البخاري وروى ابن ماجه نحوه وفيه «أما هذا فلا تقولوه لا يعلم ما في غد إلا الله»[(٢)] وعن عائشة قالت «زفت امرأة إلى رجل من الأنصار فقال نبي الله ﷺ «ما كان معكم لهو فإن الأنصار يعجبهم اللهو»[(٣)] رواه البخاري، وعن عائشة قالت قال رسول الله ﷺ: «أعلنوا هذا النكاح وأجعلوه في المساجد وأضربوا عليه بالدُّفوف»[(٤)] رواه الترمذي وقال هذا حديث غريب، وعن عائشة قالت: كانت عندي جارية من الأنصار زوجتها فقال رسول الله ﷺ: «يا عائشة ألا تغنين فإن هذا الحي من الأنصار يحبون الغناء» رواه ابن حبان في صحيحه، وعن ابن عباس قال أنكحت عائشة ذات قرابة لها من الأنصار فجاء رسول الله ﷺ فقال: أهديتم الفتاة، قالوا نعم قالوا أرسلتم معها من تغنّي؟ قالت لا، فقال رسول الله ﷺ: «إن الانصار قوم فيه غزل فلو بعثتم معها من يقول: أتيناكم أتيناكم فحيانا وحياكم»[(٥)] رواه ابن ماجه، وعن عامر ابن سعد قال دخلتُ على قرظ بن كعب وأبي مسعود الأنصاري في عرس وإذا جوار تغنين فقلتُ أي صاحب رسول الله ﷺ وأهل بدر يفعل هذا عندكم؟ فقالا اجلس إن شئتم فاستمع معنا وإن شئت فاذهب فإنه قد رخص لنا في اللهو عند العرس، وعن عائشة أن أبا بكر رضي الله عنه دخل عليها وعندها جاريتان في أيام منى تدففان وتضربان والنبيّ ﷺ متفس بثوبه فانتهرهما أبو بكر فكشف النبيّ ﷺ عن وجهه فقال: «دعهما يا أبا بكر فإنها أيام عيد تلك أيام منى»[(٦)] رواه البخاري وعند ابن ماجه «إن لكل قوم عيداً وهذا عيدنا» وعن عمرو بن

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: المغازي، باب: شهود الملائكة بدراً (٤٠٠١).
(٢) أخرجه ابن ماجه في كتاب: النكاح، باب: الغناء والدف (١٨٩٧).
(٣) أخرجه البخاري في كتاب: النكاح، باب: النسوة اللاتي يهدين المرأة إلى زوجها (٤٨٦٧).
(٤) أخرجه الترمذي في كتاب: النكاح، باب: ما جاء في إعلان النكاح (٥١٦٢).
(٥) أخرجه ابن ماجه في كتاب: النكاح، باب: الغناء والدف (١٩٠٠).
(٦) أخرجه البخاري في كتاب: العيدين، باب: إذا فاته العيد يصلي ركعتين وكذلك النساء ومن كان في البيوت والقرى (٩٨٧).

شعيب عن أبيه عن جده أن امرأةً قالت يا رسول الله إني نذرتُ أن أضرب على رأسك بالدف قال: «أوفي بنذرك»[١] رواه أبو داود، وقد قال رسول الله ﷺ: «لا وفاء لنذر في معصية الله»[٢] رواه مسلم، وروي أن النبيّ ﷺ لمّا قدم المدينة ونزل في بني نجار صرن جوار من بني النجار يتغنين ويقلن:

نحن جوار من بني نجار يا حبذا محمداً من جار[٣]

رواه ابن ماجه عن أنس، وفيه فقال النبيّ ﷺ: «الله يعلم إني لأحبكن» وروى البيهقي عن عائشة أن النبيّ ﷺ حين قدم المدينة جعل النساء والولائد والصبيان يقلن شعر:

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع وجب الشكر علينا ما دعى الله داع

أيها المبعوث فينا جئتَ بالأمر المطاع

وروى أحمد عن أنس لما قدم رسول الله ﷺ المدينة لعبت الحبشة بحرابها فرحاً برسول الله ﷺ، وعن محمد بن حاطب الجمحي عن النبيّ ﷺ قال: «فصل ما بين الحلال والحرام الصوت والدّف في النكاح»[٤] رواه أحمد والترمذي والنسائي وابن ماجه، فظهر أن المحرم من الغناء ما يدعوا إلى الفسق ويشغل عن ذكر الله وما ليس كذلك فليس بحرام غير أنه لم يثبت عن النبيّ ﷺ ولا عن الصحابة رضي الله عنهم استماع الغناء تقرباً إلى الله تعالى، ولأجل ذلك ما اختار الكرام من النقشبندية وغيرهم إرتكابه وإن لم يرتكبوا الإنكار عليه والله أعلم، ﴿لِيُضِلَّ﴾ الناس ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي عن دينه أو ذكره وقراءة كتابه قرأ ابن كثير وأبو عمر وليضل بفتح الياء على صيغة المجرد بمعنى يلبث على ضلاله ويزيد فيه ﴿بِغَيۡرِ عِلۡمٍ﴾ بحال ما يشتريه أو بالتجارة حيث استبدل اللهو بقراءة القرآن، وقال قتادة بحسب المؤمن الضلالة أن يختار حديث الباطل على حديث الحق ﴿وَيَتَّخِذَهَا﴾ أي آيات الله قرأ حمزة والكسائي ويعقوب وحفص بالمنصب عطفاً على قوله ليضل والباقون بالعطف على قوله يشتري بالرفع ﴿هُزُوًاۚ﴾ مهزوّاً به سخرية ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب: الأيمان والنذور، باب: ما يأمر به من وفاء النذر (٣٣٠٢).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب: النذر، باب: لا فاء لنذر في معية الله ولا فيما لا يملك العبد (١٦٤١).

(٣) أخرجه ابن ماجه في كتاب: النكاح، باب: الغناء والدف (١٨٩٩).

(٤) أخرجه الترمذي في كتاب: النكاح، باب: ما جاء في إعلان النكاح (١٠٨٢)، وأخرجه النسائي في كتاب النكاح، باب: إعلان النكاح بالصوت وضرب الدف (٣٣٦٠).

عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ ذو إهانة ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ﴾ لا يتوجه إليه ﴿مُسْتَكْبِرًا﴾ متكبراً الجملة الشرطية عطف على يشتري ﴿كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ حال من المستكن في ولي أو مستكبراً أو إستئناف ﴿كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ﴾ قرأ نافع في أذنه بلفظ المفرد على إرادة الجنس ﴿وَقْرًا﴾ ثقلاً مانعاً من السماع بدل من كأن لم يسمعها أو حال من المستكن في لم يسمعها أو إستئناف ﴿فَبَشِّرْهُ﴾ أي أخبره وذكر البشارة على التهكم ﴿بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ يحيق به ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ۝٨﴾ أي نعيم الجنات عكس للمبالغة ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ حال مقدر من الضمير في لهم أو من جنات والعامل ما تعلق به اللام أي مقدراً خلودهم فيها إذا دخلوها ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ أي وعد الله وعداً مصدر مؤكد لنفسه لكون ما قبله وعد ﴿حَقًّا﴾ أي حق ذلك الوعد حقاً مصدر مؤكد لغيره لأن كون الوعد حقاً أمر مغاير لنفس الوعد ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالب على كل شيء لا يمنعه شيء من إنجاز وعده ووعيده ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ الذي لا يفعل إلا ما يقتضيه الحكمة ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ صفة للحكيم بحذف الموصول تقديره الذي خلق أو حال من الضمير المستتر فيه بتقدير قد أو استئناف في محل التعليل ﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ جملة ترونها صفة لعمل والضمير راجع إليه وهو صادق بأن لا عمد لها أصلاً أو الضمير راجع إلى السماوات والجملة لا محل لها من الإعراب وقد سبق في الوعد ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ﴾ جبالاً راسخات كراهة ﴿أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ أو لأن لا تميد بكم ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ أي من كل صنف حسن كثير المنفعة فيه إلتفات من الغيبة إلى التكلم كأنه استدل به على عزته التي هي كمال قدرته وحكمته التي هي كمال العلم ومَهَّدَ به قاعدة التوحيد وقررها بقوله ﴿هَٰذَا﴾ أي ما ذكرت مما تعاينون ﴿خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ الفاء للسببية يعني كل ما ترونه مخلوق لله تعالى فماذا خلق آلهتكم حتى استحقوا مشاركته في العبادة ماذا منصوب بخلق أو ما استفهام إنكار مبتدأ وإذا بمعنى الذي مع صلته خبره فأروني معلق عن العمل وما بعده سد مسدّ المفعولين ﴿بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ إضراب عن تبكيتكم إلى التسجيل عليهم بالضلال الذي لا يخفى على من له أدنى تأمل ووضع الظاهر موضع الضمير للدلالة على أنهم ظالمون.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ۝١٢ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ۝١٣ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى

عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ﴾ بن باعور بن ناخور بن تارخ وهو آزر كذا قال البغوي، وقال قال وهب كان ابن أخت أيوب عليه السلام، وقال مقاتل ذكر أنه كان ابن خالة أيوب عليه السَّلام. وذكر البيضاوي وغيره أنه عاش حتى أدرك داود عليه السلام وأخذ منه العلم وكان يفتي قبل مبعثه ثم ترك الفتيا بعد مبعثه وقال ألا أكتفي إذا كفيتُ، وقال الواقدي كان قاضياً في بني إسرائيل، وفي الدر المنثور أخرج ابن أبي شيبة وأحمد في الزهد وابن أبي الدنيا في كتاب المملوكين وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس كان لقمان عبدا حبشياً نجاراً وكذا ذكر البغوي عن خالد الربعي، وقال قال مجاهد كان عبداً أسود عظيم الشفتين متشقق القدمين، وقال قال سعيد بن المسيب كان خياطاً وقيل كان راعي غنم والله أعلم ﴿ٱلْحِكْمَةَ﴾ في القاموس وهي العدل والعلم والحلم والنبوة والقرآن والإنجيل والمراد بالحكمة في قوله ﷺ «إن من الشعر لحكمة»[1] هو العلم وما ورد في قوله ﷺ: «إلا وفي رأسه حكمة» المراد به العقل وكل من المعاني المذكورة يحتمل المقام، قال البغوي اتفق العلماء على أنه كان حكيماً أي فقيهاً عليماً ولم يكن نبيّاً إلا عكرمة فإنه قال كان نبيّاً وتفرد بهذا القول، وأخرج ابن أبي حاتم عن وهب بن منبه أنه سئل أكان لقمان نبيّاً قال لا لم يوح إليه وكان رجلاً حكيماً وكذا أخرج ابن جرير عن مجاهد، وقال بعضهم خُيّر لقمان بين النبوة والحكمة فاختار الحكمة، قال البغوي وروي أنه كان نائماً في نصف النهار فنودي يا لقمان هل لك أن يجعلك الله خليفة في الأرض فتحكم بين الناس بالحق فأجاب الصوت فقال إن خيرني ربي قبلتُ العافية وإن عزم علي

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الأدب، باب: ما يجوز من الشعر والرجز والحداء وما يكره منه (٥٧٩٣).

فسمعاً وطاعةً فإني أعلم إن فعل ذلك إعانني وعصمني فقالت الملائكة بصوت (لا يراهم) لم يا لقمان؟ قال لأن الحكم بأشد المنازل وأكدرها يغشاه الظلم من كل مكان إن أصاب لقمان فبالحريّ أن ينجو وإن أخطأ أخطأ طريق الجنة ومن يكن في الدنيا ذليلاً خير من أن يكون شريفاً ومن يختار الدنيا على الآخرة نفته الدنيا ولا يصيب الآخرة، فعجبت الملائكة من حسن نطقه فنام نومه فأعطى الحكمة فانتبه وهو يتكلم بها ـ ونودي داود عليه السَّلام بعدها فقبلها ولم يشترط ما شرط لقمان فهوى في الخطيئة غير مرة كل ذلك يعفو الله عنه وكان يوازره لقمان لحكمته وهذه الرواية تدل على أنه ليس المراد بالحكمة العدل في الحكم بين الناس، ولنعم ما قال الجزري في النهاية في تفسير الحكمة أنها عبارة عن معرفة الأشياء بأفضل العلوم، قلتُ أفضل الأشياء ذات الله تعالى قال الله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾[1] وقال عزَّ وجلَّ ﴿أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً قُلِ ٱللَّهُ﴾[2] وأفضل علم لا يعتريه الغفلة وهو العلم الحضوري فإن العلم الحصولي لا ينفك عن غفلة وأيضاً لا يمكن درك الله سبحانه بالعلم الحصولي فإنه حصول صورة الشيء في الذهن وهو سبحانه منزه عن الصورة والتحيز بل العلم الذي يتعلق بذات الله سبحانه هو فوق العلم الحضوري والعلم الحضوري الذي يتعلق بذات العالم بالنسبة إلى ذلك العلم كالحصولي بالنسبة إلى الحضوري وهو من خصائص قلب الإنسان ومن ثم وقع في الحديث القدسي «لا يسعني أرضي ولا سمائي ولكن يسعني قلب عبدي المؤمن»[3] ويحصل ذلك لأخص الخواص من أولياء الله والله أعلم.

أخرج الحاكم والبيهقي في شعب الإيمان عن أنس أن لقمان كان عبداً لداود وهو يسرد الدروع فلم يسأله عنها فلمّا أتمها لبسها وقال نعم لبوس الحرب أنت فقال الصمة حكمة وقليل فاعله، وروي أنه سئل أيّ الناس شر قال الذي لا يبالي إن رآه الناس مسيئاً، وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد وابن جرير عن خالد الربعي قال كان عبداً حبشيّاً نجاراً فقال له سيده إذبح شاةً وأتني بأطيب مضغتين منها فأتى باللسان والقلب ثم بعد أيام أمر بأن يأتي بأخبث مضغتين منهما فأتى بهما أيضاً فسأله عن ذلك فقال هما أطيب شيء إذا طابا وأخبث شيء إذا خبثا ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ﴾ الظاهر أن تقديره وقلنا له أن اشكر لله على ما

---

(١) سورة الشورى، الآية: ١١.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٩.

(٣) ذكره في الإحياء وقال العراقي في تخريجه لم أر له أصلاً، وقال في المقاصد ليس له إسناد معروف. انظر كشف الخفاء (٢٢٥٦).

أعطاك من الحكمة، وقال أكثر المفسرين أن مفسرة فإن في إيتاء الحكمة معنى القول، قلتُ: وتوجيه ذلك أن إيتاء الحكمة عبارة عن تعليمها والتعليم يكون بالقول غالباً فالمعنى آتيناه الحكمة أي أمرناه بالشكر وهذا يدل على أن الحكمة هو الشكر وإيتاء الحكمة الأمر بالشكر والمراد بالأمر الأمر التكويني دون التكليفي فإن أمر التكليفي يعم لقمان وغيره وهو لا يستلزم حصول الشكر بخلاف التكويني فإنه يستلزمه كما يستلزم إيتاء الحكمة حصولها، وتفسير الحكمة بالشكر مبني على المجاز فإن الشكر لازم للحكمة فيجوز إطلاق أحدهما على الآخر مبالغة مجازاً والشكر عبارة عن إظهار النعمة وضده الكفران وهو ستر النعمة، وفي القاموس الشكر بالضم عرفان الإحسان قيل هو مقلوب عن الشكر أي الكشف فإنه إظهار النعمة وهو ثلاثة أضرب شكر القلب تصور النعمة وشكر اللسان الثناء على النعمة وشكر الجوارح مكافآت النعمة بالطاعات، قيل أصله من عين شكر أي ممتلئة فالشكر على هذا الامتلاء من ذكر النعم ونعمته ومن أجل هذا قال الله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾(١) ووصف الله تعالى في القرآن رجلين من عباده بالشكر أحدهما إبراهيم قال فيه ﴿شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ﴾(٢) وثانيهما نوح حيث قال: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾(٣) قال في النهاية الشكر مقابلة النعمة بالقول والفعل والنية فيثني من المنعم بلسانه ويذيب نفسه في طاعة ويعتقد أنه مولاها وهو من شكرت الإبل شكراً إذا أصاب مرعى فسمنت عليه وجاز أن يكون تقديره وقلنا له أن اشكر لله على ما آتيناك من الحكمة وغيرها (ومن يشكر) الله (فإنما يشكر) ﴿لِنَفْسِهِۦ﴾ أي لنفع نفسه فإن الشكر قيد للموجود وصيد للمفقود وموجب تقرب إلى الرب المعبود وثواب في دار الخلود قال الله تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾(٤) الآية ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ نعمة الله ﴿فَإِنَّ﴾ وباله عليه و ﴿ٱللَّهَ غَنِيٌّ﴾ عن شكره لا يحتاج إليه ﴿حميد﴾ حقيق بالحمد وإن لم يحمد ينطق بحمده جميع مخلوقاته بلسان الحال ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ﴾ اسمه أنعم أو أشكم أو ما ثان ﴿وَهُوَ يَعِظُهُۥ﴾ حال من لقمان ﴿يَٰبُنَيَّ﴾ تصغير إشفاق قرأ ابن كثير بإسكان الياء وحفص بفتح الياء والباقون بكسرها ﴿لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ﴾ متعلق بلا تشرك وجاز أن يكون قسماً جوابه ما بعده قيل كان ابنه كافراً فلم يزل به حتى أسلم ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ تعليل للنهي، الظلم وضع الشيء في غير موضعه المختص به إما بنقصان أو بزيادة وإما بعدول عن وقته أو مكانه، ويقال على التجاوز عن الحق قليلاً كان التجاوز أو كثيراً ولهذا يستعمل في الذنب الصغير

---

(١) سورة سبأ، الآية: ١٣.
(٢) سورة النحل، الآية: ١٢١.
(٣) سورة الإسراء، الآية: ٣.
(٤) سورة إبراهيم، الآية: ٧.

والكبير ولا شك إن الشرك لظلم عظيم فإنه وضع العبادة في موضع لا يحتمل صلاحيتها أصلاً وتسوية من لا نعمة إلا منه بمن لا يصلح الإنعام مطلقاً ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ﴾ أي أمرناه أن يبرَّهما ويشكرهما جملة معترضة بين قصة لقمان ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ﴾ معترضة في معترضة مؤكدة للتوصية في حق الأم خاصة، عن أبي هريرة قال قال رجل يا رسول الله: «من أحق بحسن صحابتي؟ قال أمك ثم أمك ثم أمك ثم أباك ثم أدناك فأدناك»[١] متفق عليه، وقال عليه السَّلام «إن الله حرم عليكم عقوق الأمهات»[٢] متفق عليه في حديث للمغيرة ﴿وَهْنًا﴾ كائناً ﴿عَلَىٰ وَهْنٍ﴾ صفة لوهن وهو حال من فاعل حملته تقديره ذات وهن أو يوهن وهناً، قال ابن عباس معناه شدةً على شدةٍ، وقال الضحاك ضعفاً على صعف، وقال مجاهد مشقة على مشقة فإن المرأة إذا حملت توالى عليها الضعف والمشقة الحملُ ضعف والطلق ضعف والوضع ضعف والرضاع ضعف ﴿وَفِصَٰلُهُۥ﴾ أي فطامه ﴿فِى عَامَيْنِ﴾ أي في انقضاء عامين وكانت ترضع في تلك المدة، وأحتج بهذه الآية الشافعي وأبو يوسف ومحمد أن أقصى مدة الرضاع حولان وقد ذكرنا مسألة الرضاع في سورة البقرة في تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾[٣] الآية، وفي سورة النساء في تفسير قوله: ﴿وأمهاتكم اللاتي أرضعنكم﴾[٤] ﴿أن اشكر لي﴾ تفسير لوصينا أو بدل من والديه بدل إشتمال ﴿وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾ قال سفيان بن عيينة في هذه الآية من صلّى الصلوات الخمس فقد شكر الله ومن دعا لوالديه في إدبار الصلوات الخمس فقد شكر لوالديه ﴿إلي المصير﴾ والمرجع فيه وعد ووعيد يعني أجازيك على شكرك وكفرك ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ﴾ عطف على قوله أن أشكر ﴿عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ باستحقاق الإشراك يعني فكيف وأنت تعلم بطلان الإشراك بالأدلة القاطعة ﴿فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ في ذلك فإن حق الله غالب على حق كل ذي حق قال رسول الله ﷺ: «لا طاعة للمخلوق في معصية الخالق» رواه أحمد والحاكم وصححه عن عمران والحكيم ابن عمر والغفاري وفي الصحيحين وسنن أبي داود والنسائي عن عليّ نحوه ﴿وصاحبهما في الدنيا﴾ صحاباً ﴿مَعْرُوفًا﴾ يرتضيه الشرع والعقل.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الأدب، باب: من أحق الناس بحسن الصحبة (٥٩٧١)، وأخرجه مسلم في كتاب: البر والصلة والآداب، باب: بر الوالدين وأنهما أحق به (٢٥٤٨).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الأدب، باب: عقوق الوالدين من الكبائر (٥٩٧٥)، وأخرجه مسلم في كتاب: الأقضية، باب: النهي عن كثرة المسائل من غير حاجة (٥٩٣).

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٣٣. (٤) سورة النساء، الآية: ٢٣.

مسألة

يجب بهذه الآية الإنفاق على الأبوين الفقيرين وصلتهما وإن كانا كافرين عن أسماء بنت أبي بكر قالت: قدمتْ عليَّ أمي وهي مشركة في عقد قريش فقلت يا رسول الله إن أمي قدمت عليّ وهي راغبة أفأصلها؟ قال «نعم صليها»[١] متفق عليه ـ وقد مرّ في سورة العنكبوت أن هاتين الآيتين نزلتا في سعد بن أبي وقاص وأمه.

﴿وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ﴾ دين ﴿مَنْ أَنَابَ﴾ أي أقبل ﴿إِلَيَّ﴾ وأطاعني وهو النبيّ ﷺ، قال عطاء عن ابن عباس يريد الله سبحانه به أبا بكر وذلك حين أسلم أتاه عثمان وطلحة والزبير وسعد بن أبي وقاص وعبد الرحمن بن عوف وقالوا قد صَدَّقْتَ هذا الرجل وآمنتَ به؟ قال نعم هو صادق فآمِنوا به ثم حملهم إلى النبيّ ﷺ حتى أسلموا فهؤلاء سالفة الإسلام أسلموا بإرشاد أبي بكر قال الله تعالى: ﴿وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ يعني أبا بكر.

مسألة:

لا يجوز إطاعة الوالدين إذا أمرا بترك فريضة أو مكروه تحريماً لأن ترك الامتثال لأمر الله والامتثال لأمر غيره إشراك معنى ولما روينا من قوله عليه السَّلام «لا طاعة للمخلوق في معصية الخالق» ويجب إطاعتهما إذا أمرا بشيء مباح لا يمنعه العقل والشرع، وهل يجب إطاعتهما إن أمرا بترك إكثار الذكر والنوافل وكسب الأموال فوق الحاجة ونحو ذلك والظاهر عندي أنه لا يجب ذلك لأن الله سبحانه أمر باتباع سبيل من أناب إليه وإكثار النوافل وترك النوافل وترك ما لا يعنيه وترك الدنيا والتبتل إلى الله سبيل المنيبين لا محالة ولا شك أن الصحابة رضوان الله عليهم تركوا الأوطان وهاجروا وبذلوا أنفسهم وأموالهم على خلاف مرضاة آبائهم وأمهاتهم وقد قال الله تعالى: ﴿قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره﴾[٢] فكيف يجوز ترك المجاهدة في سبيل الله مع النفس والشيطان لابتغاء مرضاة الآباء والأمهات، أخرج الحاكم عن عامر بن عبد الله بن الزبير عن أبيه قال قال أبو قحافة

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الجزية والموادعة، باب: إثم من عاهد ثم غدر (٣١٨٣)، وأخرجه مسلم في كتاب الزكاة، باب: فضل النفقة والصدقة على الأقربين والزوج الوالدين ولو كانوا مشركين (١٠٠٣).

(٢) سورة التوبة، الآية: ٢٤.

لأبي بكر أراك تعتق رقاباً ضعافاً فلو أنك أعتقت رجالاً أجلد يمنعونك ويقومون دونك؟ فقال يا أبت إنما أريد ما عند الله فنزلت ﴿وسيجنبها الأتقى الذي يؤتي ماله يتزكى﴾ حين أعتق بلالاً وعامر بن فهير وأم عميس وزبيرة ونحوهم، وهاجر أبو بكر مع أربعة آلاف درهم مع رسول الله ﷺ ولم يترك لأهله شيئاً على خلاف مرضاة أبيه كما ذكرنا في قصة هجرة النبي ﷺ في سورة التوبة في تفسير قوله تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ﴾(١) ﴿ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ أي مرجعك ومرجعهما ﴿فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فأجازيك على إسلامك وأجازيهما على كفرهما، هذان الآيتان معترضتان في أثناء وصية لقمان تأكيداً لما فيها من النهي عن الشرك، كأنه قال ووصينا بمثل ما وصى لقمان وذكر الوالدين للمبالغة في ذلك فإنهما مع كونهما تلوا الباري في استحقاق التعظيم والطاعة لا يجوز أن يستحقا الطاعة في الاشراك فما ظنك بغيرهما ﴿يَٰبُنَىَّ﴾ قرأ حفص بفتح الياء والباقون بكسرها ﴿إِنَّهَآ﴾ أي الخصلة من الإساءة أو الإحسان وقال قتادة الضمير راجع إلى الخطيئة وذلك أن ابن لقمان قال لأبيه يا أبت إن عملتُ الخطيئة حيث لا يراني أحد كيف يعلمها الله فقال إنها ﴿إِن تَكُ﴾ في الصغر مثلا ﴿مِثْقَالَ﴾ وزن ﴿حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ﴾ اسم تك ضمير مستتر وخبره مثقال على قراءة الجمهور بالنصب وقرأ نافع مثقال بالرفع على أنه اسم تكُ وهي تامة وتأنيث الفعل لإضافة المثقال إلى الحبة وضمير إنها للقصة على هذه القراءة ﴿فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ يعني في أخفى مكان وأحرزه كجوف صخرة أو أعلاه كمحدب السماوات أو أسفله كمقعر الأرض، وقال قتادة في صخرة في جبل، وقال ابن عباس هي صخرة تحت الأرضين السبع وهي التي يكتب فيها أعمال الفجار وخضرة السماء منها، وقال السديُّ خلق الله الأرض على حوت وهو النون الذي ذكره الله عزَّ وجلَّ في القرآن ﴿نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ﴾ والحوت في الماء على ظهر صفاة والصفاة على ظهر ملك والملك على صخرة (وهي الصخرة التي ذكرها لقمان ليست في السماء ولا في الأرض) والصخرة على الريح ﴿يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ﴾ يحضرها فيحاسب عليها ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ﴾ يصل علمه إلى كل خفي ودقيق ﴿خَبِيرٌ﴾ عليم بكنه كل شيء، قال الحسن معنى الآية هو الإحاطة بجميع الأشياء صغيرها وكبيرها، قال البغوي وفي بعض الكتب أن هذه الكلمة آخر ما تكلم بها لقمان فانشقت مرارته من هيبتها ﴿يَٰبُنَىَّ﴾ قرأ حفص والبزي بفتح الياء والباقون بكسرها ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾

---

(١) سورة الليل، الآية: ١٧ ـ ١٨. (٢) سورة التوبة، الآية: ٤٠.

تكميلاً لنفسك ﴿وأمر بالمعروف وانه عن المنكر﴾ تكميلاً لغيرك ﴿وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ﴾ من الشدائد والأذى بسبب الأمر والنهي أو غير ذلك ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ أي الصبر أو كل ما أمره ﴿مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾ أي من الأمور التي عزمه الله أي قطعه قطع إيجاب قال رسول الله ﷺ: «خير الأمور عوازمها» أي فرائضها التي عزم الله عليك بفعلها، والعزم في الأصل عقد القلب على إمضاء أمر بالعزم على هذا مصدر بمعنى المفعول أو المعنى من الأمور التي يعزم عليها بجد لوجوبها ﴿وَلَا تُصَعِّرۡ﴾ قرأ نافع وأبو عمرو وحمزة والكسائي ولا تصاعر من المفاعلة وابن كثير وابن عامر وعاصم وأبو جعفر ويعقوب بتشديد العين من غير ألف ﴿خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ أي لا تمل عنهم ولا تولهم صفحة وجهك تكبراً، قال ابن عباس تقول لا تتكبر فتحقر وتعرض عنهم بوجهك إذا كلموك ﴿وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ﴾ أي فرحاً وبطراً مصدر وقع موقع الحال أي يمرح مرحاً أو العلة أي لأجل المرح ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ﴾ متبختر في مشيه ﴿فَخُورٖ﴾ على الناس علة للنهي نشر على غير ترتيب اللف لرعاية القافية ﴿وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ﴾ أي توسط فيه فوق الدبيب لأنه دليل الخيلاء ومشي المتكبرين ودون الإسراع لأنه مشى السفهاء ويذهب البهاء قال رسول الله ﷺ: «سرعة المشي يذهب بهاء المؤمن» أخرجه ابن عدي وأبو نعيم في الحلية من حديث أبي هريرة وأخرجه ابن عدي أيضاً من حديث أبي سعيد وابن عمر، والمراد بالإسراع المنهي ما يكون بجد فوق مشيه الطبعي وأما الإسراع على عادته دون الخبب فمحمود، روى ابن سعد عن يزيد بن مرثد أنه ﷺ كان إذا مشى أسرع حتى يهرول الرجل وراءه فلا يدركه، وروى الطبراني والبيهقي عن أبي موسى قال قال رسول الله ﷺ: «عليكم بالسكينة عليكم . . . . . . بالقصد في المشي بجنائزكم»[1] وأخرج الستة قوله ﷺ: «أسرعوا بالجنازة فإن تك صالحةً يتقدمونها وإن يكن غير ذلك فشر تضعونه عن رقابكم»[2] فهذه الأحاديث تدل على أن المراد بالإسراع ما ذكرت والمراد بالقصد هو الإسراع دون الخبب ﴿وَٱغۡضُضۡ﴾ قال مقاتل أي أخفض ﴿مِن صَوۡتِكَۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ﴾ يعني أوحشها ﴿لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ﴾ تعليل لغضّ الصوت يعني أن صوت الحمير منكر جداً لكونه جهيراً جداً افلا يكن صوتك مثل صوتها أول صوتها زفير وآخرها شهيق وهما صوت أهل النار، قال موسى بن أعين سمعتُ سفيان الثوري يقول في قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ﴾ هي

---

(١) رواه البيهقي في دلائل النبوة وابن عساكر في تاريخه. انظر فيض القدير (١٦٠٩).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الجنائز، باب: السرعة بالجنازة (١٣١٥)، وأخرجه مسلم في كتاب: الجنائز، باب: الإسراع في الجنازة (٩٤٤).

العطسة القبيحة المنكرة، قال وهب تكلم لقمان باثني عشر ألف باب من الحكمة وأدخلها الناس في كلامهم وقضاياهم.

﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٢١﴾ ۞ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾﴾.

﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم﴾ لأجل نفعكم ﴿مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ من الشمس والقمر والنجوم والبحار والجبال من الأرض ﴿وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ من المعادن والنباتات والحيوانات بأن مكّنكم من الإنتفاع بها بوسط أو بغير وسط ﴿وَأَسْبَغَ﴾ أي أتم وأكمل ﴿عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ﴾ قرأ أهل المدينة وأبو عمرو وحفص بفتح العين وضم الهاء على الجمع والإضافة والباقون بسكون العين وبالتاء منونةً على صيغة الواحد بإرادة الجنس ﴿ظَٰهِرَةً﴾ مع ما عطف عليه حال من نعمه والنعمة الظاهرة هي المحسوسة من حسن الصورة وتسوية الأعضاء والرزق والعافية وغيرها من نعماء الدنيا والإسلام والرسول والقرآن وتخفيف الشرائع وتوفيق اتباع الرسول وظهر الإسلام والنصر على الأعداء ﴿وَبَاطِنَةً﴾ من القلب والعقل والحواس الباطنة وحسن الأخلاق والأمداد بالملائكة والإلهام بالإعتقاد الحق وستر الذنوب وعدم التعجيل في العقوبة ونور معرفة الله ونار عشقه ورسوله وشفاعة رسوله ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ﴾ النبيّ ﷺ عطف على ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ﴾(١) وما بينهما معترضات ﴿فِى ٱللَّهِ﴾ في توحيده وصفاته ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ مستفاد من الدليل، قال البغوي نزلت في النضر بن

---

(١) سورة لقمان، الآية: ٦.

الحارث وأبي بن خلف وأشباههما ﴿وَلَا هُدًى﴾ راجع إلى الرسول ﴿وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾ منزل من الله بل بالتقليد كما قال الله تعالى ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟﴾ لا نتبع ما أنزل الله ﴿بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾ فيه منع من التقليد في أصول الدين قال الله تعالى: أتبعون تقدير يعني قل أيتبعون آباءهم ﴿وَلَوْ كَانَ﴾ الواو للحال أو للعطف على مقدم يعني لو لم يكن ولو كان ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ﴾ الضمير إمالهم أو لآبائهم ﴿إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ بإلقاء حسن التقليد أو حسن الإشراك في قلوبهم والإستفهام للإنكار والتعجب ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ﴾ أي توجهه ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ وأقبل بشراشره عليه يعني لا يفعل فعلاً ولا يترك شيئاً إلا ابتغاء مرضاته ويفوض أمره إليه ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ في أعماله قال رسول الله ﷺ «الإحسان أن تعبد ربك كأنك تراه»[١] يعني بالحضور التام ﴿فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ يعني تمسك بأوثق ما يتمسك به وأعتصم بأقوى ذريعة لا يحتمل إنقطاعه تمثيل لطيف للمتوكل على المتشبث بالعروة الوثقى ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ إذ الكل صائر إليه ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ ولم يسلم وجهه إلى الله ﴿فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ﴾ تقديره فقد أضرَّ نفسه وأوبقه ولا يضرك شيئاً لا في الدنيا ولا في الآخرة، ولمَّا كان عدم الضرر موجباً لعدم الحزن أورده في مورده، قرأ نافع لا يحزنك بضم الياء وكسر الزاء من الإحزان ﴿إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ في الدارين ﴿فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟﴾ بالتعذيب ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ من الاعتقادات والخطرات فضلاً عما في الظاهر فيجازي كلاً على حسب إعتقاده وعمله ﴿نُمَتِّعُهُمْ﴾ أي نمهلهم ليتمتعوا ﴿قَلِيلًا﴾ أي تمتيعاً قليلاً أو زماناً قليلاً في الدنيا إلى انقضاء آجالهم ﴿ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ﴾ أي نلجئهم ونردهم في الآخرة ﴿إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ أي عذاباً يثقلهم ثقل الأجرام الغلاظ وهو عذاب النار ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ لوضوح الدليل المانع من إسناد الخلق إلى غيره بحيث أضطروا إلى الإقرار به ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ على ما ألزمهم وألجئهم إلى الأعتراف بما يوجب بطلان معتقدهم ﴿بل أكثرهم لا يعلمون﴾ أن ذلك يلزمهم وإذا نبهوا عليه لم يتنبهوا ﴿لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ملكاً وخلقاً فلا يستحق العبادة غيره ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ﴾ عن حمد الحامدين ﴿ٱلْحَمِيدُ﴾ المستحق للحمد وإن لم يحمد.

أخرج ابن إسحاق عن عطاء بن يسار وكذا ذكر البغوي أنه قال نزلت بمكة ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ فلما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة أتاه أحبار اليهود فقالوا ألم

(١) أخرجه البخاري في كتاب الإيمان، باب: سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان والإسلام والإحسان وعلم الساعة (٥٠).

يبلغنا عنك أنك تقول وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً إيانا تريد أم قومك؟ فقال كلاً عنيتُ، قالوا ألستَ تتلو فيما جاءك إنا أوتينا التوراة وفيها تبيان كل شيء، فقال رسول الله ﷺ هي في علم الله قليل فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ﴾ يعني لو ثبت كون الاشجار كلها أقلاماً وتوحيد شجرة لأن المراد تفصيل الآحاد ﴿وَٱلْبَحْرُ﴾ المحيط ﴿يَمُدُّهُۥ﴾ أي يزيده وينصب فيه ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ أي من خلفه ﴿سَبْعَةُ أَبْحُرٍ﴾ فاعل يمده، قرأ أبو عمر ويعقوب البحر بالنصب عطفاً على اسم إن أو بإضمار فعل يفسره يمده والباقون بالرفع عطفاً على أن ومعمولها وعلى هذا يمده حال، وجاز أن يكون البحر مبتدأ وما بعده خبره والجملة مستأنفة أو في محل النصب على أنه حال، فإن قيل ليس فيه ضمير راجع إلى ذي الحال؟ قلتُ هو كقولك جئتُ والجيش قادم ونحو ذلك من الأحوال التي حكمها حكم الظرف وكان مقتضى الكلام أن يقال ولو أن الأشجار أقلام والبحر مداد يمده من بعده سبعة أبحر لكن أغنى عن ذكر المداد قوله يَمُدُّه لأنه من مد الدواة وأمدها، وقال البغوي في الآية إضمار تقديره.

(ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر) يكتب بها كلمات الله ﴿مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾ المعبر بها عن معلومات الله بتلك الأقلام وبذلك المداد ولا بأكثر من ذلك بالغاً ما بلغ لأن معلوماته تعالى غير متناهية لا يمكن نفادها ولذلك اختار صيغة جمع القلة للإشعار بأن ذلك لا يفي بالقليل فكيف بالكثير ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ لا يعجزه شيء ﴿حَكِيمٌ﴾ لا يخرج عن علمه وحكمته أمر، وأخرج ابن جرير عن عكرمة قال سأل أهل الكتاب رسول الله ﷺ عن الروح فأنزل الله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾ فقالوا أتزعم أنا لم نؤت من العلم إلا قليلاً وقد أوتينا التوراة وهي الحكمة ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ فنزلت هذه الآية، فعلى ما ذكرنا من الروايات في سبب النزول الآية مدنية وقيل الآية مكية وإنما أمر اليهود وفد قريش أن يسألوا رسول الله ﷺ ويقولوا له ذلك وهو بعد بمكة، وأخرج أبو الشيخ في كتاب العظمة وابن جرير عن قتادة قال قال المشركون إنما هذا الكلام يوشك أن ينفد فنزل ولو أن ما في الأرض من شجرة الآية ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ﴾ أجمعين ﴿إِلَّا كَنَفْسٍ﴾ أي إلا كخلق نفس ﴿وَٰحِدَةٍ﴾ وبعثها إذ لا يشغله شأن عن شأن ويكفي لوجود الكل تعلق إرادته مع قدرته الذاتية فلا يتعذر عليه خلق الكل كما لا يتعذر عليه خلق نفس واحدة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ﴾ يسمع كل مسموع ﴿بَصِيرٌ﴾ يبصر كل شيء لا يشغله إدراك بعضها عن إدراك بعض آخر فكذلك الخلق أو المعنى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ﴾ لأقوال المشركين أن لا بعث بصير بأعمالهم.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌۢ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٣٤﴾﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ﴾ عطف على يولج أو حال بتقدير قد ﴿ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ﴾ واحد من النيرين ﴿يَجْرِيٓ﴾ في السماء ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي وقت معين وهو يوم القيامة الفرق بينه وبين قوله لأجل مسمى أن الأجل منتهى الجري وثمة غرضه حقيقةً أو مجازاً وكلا المعنيين حاصل في الغايات ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ عطف على قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ﴾ وجملة ألم تر متصل بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ مقرر له ﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي ذكر من سعة علمه وشمول قدرته وعجائب صنعه ﴿بِأَنَّ﴾ أي بسبب أنَّ الله ﴿هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ الثابت أي الواجب وجوده وجميع كمالاته أو الثابت ألوهيته ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ﴾ قرأ أبو عمرو وحفص وحمزة والكسائي بالياء على الغيبة والباقون بالتاء على الخطاب ﴿مِن دُونِهِ﴾ من الآلهة ﴿ٱلْبَٰطِلُ﴾ المعدوم في حد ذاته أو الباطل دعوى الألوهية فيه ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ﴾ المترفع على كل شيء والتسلط عليه ﴿ٱلْكَبِيرُ﴾ الظاهر الباهر كبرياؤه ومن كان هذا شأنه يجب أن يكون علمه وقدرته شاملاً لجميع الأشياء.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ﴾ متصل بقوله ألم تر أن الله يولج ﴿بنعمت الله﴾ أي بإحسانه في تهيئة أسبابه وهو استشهاد آخر على باهر قدرته وشمول إنعامه والباء للصلة أو للحال ﴿لِيُرِيَكُم﴾ الله ﴿مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ أي بعض دلائل قدرته من عجائب البحر الذي أدركتموه ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ يعني صبار على المشاق فيتعب

نفسه بالتفكر في الآفاق والأنفس ويعرف النعم ويشكر عليها مانحها - أو المراد لآيات للمؤمنين، قال رسول الله ﷺ: «الإيمان نصفان فنصف في الصبر ونصف في الشكر» رواه البيهقي في شعب الإيمان عن أنس يعني يشكر فس السراء ويصبر في الضراء ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم﴾ أي علاهم وغطاهم الظرف متعلق يدعوا الله فيه معنى الشرط والجزاء والجملة معطوفة على تجري في البحر خبر لأنَّ وضمير عشيهم راجع إلى أهل الفلك رابط بين الاسم والخبر ﴿مَوْجٌ﴾ في البحر ﴿كَالظُّلَلِ﴾ جمع الظلة شبّه بها الموج يأتي منه شيء بعد شيء قال مقاتل كالجبال وقال الكلبي كالسحاب ﴿دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ بأن ينجيهم ولا يدعون غيره لما تقرر في الأذهان أنه لا كاشف لضر إلا الله سبحانه ويزول بما غلبهم من الخوف الشديد ما ينازع الفطرة السليمة من الهوى والتقليد ﴿فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ﴾ متعلق بنجاهم بتضمين معنى أوصلهم وجملة فلما نجاهم معطوفة على ﴿إذا غشيهم﴾ ﴿فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ قيل هو جواب لمَّا والظاهر أن جواب لما محذوف وهذا دليل عليه تقديره فلمَّا نجاهم إلى البرّ اختلفوا فمنهم شاكر لنعمة الله ومنهم كافر ومنهم مقتصد، يعني متوسط في الكفر لانزجاره بعض الانزجار وكان بعض الكفار أشد افتراءً وأشد قولاً من بعض فذكر المقتصد لدلالته على جانبه كذا قال الكلبي معنى المقتصد، وقال أكثرهم معنى المقتصد المقيم على الطريق القصد الذي هو التوحيد لما قيل أن الآية نزلت في عكرمة بن أبي جهل هرب عام الفتح إلى البحر فجاءهم ريح عاصف فقال عكرمة لئن أنجانا الله من هذه لأرجعن إلى محمد ولأضعن يدي في يده فسكنت الرياح فرجع إلى مكة والنبيّ ﷺ ثمه وأسلم وحسن إسلامه، والتقدير على هذا فمنهم مقتصد ومنهم كافر يدل عليه قوله ﴿وما يجحد بآياتنا﴾ المنزلة أي بحقيقتها أو بدلائل قدرتنا ومنها الإنجاء من الموج ﴿إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ﴾ أي غدار فإنه نقض العهد الفطري أو العهد الذي عاهد في الشدة والخترُ اسوء الغدر ﴿كَفُورٍ﴾ للنعم - ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾ أي إحذروا عذابه ﴿وَاخْشَوْا يَوْمًا لَّا يَجْزِي﴾ أي لا يغني ﴿وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ﴾ الراجع إلى الموصوف محذوف أي لا يجزي فيه والد مؤمن عن ولده الكافر ﴿وَلَا مَوْلُودٌ﴾ مؤمن عطف على والد ﴿هُوَ جَازٍ﴾ صفة لمولود يعني ولا يجزي مولود مؤمن من شأنه أن يكون هو جاز ﴿عَن وَالِدِهِ﴾ الكافر متعلق بلا يجزي، وإنما قيدنا بالكافر لأن المؤمن يشفع للمؤمن قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾[1] وقال الله ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ

(١) سورة الطور، الآية: ٢١.

﴿وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ﴾(١) ﴿شَيْئًا﴾ منصوب على المصدرية أي لا يجزي شيئاً من الأجزاء وجاز أن يكون مولودٌ مبتدأ خبره هو جاز عن والده وتغير النظم للتأكيد فإن هذه الجملة واردة على نهج من التأكيد لم يرد عليه المعطوف عليه لأن الجملة الاسمية آكد من الفعلية وقد أنضم إلى ذلك لفظ المولود وفيه تأكيد آخر لأن المولود إنما يطلق على من ولد بلا واسطة والولد يطلق عليه وعلى ولد الولد كما في قوله تعالى: ﴿فإن لم يكن له ولد وورثه أبواه فلأمه الثلث﴾(٢) فإذا كان المولود لا ينفع أباه فلا ينفع أجداده بالطريق الأولى، ووجه إيراده على التأكيد أن الخطاب كان للمؤمنين في ذلك الزمان وغالباً مات آباؤهم على الكفر فأريد حسم أطماعهم من أن ينفعوا آباءهم بالشافعة في الآخرة ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ﴾ بالبعث والثواب والعقاب ﴿حَقٌّ﴾ لا يمكن تخلفه ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ﴾ الفاء للسببية ﴿الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ بزينتها فإنها فانية ولذّاتها ضعيفة مشوبة بالمكاره ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ﴾ في حلمه وإمهاله ﴿الْغَرُورُ﴾ الشيطان بأن يرجيكم المغفرة فيجسركم على الذنوب.

أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن مجاهد مرسلاً قال جاء رجل من أهل البادية وسماه البغوي الحارث بن عمرو بن الحارث بن محارب بن حفصة فسأل النبيّ ﷺ عن الساعة أي وقتها، وقال امرأتي حبلى فأخبر ما تلد وبلادنا مجدبة فأخبرني متى ينزل الغيث، وقد علمتُ بأيّ أرض ولدتُ فأخبرني أين أموت فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ أي علم وقت قيامها جملة مستأنفة في جواب متى يكون ذلك اليوم ﴿وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ﴾ متى شاء لا يعلم نزولها إلا هو ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ﴾ أذكر أم أنثى لا يعلمها غيره ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «مفاتح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله، لا يعلم أحد ما يكون في غدٍ إلا الله ولا يعلم ما في الأرحام إلا الله، ولا يعلم أحد متى تقوم الساعة إلا الله، ولا تدري نفس بأي أرض تموت إلا الله، ولا يدري أحد متى يجيء المطر إلا الله»(٣) رواه أحمد والبخاري، وروى البغوي في تفسير هذه الآية عن ابن عمر بهذا اللفظ أن رسول الله ﷺ قال: «مفاتح الغيب خمس إنَّ الله عنده علم الساعة وينزّلُ الغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا في الأرحام ومات دري نفسٌ ماذا تكسبُ غداً وما تدْري نفسٌ بأي أرض تموت» وفي

(١) سورة الرعد، الآية: ٢٣.

(٢) سورة النساء، الآية: ١١.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: الاستسقاء، باب: لا يدري متى يجيء المطر إلا الله (١٠٣٩).

الصحيحين في قصة سؤال جبرئيل في حديث أبي هريرة في خمس يعني ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ﴾ لا يعلمهن إلا الله ثم قرأ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ الآية، وأخرج ابن أبي شيبة في المصنف عن خيثمة أن ملك الموت مر على سليمان فجعل ينظر إلى رجل من جلسائه فقال الرجل من هذا؟ قال ملك الموت، فقال كأنَّه يريدني فمُرِ الريح أن يحملني ويلقيني بالهند ففعل فقال الملك كان دوام نظري إليه تعجباً منه إذ أمرتُ أن أقبض روحه بالهند وهو عندك والله أعلم.

وإنما جعل العلم لله والدراية للعبد لأن فيها معنى الحيلة فيشعر بالفرق بين العلمين في القاموس دريتُه علمتُه أو لضرب من حيلة فعنه إشارة إلى أن العبد أن عمل حيلة وبذل فيها وسعه لم يعرف ما هو لاحق به من كسبه وعاقبته فكيف بغيره ما لم يحصل له علم بتعليم من الله تعالى بتوسط الرسل أو بنصب دليل عليه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ﴾ يعلم الأشياء كلها ﴿خَبِيرٌۢ﴾ يعلم بواطنها كما يعلم ظواهرها حكى أن منصوراً رأى في منامه ملك الموت وسأله عن مدة عمره فأشار إليه بأصابعه الخمس فعبرها المعبرون بخمس سنين أو بخمسة أشهر أو بخمسة أيام، فقال أبو حنيفة هو إشارة إلى هذه الآية فإن هذه العلوم الخمسة مختصة بالله تعالى والله أعلم.

تم تفسير سورة لقمان من التفسير المظهري ليلة الثانية والعشرين من رجب سنة ألف ومائتين وست ويتلوه تفسير سورة السجدة إن شاء الله تعالى.

سورة السجدة

آياتها ثلاثون وهي مكيّة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ الْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَٰلَمِينَ ۝٢ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰهُ
بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ۝٣ اللَّهُ
الَّذِى خَلَقَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن
دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ۝٤ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَآءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ
فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ۝٥ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَٰدَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ
۝٦ الَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن
سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٨ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَٰرَ
وَالْأَفْـِٔدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ۝٩ وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى الْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ بَلْ هُم
بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ ۝١٠ ۞ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ
تُرْجَعُونَ ۝١١﴾.

﴿الٓمٓ ۝١﴾ إن جعل إسماً للسورة أو القرآن فهو مبتدأ خبره ﴿تَنزِيلُ الْكِتَٰبِ﴾ على أنه بمعنى المنزل والإضافة من قبيل إخلاق ثياب وإلا فهو خبر مبتدأ محذوف أي هذا تنزيل أو مبتدأ خبره ﴿لا ريب فيه﴾ فيكون ﴿مِن رَّبِّ الْعَٰلَمِينَ﴾ حالاً من الضمير في فيه لأن المصدر لا يعمل فيما بعد الخبر ويجوز أن يكون خبراً ثانياً أو خبراً أولاً ولا ريب فيه اعتراضاً لا محل له والضمير في فيه راجع إلى مضمون الجملة كأنَّه قيل لا ريب في كونه منزلاً من رب العالمين والخبر ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰهُ﴾ ولا ريب فيه حال من الكتاب أو إعتراض ومن رب العالمين متعلق بتنزيل والضمير في فيه لمضمون الجملة ويؤيده قوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ فإنه تقرير له، ونظم الكلام على هذا أنه أشار أولاً إلى إعجازه بقوله الٓمٓ ثم رتب عليه أن تنزيله من رب العالمين وقرر ذلك بنفي الريب عنه ثم

أضرب عن ذلك إلى ما يقولون فيه على خلاف ذلك إنكاراً له وتعجباً منه فإن أم منقطعة بمعنى بل والهمزة للإنكار ثم أضرب عنه إلى إثبات أنه الحق المنزل من الله وبيّن المقصود من تنزيله فقال ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ يا محمد إذ كانوا أهل الفترة التي كانت بين عيسى ومحمد ﷺ وجملة ما أتاهم صفة لقوم ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ بإنذارك إياهم ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ الله مبتدأ والموصول مع صلته خبره ﴿فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ أولها يوم الأحد وآخرها الجمعة ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ عطف على خلق وقد بسطنا الكلام في الاستواء على العرش في سورة يونس وذكرنا في سورة الأعراف أيضاً ﴿مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ﴾ يعني إذا جاوزتم مرضاته لا ينصركم في مواطن النصر والشفيع متجوز به للناصر فإذا أخذ لكم لم يبق لكم ولي ولا ناصر إستئناف أو حال من فاعل إستوى ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ بمواعظ الله الهمزة للإنكار والفاء للعطف على محذوف تقديره ألا تتفكرون فلا تتذكرون ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ إستئناف أو حال من فاعل استوى أو خبر بعد خبر لله أو خبر أول والموصول مع صلته صفة لله وما لكم حال يعني يدبر أمر الدنيا ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي بأسباب سماوية نازلة أثارها ﴿إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ﴾ أي يصعد ﴿إِلَيْهِ﴾ ويثبت في علمه موجوداً أو المعنى يدبر الأمر أي يحكم بالأمر وينزل الوحي مع جبرئيل أو ينزل القضاء والقدر مع الملك الموكل به من السماء وإلى الأرض ثم يعرج أي يصعد جبرئيل أو غيره من الملائكة إليه أي إلى الله يعني إلى حيث يرضاه ﴿فِى يَوْمٍ﴾ من أيام الدنيا، والمراد باليوم هاهنا مطلق الوقت لا بياض النهار لأن نزول الملائكة وصعودها غير مختص بالنهار ﴿كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ﴾ حال بتقدير قد أي وقد كان مقدار عروجه ونزوله ﴿أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ يعني لو سار أحد من بني أدم لم يقطعه إلا في ألف سنة لكن الله بكمال قدرته جعل نزوله وعروجه في طرفة عين، قال البغوي هذا وصف عروج الملائكة ونزولها من السماء إلى الأرض وأما قوله تعالى: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾﴾[(١)] مدة المسافة من الأرض إلى سدرة المنتهى التي هي مقام جبرئيل يقول يسير جبرئيل والملائكة الذين معه من أهل مقامه مسيرة خمسين ألف سنة في يوم من أيام الدنيا أي برهة من الزمان هذا كله معنى قول مجاهد والضحاك، قلتُ: وجاز أن يكون المراد في الآيتين المسافة التي بين الأرض والسدرة المنتهى على اختلاف سير

(١) سورة المعارج، الآية: ٤.

السائرين فإنه ورد في حديث العباس بن عبد المطلب عند الترمذي بعد ما بين المساء والأرض إما واحدة وإما اثنتان أو ثلاث وسبعون سنة وفي حديث أبي هريرة عند أحمد والترمذي «مسافة ما بينهما وبين كل سمائين خمس مائة سنة»[١] ولا وجه لتطبيقهما إلا باعتبار اختلاف سير السائرين والله أعلم.

وقيل معنى الآية يدبر الأمر أي أمر الدنيا من السماء أي بأسباب سماوية كالملائكة وغيرها نازلة آثارها إلى الأرض ثم يرجع الأمر والتدبير إليه وحده بعد فناء الدنيا وانقطاع الأمراء وحكم الحكام في يوم كان مقداره ألف سنة وهو يوم القيامة، لما روى الترمذي عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «يدخل الفقراء الجنة قبل الأغنياء بخمس مائة عام نصف يوم»[٢] وأما قوله تعالى: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾﴾[٣] أراد به أيضاً يوم القيامة، روى الشيخان في الصحيحين عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «ما من صاحب كنز لا يؤدي زكاة كنزه إلا أحمي عليه في نار جهنّم فيجعل صفائح فتكوى بها جنباه وجبينه حتى يحكم الله بين عباده في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ثم يرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار»[٤] الحديث. ووجه التطبيق بين الحديثين أن يوم القيامة يختلف طوله بالنسبة إلى الأشخاص يكون ذلك اليوم على بعض الناس مقدار خمسين ألف سنة وعلى بعضهم مقدار ألف سنة وعلى بعضهم أخف من أيام الدنيا، أخرج الحاكم والبيهقي عن أبي هريرة مرفوعاً وموقوفاً «طول ذلك اليوم على المؤمنين كمقدار بين الظهر والعصر» وكذا ذكر البغوي قول إبراهيم التيمي وأخرج أبو يعلى وابن حبان والبيهقي بسند حسن عن أبي سعيد قال: «سئل رسول الله ﷺ عن يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ما أطول هذا اليوم؟ فقال: «والذي نفسي بيده إنه ليخفف على المؤمن حتى يكون أهون عليه من الصلاة المكتوبة يصليها في الدنيا» وقال البغوي قال ابن أبي مليكة دخلتُ أنا وعبد الله بن فيروز مولى عثمان بن عفان على ابن عباس فسأله عن هذه الآية وعن قوله تعالى: ﴿خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ فقال له ابن عباس أيام سماه الله

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة الواقعة (٣٢٩٤).

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: الزهد، باب: ما جاء أن فقراء المهاجرين يدخلون الجنة قبل أغنيائهم (٢٣٥١).

(٣) سورة المعارج، الآية: ٤.

(٤) أخرجه مسلم في كتاب: الزكاة، باب: إثم مانع الزكاة (٩٨٧).

تعالى لا أدري ما هي وأكره أن أقول في كتاب الله ما لا أعلم، وأخرج البيهقي من طريق ابن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ قال هذا في الدنيا وقوله تعالى: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ فهذا يوم القيامة جعله الله على الكافر مقدار خمسين ألف سنة، واختار جلال الدين المحلي هذه الرواية في تفسيره وقيل يقضي قضاء ألف سنة فينزل به الملك ثم يعرج بعد الألف لألف آخر، وقيل يدبر الأمور به من الطاعات منزلاً من السماء إلى الأرض بالوحي ثم لا يعرج إليه خالصاً كما يرتضيه إلا في مدة متطاولة لقلة المخلصين في الأعمال ﴿ذَٰلِكَ﴾ المدبر الخالق للسماوات والأرض وما بينهما مبتدأ خبره ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ﴾ أي ما غاب عن الخلق ﴿وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ أي ما حضر عندهم فيدبر الأمور على وفق الحكمة ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالب على أمره ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ على العباد في تدبيره وفيه إيماء بأنه يراعى المصالح تفضلاً وإحساناً صفتان لعالم الغيب والشهادة أو خبر ثان وثالث لذلك ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ﴾ الموصول مع الصلة صفة بعد الصفتين المذكورتين أو خبر رابع لذلك ﴿كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر بسكون اللام فهو بدل إشتمال من كل شيء يعني أحسن خلق كل شيء موافراً عليه ما يستعده ويليق به على وفق الحكمة كذا قال قتادة وقال ابن عباس أتقنه وأحكمه، أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس عن النبيّ ﷺ في قوله: ﴿أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ قال أما إن است القردة ليست بحسنة ولكنه أحكم خلقها، وقال مقاتل أي علم كيف يخلق كل شيء من قولك فلان يحسن كذا إذا كان يعلم، وقرأ نافع والكوفيون بفتح اللام على صيغة الماضي على أنه صفة لشيء ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ﴾ يعني آدم عليه السلام ﴿مِن طِينٍ﴾ ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ﴾ سميت به لأنها تنسل منه أي تنفصل ﴿مِن سُلَٰلَةٍ﴾ أي نطفة سميت سلالة لأنها تسل من الإنسان ﴿من ماء مهين﴾ ضعيف بدل من سلالة أو بيان له ﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ﴾ أي الإنسان قوّمه بتصوير أعضائه على ما ينبغي ﴿وَنَفَخَ فِيهِ﴾ أي في الإنسان ﴿مِن رُّوحِهِۦ﴾ الضمير إما راجع إلى الإنسان أو إلى الذي أحسن خلق كل شيء تشريفاً وإظهاراً بأنه خلق عجيب له شأن عظيم ممكن له نسبة بما لا مثل له ولا كيف ﴿جَعَلَ لَكُمُ﴾ إلتفات من الغيبة إلى الخطاب ﴿ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ لتسمعوا وتبصروا وتعقلوا بعد ما كنتم نطفاً بغير سمع وبصر وتعقّل ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ ما زائدة مؤكدة للقلة أي شكراً قليلاً أو في زمان قليل تشكرون رب هذه النعم فتوحدونه وتعبدونه ﴿وَقَالُوٓا۟﴾ أي منكري البعث عطف على ﴿جعل لكم السمع﴾ وفيه التفات من الخطاب إلى الغيبة ﴿ءإذا ضللنا في الأرض﴾ أي غبنا فيها يعني صرنا تراباً مخلوطاً بتراب الأرض بحيث لا يتميز

بينهما وأصله من قولهم ضل الماء في اللبن إذا اختلط به وغاب فيه، قرأ ابن عامر إذا بهمزة واحدة على الخبر والعامل فيه ما دل عليه ﴿ءإنا لفي خلق جديد﴾ وهو نبعث ونجدد خلقاً، قرأ نافع والكسائي ويعقوب إنا بهمزة واحدة على الخبر والقائل أبي بن خلف والإسناد إلى جميعهم لرضائهم به والإستفهام لإنكار البعث استبعاداً ﴿بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ﴾ أي بما بعد البعث من الجزاء ﴿كَٰفِرُونَ﴾ لما ذكر كفرهم بالبعث أضرب عنه إلى ما هو أبلغ منه وهو أنهم كافرون بجميع ما يكون في الآخرة ﴿قُلْ﴾ يا محمّد ﴿يَتَوَفَّىٰكُم﴾ أي يستوفي نفوسكم لا يترك منها شيئاً أو لا يبقي منكم أحداً والتفعل والاستفعال يستعمل أحدهما مقام الآخر يقال تقصَّيته واستقصيته وتعجلته واستعجلته ﴿مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ﴾ وهو عزرائيل عليه السلام، روى البغوي عن عكرمة عن ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ: «الأمراض والأوجاع كلها بريد الموت ورسول الموت فإذا حان الأجل أتى ملك الموت فقال أيها العبد كم خبر بعد خبر وكم رسول بعد رسول وكم بريد بعد بريد أنا الخبر ليس بعدي خبر وأنا الرسول ليس بعدي رسول أجب ربك طائعاً أو مكرهاً، ولمَّا قبض روحه وتصارخوا عليه قال على من تصرخون وعلى من تبكون والله ما ظلمتُ له أجلاً ولا أكلتُ له رزقاً بل دعاه ربه فليبك الباكي على نفسه فوالله إن لي عودات وعودات حتى لا أبقي فيكم أحداً» ﴿ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾ أي وكل بقبض أرواحكم وله أعوان من الملائكة وقد ذكرنا الأحاديث الواردة في ملك الموت وأعوانه في تفسير سورة الأنعام في تفسير قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾[1].

مسألة:

ملك الموت لا يعلم بوقت أحد ما لم يأمر به، أخرج أحمد وابن أبي الدنيا عن معمر قال بلغنا أن ملك الموت لا يعلم متى يحضر أجل الإنسان حتى يؤمر بقبضه وأخرج ابن أبي الدنيا عن ابن جريج قال بلغنا أنه يقال لملك الموت إقبض فلاناً في وقت كذا في يوم كذا.

مسألة:

ملك الموت يظهر للمؤمن بأحسن صورة وللكافر بأقبحها، أخرج ابن أبي الدنيا عنابن مسعود وابن عباس قالا لمّا اتخذ الله إبراهيم خليلاً سأل ملك الموت أن يأذن له أن

(١) سورة الأنعام، الآية: ٦١.

يبشر له بذلك فأذن له فجاء إبراهيم فبشره فقال الحمد لله ثم قال يا ملك الموت أرني كيف تقبض أنفاس الكفار قال يا إبراهيم لا تطيق ذلك قال بلى قال فأعرض فأعرضَ ثم نظر فإذا برجل أسود ينال رأسه السماء يخرج من فيه لهب النار وليس من شعرة في جسده إلا في صورة رجل يخرج من فيه ومسامه لهب النار فغشي على إبراهيم ثم أفاق وقد تحول ملك الموت في الصورة الأولى، فقال يا ملك الموت لو لم يبق الكافر من البلاء والحزن إلا صورتك لكفاه فأرني كيف تقبض أرواح المؤمنين قال فأعرض فأعرضَ ثم التفت فإذا هو برجل شاب أحسن الناس وجهاً وأطيبهم ريحاً في ثياب بيض فقال يا ملك الموت لو لم ير المؤمن عند الموت من قرة عين والكرامة إلا صورتك هذه يكفيه، وأخرج عن كعب أن إبراهيم أراه ملك الموت الصورة التي يقبض بها المؤمن قال فرآه من النور والبهاء شيئاً لا يعلمه إلا الله والتي يقبض بها الكفار الفجار فرعب إبراهيم رعباً حتى أرعدت فرائصه وألصق بطنه بالأرض وكادت نفسه تخرج.

مسألة:

كيف يكون الموت سوى الآدميين، أخرج أبو الشيخ والعقيلي في الضعفاء والديلمي عن أنس قال قال رسول الله ﷺ: «آجال البهائم وحشاش الأرض كلها في التسبيح فإذا انقضى تسبيحها قبض الله أرواحها وليس إلى ملك الموت من ذلك شيء» وله طريق آخر أخرجه الخطيب من حديث ابن عمر مثله، قال ابن عطية والقرطي معنى ذلك أن الله تعالى يعدم حياتها بلا مباشرة ملك الموت، قلتُ جعل ملك الموت وأعوانه للإنسان إكراماً للمؤمنين وإهانةً وتعذيباً للكافرين، وأخرج الخطيب في تفسيره عن الضحاك عن ابن عباس قال وكل ملك الموت بقبض أرواح الآدميين فهو الذي يقبض أرواحهم وملك في الجن وملك في الشياطين وملك في الوحش والطير والسباع والحيتان والنمل فهو أربعة أملك والملائكة يموتون في الصعقة الأولى وأن ملك الموت يلي قبض أرواحهم ثم يموت، فأمّا الشهداء في البحر فإن الله يلي قبض أرواحهم لا يكل ذلك إلى ملك الموت لكرامتهم عليه حيث ركبوا سيح البحر في سبيله، وفيه جويبر ضعيف جداً والضحاك عن ابن عباس منقطع ولآخره شاهد مرفوع أخرجه ابن ماجه عن أبي أمامة سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله وكل ملك الموت بقبض الأرواح إلا شهداء البحر فإن الله يتولى قبض أرواحهم»[(١)] قلتُ فشهداء بحر العشق والمعرفة أولى بذلك الكرامة والله أعلم.

(١) أخرجه ابن ماجه في كتاب: الجهاد، باب: فضل غزو البحر (٢٧٧٨).

﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ يعني بعد الموت يصعد بروح المؤمن ملائكة الرحمة إلى السماوات حتى ينتهي بها إلى السماء السبعة وبروح الكافر ملائكة العذاب حتى ينتهي بها إلى السماء الدنيا فيستفتح له فلا يفتح له فيطرح روحه طرحاً وقد مر الحديث في سورة الأنعام، أو المعنى ترجعون بعد الحشر أحياءً إلى موقف الحساب فيجزي كل نفس بما عملت وقد مرَّ.

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا
نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى
لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ فَذُوقُوا۟ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ
إِنَّا نَسِينَٰكُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا
ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ
ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم
مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُۥنَ
﴿١٨﴾ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا
ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا۟ عَذَابَ
ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾﴾.

ثم ذكر الله سبحانه حالهم بعد الحشر فقال ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ﴾ يا محمّد ﴿إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ أي المشركين الذين ﴿قالوا إذا ضللنا في الأرض ءإنا لفي خلق﴾ ﴿نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ﴾ حال من الضمير في المجرمون ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ ندامةً وحزناً يقولون حال من فاعل ناكسُوا أو حال مرادف له أو إستئناف في جواب ما يقولون حينئذ ﴿رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا﴾ ما وعدتنا وكنا مكذّبيه ﴿وَسَمِعْنَا﴾ منك تصديق رسلك فيما كذّبناهم، وقيل معناه أبصرنا معاصينا وسمعنا ما قيل فينا ﴿فَٱرْجِعْنَا﴾ إلى الدني ﴿نَعْمَلْ﴾ عملاً ﴿صَٰلِحًا﴾ مجزوم في جواب الدعاء ﴿إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ الآن بما كنا شاكّين فيه قبل وجواب لو محذوف تقديره لرأيت أمراً فظيعاً، ويجوز أن يكون لو للتمني والمضي في لو وإذ لكون الثابت في علم الله بمنزلة الواقع ولا يقدر لترى مفعول لأن المعنى لو يكون منك رؤية في هذا الوقت أو يقدر ما دل عليه صلة إذ يعني لو ترى نكوس رؤوسهم ﴿وَلَوْ شِئْنَا﴾ أن نؤتي كل نفس هُداها أي ما يهتدي به إلى الإيمان والعمل الصالح وخلق الإنقياد للرسول باختياره قلباً وقالباً أو المعنى لو شئنا

هداية كل نفس ﴿لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ﴾ عاقلة من الجن والإنس ﴿هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي﴾ أي ثبت قضائي بعدم هدايتهم وعدم اهتدائهم وكون مصيرهم إلى النار أو سبق وعيدي ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ اللام فيهما للعهد والمراد المجرمون من الفريقين الذين مرّ ذكرهم بدليل قوله ﴿أَجْمَعِينَ﴾ عن عائشة قالت قال رسول الله ﷺ: «إن الله خلق للجنة أهلاً خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم وخلق للنار أهلاً خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم»[1] رواه مسلم، وعن عليّ رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من النار ومقعده من الجنة، قالوا يا رسول الله أفلا نتكل على كتابنا وندع العمل؟ قال: اعملوا فكل ميسر لما خلق له أما من كان من أهل السعادة فسييسر لعمل أهل السعادة وأما من كان من أهل الشقاوة فسييسر لعمل أهل الشقاوة ثم قرأ ﴿فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى﴾ الآية[2] متفق عليه، وعن عبد الله ابن عمرو قال: خرج رسول الله ﷺ وفي يده كتابان فقال اتدرون ما هذان الكتابان؟ قلنا لا يا رسول الله ألا تخبرنا، فقال للذي في يمينه هذا كتاب من رب العالمين فيه أسماء أهل الجنة وأسماء آبائهم وقبائلهم ثم أجمل على آخرهم فلا يزاد فيهم ولا ينقص منهم أبداً، ثم قال للذي في شماله هذا كتاب من رب العالين فيه أسماء لأهل النار وأسماء آبائهم وقبائلهم ثم أجمل على آخرهم فلا يزاد فيهم ولا ينقص منهم أبداً، فقال أصحابه ففيم العمل يا رسول الله إن كان أمر قد فرغ منه؟ فقال سددوا وقاربوا فإن صاحب الجنة يختم له بعمل أهل الجنة وإن عمل أيّ عمل، وإن صاحب النار يختم له بعمل أهل النار وإن عمل أيّ عملٍ ثم قال رسول الله ﷺ بيديه فنبذهما ثم قال فرغ ربُّكم من العباد فريقٌ في الجنَّةِ وفريقٌ في السعيرُ»[3] رواه الترمذي.

وجملة ﴿لَأَمْلَأَنَّ﴾ جواب قسم محذوف وبيان للقول المذكور بتقدير هو أو بدل عنه وجاز أن يكون حق القول في حكم القسم يقا حقّاً لأفعلن كذا فعلى هذا يكون لأملأنّ

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب: البر والصلة والآداب، باب: معنى كل مولود يولد على الفطرة وحكم موت أطفال الكفار وأطفال المسلمين (٢٦٦٢)، وأخرجه النسائي في كتاب: الجنائز، باب: الصلاة على الصبيان (١٩٣٨)، وأخرجه أبو داود في كتاب: السنة باب في ذراري المشركين (٤٧٠١).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، باب: باب: ﴿فسنيسره للعسرى﴾ (٤٩٤٩)، وأخرجه مسلم في كتاب البر والصلة والآداب، باب: كيفية خلق الآدمي في بطن أمه (٢٦٤٧).

(٣) أخرجه الترمذي في كتاب: القدر، باب: ما جاء أن الله كتب كتاباً لأهل الجنة وأهل النار (٢١٤١).

جواباً له، وقال مقاتل المراد بالقول هو قوله تعالى لإبليس: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾﴾[1] وفي هذه تصريح بأن عدم إيمانهم مسبب بعدم المشيئة ـ وحق القول إما تقرير لعدم المشيئة والمعنى ولكن شئتُ كفرهم ومصيرهم إلى النار أو تعليل لعدم المشيئة بسبق القضاء ولا يدفعه جعل ذوق العذاب مُسبباً عن نسيانهم العاقبة وعدم تفكرهم فيها بقوله ﴿فَذُوقُوا﴾ الفاء للسببية يعني لما حق القول مني كذلك فيقول لهم خزنة جهنم إذا دخلوها ذوقوا عذاب جهنم ﴿بِمَا نَسِيتُمْ﴾ أي بسبب نسيانكم ﴿لِقَاءَ يَوْمِكُمْ﴾ يعني البعث والرجوع إلى الله أي إلى موقف حسابه ﴿هَٰذَا﴾ صفة ليومكم حتى عملتم موجبات العذاب ﴿إِنَّا نَسِينَاكُمْ﴾ أي تركناكم من الرحمة أو في العذاب ترك المنسى وفي استئنافه وبناء الفعل على أن واسمها تشديد في الإنتقام منهم ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ كرر الأمر للتوكيد ولما نيط به من التصريح بمفعوله وتعليله بأعمالهم السيئة من الكفر والمعاصي كما علله بتركهم تدبر أمر العاقبة والتفكر فيها دلالةً على أن كل منهما يقتضي ذلك وهذه الآية حجة لنا على الجبرية والقدرية، أما على الجبرية فلقوله ﴿بِمَا نَسِيتُمْ﴾ حيث جعل سبب ذوق العذاب نسيانهم وتركهم الإيمان والأعمال الصالحة باختيارهم، وأما على القدرية فإنهم يقولون أن الله يشاء من عباده كلهم الإيمان والأعمال الصالحة وهم تركوا الإيمان بمشيئتهم وإختيارهم فالآية تدل على أنه لا جبر ولا تفويض بل أمر بين أمرين ﴿إنما يؤمن بآياتنا الذين إذا ذكروا بها﴾ أي وعظوا ﴿خَرُّوا﴾ وقعوا على وجوههم خوفاً من عذاب الله ﴿سُجَّدًا﴾ أي ساجدين ﴿وَسَبَّحُوا﴾ أي نزهوا عما لا يليق به كالعجز عن البعث ﴿بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ متلبسين بحمده يعني حامدين له شكراً على ما وفقهم للإسلام وآتاهم الهداية قائلين سبحان الله وبحمده ﴿وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ عن الإيمان والطاعة ﴿تَتَجَافَىٰ﴾ حال من فاعل سجوا أي ترتفع وتتنحى ﴿جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾ أي الفرش التي ينامون عليها ﴿يَدْعُونَ﴾ حال من الضمير المجرور في جنوبهم وهو فاعل تتجافى على طريقة ﴿دَابِرَ هَٰؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ﴾[2] ﴿رَبَّهُمْ خَوْفًا﴾ من سخطه وعذابه ﴿وَطَمَعًا﴾ في رحمته وثوابه، أخرج هناد عن أسماء بنت يزيد رضي الله عنها قال قال رسول الله ﷺ: «يجمع الله يوم القيامة الناس في صعيد واحد يسمعهم الداعي وينفذهم البصر فيقوم مناد فينادي أين الذين كانوا يحمدون الله تعالى في السراء والضراء؟ فيقومون وهم قليل

(١) سورة ص، الآية: ٨٥.

(٢) سورة الحجر، الآية: ٦٦.

فيدخلون الجنة بغير حساب، ثم يعود فينادي أين الذين كانت تتجافى جنوبهم عن المضاجع؟ فيقومون وهم قليل فيدخلون الجنة بغير حساب ثم يقوم سائر الخلق فيحاسبون» وأخرج ابن راهويه وأبو يعلى في مسنديهما من حديثها نحوه وفيه ينادي أولاً بصوت يسمع الخلائق سيعلم أهل الجمع مَن أهل الكرم، قال الحسن ومجاهد ومالك والأوزاعي وجماعة العلماء هم المتهجدون الذين يقومون لصلاة الليل، روى أحمد والترمذي وابن ماجه وابن أبي شيبة وابن راهويه في مسنديهما والحاكم عن معاذ قال قلتُ يا رسول الله أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني من النار؟ قال لقد سألتَ من عظيم وإنه يسير على من يسره الله عليه تعبد الله ولا تشرك به شيئاً وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت، ثم قال ألا أدلك على أبواب الخير؟ الصوم جنة والصدقة تطفىء الخطيئة كما يطفىء الماء النار وصلاة الرجل في جوف الليل ثم تلا ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾ حتى بلغ يعملون، ثم قال ألا أدلك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه؟ قلتُ بلى يا نبي الله، فأخذ بلسانه وقال كف عليك هذا، فقلتُ يا نبي الله وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ قال ثكلتك أمك يا معاذ وهل يكب الناس في النار على وجوههم أو على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم»(١).

وعن أبي مالك الأشعري قال قال رسول الله ﷺ: «إن في الجنة غرفاً يرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها أعدها الله لمن ألان الكلام وأطعم الطعام وتابع الصيام وصلَّى بالليل والناس نيام» رواه البيهقي في شعب الإيمان، وروى الترمذي عن علي نحوه، وعن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «أفضل الصيام بعد رمضان شهر الله المحرم وأفضل الصلاة بعد الفريضة صلاة الليل»(٢) رواه مسلم وروى أحمد الفصل الأخير بلفظ «أفضل الصلاة بعد الفريضة صلاة في جوف الليل» وروى البغوي عن ابن مسعود رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «عجب ربنا عن رجلين رجل ثار عن وطائه ولحافه من بين حبه وأهله إلى صلاته فيقول الله لملائكته انظروا إلى عبدي ثار عن فراشه ووطائه من بين حبه وأهله رغبة فيما عندي وشفقة ممّا عندي، ورجل غزا في سبيل الله فانهزم مع أصحابه فعلم ما عليه في انهزامه وماله في الرجوع فرجع حتى أهريق دمه فيقول الله لملائكته انظروا إلى عبدي رجع رغبةً فيما عندي وشفقةً مما عندي حتى أهريق دمه»

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: الإيمان، باب: ما جاء في حرمة الصلاة (٢٦١٦)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب: الفتن، باب: كف اللسان في الفتنة (٣٩٧٣).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب: الصيام، باب: فضل صوم المحرم (١١٦٣).

وروى البغوي عن أبي هريرة ما قال ابن رواحة:

وفينا رسول الله يتلو كتابه إذا انشق معروف من الفجر ساطع
أرانا الهدى بعد العمى فقلوبنا به موقنات أنَّ ما قال واقع
يبيت يجافي جنبه عن فراشه إذا استثقلت بالكافرين المضاجع

وقد ذكرنا ما ورد من الأحاديث في فضائل صلاة الليل في تفسير سورة المزّمّل، وأخرج الترمذي وصححه عن أنس أن هذه الآية ﴿تتجافى جنوبهم عن الضاجع﴾ نزلت في انتظار الصلاة التي تدعى العتمة[1]، وقال البغوي قال أنس نزلت هذه الآية فينا معشر الأنصار كنا نصلّى المغرب فلا نرجع إلى رحالنا حتى نصلي العشاء مع رسول الله ﷺ، وقال عن أنس أيضاً قال نزلت في أناس من أصحاب رسول الله ﷺ كانوا يصلّون من صلاة المغرب إلى صلاة العشاء، أخرجه ابن مردويه عن أنس وأصله في سنن أبي داود وهو قول أبي حاتم ومحمد بن المنكدر وقالا هي صلاة الأوابين، روى ابن نصر عن محمد بن المنكدر مرسلاً من صلّى ما بين المغرب والعشاء فإنها صلاة الأوابين، وأخرج البزار بسند ضعيف عن بلال قال كنا نجلس في المجلس وناس من أصحاب النبيّ ﷺ يصلّون بعد المغرب إلى العشاء فنزلت هذه الآية ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾ وقال البغوي عن أبي الدرداء وأبي ذر وعبادة بن الصامت هم الذين يصلون العشاء الآخرة والفجر في جماعة، وروى مسلم وأحمد عن عثمان رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «من صلّى العشاء في جماعة فكأنما قام نصف الليل ومن صلّى الصبح في جماعة فكأنما صلّى الليل كله»[2] وعن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «لو يعلمون ما في النداء والصف الأول ثم لم يجدوا إلا أن يستهموا عليه لاستهموا عليه ولو يعلمون ما في التهجير لاستبقوا إليه ولو يعلمون ما في العتمة والصبح لأتوهما ولو حبواً»[3] رواه الشيخان في الصحيحين وأحمد والنسائي.

﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ قيل أريد به الصدقة المفروضة وقيل عام في وجوه

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة السجدة (٣١٩٦).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب: المساجد ومواضع الصلاة، باب: فضل صلاة العشاء والصبح في جماعة (٦٥٦).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: الأذان، باب: الاستهام في الأذان (٦١٥)، وأخرجه مسلم في كتاب: الصلاة باب تسوية الصفوف وإقامتها وفضل الأول فالأول منها.

الخير ﴿فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ﴾ لا ملك مقرَّب ولا نبي مرسل ﴿مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم﴾ قرأ حمزة ويعقوب بياء ساكنة على أنه مضارع أخفيت ويؤيده قراءة ابن مسعود نخفي بالنون والباقون بفتحها على أنه ماضٍ مبني للمفعول ﴿مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ﴾ من زائدة وقرة أعين في محل النصب على قراءة حمزة وفي محل الرفع على قراءة الجمهور أي مما تقربه أعينهم، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ تعالى: «أعددتُ لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر إقرءوا إن شئتم (فلا تعلم نفسٌ أخفى لهم من قرة أعين)»[1] متفق عليه، قال هذا ما لا تفسير له ﴿جَزَآءَۢ﴾ منصوب على المصدرية أو على العلية يعني يجزون جزاءً وأخفى للجزاء ﴿بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ ذكر البغوي وأخرج الواحدي وابن عساكر من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس نحوه أنه كان بين علي بن أبي طالب رضي الله عنه والوليد بن عقبة بن أبي معيط تنازع وكلام في شيء فقال الوليد لعلي عليه السلام اسكت فإنَّك صبي وأنا والله أبسط منك لساناً وأشجع منك جناناً وأملأ منك حشواً في الكتيبة، فقال علي اسكت فإنك فاسق فأنزل الله تعالى ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤۡمِنٗا كَمَن كَانَ فَاسِقٗاۚ﴾ وأخرج ابن جرير عن عطاء بن يسار مثله وأخرج الخطيب في تاريخه وابن عدي من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس مثله وأخرج الخطيب وابن عساكر من طريق بن لهيعة عن عمرو بن دينار عن ابن عباس أنها نزلت في علي بن أبي طالب وعقبة بن أبي معيط وذلك بسباب كان بينهما، والاستفهام للإنكار والفاء للعطف على محذوف تقديره أيستوى عليٌّ ولي الله المرتضى ووليد عدو الله فمن كان مؤمناً كان كمن كان فاسقاً يعني خارجاً عن أهل الإيمان لا يكون ذلك ﴿لا يستون﴾ في الشرف والمثوبة أورد صيغة الجمع لأن المراد جنس المؤمن والكافر والجملة تقرير لإنكار الاستواء ولمَّا كان الإستواء مجملا فصَّله بقوله ﴿أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡمَأۡوَىٰ﴾ فإنها المأوى الحقيقي والدنيا منزل مرتحل عنها لا محالة يأوى إليها المؤمنون ويأبى عن دخلوها الكافرون باختيارهم الشرك بالله ﴿نُزُلَۢا﴾ وهو ما يعد للضيف حال من جنات وهو فاعل للظرف ﴿بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ أي بسبب أعمالهم ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ﴾ أي كفروا ﴿فَمَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ﴾ استبدلوها بجنات المأوى ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا﴾ عبارة عن خلودهم فيها ﴿وَقِيلَ لَهُمۡ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ إهانة لهم وزيادةً في غيظهم.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: بدء الخلق، باب: ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة (٣٢٤٤)، وأخرجه مسلم في كتاب: الجنة وصفة نعيمها وأهلها (٢٨٢٤).

﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَنْ
أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى
ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ ۖ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ
أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ
يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ
ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ ۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَسُوقُ
ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ ۖ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾
وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٨﴾ قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟
إِيمَٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَٱنتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم﴾ عطف على ﴿مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾ ﴿مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ﴾ يعني عذاب الدنيا، قال أبي بن كعب والضحاك والحسن وإبراهيم يعني مصائب الدنيا وأسقامها وهو رواية الوالبي عن ابن عباس، وقال عكرمة أراد بها الحدود، وقال مقاتل الجوع سبع سنين بمكة حين أكلوا الجيف والعظام والكلاب وقال ابن مسعود هو القتل بالسيف يوم بدر وهو قول قتادة والسديّ ﴿دُونَ﴾ أي قبل ﴿ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ﴾ يعني العذاب الآخرة ﴿لعلهم يرهبون﴾ إلى الإيمان يعني من بقي منهم بعد القحط وبعد البدر ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ لا أحد أظلم ﴿ممن ذكر بآيات ربه ثم أعرض عنها﴾ ولم يتدبر فيها وثم لاستبعاد الإعراض عن مثل هذه الآيات مع فرط وضوحها وإرشادها إلى السعادة في الدارين ﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ فكيف بمن كان هو أظلم من كل ظالم - ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ جواب قسم محذوف وهو مع ما عطف عليه معترضة بين قوله: ﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ وبين قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ﴾ يعني كما آتيناك القرآن آتينا قبل ذلك موسى الكتاب يعني التوراة ﴿فَلَا تَكُن﴾ يا محمد ﴿فِى مِرْيَةٍ﴾ في شك ﴿مِّن لِّقَآئِهِۦ﴾ أي الكتاب مصدر مضاف إلى المفعول والفاعل محذوف يعني من أن لقيت الكتاب إلى القرآن فإنه غير مبتدع مِمَّا لم يكن قبل حتى ترتاب فيه، أو من أن لقي الموسى الكتاب بالرضاء والقبول كذا قال السدي، وأخرج الطبراني عن ابن عباس عن النبيّ ﷺ في قوله: ﴿فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ﴾ قال لقاء موسى ربه، وقيل معناه لا تكن في شك من لقائك موسى أي ليلة المعراج قاله ابن عباس وغيره. روى الشيخان عن ابن عباس عن النبيّ ﷺ قال: «رأيتُ ليلة أسري بي موسى رجلاً أدماً طوالاً جعداً كأنَّه من رجال شنوأة ورأيت عيسى رجلاً مربوع الخلق إلى

الحمرة والبياض سبط الرأس ورأيتُ مالكاً خازن النار والدجال في آيات أراهن الله إياه فلا تكن في مرية من لقائه»[١] وعن ابن عباس قال: سرنا مع رسول الله ﷺ فمررنا بواد فقال أيّ واد هذا؟ فقالوا وادي الأزرق، قال كأني أنظر إلى موسى فذكر من لونه وشعره واضعاً أصبعيه في أذنيه له جؤار إلى الله بالتلبية ماراً بهذا الوادي، قال ثم سرنا حتى أتينا على ثنية فقال أيُّ ثنية هذه؟ فقالوا فقال كأني أنظر إلى يونس على ناقة حمراء عليه جبة صوف خطام ناقته حلبته ماراً بهذا الوادي ملبياً»[٢] رواه مسلم، وقد ذكر في سورة بني إسرائيل في حديث المعراج أن النبيّ ﷺ رأى موسى في السماء السادسة ومراجعته في أمر الصلاة، وعن أنس قال قال رسول الله ﷺ: «لمّا أسري بي إلى السماء رأيتُ موسى يصلي في قبره» ﴿وَجَعَلْنَٰهُ﴾ يعني الكتاب الذي أنزل على موسى، وقال قتادة يعني موسى كذا أخرج الطبراني عن ابن عباس عن النبيّ ﷺ قال: «جعل موسى هدى لبني إسرائيل» ﴿هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ﴾ أي من بني إسرائيل ﴿أَئِمَّةً﴾ قادة في الخير يقتدى بهم يعني الأنبياء الذين كانوا فيهم وقال قتادة إتباع الأنبياء ﴿يَهْدُونَ﴾ الناس إلى ما فيه من الأحكام ﴿بِأَمْرِنَا﴾ إياهم أو بتوفيقنا لهم ﴿لَمَّا صَبَرُوا۟﴾ قرأ حمزة والكسائي لما بكسر اللام وتخفيف الميم أي لصبرهم والباقون بفتح اللام وتشديد الميم أي حين صبروا على دينهم وعلى البلاء من عدوهم بمصر وفيه دليل على أن الصبر يورث إمامة الناس ﴿وكانوا بآياتنا يوقنون﴾ لإمعانهم فيها بالنظر ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ﴾ يقضي ﴿بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ فيميز المحق من المبطل متصل بقوله إنّا من المجرمين منتقمون وفيه التفات من التكلم إلى الغيبة ﴿فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ من أمر الدين ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾ الهمزة للإنكار والواو للعطف على محذوف والفاعل ضمير راجع إلى ربك أو ما دل عليه قوله ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا﴾ تقديره ألم يعتبروا بمن سبقهم ولم يهد لهم ربك أو كثرة إهلاكه ﴿مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ﴾ الماضية بسبب كفرهم ﴿يَمْشُونَ﴾ أهل مكة في أسفارهم ﴿فِى مَسَٰكِنِهِمْ﴾ أي مساكن المهلكين ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ الإهلاك ﴿لَءَايَٰتٍ﴾ دلالات على قبح ما فعلوا من الكفر والمعاصي وعلى قدرتنا على الإنتقام ﴿أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ الهمزة للإنكار والفاء للعطف على محذوف تقديره

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: بدء الخلق، باب: إذا قال أحدكم آمين والملائكة في السماء فوافقت إحداها الأخرى غفر له ما تقدم من ذنبه (٣٢٣٩)، وأخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: الإسراء برسول الله ﷺ إلى السماوات وفرض الصلوات (١٦٥).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: الإسراء برسول الله ﷺ إلى السماوات وفرض الصلوات (١٦٦).

أيعرضون عن آياتنا فلا يسمعون سماع تدبرو اتعاظ ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ الهمزة للإنكار والواو للعطف على محذوف تقديره ألم يتفكروا ولم يروا أي لم يعلموا بل قد علموا ﴿أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ﴾ التي جرز نباتها أي قطع وأزيل ﴿فَنُخْرِجُ بِهِۦ﴾ أي بالماء ﴿زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ﴾ أي من الزرع ﴿أَنْعَٰمُهُمْ﴾ كالتين والورق ﴿وَأَنفُسُهُمْ﴾ كالحب والثمر ﴿أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ الهمزة للإنكار والفاء للعطف على محذوف تقديره ألا يلقون أنظارهم فلا يبصرون ما ذكرنا فيستدلون به على كمال قدرتنا وفضلنا وعلى أنا قادرون على بعثهم بعد الموت، أخرج ابن جرير وذكره البغوي عن قتادة قال قال الصحابة للمشركين إن لنا يوماً أوشك أن نستريح فيه ونتنعم ويحكم الله بيننا وبينكم، قلتُ: لعلهم يعنون يوم القيامة الذي يحكم الله فيه بين العباد وقال الكلبي يعنون فتح مكة، وقال السديُّ يوم بدر لأن أصحاب النبيّ ﷺ كانوا يقولون إن الله ناصرنا ومظهرنا عليكم فقال المشركون استهزاءً متى هذا الفتح فنزلت ﴿وَيَقُولُونَ﴾ يعني كفار مكة عطف على مضمون ﴿أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ فإن نفي إبصار آيات القدرة إنكار للقدرة يعني أينكرون القدرة ويقولون استهزاءً ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ فيما تقولون فبينوا لنا وقته ﴿قُلْ﴾ يا محمد جملة مستأنفة في جواب ماذا أقول لهم حين قالوا ذلك ﴿يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَٰنُهُمْ﴾ المتبادر منه أن المراد بيوم الفتح يوم القيامة لأن إيمان ذلك اليوم لا ينفع البتة ومن حمل الفتح على فتح مكة أو يوم بدر قال معناه لا ينفع الذين كفروا وقتلوا وماتوا على الكفر إيمانهم حين رأوا العذاب بعد موتهم ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ أي يمهلون ووجه تطبيق هذا الجواب بسؤالهم عن يوم الفتح أن سؤالهم ذلك كان إستعجالاً منهم على وجه التكذيب والاستهزاء فأجيبوا على حسب ما عرف من عرضهم في سؤالهم، فكأن التقدير لا تستعجلوا به ولا تستهزءوا فكأنّي بكم وأنتم في ذلك اليوم وآمنتم به فلم ينفعكم إيمانكم واستنظرتم في درك العذاب فلم تنظروا ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ الفاء للسببية يعني إذا عرفتَ حالهم وما لهم فأعرض عنهم ولا تبال بتكذيبهم، قال ابن عباس نسختها آية السيف ﴿وَٱنتَظِرْ﴾ موعدي لك بالفتح ﴿إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ﴾ بك حوادث الزمان وقيل انتظر عذابنا فيهم فإنهم ينتظرون ذلك.

عن أبي هريرة قال: «كان النبيّ ﷺ يقرأ في الفجر يوم الجمعة آلمَّ تَنْزِيلُ وهل أتى على الإنسان» وعن جابر قال: «كان النبيّ ﷺ لا ينام حتى يقرأ آلَمّ تنزيل وتبارك الذي بيده المُلْكُ»[١] رواه أحمد والترمذي والدارمي وقال الترمذي هذا حديث صحيح، وعن خالد بن معدان قال: «بلغني في آلَمَّ تنزيل ومثله في تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ المُلْكُ أن رجلاً كان

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: فضائل القرآن، باب: ما جاء في فضل سورة الملك (٢٨٩٢).

يقرأهما ما يقرأ شيئاً غيرهما وكان كثير الخطايا فنشرت جناحها عليه وقالت رب اغفر له فإنه يكثر قراءتي فشفعها الرب تعالى فيه وقال أكتبوا له بكل خطيئةٍ حسنةً وأرفعوا له درجة» وقال أيضاً إنها تجادل عن صاحبها في القبر تقول إن كنتُ من كتابك فشفعني فيه وإن لم أكن من كتابك فامنحني عنه وإنها تكون كالطير تجعل جناحها عليه فتشفع له فتمنعه من عذاب القبر وقال على كل سورة في القرآن بستين حسنة» رواه الدارمي وعن ابن عباس قوله ﷺ: «من قرأ آلمّ تنزيل وتبارك الملك أعطي من الأجر كأنما أحيا ليلة القدر» رواه الثعلبي وابن مردويه وروى ابن مردويه عن ابن عمر نحوه. قال السيوطي هذا حديث موضوع والله أعلم.

تم تفسير سورة ألم تنزيل يوم الاثنين الرابع والعشرين من رجب من السنة السادسة بعد الألف ومئتين سنة ويتلوه إن شاء الله تعالى سورة الأحزاب.

سورة الأحزاب

آياتها ثلاث وسبعون وهي مدنيَّة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا
(١) وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (٢) وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ
وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا (٣) مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى
تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ
وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ (٤) ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ
فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ
قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (٥) ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ۗ
وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن
تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا (٦)﴾.

قال أبي بن كعب لزرِّكم تعدون سورة الأحزاب؟ قال ثلاثاً وسبعين آية، قال فوالذي يحلف به أبيٌّ إن كانت لتعدل سورة البقرة أو أطول ولقد قرأنا منها آية الرجم الشيخ والشيخة إذا زَنَيا فَارْجُمُوهُمَا نَكالاً مّنَ الله والله عزيزٌ حكيمٌ.

أخرج جويبر عن الضحاك عن ابن عباس قال إن أهل مكة منهم الوليد بن المغيرة وشيبة ابن ربيعة دعووا النبيّ ﷺ إلى أن يرجع عن قوله على أن يعطوه شطراً من أموالهم وخوَّفه المنافقون واليهود بالمدينة إن لم يرجع قتلوه فأنزل الله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ الآية ناداه بالنبيّ ولم يقل يا محمد وأمره بالتقوى تعظيماً وتفخيماً لشأن التقوى، وقال البغوي نزلت الآية في أبي سفيان بن الحرب وعكرمة ابن أبي جهل وأبي الأعور عمرو بن سفيان السلمي وذلك أنهم قدموا المدينة فنزلوا على

عبد الله بن أبيّ رأس المنافقين بعد قتال أحد وقد أعطاهم النبيّ ﷺ الأمان على أن يكلموه، فقام معهم عبد الله بن أبي سعد وطعمة بن أبيرق فقالوا للنبي ﷺ (وعنده عمر بن الخطاب) ارفض ذكر آلهتنا اللات والعزى ومناة وقل إن لها شفاعة لمن عبدها وندعك وربك، فشق على النبيّ ﷺ قولهم فقال عمر يا رسول الله أئذن لي في قتلهم، فقال إني قد أعطيتُهم الأمان فقال أخرجوا في لعنة الله وغضبه فأمر النبيّ ﷺ أن يخرجوهم من المدينة فأنزل الله تعالى هذه الآية. قيل الخطاب مع رسول الله ﷺ والمراد به الأمة، وقال الضحاك معناه إتق ولا تنقض العهد الذي بينك وبينهم، وقيل الخطاب للنبي ﷺ للأمر بالثبات عليه ليكون مانعاً عمّا نهى عنه بقوله ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ من أهل مكة يعني أبا سفيان وعكرمة وأبا الأعور ﴿وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ من أهل المدينة عبد الله ابن أبي وعبد الله بن سعد وطعمة بن أبيرق ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا﴾ بخلقه ومصالحم ومفاسدهم ﴿حَكِيمًا﴾ لا يحكم إلا على وفق الحكمة ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ من التوحيد والإخلاص لله، هذه الجملة بمنزلة التأكيد للتقوى وعدم إطاعة الكفار ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ قرأ أبو عمرو بالياء في يعملون خبيراً يعملون بصيراً للغيبة والضمير عائد للكافرين والمنافقين يعني أن الله خبير بمكائدهم يجازيهم عليها، وقرأ الباقون بالتاء خطاباً للنبي ﷺ وأصحابه فإن الأمر بالتقوى وإن كان بصيغة الواحد لكن المراد هو وأمته، وعلى هذا الجملة تأكيد لإمتثال الأمر طمعاً في حسن الجزاء وخوفاً عن قبحه ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ أي ثق به ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ موكولاً إليه الأمور كلها تذييل، وقال الزجاج عطف على توكل لفظه خبر ومعناه أمر أي إكتف بالله وكيلاً تميز من النسبة أي أكتف بالله وكيلاً يعني أكتف بوكالته وفي صيغة الأمر إشعار على التعليل للأمر بالتوكل والإكتفاء يعني من كان الله مع كمال علمه وقدرته ورحمته موكولاً إليه أموره لا يحتاج إلى توكيل غيره فتوكيل أموره إلى غيره سفه والله أعلم ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ﴾ من زائدة وهو في محل النصب على أنه مفعول أول لجعل ولرجل مفعوله الثاني ﴿فِي جَوْفِهِۦ﴾ ظرف لغواً وصفة لقلبين أعلم أن القلب معدن للروح الحيواني ومنبع للقوى بأسرها وذلك يمنع التعدد، إذ لو كان لرجل قلبان فإما أن يفعل بكل واحد منهما شيئاً واحداً من أفعال القلوب فالثاني فضلة لا حاجة إليه وإما أن يفعل بكل واحد غير ما يفعل به الآخر وحينئذ يفضي إلى التناقض، ذكر البغوي وكذا أخرج ابن أبي حاتم عن السديّ وابن نجيح عن مجاهد إنها نزلت في أبي معمر جميل بن معمر الفهري كان رجلاً لبيباً حافظاً لما يسمع فقالت قريش ما حفظ أبو معمر هذه إلا وله قلبان وكان يقول إن لي قلبين أعقل بكل واحد منهما أفضل مما عقل

محمد، فلما انهزم قريش يوم بدر وانهزم فيهم أبو معمر لقيه أبو سفيان وإحدي نعليه في يده والأخرى برجله فقال له يا أبا معمر ما حال الناس، قال انهزموا، قال مالك إحدى نعليك بيدك والأخرى برجلك، قال أبو معمر ما شعرتُ إلا أنهما في رجلي فعلموا يومئذٍ أنه لو كان له قلبان لما نسي نعله في يده وأخرج ابن أبي حاتم من طريق خصيف عن سعيد بن جبير مجاهد وعكرمة قالوا كان رجل يدعى ذا القلبين فنزلت فيه، وأخرج ابن جرير من طريق العوفي عن ابن عباس مثله ومن طريق قتادة عن الحسن مثله وزاد وكان يقول نفسي يأمرني ونفسي ينهاني. وأخرج الترمذي وحسنه عن ابن عباس قال قام النبيّ ﷺ فخطر خطرة فقال المنافقون الذين معه ألا ترى أن له قلبين قلباً معكم وقلباً مع أصحابه فأنزل الله تعالى هذه الآية[1]، وقال الزهري ومقاتل هذا مثل ضربه الله عز وجل للمظاهر من امرأته وللمتبني ولد غيره يقول فكما لا يكون لرجل قلبان لامتناع اجتماعهما لا تكون امرأة المظاهر أمّاً له لامتناع اجتماع النسبتين ولا يكون ولد غيره ولداً له لامتناع اجتماع النسبتين.

﴿وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى﴾ قرأ قالون وقنبل آلآء هنا وفي المجادلة والطلاق بالهمزة من غير ياء وورش بياء مختلسة الكسرة خلفاً من الهمزة وإذا أوقف صيرها ياءً ساكنةً والبزي وأبو عمرو بياء ساكنة بدلاً من الهمزة في الحالين، والباقون بالهمزة بعدها ياء في الحالين وحمزة إذا وقف جعل الهمزة بين بين على أصله ومن همز منهم ومن لم يهمز أشبع التمكين للألف في الحالين إلا ورشاً فإن المد والقصر جائزان عنه ﴿تُظَٰهِرُونَ﴾ قرأ عاصم بضم التاء وتخفيف الظاء وألف بعدها وكسر الهاء من المفاعلة وحمزة والكسائي بفتح التاء والهاء وبالألف مخففاً من التفاعل بحذف إحدى التائين وقرأ ابن عامر بفتح التاء والهاء وتشديد الظاء وبالألف أيضاً من التفاعل لكن بإدغام التاء بعد القلب بالظاء والإسكان في الظاء والباقون بفتح التاء والهاء وتشديد الظاء بغير ألف من التفعل بإدغام التاء في الظاء على ما بيّنا ﴿مِنْهُنَّ﴾ عدى التظاهر بمن لتضمنه معنى التجنب لأنه كان طلاقاً في الجاهلية فعدل في الشرع إلى الحرمة المنتهية بالكفارة ﴿أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ صورة المظاهرة أن يقول الرجل لزوجته أنتِ عليّ كظهر أمي وقد ذكرنا مسائل الظهار في سورة المجادلة، قال البيضاوي ذكر الظهر في الظهار للكناية عن البطن الذي هو عموده فإن ذكرته تقارب ذكر الفرج أو للتغليظ في التحريم فإنهم كانوا يحرمون إتيان المرأة وظهرها

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة الأحزاب (٣١٩٩).

إلى السماء ﴿وَمَا جَعَلَ﴾ الله ﴿أدعياءكم﴾ أي الذين تبنيتهم جمع دعي على الشذوذ وكان قياسه دعوى كجرحى جمع جريح لأنه فعيل بمعنى مفعول كأنّه شبه بفعيل بمعنى فاعل فجمع جمعه كتقيّ وأتقياء وسخي وأسخياء وشقي وأشقياء ﴿أَبْنَآءَكُمْ﴾ فلا يثبت بالتبني شيء من أحكام البنوة من الإرث وحرمة النكاح وغير ذلك، وفي الآية ردّ لما كانت العرب تقول من أن اللبيب لا ريب له قلبان والزوجة المظاهر منها تبين من زوجها وتحرم عليه كالأمر ودعي الرجل ابنه يرثه ويحرّم بالتبني ما يحرم بالنسب وقد كان النبيّ ﷺ أعتق زيد بن حارثة بن شرحبيل الكلبي وتبنَّاه قبل الوحي وآخابينه وبين حمزة بن عبد المطلب، فلما تزوَّج رسول الله ﷺ زينب بنت جحش بعدما طلقه زيد وكان امرأته وقال المنافقون تزوج محمد امرأة ابنه وهو ينهى عن ذلك أنزل الله تعالى هذه الآية ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ إشارة إلى كل ما ذكر ﴿قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ﴾ يعني لا حقيقة لها في الأعيان كقول الهاذيّ ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ﴾ يعني ما له حقيقة في الأعيان تطابق قوله ﴿وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾ أي يرشد إلى سبيل الحق، روى الدارمي عن عائشة قالت جاءت سهلة بنت سهل بن عمرو (وكانت تحت أبي حذيفة بن عتبة ابن ربيعة) عند رسول الله ﷺ فقالت إن سالماً مولى أبي حذيفة يدخل علينا وإنا فضل وإنما نراه ولداً وكان أبو حذيفة تبنّاه كما تبنى النبيّ ﷺ زيداً فأنزل الله تعالى: ﴿ادعوهم لآبائهم﴾ يعني أنسبوهم إلى آبائهم الذين خلقوا من نطفهم إفراد للمقصود من أقواله الحقة ﴿هُوَ﴾ الدعاء لآبائهم ﴿أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ تعليل لقوله ﴿ادعوهم لآبائهم﴾ وأقسط اسم تفضيل أريد به الزيادة مطلقاً من القسط بمعنى العدل ومعناه البالغ في الصدق، وأخرج البخاري عن ابن عمر قال ما كنا نقول زيد بن الحارثة إلا زيد بن محمد ﷺ حتى نزل القرآن ادعوهم لأبائهم هو أقسط عند الله ﴿فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ﴾ حتى تنسبوا إليه ﴿فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ﴾ أي فهم إخوانكم في الدين وأولياؤكم فقولوا هذا أخي في الدين ومولاي ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾ أي إثم ﴿فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ﴾ أي فيما نسبتم المتبنى إلى المتبنيّ مخطئين قبل النهي أو بعده على النسيان أو سبق اللسان ﴿وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ أي لكن الجناح فيما تعمدت قلوبكم أو لكن ما تعمدت قلوبكم ففيه الجناح عن سعيد بن أبي وقاص وأبي بكرة قالا قال رسول الله ﷺ: «من ادعى إلى غير أبيه وهو يعلم فالجنة عليه حرام»(١)

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: المغازي، باب: غزوة الطائف (٤٣٢٦). أخرجه مسلم في كتاب: الإيمان باب: بيان حال إيمان من رغب عن أبيه وهو يعلم (٦٣)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب: الحدود، باب: من ادعى إلى غير يه أو تولى غير مواليه (٢٦١٠)، وأخرجه أبو داود في كتاب: الأدب، باب: في الرجل ينتمي إلى غير مواليه (٥١٠٤).

رواه الشيخان في الصحيحين وأحمد وأبو داود وابن ماجه، وعن أنس قال قال رسول الله ﷺ: «من إدعى إلى غير أبيه أو انتمى إلى غير مواليه فعليه لعنة الله المتتابعة إلى يوم القيامة» رواه أبو داود، وقال السيوطي صحيح ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ يعفوا عن المخطىء، قال البيضاوي أعلم أن التبنّي لا عبرة له عندنا(يعني عند الشافعي رحمه الله) وعند أبي حنيفة رحمه الله يوجب عتق مملوكه ويثبت النسب لمجهوله الذي يمكن إلحاقه به، وهذا سهو منه، فإن عند أبي حنيفة رحمه الله لا يعتق المملوك بقوله تبنيتُك وجعلتُك ابني وكذا لا يثبت النسب إذا قال لمجهول النسب تبنيتُك وجعلتُك ابني بل عنده إن السيد إذا قال لعبده هذا ابني يعتق عليه سواء كان يولد مثله لمثله أولا تصحيحاً لكلامه وحملاً له على المجاز كأنَّه قال هذا حر إطلاقاً للسبب على المسبّب إذ البنوة سبب للحرية لقوله ﷺ: «من ملك ذا رحم محرم منه عتق عليه»[1].

رواه أحمد وأصحاب السنن، وقد خالف أبا حنيفة صاحباه فيما إذا قال لعبده هو أكبر سناً منه هذا ابني فإنهما قالا لا يعتق بناءً على خلافية في الأصول إن المجاز عنده خلف عن الحقيقة في التكلم دون الحكم فإذا صح التكلم بالحقيقة لم يصح التجوز خلفاً ولم يعتق عليه، ومن قال لمجهول النسب هذا ابني وهو بحيث يمكن ثبوت النسب منه يثبت نسبه لكونه مأخوذاً بإقراره وإلتزام النسب خالص حقه ولأجل ذلك من قال لمجهول النسب هذا أخي لا يثبت نسبه من أبيه، غير أنه إذا مات المقر بالنسب على الغير مُصرّاً على إقراره ولم يكن له وارث آخر يرث المقر له منه لعدم المزاحم وهو مقدم على بيت المال عندنا لا على أحد من الورثة وإن كانوا من ذوي الأرحام ولا علم الموصي له بجميع المال والله أعلم. قال البغوي قيل كان رسول الله ﷺ يدعو الناس إلى الجهاد فيقول قوم نذهب فنستأذن من آبائنا وأمهاتنا فنزلت ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾ يعني من بعضهم لبعض في نفوذ الحكم عليهم ووجوب طاعته عليهم فلا يجوز إطاعة الآباء والأمهات في مخالفة أمر النبي ﷺ وهو أولى بهم في الحمل على الجهاد وبذل النفس دونه، قال ابن عباس وعطاءٌ يعني إذا دعاهم النبي إلى شيء ودعتهم أنفسهم إلى شيء كانت طاعتهم للنبي أولى بهم من طاعتهم لأنفسهم وذلك لأنه عالم بمصالحهم ومفاسدهم

---

(١) عند أصحاب السنن بلفظ «من ملك ذا رحم محرم فهو حر» أخرجه الترمذي في كتاب: الأحكام، باب: ما جاء فيمن ملك ذا رحم محرم (١٣٦٣)، وأخرجه أبو داود في كتاب: الفتن، باب: فيمن ملك ذا رحم محرم (٣٩٤٣).

بتعليم الله تعالى ولا يأمرهم ولا يرضى منهم إلا ما فيه صلاحهم ونجاحهم قال الله تعالى: ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[١] بخلاف أنفسهم فإنّها أمّارة بالسوء إلا من رحم الله وهي ظلوم جهول فيجب عليهم أن يكون الله أحب إليهم من أنفسهم فأمره أنفذ عليهم من أمرها وشفقته أوفر من شفقتها عليها، قال رسول الله ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين»[٢] متفق عليه من حديث أنس، وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «ما من مؤمن إلا وأنا أولى به في الدنيا والآخرة إقرأوا إن شئتم (النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم) فأيما مؤمن مات وترك مالاً فليرثه عصبته من كانوا ومن ترك ديناً أو ضياعاً فليأتني فأنا مولاه»[٣] رواه البخاري ﴿وأزواجه امهاتهم﴾ تعظيم حقهن وتحريم نكاحهن على التأبيد لا في النظر إليهن والخلوة بهن فإنه حرام في حقهن كما في حق الأجنبيات قال الله تعالى: ﴿وإذا سألتموهن متاعا فسألوهن من وراء حجاب﴾[٤] ولا يقال لبناتهن أخوات المؤمنين ولا لإخوتهن وأخواتهن أخوال المؤمنين وخالاتهم، قال الشافعي تزوج الزبير أسماء بنت أبي بكر وهي أخت أم المؤمنين عائشة ولم يقل هي خالة المؤمنين، قلت وزوج رسول الله ﷺ بناته بعلي وعثمان، قال البغوي روى الشعبي عن مسروق أن امرأةً قالت لعائشة يا أمه فقالت لستُ لك بأم إنما أنا أم رجالكم، وكذا أخرج البيهقي في سننه فَبَانَ بهذا أنه تعالى أراد تحريم النكاح وفي قراءة أبي بن كعب وأزواجه أمهاتهم وهو أب لهم يعني في الدين فإن كل نبي أب لأمته من حيث أنه أصل فيما بها لحياة الأبدية ولذلك صار المؤمنون إخوة ﴿وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله﴾ أي في حكم الله أو في اللوح المحفوظ أو في القرآن وهو هذه الآية أو آية المواريث يعني في التوارث ولذلك قال رسول الله ﷺ: «فأيما مؤمن مات وترك مالاً فليرثه عصبته من كانوا» ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾ صلة لأولي ومن تفصيلية والآية ناسخة لما كان في ابتداء الإسلام التوارث بالهجرة والموالاة في الدين، قال البغوي. . . . . . قال قتادة كان السلمون يتوارثون بالهجرة، وقال الكلبي آخأ رسول الله ﷺ بين الناس وكان يؤاخي بين رجلين فإذا مات أحدهما ورثه الآخر عصبةً

---

(١) سورة التوبة، الآية: ١٢٨.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الإيمان، باب: حب الرسول ﷺ من الإيمان (١٥)، وأخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: وجوب محبة رسول الله ﷺ أكثر من الأهل والولد والوالد (٤٤).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: الاستقراض، باب: الصلاة على من ترك ديناً (٢٣٩٩).

(٤) سورة الأحزاب، الآية: ٥٣.

حتى نزلت ﴿وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض﴾ وهذه الآية بعمومه حجة لنا على الشافعي في توريث أولي الأرحام ممن ليس بذي فرض ولا عصبة عنه عدم ذوي الفروض والعصبات وعند عدم أحد من أولي الأرحام يوضع المال في بيت المال ﴿إِلَّآ أَن تَفۡعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِكُم﴾ أي أصدقائكم من المؤمنين والمهاجرين ﴿مَّعۡرُوفٗاۚ﴾ أي وصية فالموصي له من الأصدقاء اولى من الورثة وهذا عام خص منه البعض بالسنة والإجماع فهو أولى من الورثة في ثلث المال دون كله، وهذا استثناء من أعم ما يقدر الأولوية فيه من النفع أو منقطع وذلك أن الله لمَّا نسخ التوارث بالحلف والهجرة أباح أن يوصى بمن يتولاه بما أحب من الثلث، وقيل من في قوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ﴾ بيانية والمعنى وأولوا الأرحام من المؤمنين بعضهم أولى ببعض يعني لا توارث بين المسلم والكافر ولا بين المهاجر وغير المهاجر ﴿إِلَّآ أَن تَفۡعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِكُم﴾ أي أقربائكم وصية وإن كانوا من غير أهل الإيمان والهجرة، قال البغوي هذا قول قتادة وعكرمة وعطاء، قلتُ وعلى هذا يخلو فُعَلُ من اللام والإضافة ومن التفضيلية ثم كون أولى الأرحام من المؤمنين والمهاجرين بعضهم أولى ببعض لا يقتضي نفي التوارث بين المسلم والكافر لا بالمنطوق وهو ظاهر ولا بالمفهوم لأن كون المؤمن أولى لا يدل على نفي ميراث كافر من مؤمن عند عدم وارث مؤمن والله أعلم ﴿كَانَ ذَٰلِكَ﴾ أي ما ذكر ﴿فِي ٱلۡكِتَٰبِ﴾ أي في اللوح المحفوظ أو القرآن وقيل في التوراة ﴿مَسۡطُورٗا﴾ ثابتاً مرقوماً.

﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمۡ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٖ وَإِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۖ
وَأَخَذۡنَا مِنۡهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا ﴿٧﴾ لِّيَسۡـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدۡقِهِمۡۚ وَأَعَدَّ لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمٗا
﴿٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ
تَرَوۡهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذۡ جَآءُوكُم مِّن فَوۡقِكُمۡ وَمِنۡ أَسۡفَلَ مِنكُمۡ وَإِذۡ
زَاغَتِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلۡقُلُوبُ ٱلۡحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبۡتُلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ
وَزُلۡزِلُواْ زِلۡزَالٗا شَدِيدٗا ﴿١١﴾ وَإِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ
إِلَّا غُرُورٗا ﴿١٢﴾ وَإِذۡ قَالَت طَّآئِفَةٞ مِّنۡهُمۡ يَٰٓأَهۡلَ يَثۡرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمۡ فَٱرۡجِعُواْۚ وَيَسۡتَـٔۡذِنُ فَرِيقٞ
مِّنۡهُمُ ٱلنَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوۡرَةٞ وَمَا هِيَ بِعَوۡرَةٍۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارٗا ﴿١٣﴾ وَلَوۡ دُخِلَتۡ عَلَيۡهِم مِّنۡ
أَقۡطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُواْ ٱلۡفِتۡنَةَ لَأٓتَوۡهَا وَمَا تَلَبَّثُواْ بِهَآ إِلَّا يَسِيرٗا ﴿١٤﴾ وَلَقَدۡ كَانُواْ عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ
مِن قَبۡلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلۡأَدۡبَٰرَۚ وَكَانَ عَهۡدُ ٱللَّهِ مَسۡـُٔولٗا ﴿١٥﴾ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلۡفِرَارُ إِن فَرَرۡتُم مِّنَ

ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾﴾.

﴿و﴾ أذكر ﴿إذ أخذنا من النبيين﴾ أجمعين ﴿مِيثَٰقَهُمْ﴾ عهودهم حين أخرجوا من صلب آدم، قال أخذ الله ميثاقهم على أن يعبدوا الله ويدعوا الناس إلى عبادته وينصر بعضهم بعضاً وينصحوا لقومهم ﴿وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ خصهم بالذكر بعد التعميم لفضلهم لكونهم أصحاب الشرائع والكتب وأولي العزم من الرسل وقدم النبيّ ﷺ في الذكر تعظيماً له وإشعاراً بما أخبر عنه ﷺ، حيث قال: «كنت أول الناس في الخلق وآخرهم في البعث» رواه سعد عن قتادة مرسلاً ورواه البغوي متصلاً عن قتادة عن الحسن عن أبي هريرة وقال قال قتادة وذلك قول الله عزَّ وجلَّ ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ﴾ الآية فبدأ به ﷺ قبلهم، وروى ابن سعد وأبو نعيم في الحلية عن ميسرة الفجر بن سعد عن أبي الجدعاء والطبراني في الكبير عن ابن عباس بلفظ «كنتُ نبياً وآدم بين الروح والجسد» ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا﴾ عهداً على الوفاء بما عهدوا ﴿غليظا﴾ شديداً عظيم الشأن أو مؤكداً بالأيمان والتكرير لبيان هذا الوصف ﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ﴾ أي فعلنا ذلك ليسأل الله يوم القيامة الأنبياء الذين صدقوا عهودهم قالوه لقومهم أو عن تصديقهم إياهم تبكيتاً لهم، أو المصدقين لهم عن تصديقهم فإن مصدق الصادق صادقٌ أو المؤمنين الذين صدقوا عهودهم حتى أشهدهم على أنفسهم عن صدقهم عهدهم ﴿وَأَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ عطف على أخذنا من جهة أن بعثة الرسل وأخذ الميثاق منهم لإثابة المؤمنين أو على ما دل عليه قوله ليسأل كأنّه قال فأثاب للمؤمنين ﴿وَأَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ﴾ ظرف لنعمة ﴿جُنُودٌ﴾ أي كفار قريش وغطفان ويهود قريظة كانوا زهاء إثنى عشر ألف حتى حاصروا المسلمين مع رسول الله ﷺ وحفر رسول الله ﷺ خندقاً حولهم ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا﴾ يعني الصبا، روى البخاري عن ابن عباس عن النبيّ ﷺ قال: «نصرتُ بالصبا وأهلكت عاد بالدبور»(١) أرسل الله عليهم ريحاً باردةً في ليلة شاتية فقطعت الأوتاد وأطناب الفساطيط وأطفأت النيران وأكفأت القدور وجالت الخيل بعضها في بعض» ﴿وَجُنُودًا﴾ من الملائكة ﴿لَّمْ تَرَوْهَا﴾ حتى كثر تكبير الملائكة في جوانب عسكرهم وألقى الرعب في قلوبهم حتى كان سيد كل قوم يقول يا بني فلان هلموا إليّ فإذا اجتمعوا عنده قال النجاء النجاء أبيتم فأنهزموا من غير قتال ولم تقاتل

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: المغازي، باب: غزوة الخندق وهي الأحزاب (٤١٠٥).

الملائكة يومئذ ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾، أيها المؤمنون من حفر الخندق والتهييء للقتال هذا على قراءة الجمهور، وأما على قراءة البصريين فالمعنى وكان الله بما يعمل المشركون من التحزب والمحاربة ﴿بَصِيرًا﴾ رائياً وكان ذلك الوقعة في شوال سنة أربع من الهجرة كذا في مواهب اللدنية من قول موسى بن عقبة بعد ثمانية أشهر من إجلاء بني النضير وكان إجلاؤهم وتفرقهم في البلاد ولحوق سلام بن أبي الحقيق وكنانة بن الربيع وحيي بن أخطب وغيرهم بخيبر في ربيع الأول سنة أربع والمشهور أنه في شوال سنة خمس من الهجرة كذا قال محمد بن إسحاق.

قال البغوي قال محمد بن إسحاق حدثني يزيد بن رومان مولى آل الزبير عن عروة بن الزبير وعن عبد الله بن كعب بن مالك وعن الزهري وعاصم بن عمرو بن قتادة وعن عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم وعن محمد بن كعب القرظي وغيرهم من علمائنا دخل حديث بعضهم بعضاً أن نفراً من اليهود منهم سلام بن أبي الحقيق وحيي بن أخطب وكنانة بن وائل (وهم الذين حزبوا الأحزاب على رسول الله ﷺ) خرجوا حتى قدموا على قريش بمكة فدعوهم إلى حرب رسول الله ﷺ وقالوا إنا سنكون معكم عليه حتى نستأصله، فقال لهم قريش يا معشر اليهود إنكم أهل الكتاب الأول والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد فديننا خير أم دينه؟ قالوا بل دينكم خير من دينه وأنتم أولى بالحق منه (قال فهم الذين أنزل الله فيهم: ﴿ألم تر إلى الذين اوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت﴾ إلى قوله ﴿وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾ فلما قالوا ذلك لقريش سرهم ما قالوا ونشطوا إلى ما دعوهم إليه من حرب رسول الله ﷺ فأجمعوا لذلك، ثم خرج أولئك النفر من اليهود حتى جاءوا غطفان من قيس بن غيلان فدعوهم إلى ذلك وأخبروهم أنهم سيكونون معهم عليه وأن قريشاً قد بايعوهم فأجابوهم.

قلتُ: روي أنه كان رجال بني نضير وبني وائل نحواً من عشرين رجلاً فقال لهم أبو سفيان بن حرب مرحباً بكم أحب الرجال عندنا من عاهدنا على عداوة محمد، فقالوا لأبي سفيان إختر لنا خمسين رجلاً من بطون قريش وتكون منهم حتى ندخل نحن وأنتم في أستار الكعبة ونلزق صدورنا بجدران الكعبة ثم نحلف على أن نتفق على عداوة محمد وتكون كلمتنا واحدة ونتعاهد على أن نحارب محمداً ما بقي منا رجل واحد ففعلوا ذلك، ولما قدم اليهود على غطفان بعد المعاهدة مع قريش حرضوهم على القتال مع النبيّ ﷺ ووعدوهم على ذلك بتمر سنة ما كان على نخيل خيبر وقيل بنصف ذلك فأجاب عيينة بن حصين الفزاري رئيس غطفان قولهم بذلك الشرط أي بشرط إعطاء تمرسنة وكتب عيينة إلى

حلفائه من بني أسد فجاءوا عنده، قال البغوي فخرجت قريش قائدهم أبو سفيان بن حرب وغطفان وقائدها عيينة بن حصين بن حذيفة بن بدر في بني فزارة والحارث بن عوف بن أبي حارثة المزي في بني مرة ومسعر بن رحيلة بن نويرة بن طريف فيمن تابعه من قومه من أشجع، قلتُ روي أن أبا سفيان جمع العسكر أربعة آلاف رجل وأعطى رايته عثمان بن أبي طلحة وكان في عسكرهم ثلاث مائة فرس وألف بعير حين خرجوا من مكة ونزلوا من الظهران واجتمع هناك أسلم وأشجع وبنو مُرّة وبنو كنانة وفزارة وغطفان حتى صاروا عشرة آلاف وساروا باجمعهم إلى المدينة ولذلك سمى غزوة الأحزاب.

قال البغوي فلمّا سمع رسول الله ﷺ وبما اجتمعوا له من الأمر ضرب الخندق على المدينة وكان الذي أشار على رسول الله ﷺ سلمان الفارسي، وكان أول مشهد شهده سلمان مع رسول الله ﷺ وهو يومئذٍ حر فقال يا رسول الله إنا كنا بفارس إذا حصرنا خندقنا علينا فعمل فيه رسول الله ﷺ حتى أحكموه، قلتُ: روي أنه رسول الله ﷺ لما سمع الخبر قال حسبنا الله ونعم الوكيل، وجمع أسراء المهاجرين والأنصار واستشارهم في ذلك وأشار سلمان بضرب الخندق فاستحسنه رسول الله ﷺ واستخلف على المدينة عبد الله بن أم مكتوم وخرج غازياً وأعطى لواء المهاجرين زيد بن حارثة ولواء الأنصار سعد بن عبادة وخرج معه ثلاثة آلاف من المهاجرين والأنصار، قلتُ: روي أن معهم ستة وثلاثون فرساً وخرج معه صبيان لم يبلغوا الحلم فردهم إلى المدينة من كان منهم لم يبلغ خمسة عشر سنة وأجاز منهم للقتال من كان منهم ابن خمسة عشر سنة منهم عبد الله بن عمر وزيد بن ثابت وأبو سعيد الخدري وبراء بن عازب، فطلب رسول الله ﷺ موضعاً لأجل الخندق في بعض أطراف المدينة فاختار موضعاً بقرب جبل سلع جعل جبل سلع على ظهر العسكر وخط خطّاً للخندق بينه وبين الكفار، قال البغوي أخبرنا عن عبد الله بن عمرو بن عوف عن أبيه قال خط رسول الله ﷺ عام الأحزاب ثم قطع لكل عشر أربعين ذراعاً، قال احتج المهاجرون والأنصار في سلمان الفارسي وكان رجلاً قوياً، فقال المهاجرون سلمان منا وقال الأنصار سلمان منا فقال رسول الله ﷺ: «سلمان منا أهل البيت».

قال عمر بن عوف كنتُ أنا وسلمان وحذيفة والنعمان بن مقرن المزني وستة من الأنصار في أربعين ذراعاً فحفرنا حتى إذا كنا بجنب ذي باب أخرج الله من بطن الخندق صخرةً مروةً كسرت حديدنا وشقت علينا، فقلتُ يا سلمان أرق إلى رسول الله ﷺ وأخبره خبر هذه الصخرة فإن رأى أن نعدل عنها فإن المعدل قريب وإما أن يأمرنا بأمره فإنا لا

نحب أن نجاوز خطه فرقى سلمان إلى رسول الله ﷺ وهو ضارب عليه قبة تركية، قال فخرجت صخرة بيضاء من مروة من بطن الخندق فكسرت حديدنا وشقت علينا حتى ما يجيبك فيها قليل ولا كثير فمرنا فيها بأمرك فأنا لا نحب أن نجاوز خطك فهبط رسول الله ﷺ مع سلمان الخندق والتسعة التي في الخندق، فأخذ رسول الله ﷺ المعول من سلمان فضربها به ضربة صدعها وبرق منها برق أضاء ما بين لأبتيها حتى لكأنَّ مصباحاً في بيت جوف مظلم فكبّر رسول الله ﷺ تكبير فتح وكبّر المسلمون ثم ضربها رسول الله ﷺ الثانية فكسرها وبرق منها برق أضاء ما بين لأبتيها حتى لكأنَّ مصباحاً في جوف بيت مظلم فكبَّر رسول الله ﷺ تكبير فتح وكبر المسلمون ثم ضربها، فأخذ بيد سلمان ورقى فقال سلمان بأبي أنتَ يا رسول الله لقد رأيت شيئاً ما رأيتُ مثله قط، فالتفت رسول الله ﷺ إلى القوم فقال رأيتم ما يقول سلمان قالوا نعم، قال «ضربتُ ضربتي الأولى فبرق الذي رأيتم أضاءت لي قصور الحيرة ومدائن كسرى كأنها أنياب الكلاب وأخبرني جبرئيل عليه السَّلام أن أمتي ظاهرة عليها ثم ضربتُ ضربة الثانية فبرق الذي رأيتم أضاءت لي منها قصور الحمرة من الروم كأنها أنياب الكلاب فأخبرني جبرئيل أن أمتي ظاهرة عليها فأبشروا فاستبشر المسلمون وقالوا الحمد لله الذي موعده صدق وعدنا النصر بعد الحصر، فقال المنافقون ألا تعجبون من محمد يمنّيكم ويعدكم الباطل ويخبركم أنه يبصر من يثرب قصور الحيرة ومدائن كسرى وأنها تفتح لكم وأنتم إنما تحفرون الخندق من الغرق لا تستطيعون أن تبرزوا قال فنزل القرآن ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾﴾[1] وأنزل في هذه القصة ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ﴾ الآية.

روى البخاري في الصحيح عن أنس قال: «خرج رسول الله ﷺ إلى الخندق فإذا المهاجرون والأنصار يحفرون في غداة باردة ولم يكن لهم عبيد يعملون ذلك فلما رأى ما بهم من النصب والجوع قال:

إن العيش عيش الآخرة   فاغفر للأنصار والمهاجرة

فقالوا مجيبين له:

نحن الذين بايعوا محمّداً   على الجهاد ما بقينا ابداً»[2]

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ١٢.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: المغازي، باب: غزوة الخندق وهي الأحزاب (٣٨٧٣).

وروى أيضاً في الصحيح عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: لما كان يوم الأحزاب وخَنْدَقَ رسول الله ﷺ رأيتُه ينقل تراب الخندق حتى وارى على الغبار جلد بطنه وكان كثير الشعر فسمعته يرتجز بكلمات ابن رواحة وهو ينقل من التراب يقول:

اللهم لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا

فأنزل سكينة علينا وثبت الأقدام إن لاقينا

إن الأُلى قد بغوا علينا إذا أرادوا فتنة أبينا

ثم يمدّ صوته بآخرها، وفي رواية والله لولا الله ما اهتدينا إلى آخره، قلت: وروي أن سلمان كان رجلاً قوياً يعمل في الخندق عمل عشرة من الرجال ويروى أنه كان يحفر الخندق كل يوم خمسة أذرع في عمق خمسة أذرع، فأصابه عين من قيس بن أبي صعصعة فصرع فأمر رسول الله ﷺ قيساً أن يتوضأ لسلمان ويجعل وضوءه في إناء ويغسل به سلمان ويلقى الإناء خلفه منكوساً ففعلوا ذلك فبرىء سلمان.

وروى أحمد والبخاري في الصحيح عن جابر بن عبد الله قال: «كنا يوم الخندق مع رسول الله ﷺ فعرضت لنا كُدية شديدة فجاءوا النبيّ ﷺ فقالوا هذه كُدية من الجبل عرضت فقال أنا نازل، ثم قام وبطنه معصوب بحجر ولبثنا ثلاثة أيام لا نذوق ذواقاً فأخذ رسول الله ﷺ المعول فعادت كثيبًا أهيل أو أهيم، فقلتُ يا رسول الله ائذن لي البيت، فقلتُ لامرأتي إني رأيت من رسول الله ﷺ خمصاً شديداً أما في ذلك صبرٌ فعندك شيء فأخرجت لي جراباً فيه صاع من شعير ولنا بهيمة داجن فذبحتُها وطحنت ففرغَتُ إلى فراغي وقطعتها في برمتها والعجين قد انكسر والبرمة بين الأثافي في قدر كادت أن تنضج، ثم وَلَّيتُ إلى رسول الله ﷺ فقالت لا تفضحني برسول الله ﷺ وبمن معه، فجئتُه فساررته فقلتُ طعيم لي يا رسول الله فقم أنتَ ورجل أو رجلان قال كم هو فذكرتُ له، قال كثير طيب قل لها لا تنزع البرمة والخبز من التنور حتى آتيكم واستقر صحافاً، ثم صاح رسول الله ﷺ فقال يا أهل الخندق إن جابراً صنع لكم فحي هلا بكم، فقلت ويحك جاء النبيّ ﷺ بالمهاجرين والانصار ومن معهم فقالت بك وبك هل سألك فقلت نعم فقالت الله ورسوله أعلم، فدخل رسول الله ﷺ فقال أدخلوا ولا تضاغطوا فأخرجتُ له عجيناً فبسق فيه وبارك ثم عمد إلى برمتنا فبسق فيها وبارك ثم قال يا جابر ادع خابزة فلتخبز معك واقدحي من برمتك ولا تنزلوها، وجعل رسول الله ﷺ يكسر الخبز ويجعل عليه اللحم يخمر البرمة والتنور إذا أخذ منه ويقرب إلى أصحابه ثم ينزع فلم يزل يكسر

الخبز ويغرف اللحم حتى شبعوا وهم ألف، قال جابر فأقسم بالله لأكلوا حتى تركوه وانحرفوا وإن برمتنا لتغط كما هي وإن عجيننا ليخبزكما هو ثم قال رسول الله ﷺ كلي وأهدى فإن الناس أصابتهم مجاعة فلم نزل نأكل ونهدي يومنا»[١] قلت وقد صح أنهم قد فرغوا من أمر الخندق في ستة أيام.

قال البغوي رجعنا إلى حديث ابن إسحاق فلما فرغ رسول الله ﷺ من الخندق أقبلت قريش بمجتمع الأخبال من دومة الجرف والغابة في عشر آلاف من أحابيشهم ومن تابعهم من أهل التهامة وأقبلت غطفان ومن تابعهم من أهل نجد حتى نزلوا بذنب نقمى إلى جانب أحد، وخرج رسول الله ﷺ والمسلمون حتى جعلوا ظهورهم إلى سلع في ثلاثة آلاف من المسلمين فضرب هنالك عسكره والخندق بينه وبين القوم وأمر بالذراري والنساء فرفعوا إلى الآطام.

وخرج عدو الله حيي بن أخطب من بني النضير حتى أتى كعب بن أسد القرظي صاحب عقد بني قريظة وعهدهم وكان قد وادع رسول الله ﷺ على قومه وعاهده ذلك فلما سمع كعب بحيى بن أخطب غلق دونه حصنه فاستأذن عليه فأبى أن يفتح له، فناداه حيي يا كعب افتح لي فقال ويحك يا حيي أمر شؤم إني قد عهدتُ محمداً فلستُ بناقض ما بيني وبينه ولم أر منه إلا الوفاء والصدق، قال ويحك افتح أكلمك قال ما أنا بفاعل قال والله إن غلقتَ دوني إلا لخشيتك أن آكل معك منها فأحفظ الرجل ففتح له الباب، فقال يا كعب جئتك بعز الدهر ببحر طام جئتُك بقريش على قادتها وسادتها حتى أنزلتُهم بمجتمع الأسيال من دومة وغطفان على قادتها وسادتها حتى أمسى بذنب نقمى إلى جانب أحد فتعاهدوني وتعاقدوني أن لا يبرحوا حتى يستأصلوا محمداً ومن معه، فقال كعب بن أسد جئتني والله بذل الدهر وبجهام قد أهرق ماؤه برعد وبرق ليس فيه شيء فدعني ومحمداً وما أنا عليه فإني لم أر من محمّد إلا صدقاً ووفاءً، فلم يزل حيي بن أخطب بكعب يفتله في الذروة والغارب حتى سمح له على أن أعطاه من الله عهداً وميثاقًا لئن رجعت قريش ولم يصيبوا محمداً أن أدخل معك في حصنك حتى يصيبني ما أصابك، فنقض كعب بن أسد عهده وبرىء ممَّا كان عليه فيما بينه وبين محمّد رسول الله ﷺ، فلما انتهى إلى رسول الله الخبر وإلى المسلمين بعث رسول الله ﷺ سعد بن معاذ أحد بني الأشهلُ وهو يومئذ سيد الأوس وسعد بن عبادة أحد بني ساعدة وهو يومئذ سيد الخزرج ومعهما عبد الله

(١) أخرجه البخاري في كتاب: المغازي، باب: غزوة الخندق وهي الأحزاب (٤٠٩٩).

ابن رواحة أخو بني الحارث بن الخزرج وخوّات بن جبير أخو بني عمرو بن عوف فقال انطلقوا حتى تنظروا أحق ما بلغني عن هؤلاء القوم أم لا فإن كان حَقّاً الحنوا إليَّ لحناً أعرفه لا تفتوا أعضاد الناس وإن كانوا على الوفاء فيما بيننا وبينهم فاجهروا به الناس، فخرجوا حتى أتوهم فوجدوا على أخبث ما بلغهم منهم ومالوا من رسول الله ﷺ وقالوا لا عقد بيننا وبين محمد فشاتمهم سعد بن عبادة وشاتموه وكان رجلاً فيه فقال سعد بن معاذ دع عنك مشاتمتهم فما بيننا وبينهم أربى من المشاتمة، ثم أقبل سعد وسعد ومن معهما إلى رسول الله ﷺ فسلموا عليه وقالوا عضل والقارة لغدر عضل والقارة بأصحاب رسول الله ﷺ الله أكبر أبشروا يا معشر المسلمين وعظم عند ذلك البلاء وأشتد الخوف وأتاهم عدوهم من فوقهم ومن أسفل منهم حتى ظن المؤمنون كل ظن ونجم النفاق من بعض المنافقين، حتى قال معتب بن قشير أخو بني عمرو بن عوف كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر وأحدنا لا يقدر أن يذهب إلى الغائط ﴿مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا﴾ وحتى قال أوس بن قبطي أحد بني حارثة يا رسول الله إن بيوتنا عورة وذلك على ملأٍ من رجال قومه فأذن لنا فلنرجع إلى ديارنا فإنها خارجة من المدينة، قلتُ روي أنه لما نقض كعب عهده الذي كان بينه وبين رسول الله ﷺ وعزم على ذلك جمع أشراف قومه منهم زبير بن بلطا ونباش بن قيس وعقبة بن زيد وغيرهم وأخبرهم بذلك لاموه أشد ملامة وكرهوا ذلك حتى ندم كعب على ذلك ولكن لم ينفعه لِمَا كان ذهب عنان الأمر من يده وكان ذلك ما أراد الله إهلاك قريظة، وروى الشيخان في الصحيحين عن الزبير بن العوام رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «من يأتي بني قريظة فيأتيني بخبرهم فانطلقتُ فلما رجعتُ جمع لي رسول الله ﷺ أبويه فقال فداك أبي وأمي»[(١)] قلتُ وكان إرسال الزبير إلى بني قريظة قبل إرسال سعد وسعد إليهم، روي أنه لما جاء الزبير من بني قريظة إلى رسول الله ﷺ أخبره بأنهم يصلحون حصونهم ويسدون الطرق والثغور ويجمعون دوابهم ومواشيهم فقال النبيّ ﷺ: «لكل نبي حوارياً وحواريي الزبير»[(٢)].

قال البغوي فأقام رسول الله ﷺ وأقام المشركون عليه بضعاً وعشرين ليلةً قريباً من شهر ولم يكن بين القوم حرب إلا الرمي بالنبل والحصى، فلمّا أشتد البلاء على رسول الله ﷺ أرسل إلى عيينة بن حصين وأبي الحارث ابن عمرو وهما قائدا غطفان

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الجهاد والمغازي، باب: (إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا) (٤٠٥٧).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الجهاد والسير، باب: فضل الطليعة (٢٨٤٦).

فأعطاهما ثلث ثمار المدينة على أن يرجعا بمن معهما عن رسول الله ﷺ بأصحابه فجرى بينه وبنيهم الصلح حتى كتبوا الكتاب ولم يصنع الشهادة، وذكر رسول الله ﷺ لسعد بن معاذ وسعد بن عبادة واستشارهما فيه فقالا يا رسول الله أشيء أمرك الله به لا بد لنا من عمل به أم أمر تحبه فتصنعه أم شيء تصنعه لنا؟ قال بل لكم والله ما أصنع ذلك إلا أني رأيتُ العرب قدرمتكم عن قوس واحدة وكالبوكم من كل جانب فأردتُ أن أكسر عنكم شوكتهم، فقال لهم سعد بن معاذ قد كنا نحن وهؤلاء القوم على شرك بالله وعبادة الأوثان لا نعبد الله ولا نعرفه وهم لا يطمعون أن يأكلوا تمرةً إلا قرىً أو بيعاً فحين أكرمنا الله بالإسلام وأعزنا بك نعطيهم أموالنا ومالنا بهذا حاجة والله لا نعطهم إلا السيف حتى يحكم الله يننا وبينهم فقال رسول الله ﷺ فأنت وذلك فتناول سعد الصحيفة فمحى ما في الكتاب ثم قال ليجتهدوا علينا. قلتُ: وروي أن أسيد ابن حضير قال ذلك لرسول الله ﷺ أولاً ثم قال مثله سعد وسعد وكان عيينة بن حصين أطال رجله في ذلك المجلس فقال له أسيد يا عين الهجرس اطوِ رجلك ولولا مهابة مجلس رسول الله ﷺ لوضعت رمحي في خاصرتك فانقلب عيينة والحارث خائبين وعلموا أن لا يكون لهم سلطان على المدينة وحيث رأوا قوة الأنصار وشدتهم تزلزلوا.

قال البغوي: فأقام رسول الله ﷺ وعدوهم فحاصروهم ولم يكن بينهم قتال إلا فوارس من قريش منهم عمرو بن عبدود أخو بني عامر بن لؤي وعكرمة بن أبي جهل وهبيرة بن أبي وهب المخزوميان ونوفل بن عبد الله وضرار بن الخطاب ومرداس بن لؤي أخو بني محارب بن فهر قد تلبسوا القتال وخرجوا على خيلهم ومروا على بني كنانة وقالوا تهيئوا للحرب يا بني كنانة فستعلمون اليوم من الفرسان، ثم أقبلوا نحو الخندق حتى وقفوا على الخندق فلما رأوه قالوا والله إن هذه لمكيدة ما كانت العرب تكيدها ثم تيمموا مكاناً من الخندق ضيقاً فضربوا خيولهم فاقتحمت فجالت بهم في المسبحة بين الخندق والسلع، وخرج علي بن أبي طالب رضي الله عنه في نفر من المسلمين حتى أخذوا عليهم الثغرة التي أقحموا منها خيلهم وأقبلت الفرسان تعيق نحوهم وكان عمرو بن عبد ود قاتلَ يوم بدر حتى أثبت الجراحة فلم يشهد أحداً فلما كان يوم الخندق خرج معلماً ليرى مكانه فلمّا وقف هو وخيله قال له عليٌّ يا عمرو إنك كنتَ تعاهد الله لا يدعوك رجل من قريش إلى خلتين إلا أخذت منه إحداهما، قال أجل، قال له علي بن أبي طالب فإني أدعوك إلى الله وإلى سوله وإلى الإسلام، قال لا حاجة لي بذلك، قال فإني أدعوك إلى النزال، قال لِمَ يا ابن أخي فوالله ما أحب أن أقتلك، قال علي لكن والله أحب أن

أقتلك فحمي عمرو عند ذلك فاقتحم عن فرسه فعقره أو ضرب وجهه ثم أقبل على عليّ فتناولا وتجادلا فقتله عليٌّ وخرجتْ خيله منهزمة حتى اقتحمت من الخندق هاربة، وقتل مع عمرو رجلان منبه بن عثمان بن عبد السياق بن عبد الدار أصابه سهم فمات عنه بمكة ونوفل بن عبد الله بن المغيرة المخزومي وكان قد اقتحم الخندق فتورط فيه فرموه بالحجارة فقال يا معشر العرب قتله أحسن من هذه فنزل له عليٌّ فقتله فغلب المسلمون، فسألوا رسول الله ﷺ أن يبيعهم جسده فقال رسول الله ﷺ لا حاجة لنا في جسده وثمنه فشأنكم فخلى بينهم وبينه.

قالت عائشة أم المؤمنين كنا يوم الخندق في حصن بني حارثة وكان أحرز حصون المدينة وكان سعد بن معاذ معنا في الحصن وذلك قبل أن يضرب علينا الحجاب، فخرج سعد ابن معاذ وعليه درع مقلصة قد خرجت منها ذراعه كلها وبيده حربقة وهو يقول:

يا ليت قلام لا يدرك الهيجاء جمل لا بأس بالموت إذا حان الأجل

فقالت أمه الحق يا بني فقد والله أخرتَ، فقلت لها يا أم سعد والله لوددتُ أن درع سعد كانت أسبغ مما هي وخفت عليه حيث أصاب السهم قالت أمه يقضي الله ما هو قاض، فرمى يومئذ بسهم قطع منه الأكحل رماه حيان بن قيس الغرفة أحد بني عامر بن لؤي فلما أصاب السهم قال خذها وأما ابن الغرفة فقال سعد وجعك الله في النار ثم قال سعد اللهم إن كنت أبقيت من حرب قريش فأبقني له فإنه لا قوم أحب إليّ أن أجاهدهم من قوم أذوا رسولك وكذبوه وأخرجوه وإن كنتَ قد وضعتَ الحرب بيننا وبينهم فأجعله لي شهادةً ولا تمتني حتى تقر عيني من بني قريظة وكانوا حلفاءه ومواليه في الجاهلية، قال مجاهد ومحمد بن إسحاق عن يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير عن أبيه عباد قال كانت صفية بنت عبد المطلب في رقاع حصن حسان بن ثابت قالت وكان حسان معنا فيه مع النساء والصبيان فمر بنا رجل من اليهود فجعل يطيف بالحصن وقد حاربت بنو قريظة ما بينها وبين رسول الله ﷺ وما بيننا وبينهم أحد يدفع عنا ورسول الله ﷺ والمسلمون في نحور عدوهم لا يستطيعون أن ينصرفوا إلينا عنهم إذ أتانا آت فقلت يا حسان إن هذا اليهودي كما ترى يطيف بالحصن وإني والله ما آمنه أن يدخل عورتنا من ورائنا من اليهود وقد شغل عنّا رسول الله ﷺ وأصحابه فانزل إليه فاقتله فقال يغفر الله لك يا ابنة عبد المطلب والله لقد عرفتِ وما أنا بصاحب هذا، فلمّا قال لي ذلك ولم أر عنده شيئاً احتجزتُ ثم أخذتُ عموداً ثم نزلتُ عن الحصن إليه فضربتُ عنقه بالعمود حتى قتلتُه فلمّا فرغتُ منه رجعتُ إلى الحصن فقلتُ يا حسان أنزل عليه فاسلبه فإنه لم يمنعني من سلبه

إلا أنه رجل قال ما لي بسلبه حاجة يا ابنة عبد المطلب. قلتُ: روي أن بني قريظة أرادوا أن يبيتوا على المدينة وطلبوا في ذلك مدداً من قريش فبلغ ذلك رسول الله ﷺ سلمة بن أسلم مع مائتي رجل وزيد بن حارثة مع ثلاث مائة رجل حتى يحرسوا بقاع المدينة وحصونها، وروي أن عباد بن بشر مع أصحابه كانوا يحرسون كل ليلة خيمة رسول الله ﷺ وكان المشركون يريدون أن يجاوزوا الخندق والصحابة يمنعونهم برمي السهام والحجارة وكان رسول الله ﷺ يحرس بنفسه الكريمة.

روى الشيخان في الصحيحين عن عائشة قالت: «سهر رسول الله ﷺ مقدمة المدينة ليلة فقال ليت لي رجلاً صالحاً يحرسني إذ سمعنا صوت سلاح فقال من هذا؟ قال سعد، قال ما جاء بك؟ قال وقع في نفسي خوف على رسول الله ﷺ فجئت أحرسه فدعا له رسول الله ﷺ ثم نام»[1] وفي رواية قالت عائشة أحب سعداً من يوم كان يحرس رسول الله ﷺ في أيام الخندق كان من الخندق موضعاً يخاف عبور الكفار من ذلك الموضع كان رسول الله ﷺ يحرس ذلك الموضع وإذا اشتد عليه البرد يأتيني ويستدفأ بي ثم يذهب ويحرس ويقول لا أخاف على العسكر إلا من هذا الموضع فجاءني رسول الله ﷺ مرة ليستدفأ بي وقال ليتَ لي رجلاً صالحاً يحرسني الليلة حتى أنام إذ سمعنا صوت سلاح فقال من هذا؟ قال سعد، قال أحرسنا ذلك الموضع ففعل فنام رسول الله ﷺ حتى سمعتُ صوت نفسه.

وروي عن أم سلمة أن رسول الله ﷺ كان يحرس بنفسه الكريمة وكان البرد شديداً فكان رسول الله ﷺ في ليلة من الليالي صلّى في خيمته ثم ذهب يحرس فقال هؤلاء فرسان المشركين حول الخندق فنادى عباد بن بشير فقال لبيك يا رسول الله فقال هل معك أحد؟ فقال نعم رجال من قومي يحرسونك، فقال إذهب برجال قومك فإن رجالاً من المشركين حول الخندق يريدون أن يبيتوا وقال رسول الله ﷺ: «اللّهم ادفع عنا شرهم وأنصرنا عليهم» فذهب عباد بن بشير بأصحابه إلى الخندق فإذا أبو سفيان ورجال من المشركين دخلوا في مضيق الخندق والمسلمون يرمونهم بالسهام والحجارة فلحقهم عباد بن بشير، قال عباد فرميتهم مع المؤمنين حتى انهزم المشركون فرجعتُ إلى رسول الله ﷺ وهو يصلّي فلمّا فرغ من الصلاة أخبرته الخبر، فقالت أم سلمة فنام رسول الله ﷺ حتى سمعتُ صوته ولم ينتبه حتى أذن بلال للصبح فخرج فصلّى بالناس وكانت أم سلمة تقول

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الجهاد والسير، باب: الحراسة في الغزو في سبيل الله (٢٨٨٥).

اللهم إرحم عباد بن بشير. وعن أم سلمة رضي الله عنها قالت كان رسول الله ﷺ نائماً في خيمته فإذا انتصفت الليل إرتفعت الأصوات وسمعتُ يقولون يا خيل الله إركبوا وكان هذا في تلك الغزوة شعار المهاجرين (وفي رواية كان رسول الله ﷺ قال إذا بيتوا أي الكفار فشعاركم ﴿حمٓ ۝١﴾ لا ينصرون ووجه الجمع أن هذا كان شعار الأنصار وذلك شعار المهاجرين) فأنتبه رسول الله ﷺ من النوم وخرج من خيمته على رجال كانوا يحرسون خيمته منهم عباد بن بشير فسأله ما تلك الأصوات وأمر عباداً أن يأتي بالخبر، فذهب عباد وانتظر رسول الله ﷺ حتى أتى وقال يا رسول الله هذا عمرو بن عبد ود مع جمع من المشركين يحاربون مع المؤمنين يترامون بالسهام والحجارة فدخل رسول الله ﷺ خيمته ورفع سلاحه فخرج وركب الفرس وسار إلى المعركة بجمع من الصحابة ثم رجع بعد ساعة فرحان وقال قد ذهب الله بشرهم وأنهزم بجراحات كثيرة، فاضطجع رسول الله ﷺ ونام حتى سمعتُ صوت نفسه ثم ارتفعت الأصوات مرةً ثانيةً فانتبه رسول الله ﷺ وقال يا عباد انظر ما تلك الأصوات فذهب عباد ثم رجع وقال يا رسول الله هذا ضرار بن الخطاب بجمع من المشركين يحارب المسلمين بالنبال والحجارة فخرج رسول الله ﷺ سلاح وذهب هناك وحاربهم حتى اصبحوا، ثم رجع، وقال انهزموا بجراحات كثيرة. قالت أم سلمة كنتُ مع رسول الله ﷺ في غزوة مريسع وخيبر وحديبية وفتح مكة وحنينو ما كان شيء منها أشد وأشق على عهد رسول الله ﷺ من غزوة الخندق وأصاب المسلمون في تلك الغزوة جراحات كثيرة وكان برداً شديداً وعسرة.

وروي أن يوماً من الأيام اجتمعت الكفار وأخذوا حوالي الخندق وحاربوا حرباً شديداً حتى غابت الشمس ولم يجد النبيّ ﷺ فرصةً للصلاة حتى فات عنه صلاة الظهر والعصر والمغرب فصلاّها في وقت العشاء، روى الترمذي والنسائي عن أبي عبيدة عن أبيه عبد الله بن مسعود أنه قال إن المشركين شغلوا رسول الله ﷺ عن أربع صلوات يوم الخندق حتى ذهب من الليل ما شاء الله فأمر بلالاً فأذّن ثم أقام فصلّى الظهر ثم أقام فصلّى العصر ثم أقام فصلّى المغرب ثم أقام فصلّى العشاء[١] قال الترمذي ليس بإسناده بأس إلا أن أبا عبيدة لم يسمع من أبيه فهو منقطع، وروى النسائي في سننه عن أبي سعيد

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: الصلاة، باب: ما جاء في الرجل تفوته الصلوات بأيتهن يبدأ (١٧٩)، وأخرجه النسائي في كتاب: الأذان، باب: الاجتزاء لذلك كله بأذان واحد والإقامة لكل واحدة منهما (٦٥٧).

الخدري قال: «حبسنا يوم الخندق عن الظهر والعصر والمغرب والعشاء حتى كُفينا ذلك فأنزل الله تعالى: ﴿كفى الله المؤمنين القتال﴾ فقام رسول الله ﷺ فأقام فصلّى الظهر كما كان يصليها قبل ذلك ثم أقام فصلّى العصر كما كان يصليها قبل ذلك ثم أقام فصلّى المغرب كما كان يصليها قبل ذلك ثم أقام فصلّى العشاء كما كان يصليها قبل ذلك وذلك قبل ان ينزل فرجالاً أو ركباناً» رواه ابن حبان في صحيحه ولم يذكر فيه العشاء لأنها كانت في وقتها وذكرها في الرواية الأخرى باعتبار أنها تأخرت عن وقتها المعتاد. وأخرج البزار عن جابر بن عبد الله أنه صلّى عليه وسلم شغل يوم الخندق عن صلاة الظهر والعصر والمغرب والعشاء حتى ذهب ساعة من الليل فأمر بلالاً فأذّن وأقام فصلّى الظهر ثم أمره فأذّن وأقام فصلّى العصر ثم أمره فأذّن وأقام فصلّى المغرب ثم أمره فأذّن وأقام فصلّى العشاء ثم قال: «ما على ظهر الأرض قوم يذكرون الله في هذه الساعة غيركم» وفيه عبد الكريم بن أبي المخارق مضعف. وفي الصحيحين عن جابر ابن عبد الله «أن عمر بن الخطاب جاء يوم الخندق بعدما غربت الشمس جعل يسبُّ كفار قريش وقال يا رسول الله ما كدتُ أن أصلي حتى كادت الشمس تغرب، قال النبيّ ﷺ: «والله ما صليتُها» فنزلنا مع النبيّ ﷺ بطحان فتوضأ للصلاة وتوضأنا لها فصلّى العصر بعدما غربت الشمس ثم صلّى بعدها المغرب»[1] وفي الصحيحين عن عليّ عن النبيّ ﷺ: أنه قال يوم الخندق: «ملأ الله عليهم بيوتهم وقبورهم ناراً كما شغلونا عن الصلاة الوسطى حتى غابت الشمس»[2] وفي رواية لمسلم ثم صلاّها بين المغرب والعشاء، وهذه الأحاديث جاز أن يكون وقائع مختلفة لأن أيام وقعة الخندق كانت كثيرة وجاز أن يكون واقعة حال واحد ويمكن الجمع بينها كما لا يخفى.

مسألة:

إذا فاتت صلوات يؤَذّن للأولى ثم يقيم لكل صلاة والأولىٰ أن يؤذّن ويقيم لكل

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: مواقيت الصلاة، باب: من صلى بالناس جماعة بعد ذهاب الوقت (٥٩٦)، وأخرجه مسلم في كتاب: المساجد ومواضع الصلاة، باب: الدليل لمن قال الصلاة الوسطى هي صلاة العصر (٦٣١).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الجهاد والسير، باب: الدعاء على المشركين بالهزيمة والزلزلة (٢٨٣١)، وأخرجه مسلم في كتاب: المساجد ومواضع الصلاة، باب: الدليل لمن قال الصلاة الوسطى هي صلاة العصر (٦٢٧).

صلاة كما يدل عليه حديث البزار والله أعلم.

ولمّا اشتد البلاء على المؤمنين دعا رسول الله ﷺ على الكفار فاستجاب الله دعاءه، روى البخاري في الصحيح عن عبد الله بن أبي أوفى قال: دعا رسول الله ﷺ على الأحزاب قال: «اللَّهم منزل الكتاب سريع الحساب اهزم الأحزاب اللَّهم اهزمهم وزلزلهم»(١) قلتُ وروي عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه «أنه صلّى الله عليه وسلّم دعا على الأحزاب ثلاثة أيام متتابعات في مسجد الفتح قيل هو يوم الاثنين والثلاثاء والأربعاء فاستجاب الله دعاءه يوم الأربعاء بين الظهر والعصر فرأينا الفرح في وجهه، قال فما ناب لنا نائبة ودعانا الله تعالى في تلك الساعة إلا استجاب الله دُعاءنا.

قال البغوي: ثم نعيم بن مسعود بن عامر بن غطفان أتى رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله إني قد أسلمتُ وإن قومي لم يعلموا بإسلامي فمرنا بما شئت فقال له رسول الله ﷺ: «إنما أنت فينا رجل واحد فخذل عنا إن استطعتَ فإن الحرب خدعة» قلتُ: وفي رواية قال نعيم يا رسول الله ائذن لي أن أقول ما شئتُ فأذن له، فخرج نعيم بن مسعود حتى أتى بني قريظة وكان لهم نديم في الجاهلية فقال لهم يا بني قريظة قد عرفتم ودي إياكم خاصةً، قالوا: صدقتَ لستَ عندنا بمتهم، فقال لهم أن قريشاً وغطفان جاءوا للحرب قد ظاهرتموهم عليه وأن قريشاً وغطفان ليسوا كهيئتكم البُلَدُ بلدكم به أموالكم وأولادكم ونساؤكم ولا تقدرون أن تتحولوا منه إلى غيره وإن قريشاً وغطفان أموالهم وأولادهم ونساؤهم بعيدة إن رأوا نهزةً وغنيمةً أصابوها وإن رأوا غير ذلك لحقوا ببلادهم وخلُّوا بينكم وبين الرجل والرجل ببلدكم لا طاقة لكم به إن خلا بكم فلا تقاتلوا القوم حتى تأخذوا منهم رهناً من أشرافهم يكون بأيديكم ثقة على أن تقاتلوا معكم محمداً حتى تناجزوه، فقالوا لقد أشرتَ بنصح، ثم خرج حتى أتى قريشاً فقال لأبي سفيان بن حرب ومن معه من رجال قريش قد عرفتم ودي إياكم وبرائي من محمد وقد بلغني أمر رأيتُ حقاً أن أبلغكم نصحاً لكم فاكتموا عليَّ قالوا نفعل، قال لتعلمن أن معشر يهود قد ندموا على ما صنعوا فيما بينهم وبين محمد وقد أرسلوا إليه أنا ندمنا على ما صنعنا فهل يرضيكم عنا من القبيلتين قريش وغطفان رجالاً من أشرافهم فنعطيكم فيضرب أعناقهم ثم نكون معك على من بقي منهم فأرسل إليهم أن نعم فإذا بعثتْ إليكم يهود يلتمسون رهناً من رجالكم فلا تدفعوا إليهم منكم رجلاً واحداً، ثم خرج حتى أتى غطفان فقال يا معشر غطفان أنتم

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الجهاد والسير، باب: الدعاء على المشركين بالهزيمة والزلزلة (٢٩٣٣).

أهلي وعشيرتي وأحب الناس إليَّ ولا أراكم تتهموني قالوا صدقتَ قال فاكتموا عليَّ قالوا نفعَل ثم قال لهم مثل ما قال لقريش وحذرهم ما حذرهم.

فلمَّا كانت ليلة السبت من شوال سنة خمس وكان ممَّا صنع الله لرسوله أن أرسل أبو سفيان ورقة بن غطفان وعكرمة بن أبي جهل في نفر من قريش وغطفان إلى بني قريظة وقالوا لسنا بدار مقام قد هلك الخف والحافر فاغدوا للقتال حتى نناجز محمداً ونفرغ ممّا بيننا وبينه، فأرسلوا إليهم اليوم يوم السبت وهو يوم لا نعمل فيه شيئاً وقد كان أحدث فيه بعضنا حدثاً فأصابهم ما لم يخف عليكم ولسنا مع ذلك نقاتل معكم حتى تعطونا رهناً من رجالكم يكون بأيدينا ثقة لنا حتى نناجز محمداً فإنا نخشى إن ضرتكم الحرب واشتد عليكم القتال ترجعون إلى بلادكم وتتركونا والرجال في بلدنا ولا طاقة لنا بذلك من محمد، فلمَّا رجعت إليهم الرسل بالذي قالت بنو قريظة قالت قريش وغطفان لتعلمن والله إن الذي حدثكم به نعيم بن مسعود لحق فأرسلوا إلى بني قريظة والله لا ندفع إليكم رجلاً واحداً من رجالنا فإن كنتم تريدون فاخرجوا فقاتلوا، فقالت بنو قريظة حين انتهت الرسل إليهم بهذا إن الذي ذكر نعيم بن مسعود لحق ما يريد القوم إلا أن يقاتلوا فإن وجدوا فرصةً انتهزوها وإن كان غير ذلك اشمأزوا إلى بلادهم وخلوا بينكم وبين الرجل في بلادكم فأرسلوا إلى قريش وغطفان أما والله لا نقاتل معكم حتى تعطونا رهناً فأبوا عليهم فخذل الله بينهم وبعث عليهم الريح في ليلة شاتية شديدة البرد فجعلت تكفأ قدورهم وتطرح آنيتهم.

فلمَّا بلغ إلى رسول الله ﷺ ما اختلف من أمرهم دعا حذيفة بن اليمان فبعثه إليهم لينظر ما فعل القوم ليلاً، روى محمد بن إسحاق عن زيد بن زياد عن محمد بن كعب القرظي وروى غيره عن إبراهيم التيمي عن أبيه قالا قال فتخامن أهل الكوفة لحذيفة بن اليمان يا أبا عبد الله رأيتم رسول الله ﷺ وصحبتموه قال نعم يا ابن أخي قال كيف تصنعون قال والله لقد كنا نجهر، قال الفتى والله لو أدركناه ما تركناه يمشي على الأرض ولحملناه على أعناقنا ولخدمناه وفعلنا، فقال حذيفة يا ابن أخي والله لقد رأيتني ليلة الأحزاب مع رسول الله ﷺ فقال من يقوم فيذهب إلى هؤلاء القوم فيأتينا خبرهم أدخله الله الجنة فما قام منا رجل ثم صلّى رسول الله ﷺ هويّاً من الليل ثم التفت إلينا فقال مثله فسكت القوم وما قام منا رجل، ثم صلّى رسول الله ﷺ هويّاً من الليل ثم التفت إلينا فقال من رجل فيقوم فينظر لنا ما فعل القوم على أن يكون رفيقي في الجنة فما قام رجل من شدة الخوف وشدة الجوع وشدة البرد، فلمَّا لم يقم أحد دعاني رسول الله ﷺ فقال يا

حذيفة فلم يكن لي بد من القيام حين دعاني فقلت لبيك يا رسول الله وقمتُ حتى أتيتهُ وإن جنبيَّ لتضطربان فمسح رأسي ووجهي ثم قال ائت هؤلاء القوم حتى تأتي بخبرهم فلا تحدثن شيئاً حتى ترجع إليَّ، ثم قال: «اللهم احفظه من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله ومن فوقه ومن تحته» فأخذتُ سهمي وشددتُ عليّ أسلابي ثم انطلقتُ أمشي نحوهم كأني أمشي في حمام فذهبتُ فدخلت في القوم قد أرسل الله عليهم ريحاً وجنوداً وجنود الله تفعل بهم ما تفعل لا تقر لهم قدراً ولا ناراً ولا بناءً وأبو سفيان قاعد يصطلي، فأخذتُ سهمي فوضعتُ في كبد قوسي فأردتُ أن أرميه فلو رميتُه أصبتُه فذكرت قول رسول الله ﷺ: «لاتحدثن شيئاً حتى ترجع إليَّ» فرددتُ سهمي فلما رأى أبو سفيان ما تفعل الريح وجنود الله بهم لا تقرُّبهم قدراً ولا ناراً ولا بناءً فقام وقال يا معشر قريش ليأخذ كل رجل منكم جليسه فلينظر من هو فأخذتُ بيد جليسي فقلتُ من أنتَ؟ فقال سبحان الله أما تعرفني أنا فلان بن فلان فإذا برجل من هوازن، فقال أبو سفيان يا معشر قريش إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام قد هلك الكراع والخف وأخلفتنا بنوا قريظة وبلغنا عنهم الذي نكره ولقينا من هذه الريح ما ترون فارتحلوا فإني مرتحل، ثم قام إلى جمله وهو معقول فجلس عليه ثم ضربه فوثب به على ثلاث فما أطلق عقاله إلا وهو قائم وسمعتُ غطفان فعلت ما فعلت قريش فاستمروا راجعين إلى بلادهم، قال فرجعتُ إلى رسول الله ﷺ كأنّي أمشي في حمام فأتيتُه وهو قائم يصلّي فلمّا سلم أخبرتُه بخبر القوم فضحك حتى بدت أنيابه في سواد الليل، قال فلمَّا أخبرتُه وفرغتُ وزرت وذهب عني الدفاء أدناني النبيّ ﷺ فأتاني عند رجليه وألقى عليّ طرف ثوبه وألزق صدري ببطن قدميه فلم أزل نائماً حتى أصبحتُ فلما أصبحتُ قال قم يا نومان.

قلتُ وعند ابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة لما بعث الله على عسكر المشركين ريحاً وكبَّرت الملائكة في جوانب العسكر قال طليحة بن خويلد الأسدي أمَّا محمد فقد بدأكم بالسحر فالنجا النجا فأنهزموا من غير قتال.

قلتُ: قال الشيخ عماد الدين بن كثير في تفسيره إنه لولا كان رسول الله ﷺ رحمة للعالمين ما تركت الريح أحداً من الكفار إلا جعلته كالرميم كما جعلت عاد الريح العقيم، وفي رواية في حديث حذيفة أنه قال لما رجعتُ عن عسكر الكفار إلى رسول الله ﷺ رأيتُ في أثناء الطريق عشرين فارساً بيضاء عمائمهم قالوا لي قل لصاحبك إن الله سبحانه كفاك ودفع عنك شر أعدائك، وروى الشيخان في الصحيحين عن جابر يقول قال رسول الله ﷺ يوم الأحزاب: «من يأتينا بخبر القوم، فقال الزبير أنا، ثم قال من يأتينا

بخبر القوم؟ قال الزبير أنا، ثم قال من يأتينا بخبر القوم؟ قال الزبير أنا، فقال النبيّ ﷺ: «إن لكل نبي حواري وحواري الزبير»(١) وروى البخاري في الصحيح عن سليمان بن صرد يقول سمعتُ رسول الله ﷺ يقول حين أجلى الاحزاب عنه «الآن نغزوهم لا يغزوننا نحن نسير إليهم»(٢) وروي أيضاً في الصحيح عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ «كان إذا قفل من الغزو أو الحج أو العمرة ببلدة يكبر ثلاث مرات ثم يقول لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير آيبون تائبون عابدون ساجدون لربنا حامدون صدق الله وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده»(٣) قال محمد بن عمر إستشهد في غزوة الخندق ستة رجال من المسلمين وقتل من المشركين أيضاً ستة.

﴿إِذْ جَآءُوكُم﴾ بدل من ﴿إِذْ جَآءَتْكُمْ﴾ ﴿مِّن فَوْقِكُمْ﴾ أي من أعلى الوادي من قبل المشرق وهم أسد وغطفان عليهم مالك بن عوف النظري وعيينة بن حصين الفزاري في ألف من غطفان ومعهم طليحة بن خويلد الأسدي في بني أسد وحيي بن أخطب في يهود بني قريظة ﴿وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ يعني من بطن الوادي من قبل المغرب وهم كنانة وقريش عليهم أبو سفيان بن حرب في قريش ومن تبعهم وأبو أعور عمرو بن سفيان السلمي من قبل الخندق ﴿وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ أي مالت عن مستوى نظرها حيرةً وشخوصاً من العدو ﴿وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾ رعباً فإن الرئة تنتفخ من شدة الروع فترتفع القلب بارتفاعها إلى رأس الحنجرة وهي طرف الحلقوم وهذا مثل يعبر عنه عن شدة الخوف ﴿وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾ أنواعاً من الظن فظن المنافقون استئصال محمد ﷺ وأصحابه وظن المؤمنون النصر والظفر لما سبقهم من الوعد في إعلاء دينه ولحق ضعفاف القلوب التزلزل، قرأ أبو بكر وأهل المدينة وابن عامر الظُّنُونَا الرَّسُولا السَّبِيْلاَ بإثبات الألف وصلاً ووقفاً لأنها مثبتة في المصاحف وقرأ أهل البصرة وحمزة بغير ألف في الحالين على الأصل والباقون بالألف في الوقف لموافقة رؤوس الآى وأتباع الخط وبغير ألف في الوصل على الأصل ﴿هُنَالِكَ﴾ أي في ذلك الوقت ﴿ابتلي المؤمنون﴾ أي إمتحنوا ليمتاز المخلص من المنافق والثابت من المتزلزل ﴿وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ وهم معقب بن قشير

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الجهاد والسير، باب: فضل الطليعة (٢٨٤٦)، وأخرجه مسلم في كتاب: فضائل الصحابة، باب: من فضائل طلحة والزبير رضي الله عنهما (٢٤١٥).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: المغازي، باب: غزوة الخندق وهي الأحزاب (٤١١٠).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: العمرة، باب: ما يقول إذا رجع من الحج أو العمرة أو الغزو (١٧٩٧)، وأخرجه مسلم في كتاب: الحج، باب: ما يقول إذا قفل من سفر الحج وغيره (١٣٤٤).

وعبد الله بن أبيّ وأصحابه وإذ بدل من هُنالِكَ ﴿وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ ضعف اعتقاد وجبن ﴿مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾ قال البغوي هذا قول أهل النفاق يعدُنا محمد فتح قصور الشام وفارس وأحدنا لا يستطيع أن يجاوز رحله هذا والله الغرور، وأخرجه ابن أبي حاتم عن السديّ قال فقال رجل يعني منافق من الأنصار يدعى بشير بن معتب فذكر نحوه ﴿وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ﴾ أي من المنافقين وهو أوس بن قبطي وأصحابه ﴿يَا أَهْلَ يَثْرِبَ﴾ يعني المدينة، وقال أبو عبيدة اسم أرضٍ مدينةَ رسول الله ﷺ في ناحية منها، قال البغوي ورد في بعض الأخبار أن النبيّ ﷺ نهى أن تسمى المدينة يثرب، وقال هي طابة كأنّه كره هذا اللفظ لأنه مشتق من ثربه يثربه وثرّبه وعليه وأثربه لامه وعَيّره بذنبه والمُثرب القليل العطاء كذا في القاموس ﴿لَا مُقَامَ لَكُمْ﴾ قرأ الجمهور بفتح الميم أي لا موضع قيام لكم هاهنا وقرأ حفص بالضم على أنه مكان أو مصدر من أقام ﴿فَارْجِعُوا﴾ إلى منازلكم عن القتال ورفاقة محمد ﷺ أولاً مُقامَ لَكُم على دين محمد فارجعوا إلى الشرك وأسلموه لتسلموا أو لا مُقامَ لَكُم يثرب فارجعوا إلى الشرك وأسلموه لتسلموا ﴿وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ﴾ وهم بنو حارثة وبنو سلمة ﴿يَقُولُونَ﴾ حال من فاعل يستأذنون ﴿إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾ أي غير حصينة يجيء عليها العدو والسارق فكذّبهم الله وقال ﴿وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ﴾ أي ما يريدون بذلك القول الكاذب ﴿إِلَّا فِرَارًا﴾ من القتال ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ﴾ المدينة أي دخل هؤلاء الأحزاب ﴿عَلَيْهِم﴾ في المدينة أو في بيوتهم وحذف الفاعل إيماءً بأن دخول هؤلاء الأحزاب وغيرهم في اقتضاء الحكم المترتب عليه سواء ﴿مِّنْ أَقْطَارِهَا﴾ أي جوانبها ﴿ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ﴾ أي الشرك أو مقاتلة المسلمين ﴿لَآتَوْهَا﴾ قرأ أهل الحجاز بالقصر أي لجاءوها وفعلوها والباقون بالمد أي لأعطوا ما سألوا من الفتنة ﴿وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا﴾ أي بالفتنة يعني بإتيانها وإعطائها ﴿إِلَّا يَسِيرًا﴾ أي زماناً يسيراً يعني زمان السؤال والجواب كذا قال أكثر المفسّرين وقيل معناه ما أقاموا بالمدينة بعد إعطاء الكفر إلا زماناً قليلاً ثم يهلكون أو يجلون، ﴿وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ﴾ غزوة الخندق ﴿لَا يُوَلُّونَ﴾ عدوهم ﴿الْأَدْبَارَ﴾ أي لا ينهزمون قال يزيد بن رومان وهم بنو حارثة هموا يوم أحد أن يقتلوا بني سلمة فلمّا نزل فيهم ما نزل عاهدوا الله أن لا يعودوا لمثلها، وقال قتادة هم أناس قد غابوا عن وقعة بدر ولمّا رأوا ما أعطاه الله أهل بدر من الكرامة والفضيلة قالوا لئن اشهدنا الله قتالا فلنقاتلنّ فسلق الله إليهم ذلك ﴿وكان عهد الله مسؤولاً﴾ عن الوفاء به يجازى عليه ﴿قُل﴾ لهم يا محمّد ﴿لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ﴾ لأنه من حضر أجله لا بد له من أن يموت سواء بالقتل أو حتف أنفة ومتى لا يحضر أجله لا يموت قطعاً ﴿وَإِذًا﴾

أي إذا فررتم ﴿لَّا تُمَتَّعُونَ﴾ في الدنيا حياً ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي تمتيعاً قليلاً أو زماناً قليلاً وقيل معناه إن نفعكم الفرار فرضاً فمتعتم بالتأخير لم يكن ذلك التمتيع إلا قليلاً لكون الدنيا فانية لا محالة ﴿قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ﴾ أي من عذابه ﴿إن أراد بكم سوءاً﴾ أي عذاباً ﴿أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾ يعني ومن ذا الذي يصيبكم بسوء إن أراد بكم رحمة فأختصر الكلام كما في قوله متقلداً سيفاً ورمحاً وجاز أن يكون حمل الثاني على الأول لما في العصمة من معنى المنع ﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا﴾ قريباً ينفعهم ﴿وَلَا نَصِيرًا﴾ يدفع عنهم الضر.

﴿۞ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ ۚ أُولَٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾ يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا ۖ وَإِن يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنبَائِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا فِيكُم مَّا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَٰذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾﴾.

﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ﴾ من التعويق بمعنى التصريف والعوق الصرف والعائق الصارف عن الخير والمراد الذين يصرفون الناس عن ملازمة النبيّ ﷺ وهم المنافقون ﴿والقائلين لإخوانهم﴾ من ساكني المدينة ﴿هَلُمَّ﴾ أي قربوا أنفسكم ﴿إِلَيْنَا﴾ ودعوا محمداً فلا تشهدوا معه الحرب فإنا نخاف عليكم الهلاك، قال قتادة هؤلاء ناس من المنافقين كانوا يثبّطون أنصار النبيّ ﷺ ويقولون لإخوانهم ما محمد وأصحابه إلا أكلة رأس وكانوا لحماً لالتقمه أبو سفيان وأبو سفيان وأصحابه دعوا الرجل فإنه هالك، وقال مقاتل إن اليهود أرسلت إلى المنافقين وقالوا ما الذي يحملكم على قتل أنفسكم بيد أبي سفيان ومن معه فإنهم إن قدروا في هذه المرة لم يستبقوا منكم أحداً وأنا مشفق عليكم أنتم إخواننا وجيراننا هلم إلينا فأقبل عبد الله بن أبيّ وأصحابه على المؤمنين يعوّقونهم ويخوّفونهم بأبي سفيان ومن معه وقالوا لئن قدروا عليكم لم يستبقوا منكم أحداً ما ترجون من محمد ما عنده خير ما هو إلا أن يقتلنا هاهنا إنطلقوا بنا إلى إخواننا يعنون اليهود فلم

يزدادوا المؤمنون بقول المنافقين إلا إيماناً واحتساباً فنزلت تلك الآية قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَ﴾ أي المنافقون ﴿ٱلْبَأْسَ﴾ أي الحرب ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي إتياناً ﴿قَلِيلًا﴾ أو زماناً أو بأساً قليلاً فإنهم كانوا يعتذرون ويثبّطون المؤمنين ما أمكن لهم أو يخرجون مع المؤمنين ولكن لا يقاتلون إلا قليلاً رياءً وسمعةً من غير إحتساب ولو كان ذلك القليل لله لكان كثيراً، وقيل أنه تتمة كلامهم ومعناه ولا يأتي محمد وأصحابه حرب الأحزاب ولا يقادمونهم إلا قليلاً ﴿أَشِحَّةً﴾ جمع شحيح ونصبها على الحال من فاعل يأتون أو المعوقين أو على الذم يعني بخلاً ﴿عَلَيْكُمْ﴾ بالمعاونة أو النفقة في سبيل الله أو الظفر والغنيمة ﴿فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ﴾ في أحداقهم من الخوف ﴿كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾ أي كنظر المغشي عليه أو كدوران عينيه أو مشبهين وشبهة بعينيو ذلك أن من قرب موته وغشيه أسبابه يذهب عقله ويشخص أبصارهم لشدة الخوف ﴿فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾ قال ابن عباس يعني نقصوكم وتناولوكم بالنقص والغيبة، وقيل آذوكم ورموكم في حالة الأمن وقال قتادة بسطوا ألسنتهم منكم وقت قسمة الغنيمة يقولون أعطونا قد شهدنا معكم القتال فلستم أحق منا بالغنيمة ﴿أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ﴾ نصب على الحال أو الذم وليس بتكرير لأن كلا منهما مقيد من وجه ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا﴾ بقلوبهم ﴿فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ يعني أبطل الله أعمالهم يعني لم يعتد بها لعدم الإخلاص وحسن النية وإنما الأعمال بالنيات كذا قال مجاهد ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ﴾ الإحباط ﴿عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ هيّناً لأن تعلق الإرادة يكفي لوجود كل ممكن لأراد لفلعه ﴿يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا﴾ أي هؤلاء لجبنهم يظنون أن الأحزاب لم يذهبوا ففروا إلى داخل المدينة ﴿وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ﴾ كرّة ثانية ﴿يَوَدُّوا﴾ تمنوا ﴿لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ﴾ يعني لو ثبت أنهم خارجون إلى البدو يقال بدا يبدا بدواً وبداوةً إذا خرج إلى البادية ﴿فِى ٱلْأَعْرَابِ﴾ حال من الضمير في بادون أو خبر بعد خبر لأن أي كائنون في الإعراب ﴿يَسْـَٔلُونَ﴾ كل قادم من المدينة ﴿عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ﴾ أي عما جرى عليكم جملة يسألون خبر بعد خبر أو حال مترادف أو متداخل وجواب لو محذوف يعني لكان خيراً ﴿وَلَوْ كَانُوا﴾ يعني هؤلاء المنافقين ﴿فِيكُم﴾ ولم يفروا من عندكم في هذه الكرة وكان قتال ﴿مَّا قَٰتَلُوٓا إِلَّا قَلِيلًا﴾ رياءً وخوفاً من التعيير كذا، قال مقاتل ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ الأسوة معناه القدوة وهو ما يقتدى به والمراد هاهنا أن لكم في شأن رسول الله خصلة حسنة من حقها أن يؤسى بها كالثبات في الحرب ومقاساة الشدائد، أو هو يعني رسول الله ﷺ لكم قدوة يحسن التأسي به كقولك في البيضة عشرون منّاً حديد أي من في البيضة هذا القدر من

الحديد، وقيل هو فعلة من الايتساء كالقدوة من الاقتداء اسم وضع موضع المصدر أي لكم برسول الله اقتداء حسن أي تنصرون دين الله كما هو ينصر وتصبرون على ما يصيبكم كما هو يصبر كما فعل هو إذ كسرت رباعيته وجرح وجهه وقُتِل عمه وأوذي بضروب الأذى فواساكم مع ذلك بنفسه فأفعلوا أنتم أيضاً كذلك واستنوا بسنته ﴿لمن كان يرجوا الله واليوم الآخر﴾ أي يرجوا ثواب الله ولقائه ونعيم الآخرة كذا قال ابن عباس أو أيام الله واليوم الآخر خصوصاً وهذا كقولك أرجو زيداً وفضله، وقال مقاتل أي يخشى الله ويخشى يوم البعث الذي فيه جزاء الأعمال وقوله ﴿لِّمَن كَانَ﴾ صلة لحسنة أو صفة لها، وقيل بدل من لكم والأكثر على أن الضمير المخاطب لا يبدل منه ﴿وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ في السراء والضراء قرن بالرجاء كثرة الذكر المؤدي إلى دوام الطاعة فإن المؤسى بالرسول من كان كذلك.

﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ بقوله تعالى في سورة البقرة ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم﴾ إلى قوله: ﴿أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾[1] فإن الآية يتضمن أن المؤمنين يلحقهم مثل ذلك البلاء ولعل رسول الله ﷺ أخبرهم بوقعة الأحزاب قبل وقوعه ﴿وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ فيما أخبر به ﴿وَمَا زَادَهُمْ﴾ تحزب الأحزاب ﴿إِلَّآ إِيمَٰنًا﴾ أي تصديقاً بما جاء به الرسول عليه السلام ﴿وَتَسْلِيمًا﴾ لأمره وقدره

﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾﴾.

﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ أي قاموا بما عاهدوا رسول الله من

(١) سورة البقرة، الآية: ٢١٤.

الثبات معه في القتال مع أعداء الدين من صدقني إذا قال لك الصدق فإن العاهد إذا وفى بعهده فقد صدق فيه ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ﴾ أي فرغ من نذره ووفى بعهده فلم يبق في ذمته شيء ما عاهده يعني صبر على الجهاد والطاعة حتى استهدا ومات والنحب النذر والنحب أيضاً الموت يقال قضى نحبه أي أجله فقتل على الوفاء يعني حمزة وأشباهه، وقيل قضى نحبه أي بذل جهده في الوفاء بالعهد من قول العرب نَحِبَ فلان في مسيرة يومه وليلته أجمع ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ﴾ والفراغ من نذره يرجو أن يموت على الوفاء ﴿وَمَا بَدَّلُوا۟﴾ العهد ولا غيره ﴿تَبْدِيلًا﴾شيئاً من التبديل، روى الشيخان والترمذي وابن أبي شيبة والطيالسي وابن سعد والبغوي عن أنس بن مالك أن أنس بن النضر عم أنس بن مالك غاب عن بدر فشق عليه وقال أو مشهد شهده رسول الله ﷺ غبتُ عنه لئن أشهدني الله قتال المشركين ليرين الله ما أصنع فلمّا كان يوم أحد وانكشف المسلمون، قال أنس بن النضر اللهم إني اعتذر إليك ممّا صنع هؤلاء يعني أصحابه وأبرأ أليك مما فعل هؤلاء يعني المشركين فانتهى إلى رجال من المهاجرين والأنصار قد ألقوا ما بأيديهم فقال ما يجلسكم؟ قالوا: قتل رسول الله ﷺ، قال: ما تصنعون بالحياة بعده قوموا فموتوا على ما مات عليه رسول الله ﷺ ثم استقبل القوم، فلقيه سعد بن معاذ دون أحد فقال سعد إنا معك قال سعد فاستقبل أنس القوم فلم أستطع أن أصنع ما صنع أنس فقال يا سعد (وفي لفظ يا أبا عمرو) هالريح الجنة ورب النضر إني لأجد ريحها دون أحد، ثم تقدم فقاتل حتى قتل فوجدوا في جسده بضعاً وثمانين ضربة من بين ضربة بسيف وطعنة برمح ورمية بسهم، قال أنس ووجدنا قد مثل به المشركون فما عرفه أحدٌ منّا إلا أخته بشامَّة ببنانه فكنا نرى أو نظنُّ أن هذه نزلت فيه وفي أشباهه ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ﴾(١). وروى البغوي عن خباب بن الأرت قال هاجرنا مع رسول الله ﷺ فمنا من مضى لم يأكل من أجره شيئاً منهم مصعب بن عمير، قتل يوم أحد فلم نجد شيئاً نكفن فيه إلا نمرة فكنا إذا وضعنا على رأسه خرجت رجلاه وإذا وضعنا على رجليه خرج رأسه فقال رسول الله ﷺ: «ضعوها مما يلي رأسه واجعلوا على رجليه الأذخر» ومنا من انبعث له ثمرته فهو يهديها، وروى الترمذي عن جابر بن عبد الله قال نظر رسول الله ﷺ إلى

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الجهاد والسير، باب: قول الله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ (٢٨٠٥)، وأخرجه مسلم في كتاب: الإمارة، باب: ثبوت الجنة للشهيد (١٩٠٣)، وأخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة الأحزاب (٣٢٠٠).

طلحة بن عبيد الله فقال: «من أحب أن ينظر إلى رجل يمشي على وجه الأرض وقد قضى نحبه فلينظر إلى هذا»(١)، وروى البخاري عن قيس بن حازم قال رأيتُ يد طلحة شلاء وقى بها النبيّ ﷺ يوم أحد(٢)، وروى الترمذي وابن حبان والحاكم وغيرهم من حديث الزبير مرفوعاً أوجب طلحة ﴿لِيَجْزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ في العهود ﴿بِصِدْقِهِمْ﴾ أي جزاء صدقهم أو بسبب صدقهم وهو الوفاء بالعهد ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ﴾ أن يموتوا على الكفر والنفاق فيعذبهم ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ إن تابوا وأخلصوا دينهم لله قوله: ﴿ليجزي﴾ متعلق بقوله صدقوا ما عاهدوا الله تعليل للمنطوق والمعرض به كأنَّ المنافقين قصدوا بالتبديل التعذيب كما قصد المخلصون بالوفاء الثواب ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ لمن تاب ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي الأحزاب من قريش وغطفان ﴿بِغَيْظِهِمْ﴾ أي كائنين بغيظهم متغيظين لعدم نيلهم بما أرادوا ﴿لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا﴾ أي ظفراً ولا مالاً حال بعد حال يتداخل أو يعاقب ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ﴾ بالريح والملائكة ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا﴾ في ملكه على إحداث ما يريده ﴿عَزِيزًا﴾ في انتقامه ﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم﴾ أي عاونوا الأحزاب من قريش وغطفان على رسول الله ﷺ ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ وهم بنوا قريظة ﴿مِن صَيَاصِيهِمْ﴾ أي من حصونهم جمع صيصة وهي ما يحصن به ولذلك يقال لقرن الثور والظبي وشوكة الديك والحائك صئصة ﴿وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ﴾ أي الخوف ﴿فَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ وهم الرجال فعند ابن إسحاق أنهم كانوا ست مائة وبه جزم أبو عمرو في ترجمة سعد بن معاذ وعند ابن عائذ من مرسل قتادة كانوا سبع مائة، وقال السهيلي المكثر يقول أنهم ما بين ثمان مائة إلى تسع مائة وفي حديث جابر عند الترمذي والنسائي وابن حبان بإسناد صحيح إنهم كانوا أربع مائة مقاتل فيحتمل في طريق الجمع أن يقال أن الباقين كانوا إتباعاً وقد حكى ابن إسحاق أنه، قيل إنهم كانوا تسع مائة ﴿وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾ وهم النساء والذراري وكانوا سبع مائة وخمسين، وقيل تسع مائة وذكر في سبيل الرشاد أن السبي كان ألفاً من النساء والصبيان ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ﴾ مزارعهم ﴿وَدِيَٰرَهُمْ﴾ حصونهم ﴿وَأَمْوَٰلَهُمْ﴾ من النقود والأجناس والمواشي ﴿وأرضاً لم تطؤها﴾ بعد.

قال مقاتل وابن زيد يعني خيبر، وقال قتادة كنا نحدث أنها مكة، وقال الحسن

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة الأحزاب (٣٢٠٣).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: المغازي، باب: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾ (٤٠٦٣).

فارس والروم، وقال عكرمة كل أرض يفتح إلى يوم القيامة ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ فيقدر على ذلك.

قصة غزوة بني قريظة قال محمد بن عمر عن شيوخه لما انصرف المشركون عن الخندق خاف بنوا قريظة خوفاً شديداً وروى أحمد والشيخان مختصراً والبيهقي والحاكم وصححه مطولاً عن عائشة وأبو نعيم والبيهقي من وجه آخر عنها وابن عابد عن حميد بن هلال وابن جرير عن ابن أبي أوفى والبيهقي عن عروة وابن سعد عن الماجشون وعن يزيد بن الأصم ومحمد بن عمر عن شيوخه أن رسول الله ﷺ والمسلمين لمّا رجعوا عن الخندق مجهودين وضعوا السلاح ودخل رسول الله ﷺ بيت عائشة ودعا بماء فأخذ يغسل رأسه، وذكر البغوي أنه ﷺ كان عند زينب بنت جحش وهي تغسل رأسه، وقد غسلت شقه، قالت عائشة فسلّم علينا رجل ونحن في البيت، قال محمد بن عمر وقف موضع الجنائز فنادى عذيرك من محارب فقام رسول الله ﷺ فزعاً فوثب وثبةً شديدةً فخرج إليه فقمت في أثره أنظر من خلل الباب فإذا هو دحية الكلبي فيما كنت أرى وهو ينفض الغبار عن رأسه (فقال ابن إسحاق معتجراً بعمامة) فقال يا رسول الله ما أسرع ما حللتم عذيرك من محارب عفا الله عنك قد وضعتم السلاح ما وضعت الملائكة منذ نزل بك العدوُّ وفي لفظ منذ أربعين ليلة وما رجعنا الآن إلا من طلب القوم حتى بلغنا حمراء الأسد، يعني الأحزاب وقد هزمهم أن الله يأمرك بقتال بني قريظة وأنا عامد إليهم بمن معي من الملائكة لأزلزل بهم الحصون فأخرج بالناس، قال حميد بن هلال فقال رسول الله ﷺ إن في أصحابي جهداً فلو أنظرتهم أياماً فقال انتهض إليهم فوالله لأدقنهم كدق البيض على الصفا ثم لأضغضغنّها، قالت عائشة فلمّا دخل رسول الله ﷺ قلت من ذاك الرجل الذي كنت تكلمه قال ورأيته قلتُ نعم قال بمن تشبهيه؟ قلتُ بدحية الكلبي قال ذاك جبرئيل أمرني أن أمضي إلى بني قريظة، قال حميد فأدبر جبرئيل ومن معه من الملائكة حتى سطع الغبار في زقاق بني غنم من الأنصار، قال أنس فيما رواه البخاري كأني أنظر إلى الغبار ساطعاً، وقال قتادة فيما رواه ابن عابد أن رسول الله ﷺ بعث يومئذٍ منادياً ينادي يا خيل الله إركبي وأمر بلالاً فأذّن في الناس من كان سامعاً مطيعاً فلا يصلين العصر إلا ببنى قريظة، وروى الشيخان عن ابن عمر والبيهقي عن عائشة وابن عقبة والطبراني عن كعب بن مالك أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه: «عزمتُ عليكم أن لا تصلوا صلاة العصر» ووقع في مسلم في حديث ابن عمر «صلاة الظهر إلا ببني قريظة» فأدرك بعضهم صلاة العصر وفي لفظ صلاة الظهر في الطريق فقال بعضهم لا نصليها حتى نأتي بني قريظة إنا لفي عزيمة رسول الله ﷺ وما علينا من أثم

فصلوا العصر ببني قريظة حين وصلوها بعد غروب الشمس، وقال بعضهم بل نصلّي لم يرد منا أن ندع الصلاة فصلوا فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فلم يعنف واحداً من الفريقين(١).

فائدة:

وجه الجمع بين حديث صلاة الظهر وصلاة العصر أن طائفة منهم راحت بعد طائفة قيل للطائفة الأولى لا يصلين الظهر إلا ببني قريظة وقيل للطائفة الأخرى لا يصلين العصر، وقيل في وجه الجمع أنه ﷺ قال لأهل القوة أولمن كان منزله قريباً لا يصلين أحد الظهر وقال لغيرهم أحد العصر.

مسألة:

هذا الحديث يدل على أن المجتهد لا إثم عليه إن اخطأ حيث لم يَعُنف رسول الله ﷺ على أحد من الفريقين من صلّى في الطريق ومن لم يصل، قال في زاد المعاد ما حاصله إن كُلاً من الفريقين مأجور بقصده إلا إن صلّى في الطريق جاز الفضيلتين فضيلة إمتثال الأمر في الإسراع في المشي إلى بني قريظة لأن المراد بأمره ﷺ أن لا يصلوا إلا في بني قريظة المبالغة في الإسراع مجازاً وفضيلة امتثال الأمر في المحافظة على الوقت والله أعلم.

ودعا رسول الله ﷺ عليّ بن أبي طالب فدفع إليه لواءه وكان اللواء على حاله لم يحل عن مرجعه من الخندق فابتدره الناس، قال محمد بن عمرو بن سعد وابن هشام والبلاذري استعمل رسول الله ﷺ على المدينة ابن أم مكتوم، قال محمد بن عمرو خرج رسول الله ﷺ لسبع بقين من ذي القعدة، قال البغوي سنة خمس من الهجرة ولبس السلاح والدرع والمغفر والبيضة وأخذ قناه بيده وتقلد الترس وركب فرسه اللحيف وحق به أصحابه قد لبسوا السلاح وركبوا الخيل وكانت ستة وثلاثين فرساً فسار في أصحابه والخيل والرحال حوله قال ابن سعد وكان معه ثلاثة آلاف.

مسألة:

هذه القصة تدل على جواز البداية بالقتال في الشهر الحرام لكن خطبته ﷺ في حجة الوداع وفيها المنع من القتال في الأشهر الحرام متأخر عنه ولعل الله سبحانه أحل لرسوله

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الخوف، باب: صلاة الطالب والمطلوب راكباً وإيماء (٩٤٦)، وأخرجه مسلم في كتاب: الجهاد والغزو، باب: المبادرة بالغزو وتقديم أهم الأمرين المتعارضين (١٧٧٠).

ذلك القتال في أشهر الحرم كما أباح له القتال في حرم مكة من النهار عام الفتح، ويمكن أن يقال أن هذا ليس بداية بالقتال بل كانت البداية من بني قريظة حيث ظاهروا قريشاً ومن معهم والله أعلم.

روى الطبراني عن أبي رافع وابن عباس أن رسول الله ﷺ لما أتى بني قريظة ركب على حمار عري يقال له يعفور والناس حوله، وروى الحاكم والبيهقي وأبو نعيم عن عائشة ومحمد بن عمرو عن شيوخه وابن إسحاق أن رسول الله ﷺ مرَّ بنفر من بني النجار بالصَّوْرَيْن فيهم حارثة بن النعمان قد صفوا عليهم السلاح فقال هل مرّ بكم أحد؟ قالوا نعم دحية الكلبي مرَّ على بغلة عليها رحاله عليها من استبرق وأمرنا بحمل السلاح فأخذنا سلاحنا فصففنا وقال هذا رسول الله ﷺ يطلع عليكم الآن، قال حارثة بن النعمان وكنا صفين فقال رسول الله ﷺ ذاك جبرئيل بعث إلى بني قريظة لتزلزل بهم حصونهم ويقذف الرعب في قلوبهم وسبق علي بن أبي طالب في نفر من المهاجرين والأنصار وفيهم أبو قتادة. روى محمد بن عمر عن أبي قتادة قال إنتهينا إلى بني قريظة فلمَّا رأينا أيقنوا بالشر وغرز عليٌّ الراية عند أصل الحصن فاستقبلونا في صياصيهم يشتمون رسول الله ﷺ وأزواجه قال أبو قتادة وسكتنا وقلنا السيف بيننا وبينكم، وانتهى رسول الله ﷺ ونزل قريباً من حصنهم على بئر أُنا بأسفل حرَّة بنى قريظة فلمَّا رآه علي رضي الله عنه رجع إليه وأمرني أن ألزم اللواء فلزمته وكره أن يسمع رسول الله ﷺ إذاهم وشتمهم فقال يا رسول الله لا عليك أن لا تدنوا من هؤلاء الأخابيث فقال أتأمرني بالرجوع فقال أظنك سمعت منهم أذًى قال نعم فقال لو رأوني لم يقولوا من ذلك شيئاً، فسار رسول الله ﷺ وتقدَّمه أسيد بن حضير فقال يا أعداء الله لا نبرح عن حصونكم حتى تموتوا جوعاً إنما أنتم بمنزلة ثعلب في جحر، فقالوا يا ابن الحضير نحن مواليك دون الخزرج فقال لا عهد بيني وبينكم ولا إلّ، ودنا رسول الله ﷺ وترسنا عنه ونادى بأعلى صوته نفراً من أشرافهم حتى أسمعهم، فقال أجيبوا يا أخوة القردة والخنازير وعبدة الطاغوت هل أخزاكم الله أنزل بكم نقمته أتشتموني فجعلوا يحلفون ما فعلنا ويقولون يا أبا القاسم ما كنتَ جهولاً وفي لفظ ما كنت فاحشاً، وإجتمع المسلمون عند رسول الله ﷺ عشاءً وبعث سعد بن عبادة بأحمال تمر لرسول الله ﷺ فكان طعامهم قال رسول الله ﷺ: «نعم الطعام التمر» وغدا رسول الله ﷺ سحراً وقدَّم الرماة فأحاطوا بحصون يهود وراموهم بالنبل والحجارة وهم يرمون من حصونهم حتى أمسوا فباتوا حول الحصون وجعل المسلمون يعتقبون يعقب بعضهم بعضاً فما برح رسول الله ﷺ براميهم حتى أيقنوا الهلكة وتركوا رمي المسلمين،

فقالوا دعونا نكلمكم فقال رسول الله ﷺ: نعم، فأنزلوا نباش بن قيس فكّلم رسول الله ﷺ على أن ينزلوا على مانزلت عليه بنوا النضير من الأموال والحلقة ونخرج من بلادك بالنساء والذراري ولنا ما حملت الإبل إلا الحلقة فأبى رسول الله ﷺ، فقالوا تحقن دماءنا وتسلم لنا النساء والذرية ولا حاجة لنا فيما حملت الإبل فأبى رسول الله ﷺ إلا أن ينزلوا على حكمه، وعاد نباش إليهم بذلك فلمَّا عاد نباش إلى قومه وأخبرهم الخبر قال كعب بن أسد يا معشر بني قريظة والله قد نزل بكم ما ترون وإني أعرض عليكم خلالاً ثلاثاً فخذوا ما شئتم منها قالوا وما هي؟ قال نبايع هذا الرجل ونصدقه فوالله لقد تبين لكم أنه نبي مرسل وأنه الذي تجدونه في كتابكم فتأمنون به على دمائكم وأموالكم ونسائكم والله إنكم لتعلمون أن محمداً نبي وما منعنا معه من الدخول إلا الحسد للعرب حيث لم يكن نبيّاً من بني إسرائيل فهو حيث جعله الله تعالى، ولقد كنت كارهاً لنقض العهد والعقد ولكن البلاء والشؤم من هذا الجالس يعني حيي بن أخطب (وكان حيي دخل معهم في حصنهم حين رجعت منهم قريش وغطفان وفاءً لكعب بن أسد بما كان عاهده عليه) أتذكرون ما قال لكم ابن جَوَّاس حين عليكم تركت الخمُر والحمير والتأمير وحنت إلى الشفاء والتمر والشعير قالوا وما ذاك؟ قال أنه يخرج بهذا القرية نبي فإن يخرج وأنا حي أتبعه وأنصره وإن خرج بعدي فإياكم أن تخدعوا عنه فاتبعوه وكونوا أنصاره وأولياءه وقد آمنتم بالكتابين كلاهما الأول والآخر وأقرءوه مني السّلام وأخبروه أني مصدق به، قال فتعالوا فلنبايعه ولنصدقه فقالوا لا نفارق حكم التوراة أبداً ولا نستبدل به غيره، قال فإذا أبيتم على هذه فلنقتل أبناءنا ونساءنا ثم نخرج إلى محمد وأصحابه مُصَلِتِيْن بالسيوف لم نترك ثقلاً حتى يحكم الله بيننا وبين محمد فإن نهلك نهلك ولم نترك ورائنا فصلاً نخشى عليه وإن نظهر فلعمري لنجدن النساء والأبناء قالوا لا نقتل هؤلاء المساكين فما خير في العيش بعدهم، قال فإن أبيتم عن هذه فإن الليلة ليلة السبت وإنه عسى محمد وأصحابه قد أمنوا فيها فأنزلوا لعلنا نصيب من محمد وأصحابه غرةً قالوا نفسد سبتنا ونحدث فيه ما لم يحدث فيه من كان من قبلنا إلا من قد علمت فاصابه ما لم يخف عليك من المسخ، فقال ما بات منكم منذ ولدته أمه ليلةً واحدةً من الدهر جازماً، فقال ثعلبة وأسيد ابنا سَعْيَة وأسد بن عبيد ابن عمهم وهو نفر من هذيل ليسوا من بني قريظة ولا النضير نسبهم فوق ذلك وهو بنوا عم القوم يا معشر بنوا قريظة والله إنكم لتعلمون أنه رسول الله وإن صفته عندنا حدثنا بها علماؤنا وعلماء بني النضير هذا أولهم يعني حيي بن أخطب مع خبر بن الهَيَّانِ أصدق الناس عندنا هو أخبر بصفته عند موته قالوا لا نفارق التوراة فلما رأى هؤلاء النفر آباءهم

نزلوا تلك الليلة في صبحها فأسلموا وآمنوا على أنفسهم وأهليهم وأموالهم، وقال عمرو بن سعد يا معشر يهود إنكم خالفتم محمداً على ما خلفتموه عليه فنقضتم عهده الذي كان بينكم وبينه ولم أدخل فيه ولم أشرككم في غدركم فإن أبيتم فاثبتوا على اليهودية وأعطوا الجزية فوالله ما أدري يقبلها أم لا، قالوا فنحن لا نقر للعرب بخرج في رقابنا يأخذونه القتل خير من ذلك قال فإني بريء منكم وخرج تلك الليلة مع ابني سعية فمرَّ بحرس رسول الله ﷺ وعليهم محمد بن مسلمة فقال محمد من هذا قال عمرو بن سعد، قال محمد اللّهم لا تحرمني عشرة الكرام وخلّى سبيله فخرج حتى أتى مسجد رسول الله ﷺ فبات حتى أصبح فلمّا أصبح غداً فلم يدر أين هو حتى الساعة فسأل عنه رسول الله ﷺ فقال ذاك رجل نجاه الله بوفائه.

قال أهل المغازي: ثم إنهم بعثوا إلى رسول الله ﷺ أن ابعث إلينا أبالبابة (أحد بني عمرو بن عوف وكانوا حلفاء الأوس) نستشير في أمورنا فأرسله رسول الله ﷺ إليهم فلما رأوا أقام إليه الرجال وجهش إليه النساء والصبيان يبكون في وجهه فرقّ لهم، فقالوا يا أبا لبابة أترى أن ننزل على حكم محمد قال نعم وأشار بيده إلى حلقه أنه الذبح، قال أبو لبابة فوالله ما زالت قدماي حتى عرفتُ أني خنتُ الله ورسوله، ثم انطلق أبو لبابة على وجهه ولم يأت رسول الله ﷺ حتى ارتبط في المسجد على عمود من عمده وقال لا أبرح من مكاني حتى أموت أو يتوب الله على ما صنعتُ وعاهدتُ الله أن لا أطأ أرض بني قريظة أبداً أو لا أرى في بلد خنت الله ورسوله فيه أبداً وبلغ رسول الله ﷺ ذهابي وما صنعتُ، فقال دعوه حتى يحدث الله فيه ما شاء لو كان جاءني استغفرتُ فإذا لم يأتني وذهب فدعوه وأنزل الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٢٧﴾﴾[1] قال أبو لبابة ثم إن الله أنزل توبة أبي لبابة على رسول الله ﷺ وهو في بيت أم سلمة، قالت أم سلمة فسمعتُ رسول الله ﷺ يضحك فقلتُ بم تضحك يا رسول الله أضحك الله سنك؟ قال تيب على أبي لبابة فقلتُ ألا أبشره بذلك؟ قال بلى إن شئتِ قالت فقمت إلى باب حجرتي (وذلك قبل أن يضرب عليهن الحجاب) فقلت يا أبا لبابة أبشر فقد تاب الله عليك فثار الناس ليطلقوه قال لا والله حتى يكون رسول الله ﷺ هو الذي يطلقني بيده فلمّا مرَّ عليه رسول الله ﷺ خارجاً إلى الصبح أطلقه، روى حماد بن سلمة عن عليّ بن زيد بن جدعان عن علي بن الحسين عليهما السلام أن فاطمة عليها

---

(١) سورة الأنفال، الآية: ٢٧.

السلام جاءت تحله فقال إني حلفتُ أن لا تحلني إلا رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ: «إن فاطمة بضعة مني» علي بن جدعان ضعيف ورواية علي بن الحسين مرسلة، قال أبو لبابة وأذكر رؤيا رأيتُها في النوم ونحن محاصرون بني قريظة كأني في حماة إسنة فلم أخرج منها حتى كدتُ أموت من ريحها ثم أرى نهراً جارياً فأراني إغتسلتُ فيه حتى استقيتُ أراني أجد ريحاً طيباً فاستعبرتُها أبا بكر فقال لتدخلن في أمر تغتم له ثم يفرج عنك فكنتُ أذكر قول أبي بكر وأنا مرتبط فأرجوا أن ينزل الله توبتي، قال فلم أزل كذلك حتى ما أسمع الصوت من الجهد ورسول الله ﷺ ينظر، قال ابن هشام أقام مرتبطاً ست ليال تأتيه إمرأته وقت كل صلاة فتحله حتى يتوضأ ويصلّي ثم ترتبط، (قال ابن عقبة زعموا أنه ارتبط قريباً من عشرين ليلة قال في البداية وهذا أشبه الأقاويل وقال ابن إسحاق أقام مرتبطاً خمساً وعشرين ليلة وكانت ابنته تحله إذا حضرت الصلاة أو أراد أن يذهب لحاجته فإذا فرغ أعادت الرباط والظاهر أن زوجته تحله مرة وابنته أخرى وأنزل الله في توبة أبي لبابة ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾﴾[(١)].

قال البغوي: وحاصرهم خمساً وعشرين ليلةً حتى جهدهم الحصار وقذف الله في قلوبهم الرعب فلما جهدهم الحصار نزلوا على حكم رسول الله ﷺ فأمر رسول الله ﷺ فكتفوا رباطاً وجعل على كتافهم محمد بن سلمة ونحوا ناحية وأخرج النساء والذرية من الحصون وأستعمل عليهم عبد الله بن سلام، وجمعت أمتعتهم ووجدوا فيها ألفاً وخمس مائة سيف وثلاث دروع وألفي رمح وألفاً وخمس مائة ترس وجحفةً وأثاثاً كثيراً وآنية كثيرة وخمراً وسكراً فهريق ذلك كله ولم يخمسه ووجد من الجمال النواضح عدة ومن الماشية شيئاً كثيراً فجمع هذا كله وتنحى رسول الله ﷺ وجلس، ودنت الأوس إلى رسول الله ﷺ فقالوا يا رسول الله حلفاؤنا دون الخزرج وقد رأيتَ ما صنعت ببني قينقاع بالأمس حلفاء ابن أبيّ وهبتَ لهم ثلاث مائة حاسرو أربع مائة دارع وقد ندم حلفاءنا على ما كان من نقضهم العهد فهبهم لنا ورسول الله ﷺ ساكت لم يتكلم حتى أكثروا عليه وألحوُّ فقال رسول الله ﷺ أما ترضون أن يكون الحكم فيهم إلى رجل منكم قالوا بلى قال فذلك إلى سعد بن معاذ وقال ابن عقبة قال رسول الله ﷺ اختاروا من شئتم من أصحابي فاختاروا سعد بن معاذ، وكان سعد بن معاذ، قد جعله رسول الله ﷺ في خيمة امرأة من المسلمين يقال لها رفيدة في مسجده ﷺ وكانت تداوي الجرحى وتحتسب بنفسها على خدمة من

---

(١) سورة التوبة، الآية: ١٠٢.

كانت به ضيعة الذي ليس له من يقوم بأمره وكان رسول الله ﷺ قد قال لقومه حين أصابه السهم بالخندق اجعلوه في خيمة رفيدة حتى أعوده من قريب، فلمّا جعل رسول الله ﷺ الحكم إلى سعد خرجت الأوس حتى جاءوه فحملوه على حمار عربي بشنذة من ليف وعلى الحمار قطيفة فوق الشَنَذَة وخطامه من ليف وكان رجلاً جسيماً فخرجوا حوله يقولون يا أبا عمرو إن رسول الله ﷺ قد ولاّك أمر مواليك لتحسن فيهم فأحسن فيهم فقد رأيت ابن أبيّ وما صنع في حلفائه وأكثروا وهو ساكت لا يتكلم حتَّى إذا اكثروا عليه قال قد آن لسعد أن لا يأخذه في الله لومة لائم، فقال الضحاك بن خليفة بن ثعلبة الأنصاري واقوماه وقال غيره نحو ذلك ثم رجع الضحاك إلى الأوس فنعى بهم رجال بني قريظة قبل أن يصل إليهم سعد كلمته التي سمع منه.

وفي الصحيحين فلما دنا سعد من المسجد أي الذي كان رسول الله ﷺ أعده في بني قريظة أيام حصارهم للصلاة قال رسول الله ﷺ: «قوموا إلى سيدكم» وفي لفظ «إلى خيركم» فأما المهاجرون من قريش فيقولون إنما أراد الأنصار وأما الأنصار فيقولون عم بها رسول الله ﷺ المسلمين وعند أحمد «قوموا إلى سيدكم فأنزلوه» وكان رجال من بني عبد الأشهل يقولون قمنا له على أرجلنا صفين وفي حديث جابر عند ابن عائذ قال رسول الله ﷺ: «أُحُكُمْ فيهم يا سعد» فقال الله ورسوله أحق بالحكم، قال عليه السلام أمَرَكَ الله أن تحكم فيهم، وقالت الأوس الذين بقوا عنده يا أبا عمرو إن رسول الله قد ولاك الحكم في أمر مواليك فأحسن فيهم فقال سعد أترضون حكمي لبني قريظة، قالوا نعم قد رضينا بحكمك وأنت غائب إختياراً منا لك ورجاءَ أن تمنَّ علينا كما فعل غيرك بحلفائه بني قينقاع وآثرنا عندك أثرنا وأحوج ما كان اليوم إلى مجازاتك فقال سعد ما أتوكم جهداً فقالوا ما يعني بقوله هذا، ثم قال سعد عليكم عهد الله وميثاقه أن أحكم فيهم ما حكمتُ قالوا نعم قال سعد وعلى من هاهنا للناحية التي فيها رسول الله ﷺ وهو معرض عنها إجلالاً لرسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ نعم، قال سعد فإني أحكم فيهم أن يقتل كل من جرين عليه الموسى وتسبى النساء والذرية وتقسم أموالهم ويكون الديار للمهاجرين والأنصار، فقال رسول الله ﷺ: «لقد حكمتَ فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة»(١) وفي رواية قال عليه السلام: «بذلك طرقني الملك سَحَراً» وكان سعد بن معاذ

---

(١) في الصحيحين «لقد حكمت فيهم بحكم الملك».
أخرجه البخاري في كتاب: الجهاد والسير، باب: إذا نزل العدو على حكم رجل (٣٠٤٣)، وأخرجه مسلم في كتاب: الجهاد والسير، باب: جواز قتال من نقض العهد (١٧٦٨).

في الليلة التي في صبحتها نزلت بنوا قريظة على حكم رسول الله ﷺ قد دعا اللّهم إن كنت أبقيتَ من حرب قريش فأبقني لها فإني لا قوم أحبّ إليَّ أن أقاتلهم من قوم كذبوا رسولك وأذوه وأخرجوه وإن كانت الحرب قد وضعت أوزاها عنّا وعنهم فاجعله لي شهادة ولا تمتني حتى تقر عيني من بني قريظة فأقر الله سبحانه عينيه منهم.

فانصرف رسول الله ﷺ يوم الخميس لتسع ليال وقيل لخمس خلون من ذي الحجة وأمر بهم رسول الله ﷺ فحبسوا في دار رملة بنت الحارث من بني النجار، فلمّا أصبح رسول الله ﷺ غدا إلى سوق المدينة التي هي سوقها اليوم فأمر بأخدود فخذت في السوق ما بين موضع دار أبي الجهم العدوى إلى أحجار الزيت بالسوق فكان أصحابه يحضرون وجلس رسول الله ﷺ ومعه أصحابه يحضرون وجلس رسول الله ﷺ ومعه أصحابه ودعا برجال بني قريظة فكانوا يخرجون يضرب أعناقهم في تلك الخنادق، فقالوا لكعب بن أسد وهم يذهب بهم إلى رسول الله ﷺ أرسالاً يا كعب ما ترى محمداً يصنع بنا؟ قال ما يسوءكم ويلكم على كل حال لا تعقلون ألا ترون الداعي لا ينزع وإنه من ذهب منكم لا يرجع هو والله السيف قد دعوتكم إلى غير هذا فأبيتم قالوا ليس هذا بحين عتاب لولا أنا كرهنا أن نرمي برأيك ما دخلنا في نقض العهد الذي كان بيننا وبين محمد، قال حيي بن أخطب اتركوا التلاوم فإنه لا يرد عنكم شيئاً وأصبوا للسيف وكان الذي قتلهم علي بن أبي طالب والزبير بن العوام رضي عنهما ثم أتى حيي بن أخطب مجموعة يداه إلى عنقه عليه حلة فقاحية قد لبسها للقتل، ثم عمد إليها فشقها أنملة أنملة لئلا يسلبه إياها أحد فقال رسول الله ﷺ حين اطلع ألم يمكنني الله منك يا عدو الله؟ قال بلى والله أنا ما لمتُ نفسي في عداوتك وقد التمستُ العز في مظانه فأبى الله إلا أن يمكنك مني ولقد قلقلتُ كل مقلقل ولكنه من يخذل الله يُخذَل ثم أقبل على الناس فقال أيها الناس لا بأس بأمر الله كتاب الله وقدره ملجمة على بني إسرائيل ثم جلس فضرب عنقه، فقال رسول الله ﷺ أحسنوا أساراهم وأقيلوهم واسقوهم حتى يبردوا فاقتلوا من بقي لا تجمعوا عليهم حر الشمس وحر السيف وكان يوماً صائفاً فقيلوهم وسقوهم فلمّا أبردوا راح رسول الله ﷺ فقتل من بقي وأتى رسول الله ﷺ بكعب بن أسد فقال رسول الله ﷺ ما تنفعتم بنصح ابن جوّاس لكم وكان مصدقاً بي أما أمركم باتباعي وإن رأيتموني أن تقرءوني.منه السلام قال بلى والتوراة يا أبا القاسم ولولا أن يعيرني اليهود بالجزع من السيف لاتّبعتك ولكنه على دين يهود قال رسول الله ﷺ قدمه فاضرب عنقه وأمر رسول الله ﷺ بقتل كل من أنبت منهم.

روى أحمد وأصحاب السنن، عن عطية القرظي قال كنتُ غلاماً فوجدوني لم أنبت فخلّوا سبيلي، وروى الطبراني عن أسلم الأنصاري قال جعلني رسول الله ﷺ على أسارى بني قريظة فكنتُ أنظر إلى فرج الغلام فإن رأيته أنبت ضربتُ عنقه وإن لم أره جعلته في مغانم المسلمين وكان رفاعة بن شمول القرظي رجلاً قد بلغ فلاذ بسلمى بنت قيس أم المنذر أخت سليط بن قيس وكانت إحدى خالات النبي ﷺ يعني خالة جده عبد المطلب فإن أمه كانت من بني النجار وكانت سلمى قد صلّت للقبلتين، فقالت يا نبي الله بأبي أنت وأمي هب لي رفاعة فإنه زعم سيصلّي ويأكل لحم الجمل فوهبه لها فاستحيته فأسلم بعد، ولم تزل ذلك الدأب حتى قتلوا إلى أن غاب الشفق ثم رد عليهم التراب في الخندق كل ذلك بعين سعد بن معاذ فاستجاب الله دعوته رضي الله عنه، ولم يقتل من نسائهم إلا إمرأة واحدة من بني النضير يقال لها بنانة كانت تحت رجل من بني قريظة يقال له الحكم وكان يحبها وتحبه فلما أشتد عليهم الحصار بكت إليه وقالت إنك لمفارق فقال هو والتوراة ما ترين وأنت امرأة فدلّي عليهم هذه الرحى فإنا لم نقتل منهم أحداً بعد وأنتِ امرأة وإن يظهر محمد علينا فإنه لا يقتل النساء وإنما أكره أن تُسبى فأحِبُّ أن تقتل، وكانت في حصن الزبير بن باطا فَدَلَّت الرحى من فوق الحصن وكان المسلمون ربما جلسوا تحت الحصن يستظلون في فيئه فلمَّا رآها القوم انفضوا وتدرك خلاد بن سويد فتشدخ رأسه ومات، روى عروة عن عائشة أنها قالت والله إنها لعندي تحدث وتضحك ظهراً لبطن ورسول الله ﷺ يقتل رجالهم بالسيوف وفي رواية وهي تقول سراة بني قريظة يقتلون إذ هتف هاتف باسمها أين فلانة؟ قالت أنا والله قلتُ ويلك مالكِ قالت اقْتَلُ، قلتُ لِمَ؟ قالت حدث أحدثُته، قالت فانطلقت فضرب عنقها بخلاد بن سويد وكانت عائشة تقول لا أنسى طيب نفس بنانة كثرة ضحكها وقد عرفت أنها تقتل.

مسألة:

هذا الحديث حجة لمن حكم بالقصاص على القتل بالمثقل وعليه الجمهور، وقال أبو حنيفة لاقصاص بالمثقل ولو رماه بأبي قبيس لقوله ﷺ «لا قود في النفس وغيره إلا بحديدة» وقد مرَّ الخلاف في هذه المسألة في سورة البقرة في تفسير قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ﴾(١).

وروى محمد بن إسحاق عن الزهري أن الزبير بن باطا القرظي وكان يكنى أبا عبد

(١) سورة البقرة، الآية: ١٧٨.

الرحمن قدم على ثابت بن قيس بن شماس في الجاهلية يوم بعاث لأخذه فجر ناصيته ثم خلّى سبيله فجاءه يوم قريظة وهو شيخ كبير فقال ثابت يا أبا عبد الرحمن هل تعرفني؟ قال وهل يجهل مثلي لمثلك قال إني أريد أن أجزيك بيدك عندي، قال إن الكريم يجزي، قال ثم أتى ثابتٌ رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله قد كان للزبير عندي يد وله عليّ منة فأحببت أن أجزيه بها فهب لي دمه فقال رسول الله ﷺ هو لك، فأتاه فقال له إن رسول الله ﷺ قد وهب لي دمك قال شيخ كبير لا أهل له ولا ولد فما يصنع بالحياة، فأتى ثابت رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله أهله وولده قال فهم لك، فأتاه فقال له إن رسول الله ﷺ أعطاني امرأتك وولدك فهم لك، قال أهل بيت في الحجاز لا مال لهم فما بقاؤهم على ذلك فأتى ثابت رسول الله ﷺ، فقال: ما له يا رسول الله قال: هو لك، فقال إن رسول الله ﷺ أعطاني مالك فهو لك، فقال أي ثابت ما فعل الذي كان وجهه مرآة صينية حسنة يتراءى فيه عذار الحي كعب بن أسد، قال قتل، قال فما فعل سيد الحاضر والبادي سيد الحيَّيْن كليهما يحملهم في الحرب ويطعمهم في المحل حيي بن أخطب؟ قال قتل، قال فما فعل مقدمتنا إذا شددنا وحاشيتنا إذا كررنا عزّالة بن شمول؟ قال قتل، قال فما فعل المجلسان يعني بني كعب بن قريظة؟ وبني عمرو ابن قريظة قال ذهبوا فقتلوا، قال فإني أسألك بيدي عندك يا ثابت إلا ما ألحقتني بالقوم فوالله ما في العيش بعد هؤلاء من خير ارجع إلى دار قد كانوا حلولاً فيها فاخلد فيها بعدهم لا حاجة لي في ذلك ولكني يا ثابت أنظر إلى امرأتي وولدي فاطلب إلى صاحبك فيهم أن يطلقوا وأن يردوا أموالهم فطلب ثابت من النبيّ ﷺ أهل الزبير وماله وولده فرد رسول الله ﷺ أهله وماله إلا السلاح، قال الزبير يا ثابت أسألك بيدك عندي إلا ألحقتني بالقوم فما أنا بصابر لله فتلة دلو ناضح حتى ألقى الأحبة، قال ابن إسحاق فقدمه ثابت فضرب عنقه وقال محمد بن عمر قال ثابت ما كنت لأقتلك قال الزبير لا أبالي من قتلني فقتله الزبير بن العوام رضي الله عنه، ولمّا بلغ أبا بكر الصديق رضي الله عنه قوله «ألقى الأحبة» قال يلقاهم في نار جهنم خالداً مخلدا.

ثم قسم أموال بني قريظة ونساءهم وأموالهم على المسلمين وكان أول فيء وقع فيه السهمان وكان المسلمون ثلاثة آلاف والخيل ستة وثلاثين وكان سهمان الخيل والرجال على ثلاثة آلاف واثنين وسبعين سهماً للفرس سهمان ولصاحبه سهم، وقاد رسول الله ﷺ ثلاثة أفرس فلم يضرب السهم إلا لفرس واحد، وهذا حجة لأبي حنيفة ومالك والشافعي حيث قالوا لاسهم إلا لفرس واحد وقال أبو يوسف ومحمد وأحمد يسهم لفرسين ولا

يسهم لأكثر من ذلك إجماعاً وقد مرَّ المسألة في سورة الأنفال، وأسهم رسول الله ﷺ لخلاد بن سويد وقد قتل تحت الحصن وأسهم لسنان بن محصن ومات ورسول الله ﷺ محاصرهم وكان يقاتل مع المسلمين، وهذا حجة للأئمة الثلاثة حيث قالوا الغنيمة لمن شهد الوقعة وإن مات قبل هزيمة الكفار وإحراز الغنيمة بدار الإسلام وقد روى ابن أبي شيبة بسند صحيح الغنيمة لمن شهد الوقعة موقوفاً على عمر وأخرجه الطبراني مرفوعاً وموقوفاً والموقوف أصح وروى الشافعي موقوفاً على أبي بكر وفيه إنقطاع وقال أبو حنيفة لا يتأكد الحق في الغنيمة إلا بالإحراز بدار الإسلام فمن مات أو قتل قبل الإحراز لا سهم له ولا يورث منه، والمدد إذا لحق بدار الحرب بعد الوقعة قبل الإحراز بدار الإسلام يسهم لهم وقد مر مسألة المدد في سورة الأنفال.

مسألة:

وفي هذه القصة حجة للجمهور على أبي حنيفة حيث قالوا للفارس ثلاثة أسهم سهم له وسهمان لفرسه، وقال أبو حنيفة سهم له وسهم لفرسه وقد مرَّ المسألة في سورة الأنفال والله أعلم.

فائدة:

أخذ رسول الله ﷺ من السبي خمساً فكان يعتق ويهب منه من أراد وكذلك النخل عزل خمسه وكل ذلك يسهم عليه خمسة أجزاء وصار الخمس إلى محمية بن جز الزبيدي، ثم قسم أربعة أخماس على الناس وأعطى رسول الله ﷺ النساء الللتي حضرن القتال ولم يسهم لهن وهن صفية بنت عبد المطلب وأم عمارة نسية وأم سليط وأم العلاء الأنصارية والسميري بنت قيس وأم سعد بن معاذ وكبشة بنت رافع، وبعث رسول الله ﷺ طائفة مع السبايا مع سعد بن عبادة يشتري بهم سلاحاً وخيلاً كذا قال محمد بن عمر. وقال ابن إسحاق بعث سعد بن زيد الأنصاري الأشهلي بسبايا من بني قريظة فابتاع لهم بها خيلاً وسلاحاً، واشترى عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف طائفة فاقتسما يقال لما قسم جعل الشوابّ على حدة والعجائز على حدة ثم خير عبد الرحمن عثمان فأخذ العجائز فربح عثمان مالاً كثيراً وذلك لأنه كان يوجد عند العجائز من المال ولم يوجد عند الشواب، قال ابن سيرة وإنما يؤخذ ما جاءت به العجائز فيكون في الغنيمة لأنه لم يوجد معهن إلا بعد شهر أو شهرين، وجعل عثمان على كل من اشتراه من سبيهم شيئاً موقتاً فمن جاء منهن بالذي وقت لهن عتق فلم يتعرض لهن، ونهى رسول الله ﷺ أن يفرق في

القسم والبيع بين النساء والذرية وقال لا يفرق بين الأم وولدها حتى يبلغ قيل يا رسول الله ما بلوغه قال: «تحيض الجارية، ويحتلم الغلام» رواه الحاكم وصححه، عن عبادة بن الصامت عنه ﷺ قال «لا تفرقوا بين الأم وولدها، فقيل إلى متى؟ قال إلى أن يبلغ الغلام وتحيض الجارية» وقال ابن الجوزي قال الدارقطني في سنده عبد الله بن عمر بن حسان ضعيف الحديث رواه علي بن المديني بالكذب، وروى الترمذي عن أبي أيوب الأنصاري قال سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «من فرق بين والدة وولدها فرق الله بينه وبين أحبته يوم القيامة»(١) وقال الترمذي حديث حسن غريب وصححه الحاكم على شرط مسلم، وفيه نظر لأن في سنده حيي بن عبد الله ولم يخرجه في الصحيح وأختلف فيه ولذا لم يصححه الترمذي، وروى الحاكم في المستدرك عن عمران بن حصين قال قال رسول الله ﷺ «ملعون من فرق بين والدة وولدها» وقال إسناده صحيح وفيه طليق بن محمد يرويه تارة عنه عن عمران بن حصين وتارة عنه عن أبي بردة وتارة عن طليق عن النبيّ ﷺ مرسلاً، قلتُ: ويمكن الجمع بأن طليقاً لعله سمعه عمران وعن أبي بردة كليهما فيرويه تارةً عنه وتارةً عنه وتارةً مرسلاً، وقال ابن القطان لا يصح الحديث لأن طليقاً لا يعرف حاله، قال ابن همام يريد خصوص ذلك وإلا فللحديث طرق كثيرة وشهرة وألفاظه توجب صحة المعنى المشترك وهو منع التفريق، وروى الدارقطني بسنده عن ميمون بن أبي شعيب عن علي عليه السلام أنه فرق بين جارية وولدها فنهاه النبيّ ﷺ عن ذلك فرد البيع، ورواه أبو داود ورده بالإنقطاع بين ميمون ابن أبي شعيب وعلي، قال ابن الهمام إن الإرسال عندنا لا يضر ورواه الحاكم وصحح إسناده ورجحه البيهقي.

مسألة:

ومن ههنا قال أبو حنيفة لا يجوز أن يفرق بالبيع أو الهبة أو نحوهما بين مملوكين صغيرين وكذا بين صغير وكبير يكون بينهما رحم ومحرمية وكذا بين كبيرين كذلك عند أحمد، وقال مالك لا يفرق بين الأم وولدها خاصة، وقال الشافعي لا يفرق بين صغير وبين أبويه وإن عليا، وجه قول مالك أن الحديث المذكور ورد في المنع من التفريق بين الأمر وولدها خاصةً وألحق الشافعي بالأم الأصول مطلقاً، وجه قول أبي حنيفة وأحمد في المنع من التفريق بين اثنين بينهما رحم ومحرمية أن في بعض الأحاديث ورد المنع في

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: البيوع، باب: ما جاء في كراهية الفرق بين الأخوين أو بين الوالدة وولدهافي البيع (١٢٨٠).

غير الأصول والفروع أيضاً عن علي عليه السَّلام قال وهب لي رسول الله ﷺ غلامين أخوين فبعتُ أحدهما فقال رسول الله ﷺ يا علي ما فعل غلامك فأخبرته، قال: «رده رده»[١] قال الترمذي حديث حسن غريب وتعقبه أبو داود، فإنه من رواية ميمون بن أبي شعيب عن علي وهو لم يدرك علياً قلنا فهو مرسل والمرسل عندنا حجة، وأخرجه الحاكم والدارقطني من طريق آخر عن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن علي قال قدم على النبيّ ﷺ سبيٌ فأمرني ببيع أخوين فبعتهما وفرقتُ بينهما ثم أتيتُ النبيّ ﷺ فأخبرته فقال: «أدركهما فارتجعهما ولا تبعهما إلا جميعاً ولا تفرق بينهما» وصححه الحاكم على شرط الشيخين ونفى ابن القطان العيب عنه، وقال هو أولى ما اعتمد عليه في هذا الباب ومن طريق آخر عند أحمد والبزار قال ابن همام فيه انقطاع لكن لا يضر على أصلنا على ما عرف، وروى الدارقطني عن طليق بن عمران عن أبي بردة عن أبي موسى قال لعن رسول الله ﷺ من فرق بين الوالدة وولدها وبين الأخ وأخيه، وإذا ثبت المنع من التفريق بين أخوين أيضاً ظهر أن علة المنع الرحم مع المحرمية ولا يمنع من التفريق المحرمية بالرضاع ونحو ذلك ولا رحم بلا محرمية كابن العم لأنه ليس في معناه.

مسألة:

من فرق بين والدة وولدها يأثم لكن ينعقد البيع وينفذ عند أبي حنيفة ومحمد وعند مالك والشافعي وأحمد لا ينعقد بل هو باطل وكذا لا ينعقد البيع في غير قرابة الولاد أيضاً عند أحمد، وقال أبو يوسف يفسد البيع في قرابة الولاد خاصة وعنه أنه يفسد مطلقاً سواء كان قرابة ولاد أو غيرها ومبنى الخلاف على خلافية أصولية فإن النهي عن الشرعيات بلا قرينة يوجب البطلان عندهم ويوجب الفساد عند أبي حنيفة وصاحبيه، لكن أبا حنيفة ومحمداً قالا إن النهي في هذا البيع إنما هو لمعنًى مجاور كالبيع وقت أذان الجمعة فلا يوجب الفساد بخلاف ما كان لوصف لازم، وجه قول أبي يوسف أنه ﷺ أمر علياً برد البيع والإرتجاع وإذا لا يمكن إلا عند فساد العقد وحمل أبو حنيفة الإرتجاع على طلب الإقالة.

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: البيوع، باب: ما جاء في كراهية الفرق بين الأخوين أو بين الوالدة وولدها في البيع (١٢٨١).

مسألة:

يجوز التفريق إن كانا بالغين كما يدل عليه حديث عبادة بن الصامت، وقال أحمد لا يجوز عملاً بإطلاق الأخبار المذكورة، وردَّ ابن الجوزي حديث عبادة كما ذكرنا، ولنا أيضاً حديث سلمة بن الأكوع قال خرجنا مع أبي بكر فغزونا فزارة إلى إن قال فجئتُ بهم إلى أبي بكر وفيهم امرأة معها ابنة لها من أحسن العرب فنفلني أبو بكر ابنتها فقدمتُ المدينة فقال النبيّ ﷺ: «يا سلمة هب لي المرأة» قلتُ هي لك، ففدى بها أسارى ثلاثة(١)، وما روي أنه ﷺ فرق بين مارية القبطية أم إبراهيم بن رسول الله ﷺ وسيرين أختها أهداهما المقوقس ملك الإسكندرية إلى رسول الله ﷺ فوهب رسول الله ﷺ سيرين لحسان بن ثابت فولدت له عبد الرحمن بن حسان، ذكر الحديث ابن عبد البر في الاستيعاب وذكر البزار أن هذا الحديث في صحيح ابن خزيمة والله أعلم.

مسألة:

إذا كان مع الصغير أبواه لا يبيع واحداً منهم ولو كان أم وأخ أو أم وعمة أو خالة أو أخ جاز البيع سوى الأمر في ظاهر الرواية لأن شفقة الأم تغني عمن سواه، ولو كان له ستة إخوة ثلاثة كبار وثلاثة صغار فباع مع كل صغير كبيراً جاز، ولو كان مع الصغير جدة وعمة وخالة جاز بيع التمة والخالة ولو كان معه عمة وخالة بدون جدة لا يباع إلا معاً، والأصل أنه إذا كان معه عدد بعضهم أبعد من بعض جاز البيع سوى الأقرب وإن كانوا في درجة واحدة فإن كانوا من جنسين مختلفين كالأب والأم والخالة والعمة لا يفرق بل يباع الكل أو يمسك الكل وإن كانوا من جنس واحد كالأخوين والعمين جاز أن يمسك مع الصغير واحداً عنهم ويبيع ما سواه والله أعلم.

سألة:

ذكر في سبيل الرشاد أنه كان يباع الأمر وولدها الصغار من سبي بني قريظة من اليهود ومن المشركين من العرب وإذا كان الولد صغيراً ليس معه أو لم يبع من المشركين ولا من اليهود إلا من المسلمين وذا لأن الصغير إذا سبى مع أحد أبويه يعتبر كافراً فيجوز بيعه من الكافر مشركاً كان أو يهودياً فإن الكفر ملة واحدة، وإن سبى (لامع أحد أبويه

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الجهاد والسير، باب: التشغيل وفداء المسلمين بالأسارى (١٧٥٥)، وأخرجه أبو داود في كتاب الجهاد، باب: الرخصة في المدركين يفرق بينهم (٢٦٩٥).

يعتبر مسلماً بتبعية الدار والله أعلم واستشهد يوم بني قريظة خلاد بن سويد ومنذر بن محمد.

فائدة:

إصطفى رسول الله ﷺ لنفسه ريحانة بنت زيد بن عمرو بن حذافة من بني النضير المتزوجة في بني عمرو بن قريظة وكانت جميلة فعرض عليها الإسلام فأبت فعزلها ووجد في نفسه فأرسل إلى ابن سعية، فذكر له ذلك فقال ابن سعية فداك أبي وأمي هي تسلم فخرج حتى جاءها فجعل يقول لها لا تبتغي قومِك فقد رأيتِ ما أدخل عليهم حيي بن أخطب فأسلمي يصطفيك رسول الله ﷺ فأجابت إلى ذلك، فبينا رسول الله ﷺ في أصحابه إذ سمع وقع نعلين فقال إن هاتين لنعلا ابن سعية يبشرني بإسلام ريحانة فجاءه فقال يا رسول الله ﷺ لقد أسلمتْ ريحانة، فسرَّ رسول الله ﷺ بذلك وكانت عند رسول الله ﷺ حتى توفي عنها وهي في ملكه، وقد كان رسول الله ﷺ يحرص عليها أن يتزوجها ويضرب عليها الحجاب فقالت يا رسول الله بل تتركني في مِلكك فهو أخف عليَّ وعليك فتركها والله أعلم.

فائدة:

ولمَّا انقضى شأن بني قريظة انفجر جرح سعد بن معاذ، قالت عائشة فحضره رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر فوالذي نفس محمد بيده إني الأعرف بكاء أبي بكر من بكاء عمرو إني لفي حجرتي وكانوا كما قال الله تعالى: ﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾[1].

مناقب سعد بن معاذ

عن أنس قال لمَّا حملت جنازة سعد بن معاذ قال المنافقون ما أخف جنازته وذلك لحكمه في بني قريظة فبلغ ذلك النبيّ ﷺ فقال: «إن الملائكة كانت تحمله»[2] رواه الترمذي، وعن جابر قال سمعتُ النبيّ ﷺ يقول: «اهتز عرش الرحمن لموت سعد بن معاذ»[3] متفق عليه، وعن البراء ابن عازب قال أهديت لرسول الله ﷺ حلة حرير فجعل

---

(١) سورة الفتح، الآية: ٢٩.

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: المناقب، باب: ماقب سعد بن معاذ رضي الله عنه (٣٨٥٨).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: المناقب، باب: مناقب سعد بن معاذ رضي الله عنه (٣٨٠٣)، وأخرجه مسلم في كتاب: فضائل الصحابة، باب: من فضائل سعد بن معاذ رضي الله عنه (٢٤٦٦).

أصحابه يمسونها ويتعجبون من لينها فقال: «أتعجبون من لين هذا لمناديل سعد بن معاذ في الجنة خير منها وألين»(١) متفق عليه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيۡنَ أُمَتِّعۡكُنَّ وَأُسَرِّحۡكُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلۡمُحۡسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿٢٩﴾ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأۡتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ ضِعۡفَيۡنِۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا ﴿٣٠﴾ ۞ وَمَن يَقۡنُتۡ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا نُّؤۡتِهَآ أَجۡرَهَا مَرَّتَيۡنِ وَأَعۡتَدۡنَا لَهَا رِزۡقٗا كَرِيمٗا ﴿٣١﴾﴾.

ذكر البغوي وغيره أن أزواج النبيّ ﷺ سألنه من عرض الدنيا وطلبن منه زيادة في النفقة وآذينه بغيرة بعضهم على بعض فهجرهن رسول الله ﷺ وآلى أن لا يقربهن شهراً ولم يخرج إلى أصحابه، فقالوا ما شأنه وكانوا يقولون طلّق رسول الله ﷺ نساءه، فقال عمر لأعلمكم ما شأنه فدخلت على رسول الله ﷺ فقلتُ يا رسول الله أطلّقتَ نساءك؟ قال لا، قلتُ يا رسول الله إني دخلتُ المسجد والمسلمون يقولون طلق رسول الله ﷺ فأخبرهم أنك لم تطلقهن، قال نعم إن شئتَ، فقمتُ على باب المسجد فناديتُ بأعلى صوتي لم يطلق رسول الله ﷺ نساءه ونزلت: ﴿وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه﴾(٢) فكنتُ أنا استنبطتُ ذلك الأمر فأنزل الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا﴾ أي السعة والتنعم فيها وزخارفها ﴿فَتَعَالَيۡنَ﴾ أصل تعال أن يقوله من كان في مكان مرتفع لمن كان في مكان دونه ثم كثر حتى استوت في استعماله الأمكنة كلها بمعنى أقبِل إليّ والمعنى هاهنا أقبلن بإرادتكن واختياركن لطلب الطلاق ﴿أُمَتِّعۡكُنَّ﴾ أي أعطكن المتعة ﴿وَأُسَرِّحۡكُنَّ﴾ أي أطلقن ﴿سراحاً﴾ طلاقاً ﴿جَمِيلٗا﴾ من غير ضرار ﴿وَإِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱللَّهَ﴾ أي مراتب القرب إلى الله ومرضاته قرب ﴿ورسوله﴾ نعماء ﴿وَٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلۡمُحۡسِنَٰتِ مِنكُنَّ﴾ يعني لمن أرادت رضوان الله ورسوله والدار الآخرة فإنها هي المحسنة إذ الإحسان أن تعبد ربك بالحضور كأنك تراه ﴿أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾ قال البغوي وكانت

(١) أخرجه البخاري في كتاب: بدء الخلق، باب: ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة (٣٢٤٩)، وأخرجه مسلم في كتاب: فضائل الصحابة، باب: من فضائل سعد بن معاذ رضي الله عنه (٢٤٦٨).

(٢) سورة النساء، الآية: ٨٣.

تحت رسول الله ﷺ يومئذ تسع نسوة خمس من قريش عائشة بنت أبي بكر وحفصة بنت عمرو أم حبيبة بنت أبي سفيان وأم سلمة بنت أمية وسودة بنت زمعة، وأربع من غير قريش زينب بنت جحش الأسدية وميمونة بنت الحارث الهلالية وصفية بنت حيي بن أخطب الخيبرية وجويرية بنت الحارث المصطلقية، ولمَّا نزلت آية التخيير بدأ رسول الله ﷺ بعائشة وكانت أحبهن إليه فخيرها وقرأ عليها القرآن فاختارت الله ورسوله والدار الآخرة ورأت الفرح في وجه رسول الله ﷺ وتابعنها على ذلك، قال قتادة: فلمَّا اخترن الله ورسوله شكرهن على ذلك وقصره عليهن فقال: (لا يحل لك النساء من بعد).

أخرج مسلم وأحمد والنسائي من طريق أبي الزبير عن جابر قال أقبل أبو بكر ليستأذن على رسول الله ﷺ فلم يؤذن له ثم أقبل عمر فاستأذن فلم يؤذن له ثم أذن لهما فدخلا والنبي ﷺ جالس وحوله نساؤه واجماً ساكتاً، قال فقال عمر لأقولن شيئاً أضحك النبيّ ﷺ، فقال لو رأيتَ بنت خارجة سألني النفقة فقمتُ إليها فوجأتُ عنقها فضحك رسول الله ﷺ وقال هن حولي كما ترى يسألنني النفقة فقام أبو بكر إلى عائشة يجأ عنقها وقام عمر إلى حفصة يجأ عنقها كلاهما يقولان لا تسألنَّ رسول الله ﷺ أبداً ما ليس عنده، ثم اعتزلهن شهراً وتسعاً وعشرين ثم نزلت هذه الآية، قال فبدأ بعائشة قال يا عائشة إني أريد أن أعرض عليك أمراً أحبُّ أن لا تعجلي فيه حتى تستشيري أبويك، فقال وما هو يا رسول الله؟ فتلا عليها الآيات، فقالت أفيك يا رسول الله أستشير أبويَّ بل أختارُ الله ورسوله والدار الآخرة أسألك أن لا تخبر امرأةً من نسائك، قال لا تسألني امرأة منهن إلا أخبرتُها أن الله لم يبعثني جحوداً ولا مفتناً ولكنه بعثني مبشراً معلماً[1]. وفي الصحيح عن الزهري أن النبيّ ﷺ أقسم أن لا يدخل على أزواجه شهراً قال الزهري فأخبرني عُروة عن عائشة قالت، فبدأني فقلت يا رسول الله إنك أقسمت أن لاتدخل علينا شهراً فإنك بتسع وعشرين أعدهن قال: «إن الشهر تسع وعشرون».

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الطلاق، باب: بيان أن تخيير امرأته لا يكون طلاقاً إلا بالنية (١٤٧٨).

فائدة:

قال البغوي اختلف العلماء في هذا الخيار هل كان ذلك تفويض الطلاق حتى يقع الطلاق بنفس اختيارها نفسها أم لا؟ فذهب الحسن وقتادة وأكثر أهل العلم أنه لم يكن تفويض الطلاق بل خيرهن في طلب الطلاق فإن اخترن الدنيا فارقهن بدليل قوله تعالى: ﴿فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ﴾ وذهب قوم إلى أنه كان تفويض الطلاق لو اخترن أنفسهن كان طلاقاً.

مسألة:

إذا قال الزوج لامرأته اختاري ونوى بذلك أن تطلق نفسها إن شاءت فلها أن تطلق نفسها ما دامت في المجلس فإن قامت منه أو أخذت في عمل آخر خرج الأمر من يدها لأنه تمليك الفعل منهياً والتمليكات يقتضي جواباً في المجلس كما في البيع، قال صاحب الهداية لها خيار المجلس بإجماع الصحابة رضي الله عنهم، وقال ابن همام قال ابن المنذر اختلفوا في الرجل يخير زوجته؟ فقالت طائفة أمرها بيدها في المجلس فإن قامت من مجلسها فلا خيار لها روينا هذا القول عن عمر بن الخطاب وعثمان وابن مسعود رضي الله عنهم وفي أسانيدها مقال وبه قال جابر بن عبد الله وبه قال عطاء ومجاهد والشعبي والنخعي ومالك وسفيان الثوري والأوزاعي والشافعي وأبو ثور وأصحاب الرازي، وقالت طائفة أمرها بيدها في المجلس وبعدها وهو قول الزهري وقتادة وأبي عبيدة وابن نصر قال ابن المنذر وبه نقول لقوله ﷺ لعائشة «لا تستعجلي حتى تستأمري أبويك» وحكى صاحب المغني هذا القول من الصحابة عن علي رضي الله عنه وأجاب ابن الهمام عن قول ابن المنذر أن الرواية عن علي لم يستقر فقد روى عنه قول الجماعة كذا نص محمد في بلاغاته حيث قال بلغنا عن عمر وعثمان وعلي وابن مسعود وجابر رضي الله عنهم في الرجل يخير امرأته أن لها الخيار ما دامت في مجلسها ذلك فإذا قامت من مجلسها فلا خيار لها ولم يرو عن غيره من الصحابة ما يخالف ذلك فكان إجماعاً سكوتياً، وقوله في أسانيدها مقال لا يضر بعد تلقي الأمة بالقبول مع أن رواية عبد الرزاق عن جابر وابن مسعود جيدة، وأما التمسك بقوله ﷺ «لا تعجلي» فضعيف لأنه ليس في الآية تخيير الطلاق وتفويضه كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾.

مسألة

لا بد من النية في قوله اختاري لأنه يحتمل تخيرها في نفسها ويحتمل تخيرها في تصرف آخر غيره.

مسألة

إذا قال الزوج اختاري فقالت اخترتُ نفسي فالمروي عن عمر وابن مسعود وابن عباس أنها تقع واحدة رجعية وبه أخذ الشافعي وأحمد لأن قوله اختاري بمنزلة قوله طلقي نفسك، وقولها اخترتُ نفسي بمنزلة قوله طلقتُ نفسي والواقع بها رجعي إجماعاً ويأتي الكتاب دل على أن الطلاق يعقب الرجعة إلا الثالث، وروي عن زيد بن ثابت أنه يقع الطلقات الثلاث وبه أخذ مالك في المدخول بها وفي غيرها يقبل منه دعوى الواحدة. وجه قول زيد أن اختيارها يقتضي ثبوت اختصاصها بها بحيث لا يكون لزوجها إليها سبيل من غير رضاءها وإلا لا يحصل فائدة التخيير إذا كان له أن يراجعها في الحال شاءت أو أبت وذلك الاختصاص لا يتصور إلا في البائن والطلاق يعقب الرجعة بالكتاب إلا أن يكون ثلاثاً فيقع الثلاث، وثبت عن علي رضي الله عنه أن الواقع به واحدة بائنة وبه قال أبو حنيفة رحمه الله لما ذكرنا أن اختصاصها بنفسها لا يتصور إلا بالبنيونة والبينونة قد يكون بواحدة إجماعاً كالطلاق بمال والطلاق قبل الدخول فيحمل عليه لحصول المقصود ولا وجه لجعله ثلاثاً بعد حصول المقصود بواحدة، وقد روى الترمذي عن ابن مسعود وعمر أن الواقع بها بائنة كما روى عنهما الرجعية فاختلف الرواية عنهما، قلتُ البينونة يتنوع إلى غليظة وخفيفة فإن نوى بها الزوج الغليظة لا بد أن يقع به ثلاثاً، لكن أبا حنيفة رحمه الله يقول إن قوله اختاري لا يدل على البينونة بل يفيد الخلوص والصفاء والبينونة يثبت فيه إقتضاءً فلا يعم بل يقدر بقدر الضرورة بخلاف أنتِ بائن ونحوه فلا يقع الثلاث بقوله اختاري وإن نوى الثلاث لأن النية إنما تعمل فيما يحتمله اللفظ ويقع بقوله أنتِ بائن ثلاثاً إن نوى الثلاث وبخلاف قوله اختاري اختاري لأن تعدد اللفظ يدل على تعدد المقصود.

مسألة

لو قالت اخترتُ زوجي بعدما قال لها إختاري لا يقع شيء عند الجمهور لأن الزوج لم يطلقها بل جعل أمرها باختيارها وهي لم تختر الطلاق بل بل اختارت إبقاء النكاح، وعن علي رضي الله عنه أنه يقع رجعية كأنه جعل نفس اللفظ إيقاعاً، قال ابن همام لكن

قول عائشة «خيَّرنا رسول الله ﷺ فاخترناه ولم يعُدَّه علينا شيئاً»[١] رواه الستة، وفي لفظ الصحيحين «فلم يعدد» يفيد عدم وقوع شيء كما قاله الجمهور، قلتُ لما ذكرنا فيما سبق أن تخيير أزواج النبيّ ﷺ لم يكن تخييراً للطلاق بل كان تخييراً في طلب الطلاق فلا يكون قول عائشة حجت على ما قاله الجمهور والله أعلم.

مسألة:

ولا بد من ذكر النفس في كلامه أو كلامها حتى لو قال إختاري فقالت اخترتُ لا يقع الطلاق لأن هذا اللفظ للطلاق فكان القياس أن لا يقع بها شيء لأن التمليك فرع ملك المملك والزوج لا يملك إيقاع الطلاق بهذا اللفظ لكنا تركنا القياس وقلنا بوقوع الطلاق باختيارها بإجماع الصحابة والإجماع إنما هو في المفسّر من أحد الجانبين بالنفس، ولأن قوله اختاري مبهم يحتمل تخيرها في نفسها وتخيرها في تصرف آخر غيره، والمبهم لا يصلح تفسيراً للمبهم ولا تعيين مع الإبهام، ولمَّا كان وقوع الطلاق بقوله اختاري معدولاً عن سنن القياس مقتصراً على مورد الإجماع لا يكتفي بالنية وإن كان مع القرينة الحالية دون المقالية لعدم الإجماع هُناك، وقال الشافعي وأحمد يكتفى بالنية مع القرينة الحالية بعد أن نوى الزوج وقوع الطلاق به وتصادقاً عليه وقال أبو حنيفة النية بدون إحتمال اللفظ يلغو وإلا لوقع بمجرد النية مع لفظ لا يصلح له أصلاً كاسقني وإنما تركنا القياس بموضع الإجماع، قلتُ لكن قوله النية بدون احتمال اللفظ يلغوا ليس في محله فإن لفظ اختاري واخترتُ بدون ذكر النفس يحتمل تخيرها الطلاق واختارها إياه وغير ذلك وإن لم تكن نصّاً فيه ولذلك لو قال اختاري فقالت اخترتُ نفسي يقع الطلاق إن نوى الزوج لأن كلامها مفسرة ومانواه الزوج من محتملات كلامه، وكذا لو قال اختاري اختياره فقالت قد اخترتُ طلقت أيضاً لأن الهاء في اختياره ينبىء عن الإتحاد والإنفراد واختيارها نفسها يتحد مرة ويتعدد أخرى فصار مفسراً من جانبه.

مسألة:

ولو قال الزوج اختاري فقالت أنا أختار نفسي فهي طالق والقياس أن لا يطلق لأن هذا مجرد وعد أو يحتمله فصار كما إذا قال طلقي نفسك فقالت أنا أطلق نفسي، قال

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب: الطلاق، باب: في الخيار (٢٢٠٣)، وأخرجه النسائي في كتاب: النكاح، باب: ما افترض الله على رسوله عليه السلام، وحرمه على خلقه ليزيده إن شاء الله قربة إليه (٣١٩٤)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب الطلاق، باب: الرجل يخير امرأته (٢٠٥٢).

صاحب الهداية وجه الإستحسان قول عائشة لا بل أختار الله ورسوله واعتباره ﷺ جواباً منها، لا يقال ذكر فيما سبق أن قصة عائشة لم يكن تخيراً في التطليق بل في طلب الطلاق لأنا نقول مقصودنا يحصل باعتباره ﷺ جواباً للإختيار سواء كان الاختيار متعلقاً بالتطليق أو طلب التطليق، ولأن قولها أنا أختار نفسي حكاية عن حالة قائمة وهو اخيتار نفسها بخلاف قولها أطلق نفسي لأن حمله على الحال متعذر لأنه ليس حكاية عن حالة قائمة والله أعلم ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ﴾ التفات من الغيبة إلى الخطاب ﴿مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ﴾ قال ابن عباس أراد بالفاحشة النشوز وسوء الخلق ﴿يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ﴾ قرأ ابن كثير وابن عامر نضعف بالنون على التكلم وكسر العين وتشديدها بغير ألف من التفعيل والعَذَابَ بالنصب على المفعولية، والباقون بالياء التحتانية على الغيبة وفتح العين على صيغة المجهول وَالعَذَابُ بالرفع على أنه مفعول ما لم يسم فاعله فيقرأ أبو جعفر وأبو عمرو بتشديد العين بلا ألف من التفعيل والباقون بالتخفيف والألف من الأفعال ﴿ضِعۡفَيۡنِ﴾ أي ضعفي عذاب غيرهن والضعف من الألفاظ المتضايفة التي يتوقف فهمه على شيء آخر كالنصف والزوج وهو تركب قدرين متساويين ومعنى أضْعَفْتُ الشيء وضَعَّفْتُه واحد وهو ضممتُ إليه مثله وكذا ضاعفتُه، والضعفين المثلين الذين يضم أحدهما إلى صاحبه كالزوجين فإن أحدهما يضاعف الآخر ويزاوجه، وقد يطلق الضعف على مجموع المثلين كما في قوله تعالى حكاية عن الاتباع من الكفار (فآتهم عذاباً ضعفاً)[(١)] من النار أي مثلي ما نحن فيه من العذاب لأنهم ضلوا وأضلونا، وإذا أضيف الضعف إلى عدد يراد به ذلك العدد مع مثله فضعف عشرة عشرون وضعف مائة مائتان وضعف الواحد اثنان وإذا أضيف الضعفين إلى واحدٍ يثلثه، وفي القاموس ضعف الشيء مثله وضعفاه مثلاه أو الضعف المثل إلى ما زاد يقال لك ضعفه يريدون مثليه وثلاثة أمثال لأنه زيادة غير محصورة، وفسّر الجزري في النهاية الضعف الواقع في حديث أبي الدحداح بأنه مثلي الآخر وقال يقال إن أعطيتني درهماً فلك ضعفه أي درهمان وربما قالوا فلك ضعفاه وقيل ضعف الشيء مثله وضعفاه مثلاه، وقال الزهري الضعف في كلام العرب المثل فما زاد وليس بمقصود على مثلين فأقل الضعف محصور في الواحد وأكثره غير محصور ومنه الحديث: «تضعف صلاة الجماعة على صلاة الفذ خمساً وعشرين درجة»[(٢)] وقال الله

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٣٨.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الأذان، باب: وجوب صلاة الجماعة (٦٤٥).

تعالى: ﴿يضاعف له أضعافاً كثيرة﴾[1] أي يزاد عليها يقال ضعَّفتُ الشيء واضعفتُه وضاعفتُه إذا زدتَه، قال البغوي ضَعَّفَ وضَاعَفَ لغتان مثل بعَّدَ وباعد، قال أبو عمرو وأبو عبيد ضعَّفتُه إذا جعلتَه مثليه وضاعفتُه إذا جعلتَه أمثاله، وشدد أبو عمر وهاهنا لقوله تعالى: ضعفين وقوله تعالى ضعفين منصوب على المفعولية لأن التضعيف والمضاعفة يتضمنان معنى التصيير أو على المصدرية من قبيل ضربته ضربتين أو ضربتُه سوطين أو على الحال من العذاب ووجه تضعيف العذاب أن الذنب منهن مع توافر النعمة أقبح ولذلك جعل حد الحر ضعف حد العبد ولأن في صدور الذنب منهن هتك حرمة مصاحبة سيّد البشر ﷺ وذلك أشد وأقبح ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ﴾ أي تضعيف العذاب ﴿عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ جملة معترضة ﴿وَمَن يَقْنُتْ﴾ القنوت الطاعة قرأ يعقوبُ مَن تَأتِ وتَقْنُتْ بالتاء الفوقانية فيهما نظراً إلى المعنى والباقون بالياء التحتانية نظراً إلى كلمة مَنْ يعني من يدم على الطاعة ﴿مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ﴾ قرأ حمزة والكسائي بالياء التحتانية حملاً على لفظة من والباقون بالتاء الفوقانية، نظراً إلى المعنى ﴿صَٰلِحًا﴾ منصوب على المصدرية أو المفعولية ﴿نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ﴾ أي مثلي أجر غيرها مرة على الطاعة ومرة على طلبهن رضاء النبيّ ﷺ بالقناعة وحسن المعاشرة قال مقاتل مكان كل حسنة عشر حسنات، قرأ حمزة والكسائي يُؤْتِهَا بالياء التحتانية على أن فيه ضمير اسم الله تعالى والباقون بالنون على التكلم ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا﴾ أي جليل القدر وهو الجنة زيادةً على أجرها قلتُ وذلك لأنهن يرزقن بمتابعة النبيّ ﷺ ما يرزق النبيّ ﷺ.

﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ۚ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾﴾.

﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ﴾ أي ليست كل واحدة منكن أو المعنى لم توجد جماعة واحدة من جماعات النساء مثلكن في الفضل ﴿كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ وجملة لستن تعليل لمضمون

---

(١) الآية هي ﴿فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ سورة البقرة: الآية: ٢٤٥.

ما ذكروا أصل أحد وحد بمعنى الواحد ثم وضع في النفي العام مستوياً فيه المذكر والمؤنث والواحد والكثير قال ابن عباس أي ليس قدركن عندي مثل قدر غيركن من النساء الصالحات أنتن أكرم عليَّ وثوابكن أعظم لَدَيَّ، هذه الآية تدل على فضلهن على سائر النساء ويعارضها قوله تعالى في حق مريم ابنة عمران: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾(١) والقول بأن المراد من نساء العالمين نساء زمانه يأباه ما رواه الترمذي عن أنس أن النبيّ ﷺ قال: «حسبك من نساء العالمين مريم بنت عمران وخديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد ﷺ وآسية امرأة فرعون»(٢) فالواجب أن يقال إن النساء في قوله تعالى: ﴿لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ من حيث أنكن أزواج سيد البشر ﷺ يعني ليست أحد من النساء شريكة لَكُنَّ في هذا الفضل، والجمهور على أن أفضل نساء العالمين فاطمة بنت رسول الله ﷺ وخديجة بنت خويلد خير نساء الرسول الله ﷺ ومريم بنت عمران وآسية امرأة فرعون وعائشة الصديقة بنت الصديق الأكبر حبيبة رسول الله ﷺ، روى الشيخان في الصحيحين وأحمد والترمذي وابن ماجه عن أبي موسى الأشعري قال قال رسول الله ﷺ: «كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا آسية إمرأة فرعون ومريم بنت عمران وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام»(٣) وفي الصحيحين عن علي رضي الله عنه قال سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «خير نسائها مريم بنت عمران وخير نسائها خديجة بنت خويلد»(٤) وفي رواية كريب وأشار وكيع إلى السماء والأرض، وفي الصحيحين من حديث عائشة عن فاطمة قالت قال رسول الله ﷺ: «يا فاطمة ألا ترضين أن تكوني سيدة نساء أهل الجنة أو نساء المؤمنين»(٥) وعن حذيفة عن

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٤٢.

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: المناقب، باب: فضل خديجة رضي الله عنها (٣٨٨٧).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: فضائل أصحاب النبي ﷺ باب: فضل عائشة رضي الله عنها (٣٧٦٩)، وأخرجه مسلم في كتابه: فضائل الصحابة، باب: في فضل عائشة رضي الله عنها (٢٤٤٦).

(٤) أخرجه البخاري في كتاب: مناقب الأنصار، باب: تزويج النبي ﷺ خديجة وفضلها رضي الله عنها (٣٨١٥)، وأخرجه مسلم في كتاب: فضائل الصحابة، باب: فضائل خديجة أم المؤمنين رضي الله عنها (٢٤٣٠).

(٥) أخرجه البخاري في كتاب: الاستئذان، باب: من ناجى بين يدي الناس ومن لم يخبر بسر صاحبه فإذا فات أخبر به (٥٢٨٥)، وأخرجه مسلم في كتاب: فضائل الصحابة، باب: من فضائل فاطمة رضي الله عنها (٢٤٥٠).

رسول الله ﷺ أنه قال: «إن هذا ملك لم ينزل إلى الأرض قط قبل هذه ا لليلة استأذن ربه أن يسلم عليّ ويبشرني بأن فاطمة سيدة نساء أهل الجنة وأن الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة»[(١)] رواه الترمذي وقال هذا حديث غريب ﴿إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ﴾ مخالفة حكم الله ورضاء رسوله شرط استغنى عن الجزاء بما مضى ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ﴾ الفاء للسببية يعني إذا ثبت فضلكن على سائر النساء بشرط التقوى فلا بد أن لا يظهر منكن ما ينافي التقوى من الخضوع بالقول للرجال يعني أن تكلم المرأة مع الرجل الأجنبي كلاماً ليناً بما تطمعه منها، وذكر الجزري في النهاية نهى رسول الله ﷺ أن يخضع الرجل لغير امرأته أن يلين لها بالقول بما يطمعها منه والخضوع الإنقياد والمطاوعة وذكر أيضاً في النهاية أن رجلاً مرّ في زمان عمر رضي الله عنه برجل وامرأة قد خضعا بينهما حديثاً فضربه حتى شجه فأهدره عمر رضي الله عنه أي ليّنا بينهما الحديث وتكلما بما يطمع كُلاً منهما من الآخر، وروى الطبراني بسند حسن عن عمر وبن العاص أن النبيّ ﷺ «نهى أن يكلم النساء إلا بإذن أزواجهن» وروى الدارقطني في الإفراد عن أبي هريرة أنه ﷺ «نهى أن يتمطى الرجل في الصلاة أو عند النساء إلا عند امرأته وجواريه» ﴿فَيَطْمَعَ﴾ في الفجور منصوب في جواب النهي بأن المقدرة بعد الفاء ﴿ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾ أي شائبة من النفاق فإن المؤمن الكامل الذي مطمئن بالإيمان ويرى برهان ربه لا يطمع فيما حرمه الله تعالى والذي إيمانه ضعيفٌ كان فيه شائبة النفاق يشتهي إلى ما حرم الله عليه، وفي غير المتواتر من القراءة فيطمع مجزوم عطفاً على محل النهي فهو نهي لمريض القلب عن الطمع عقيب نهيهن عن الخضوع بالقول.

مسألة:

المرأة مندوبة إلى الغلظة في المقال إذا خاطبت الأجانب لقطع الأطماع ﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ يعني ما يعرفه حسناً بعيداً من الريبة ﴿وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ﴾ قرأ نافع وعاصم بفتح القاف من قَرَّيَقَرُّ بكسر العين في الماضي وفتحها في الغابر أصله اقْرَرْنَ حذفت الراء الأولى ونقلت حركتها إلى القاف واستغنى عن همزة الوصل والباقون بكسر القاف من قَرَّيَقِرُّ قَرَاراً بفتح العين في الماضي وكسرها في الغابر وهما لغتان فيه ومعناهما واحد وكذا تعليلهما واحدة، أمر بالقرار في البيوت وعدم الخروج بقصد المعصية كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ﴾ فإنه عطفٌ تفسيري وتأكيد معنًى وليس في الآية نهي عن

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: المناقب باب: مناقب الحسن والحسين عليهما السلام (٣٧٩٠).

الخروج من البيت مطلقاً وإن كان للصلاة أو الحج أو لحاجة الإنسان كما زعمه الذين في قلوبهم مرض من الروافض حتى طعنوا في الصديقة الكبرى بنت الصديق الأكبر حبيبة رسول الله ﷺ أنها خرجت من بيتها إلى مكة وذهبت منها إلى البصرة في وقعة الجمل وكان خروجها إلى مكة للحج وبعد خروجها استشهد عثمان رضي الله عنه وأظهر أهل المصر فتنة في المدينة حتى هرب منها طلحة وزبير رضي الله عنهما ولحقا بعائشة وأشارا بالخروج للإصلاح ذات البين ولمّا أبت إحتجا بقوله تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَـٰحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾[1] فخرجت إلى البصرة ووقع الصلح بين من كان معها ومن كان مع علي رضي الله عنهما ثم أثار نار الفتنة عبد الله بن سبأ اليهودي المنافق الذي تزيَّ بزي شيعة عليّ رضي الله عنه حتى وقع القتال بين المسلمين في وقعة الجمل وقد ذكرنا القصة في كتابنا السيف المسلول، والتبرج من البروج بمعنى الظهور والمراد بها إظهار الزينة وإبراز المحاسن للرجال وقال ابن نجيح التبرج التبختر قال البيضاوي في تفسيره لا تبخترن في مشيتكن ﴿تَبَرُّجَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾ منصوب على المصدرية أي تبرجاً مثل تبرج الجاهلية الأولى والمراد بالجاهلية الأولى جاهلية الكفر قبل الإسلام والجاهلية الأخرى جاهلية الفسق بعد الإسلام، قال الشعبي هي ما بين عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام وقال أبو العالية هي زمن داود وسليمان عليهما السلام كانت المرأة تلبس قميصاً من الدر غير مخيط للجانبين فيرى خلقها فيه، وقال الكلبي كان ذلك في زمن نمرود الجبار كانت المرأة تتخذ الدرع من اللؤلؤ فتلبسه وتمشي وسط الطريق ليس عليها شيء غيره وتعرض نفسها على الرجال، وروى عكرمة عن ابن عباس الجاهلية الأولى فيما بين نوح وإدريس وكان ألف سنة وكان سبطين من ولد آدم كان أحدهما يسكن السهل والآخر يسكن الجبل وكان رجال الجبل صباحاً وفي النساء دمامة، وكان النساء السهل صباحاً وفي الرجال دمامة وإن إبليس أتى رجلاً من أهل السهل وأجر نفسه منه فكان يخدمه واتخذ شيئاً مثل الذي يدموا الرعاء فجاء بصوت لم يسمع الناس مثله فبلغ ذلك من حولهم فانتابوهم يسمعون إليه واتخذوا عبداً يجتمعون إليه فتبرج النساء للرجال وتزين الرجال لهن وإن رجلاً من أهل الجبل هجم عليهم في عيدهم ذلك فرأى الرجال والنساء وصباحتهن فأتى أصحابه فأخبرهم بذلك فتحولوا إليهم فنزلوا معهم فظهرت الفاحشة فيهن فذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾ وقد

(١) سورة النساء، الآية: ١١٤.

تذكر الأولى وإن لم يكن لها أخرى كقوله تعالى: ﴿أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ﴾[١] ولم يكن لها أخرى أو المعنى الجاهلية التي كانت قبل زمانكم ﴿وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ في كل ما أمرتن به ونهيتن عنه فإن ذلك هو التقوى الذي هو شرط أفضليتكن على سائر نساء النبيّ ﷺ وغيرهن من أولاده ﷺ، ولقصد التعميم أورد ضمير المذكر وقد أورد الله سبحانه هذا الكلام في مقام التعليل لما سبق يعني إنما يريد الله سبحانه فيما أمركن به ونهاكن عنه لإذهاب الرجس يعني عمل الشيطان من الإثم والقبائح الشرعية والطبيعة الذي ليس فيه مرضاة الله تعالى عنكن وعن غيركن من أهل البيت ﴿أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾ بيت النبيّ ﷺ منصوب على النداء أو المدح، قال عكرمة ومقاتل أراد بأهل البيت نساء النبيّ ﷺ ورضي عنهن لأنهنّ في بيته وهو رواية سعيد بن جبير عن ابن عباس وتلا قوله تعالى: ﴿واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة﴾ رواه ابن أبي حاتم وروى ابن جرير عن عكرمة نحوه وهم استدلوا بسياق الآية وسباقها لكن القول بتخصيص الحكم بهن يأباه ضمير المذكرين وذهب أبو سعيد الخدري وجماعة من التابعين منهم مجاهد وقتادة وغيرهما إلى أنهم علي وفاطمة والحسن والحسين رضي الله عنهم لحديث عائشة قالت: «خرج رسول الله ﷺ مرط مرجل من شعر أسود فجاء الحسن ابن علي فأدخله ثم جاء الحسين بن علي فدخل معه ثم جاءت فاطمة فأدخلهما ثم جاء علي فأدخله، ثم قال: (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً)»[٢] رواه مسلم، وحديث سعد بن أبي وقاص قال لما نزلت هذه الآية ﴿ندع أبناءنا وأبنائكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم﴾ دعا رسول الله ﷺ علياً وفاطمة وحسناً وحسيناً فقال: «اللّهم هؤلاء أهل بيتي» رواه مسلم وحديث واثلة بن الأسقع أنه ﷺ تلا هذه الآية ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ﴾ الآية وقال لعلي وفاطمة وإبنيهما «اللّهم هؤلاء أهل بيتي وخاصتي فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً» وأخرج الترمذي وغيره عن عمر بن أبي سلمة وابن جرير وغيره عن أم سلمة أن النبيّ ﷺ دعا علياً وفاطمة وحسناً وحسيناً لما نزلت هذه الآية: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ﴾ فحللهم بكساء فقال: «اللّهم هؤلاء أهل بيتي فأذهب عنهم وطهرهم تطهيراً»[٣]، وهذه الأحاديث ونحوها لا تدل على

---

(١) سورة النجم، الآية: ٥٠.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب: فضائل الصحابة، باب: فضائل أهل بيت النبي ﷺ (٢٤٢٤).

(٣) أخرجه الترمذي في كتاب: المناقب، باب: في مناقب أهل بيت النبي ﷺ (٣٧٩٦).

تخصيص الحكم بهؤلاء الأربعة رضي الله عنهم ويأباه ما قبل الآية وما بعدها ويأباه العرف واللغة لأن الأصل في إستعمال أهل البيت لغة النساء وأما الأولاد وغيرهم فإنها يطلق عليهم تبعاً لأن لهم بيوتاً متغايرةً غالباً وقد قال الله تعالى حكايةً عن قول الملائكة لسارة امرأة إبراهيم عليه السلام ﴿أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ﴾[(١)] والحق ما ذكرنا أن الآية يعم جميع أهل البيت وإن كان سوق الكلام للنساء عن أم سلمة رضي الله عنها قالت: «في بيتي أنزلت ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ﴾ قالت فأرسل رسول الله ﷺ إلى فاطمة وعلي والحسن والحسين فقال: «هؤلاء أهل بيتي» فقلتُ: يا رسول الله أما إنا من أهل البيت قال: «بلى إن شاء الله» رواه البغوي وغيره، هذا الحديث يدل على أن أهل البيت يعم كلهم وكلمة إن شاء الله للتبرك وقال زيد بن أرقم أهل بيته من حرم عليه الصدقة آل علي وآل عقيل وآل جعفر وآل عباس وآل الحارث بن عبد المطلب ﴿وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا﴾ من نجاسة الآثام بالحفظ في الدنيا والمغفرة في الآخرة.

بين الله سبحانه أنه إنما نهاهن وأمرهن ووعظهن لئلا يقارف أهل بيت رسوله المأثم وليتصفوا بالتقوى، استعار للذنوب الرجس وللتقوى الطهارة لأن عرض المقترف بالمعاصي ملوثٌ كما يتلوث بدنه بالنجاسة والمتقي نقي كالثوب الطاهر النقي، ولكمال المناسبة بين الآثام والأرجاس قال أبو حنيفة يتنجس الماء المستعمل للقربة أو لرفع الحدث ولما ثبت أنه ﷺ قال: «من توضأ فأحسن الوضوء خرجت خطاياه من جسده حتى تخرج من تحت أظفاره»[(٢)] متفق عليه من حديث عثمان، وعن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «إذا توضأ العبد المسلم أو المؤمن فغسل وجهه خرج من وجهه كل خطيئة نظر إليها بعينه مع الماء» الحديث رواه مسلم، احتجت الروافض بهذه الآية على أن علياً وفاطمة والحسن والحسين معصومون وهم الخلفاء بعد رسول الله ﷺ دون غيرهم. وعلى أن إجماعهم ومن دونهم من الأئمة حجة قالوا إذا أراد الله تطهيرهم فهم معصومون لأن مراد الله تعالى لا ينفك عن الإرادة والأثيم غير طاهر والعصمة شرط للإمامة وأبو بكر وعمر وعثمان غير معصومين بالإجماع فهم الأئمة لا غيرهم. وهذا الإستدلال باطل بوجوه: الأول أن الآية غير مختص حكمها بعلي وفاطمة وابنيهما كما ذكرت بل هي نازلة

(١) سورة هود، الآية: ٧٣.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب: الطهارة، باب: خروج الخطايا مع ماء الوضوء (٢٤٥).

في أمهات المؤمنين لكن هؤلاء الكرام داخلون في حكمهن، والثاني أن الآية لا تدل على العصمة وقد ورد مثل ذلك في آية الوضوء لجميع الأمة حيث قال: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[١] لا يقال مقتضى آية الوضوء إن الله يريد أن يطهر أبدانكم من الأنجاس والأحداث إن توضأتم ومقتضى هذه الآية يريد الله أن يطهركم من الآثام فأين هذا من ذلك لأنا نقول إنها من واد واحد فإن الله كما يريد أن يطهر أبدان المؤمنين إذا توضؤا واستعملوا الماء في مواضعه كذلك يريد أن يطهر أهل بيت النبي ﷺ من الآثام إن اتقوا ولذلك بين لهم طريقة استعمال الماء لطهارة الظاهر وبين لهم التقوى بقوله فلا تخضعن لطهارة الباطن فكما أن طهارة طاهر البدن يتوقف على اختيار العبد في إستعمال الماء كذلك الطهارة من الآثام يتوقف على اختياره التقوى والله أعلم، والثالث أن العصمة ليست بشرط الإمامة بل يجوز أن يكون الإمام غير معصوم مع وجود المعصوم فيهم ألم تر أن الله تعالى جعل الملك والإمامة لطالوت مع وجود النبي المعصوم فيهم وهو اشموئيل وداود عليهما السلام ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾[٢] إلى قوله تعالى: ﴿وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ﴾[٣] والله أعلم.

﴿وَٱذْكُرْنَ﴾ عطف على أطعن الله ورسوله وما بينهما إعتراض للتعليل ﴿مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ يعني القرآن ﴿وَٱلْحِكْمَةِ﴾ يعني الوحي الغير المتلو وهو السنة، وقال مقاتل يعني أحكام القرآن ومواعظه، وقال البيضاوي يعني اذكرن الكتاب الجامع بين الأمرين، وهو تذكير لما أنعم الله عليهن حيث جعلهن أهل بيت النبوة ومهبط الوحي وما شاهدن من برحاء الوحي مما يوجب قوة الإيمان والحرص على الطاعة حثاً على الائتمار والانتهاء فيما كلفن به ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا﴾ بكم يعظكم ويعلمكم ما يصلح في الدين ﴿خَبِيرًا﴾ بكل شيء يعلم من يصلح لنبوته ومن يصلح أن يكون أهل بيته وفي صحبته قال الله تعالى: ﴿الطيبات للطيبين والطيبون للطيبات﴾[٤] والله أعلم.

﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٦.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٤٧.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٥١.
(٤) سورة النور، الآية: ٢٦.

﴿فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾
وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ
وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ
زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى
زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ
وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾﴾.

ذكر البغوي أن أزواج النبيّ ﷺ قلن يا رسول الله ذكر الله الرجال في القرآن ولم يذكر النساء بخير فما فينا خير نذكر به إنا نخاف أن لا يقبل منا طاعة الله فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ﴾ الآية، وروى الطبراني وابن مردويه عن ابن عباس نحوه، وأخرج ابن سعد عن قتادة نحوه، وأخرج الطبراني بسند لا بأس به عن ابن عباس قال قال النساء يا رسول الله ما باله يذكر المؤمنين ولا يذكر المؤمنات فنزلت، ورواه ابن جرير من حديث قتادة مرسلاً وأخرج الترمذي وحسنه عن أم عمارة الأنصارية أنها أتت النبيّ ﷺ فقالت ما أرى كل شيء إلا للرجال ومانرى النساء يذكرن بشيء فنزلت، وذكر البغوي أنه قال مقاتل قالت أم سلمة بنت أبي أمية وآيسة بنت الكعب الأنصارية للنبيّ ﷺ ما بال ربنا يذكر الرجال ولا يذكر النساء في شيء من كتابه نخشى أن لا يكون فيهن خيراً فنزلت هذه الآية، ورزي أن أسماء بنت عميس رجعت من الحبشة مع زوجها جعفر بن أبي طالب فخلت على نساء النبيّ ﷺ فقالت: هل نزل فينا شيء من القرآن قلن لا فأتت النبيّ ﷺ فقالت يا رسول الله إن النساء في خيبة وخسارة قال ومم ذلك قالت إنهن لا يذكرن بخيركما يذكر الرجال فأنزل الله تعالى هذه الآية ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ﴾ أي المنقادين لحكم الله ورسوله المفوضين أمورهم إلى الله المتوكلين عليه من الرجال والنساء ﴿وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ المصدقين بما جاء به رسول الله ﷺ الذين أمن الناس من يوابقهم من الرجال والنساء ﴿وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ﴾ المداومين على الطاعة من الفريقين ﴿وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ﴾ في القول والعمل أعني عاملين أعمالاً يصدق من يثني عليها ﴿وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ﴾ في المصائب وعلى الطاعات وعن المعاصي واتباع الشهوات ﴿وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ﴾ المتواضعين غير متكبرين من الرجال والنساء ﴿وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ﴾ مما رزقهم الله إبتغاء مرضاة الله ﴿وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ﴾ فرضاً ونفلاً ﴿وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ﴾ فروجهن عما لا يحل ﴿وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ﴾ الله تعالى بقلوبهم وألسنتهم.

قال البغوي قال مجاهد لا يكون العبد من الذّاكرين الله كثيراً حتى يذكر الله قائماً وقاعداً ومضطجعاً يعني لا يفتر ذكرهم في حين من الأحيان، قلتُ وذلك لا يتصور إلا بعد فناء القلب واستغراق القلب في الذكر وحصول الحضور الدائم قال رسول الله ﷺ: «سبق المفردون، قالوا وما المفردون يا رسول الله؟ قال: الذاكرون الله كثيراً والذاكرات»[(١)] رواه مسلم من حديث أبي هريرة، وقال رسول الله ﷺ: «ما من شيء أنجى من عذاب الله من ذكر الله، قالوا ولا الجهاد في سبيل الله، قال ولا الجهاد في سبيل الله إلا أن يضرب بسيفه حتى ينقطع» رواه البيهقي في الدعوات الكبير من حديث عبد الله بن عمر، وعن أبي سعيد أن رسول الله ﷺ سئل أي العباد أفضل وأرفع درجةً عند الله يوم القيامة؟ قال الذاكرون الله كثيراً والذاكرات، قيل يا رسول الله ومن الغازي في سبيل الله؟ قال لو ضرب بسيفه في الكفار والمشركين حتى ينكسر ويختضب دماً فإن الذاكر لله أفضل منه درجة»[(٢)] رواه أحمد والترمذي وقال هذا حديث غريب، وعن مالك قال بلغني أن رسول الله ﷺ كان يقول: «ذاكر الله في الغافلين كالمقاتل خلف الفارّين وذاكر الله في الغافلين كغصن شجر أخضر في شجر يابس وذاكر الله في الغافلين مثل مصباح في بيت مظلم وذاكر الله في الغافلين يريه الله مقعده من الجنة وهو حيٌّ وذاكر الله في الغافلين يغفر له بعدد كل فصيح وأعجم والفصيح بنوا آدم والأعجم بهائم» رواه رزين.

قال البغوي: قال عطاء بن أبي رباح من فوض أمره إلى الله فهو داخل في قوله: إن المسلمين والمسلمات ومن أقر بأن الله ربه ومحمداً رسوله ولم يخالف قلبه لسانه فهو داخل في قوله والمؤمنين والمؤمنات ومن أطاع الله في الفرائض والرسول في السنة فهو داخل في قوله ﴿وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ﴾ ومن صان قوله عن الكذب فهو داخل في قوله ﴿وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ﴾ ومن صبر على الطاعة وخاف من المعصية وصبر على الرزية فهو داخل في قوله: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ﴾ ومن صلّى ولم يعرف من عن يمينه وعن يساره فهو داخل في قوله: ﴿والخاشعين والخاشعات﴾ ومن تصدق في كل أسبوع بدرهم فهو داخل في قوله: ﴿وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ﴾ ومن صام في كل شهر أيام البيض (الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر) فهو داخل في قوله: ﴿وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ﴾ ومن حفظ فرجه عما لا يحل له فهو داخل في قوله: ﴿وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ﴾ ومن صلى الصلوات الخمس

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الذكر والدعاء والتوبة، باب: الحث على ذكر الله تعالى (٢٦٧٦).
(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: الدعوات باب: في العفو والعافية (٣٥٩٦).

فهو داخل في قوله: ﴿وَالذَّٰكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّٰكِرَٰتِ﴾ قال البيضاوي عطف الإناث على الذكور ضروري لاختلاف الجنسين وعطف الزوجين على الزوجين لتغاير الوصفين ليس بضروري ولذلك ترك في قوله تعالى: مسلمات مؤمنات قانتات الخ، وفائدتُه الدلالة على أن الأعداد والموعود لهم للجمع بين هذه الصفات ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً﴾ لما صدر منهم من الذنوب ﴿وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ على طاعتهم والله أعلم.

أخرج الطبراني بسند صحيح عن قتادة قال خطب النبيّ ﷺ زينب بنت جحش وهو يريد لزيد بن الحارثة فظنت أنه يريدها لنفسه فلمّا علمت أنه يريدها لزيد أبت فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ﴾ الآية فرضيت وسلمت، قال البغوي كان رسول الله ﷺ إشترى زيداً في الجاهلية بعكاظ فأعتقه وتبناه فلمّا خطب رسول الله ﷺ رضيت وظنت أنه يخطبها لنفسه فلما علمت أنه يخطبها لزيد أبت وكرهت وكذلك أخوها عبد الله بن جحش كره ذلك (وكانت أم زينب وأخيها أميمة بنت عبد المطلب عمة رسول الله ﷺ) وأخرج ابن جرير من طريق عكرمة ومثله من طريق العوفي عن ابن عباس، قال خطب رسول الله ﷺ زينبَ بنت جحش لزيد بن حارثة فاستنكفت منه وقالت أنا خير منه حسباً فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ﴾ يعني عبد الله بن جحش ﴿وَلَا مُؤْمِنَةٍ﴾ يعني زينب بنت جحش يعني لا يجوز لأحد ﴿إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا﴾ يعني آمراً أمراً على وجه التحتم ﴿أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ يعني أن يختاروا من أمرهم ما شاءوا بل يجب عليهم ما أمرهم الله به وأن يجعلوا اختيارهم تبعاً لاختيار الله ورسوله، وجمع الضمير الأول لعموم مؤمن ومؤمنة لوقوعهما نكرتين في حيز النفي وجمع الثاني للتعظيم قرأ الكوفيون وهشام يَكُوْنَ بالياء التحانية لأجل الفصل بين الفعل وفاعله والباقون بالتاء الفوقانية لأجل التأنيث، والخيرة والخيار بمعنى واحد وهذه الآية دليل على أن مطلق الأمر للوجوب ويستفاد من هاهنا أن العالم ومن له فضل من حيث الدين كفؤ للعلوي وغيره من الشرفاء، وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد قال نزلت الآية في أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط وكانت أول من هاجرت من النساء فوهبت نفسها للنبي ﷺ فزوّجها زيد بن حارثة فسخطت هي وأخوها وقالا إنما أردنا رسول الله ﷺ فزوّجنا غيره فنزلت ﴿وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ بين الإنحراف عن الصواب فإن كان عصيان رَدّ وإنكار فهو ضَلالُ كفرو إن كان عصيان فعل مع قبول الأمر واعتقاد الوجوب فضلالُ فسقٍ جملة فَقَدْ ضَلَّ تعليل لجزاء الشرط المحذوف تقديره يهلك فَقَدْ ضَلَّ.

قال البغوي: فلما نزلت هذه الآية وسمعت زينب بنت جحش وأخوها رضيا بذلك

وسلما وجعلت أمرها بيد رسول الله ﷺ وكذلك أخوها فأنكحها رسول الله ﷺ زيداً فدخل بها وساق رسول الله ﷺ عليها عشرة دنانير وستين درهماً وخماراً ودرعاً وإزاراً وملحفة وخمسين مداً من طعام وثلاثين صاعاً من تمر، ومكثت عنده حيناً ثم أن رسول الله ﷺ أتى ذات يوم كحاجة فأبصر زينب قائمة في درع وخمار وكانت بيضاء جميلة ذات خلق من أتم نساء قريش فوقعت في نفسه وأعجبه حسنها فقال سبحان الله مقلب القلوب فانصرف فلمَّا جاء زيد ذكرت له ذلك ففطن زيد فألقى في نفسه كراهتها في الوقت وأتى رسول الله ﷺ فقال: إني أريد أن أفارق صاحبتي فقال مالك أرأيت منها شيئاً قال لا والله يا رسول الله ما رأيتُ منها إلا خيراً ولكنَّها تتعظَّم عليّ لشرفها وتؤذيني بلسانها فقال النبيّ ﷺ: «أمسك عليك زوجك وأتق الله» في أمرها كذلك روى ابن جرير عن أبي زيد فأنزل الله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ﴾ إذ تقول يا محمد الآية، وأخرج الحاكم عن أنس قال: جاء زيد بن حارثة يشكوا إلى رسول الله ﷺ من زينب بنت جحش فقال النبيّ ﷺ «أمسك عليك أهلك» فنزلت وإذ تقول ﴿لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ﴾ أي هداه للإسلام ورزقه مصاحبتك وألقى في قلبك محبته والرحمة عليه ﴿وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾ بالإنفاق والإعتاق وهو زيد بن حارثة رضي الله عنه ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾ يعني زينب بنت جحش ﴿وَٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ في أمرها فلا تطلقها فإن الطلاق من أبغض المباحات ﴿وتخفي في نفسك ما الله مبديه﴾ قوله أمسك مقولة تقول وجملة تخفي معطوف على قوله تقول يعني وكنت تسرُّ في نفسك ما الله مظهره، أخرج البخاري عن انس أن هذه الآية نزلت في شأن زينب بنت جحش وزيد بن حارثة، قال الحسن أعجبه قول زيد وأخفى رسول الله ﷺ ذلك في نفسه حياء وكرماً وقيل وقع في قلبه أنه لو فارقها زيد تزوجها، وقال ابن عباس حبها، وقال قتادة ودَّ أنه طلقها.

وقال البغوي: روى سفيان بن عيينة عن علي بن زيد بن جدعان قال: سألني علي ابن الحسين زين العابدين عليهما السلام ما يقول الحسن في قوله عزّ وجلّ ﴿وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ قلتُ يقول لما جاء زيد إلى النبيّ ﷺ فقال يا نبي الله إني أريد أن أفارق زينب أعجبه ذلك فقال: «أمسك عليك زوجك واتق الله» قال علي بن الحسين ليس كذلك كان الله تعالى قد أعلمه أنها ستكون من أزواجه وأن زيداً سيطلقها، فلما جاء زيد وقال إني أريد أن أطلقها قال أمسك عليك زوجك فعاتبه الله وقال لم قلت أمسك عليك زوجك وقد أعلمناك أنها ستكون من أزواجك، وهذا هو الأولى والأليق بحال الأنبياء وهو مطابق للتلاوة لأن الله تعالى أعلم أن يبدىء ويظهر ما أخفاه ولم يظهر الله غير تزويجها منه فقال: (زَوَّجْنَاكَهَا) فلو كان الذي أضمره رسول الله ﷺ

محبتها أو إرادة طلاقها لكان يظهر ذلك وإنما أخفى رسول الله ﷺ إستحياء أن يقول لزيد التي تحتك وفي نكاحك ستكون امرأتي، قال البغوي وهذا قول مرضي حسن وإن كان القول الآخر وهو أنه أخفى محبتها أو نكاحها لو طلقها زيد لا يقدح في حال الأنبياء لأن العبد غير ملوم على ما يقع في قلبه فإن مثل هذه الأشياء ما لم يقصد لا إثم فيه لأن الود وميل النفس من طبع البشر، وقوله أمسك عليك زوجك واتق الله أمر بالمعروف وهو حسنة لا إثم فيه، قلتُ بل هو أعظم أجراً فإنه أمر بالمعروف على خلاف طبعه قال الله تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[(١)] وما قال الحسن يؤيده قوله لله حين رأى زينب سبحان الله مقلب القلوب فإنها تدل على أنه تعالى قلّب قلب النبيّ ﷺ إلى أن يتزوجها بعدما كان في قلبه أن يتزوجها زيداً ﴿وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ﴾ عطف علي تُخْفِى يعني تخاف لائمة الناس أن يقولوا أمر رجلاً أن يطلق إمرأته ﴿وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ الجملة حال من فاعل تخشى، قال عمر وابن مسعود وعائشة رضي الله عنهم ما نزلت على رسول الله ﷺ آية هي أشد من هذه الآية، وروي عن مسروق قال قالت عائشة لو كتم النبيّ ﷺ شيئاً مما أوحى إليه لكتم (وتخفي في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه) قال البغوي لم يرد الله بهذه الآية، أنه ﷺ لم يكن يخشى الله فإنه ﷺ قال: «إني أخشاكم وأتقاكم» قلتُ وقد قال الله تعالى في شأن الأنبياء كلهم ﴿يخشونه ولا يخشون أحداً إلا الله﴾[(٢)] ولكنه لما ذكر الخشية من الناس ذكر أن الله أحق بالخشية في عموم الأحوال وفي جميع الأشياء قلتُ فمعنى الآية أنك تخشى لائمة الناس وتخشى الله أشد خشية من خشية الناس فإن الله أحق أن تخشاه فمن أجل خشية الناس والحياء منهم أخفيتَ ما أضمرتَ ومن أجل خشية الله أمرتَ بالمعروف ولم تترك شيئاً مما أمرك الله به ولا منافاة بينهما ومعنى قوله تعالى: ﴿لا يخشون أحداً إلا الله﴾ أنهم لا يخشون أحداً فيما يفضي خشيتهم ترك امتثال أمر الله تعالى وأما خشية الناس حياءً فيما عدا ذلك فحسن «فإن الحياء من الإيمان» متفق عليه مرفوعاً من حديث ابن عمر، وفي الصحيحين عن عمران بن حصين قوله ﷺ «الحياء خير كله»[(٣)] وعن ابن عمر عن النبيّ ﷺ «إن الحياء والإيمان قرنا جميعاً فإذا رفع أحدهما رفع الآخر» وفي

(١) سورة الحشر، الآية: ٩.

(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٣٩.

(٣) أخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: بيان عدد شعب الإيمان أفضلها وأدناها وفضيلة الحياء وكونه من الإيمان (٣٧).

رواية ابن عباس «فإذا سلب أحدهما تبعه الآخر» رواه البيهقي في شعب الإيمان، وروى مالك عن زيد بن طلحة مرسلاً وابن ماجه والبيهقي في شعب الإيمان عن أنس وابن عباس أنه قال رسول الله ﷺ: «إن لكل دين خُلقاً وخُلق الإسلام الحياء»[(١)] والله أعلم.

وأخرج مسلم وأحمد والنسائي وأبو يعلى وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه وذكره البغوي وهذا لفظ البغوي عن أنس أنه قال لمَّا انقضت عدة زينب قال رسول الله ﷺ لزيد «إذهب فاذكرها عليَّ» فأنطلق زيد حتى أتاها وهي تخمّر عجينها، قال زيد فلمَّا رأيتُها عظمت في صدري حتى ما أستطيع أن انظر إليها حين علمتُ أن رسول الله ﷺ ذكرها فوليتُها ظهري ونكصتُ على عقبى، فقلتُ يا زينب أرسلني رسول الله ﷺ يذكرك قالت ما أنا بصانعة حتى أُوامر ربي فقامت إلى مسجدها ونزل القرآن ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا﴾ الآية وجاء رسول الله ﷺ ودخل عليها بغير إذن فقال لقد رأيتنا أن رسول الله ﷺ أطعمنا الخبز واللحم حتى امتد النهار فخرج الناس وبقي رجلان يتحدثون في البيت بعد الطعام، فخرج رسول الله ﷺ فاتبعته فجعل يتبع حجر نسائه يسلم عليهن ويسلمن عليه ويقلن يا رسول الله كيف وجدتَ أهلك؟ فقال ما أدري أنا أخبرتُ أن القوم قد خرجوا أو أخبروني فانطلق حتى دخل البيت قال أنس فذهبتُ أدخل معه فألقى الستر بيني وبينه ونزل الحجاب، قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا﴾ أي من أهله وهي زينب بنت جحش ﴿وطراً﴾ أي حاجة بحيث ملَّهَا ولم يبق له فيها حاجة وطلقها وانقضت عدتها، قيل قضاء الوطر كناية عن الطلاق ﴿زَوَّجْنَٰكَهَا﴾ أي جعلناها زوجتك روى البخاري وأحمد والترمذي والحاكم وابن مردويه وعبد بن حميد والبيهقي في سننه عن أنس أنه قال: «كانت زينب تفخر على أزواج النبيّ ﷺ وتقول زوجكن أهاليكن وزوجني الله من فوق سبع سماوات»[(٢)] وفي لفظ إن الله تولّى نكاحي وأنتُنَّ زوجكن أولياؤكن، قال البغوي قال الشعبي كانت زينب تقول للنبي ﷺ إني لأدل عليك بثلاث ما من نسائك امرأة تدل بهن جدي وجدك واحد وإني أنكحنيك الله في السماء وإن السفير لجبرئيل عليه السّلام، وعن أنس قال: «ما أولم النبي ما أولم بزينب أولم بشاة»[(٣)] وعن أنس قال: أولم رسول الله ﷺ

---

(١) أخرجه ابن ماجه في كتاب: الزهد، باب: الحياء (٤١٨١) وفيه ضعف.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: التوحيد، باب: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ (٧٤٢٠)، وأخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة الأحزاب (٣٢١٢).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: النكاح، باب: الوليمة ولو بشاة (٥١٦٨)، وأخرجه أبو داود في كتاب: الأطعمة، باب: في استحباب الوليمة للنكاح (٣٧٣٨).

حين ابتنى بزينب بنت جحش فأشبع المسلمين خبزاً ولحماً ﴿لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ﴾ أي ضيق بالتحريم ﴿فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ﴾ جمع دعيّ وهو المتبني يعني زوجناك زينب امرأة زيد الذي تبنيته ليعلم أن زوجة المتبنى حلال، وإن كان قد دخل بها المتبني بخلاف امرأة ابن الصلب فإنها لا تحل للأب، وفيه دليل على أن حكم الرسول وحكم الأمة واحد ما لم يقم دليل على تخصيص الحكم بالنبي ﷺ ﴿إِذَا قَضَوْا﴾ أي الأدعياء ﴿مِنْهُنَّ﴾ أي من أزواجهم ﴿وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ أي قضاؤه ﴿مَفْعُولًا﴾ مكوناً لا محالة كما كان تزويج زينب.

﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا ﴿٣٨﴾ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾﴾.

﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ﴾ متعلق بمضمون من حرج لا من لفظه لأن معمول المجرور لا يتقدم على الجار ﴿مِنْ حَرَجٍ﴾ أي ضيق من زائدة وحرج اسم كان ﴿فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ﴾ أي فيما قسم له وقدر له من عدد النساء من قولهم فرض له في الديوان ومنه فروض العسكر لأرزاقهم، وقيل معنا فيما أحل له ﴿سُنَّةَ اللَّهِ﴾ مصدر لفعل محذوف أي سن الله سنَّة، أو منصوب بنزع الخافض أي كسنَّة الله أو على الإغراء أي التزموا سنة الله ﴿فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ﴾ من الأنبياء الماضين قال الكلبي أراد داود عليه السَّلام حيث جمع بينه وبين المرأة التي هواها فكذلك جمع بين محمد ﷺ وزينب، وقيل أشار بالسنّة إلى النكاح فإنه سنَّة الأنبياء وقيل أشار إلى كثرة الأزواج مثل داود وسليمان عليه السَّلام ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾ أي قضاءً ماضياً لا محالة ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ﴾ صفة للذين خلوا من قبل أو مدح لهم منصوب أو مرفوع ﴿وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ﴾ كما أنت تخشى الله ولا

تخشى غيره فيما أمرك الله به ونهاك عنه ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾ كافياً للمخاوف أو محاسباً فينبغي أن لا يخشى إلا منه.

أخرج الترمذي عن عائشة أنها قالت لما تزوج النبيّ ﷺ زينب قال الناس تزوج حليلة إبنه فأنزل الله تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾[(١)] يعني ليس محمد ﷺ أباً لزيد ابن حارثة فيحرم عليه نكاح زوجته، فإن قيل كان له أبناء القاسم والطيب والطاهر وإبراهيم وكذلك الحسن والحسين فإن رسول الله ﷺ قال للحسن إن ابني هذا سيد؟ قلنا إن أبناء الرسول ﷺ ماتوا صغاراً لم يبلغوا مبلغ الرجال وإطلاق الابن على الحسنين عليهما السلام على التجوز ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ﴾ وكل رسول أب لأمته لكن لا من حيث النسب حتى يحرم عليه ما يحرم بالنسب بل من حيث الشفقة والنصيحة ﴿وَخَاتَمَ﴾ قرأ عاصم بفتح التاء على الاسم بمعنى الآخر والباقون بكسر التاء على وزن فاعل، يعني الذي ختم ﴿ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ حتى لا يكون بعده نبي، قال ابن عباس يريد الله سبحانه أنه لو لم يكن أختم له النبين لجعلتُ ابنه بعده نبيّاً، وروى عطاء عن ابن عباس أن الله تعالى لما حكم أن لا نبي بعده لم يعطه ولداً ذكراً يعني رجلاً، أخرج ابن ماجه من حديث ابن عباس أنه ﷺ قال في إبراهيم حين توفي لو عاش لكان نبيّاً، ولا يقدح فيه نزول عيسى بعده لأنه إذا ينزل يكون على شريعته مع أن عيسى عليه السّلام صار نبيّاً قبل محمد ﷺ وقد ختم الله سبحانه الاستنباء بمحمد ﷺ وبقاء نبي سابق لا ينافي ختم النبوة ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ فيعلم من يليق به ختم النبوة وكيف ينبغي شأنه، عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «مثلي ومثل الأنبياء كمثل قصر أحسن بنيانه وترك منه موضع لبنة فطاف به النظار يتعجبون من حسن بنيانه إلا موضع تلك اللبنة فكنت أنا سددتُ موضع اللبنة ختم بي البنيان وختم بي الرسل» وفي رواية «فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين»[(٢)] متفق عليه، وعن جبير بن مطعم رضي الله عنه قال سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إن لي أسماء أنا محمد وأنا أحمد وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي وأنا العاقب الذي ليس بعده نبي»[(٣)] متفق عليه، وعن أبي موسى الأشعري قال:

---

(١) أخرجه الترمذي، في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة الأحزاب: (٣٢٠٧).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: المناقب، باب: خاتم النبيين ﷺ (٣٥٣٤)، وأخرجه مسلم في كتاب الفضائل، باب: ذكر كونه ﷺ خاتم النبيين (٢٢٨٦).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: المناقب، باب: ما جاء في أسماء رسول الله ﷺ (٣٥٣٢)، وأخرجه مسلم في كتاب: الفضائل، باب: في أسمائه ﷺ (٢٣٥٤).

«كان رسول الله ﷺ يسمى لنا نفسه أسماء فقال أنا محمد وأحمد والمقفي والحاشر ونبي التوبة ونبي الرحمة»(١) رواه مسلم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾﴾ قال ابن عباس لم يفرض الله على عباده فريضة إلا جعل لها حداً معلوماً ثم عذر أهلها في حال العذر غير الذكر فإنه لم يجعل له حداً ينتهي إليه ولم يعذر أحداً في تركه إلا مغلوباً على عقله فأمر به في الأحوال كلها فقال: ﴿فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾(٢) وقال: ﴿ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ بالليل والنهار في البر والبحر والصحة والسقم في السر والعلانية، وقال مجاهد الذكر الكثير أن لا ينساه أبداً، قلتُ وهذا لا يتصور إلا بعد فناء القاب ودوام الحضور ﴿وَسَبِّحُوهُ﴾ أي صلوا له ﴿بُكْرَةً﴾ يعني صلاة الصبح ﴿وَأَصِيلًا﴾ قال الكلبي يعني صلاة الظهر والعصر والعشائين، وقال مجاهد يعني قولوا سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العليّ العظيم فعبر بالتسبيح عن أخواته، وقيل المراد بالذكر الكثير هذه الكلمات يقولها الطاهر والمحدث والجنب، قلتُ أمر الله سبحانه أولاً بتعميم الذكر أبداً بحيث لا ينساه، ثم خصه بأوقات مخصوصة فالمراد بالأول هو الذكر الخفي والحضور الدائم وبالثاني الذكر الجلي والعبادات الراتبة من الفرائض والسنن، وقيل خص أوّل النهار وآخره بالذكر لأن ملائكة الليل والنهار يجتمعون فيها، عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ويجتمعون في صلاة الفجر وصلاة العصر ثم يعرج الذين باتوا فيكم فيسألهم ربهم (وهو أعلم بهم) كيف تركتم عبادي فيقولون تركناهم وهم يصلون وأتيناهم وهم يصلون»(٣) متفق عليه وقيل: بكره وأصيلاً يعني أدوا الصلوات وسائر العبادات ذاكر الله حاضرين غير غافلين، عن أبي ذر قال قال رسول الله ﷺ: «لا يزال الله عزّ وجلّ مقبلاً على العبد وهو في صلاته ما لم يلتفت وإذا التفت انصرف عنه»(٤) رواه أحمد وأبو داود والنسائي والدارمي، قال البغوي قال أنس لما

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الفضائل، باب: في أسمائه ﷺ (٢٣٥٥).

(٢) سورة النساء، الآية: ١٠٣.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: مواقيت الصلاة، باب: فضل صلاة العسر (٥٥٥)، وأخرجه مسلم في كتاب: المساجد ومواضع الصلاة، باب: فضل صلاتي الصبح والعصر (٦٣٢).

(٤) أخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب: الالتفات في الصلاة (٩٠٨)، وأخرجه النسائي في كتاب: السهو، باب: التشديد في الالتفات في الصلاة (١١٨٩).

نزلت ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ﴾ قال أبو بكر ما خصك الله بشرف إلا وقد أشركنا فيه فأنزل الله تعالى ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ﴾ وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد نحوه، قال البغوي الصلاة من الله رحمة ومن الملائكة إستغفار وقيل الصلاة من الله على العبد إشاعة الذكر الجميل له في العباد وقيل الثناء عليه، وفي القاموس الصلاة الدّعاءُ والرحمة والإستِغفار وحسنُ الثناء من الله تعالى على رسوله وعبادةٌ فيها ركوعٌ وسجودٌ، وهذه العبارة تقتضي كونها لفظاً مشتركاً فمن أجاز إستعمال اللفظ المشترك في الأكثر من معنى واحد أجاز أن يكون معناه أن الله يرحم عليكم وملائكته يستغفرونه لكم، وأما عند الجمهور فلا يجوز عموم المشترك فيقال المراد بالصلاة هاهنا المعنى المجازي المشترك بين المعنيين الحقيقيين وهو العناية لصلاح أمركم وظهور تشرفكم ويسمى عموم المجاز، وقال كثير من أهل اللغة الصلاة هو الدعاء يقال صليتُ عليه أي دعوتُ له قال عليه السَّلام «إذا دعي أحدكم إلى طعام فليجب إن كان صائماً فليصل»[١] أي ليدع لأهله وقال الله تعالى: ﴿صل عليهم إن صلاتك سكن لهم﴾[٢] وإنما سميت الأركان المخصوصة صلاة لاشتمالها على الدعاء وهو قوله: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾ تسمية الكل باسم الجزء والصلاة من الله تعالى على عباده أن يطلب من نفسه لأجل عباده الرحمة والمغفرة ويناسب الطلب من نفسه الإيجاب من نفسه على نفسه المستفاد من قوله تعالى: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَۚ﴾[٣] فإن الإيجاب والطلب بمعنى واحد فإن الطلب حتماً هو الإيجاب والمراد بالإيجاب الإلتزام تفضلاً وإذا أريد بالصلاة هاهنا الدعاء لا يلزم عموم المشترك، قال البغوي قال النبيّ ﷺ قالت بنوا إسرائيل لموسى أيصلي ربنا فكبر هذا الكلام على موسى فأوحى الله إليه أن قل لهم إني أصلي وإن صلاتي رحمتي وسعت كل شيء ﴿لِيُخْرِجَكُم﴾ يعني أنه برحمته ودعاء الملائكة يديم إخراجكم ﴿مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ أي ظلمات الكفر والمعاصي ﴿إِلَى ٱلنُّورِۚ﴾ أي نور الإيمان والطاعة ويمكن أن يقال ليخرجكم ساعة بعد ساعة أبداً من ظلمات البعد إلى نور القرب ومن استوى يوماه فهو مغبون ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ حيث اعتنى بصلاح أمرهم وإعلاء قدرهم واستعمل في دعائهم الملائكة المقربين الجملة معطوفة على الصلة أي الَّذي يصلي عليكم والذي كان بالمؤمنين رحيماً ﴿تَحِيَّتُهُمْ﴾ أي تحية المؤمنين منه تعالى أضيف المصدر إلى المفعول، أي يحيون

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب: النكاح، باب: الأمر بإجابة الداعي إلى دعوة (١٤٣١).
(٢) سورة التوبة، الآية: ١٠٣.
(٣) سورة الأنعام، الآية: ٥٤.

منه تعالى ﴿يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ﴾ يعني يوم لقائهم إياه سبحانه يعني عند الموت أو الخروج من القبر أو دخول الجنة أو عند رؤية الله سبحانه ﴿سَلَٰمٌ﴾ أي يسلم الله عليهم تحية ويسلمهم الله من جميع المكاره، قال البغوي روي عن البراء بن عازب قال: «تحيتهم يوم يلقونه يعني يوم يلقون ملك الموت سلامٌ أي لا يقبض روح مسلم إلا سلم عليه» وعن ابن مسعود قال إذا جاء ملك الموت لقبض روح المؤمن قال ربك يقرئك السلام وقيل يسلم عليهم الملائكة ويبشرهم حين أخرجوا من قبورهم ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾ يعني الجنة ورؤية الله ورضوانه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا﴾ على أمتك، أخرج ابن المبارك عن سعيد ابن المسيب قال ليس من يوم إلا ويعرض على النبي ﷺ أمته غدوةً وعشيةً فيعرفهم بسيماهم ولذلك يشهد عليهم أو شاهداً لأمتك مصدقاً لهم حين يشهدون للرسل على الأمم بالتبليغ أخرج البخاري والترمذي والنسائي وابن ماجه عن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله ﷺ: «يدعى نوح يوم القيامة فيقال له هل بلَّغت فيقول نعم فيدعى أمته فيقال لهم هل بلغكم فيقولون ما أتانا من نذير ما أتانا أحد فيقال من يشهد لك فيقول محمد وأمته الحديث»[1] وفي الباب أحاديث كثيرة فهو حال مقدرة كقولك مررتُ برجل معه صقر صائداً به غداً ﴿وَمُبَشِّرًا﴾ بالجنة من آمن بالرسل ﴿وَنَذِيرًا﴾ بالنار لمن كذب الرسل ﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي إلى توحيده وطاعته أو إلى جنته أو لقائه الغير المتكيفة ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾ أي بأمره وتيسيره قيد به الدعوة إيذاناً بأنه أمر صعب لا يتاتى إلا بمعونة من جناب قدسه خصوصاً الدعوة إلى لقائه، فإن إيصال العبد إليه تعالى أمر لا يمكن إلا بفضله قال الله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾[2] إلى صراط مستقيم، عن ربيعة الجرشي قال: «أتى النبيّ ﷺ فقيل له لتنم عيناك ولتسمع أذنك ولتعقل قلبك قال فنامت عيني وسمعت أذناي وعقل قلبي، قال فقيل لي سيد بني داراً وصنع مأدبة وأرسل داعياً فمن أجاب الداعيدخل الدار وأكل من المأدبة ورضي عنه السيد ومن لم يجب الداعي لم يدخل الدار ولم يأكل من المأدبة وسخط عليه السيد قال فالله السيد ومحمد الداعي والدار الإسلام والمأدبة الجنة»[3] رواه الدارمي، ﴿وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ سماه

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، باب: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ (٤٤٨٧)، وأخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة البقرة (٢٩٦١)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب: الزهد، باب: صفة أمة محمد ﷺ (٤٢٨٤).

(٢) سورة القصص، الآية: ٥٦.

(٣) أخرجه الدارمي في المقدمة، باب: صفة النبي ﷺ في الكتب قبل مبعثه (٧).

سراجاً لأنه يستضاء به ويهتدى به كالسراج يستضاء به ويهتدي به في ظلمة الليل يعني أنه ﷺ كان بلسانه داعياً إلى الله وبقلبه وقالبه كان مثل السراج يتلون المؤمنون بألوانه ويتنورون بأنواره كالعالم يتنور بنور الشمس والبيت بالسراج، ولأجل ذلك إختصت الصحابة رضي الله عنهم بمزيد الفضل على الناس فإن علومه التي تلقتها الأمة من لسانه لم يتفاوت فيه الناس من الصحابة وغيرهم بل رب مبلغ أوعى من سامع، وأما التنوُّرُ بأنواره فإنه وإن كان حاصلاً للناس بتوسط أصحابه وأصحاب أصحابه إلى يوم القيامة لكن ليس النائب فيه كالشاهد بل مَثَلُه كمثل بيت تنوَّرَ بنور الساحة التي تنوَّرت بنور الشمس لأجل مقابلتها وأين هذا من ذلك والله أعلم، عن عطاء بن يسار قال لقيتُ عبد الله بن عمرو بن العاص قلتُ أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة قال أجل والله إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾﴾ وحرزاً للأميين أنت عبدي ورسولي سميتُك المتوكل ليس بفظ ولا غليظ ولا سخاب في الأسواق ولا يدفع بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويغفر لن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا لا إله إلا الله ويفتح به أعيناً عمياء وآذاناً صماء وقلوباً غلفاً»[١] رواه البخاري وكذا الدارمي عن عطاء بن سلام نحوه والله أعلم.

أخرج البيهقي في دلائل النبوة عن الربيع بن أنس أنه قال لما نزلت ﴿ما أدري ما يفعل بي ولا بكم﴾ ثم نزل بعدها ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ قال رجال من المؤمنين هنيئاً لك يا رسول الله قد علمنا ما يفعل بك فماذا يفعل بنا فنزلت ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾﴾ وكذا أخرج ابن جرير عن عكرمة والحسن وقال أنس الفضل الكبير الجنة والجملة معطوفة على إنّا ارسلناك ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ﴾ فيما يخالف شريعتك تحريض له على ما هو عليه من مخالفتهم ﴿وَدَعْ أَذَىٰهُمْ﴾ قال ابن عباس وقتادة، يعني اصبر على إيذائهم إياك فالمصدر مضاف إلى الفاعل والمعنى إجعل إيذائهم إياك في جانب ولا تبال به ولا تخف منه وقال الزجاج يعني لا تجادلهم ولا تتصد على أذاهم يعني لا تؤذهم فالمصدر مضاف إلى المفعول وعلى هذا قيل أنه منسوخ ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ فإنه يكفيك ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ يعني إذا جعلت الله موكولاً إليه أمورك فهو يكفيك لا يدع حاجة لك إلى غيره، قال البيضاوي، وصف الله نبيه ﷺ بخمس صفات وقابل كلاً منها بخطاب يناسبه فحذف مقابل الشاهد وهو الأمر بالمراقبة لأن ما بعده

(١) أخرجه البخاري في كتاب: البيوع، باب: كراهية السخب في السوق (٢١٢٥).

كالتفصيل له وقابل المبشر بالأمر ببشارة المؤمنين والنذير بالنهي عن مراقبة الكفار والمبالاة بأذاهم والداعي إلى الله بتيسيره بالأمر بالتوكل عليه والسراج المنير بالإكتفاء به فإنه من أناره برهاناً على جميع خلقه كان حقيقاً أن يكتفى به عن غيره.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٤٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّٰتِىٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِى هَاجَرْنَ مَعَكَ وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِىِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِىُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۗ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِىٓ أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٠﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ خص المؤمنات بالذكر مع أن نكاح المؤمنين بالكتابيات أيضاً جائز وحكمهن في الطلاق قبل الدخول مثل حكم المؤمنات إيماءً إلى أن اللائق بالمؤمنين أن ينكح المؤمنة دون الكتابية، ﴿ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ﴾ قال البغوي فيه دليل على أن الطلاق قبل النكاح غير واقع لأن الله رتب الطلاق على النكاح حتى لو قال لامرأة أجنبية إذا انكحتُكِ فأنتِ طالق أو قال كل امرأة أنكحها فهي طالق فنكحها لا يقع الطلاق، وهو قول علي وابن عباس ومعاذ وجابر وعائشة رضي الله عنهم وبه قال سعيد بن المسيبَ وسعيد ابن جبير وعروة والقاسم وطاووس والحسن وعكرمة وعطاء وسليمان بن يسار ومجاهد والشعبي وقتادة وأكثر أهل العلم، وبه قال الشافعي وكذا قولهم في الإعتاق المعلق بالملك، وروي عن ابن مسعود أنه يقع الطلاق وهو قول إبراهيم النخعي وأصحاب الرأي أعني أبا حنيفة وأصحابه وقال ربيعة والأوزاعي ومالك إن عين امرأة يقع وإن عمم امرأة لا يقع، وروي عن عكرمة عن ابن عباس أنه قال كذبوا على ابن مسعود، وإن كان قالها فزلة من عالم وإن قال في الرجل إن تزوجتُ فلانة فهي طالق يقول الله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ﴾ ولم يقل إذا طلقتموهن ثم نكحتموهن، واستدل البغوي بحديث جابر قال قال رسول الله ﷺ: «لا طلاق قبل النكاح».

قلتُ: أخرجه الحاكم في المستدرك وصححه وقال أنا متعجب من الشيخين كيف

أهملاه وهو على شرطهما، وقال أحمد إن علق طلاق الأجنبية بالنكاح ينعقد وإنعلق العتاق بالملك فعن أحمد فيه روايتان، وقال مالك إن خص بلداً أو قبيلة أو صنفاً أو امرأة وعلق طلاقها بالنكاح ينعقد وأحتج ابن الجوزي لمذهب أحمد بستة أحاديث.

أحدها: حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن النبيّ ﷺ «ليس على رجل طلاق فيما لا يملك ولا عتاق فيما لا يملك ولا بيع فيما لا يملك»(١) رواه ابن الجوزي من طريق أحمد ورواه أصحاب السنن وقال الترمذي هو أحسن شيء روي في هذا الباب ورواه البزار بلفظ «لا طلاق قبل نكاح ولا عتق قبل ملك» قال البيهقي في الخلافيات قال البخاري هذا أصح شيء في الباب.

ثانيها: حديث عمرو بن شعيب عن طاووس عن معاذ بن جبل أن رسول الله ﷺ قال: «لا يجوز طلاق ولا عتاق ولا بيع ولا وفاء نذر فيما لا يملك» رواه الدارقطني، وروى الدارقطني من طريق آخر عن إبراهيم أبي إسحاق الضرير عن يزيد بن عياض عن الزهري عن سعيد بن المسيب عن معاذ بن جبل قال قال رسول الله ﷺ: «لا طلاق إلا بعد نكاح وإن سميت المرأة بعينها» قال الحافظ ابن حجر منقطع ويزيد بن عياض متروك وذكر الذهبي في استيعاب أسماء الرجال، قال مالك يزيد بن عياض كذاب وقال يحيى بن معين ضعيف ليس بشيء، وقال أحمد بن صالح كان يضع للناس يعني الحديث وقال البخاري ومسلم منكر الحديث، وقال أبو داود ترك حديثه وقال النسائي متروك وقال في موضع آخر كذاب.

ثالثها: ما رواه الدارقطني قال حدثنا بقية بن الوليد عن ثور بن يزيد عن خالد ابن معدان عن أبي ثعلبة الخشني قال قال لي عم لي أعمل بي عملاً حتى أزوجك ابنتي فقلتُ إن تزوجتها فهي طالق ثلاثاً، ثم بدا لي أن أتزوجها فأتيتُ النبيّ ﷺ فسألته فقال لي: «تزوجها فإنه لا طلاق إلا بعد نكاح» فتزوجتُها فوَلدت لي أسعد وسعيداً، قال الذهبي في الميزان قال النسائي وغيره بقية بن الوليد إذا قال حدثنا وأخبرنا فهو ثقة قال غير واحد كان مدلساً فإذا قال عن فليس بحجة وثور بن يزيد ثقة صحيح الحديث مشهور بالقدر وهذا رواية بقية بلفظ عن وطعن ابن همام على هذا وقال فيه علي بن قرين كذبه أحمد، قلتُ: ما رواه ابن الجوزي ليس من طريق الدارقطني وليس فيه علي بن قرين والله أعلم.

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: الطلاق واللعان، باب: ما جاء لاطلاق قبل النكاح (١١٧٧)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب: الطلاق، باب: لاطلاق قبل النكاح (٢٠٤٧).

رابعها: حديث ابن عمر عن رسول الله ﷺ أنه سئل عن رجل أنه قال يوم أتزوج فلانة فهي طالق قال: «طلق ما لا يملك» رواه الدارقطني وفيه أبو خالد الواسطي وهو عمرو بن خالد قال الذهبي ضعفه أبو حاتم وقال ابن همام قال أحمد وابن معين كذاب، ورواه ابن عدي عن نافع عنه بلفظ «لا طلاق إلا بعد نكاح» قال ابن حجر إسناده ثقات.

خامسها: حديث طاووس عن ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ: «لا نذر إلا فيما أطيع الله فيه ولا يمين في قطعة رحم ولا طلاق ولا عتاق فيما لا يملك» رواه الدارقطني ورواه الحاكم من طريق آخر وفيه من لا يعرف كذا قال ابن حجر، وروى الحاكم عن ابن عباس ما قالها ابن مسعود وإن كان قالها فزلة من عالم في الرجل يقول إن تزوجتُ فلانة فهي طالق وقد قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحۡتُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقۡتُمُوهُنَّ﴾ ولم يقل إذا طلقتموهن ثم نكحتموهن، وقيل لا يصح عن النبيّ ﷺ «لا طلاق قبل نكاح» وأصح شيء فيه حديث المنكدر عن طاووس عن النبيّ ﷺ مرسلاً.

سادسها: حديث عائشة قالت: «بعث رسول الله ﷺ أبا سفيان ابن حرب على نجران اليمن فكان فيما عهد إليه أن لا يطلق الرجل ما لا يتزوج ولا يعتق ما لا يملك» قال ابن حجر قال ابن أبي حاتم في العلل حديث منكر، ورواه الحاكم من طريق الحجاج ابن منهال عن هشام الدستوائي عن عروة عن عائشة مرفوعاً، قال ابن الجوزي وقد روي نحو هذا من حديث علي وجابر ولكنها طرق مجتنبة بمرة، قلتُ أما حديث علي فرواه ابن ماجه عنه يرفعه لا طلاق قبل النكاح وفيه جويبر وهو ضعيف وأما حديث جابر فقد ذكرنا من قبل وفي الباب حديث المسور بن مخرمة أنه قال رسول الله ﷺ «لا طلاق قبل النكاح ولا عتق قبل الملك».

وجه قول أبي حنيفة أن المعلق بالشرط ليس بطلاق فإن التعليق بالشرط مانع من أن يكون السبب سبباً دون الحكم فقوله إن دخلتِ الدار فأنتِ طالق وكذا قوله إن نكحتكِ فأنتِ طالق يمين مانع من دخول الدار ومن النكاح الذين هما شرطان لوجود الطلاق فهو مانع من الطلاق فلا يصلح أن يكون سبباً موجباً للطلاق لتمانع الوصفين، أعني كونه مانعاً وكونه سبباً لكن له عرضة أن يصير طلاقاً عندالحنث وهو وجود الشرط، وإذا لم يكن طلاقاً فلا يجوز الاحتجاج بالآية والأحاديث الناطقة بنفي الطلاق قبل النكاح، وأما حديث ابن عمر وحديث أبي ثعلبة الخشني فلا يصح شيء منهما وقد ذكرنا وجه القدح فيهما. فإن قيل إذا لم يكن المعلق بالشرط طلاقاً فما وجه الفرق بين قوله للأجنبية إن دخلتِ الدار فأنت طالق وإن نكحتكِ فأنتِ طالق حيث ينعقد الثاني دون الأول؟ قلنا:

وجه الفرق أن اليمين ما يكون مانعاً من الفعل لها بخوف الإثم كما في اليمين بالله تعالى: وإما بخوف الوقوع فيما لا يريد من الطلاق والعتاق أو نحو ذلك ولا شك أن تعليق الطلاق والعتاق بالملك يصلح مانعاً من التملك بخلاف تعليق الطلاق والعتاق للأجنبية بدخول الدار حيث لا يصلح أن يكون مانعاً لها من دخول الدار فلا يصلح أن يكون يميناً كما لا يصلح أن يكون طلاقاً فيلغو، قال ابن همام ومذهبنا مروى عن عمرو ابن مسعود وابن عمرو، أخرج ابن أبي شيبة في مصنفه عن سالم والقاسم ابن محمد وعمر بن عبد العزيز والشعبي والنخعي والزهري والأسود وأبي بكر بن عبد الرحمان ومكحول الشامي في رجل قال إن تزوجتُ فلانةً فهي طالق أو لو أتزوجها فهي طالق أو كل امرأة أتزوجها فهي طالق قالوا هو كما قال وفي لفظ يجوز عليه ذلك وقد نقل مذهبنا أيضاً عن سعيد بن المسيب وعطاء وحماد بن أبي سليمان وشريح رحمهم الله، وقال الشافعي المعلق بالشرط تطليق والتعليق ليس مانعاً من سببية السبب بل هو مانع من الحكم كالبيع بشرط الخيار وحديث أبي ثعلبة الخشني نص فيه مفسر وقد ذكره ابن الجوزي بسنده ولم يتعرض بالطعن عليه وهو غير متهم في إظهار الحق وقوله ﷺ: «لا طلاق قبل النكاح» وما في معناه الظاهر أنه منع أو نفي لتعليق الطلاق بالنكاح، وأما تنجيز الطلاق قبل النكاح فلا يتصور من عاقل وبطلانه ظاهر فلا يحمل عليه كلام الحكيم الرسول الكريم صلّى الله عليه وسلّم فإنه حينئذ في قوة قول من يقول لا يجب الصلاة على من لم يولد بعد ﴿مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾ أي تجامعوهن ﴿فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ﴾ أيام يتربصن فيها ﴿تَعْتَدُّونَهَا﴾ تستوفون عددها هذا حكم أجمع عليه الأمة وفي قوله تعالى: ﴿فَمَا لَكُمْ﴾ دلالة على أن العدة حق الرجال لأنها لصيانة الماء وعدم وقوع الشك في النسب والنسب إلى الرجال، ومن هاهنا قال أبو حنيفة أنه إذا طلق ذمي ذمية وكان معتقدهم أنه لا عدة فلا عدة عليها وأما إذا كان معتقدهم وجوب العدة يجب عليها العدة والحربية إذا خرجت إلينا مسلمة فلا عدة عليها وإن تزوجت على الفور جاز نكاحها لأن الحربي يلحق بالجمادات حتى كان محلاً للتملك فلا حق له إلا أن تكون حاملاً لأن في بطنها ولد ثابت النسب، وعن أبي حنيفة أنه يجوز النكاح ولا يطأها كالحبلى من الزنى والأول أصح ﴿فَمَتِّعُوهُنَّ﴾ أي أعطوهن ما يستمتعن به قال ابن عباس هذا إذا لم يسم لها صداقاً فلها المتعة فإن كان قد فرض لها صداق فلها نصف الصداق ولا متعة لها، فالآية على قول ابن عباس مخصوصة وقال قتادة هذه الآية منسوخة بقوله تعالى: ﴿فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾[1] ومرجع القولين واحد يعني لا متعة وجوباً

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٣٧.

ولا استحباباً لمن طلّقت قبل المسيس وقد سمى لها مهراً، وقيل هذا أمر ندب فالمتعة لها مستحب مع نصف المهر وروي عن الحسن وسعيد بن جبير أن المتعة لها واجب بهذه الآية ونصف المسمّى بما في البقرة وقد ذكرنا الخلاف في وجوب المتعة واستحبابها ومقدارها في سورة البقرة فلا نعيده ﴿وَسَرِّحُوهُنَّ﴾ أي أخرجوهن من بيوتكم وخلوا سبيلهن إذ ليس لكم عليهن من عدة ﴿سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ من غير ضرار.

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ﴾ يعني مهورهن لأن المهر أجر على البضع وتقييد الإحلال له بإعطائها إنما هو خرج على حسب الواقع ومخرج عادة النبيّ ﷺ فإنه كان يعطهن مهورهن معجلة أو لايثار الأفضل ولا مفهوم له إجماعاً ﴿وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ﴾ يعني رد الله عليك من الكفار بأن تسبى فتملك مثل صفية وجويرية وهذا القيد ليس للاحتراز أيضاً ولا مفهوم لها عند القائلين بالمفهوم، لأن مارية أم إبراهيم لم تكن مسبية بل كانت مما أهدى إليه مقوقس ﴿وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ﴾ يعني نساء قريش ﴿وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ﴾ يعني نساء بني زهرة ﴿اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾ وكلمة مع للموافقة في نفس الفعل لا بحسب الزمان كما في قوله تعالى: ﴿اسلمت مع سليمان﴾[(١)] والمراد المهاجرات مطلقاً، قال البغوي فمن لم يهاجر منهن لم يجز نكاحها، أخرج الترمذي وحسنه والحاكم وصححه من طريق السدي عن أبي صالح عن ابن عباس عن أم هانىء بنت أبي طالب أن رسول الله ﷺ لما فتح مكة خطبني فاعتذرتُ إليه فعذرني فأنزل الله هذه الآية فلم أحل له لأني لم أكن من المهاجرات وكنتُ من الطلقاء[(٢)]، وروى ابن أبي حاتم من طريق إسماعيل بن أبي خالد عن أبي صالح عن أم هاني قالت نزلت في هذه الآية ﴿وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾ أراد النبيّ ﷺ أن يتزوجني فنهي عني إذ لم أهاجر، قال البغوي ثم نسخ شرط الهجرة في التحليل وقيل المراد بالهجرة الإسلام أي أسلمن معك قال رسول الله ﷺ: «المهاجر من هجر ما نهى الله عنه»[(٣)] رواه البخاري، وبتأويلهم ذلك يدل على أنه لم يكن نكاح غيرالمسلمة من اليهودية والنصرانية حلالاً له عليه الصلاة والسلام ﴿وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ﴾ قال البغوي فأما غير المؤمنة فلا تحل له إذا وهبت نفسها له واختلفوا في أنه هل كان حلالاً له نكاح اليهودية والنصرانية بالمهر فذهب جماعة

---

(١) سورة النمل، الآية: ٤٤.

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة الأحزاب (٣٢١٣).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: الإيمان، باب: المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده (١٠).

إلى أنه لا يحلُّ له ذلك لقوله تعالى: ﴿وَٱمۡرَأَةً مُّؤۡمِنَةً﴾ وقد ذكرنا تأويل بعضهم قوله تعالى اللاتي هاجرن معك بالإسلام شرط مستغن عن الجزاء بما مضى وقوله وامرأة منصوب بفعل فسره ما قبله يعني ونحل لك امرأة مؤمنة أو عطف على ما سبق ولا يدفعه التقييد بأن التي للاستقبال فإن معنى الإحلال إن إتفق ولذلك نكرها ﴿إِنۡ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسۡتَنكِحَهَا﴾ شرط للشرط الأول معنى تقديره إن أراد النبيُّ أن يستنكح الواهبة نفسها أحللنا له إن وهبت نفسها فإن هبتها نفسها شرط للنكاح فإنها بمنزلة الإيجاب منها لا توجب له حلها ما لم يرد النبي نكاحها فإنها جارية مجرى القبول بها يتم النكاح فالحل موقوف على كلا الشرطين، وهما شطر العلة أي النكاح والعدول من الخطاب إلى الغيبة بلفظ النبي مكرراً ثم الرجوع إليه بقوله ﴿خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۗ﴾ حيث يجب عليهم المهر بالوطء أو الموت وإن لم يذكر إيذان بأنه مما خص به لشرف نبوته وتقرير لاستحقاق الكرامة لأجله وخالصة مصدر مؤكد على وزن عافية أي خلص إحلال ما أحللنا لك على القيود المذكورة خلوصاً لك، وهذا التأويل إنما يتصور إذا كانت القيود احترازية والظاهر أنه حال من الضمير في وهبت والمعنى أنه وهبت حال كونها خالصة لك بلا مهر أو صفة لمصدر محذوف أي هبة خالصةً، أخرج ابن سعد عن عكرمة في قوله تعالى وامرأةً مؤمنة الآية قال نزلت في أم شريك الدوسية، وأخرج ابن سعد عن منير بن عبد الله الدوسي أن أم شريك عزية بنت جابر بن حكيم الدوسي عرضت نفسها على النبيّ ﷺ وكانت جميلة فقبلها فقالت عائشة ما في امرأة حين تهب نفسها لرجل خير قالت أم شريك فأنا تلك فسماها الله مؤمنة، فقال: ﴿وَٱمۡرَأَةً مُّؤۡمِنَةً إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ﴾ فلمَّا نزلت هذه الآية قالت عائشة إن الله يسرع لك في هواك.

أخرج ابن سعد عن أبي رزين قال: همّ رسول الله ﷺ أن يطلق من نسائه فلمَّا رأين ذلك جعلنه في حل من أنفسهن يؤثر من يشاء على من يشاء منهن فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ﴾ إلى قوله ﴿ترجي من تشاء منهن﴾ الآية وقوله تعالى: ﴿خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۗ﴾ يدل على أنه كان من خصائص النبيّ ﷺ أن ينعقد النكاح في حقه بغير مهر وذلك هو المراد بقوله تعالى: **إن** وهبت نفسها للنبي، يعني إن زوجت نفسها بغير مهر كما أن الزيادة على أربع من النساء كان من خصائصه ﷺ، وقيل هذه الآية تدل على أن إنعقاد النكاح بلفظ الهبة كان من خصائص النبيّ ﷺ ولا يجوز ذلك لغيره، قال البغوي وهو قول سعيد بن المسيب والزهري ومجاهد وعطاء وبه قال ربيعة ومالك والشافعي قالوا لا ينعقد النكاح لغير النبيّ ﷺ إلا بلفظ النكاح والتزويج، قلتُ وبه قال أحمد وذكر في ترجمة

الآية في اختلاف الائمة قول أحمد أنه ينعقد النكاح بلفظ الهبة مع ذكر المهر، وقال أبو حنيفة إنعقاد النكاح بلفظ الهبة ليس من خصائص النبيّ ﷺ بل يجوز نكاح كل أحد بلفظ الهبة والبيع والصدقة والتمليك وكل لفظ وضع لتمليك العين مؤبداً ولا يجوز بلفظ الإجارة والإعارة وقال الكرخي يجوز بلفظ الإجارة والإعارة أيضاً لأن الثابت بهما تمليك المنفعة وذلك في النكاح أيضاً وقد أطلق الله سبحانه لفظ الأجرة على المهر حيث قال ﴿أَزْوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ﴾ قلنا الإجارة والإعارة ليسا سببين لملك المتعة فلا طريق للاستعارة هُناك ولا بلفظ الوصية لأنها توجب الملك مضافاً إلى ما بعد الموت، وعن الطحاوي أنه ينعقد به النكاح لأنه يثبت به ملك الرقبة في الجملة وعن الكرخي أنه قيد الوصية بالحال فإن قال أوصيتُ لك بنتي هذه الآن ينعقد لأنه صار به مجازاً عن التمليك، قلنا: الإضافة مأخوذ في مفهوم الوصية وعدمه في النكاح فيتضادان، وقال قوم لا ينعقد النكاح إلا بلفظ النكاح أو التزويج في حق النبيّ ﷺ أيضاً كما لا يصح في حق الأمة لقوله تعالى: ﴿إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا﴾ وإنما أطلق لفظ الهبة في الآية على النكاح مجازاً.

قال البيضاوي محتجاً بهذه الآية على مذهب الشافعي أن اللفظ تابع للمعنى وقد خص النبيّ ﷺ بالمعنى إجماعاً، وهذا القول غير سديد فإن جواز إطلاق لفظ الهبة في النكاح إنما هو بطريق المجاز ولا وجه لتخصيص التكلم بالمجاز بحضرة الرسالة ﷺ والنكاح يصلح أن يكون معنى مجازياً للفظ الهبة ولا اختصاص بالنبي ﷺ لمعناه المجازي، فإن قيل معناه الحقيقي غير مراد في الآية البتة لأن المعنى الحقيقي للهبة تمليك العين وهو غير مراد بل المراد تمليك البضع بغير عوض فإذا اختص به معناه المجازي واللفظ تابع للمعنى فلا يجوز لغيره ﷺ النكاح بلفظ الهبة مجازاً، قلنا المعنى المجازي للهبة غير منحصر في تمليك البضع بغير عوض بل يجوز أن يطلق لفظ الهبة وأريد به تمليك البضع مطلقاً سواء كان بعوض أو بغير عوض وقال ابن همام إنما الكلام في تحقق طريق المجاز فنفاه الشافعي بناءً على انتفاء ما يجوز به التجوز إما إجمالاً فلأنه لو وجد لصح أن يتجوز بلفظ كل منهما عن الآخر بأن يقال نكحتُك هذا الثوب مراداً به وهبتُك أو ملكتُك وليس فليس وإما تفصيلاً فلأن التزويج هو التلفيق وضعاً والنكاح الضم ولا ضم ولا ازدواج في المالك والمملوك ولذا يفسد النكاح عند ورود ملك أحد الزوجين على الآخر ولو كان لم ينافه تأكد به، ولنا على الشافعي أولاً النقض الإجمالي وهو أنه لولا العلاقة المصححة للمجاز بين الهبة والنكاح لما جاز نكاح النبيّ ﷺ بلفظ الهبة وذلك

جائز ولمَّا ثبت العلاقة المصححة للمجاز بينهما وبين النكاح بلا عوض ثبت بينها وبين مطلق النكاح أيضاً لوجود الأعم في ضمن الأخص، وثانياً أن معنى الحقيقي للهبة تمليك العين وتمليك العين سبب لملك المتعة في محلها بواسطة ملك الرقبة وملك المتعة في محلها هو الثابت بالنكاح والسببية طريق المجاز، وأما عدم جواز إستعارة النكاح لتمليك العين فلما ذكر في الأصول أنه لا يجوز استعارة اسم المسبب للسبب عندنا إلا إذا كان المقصود من السبب شرعيته كالبيع لملك الرقبة وليس ملك المتعة الذي هو موجب النكاح هو المقصود من التمليك بل ملك الرقبة، وقوله لا ضم ولا ازدواج بين المالك والمملوك ممنوع والله أعلم.

قال البغوي اختلفوا في أنه هل كانت عند النبيّ ﷺ امرأة وهبت نفسها له قال ابن عباس ومجاهد لم تكن عنده امرأة إلا بعقد نكاح أو ملك يمين وقوله ﴿إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ﴾ على طريق الشرط والجزاء وقال آخرون كانت عنده منهن، قال الشعبي هي زينب بنت خزيمة الأنصارية يقال لها أم المساكين وقال قتادة ميمونة بنت الحارث، وقال علي بن الحسين عليهما السلام والضحاك ومقاتل هي أم شريك بنت جابر من بني أسد، أخرج ابن سعد وابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر والطبراني عن علي بن الحسين وابن سعد عن عكرمة أنها أم شريك بنت جابر وقال عروة بن الزبير هي خولة بنت حكيم من بني سليم.

﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا﴾ أي ما أوجبنا ﴿عَلَيْهِمْ﴾ أي على المؤمنين ﴿فِيٓ أَزْوَٰجِهِمْ﴾ من شرائط النكاح ووجوب القسم والمهر بالوطىء حيث لم يسم وأن لا يتزوجوا أكثر من أربع ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾ بالشراء وغيره بأن يكون الأمة ممن تحل لمالكها كالكتابية بخلاف المجوسية والوثنية وأن يستبرأ قبل الوطىء وما وسع اللهالأمر فيهن في العدد، وعدم وجوب القسم والجملة معترضة ﴿لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ﴾ متعلقة بقوله خالصة ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا﴾ لما يعسّر التحرز عنه ﴿رَّحِيمًا﴾ بالتوسعة في مضانّ الحرج.

﴿۞ تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِيٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ۖ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴿٥١﴾ لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا ﴿٥٢﴾﴾.

أخرج الشيخان في الصحيحين عن عائشة «أنها كانت تقول أما تستحيي المرأة أن تهب نفسها» فأنزل الله ﴿ترجى من تشاء﴾ الآية فقالت عائشة أرى ربك ليسارع لك في هواك[١]، وفي لفظ قالت عائشة كنتُ أغار على اللآتي وهبن أنفسهن لرسول الله ﷺ وأقول أتهب المرأة نفسها فلما أنزل الله تعالى: ﴿لا ترجي من تشاء منهن﴾ الآية قلتُ ما أرى ربك إلا يسارع في هواك، قرأ نافع وحمزة والكسائي وحفص تُرْجِئُ بإسكان الياء بغير همز والباقون بهمزة مضمومة أي تؤخر من تشاء ﴿منهن وتؤي إليك من تشاء منهن﴾ قال البغوي إختلف المفسرون في معنى الآية فأشهر الأقاويل أنها في القسم بينهن وذلك أن التسوية في القسم بينهن كان واجباً عليه فلمّا نزلت هذه الآية سقط عنه فصار الإختيار إليه فيهن، قال أبو زيد وابن زيد نزلت هذه الآية حين غار بعض أمهات المؤمنين على النبيّ ﷺ وطلب بعضهن زيادة النفقة فهجرهن النبيّ ﷺ شهراً حتى نزلت آية التخيير فأمره الله عزَّ وجلَّ أن يخيرهن بين الدنيا والآخرة وإن يخلي سبيل من اختارت الدنيا ويمسك من اختارت الله ورسوله على أنهن أمهات المؤمنين فلا ينكحن أبداً وعلى أنه يؤوى إليه من يشاء منهن ويرجى من يشاء منهن فيرضين به قسم لهنَّ أو لم يقسم أو قسم لبعض دون بعض أو فضَّل بعضهن في النفقة والقسم، فيكون الأمر في ذلك إليه يفعل كيف يشاء وكان ذلك من خصائصه ﷺ فرضين بذلك واخترنه على هذا الشرط، قلتُ وليس هذا من خصائص النبيّ ﷺ بل الحكم كذلك في الأمة أيضاً فمن كان تحته نساء وقال لهن من تشاء منكن حقوق النكاح من النفقة والتسوية في القسم فَتَعَالَيْنَ امَتِّعْكُنَ وأُسَرِحْكُنَ سَرَاحاً جَمِيْلاً ومن رضي منكنَّ أن تبقى في نكاحي بلا مطالبة في النفقة على أن آوي إليَّ من أشاء منكن وأرجى منكن من أشاء سواء أقسم لكن أولم أقسم أو أقسم لبعض دون بعض أو أفضل بعضكن على بعض في النفقة والكسوة والقسم فقلن له نحن نختارك وتركنا حقنا في النفقة والقسم يكون الأمر في ذلك إليه يفعل كيف يشاء والله أعلم.

قال البغوي: واختلفوا في أنه هل أخرج أحداً منهن عن القسم فقال بعضهم لم يخرج أحداً بل كان رسول الله ﷺ مع ما جعل الله له من ذلك يسوى بينهن في القسمة إلا سودة، فإنها رضيت بترك حقها من القسم وجعل يومها لعائشة، وقيل أخرج بعضهن. روى ابن جرير عن منصور عن أبي رزين قال لما نزل التخيير أشفقن أن يطلقهن فقلن يا

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: النكاح، باب: هل للمرأة أن تهب نفسها لأحد (٥١١٣)، وأخرجه مسلم في كتاب: الرضاع، باب: جواز هبتها نوبتها لضرتها (١٤٦٤).

رسول الله أجعل لنا من مالك ونفسك ما شئتَ ودعنا على حالنا فنزلت هذه الآية ﴿تُرۡجِي مَن تَشَآءُ مِنۡهُنَّ﴾ فأرجى رسول الله ﷺ بعضهن وآوى إليه بعضهن وكان ممن آوى إليه عائشة وحفصة وزينب وأم سلمة فكان يقسم بينهن سواء وأرجى منهن خمساً أم حبيبة وسودة وصفية وميمونة وجويرية وكان يقسم لهن ما يشاء. روى البخاري عن معاذة عن عائشةؓ أن رسول الله ﷺ «كان يستأذن في يوم المرأة منّا بعد أن أنزلت هذه الآية ﴿ترجى من تشاء﴾ الآية، فقلتُ لها ما كنتِ تقولين، قالت كنتُ أقول له إن كان ذاك إليَّ فإني لا أريد يا رسول الله أن أوثر عليك أحداً»(١) وقال مجاهد معناه ترجي من تشاء منهن يعني تعزل منهن من تشاء بغير طلاق وتردّ إليك من تشاء بعد العزل بلا تجديد عقد، وقيل معناه تطلّق منهن من تشاء وتمسك منهن من تشاء، وقال الحسن معناه تترك نكاح من شئتَ وتنكح من تشاء من نساء أمتك وقال كان النبيّ ﷺ إذا خطب امرأة لم يكن لغيره أن يخطبها حتى يتركها رسول الله ﷺ، وقيل معناه تقبل من تشاء من المؤمنات اللآتي وهبن أنفسهن لك فتؤويها إليها وتترك من تشاء فلا تقبل.

روى البغوي عن هشام عن أبيه قال كانت خولة بنت حكيم من اللاتي وهبن أنفسهن للنبي ﷺ فقالت عائشة أما تستحي امرأة أن تهب نفسها للرجل فلمّا نزلت هذه الآية ﴿ترجي من تشاء منهن﴾ فقلت: يا رسول الله ما أرى ربك إلا يسارع في هواك، ﴿وَمَنِ ٱبۡتَغَيۡتَ مِمَّنۡ عَزَلۡتَ﴾ أي طلبت واردت أن تؤوي إليك امرأة ممن عزلتهن عن أنفسهن ﴿فَلَا جُنَاحَ﴾ أي لا إثم ﴿عَلَيۡكَ﴾ في شيء من ذلك ﴿ذَٰلِكَ﴾ التفويض إلى مشيئتك ﴿أدنى أن تقر أعينهن ولا يحزن ويرضين بما آتيتهن كلهن ﴾ أي أقرب إلى قرة أعينهن وعدم حزنهن ورضائهن جميعهن لأن حكم كلهن فيه سواء ثم من أويتَ منهن إليك وجدت ذلك تفضلاً ومن عزلتَ منهن علمتُ أنه بحكم الله وعلمتُ منك تفضلاً أيضاً حيث أبقيتَ في نكاحك من غير حاجة منك إليها ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمۡۚ﴾ فاجتهدوا في إحسانه وفيه وعيد لمن لم ترض منهن بمشيئة رسوله ﷺ، وقيل معناه الله يعلم ما في قلوبكم من أمر النساء والميل إلى بعضهن وإنما خيرناك فيهن تيسيراً لك ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا﴾ بذات الصدور ﴿حَلِيمًا﴾ لا يعاجل بالعقوبة فهو حقيق بأن يتقي. أخرج ابن سعد عن عكرمة قال لما خَيَّرَ رسول الله ﷺ أزواجه واخترن الله ورسوله أنزل الله تعالى: ﴿لَا يَحِلُّ﴾ قرأ أبو عمرو ويعقوب بالتاء الفوقانية والباقون بالياء التحتانية لأن تأنيث الجمع غير حقيقي ﴿لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ﴾ أي

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، باب: قوله: ﴿تُرۡجِي مَن تَشَآءُ مِنۡهُنَّ﴾ (٤٧٨٩).

بعد هذا اليوم حتى لو ماتت واحدة منهن لم يحل له نكاح أخرى ﴿وَلَآ أَن تَبَدَّلَ﴾ أصله تتبدل حذفت إحدى التائين من مضارع التفعل ﴿بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ﴾ من مزيدة، لتأكيد النفي، يعني لا يجوز لك أن تطلق منهن واحدة وتنكح مكانها أخرى، قال البغوي وذلك أن النبيّ ﷺ لما خيرهن واخترن الله ورسوه شكرهن الله وحرم على نبيه من النساء سواهن ونهاه عن تطليقهن والإستبدال بهن وهذا قول ابن عباس وقتادة، واختلفوا في أنه هل أبيح له من بعد، أخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور وابن سعد وأحمد وعبد بن حميد وأبو داود في ناسخه والترمذي وصححه والنسائي وابن جرير وابن المنذر والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي من طريق عطاء عن عائشة قالت لم يمت رسول الله ﷺ حتى أحل الله أن يتزوج من النساء ما شاء إلا ذات محرم بقوله تعالى: ﴿ترجي من تشاء منهن وتؤى إليك من تشاء﴾ فإن تلك الآية وإن تقدمها قراءة مسبوق بها نزولاً، وأخرج ابن أبي حاتم عن أم سلمة مثله وأخرج ابن سعد عن ابن عباس مثله وذكر البغوي قول أنس مات رسول الله على التحريم، وقال البغوي قال عكرمة والضحاك معنى الآية لا يحل لك النساء بعد اللآتي أحللنا لك بالصفة التي تقدم ذكرها وقيل لأبي بن كعب لو مات نساء النبيّ ﷺ كان له أن يتزوج قال وما يمنعه من ذلك قيل قوله تعالى: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ﴾ قال إنما أحل الله له ضرباً من النساء فقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ﴾ الآية ثم قال: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ﴾ قال أبو صالح أمرأن لا يتزوج أعرابية ولا عربية ويتزوج من نساء قومه من بنات العمّ وبنات العمّة وبنات الخال وبنات الخالة إن شاء ثلاث مائة، وقال مجاهد لا يحل لك اليهوديات ولا النصرانيات بعد المسلمات ولا أن تبدل بالمسلمات غيرهن بقول لا يكون أم المؤمنين يهودية ولا نصرانية إلا ما ملكت يمينك أُحل له ما ملكت يمينه من الكتابيات أن يتسرى بهن، وروى عن الضحاك معنى أن تبدَّل بهن أي ولا أن تبدل بأزواجك اللاتي في حبالتك أزواجاً غيرهن بأن تطلقهن وتنكح غيرهن فحرم عليه طلاق النساء اللاتي كن عنده إذ جعلهن أمهات المؤمنين وحرمهن على غيره حين اخترنه فأما نكاح غيرهن فلم يمنع عنه وقال ابن زيد في قوله ﴿وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ﴾ إنهم كانوا يتبادلون في الجاهلية بأزواجهم يقول الرجل للرجل بادلني بامرأتك وأبادلك بامرأتي بأن تنزل لي عن امرأتك وأنزل لك عن امرأتي فأنزل الله تعالى ولا أن تبدَّل بهِنَّ من أزواج يعني لا تبادل بأزواجك غيرك بأن تعطيه زوجتك وتأخذ زوجته إلا ما ملكت يمينك فلا بأس بأن تبدل بجاريتك ما شئت وأما الحلائل فلا. عن أبي هريرة قال دخل عيينة بن حصين على النبيّ ﷺ بغير إذن وعائشة

رضي الله عنها عنده فقال رسول الله ﷺ فأين الإستئذان؟ قال يا رسول الله ما استأذنتُ على رجل من مصر منذ أدركتُ، ثم قال من هذه الحميرى إلى جنبك قال هذه عائشة أم المؤمنين، قال عيينة أفلا أنزل لك عن أحسن الخلق فقال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى قد حرَّم ذلك، فلمَّا خرج قالت عائشة من هذا يا رسول الله؟ قال هذا أحمق مطاع وإنه على ما ترين لسيد قومه[1] ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ﴾ أي حسن الأزواج المستبدلة وهو حال من فاعل تبدل دون مفعوله وهو قوله من أزواج لتوغله في التنكير وتقديره مفروضاً إعجابك بهن، قال البغوي يعني ليس لك أن تطلق أحداً من نسائك وتنكح بدلها أخرى ولو أعجبك جمالها قال ابن عباس إنها بنت عميس الخثعمية امرأة جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه، فلمَّا استشهد جعفر أراد رسول الله ﷺ أن يخطبها فنهى عن ذلك ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾ محل ما الرفع استثناء من النساء لأنه يتناول الأزواج والإماء وقيل الإستثناء منقطع قال ابن عباس ملك رسول الله ﷺ بعد ذلك مارية يعني أم إبراهيم ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا﴾ فتحفظوا أمركم ولا تتجاوزوا عمَّا حد لكم.

---

(١) رواه البزار وفيه إسحاق بن عبد الله بن أبي فروة وهو متروك.
انظر مجمع الزوائد في كتاب: التفسير، باب: سورة الأحزاب (١١٢٧٩).

مسألة:

قال البغوي في الآية دليل على جواز النظر إلى من يريد نكاحها من النساء عن جابر رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «إذا خطب أحدكم امرأة فإن استطاع أن ينظر إلى ما يدعوا إلى نكاحها فليفعل»[١] رواه أبو داود وعن المغيرة بن شعبة قال خطبتُ امرأة فقال النبيّ ﷺ هل نظرتَ إليها؟ قلتُ لا، قال: «فانظر إليها فإنه أحرى أن يؤدم بينكما»[٢] رواه أحمد والترمذي والنسائي وابن ماجه والدارمي وعن أبي هريرة أن رجلاً أراد أن يتزوج امرأة من الأنصار فقال النبيّ ﷺ: «انظر إليها فإن في أعين الأنصار شيء»[٣] رواه مسلم، قال الحميدي فإن في أعينهن صفرة والله أعلم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيۡرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنۡ إِذَا دُعِيتُمۡ فَٱدۡخُلُواْ فَإِذَا طَعِمۡتُمۡ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسۡتَـٔۡنِسِينَ لِحَدِيثٍۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ يُؤۡذِي ٱلنَّبِيَّ فَيَسۡتَحۡيِۦ مِنكُمۡۖ وَٱللَّهُ لَا يَسۡتَحۡيِۦ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ وَإِذَا سَأَلۡتُمُوهُنَّ مَتَٰعٗا فَسۡـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٖۚ ذَٰلِكُمۡ أَطۡهَرُ لِقُلُوبِكُمۡ وَقُلُوبِهِنَّۚ وَمَا كَانَ لَكُمۡ أَن تُؤۡذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزۡوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦٓ أَبَدًاۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾ إِن تُبۡدُواْ شَيۡـًٔا أَوۡ تُخۡفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا ﴿٥٤﴾ لَّا جُنَاحَ عَلَيۡهِنَّ فِيٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبۡنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخۡوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبۡنَآءِ إِخۡوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبۡنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُنَّۗ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾﴾.

أخرج الشيخان في الصحيحين عن أنس قال: «لَمَّا تزوج النبيّ ﷺ زينب بنت جحش دعا القوم فطعموا ثم جلسوا يتحدثون فإذا كأنه يتهيؤ للقيام فلم يقوموا، فلمّا رأى ذلك قام فلمَّا قام قام من قام وقعد ثلاثة نفر فجاء النبيّ ﷺ ليدخل فإذا القوم جلوس ثم

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب: النكاح، باب: في الرجل ينظر إلى المرأة وهو يريد تزويجها (٢٠٨٣).

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: النكاح، باب: ما جاء في النظر إلى المخطوبة (١٠٨١)، وأخرجه النسائي في كتاب: النكاح، باب: إباحة النظر قبل التزويج (٣٢٢٦)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب: النكاح، باب: النظر إلى المرأة إذا أراد أن يتزوجها (١٨٦٥).

(٣) أخرجه مسلم في كتاب: النكاح، باب: ندب النظر إلى وجه المرأة وكفيها لمن يريد تزوجها (١٤٢٤).

إنهم قاموا فانطلقتُ بجئتُ فأخبرتُ النبيّ ﷺ أنهم انطلقوا فجاء حتى دخل فذهبتُ أدخل فألقي الحجاب بيني وبينه» فأنزل الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ﴾ الآية[1]، وذكر البغوي حديث ابن شهاب عن أنس أنه كان ابن عشر سنين مقدم رسول الله ﷺ المدينة قال أمهاتي يواطئني على خدمة النبي ﷺ فخدمتُه عشر سنين وتوفي النبيّ ﷺ وأنا ابن عشرين سنة وكنتُ أعلم الناس بشأن الحجاب حين نزل كان أول ما نزل في مبنى رسول الله ﷺ بزينب بنت جحش أصبح النبيّ ﷺ بها عروساً فدعي القوم فأصابوا من الطعام الحديث، فذكر مثل رواية البخاري وفي رواية للبخاري قال أنس كنتُ أعلم الناس بهذه الآية آية الحجاب لما اهديت زينت إلى النبيّ ﷺ كانت معه في البيت صنع طعاماً ودعا القوم فقعدوا يتحدثون فجعل النبيّ ﷺ يخرج ثم يرجع وهم قعود يتحدثون فأنزل الله تعالى تلك الآية وضرب الحجاب وقام القوم، وفي رواية له قال أنس أولم حين بنى النبيّ ﷺ بزينب بنت جحش بخبز ولحم فأرسلتُ على الطعام داعياً فيجيء القوم فيأكلون ويخرجون ثم يجيء قوم فيأكلون ويخرجون فدعوتُ حتى ما أجد أحداً أدعوه فقلت يا نبي الله ما أجد أحداً أدعوه فقال إرفعوا طعامكم وبقي ثلاثة رهط يتحدثون في البيت فخرج النبيّ ﷺ فانطلق إلى حجرة عائشة، فقال السلام عليكم أهل البيت ورحمة الله فقالتُ عليك السَّلام ورحمة الله كيف وجدت أهلك بارك الله لك فذهب إلى حجر نسائه كِلّهن يقول لهن كما قال لعائشة ويقلن له كما قالت ثم رجع النبيّ ﷺ فإذا ثلاثة رهط في البيت يتحدثون وكان النبيّ ﷺ شديد الحياء فخرج منعطفاً نحو حجرة عائشة فما أدري أخبرتُه أو أخبر أن القوم خرجوا فرجع حتى إذا وضع رجله في إسكفة الباب داخلةً الأخرى خارجة أرخى الستر بيني وبينه ونزلت آية الحجاب، وفي رواية للبخاري قال أنس أولم رسول الله ﷺ حين بنى بزينب فأشبع الناس خبزاً ولحماً ثم خرج إلى حجرات أمهات المؤمنين كما كان يصنع صبيحة بنائه فيسلم عليهن ويدعو لهن ويسلمن عليه ويدعون له، فلمّا رجع هو إلى بيته رأى رجلين جرى بينهما الحديث فلمّا رآهما رجعَ عن بيته فلمّا رأى الرجلان نبي الله ﷺ قاموا فرجع حتى دخل البيت وأرخى الستر بيني وبينه، وأخرج الترمذي وحسنه عن أنس قال كنتُ مع رسول الله ﷺ فأتى باب امرأة عرس بها فإذا عندها قوم فانطلق ثم رجع وقد خرجوا فدخل وأرخى بيني وبينه ستراً

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، باب: قوله: ﴿لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ (٤٧٩١)، وأخرجه مسلم في كتاب: النكاح، باب: زواج زينب بنت جحش ونزول الحجاب وإثبات وليمة العرس (١٤٢٨).

فذكرتُه لأبي طلحة فقال لئن كان كما تقول لينزلن في هذا شيء فنزلت آية الحجاب(١).

وأخرج الطبراني بسند صحيح عن عائشة قالت: «كنتُ آكل مع النبيّ ﷺ في قعب فمرَّ عمر فدعاه فأكل فأصابت أصبعه إصبعي فقال أوه لو أطاع فيكن ما رأتكن عين فنزلت آية الحجاب» وكذا أخرج البخاري في الأدب المفرد والنسائي وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال دخل رجل على النبيّ ﷺ فأطال الجلوس فخرج النبيّ ﷺ ثلاث مرات ليخرج فلم يفعل فدخل عمر فرأى الكراهية في وجهه فقال للرجل لعلّك آذيتَ النبي ﷺ؟ فقال النبيّ ﷺ لقد قمتُ ثلاثاً لكن يتبعني فلم يفعل، فقال له عمر يا رسول الله لو اتخذتَ حجاباً فإن نساءك لسن كسائر النساء وذلك أطهر لقلوبهم فنزلت آية الحجاب، وقد مرّ في سورة البقرة ما رواه البخاري وغيره عن عمر قال: وافقت ربي في ثلاث فقلتُ لو اتخذتَ من مقام إبراهيم مصلّى فنزلت ﴿وأتخذوا من مقام إبراهيم مصلى﴾ وقلت يا رسول الله إن نسائك يدخل عليهن البر والفاجر فلو امرتهن أن يحتجبن فنزلت آية الحجاب وأجتمع على رسول الله ﷺ نساؤه من الغيرة فقلت لهن عَسٰى رَبُّه إن طَلَّقَكُنَّ أنْ يُبْدِلَه أزْوَاجاً خَيراً مِّنكُنَّ فنزلت كذلك، وكذا أخرج النسائي من رواية أنس. وذكر البغوي نحوه عن ابن عباس وقال البغوي وقد صح في سبب نزول آية الحجاب أن أزواج النبيّ ﷺ كن يخرجن بالليل إذا تبرزن إلى المصانع وهو صعيد أفيح وكان عمر يقول للنبي ﷺ أحجب نساءك فلم يكن رسول الله ﷺ يفعل فخرجت سودة بنت زمعة ذات ليلة من الليالي عشاءً وكانتامرأة طويلة فناداها عمر أن قد عرفناك حرصاً على أن ينزل الحجاب فأنزل الله تعالى الحجاب، قال الحافظ ابن حجر يمكن الجمع بأن ذلك وقع قبيل قصة زينب فلقربه منها أطلق نزول الآية بهذا السبب ولا مانع من تعدد السبب ﴿إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ إستثناء مفرغ منصوب على الظرف أو على المصدر أو على الحال يعني لا تدخلوا في وقت إلا وقت أن يؤذن لكم أو لا تدخلوا دخولاً إلا دخولاً مأذوناً لكم أو لا تدخلوا في حال إلا حال أن يؤذن لكم ﴿إِلَىٰ طَعَامٍ﴾ متعلق بيؤذن لتضمنه معنى يدعى وفيه إشعار بأنه لا يحسن الدخول على الطعام من غير دعوة وإن أذن كما هو إشعار في قوله تعالى: ﴿غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ﴾ أي غير منتظرين وقت نضجه حال من فاعل لا تدخلوا أو المجرور في لكم داخل في الإستثناء أي لا تدخلوا إلا بإذن وإلا غير ناظرين وهذا الإستثناء مختص بمن أراد الدخول لأجل الطعام لا مطلقاً، أمال حمزة والكسائي إناه فهو حينئذ مصدر أني الطعام إذا أدرك يقال

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة الأحزاب (٣٢١٨).

إني الحميم إذا انتهى حره وإني أن يفعل كذا أي حان وقال البغوي إني بكسر الهمزة مقصورة فإذا فتحتها مددت وقلت الآناء وفيه لغتان آنى يأنى مثل رمى يرمى وأن يأبنُ مثل بَاعَ يَبِيْعُ، وفي القاموس إنَى الشيء يأني أيناً وإناء وإناً بالكسر فهو إني كغِنَى حان وأدرك وإنى الحميم انتهى حره، فهو آن وبلغ هذا أناه يعني بالفتح وبكسر يعني بلغ غايته أو نضجه أو إدركه ﴿ولكن إذا دعيتم فأدخلوا فإذا طعمتم﴾ ويعني اكلتم الطعام ﴿فَٱنتَشِرُواْ﴾ يعني تفرقوا وأخرجوا من منزله ولا تمكثوا بعد الأكل ﴿وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ﴾ مجرور معطوف على ناظرين أو منصوب أي لا تدخلوها مستأنسين وقيل تقديره ولا تمكثوا مستأنسين فهو عطف جملة على جملة نهوا أن يطيلوا الجلوس يستأنس بعضهم ببعض، لأجل حديث يحدثه به ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ﴾ اللبث ﴿كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ﴾ لتضيق المنزل عليه وعلى أهله واشتغاله بما لا يعنيه تعليل لما سبق ﴿فيستحي منكم﴾ ولا يخرجكم عطف على الجملة الإسمية السابقة ﴿والله لا يستحي من الحق﴾ عطف أو حال أو معترضة أي لا يترك الله تأديبكم حياءً فإن التأديب حق، وقال البيضاوي يعني إخراجكم حق فينبغي أن لا يترك حياءً كما لا يترك الله الحق فيأمركم بالخروج ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ﴾ أي نساء النبيّ ﷺ لدلالة بيوت النبي عليهن لأن فيها نساؤه ﴿مَتَٰعًا﴾ أي شيئاً ينتفع به إستعارةً أو إستهاباً أو ردٌّ للعارية ﴿فسألوهن﴾ المتاع ﴿مِن وَرَآءِ حِجَابٍ﴾ أي الستر الجملة الشرطية معطوفة على قوله ﴿لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ﴾ قال البغوي فبعد آية الحجاب لم يكن لأحد أن ينظر إلى امرأة من نساء رسول الله ﷺ منتقبة كانت أو غير منتقبة ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ أي السؤال من وراء الحجاب ﴿أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ من الخواطر الشيطانية الجملة تعليل لما سبق.

أخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد قال بلغ النبيّ ﷺ أن رجلاً يقول لو توفي النبيّ ﷺ تزوجتُ فلانة من بعده فنزلت ﴿وَمَا كَانَ﴾ أي ما صح ﴿لَكُمْ أَن تُؤْذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ أي تفعلوا ما يكرهه ﴿وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ﴾ أي من بعد وفاته أو فراقه ﴿أَبَدًا﴾ وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال نزلت في رجل هَمَّ أن يتزوج بعض نساء النبيّ ﷺ بعده، قال سفيان ذكر أنها عائشة وأخرج عن السديّ قال بلغنا أن طلحة بن عبيد الله قال أيحجبنا محمد عن بنات عمنا ويتزوج نساءنا من بعدنا لئن حَدَثَ حَدُثٌ لنتزوجن نساءه من بعده فأنزلت هذه الآية، وأخرج ابن سعد عن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم قال نزلت في طلحة بن عبيد الله لأنه قال إذا توفي رسول الله ﷺ تزوجتُ عائشة، وأخرج جويبر عن ابن عباس أن رجلاً أتي بعض أزواج النبيّ ﷺ فكلمها وهو ابن عمها فقال النبيّ ﷺ لا تقومن هذا المقام بعد يومك هذا فقال يا رسول الله إنها ابنة عمي والله قلتُ

لها منكراً ولا قالت لي، قال النبيّ ﷺ قد عرفتُ ذلك إنَّه ليس أحدٌ أغيرُ من الله وإنَّه ليس أحد أغير مني فمضى فقال يمنعني من كلام ابنة عمي لأتزوجها من بعده فأنزل الله تعالى هذه الآية، قال ابن عباس فأعتق ذلك الرجل رقبة وحمل عشرة أبعرة في سبيل الله وحج ماشياً توبة من كلمته، قال البغوي روى معمر عن الزهري أن العالية بنت ظبيان التي طلقها النبيّ ﷺ تزوجت رجلاً وولدت له وذلك قبل تحريم أزواج النبيّ ﷺ، روي أن الأشعث بن قيس تزوج المستعيذة في أيام عمر رضي الله عنه فهمّ عمر برجمها فأخبر أنه ﷺ فارقها قبل أن يمسها فتركه من غير نكير ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا﴾ أي ذنباً عظيماً قلتُ وجاز أن يكون ذلك لأجل أن النبيّ ﷺ حيٌّ في قبره ولذلك لم يورث ولم يتئم أزواجه عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «من صلّى عليَّ عند قبري سمعتُه ومن صلّى عليَّ نائياً أبلغتُه» رواه البيهقي في شعب الإيمان ﴿إِن تُبْدُوا شَيْئًا﴾ من أذى النبيّ ﷺ أو من نكاحهن ﴿أَوْ تُخْفُوهُ﴾ في أنفسكم قال البغوي نزلت فيمن أضمر نكاح عائشة رضي الله عنها بعد رسول الله ﷺ ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ تعليل لجزاء محذوف أقيم مقامه تقديره يعلمه الله ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ فيجازيكم عليه وفي هذا التعميم والبرهان على المقصود بعد التصريح بالنهي عن نكاحهن مزيد تهويل ومبالغة في الوعيد ولذلك أعتق ذلك الرجل الذي هم بنكاح بعض أزواج النبيّ ﷺ رقبة وحمل عشر أبعرة في سبيل الله وحج ماشياً توبةً من كلمته كما مر في حديث ابن عباس قال البغوي ولما نزلت آية الحجاب قال الآباء والأبناء والأقارب ونحن أيضاً نكلمهن من وراء حجاب فأنزل الله تعالى: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ﴾ أي، في ترك الاحتجاب من آبائهن ﴿ولا أبنائهن ولا إخوانهن ولا أبناء إخوانهن﴾ وإنما لم يذكر العم والخال لأنه لما ذكر أبناء أخوانهن وإبناء أخواتهن يظهر بدلالة النص حكم الأعمام والأخوال لأنهن عمات بالنسبة إلى أبناء الأخوة وخالات بالنسبة إلى أبناء الأخوات والعم والعمة من جنس واحد كالخال والخالة.

روى البخاري عن عروة بن الزبير أن عائشة قالت: «إستأذن أفلح أخ أبي القعيس بعدما أنزل الحجاب فقلت لا آذن حتى أستأذن فيه رسول الله ﷺ فإن أخاه أبا القعيس ليس هو أرضعني ولكن أرضعتني امرأة أبي القعيس، فدخل عليَّ النبيّ ﷺ فقلتُ يا رسول الله إن أفلح أخا أبي القعيس استأذن فأبيتُ أن آذن له حتى أستأذنك، فقال النبيّ ﷺ: «تأذنين عمك؟ قلتُ يا رسول الله إن الرجل ليس هو أرضعني ولكن أرضعتني امرأة أبي القعيس فقال ائذني له فإنه عمكِ تربت يمينكِ» قال عروة فلذلك كانت عائشة

تقول حرموا من الرضاع ما تحرموا من النسب[١] ﴿وَلَا نِسَآئِهِنَّ﴾ يعني مؤمنات حرائر ﴿وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ﴾ من العبيد والإماء وقيل من الإماء خاصة كما ذكرنا في سورة النور ﴿وَاتَّقِينَ اللَّهَ﴾ هذه الجملة معطوفة على مضمون ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ﴾ يعني واتقين الله في البروز للأجانب وفي كل ما أمرتن به وفيه إلتفات من الغيبة إلى الخطاب لمزيد التأكيد ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من أفعال العباد ﴿شَهِيدًا﴾ فيجازي عليه.

﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْءَاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾﴾.

﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾ قال ابن عباس إن الله يرحم النبيّ ﷺ والملائكة يدعون له، وعن ابن عباس أيضاً يصلون أي يبركون وقيل الصلاة من الله الرحمة ومن الملائكة الإستغفار، قال أبو العالية صلاة الله عليه ثناؤه عند الملائكة وصلاة الملائكة الدعاء وقد ذكرنا الكلام في الصلاة في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ﴾ أدعوا له واسألوا الله تعالى أن يرحمه ﴿وَسَلِّمُوا﴾ عليه ﴿تَسْلِيمًا﴾ يعني حياة بتحية السّلام وقولوا السّلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، والآية تدل على وجوب الصلاة والسّلام في الجملة ولو في العمر مرة وبه قال أبو حنيفة ومالك رحمهما الله واختاره الطحاوي، قال ابن همام موجب الأمر القاطع الافتراض في العمر مرة لأنه لا يقتضي التكرار وقلنا به، وقيل يجب في كل صلاة بعد التشهد في القعدة الأخيرة وبه قال الشافعي وأحمد قال في رحمة الأمة في اختلاف الأئمة الصلاة على النبيّ ﷺ في التشهد الأخير عند أبي حنيفة ومالك سنة وفرض عند الشافعي وقال أحمد في أشهر روايتيه يبطل صلاته بتركها، وقال ابن الجوزي فرض عند أحمد وعنه أنها سنة، وقيل يجب الصلاة كلما جرى ذكره ﷺ وبه قال الكرخي. استدل من يقول بوجوبها في الصلاة بحديث سهل بن سعد أن النبيّ ﷺ قال: «لا صلاة لمن لم يصل على النبيّ ﷺ»

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، باب: قوله: ﴿إِن تُبْدُوا شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٤﴾﴾ (٤٧٩٦)، وأخرجه مسلم في كتاب: الرضاع، باب: تحريم الرضاعة من ماء الفحل (١٤٤٥).

رواه ابن الجوزي من طريق الدارقطني وفيه عبد المهيمن ابن عباس بن سهل بن سعد عن أبيه عن جده، قال الدارقطني عبد المهيمن ليس بالقوي وقال ابن حبان لا يحتج به ورواه ابن الجوزي بلفظ «لا صلاة لمن لا وضوء له ولا وضوء لمن لم يذكر اسم الله عليه ولا صلاة لمن لم يصل على النبيّ ﷺ ولا صلاة لمن لم يحب الأنصار» وفيه عبد المهيمن ضعيف لا يحتج به وأخرج الطبراني عن أبيّ بن عباس بن سهل بن سعد عن أبيه عن جده مرفوعاً نحوه قالوا حديث عبد المهيمن أشبه بالصواب مع أن جماعة قد تكلموا في أبيّ بن عباس وبحديث أبي مسعود الأنصاري قال قال رسول الله ﷺ: «من صلّى صلاةً لم يصل فيها عليّ ولا على أهل بيتي لم يقبل منه» رواه ابن الجوزي من طريق الدارقطني قال ابن الجوزي وفيه جابر الجعفي ضعيف، وقد اختلف فيه فوقفه على ابن مسعود تارة ورفعه أخرى وذكره ابن همام عن ابن مسعود قال قال ابن الجوزي فيه جابر ضعيف وقد اختلف فيه فوقفه تارةً ورفعه أخرى، وروى الحاكم والبيهقي عن يحيى بن السباق عن رجل من بني الحارث عن ابن مسعود عنه عليه الصلاة والسّلام: «إذا تشهد أحدكم فليقل اللّهم صلّ على محمد وعلى آل محمد وبارك على محمد وعلى آل محمد وأرحم محمداً وآل محمد كما صليتَ وباركتَ وترحمتَ على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد»، قال الحافظ ابن حجر رجاله ثقات إلا هذا الرجل الحارثي فينظر فيه قال ابن همام حديث لا صلاة لمن لم يصل عليّ ضعفه أهل الحديث كلهم ولو صح فمعناه كاملةً أو لمن لم يصل عليّ في العمر مرةً.

وقال الحافظ ابن حجر أقوى من هذا الحديث حديث فضالة بن عبيد أنه سمع رسول الله ﷺ رجلاً يدعو في صلاته فلم يصل على النبيّ ﷺ فقال: «عجّلَ هذا» ثم دعاه ثم قال له ولغيره «إذا صلّى أحدكم فليبدأ بحمد الله والثناء عليه ثم ليصل على النبيّ ﷺ ثم ليدع بما شاء» رواه أبو داود والنسائي والترمذي وابن خزيمة وابن حبان والحاكم، قال ولفظ الترمذي «بينما رسول الله ﷺ قاعد إذ دخل رجل رجل فصلّى فقال اللّهم إغفر لي وأرحمني فقال رسول الله ﷺ: «عجلت أيها المصلي إذا صليت فقعدتَ فاحمد الله بما هو أهله وصل عليّ ثم ادعه» قال ثم صلّى رجل آخر بعد ذلك فحمد الله وصلّى على النبيّ ﷺ فقال له النبيّ ﷺ: «أيها المصلّي أدع تجب»[1] رواه الترمذي وروى أبو داود والنسائي نحوه، قلتُ: ويمكن الإستدلال على وجوب الصلاة على النبيّ ﷺ في الصلاة بعد

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: الدعوات (٣٤٧٧)، وأخرجه النسائي في كتاب: السهو، باب: التمجيد والصلاة على النبي ﷺ في الصلاة (١٢٧٧).

التشهد بأن المراد بالأمر في هذه الآية أن يصلي عليه ﷺ في الصلاة كما إن المراد بقوله تعالى: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣﴾[١] تكبير التحريمة وبقوله تعالى: ﴿وقوموا للَّه قانتين﴾[٢] وقوله تعالى: ﴿واركعوا وأسجدوا﴾ والقيام والركوع والسجود في الصلاة وبقوله تعالى: ﴿فاقرأوا ما تيسر من القرآن﴾[٣] القراءة في الصلاة يدل على هذا ما رواه البخاري عن كعب بن عجُرة وكذا في حديث أبي سعيد الخدري: قيل يا رسول الله أما السّلام عليك فقد عرفنا فكيف الصلاة؟ قال قولوا اللّهم صل على محمد إلى آخره»[٤] يعني قد عرفنا السَّلام في التشهد وهو قوله السَّلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته فكيف نصلّي حينئذ فعلَّم رسول الله ﷺ بقوله: «اللّهم صلّ على محمد» إلى آخره، وقد تلقته الأمة بالقبول وأجمعوا على جعلها بعد التشهد وإن اختلفوا في كونها فريضة فعلم بهذا الحديث أن مراد الله سبحانه بالأمر في هذه الآية جعلها بعد التشهد والله أعلم.

واستدل من يقول بوجوب الصلاة كلَّمَا جرى ذكره ﷺ بحديث أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «رغم أنف رجل ذكرتُ عنده فلم يصل عليَّ ورغم أنف رجل دخل علي رمضان ثم انسلخ قبل أن يغفر له ورغم أنف رجل أدرك عنده أبواه الكبر أو أحدهما فلم يدخلاه الجنة»[٥] رواه الترمذي وابن حبان في صحيحه، وحديث جابر بن سمرة عنه ﷺ «من ذكرتُ عنده فلم يصلّ عليّ فدخل النار فأبعده الله عزّ وجلّ» وحديث ابن عباس مرفوعاً بلفظ: «أتاني جبرئيل من ذكرتَ عنده فلم يصل عليك فدخل النار فأبعده الله عز وجل» روى الحديثين الطبراني وروى ابن السني عن جابر مرفوعاً بلفظ من ذكرتُ عنده فلم يصل على فقد شقي» وعن عليّ قال قال رسول الله ﷺ: «البخيل من ذكرتُ عنده فلم يصل عليَّ» رواه الترمذي ورواه أحمد عن الحسين ابن علي رضي الله عنهما وقال الترمذي هذا حديث حسن صحيح غريب، وروى الطبراني بسند حسن عن الحسين بن علي رضي الله عنهما مرفوعاً «من ذكرتُ عنده فخطى الصلاة عليَّ خطى طريق الجنة» وروى النسائي بسند صحيح عن أنس «من ذكرت عنده فليصل عليّ فإنه من صلى عليَّ صلّى الله عليه وسلَّم عشراً».

---

(١) سورة المدثر، الآية: ٣.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٣٨.
(٣) سورة الحج، الآية: ٧٧.
(٤) سورة المزمل، الآية: ٢٠.
(٥) أخرجه البخاري في كتاب: أحاديث الأنبياء، باب: ﴿يزفون﴾ (٣٣٦٩).
(٦) أخرجه الترمذي في كتاب: الدعوات، باب: قول رسول الله ﷺ رغم أنف رجل (٣٥٤٥).

فصل

في فضل الصلاة والسَّلام على النبيّ ﷺ وكيفيتها: عن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال لقيني كعب بن عجرة فقال ألا أهدي لك هدية سمعتها من النبيّ ﷺ فقلتُ بلى فأهدها لي، فقال: «سألنا رسول الله ﷺ فقلنا يا رسول الله كيف الصلاة عليكم أهل البيت فإن الله قد علّمنا كيف نسلّم عليك؟ قال: «قولوا اللّهم صلّ على محمّد وعلى آل محمد كما صليتَ على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد اللّهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركتَ على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد»[١] متفق عليه إلا أن مسلماً لم يذكر على إبراهيم في الموضعين، وعن أبي حميد الساعدي قال قالوا يا رسول الله كيف نصلّي عليك فقال رسول الله ﷺ «قولوا اللّهم صل على محمد وأزواجه وذريته كما صلَّيت على آل إبراهيم وبارك على محمَّد وأزواجه وذريته كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد» متفق عليه، وعن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «من صلّى عليّ واحدة صلّى الله عليه عشراً» رواه مسلم، وعن أنس قال قال رسول الله ﷺ: «من صلَّى عليَّ صلاة واحدة صلّى الله عليه عشر صلوات وحطت عنه عشر خطيئات ورفعت له عشر درجات»[٢] رواه أحمد والبخاري في الأدب والنسائي والحاكم وصححه، وعن ابن مسعود قال قال رسول الله ﷺ: «أولى الناس بي يوم القيامة أكثرهم صلاة»[٣] رواه الترمذي، وعنه قال قال رسول الله ﷺ: «إن لله ملائكة سياحين في الأرض يبلغوني من أمتي السّلام»[٤] رواه النسائي والدارمي، وعن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «ما من أحد يسلم عليَّ إلا ردّ الله عليَّ روحي حتى أرد عليه السَّلام»[٥] رواه أبو داود والبيهقي في الدعوات الكبير، وعنه قال سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «لا تجعلوا بيوتكم قبوراً ولا تجعلوا قبري عيداً وصلوا عليّ فإن صلاتكم يبلغني حيث كنتم»[٦] وعن أبي طلحة «أن رسول الله ﷺ جاء ذات يوم والبشر في وجهه فقال: «إنه جاءني جبرئيل فقال إن ربك

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الدعوات، باب: الصلاة على النبي ﷺ (٦٣٥٧)، وأخرجه مسلم في كتاب: الصلاة، باب: الصلاة على النبي ﷺ بعد التشهد (٤٠٥).

(٢) أخرجه النسائي في كتاب: السهو، باب: الفضل في الصلاة على النبي ﷺ (١٢٩٠).

(٣) أخرجه الترمذي في كتاب: الوتر، باب: ما جاء في فضل الصلاة على النبي ﷺ (٤٨٠).

(٤) أخرجه النسائي في كتاب: السهو، باب: السلام على النبي ﷺ (١٢٧٥).

(٥) أخرجه أبو داود في كتاب المناسك، باب: زيارة القبور (٢٠٤١).

(٦) أخرجه أبو داود في كتاب: المناسك، باب: زيارة القبور (٢٠٤٢).

يقول أما يرضيك يا محمد أن لا يصلي عليك أحد من أمتك إلا صليتُ عليه عشراً ولا يسلم عليك أحد من أمتك إلا سلمتُ عليه عشراً»[١] رواه النسائي والدارمي.

وعن أبي بن كعب قال قلتُ يا رسول الله إني أكثر الصلاة عليك فكم أجعل لك من صلاتي؟ قال ما شئتَ، قال الربع؟ قال ما شئت وإن زدتَّ فهو خير لك، قلتُ النصف؟ قال ما شئتَ وإن زدت فهو خير لك، قلتُ فالثلثين؟ قال ما شئتَ فإن زدتَّ فهو خير لك، قلتُ أجعل لك صلاتي كلها قال: «إذاً تكفى همك ويكفر لك ذنبك»[٢] رواه الترمذي، وعن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «من سرَّه أن يكتال بالمكيال الأوفى إذا صلَّى علينا أهل البيت فليقل اللَّهم صلِّ على محمد النبيّ ﷺ الأمي وأزواجه أمهات المؤمنين وذريته وأهل بيته كما صليتَ على إبراهيم إنك حميد مجيد»[٣] رواه أبو داود عن عبد الله بن عمرو قال: «من صلَّى على النبيّ ﷺ واحدة صلّى الله عليه وملائكته سبعين صلاةً» رواه أحمد، وعن رويفع أن رسول الله ﷺ قال: «من صلّى على محمّد وقال: «اللَّهم أنزله المقعد المقرب عندك يوم القيامة وجبت له شفاعتي» رواه أحمد، وعن عبد الرحمن ابن عوف قال خرج رسول الله ﷺ حتى دخل نخلاً فسجد فأطال السجود حتى خشيتُ أن يكون الله توفاه قال فجئتُ أنظر فرفع رأسه فقال مالك؟ فذكرتُ ذلك له قال فقال: «إن جبرئيل عليه السلام قال لي ألا أبشرك أن الله عزَّ وجلَّ يقول لك من صلّى عليك صليتُ عليه ومن سلّم عليك سلمتُ عليه» رواه أحمد، وعن عمر بن الخطاب قال إن الدعاء موقوف بين السماء والأرض لا يصعد منه شيء حتى تصلّي على نبيك» رواه الترمذي، وعن عبد الله بن عامر بن ربيعة عن أبيه أنه سمع النبيّ ﷺ يقول: «من صلّى عليّ صلاةً صلت عليه الملائكة ما صلّى عليَّ فليقلل العبد من ذلك أو ليكثر» رواه البغوي وعن عليّ قال قال رسول الله ﷺ: «من صلَّى عليَّ صلاةً كتب له قيراط والقيراط مثل أحد» رواه عبد الرزاق في الجامع بسند حسن، وعن أبي الدرداء قال قال رسول الله ﷺ: «من صلَّى عليَّ حين يصبح عشراً وحين يمسي عشراً أدركته شفاعتي يوم القيامة» رواه الطبراني في الكبير بسند حسن.

---

(١) أخرجه النسائي في كتاب: السهو، باب: فضل التسليم على النبي ﷺ (١٢٧٦).

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: صفة القيامة والرقائق والورع (٢٤٥٧).

(٣) أخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب: الصلاة على النبي ﷺ بعد التشهد (٩٨١).

مسألة:

هل يجوز الصلاة والسَّلام على غير الأنبياء والصحيح أنه يجوز تبعاً ويكره إستقلالاً كما يكره أن يقال محمد عزّ وجلّ مع كونه عزيزاً جليلاً لاختصاصه بالأنبياء عرفاً كاختصاص ذلك بالله تعالى وقد ذكرنا هذه المسألة مبسوطاً في سورة التوبة في تفسير قوله تعالى: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾[١].

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٩﴾ ۞ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ﴾ قال البغوي قال ابن عباس هم اليهود والنصارى والمشركون فأما اليهود فقالوا عزير ابن الله ويد الله مغلولة، وقالوا إن الله فقيرٌ ونحن أغنياء، وأما النصارى فقالوا المسيح ابن الله. وثالثُ ثلاثَة. وأما المشركون فقالوا الملائكة بنات الله والأصنام شركاؤه. عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «قال الله تعالى: كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك وشتمني ولم يكن له ذلك، أما تكذيبه إياي فقوله لن يعيدني كما بدا إني وليس أول الخلق بأهون عليَّ من إعادته وأما شتمه إياي فقوله اتخذ الله ولداً وأنا الأحد الصمد الذي لم ألد ولم أولد ولم يكن لي كفواً أحد»[٢] وفي رواية ابن عباس «وأما شتمه إياي فقوله لي ولد فسبحاني أن أتخذ صاحبةً أو ولداً» رواه البخاري، وعن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «قال الله تعالى: يؤذيني ابن آدم يسب الدهر وأنا الدهر يبدي الأمر

---

(١) سورة التوبة، الآية: ١٠٣.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، باب: قوله: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾﴾ (٤٩٧٤)، وأخرجه النسائي في كتاب: الجنائز، باب: أرواح المؤمنين (٢٠٦٩).

أقلب الليل والنهار»[١] متفق عليه، وقيل معنى يؤذيني يلحدون في أسمائه وصفاته وقال عكرمة هم أصحاب التصاوير، عن أبي زرعة أنه سمع أبا هريرة رضي الله عنه قال سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: قال الله تعالى: «ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي فليخلقوا ذرةً وليخلقوا حبة أو شعيرة»[٢] متفق عليه، وروى البخاري عن ابن عباس «من صور صورةً فإن الله معذبه حتى ينفخ فيه الروح فليس بنافخ فيها أبداً»[٣] وقيل معنى الأذى مخالفة أمر الله وإرتكاب معاصيه وإنما ذكر على ما يتعارف الناس بينهم والله منزه من أن يلحقه اذىً من أحد ويؤذون ﴿رَسُولَهُۥ﴾ قال ابن عباس هو أنه شج وجهه وكسرت رباعيته وقيل ساحر شاعر معلم مجنون، وهذا الذي ذكرنا إنما يستقيم على قول من جوز إطلاق اللفظ الواحد على معنيين وعند الجمهور معناه أن الذين يرتكبون ما يكرهه الله ورسوله وجاز أن يكون معنى الآية الذين يؤذون رسول الله وذكر الله لتعظيم الرسول كانً من آذى الرسول فقد آذى الله. أخرج ابن أبي حاتم من طريق العوفي عن ابن عباس أن الآية نزلت في الذين طعنوا على النبيّ ﷺ حين إتخذ صفية بنت حيي، وقال جويبر عن الضحاك عن ابن عباس أنها نزلت في عبد الله ابن أبيّ وناس معه قذفوا عائشة الصديقة الطيبة فخطب النبيّ ﷺ وقال من يعذرني من رجل يؤذيني ويجمع في بيته من يؤذيني فنزلت، عن أنس وأبي هريرة عن النبيّ ﷺ أنه قال قال الله تعالى: «من أهان - ويروى - من عادى ولياً فقد بارزني بالمحاربة وما رددتُ في شيء أنا فاعله ما رددت في قبض نفس عبدي المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته ولا بد له منه وما تقرب بي عبدي المؤمن بمثل الزهد في الدنيا ولا يعبدني بمثل ما افترضتُه عليه»[٤] رواه البخاري، وعن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ إن الله تعالى يقول: «يا ابن آدم مرضتُ فلم تعدني قال يا ربّ كيف أعُودك وأنت رب العالمين قال أما علمتَ أن عبدي فلاناً مرض فلم تعده أما علمتَ أنك لو عدتَّه لوجدتني عنده يا ابن آدم ستطعمتُك فلم تطعمني»[٥] الحديث نحوه. رواه مسلم، قلتُ ولا شك أن معاداة

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، باب: ﴿وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ (٤٨٢٦)، وأخرجه مسلم في كتاب: الألفاظ من الأدب وغيرها، باب: النهي عن سب الدهر (٢٢٤٦).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: اللباس، باب: نقض الصور (٥٩٥٤)، وأخرجه مسلم في كتاب: اللباس والزينة، باب: تحريم تصوير صورة الحيوان (٢١١١).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: البيوع، باب: بيع التصاوير التي ليس فيها روح وما يكره من ذلك (٢٢٢٥).

(٤) أخرج البخاري بنحوه في كتاب: الرقاق، باب: التواضع (٦٥٠٢).

(٥) أخرجه مسلم في كتاب: البر والصلة والآداب، باب: فضل عيادة المريض (٢٥٦٩).

الأولياء لمّا كان معاداة ومحاربة مع الله تعالى وأسند الله سبحانه مرض أوليائه إلى نفسه تعالى عن ذلك علواً كبيراً لأجل وصل غير متكيف فإسناد إيذاء الرسول ﷺ إلى الله تعالى أولى وقيل نظر إلى ما ذكرنا من الأحاديث معنى الآية ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ﴾ أولياء الله على حذف المضاف كقوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾(١) يعني أهل القرية وهذا القول عندي غير سديد لأن ذلك يفضي إلى تقديم ذكر الأولياء على ذكر الرسول الله ﷺ فإن قيل هو تخصيص بعد تعميم فإن الرسول داخل في أولياء الله؟ قلنا لو كان كذلك لزم التكرار في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾﴾، جملة إن الذين يؤذون الله ورسوله مستأنفة كانه في جواب من سأل أنا أمرنا بالصلاة والسّلام على النبيّ ﷺ فما شأن من آذاه فقال الله تعالى لعنهم الله الخ.

مسألة

من آذى رسول الله ﷺ بطعن في شخصه أو دينه أو نسبه أو صفة من صفاته أو بوجه من وجوه الشين فيه صراحة أو كناية أو تعريضاً أو إشارة كفر ولعنة الله في الدنيا والآخرة وأعدَّ له عذاب جهنم، وهل يقبل توبته؟ قال ابن همام كل من أبغض رسول الله ﷺ بقلبه كان مرتداً فالسبّابُ بالطريق الأولىٰ ويقتل عندنا حدّاً فلا تقبل توبته في إسقاط القتل قالوا هذا مذهب أهل الكوفة ومالك، ونقل عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه ولا فرق بين أن يجيء تائباً بنفسه أو شهدوا عليه بذلك بخلاف غيره من موجبات الكفر فإن الإنكار فيها توبة ولا تعمل الشهادة معه حتى قالوا بقتل أن سبَّ سكران ولا يعفى عنه، ولا بد من تقييده بما إذا كان سكره بسبب محظور باشره باختياره بلا إكراه وإلا فهو كالمجنون، وقال الخطابي لا أعلم أحداً خالف في وجوب قتله وأما قتله في حق من حقوق الله تعالى فتعمل توبته في إسقاط قتله ولا يحكم بارتداد من أتى بكلمة الكفر سكران في غير سباب النبيّ ﷺ وإن كان السكر بسبب محظور باشره باختياره بلا إكراه.

﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟﴾ أي من غير أن يعملوا ما يوجب أذا هم وقال يقعون فيهم ويرمون بغير جرم ﴿فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ تنكير البهتان والإثم للتفخيم، قال مقاتل نزلت في علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وقيل نزلت في شأن عائشة رضي الله عنها، قلتُ اللفظ عام في كل من يؤذي مؤمناً أو مؤمنة

(١) سورة يوسف، الآية: ٨٢.

بأيِّ وجه كان وإن كان المورد خاصاً عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده والمؤمن من أمنه الناس على دمائهم وأموالهم»[١] رواه الترمذي والنسائي، وسب عائشة هو سب النبيّ ﷺ «من يعذرني من رجل يؤذيني ويجمع في بيته من يؤذيني» يعني عبد الله ابن أبيّ حين قذف عائشة فقول من قال هاهنا أنها نزلت في شأن عائشة معناه أن قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ إلى قوله: ﴿إِثْمًا مُّبِينًا﴾ نزلت في شأن عائشة لا الجملة الأخيرة وحدها، وكذا من سبّ علياً فقد آذى رسول الله ﷺ حيث قال رسول الله ﷺ: «أنت مني وأنا منك»[٢] رواه الشيخان في الصحيحين عن البراء بن عازب بل سب الصحابة عامتهم يفضى إلى إيذاء النبيّ ﷺ عن عبد الله بن مغفل رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «الله الله في أصحابي الله الله في أصحابي لا تتخذوهم غرضاً من بعدي فمن أحبهم فبحبي أحبهم ومن أبغضهم فببغضي أبغضهم ومن آذاهم فقد آذاني ومن آذاني فقد آذى الله ومن آذى الله فيوشك أن يأخذه»[٣] رواه الترمذي وقال هذا حديث غريب والله أعلم.

وقال الضحاك والكلبي نزلت الآية في شأن الزناة الذين يمشون في طُرق المدينة وهم المنافقون يتبعون النساء إذا برزن في الليل لقضاء حوائجهن فيغمزون المرأة فإن سكتت اتبعوها وإن زجرتهم إنتهوا عنها، ولم يكونوا يطلبون إلا الإماء ولكن كانوا لا يعرفون الحرة من الأمة لأن زي الكل كان واحداً يخرجن في درع وخمار الحرة والأمة فشكون ذلك إلى أزواجهن فذكروها لرسول الله ﷺ فنزلت هذه الآية ثم نهين الحرائران يتشبهن بالإماء في الآية اللاحقة والله أعلم.

أخرج ابن سعد في الطبقات عن أبي مالك وأخرج نحوه عن الحسن ومحمد بن كعب القرظي قال كان نساء النبيّ ﷺ يخرجن بالليل لحاجتهن وكان ناس من المنافقين يتعرضون لهن فيؤذين فشكون ذلك فقيل ذلك للمنافقين فقالوا إنما نفعله بالإماء فنزلت ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ﴾ أمر بتقدير اللام أي ليدنين ﴿عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾ جمع جلباب وهي الملحفة التي تشتمل بها المرأة فوق الدرع والخمار، روى

(١) أخرجه الترمذي في كتاب، الإيمان، باب: ما جاء أن المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده (٢٦٢٧).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: المغازي، باب: عمرة القضاء (٤٢٥١).

(٣) أخرجه الترمذي في كتاب: المناقب، باب: في من سب أصحاب النبي ﷺ (٣٨٧١).

البخاري عن عائشة قالت: «خرجت سودة بعدما ضرب الحجاب لحاجتها وكانت امرأة جسيمة لا تخفى على من يعرفها فرآها عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال يا سودة أما والله ما تخفين علينا فانظري كيف تخرجين قالت فانكفأت راجعة ورسول الله ﷺ في بيتي وإنه ليتعشى وفي يده عرق فدخلت، فقالت يا رسول الله إني خرجتُ لبعض حاجتي فقال عمر كذا وكذا قالت فأوحى الله تعالى إليه ثم رفع عنه وإن العرق في يده ما وضعه فقال إنه قد أذن لكن أن تخرجن لحاجتكن[1]، قلتُ يعني أذن لكن أن تخرجن متجلببات، قال ابن عباس وأبو عبيدة أمر نساء المؤمنين أن يغطين رؤوسهن ووجوههن بالجلابيب إلا عيناً واحداً ليعلم أنهن الحرائر ومن للتبعيض لأن المرأة ترخي بعض جلبابها ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ﴾ بإضمار إلى متعلق بأدنى أي أقرب إلى أن يعرفن أو بتقدير المضاف أي أدنى أسباب معرفتهن أنهن حرائر ﴿فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾ عطف على يعرفن أي فلا يتعرضهن أهل النفاق والفسق ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا﴾ لما سلف ﴿رَّحِيمًا﴾ بعباده حيث يراعى مصالحهم حتى الجزئيات منها، قال أنس مرّت بعمر بن الخطاب رضي الله عنه جارية متقنعة فعلاها بالدرة وقال يا لكاع أتشبهين بالحرائر ألقي القناع ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ عن نفاقهم وعما يتعرضون للنساء ﴿وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أي ضعف إيمان وقلة ثبات عليه أو فجور عن تزلزلهم في الدين أو فجورهم ﴿وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾ الذين يوقعون في المدينة الرجفة وهو الزلزلة والإضطراب الشديد، وذلك أن أناساً من المنافقين كانوا إذا خرجت سرايا رسول الله ﷺ يوقعون في الناس الأخبار الكاذبة يقولون أنهم قتلوا وانهزموا ويقولون قد أتاكم العدو ونحوها وقال الكلبي (يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا) ويفشون الأخبار يعني الكاذبة ﴿لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ﴾جواب لقسم محذوف لفظاً وللقسم والشر طمعاً معنى أي لنأمرنك بقتالهم وإجلائهم أو ما يضطرهم إلى طلب الجلاء أو لنسلطنك عليهم ﴿ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ﴾ عطف على لنغرينك لأنه يجوز أن يجاب به القسم لصحة قولك لأن لم ينتهو إلا يجاورونك ولمّا كان الجلاء عن الوطن من أعظم المصائب عطف بثم لبعد حاله عن حال المعطوف عليه أي لا يساكنونك ﴿فِيهَآ﴾ أي في المدينة ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي زماناً قليلاً أو جوازاً قليلاً حتى يخرجوا منها أو يقتلوا ﴿مَّلْعُونِينَ﴾ منصوب على الذم والشتم أو الحال والإستثناء شامل له أيضاً أي لا يجاورنك إلا ملعونين ولا يجوز أن ينتصب بقوله تعالى:

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، باب: قوله: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ﴾ (٤٧٩٥)، وأخرجه مسلم في كتاب: السلام، باب: إباحة الخروج للنساء لقضاء حاجة الإنسان (٢١٧٠).

﴿أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ﴾ أي وجدوا ﴿أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ تَقْتِيلًا﴾ لأن ما بعد كلمة الشرط لا يعمل فيما قبله والتشديد في قتلوا يدل على التكثير ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ﴾ مصدر مؤكد أي سنَّ الله ذلك في الأمم الماضية وهو أن يقتل الذين نافقوا بالأنبياء وسعوا في وهنهم بالإرجاف ونحوه أين ما ثقفوا أو منصوب بنزع الخافض أي كسنة الله ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ لأن الله تعالى لا يبدل سنته وغيره لا يقدر على أن يبدلها.

﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾﴾.

﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِۖ﴾ أي عن وقت قيامها إستهزاءً أو تعنتاً أو امتحاناً فالمشركون كانوا يستهزؤن ويسألون عن الساعة إنكاراً واستهزاءً واليهود كانوا يسألون إما تعنتاً وإما امتحاناً لأن الله عمى وقتها في التوراة وفي سائر الكتب ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ لم يطلع الله عليه أحداً من الأنبياء والملائكة ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ وأي شيء يعلمك وقت قيامها إذا لم يطلع الله عليه أحداً من خلقه ﴿لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ أي شيئاً قريباً أو يكون الساعة عن قريب أو إنتصابه على الظرف ويجوز أن يكون تذكير قريب لأن الساعة في معنى اليوم، وكونه قريباً مبنى على أن كل ما هو آت قريب ولعل لوجوب الوقوع وفيه تهديد للمستعجلين وإسكات للمتعنتين ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾﴾ ناراً شديد الإيقاد ﴿خَٰلِدِينَ﴾ حال من الضمير في لهم أي مقدرين خلودهم ﴿فِيهَآ﴾ أي في السعير ﴿أَبَدًاۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا﴾ يحفظهم ﴿وَلَا نَصِيرًا﴾ يدفع العذاب عنهم ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ﴾ ظرف لقوله لا يجدون أو منصوب باذكر أي يوم تصرف ﴿وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ﴾ من جهة إلى جهة كاللحم يشوى بالنار أو من حال إلى حال خصت الوجوه بالذكر لأنها أكرم مواضع من الجسد أو الوجه عبارة عن الجملة ﴿يَقُولُونَ﴾ حال من الضمير المجرور في وجوههم والمضاف جزء من المضاف إليه وهو مسند إليه فيصح وقوع الحال عنه ﴿يَٰلَيْتَنَآ﴾ أي يا قومنا ليتنا وقيل يا للتنبيه ﴿أطعنا الله﴾ في الدنيا ﴿وأطعنا﴾ في الدنيا ﴿الرسولا﴾ فلم نبتل بهذا العذاب في الآخرة زيدت الألف، في الرسولا والسبيلا لرعاية الفواصل

والدلالة على إنقطاع واستئناف ما بعده ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا﴾ يا ربنا ﴿إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا﴾ يعنون قادتهم الذين سنوالهم الكفر قرأ ابن عامر ويعقوب ساداتنا بكسر التاء وألف قبلها على جمع الجمع للدلالة عى الكثرة والباقون بفتح التاء بلا ألف قبلها ﴿فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا﴾ بما زيّنوه لنا ﴿ربنا﴾، أي يا ربنا ﴿ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ﴾ أي مثلي ما آتيتنا منه لأنهم ضلوا وأضلونا ﴿وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾ قرأ عاصم بالباء الموحدة أي أشد اللعنُ وأعظمه والباقون الثاء المثلثة أي كثير العدد.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ ءَاذَوْا مُوسَىٰ﴾ يعني قالوا فيه ما يشينه ﴿فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا﴾ فأظهر براءته قيل ذلك ما روي عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «إن موسى كان رجلاً حيياً كريماً ستيراً لا يرى من جلده شيء استحياءً منه فآذاه من آذاه من بني إسرائيل فقال ما يستر هذا الستر إلا من عيب بجلده إما برص وإما أدرة وإما آفة فأراد الله أن يبرئه مما قالوا، فخلا وحده وخلع ثيابه ووضع ثيابه على الحجر ثم اغتسل فلمّا فرغ أقبل على ثيابه ليأخذها فإذا الحجر عدا بثوبه فأخذ موسى عصاه وطلب الحجر فجعل يقول ثوبي يا حجر ثوبي يا حجر حتى انتهى إلى ملأ من بني إسرائيل فرأوه عرياناً أحسن ما خلق الله فأبرأه مما يقولون وقام الحجر فأخذ موسى ثوبه ولبسه وطفق بالحجر ضرباً بعصاه فوالله إن بالحجر لبقيا من أثر ضربه ثلاثاً أو أربعاً أو خمساً فذلك قوله تعالى: «يأيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا»[1] رواه البخاري والترمذي وأحمد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه وعبد الرزاق وعبد بن حميد. وقال أبو العالية هو أن قارون استأجر امرأة لتقذف موسى بنفسها على رأس الملأ فعصمه الله فبرأ موسى من ذلك وأهلك قارون وقد مر القصة في سورة القصص، وقال قوم أذاهم موسى أنه لما مات هراون في التيه إدَّعوا على موسى إنه قتله فأمر الله الملائكة حتى مروا به على بني إسرائيل فعرفوا أنه لم يقتله فبرأه الله مما قالوا، أخرجه ابن منيع وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه عن ابن عباس عن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم والله أعلم.

روى البخاري عن عبد الله رضي الله عنه قال: «قسّم النبي ﷺ قسماً فقال رجل إن هذه القسمة ما أريد بها وجه الله فأتيت النبيّ ﷺ فأخبرته فغضب حتى رأيت الغضب في

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: أحاديث الأنبياء (٣٤٠٤)، وأخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة الأحزاب (٣٢٢١).

وجهه فقال: «يرحم الله موسى قد أوذي بأكثر من هذا فصبر»(١) ﴿وَكَانَ﴾ موسى ﴿عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا﴾ أي كريماً ذا جاه يقال وجه الرجل يوجه وجاهة فهو وجيه إذا كان ذو جاه وقدر، قال ابن عباس كان عند الله بحيث لا يسأل شيءاً إلا اعطاه وكذا قال الحسن وقيل كان مجيباً مقبولاً ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟﴾ في إرتكاب ما يكرهه فضلاً عما يؤذى رسوله ﴿وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا﴾ قال ابن عباس صواباً، وقال قتادة عدلاً وقال الحسن صدقاً وقيل مستقيماً وقيل قاصداً إلى الحق والمآل واحد يعني صدقاً غير كذب ولا مجازفة فأن الكذب يمحق والصدق يبقى، قيل المراد منه نهيهم عما خاضوا فيه من حديث زينب من غير قصد وعدل وما خاضوا فيه من حديث إفك عائشة، قال عكرمة هو قول لا إله إلا الله ﴿يُصْلِحْ﴾ مجزوم في جواب الأمر وكذا ما عطف عليه ﴿لَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ﴾ قال ابن عباس يقبل حسناتكم، وقال مقاتل يزكي أعمالكم يعني يصلحها للقبول والإثابة عليها وقيل معناه يوفقكم للأعمال الصالحة ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ أي يجعلها مكفرة باستقامتكم على القول والعمل ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ أي ظفر بالخير كله يعيش في الدنيا حميداً أو يبعث في الآخرة سعيداً ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَـٰنُ﴾ وهاهنا أبحاث الأول في أن الأمانة ما هي الثاني في أن المراد بالسماوات والأرض والجبال ما هي أعيانها أو أهلها كما في قوله تعالى: ﴿وأسأل القرية﴾(٢) يعني أهلها والثالث إن المراد بالعرض الخطاب اللفظي التي فرض الله تعالى على عباده عرضها الله تعالى على السماوات والأرض والجبال يعني على أعيانها بالخطاب اللفظي على أن أدتها أثابهن وإن ضيعتها عذبهن، وقال ابن مسعود الأمانة أداء الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت وصدق الحديث والعدل في الكيل والوزن وأشد من هذا كله الودائع، وقال مجاهد الأمانة أداء الفرائض وحفظ الدين وقال أبو العالية ما أمروا به ونهوا عنه وقال زيد بن أسلم هي الصوم والغسل من الجنابة وما يخفى من الشرائع يعني ما لا مدخل للرياء فيه وقال عبد الله بن العاص أول ما خلق الله من الإنسان فرجه وقال هذه أمانة استودعكها فالفرج أمانة والأذن أمانة والعين أمانة والرجل أمانة ولا إيمان لمن لا أمانة له، وقال بعضهم هي أمانات الناس والوفاء بالعهود

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: فرض الخمس، باب: ما كان النبي ﷺ يعطي المؤلفة قلوبهم وغيرهم من الخمس ونحوه (٣١٥٠)، وأخرجه مسلم في كتاب: الزكاة، باب: إعطاء المؤلفة قلوبهم على الإسلام (١٠٦٢).

(٢) سورة يوسف، الآية: ٨٢.

فحق على كل مؤمن أن لا يغش مؤمناً ولا معاهداً في شيء قليل ولا كثير وهي رواية الضحاك عن ابن عباس، ومرجع هذه الأقوال أن الأمانة هي التكليفات الشرعية والمراد بالسماوات والأرض أعيانها قال البغوي هذا قول ابن عباس وجماعة وأكثر السلف والعرض بالخطاب اللفظي، قال البغوي، قال الله تعالى لهن أتحملن هذه الأمانة بما فيها قلن وما فيها؟ قال إن أحسنتن جوزيتن وإن عصيتن عوقبتن فقلن لا يا رب نحن مسخرات لأمرك لا نريد ثواباً ولا عقاباً، قلن ذلك خوفاً وخشيةً وتعظيماً لدين الله أن لا يتأدى منهن حقه لا معصيةً ومخالفةً وكان العرض عليهن تخييراً لا إلزاماً ولو ألزمهن لم يمتنعن من حملها، وقيل المراد بالعرض الخطاب اللفظي وبالسماوات والأرض والجبال أعيانها وبالعرض اعتبارها بالإضافة إلى استعدادهنُ بأبائهن الآباء الطبيعي الذي هو عدم اللياقة والإستعداد وبحمل الإنسان قابليته وإستعداده لها وكونه ظلوماً جهولاً ما غلب عليه من القوة الغضبية والشهوية وعلى هذا يحسن أن يكون هذان الصفتان باعثتين للجمل عليه.

قال البيضاوي لعل المراد بالأمانة العقل أو التكليف ومن فوائد العقل أن يكون مهيمناً على القوتين حافظاً لهما عن التعدّي ومجاوزة الحدود الشرعية ومعظم مقصود التكليف تعديلها وكسر شوكتها، وأيضاً قال البيضاوي هذه الآية تقرير للوعد السابق بتعظيم الطاعة وسماها أمانة من حيث أنها واجبة الأداء والمعنى أنها لعظم شأنها بحيث لو عرضت على الأجرام العظام، وكانت ذات شعور وإدراك لأبت أن تحملها وأشفقت منها وحملها الإنسان مع ضعف بُنيته ورخاوة قوته لا جرم فاز الراعي بها والقائم بحقوقها بخير الدارين، قلتُ ونظيره قوله تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾[1] فهذه الآية على هذا التأويل كأنه مثل ضرب وهذان القولان يعني قول من ارتكب التجوز في لفظ السماوات ونحوها وقول من إرتكب التجوز في العرض والخطاب مبنيان على إستبعاد الخطاب مع الجمادات، فقال بعضهم في دفع هذا الإستبعاد أنه تعالى لما خلق هذه الأجرام خلق فيها فهماً وقال إني فرضتُ فريضةً وخلقتُ جنةً لمن أطاعني وناراً لمن عصاني فقلن نحن مسخرات على ماخلقتنا لا نحتمل فريضة ولا نبغي ثواباً، ولما خلق آدم عرض عليه مثل ذلك فتحمله وكان ظلوماً لنفسه بتحمله ما يشق عليه جهولاً لو خامة عاقبته، أخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد نحوه وفيه فكان بين أن تحملها إلى أن أخرج من الجنة قدر ما بين الظهر والعصر.

---

(١) سورة الحشر، الآية: ٢١.

وقيل في دفع الاستبعاد: إن الجمادات كلها وإن كانت غير عاقلةٍ بالنسبة إلينا لكنها بالنسبة إلى الله تعالى عاقلةً خاضعةً مطيعةً ساجدةً له قال الله تعالى: للسماوات والأرض ﴿ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين﴾(١) وقال الله تعالى: ﴿وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار وإن منها لما يهبط من خشية الله﴾(٢) وقال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ﴾(٣) قيل المراد بالإنسان في قوله تعالى: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾ آدم عليه السَّلام، قال الله تعالى لآدم إني عرضت الأمانة على السماوات والأرض والجبال فلم يطقنها قال وأنت آخذ بما فيها قال يا رب وما فيها قال إن أحسنت جوزيتَ وإن أسأت عوقبتَ فحملها آدم فقال بين أذني وعاتقي فقال الله تعالى إذا قبلتَ فسأعينك وأجعل لبصرك حجاباً فإذا خشيت أن تنظر إلى ما لا يحل فضع عليه حجابه وأجعل للسانك كحيين وغالقاً فإذا خشيتَ فأغلق وأجعل لفرجك لباساً فلا تكشف على ما حرمتُ عليك، قال مجاهد فما كان بين أن حملها وبين ما خرج من الجنة إلا مقدار ما بين الظهر والعصر، قلتُ: لعل الحكمة في إخراجه من الجنة بعد حمل الأمانة أن الجنة ليست محلاً لأداء الأمانة بل هي محل للثواب على أدائها فأُخرج إلى الدنيا التي هي مزرعة الآخرة لأداء الأمانة، قال البغوي حكى النقاش بإسناده عن ابن مسعود أنه مُثِّلت الأمانة كصخرة ملقاة ودعيت السماوات والأرض والجبال إليها فلم يقربن منها وقلن لا نطيق حملها وجاء آدم من غير أن دعي وحرك الصخر وقال لو إمرتُ بحملها لحملتُها فقال له إحملها فحملها إلى ركبتيه ثم وضعها وقال والله إن أردت أن أزداد لزدتُّ فقلن له أحمل فحملها حتى وضعها عى عاتقه فأراد أن يضعها فقال الله تعالى مكانك فإنما هي في عنقك وعنق ذريتك إلى يوم القيامة، وذكر الزجاج وغيره من أهل المعاني المراد بالأمانة الطاعة التي يعم الطبيعية والإختيارية وبعرضها استدعاؤها الذي يعم طلب الفعل من الإختيار وإرادة صدوره من غيره وبحملها الخيانة فيها والإمتناع عن أدائها ومنه قولهم حامل لأمانة ومحتملها لمن لا يؤديها فيبرأ ذمته فيكون الإباء عنه إتيانها بما يمكن أن يتأتى والظلم والجهالة للخيانة والتقصير قال الله تعالى: ﴿ويحملون أثقالهم﴾(٤) وحكي عن الحسن على هذا التأويل أنه قال وَحَمَلَهَا

---

(١) سورة فصلت، الآية: ١١.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٧٤.

(٣) سورة الحج، الآية: ١٨.

(٤) الآية هي: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ﴾ سورة العنكبوت: الآية: ١٣.

الإنسان ويعني الكافر والمنافق حملا الأمانة أي خانا قال البغوي قال السلف هو الأول قلتُ ولمَّا كان مقتضى سياق الآية اختصاص الإنسان بحمل الأمانة دون غيره من المخلوقات فالقول بأن الأمانة هي التكليفات الشرعية غير مناسب لاشتراك الجن والملائكة فيها، ويلزم منه فضل الملائكة على الإنسان لأدائهم الأمانة بكمالها لعصمتهم ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ ٢٠﴾[1] بخلاف الإنسان لأن منهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله، ومن ثم قالت الصوفية العلية المراد بالأمانة نور العقل ونار العشق فنور العقل يحصل به معرفة الله سبحانه بالإستدلال ونار العشق يحصل بها معرفة الله سبحانه بحرق الحجب والملائكة وإن كانوا عباد الله المقربين لكنهم مخلوقين في مقام معلوم من القرب والعرفان قال الله تعالى حكاية عنهم ﴿وما منا إلا له مقام معلوم﴾[2] فالترقي إلى المراتب الغير المتناهية بنار العشق إنما هو من خصائص الإنسان، وعندي على ما استفدتُ من كلام المجدد للألف الثاني رضي الله عنه أن الأمانة ما أودع الله سبحانه في ماهية الإنسان من الإستعداد للتجليات الذاتية الدائمة فإن الجن وإن كان بعد الإيمان والإتيان بالأعمال الصالحة يلحق بالملائكة وتستعد للتجليات الصفاتية لكن التجلي الذاتي لا يتحملها من لا مزاج له من الأرض وهذا الإستعداد هو المستوجب للخلافة وهذا العلم هو المعنى بقوله تعالى للملائة في حق آدم عليه السَّلام ﴿إني أعلم ما لا تعلمون﴾[3] يعني اعلموا أن التجلي الذاتي لا يتحملها من لا مزاج له من الأرض وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومٗا﴾ يعني مركباً للقوى السبعية الداعية إلى التفوق والتعلي المقتضية للترقيات إلى أعلى الشواهق ﴿جَهُولٗا﴾ مَرُكَباً للقوى البهيمية التي يطيق بها صاحبها تحمل رياضات ومشاق لا بد منها للعاشق في طلب وصل المحبوب فهو تعليل ومنقبة له، وتلك القوتين جميعاً ناشئتان من الأرض فإن مادة الأرض لكمال كثافة يتحمل التجلي الذاتي كما أن الأجرام الأرضية لكثافتها تتنور بنور الشمس دون الأجرام اللطيفة والملائكة المقربون منحصرون في مقاماتهم وولاياتهم وإن كانت ولا يتهم فوق ولاية الأنبياء لكونها مستفادة من الصفات من حيث البطون أعني من حيث قيامها بذات الله سبحانه وولاية الأنبياء من الصفات من حيث الظهور أعني من حيث هي، هي لا من حيث قيامها بالذات، ومن هذه الاعتبارات هي مبادي لمبادي تعينات العالم

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٢٠.

(٢) سورة الصافات، الآية: ١٦٤.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٣٠.

لكن لاحظ للملائكة من التجلي الذاتي الذي هي كمالات النبوة، ولأجل ذلك إختص النبوة بنوع البشر دون غيرهم وصار خواص البشر أي الأنبياء أفضل من خواص الملائكة وصارت الجنة للشر والملائكة تدخلون عليهم من كل باب ومن قال إن المراد بالأمانة التكليفات الشرعية وبتحملها قبولها بالإختيار فمعنى هذه الجملة عندهم أنه كان ظلوماً لنفسه بتحمله ما يشق عليه جهولاً بوخامة عاقبته وما يلحقه العذاب بترك ادائه وليس فيه مذمة للإنسان بل هي بيان للواقع، وقال البيضاوي حين قال هذه الآية تقرير للوعد السابق ما معناه أن الأمانة مع عظم شأنها بحيث لا يطيق حملها الأجرام العظام لو فرضت ذات شعور وحملها الإنسان مع ضعف بنيته فاز الراعي لها بخير الدارين أن قوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا﴾ حيث لم يف بها ولم يراع حقها جهولاً بكنه عاقبتها وصف للجنس باعتبار الأعم الأغلب، وقال صاحب بحر المواج معناه أن الإنسان كان ظلوماً حيث زعم نفسه قادراً على أداء ما اشفقت عنه السماوات وأمثالها ثم لم يؤدّها جهوُلاً لعجزه عن أدائها، وهذا التأويل ليس عندي بمرض لأن تحمل الأمانة كان من آدم عليه السلام وهو المراد بالإنسان وهو كان نبيّاً معصوماً قد أدى ما حمل عليه وضمير أنَّه راجع إلى من حمل، وقالت الصوفية معنى الآية أنه أي الإنسان باعتبار أكثر أفراده كان ظلوماً على نفسه حيث ضيع استعداده للمعرفة والتجليات الإلهية الذي هو فطرة الله التي فطر الناس عليها جهولاً يحسن ما فات عنه وقبح ما اكتسبه قال رسول الله ﷺ: «ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهوّدانه أو ينصّرانه أو يمجسانه»[(١)] الحديث متفق عليه من حديث أبي هريرة، قلتُ: لما سمعتَ أن الظلم كناية عن القوة السبعية والجهل عن القوة البهيمية وحسن القوتين وقبحهما ليس إلا بحسب متعلقهما ومصرفهما ألا ترى أن القوة السبعية إن صرفت لدفع أعداء الدين من الشيطان وأمثاله وكسب التفوق والتعلي إلى مدارج القرب كانت حسنة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ۝﴾[(٢)] وأن الله يحب معالي الهمم، وإن صرفت في قهر المعصومين والتكبر والتعلي في مقابله رب العالمين كانت قبيحة ﴿إلا لعنة الله على الظالمين﴾[(٣)] ﴿وإن الله لا يحب كل مختالٍ فخورٍ﴾[(٤)]

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الجنائز، باب: ما قيل في أولاد المشركين (١٣٨٥)، وأخرجه مسلم في كتاب: البر والصلة والآداب، باب: معنى كل مولود يولد على الفطرة (٢٦٥٨).

(٢) سورة الصف، الآية: ٤.

(٣) سورة هود، الآية: ١٨.

(٤) سورة لقمان، الآية: ١٨.

وكذا القوة البهيمية إن صرفت في كسب السعادة كانت حسنة وإن صرفت في كسب اللذات كانت قبيحة ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾[١] ولا شك أن حسن تعلقهما موقوف على تزكية النفس والقلب والعناصر قال رسول الله ﷺ: «إن في جسد بني آدم لمضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب»[٢] رواه البخاري. ﴿قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها﴾[٣] وامتثال التكليفات الشرعية سبب لتزكيتها فإن كان المراد بالأمانة التكليفات الشرعية فقوله إنَّه كان ظلوماً جهولاً إشارة إلى علة تحميل الإنسان وتحمله تلك الأمانة فالمعنى إنَّه كان ظلوماً جهُوُلاً ولأجل ذلك عرضنا عليه الأمانة وتحمله آدم عليه السَّلام حتى يتزكى بها عن الرذائل ويستعد للفضائل ويكون محموداً في الدارين وإن كان المراد بالأمانة التجليات الذاتية فهو إشارة إلى أنه كان أهلاً لتلك الأمانة دون غيره لأن تلك الأمانة لا يتصور حملها إلا من كان جامعاً لتلك الصفتين كما ذكرنا وغيرهما من الحواس والقوى.

وعلى كلا التقديرين لَمَّا كانت الصفتان المذكورتان على تقدير عدم التزكية والخذلان من الله تعالى وكونهما مصر وفتين في الباطل موجبتين للعذاب وعلى تقدير التزكية والتأييد من الله وكونهما مصروفتين في الحق موجبتين للرحمة والثواب حسن تعليل حمل الأمانة وعرضها الذي هو مقتضى تلك الصفتين المركبتين في الطبيعة الإنسانية بقوله تعالى: ﴿لِيُعَذِّبَ ٱللَّهُ﴾ اللام للعاقبة كما في قوله: لدوا للموت وابنو للخراب ﴿ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ﴾ امضيعين للأمانة والمنهمكين في الظلم واللذات ﴿وَيَتُوبَ ٱللَّهُ﴾ أي يرجع بالرحمة والمغفرة والجذب والاجتباء وإعطاء مراتب القرب ﴿عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ المؤدين للأمانات المستغرقين في التجليات، قال ابن قتيبة أي عرضنا الأمانة يعني التكليفات الشرعية أو الإستعداد المودع ليظهر نفاق المنافق وشرك المشرك فيعذبهم الله ويظهر إيمان المؤمن (قلتُ وعرفان العارف) فيتوب عليه بالرحمة والمغفرة إن حصل منه تقصير في بعض الطاعات قلتُ وبالتجليات الذاتية الدائمة والوصل بلا كيف من غير حجاب وذكر التوبة في الوعد إشعار بأن كونهم ظلوماً جهُوُلاً في جبلتهم فلا يخلوا عن

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٨٦.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الإيمان، باب: فضل من استبرأ لدينه (٥٢) وأخرجه مسلم في كتاب المساقاة، باب: أخذ الحلال وترك الشبهات (١٥٩٩).

(٣) سورة الشمس، الآية: ٩ ـ ١.

فرطات ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا﴾ للمؤمنين حيث تاب على فرطاتهم ﴿رَّحِيمًا﴾ بهم حيث أثابهم على طاعاتهم تفضلا وأفاض عليهم تجلياته وبركاته.

تم تفسير سورة الأحزاب (ويتلوه سورة سبأ إن شاء الله تعالى) غرة شهر المحرم من السنة السابعة بعد الألف ومائتين سنة وصلّى الله على محمَّد وآله وأصحابه.

سورة سبأ

آياتها أربع وخمسون وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿١﴾ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ ﴿٢﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٣﴾ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾ أَفْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ ﴿٨﴾ أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنْ نَشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ﴿٩﴾﴾.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ ملكاً وخلقاً وقهراً فهو الحقيق بالحمد سرّاً وجهراً دون غيره وإنما يحُمد غيره لأجل إضافة بعض النعم إلى غيره ظاهراً وبالمجاز ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ﴾ لأن نعماء الآخرة أيضاً له تعالى، وليس هٰذا من قبيل عطف المقيد على المطلق بل المعطوف عليه مقيداً بكونه في الدنيا لما يدل الوصف بالموصول والصلة على أنه المنعم بالنعم الدنيوية فله الحمد في الدنيا لكمال قدرته وتمام نعمته وكذا في الآخرة لأن نعماء الآخرة أيضاً له تعالى، وتقديم الظرف في الجملة الثانية للإشعار بأن الحمد في الدنيا قد يكون الله تعالىٰ بواسطة من يستحق الحمد لأجلها ولا

كذلك نعم الآخرة بل هي مختصة بالله تعالى، قيل الحمد في الآخرة هو حمد أهل الجنة كما قال الله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَـٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾(١) ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ﴾(٢) و ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾(٣) ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ﴾ الذي أحكم أمور الدين ﴿ٱلْخَبِيرُ﴾ ببواطن الأشياء وظواهرها ﴿يَعْلَمُ﴾ حال أو استئناف في مقام التعليل ﴿مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ من المطر الذي ينفذ في مسام الأرض والأموات والكنوز ﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ من النبات والفلذات والأموات إذا حشروا والماء من الآبار والعيون ﴿وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ من الأمطار والصواعق والملائكة والكتب والمقادير والأرزاق وأنواع البركات وأصناف البليات ﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ من الملائكة وأعمال العباد والدعوات ﴿وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ﴾ فينزّلُ ما يحتاجون إليه ﴿ٱلْغَفُورُ﴾ للمفرطين في شكر نعمته مع كثرتها هذه الجملة معطوفة على والله يعلم.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ﴾ إنكار لمجيئها معطوف على جملة مقدرة مفهومة من قوله تعالى: ﴿وله الحمد في الآخرة وهو الرحيم الغفور﴾ فإنه يفهم منه وعد الله بالرحمة والمغفرة للحامدين يوم تأتي الساعة ﴿قُلْ بَلَىٰ﴾ رد لكلامهم وإثبات لما نفوه ﴿وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ تكريره لإيجابه مؤكداً بالقسم وبتوصيف المقسم به بقوله عالم الغيب فإن عظم المقسم به تؤذن بقوة حال المقسم وفيه إشارة إلى أن الساعة من الغيب وعلمه مختص بالله تعالى يكفي لإثباته شهادة تعالى ولا يجوز لأحد إثبات شيء من الغيب ولا نفيه إلا بتعليم من الله تعالى، قرأ حمزة والكسائي ﴿علام الغيب﴾ على وزن فَعَّالٍ للمبالغة والباقون على وزن فاعل، وقرأ نافع وابن عامر بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف أو مبتدأ خبره ما بعده والباقون بالجر على أنه صفة للرب ففيه تأكيد للرّدِ على إنكارهم فإن إنكارهم ليس إلا مبنياً على جهلهم واستبعادهم ممكناً مثل سائر الممكنات ثابتاً ومعناهما واحد أي لا يغيب ﴿عَنْهُ مِثْقَالُ﴾ أي مقدار ثقل ﴿ذَرَّةٍ﴾ أي نملة صغيرة كائنة ﴿فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ موجهة في شيء من الأزمنة الماضية أو المستقبلة أو الحال والقول بأن المعنى لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ موجودة في الزمان الحال كائنة في السماوات أو الأرض يأباه المقام لأن الجملة واقعة تأكيداً لقوله.

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٤٣.

(٢) سورة الزمر، الآية: ٧٤.

(٣) سورة فاطر، الآية: ٣٤.

عَالِمِ الْغَيْبِ بياناً لشمول علمه جميع الكائنات ماضياً كان أو مستقبلاً حتى يكون مؤكداً للإخبار بإتيان الساعة، وأيضاً حضور جميع الأشياء الموجودة في الحال بكسر لبعض من الخلائق كما طكرنا في سورة الأنعام في تفسير قوله تعالى: ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾[١] إنه قيل يا رسول الله ملك الموت واحد والزحفان يلتقيان من المشرق والمغرب وما بين ذلك من السقط والهلاك أنه حوى الدنيا الملك الموت حتى جعلها كالطست بين يدي فهل يفوته منها شيء، فالظاهر من هذه الآية أن الأزمنة كلها وما فيها من الزمانيات الماضية والمستقبلة حاضرة عند الله سبحانه وهو خارج عن الزمان كما أن الأمكنة والمكانيات حاضرة عنده تعالى وهو خارج عن المكان لا يجري عليه زمان كما لا يحويه مكان فالزمان مخلوق له تعالى حدوثاً ذاتياً كما أن المكان مخلوق له فالماضي والمستقبل بالنسبة إليه سواء كما أن الأمكنة كلها بالإضافة إليه سواء. وقد نبه على ذلك بعض الأكابر من علماء الظاهر. قال الجلال الدواني رحمة الله عليه في رسالته الزوداء إذا اعتبرتَ الامتداد الزماني الذي هو محل التغيير والتبديل وعرض الحوادث الكونية بما يقارنه من الحوادث جملة واحدة وجدتَّه شأناً من شؤون العلة الأولى محيطاً لجميع الشؤون المتعاقبة، ثم إن أمعنتَ النظر وجدتَ التعاقب باعتبار حضور حدود ذلك الإمتداد وغيبوبتها بالنسبة إلى الزمانيات الواقعة تحت حيطته، وأما المراتب العالية عليها فلا تعاقب بالنسبة إليها بل الجميع متساوية بالنسبة إليها متحاذية في الحضور لذاتها فما ظنك ما على شواهق العوالي ليس عند ربك صباح ولامساء. تنبيه إذا أخذت امتداد مختلف الأجزاء في اللون كخشب اختلف اللون في أجزائه ثم أمررته في محاذاة ذرة أو غيرها ممَّا يضيق حدقته عن الإحاطة بجميع ذلك الامتدادات ليس تلك الألوان المختلفة متعاقبة في الحضور لديها لضيق حدقتها متقاربة في الحضور لديك لقوة إحاطتك. ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾[٢] وانتهى كلامه.

فائدة:

وقد يأتي على بعض الأكابر حالة يخرج فيه من حيز الزمان فيرى الماضي أو المستقبل موجوداً عنده ويشهد عليه ما رواه الشيخان في الصحيحين عن عبد الله بن عباس قال: انخسفت الشمس على عهد رسول الله ﷺ فصلّى رسول الله ﷺ والناس فقام قياماً

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٦١.

(٢) سورة الحشر، الآية: ٢.

طويلاً فذكر الحديث بطوله حتى قال قالوا يا رسول الله رأيناك تناولْتَ شيئاً في مقامك هذا ثم رأيناك تكعكعتَ؟ فقال: «إني رأيتُ الجنة فتناولت منها عنقوداً ولو أخذتُه لأكلتم منه ما بقيت الدنيا ورأيتُ النار فلم أر كاليوم منظراً قط أفظع ورأيتُ أكثر أهلها النساء»[١] الحديث، ولا شك أن دخول النساء في النار لا يكون إلا بعد القيامة وقد رآه النبيّ ﷺ موجوداً لا يقال لعل النبيّ ﷺ رأى صورة النار والجنة في عالم المثال مثل ما يرى النائم في المنام لأن قوله: «لو أخذته لأكلتم منه ما بقيت الدنيا» صريح في أنه ﷺ رأى حقيقة الجنة والنار دون مثالهما، وروى مسلم عن جابر أن رسول الله ﷺ قال: «**رأيتُ الجنة فرأيت امرأة أبي طلحة وسمعتُ خشخشة أمامي فإذا بلال**»[٢] وما روى أحمد وأبو داوود والضياء عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ «**لما عرج بي ربي عزَّ وجلَّ مررتُ بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون وجوههم وصدورهم فقلتُ من هؤلاء يا جبرئيل؟ قال هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون في أعراضهم**»[٣] وعن جابر قال قال رسول الله ﷺ: «عرضت عليَّ النار فرأيت فيها امرأة من بني إسرائيل تعذب في هرة ربطتها فلم تطعمها ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض حتى ماتت جوعاً ورأيتُ عمرو بن عامر الخزاعي يجر قصبة في النار وكان أول من سيب السوائب»[٤] رواه مسلم.

وقال أكثر المفسرين معنى قوله تعالى: لا يَعْزُبُ عَنْهُ أي علمه مِثْقَالُ ذَرَّةٍ ﴿وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ﴾ أي من الذرة ﴿وَلَآ أَكْبَرُ﴾ منه ﴿إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ جمله مؤكدة لنفي العزوب إن كان المراد بالعزوب العزوب عن علمه أو المراد بالكتاب المبين علمه تعالى أو اللوح المحفوظ الذي حاك عن بعض من علومه، وإن كان المراد عدم عزوب شيء من ذاته سبحانه فهذا تأسيس لا تأكيد وأصغر وأكبر مرفوعان بالإبتداء ويؤيده القراءة بالفتح على إعمال لا التي لنفي الجنس، ولا يجوز العطف مرفوعاً على مِثْقَالُ ومفتوحاً على ذرة في محل الجر لامتناعها من الصرف لأن الاستثناء عنه هو ولا يجوز أن يكون الإستثناء

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: النكاح، باب: كفران العشير وهو الزوج وهو الخليط من المعاشرة (٥١٩٧)، وأخرجه مسلم في كتاب: الكسوف، باب: ما عرض على النبي ﷺ في صلاة الكسوف من أمر الجنة والنار (٩٠٧).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب: فضائل الصحابة، باب: من فضائل أم سليم أم أنس بن مالك وبلال رضي الله عنهما (٢٤٥٧).

(٣) أخرجه أبو داود في كتاب: الأدب، باب: في الغيبة (٤٨٧٠).

(٤) أخرجه مسلم في كتاب: الكسوف، باب: صلاة الكسوف (٩٠١).

منقطعاً بمعنى لكن لأن الإستدراك والإستثناء المنقطع بعد النفي يكون إثباتاً فيكون المعنى لا يعزب مثقال ذرة ولا أصغر منه ولا أكبر ولكن يعزب في كتاب مبين وهذا فاسد، قال البيضاوي اللّهم إذا جعل الضمير يعزب للغيهب وجعل المثبت في اللوح خارجاً عنه لظهوره على المطالعين له فيكون المعنى لا ينفصل عن الغيب إلا مسطوراً في اللوح، وهذا التوجيه ضعيف كما يشعر به كلام البيضاوي لأن كونه في اللوح لا يخرجه عن الغيب والكلام في شمول علمه تعالى، ولا مساس لهذا التوجيه بالمدعى على أنه ورد في سورة يونس بلفظ ﴿وما يَعْزُبُ عَنْ رَّبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ في الأَرْضِ ولا في السماء وَلا اصْغَرَ مِنْ ذٰلِكَ وَلاَ أكْبَرَ إلاَّ في كتابٍ مُبِينٍ﴾[1] وَلاَ يتأتى هٰذا التوجيه هناك، وقيل هذا على طريقة المدح بما يشبه الذم كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ﴾[2] بالله كقولك في زيد لا عيب فيه إلاّ أنه عالم يعني لا عيب فيه أصلاً والمعنى لا يعزب عنه مثقال ذرة إلا في كتاب مبين حكمه فكيف يغب عنه ﴿لِّيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ علة لقوله: ﴿لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ وبيان لما يقتضي إتيانها ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ لما قصروا في أداء حقوق العبودية التي لا يمكن استيفاؤها ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ حسن في الجنة لا تعب فيه ولا من عليه لما أتوا بها من الحسنات وتفضلاً.

﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْ﴾ عطف على ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ مفعول ليجزي أي ليجزي الذين سعوا ﴿فِىٓ ءَايَٰتِنَا﴾ بالإبطال وتزهيد الناس فيها ﴿مُعَٰجِزِينَ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو معجزين من التفعيل أي مثبطين عن الإيمان من أراده والباقون من المفاعلة أي مقدرين عجزنا أو سابقين لنا فيفوتنا لظنهم بأن لا بعث ولا عقاب ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ﴾ قال قتادة الرجز سوء العذاب، فمن بيانية ﴿أَلِيمٌ﴾ أي ذو ألم يعني مؤلم، قرأ ابن كثير وحفص ويعقوب بالرفع هُنا وفي الجاثية على أنه نعت للعذاب والباقون بالجر على أنه نعت للرجز ﴿وَيَرَى﴾ بمعنى يعلم مرفوع عطفاً على مضمون بلى لتأتينكم وقيل منصوب معطوف على يجزي أي ليجزي الذين آمنوا وليعلم ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾ يعني مؤمني أهل الكتاب عبد الله بن سلام وأصحابه، وقال قتادة هم أصحاب النبيّ ﷺ ومن تبعهم بإحسان أي يعلم عند مجيء الساعة أنه الحق عياناً كما علموه الآن برهاناً ﴿ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ يعني القرآن مفعول أول ليرى ﴿هُوَ ٱلْحَقَّ﴾ بالرفع مبتدأ وخبر والجملة ثاني مفعولي

---

(١) سورة يونس، الآية: ٦١.

(٢) سورة البروج، الآية: ٨.

يرى وقُرِأ بالنصب على أنه ثاني مفعول يرى والضمير للفصل، وجملة يرى مستأنفة للإستشهاد بأولي العلم على الجهلة الساعين في الآيات ﴿وَيَهْدِى﴾ الله أو الذي أنزل إليك عطف على الحق ﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ أي الإسلام.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ عطف على ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ وبينهما معترضات ومنع المظهر موضع الضمير للتصريح على مناط الحكم يعني قال منكروا البعث بعضهم لبعض متعجبين منه ﴿هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ﴾ يعنون محمداً ﷺ ﴿يُنَبِّئُكُمْ﴾ صفة لرجل أي يخبركم بأعجب الأعاجيب وهو أنه ﴿إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ كل منصوب على المصدرية لإضافته إلى المصدر الميمي يعني إذا متم وتمزق أجسادكم كل تمزق بحيث يصير تراباً أو على الظرفية بمعنى إذا مزقتم وذهبت بكم السيول كل مذهب وطرحته كل طرح ﴿إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ منصوب بقوله ينبئكم بتضمين معنى القول يعني يقول: إنكم لفي خلقٍ جديدٍ وتقديم الظرف يعني (إِذَا مُزِّقْتُمْ) للدلالة على البعد والمبالغة، وعامله محذوف دل عليه ما بعده يعني ينبئكم بأنكم تبعثون إذا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ يقول إِنَّكُم لَفِي خُلُقٍ جَدِيُدٍ وذلك لأن ما قبله لم يقارنه وما بعد إنَّ لا يعمل فيما قبله، وذكروا النبيّ ﷺ بالتنكير مع كونه مشهوراً في قريش شائعاً أنباؤه بالبعث تجاهلاً به وبأمره بناءً على استبعاده وقصداً إلى التحقير ﴿أَفْتَرَىٰ﴾ همزة إستفهام دخلت على همزة الوصل فسقطت من اللفظ للاستغناء عنها ولعدم اللبس بالخبر فإن همزة الوصل ههنا مكسورة بخلاف ما إذا كان همزة الوصل مفتوحةً نحو الله وآلذكر وآلآن فإن هناك لا تحذف بل تسهل أو تبدل ألفاً ويمد وسقطت من الخط أيضاً على خلاف القياس ﴿عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ منصوب على المصدرية بافترى إذ الإفتراء نوع من الكذب وهو التعمد به ﴿أَم بِهِۦ جِنَّةٌ﴾ أي جنون يوهمه ذلك ويلقيه على لسانه وزعم بعضهم بجعل الجنون قسيماً للإفتراء أن بين الصدق والكذب واسطة وهي كل خبر لا يكون على بصيرة بالمخبر عنه وضعفه بَيّنٌ فإن الإفتراء ليس مساوٍ للكذب بل هو أخص منه فإن الكذب خبر لا يطابق الواقع سواء كان عمداً أو خطأً بل الذين لا يؤمنون إضراب من جملة مقدرة أي لم يفتر وليس به جنة ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿بِٱلْءَاخِرَةِ﴾ المشتملة على البعث والعذاب ﴿فِى ٱلْعَذَابِ﴾ فيها ﴿وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ﴾ من الحق في الدنيا، رد الله سبحانه عليهم ترديد هم وأثبت لهم ما هو أقبح من القسمين وهو البعيد من الضلال بحيث لا يرجى الخلاص منه وما هو مراده أي العذاب، وجعل العذاب مقارناً للضلال في الحكم مقدماً عليه في اللفظ للمبالغة في استحقاقهم له والبعد في الأصل صفة إتصال وصف به الضلال مجازاً كقوله شعر شاعر.

﴿أَفَلَمْ يَرَوْا﴾ الإستفهام للإنكار والتوبيخ والفاء للعطف على محذوف تقديره أعموا فلم يروا أي لم ينظروا ﴿إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم﴾ يعني إلى ما أحاط بجوانبهم ﴿مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ يعني أن المشاهدات كلها تدل على كمال قدرة الصانع المختار وكمال قدرة الصانع المختار وكمال قدرته يقتضي جواز البعث فكيف يحكمون باستحالته وكونه مكذباً فيه مفترى والمخبر على كمال صفات الكمال من العقل والصدق المعروف بينهم فكيف يحكمون عليه بالجنون والهزاء فما هو إلا ضلال بعيد، فهذه الجملة تعليل لقوله بل الذين لا يُؤْمِنُونَ بالآخِرَةِ في الْعَذَابِ وَالضَّلاَلِ الْبَعِيْد ثم بعد شُرح ضلالهم يخوفهم الله تعالى على ما هم عليه بقوله ﴿إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ﴾ قرأ الكسائي بإدغام الفاء في الباء والباقون بالإظهار ﴿الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ﴾.

قرأ حمزة والكسائي يشأ يخسف يُسقط بالياء فيهن على الغيبة لذكر الله فيما قبل والباقون بالنون على التكلم ﴿عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾ لتكذيبهم بالآيات بعد ظهور البينات قرأ حفص كسفاً بتحريك السين والباقون بإسكانها قيل قوله: ﴿ألم يروا إلى ما بين أيديهم﴾ تمهيد للإنذار والتخويف والمعنى أعموا فلم يروا ما أحاط بهم من السماء والأرض حيثما كانوا وأين ما ساروا مقهورين لا يقدرون أن ينفذوا من أقطارهما ويخرجوا من ملكوتنا يعني قد رأوا ذلك فليخافوا أن يخسف الله بهم الأرض كما فعل بقارون أو يسقط عليهم كسفاً من السماء كما أرسلنا حجارة من السماء على قوم لوط لتكذيبهم رسولنا وكفرهم بآياتنا ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ الذي يرونه من السماوات والأرض ﴿لَآيَةً﴾ دلالةً واضحة على كمال القدرة وجواز البعث بعد الموت وجواز تعذيب من كفر بالله ﴿لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ راجع إلى الله بقلبه لكونه كثير التفكر والتأمل.

﴿۞ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ ۖ وَاعْمَلُوا صَالِحًا ۖ إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ ۖ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ ۚ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴿١٣﴾ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿١٤﴾﴾.

﴿ولقد آتينا داوود منا فضلا﴾ على كثير من عباده المؤمنين يدل على ذلك قوله تعالى حكاية عن سليمان ﴿الحمد لله الذي فضلنا على كثير من عباده المؤمنين﴾(١) ويندرج فيه النبوة والكتاب والملك وحسن الصوت وتلين الحديد وغير ذلك، وفضلاً منصوب على المفعولية ومنّا حال منه ﴿يَـٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ﴾ بدل من فضلاً أو من آتينا بتضمين القول أي قلنا يا جبال أوبى معه أي سبح معه، والإياب الرجوع أي إرجعي في التسبيح كلما رجع داوود فيه، أو الإياب هو التسبيح يقال أوّبَ إذا سبح فإن المسبح يرجع إلى الله معرضاً عن غيره، وقال القتيبي أصله من التأويب في السير وهو أن يسير النهار كله وينزل ليلاً كأنه قال إذا أتى النهار سيري بالتسبيح معه، وقال وهب نَوحى معه ﴿وَٱلطَّيْرَ﴾ معطوف على الجبال قرأ يعقوب بالرفع حملاً على لفظه والباقون بالنصب حملاً على محله وجاز أن يكون النصب عطفاً على فضلاً أو على أنه مفعول معه لأوبي وجاز أن يكون بالعطف على ضميره، قال البيضاوي كان أصل النظم ولقد آتينا داوود منا فضلاً وهي تأويب الجبال والطير فبدل به هذا النظم لما فيه من الفخامة والدلالة على عظم شأنه وكبرياء سلطانه حيث جعل الجبال والطيور كالعقلاء المنقادين لأمره في نفاذ مشيئته فيها، قال البغوي كان داوود إذا نادى بالنياحة أجابته الجبال بصداها وعكفت الطير عليه من فوقه، وقيل كان داوود إذا تخلل الجبال فسبح الله جعلت الجبال تجاوبه بالتسبيح نحو ما يسبح، وقيل كان داوود إذا لحقه فتور أسمعه الله تسبيح الجبال تنشيطاً له ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾ حتى كان الحديد في يده كالشمع والعجين يعمل منه ما يشأ من غير نار ولا ضرب مطرقة.

قال البغوي: كان سبب ذلك على ما روي في الأخبار أن داوود لما ملك بني إسرائيل كان من عادته أن يخرج للناس متنكراً فإذا رأى من لا يعرفه يقدم إليه ويسأله عن داوود ويقول ما تقول في داوود واليكم هذا أي رجل هو فيثنون عليه ويقولون خيراً، فقيض الله له ملكاً في صورة آدمي فلما رآه داوود تقدم إليه على عادته فسأله فقال الملك نعم الرجل هو ولا خصلة فيه فراغ داوود ذلك، وقال ما هي يا عبد الله؟ قال إنه يأكل ويطعم عياله من بيت المال قال فتنبه لذلك وسأل الله يسبب له سبباً يستغني به عن بيت المال فيتقوت منه ويطعم عياله فألان الله له الحديد وعلّمه صنعة الدرع وإنه أول من اتخذها، ويقال إنه كان يبيع كل درع بأربعة آلاف على الفقراء والمساكين، عن المقدام بن

(١) سورة النمل، الآية: ١٥.

معديكرب قال قال رسول الله ﷺ «ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يديه وإن نبي الله داوود عليه السلام كان يأكل من عمل يده»(١) رواه البخاري وأحمد وذكر البغوي هذا الحديث بلفظ «كان داوود لا يأكل إلا من عمل يده» ﴿أَنِ اعْمَلْ﴾ أي أمرنا أن اعمل أن مصدرية أو مفسرة ﴿سَٰبِغَٰتٍ﴾ أي دروعاً كوامل واسعات طوال يجرها لابسها على الأرض ﴿وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ﴾ السرد خرز الجلد واستعير لنسج الدرع يعني قدر في نسجها بحيث تناسب حلقها ومساميرها فلا تجعلها رقاقاً فتغلق ولا غلاظاً فتكسر الحلق ﴿واعملوا﴾ يا داوود وآله ﴿صَٰلِحًا﴾ خالصاً لله صالحاً لقبوله منصوب على المفعولية والمصدرية ﴿إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فأجازيكم عليه، عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ «إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً أمر المؤمنين بما أمر المرسلين فقال ﴿يَٰٓأَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَٰتِ وَاعْمَلُوا صَٰلِحًا﴾»(٢) الحديث رواه مسلم.

﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ الرِّيحَ﴾ قرأ أبو بكر عن عاصم بالرفع على أنه مبتدأ محذوف الخبر تقديره ولسليمان الريح مسخرة أورد الجملة اسمية للدلالة على أن كونها مسخرةٌ لسليمان أمر ثابت عند العامة مذكور على الألسنة أو على تقدير فعل مجهول يعني سخر لسليمان الريح والباقون بالنصب على أنه مفعول لفعل محذوف تقديره وسخرنا لسليمان الريح والجملة معطوفة على مفهوم كلام سابق فإنه يفهم من قوله تعالى: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ وَالطَّيْرَ﴾ أنه سخرنا مع داوود الجبال يسبحن والطير وقد ورد بهذا اللفظ في سورة الأنبياء ﴿غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾ جملة مستأنفة أي جريها بالغدو يعني من الصباح إلى الزوال كان مسيرة شهر وبالعشي أي من الزوال إلى الغروب كان كذلك، قال الحسن كان يغدو من دمشق فيقيل باصطخر وبينهما مسيرة شهر ثم يروح من اصطخر فيبيت ببابل وبينهما مسيرة شهر للراكب المسرع، وقيل إنه كان يتغدى بالري ويتعشى بسمرقند ﴿وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ الْقِطْرِ﴾ النحاس عطف على سخرنا لسليمان الريح أسال الله تعالى له النحاس المذاب من معدنه فنبع منه نبوع الماء من الينبوع ولذلك سماه عيناً، قال البغوي قال أهل التفسير أجريت له عين النحاس ثلاثة أيام إلى اليمن كجري الماء وكان بأرض اليمن وإنما ينتفع الناس اليوم بما أخرج الله لسليمان عليه السلام ﴿وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ على تقدير كون الريح مرفوعاً الموصول مع الصلة مبتدأ خبره محذوف أي مسخرة ومن الجن حال من الضمير

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: البيوع، باب: كسب الرجل وعمله بيده (١٩٦٦).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب: الزكاة، باب: قبول الصدقة من الكسب الطيب وتربيتها (١٠١٥).

المستكن في يعمل عَطفُ جملة اسميةٍ على جملة اسمية، وعلى تقدير كونه منصوباً الموصول معطوف على الريح ومن الجن حال منه مقدم عليه تقديره وسخرنا له من يعمل بين يديه من الجن ﴿بإذن ربه﴾ أي بأمره وحكمه أو بإرادته وتسخيره متعلق بيعمل ﴿وَمَن يَزِغۡ﴾ أي من يعدل ﴿مِنۡهُمۡ﴾ أي من الجن ﴿عَنۡ أَمۡرِنَا﴾ أي عما أمرنا به من طاعة سليمان وأردنا ذلك ﴿نُذِقۡهُ مِنۡ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ قيل المراد به عذاب الآخرة وقيل المراد به الإحراق بالنار في الدنيا، قلتُ إن كان المراد بالإذن والأمر الأمر التكليفي فالمناسب أن يفسر العذاب بالعذاب في الآخرة لأنها هي دار الجزاء على التكليفات وإن كان المراد بالإذن الإرادة والتسخير كما هو الظاهر فالظاهر أن المراد به عذاب الدنيا، قال البغوي وذلك أن الله عزَّوجلَّ وكل بهم ملَكاً بيده سوط من نار فمن زاغ منه عن أمر سليمان ضربه ضربة أحرقته، لا يقال إن كان الله أراد من الجن العمل فكيف يتصور من الجن العدول عنه لأنه يلزم منه تخلف المراد عن الإرادة وهو محال لأن من في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلۡجِنِّ﴾ للتبعيض فالمعنى أن الله تعالى أراد أن يعمل لسليمان بعض الجن أي أكثرهم ولذلك وكل ملكاً يعذب من عدل من أمر سليمان وذلك في الظاهر سبب لأن يعمل لسليمان أكثر الجن، أو يقال معنى قوله من يزغ من أراد الزيغ منهم يضربه الملك حتى لا يزيغ.

﴿يَعۡمَلُونَ لَهُۥ﴾ حال من فاعل يعمل أو مستأنفة ﴿مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ﴾ قصوراً حصينة ومساجد رفيعة ومساكن شريفة سميت بها لأنها يذب عنها ويحارب عليها، قال البغوي فكان مما عملوا له بيت المقدس إبتدأه داوود ورفعه قامة رجل فأوحى الله إليه إني لم أقض ذلك على يدك ولكن ابن لك أملكه بعدك اسمه سليمان أقضي تمامه على يده فلما توفاه الله استخلف سليمان فأحب إتمام بيت المقدس فجمع الجن والشياطين وقسَّم عليهم الأعمال فخصَّ كل طائفة منهم بعمل يستصلحها له، فأرسل الجن والشياطين في تحصيل الرخام الأبيض من معادنه، فأمر ببناء المدينة بالرخام والصفاح وجعل اثني عشر ربضاً وأنزل بكل ربض منها سبطاً من الأسباط وكانوا اثني عشر سبطاً فلما فرغ من بناء المدينة إبتدأ في بناء المسجد وفرق الشياطين فرقاً فرقاً يستخرجون الذهب والفصة والياقوت من معادنها والدر الصافي من البحر وفرقاً يقلعون الجواهر والحجارة من أماكنها وفرقاً يأتونه بالمسك والعنبر وسائر الطيب من أماكنها فأتى بذلك التي لا يحصيها إلا الله عزَّ وجلَّ، ثم أحضر الصناعين وأمرهم بنحت تلك الحجارة المرتفعة وتصييرها ألواحاً وإصلاح تلك الجواهر وثقب اللآلىء واليواقيت، وبنى المسجد بالرخام الأبيض والأصفر والأخضر وعمده بأساطين المينا الصافي وسقفه بألواح الجواهر الثمينة وجصص سقوفه وحيطانه

باللآلىء واليواقيت وسائر الجواهر وبسط أرضها بألواح الفيروزج، فلم يكن يومئذ في الأرض بيت أبهى وأنور من ذلك المسجد كان يضيء في الظلمة كأنه القمر ليلة البدر، فلما فرغ منه جمع إليه أحبار بني إسرائيل فأعلمهم أنه بناه الله تعالى وأن كل شيء فيه خالص الله واتخذ ذلك اليوم الذي فرغ منه عيداً عن عبد الله بن عمرو بن العاص عن رسول الله ﷺ قال: «لمَّا فرغ سليمان من بناء بيت المقدس سأل ربه ثلاثاً فأعطاه اثنين وأنا أرجو أن يكون أعطاه الثالثة سأل حكماً يصادف حكمه فأعطاه إياه وسأل ملكاً لا ينبغي لأحدٍ من بعده فأعطاه إياه وسأل أن لا يأتي هذا البيت أحد يصلي فيه ركعتين إلا خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه وأنا أرجو أن يكون قد أعطاه ذلك»[١] رواه البغوي.

وعن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ «صلاة الرجل في بيته بصلاة وصلاته في مسجد القبائل بخمس وعشرين صلاة وصلاته في المسجد الذي يجمع فيه بخمس مئة صلاة وصلاته في المسجد الأقصى بألف صلاة وصلاته في مسجدي بخمسين ألف صلاة وصلاته في المسجد الحرام بمئة ألف صلاة»[٢] رواه ابن ماجه، وعن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله ﷺ: «لا تشدوا الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد المسجد الحرام والمسجد الأقصى ومسجدي هذا»[٣] متفق عليه.

مسألة:

هل يجوز تزيين المساجد بالذهب والفضة ونحوهما؟ قال بعضهم يكره ذلك لأن فيه إضاعة المال وقد قال رسول الله ﷺ «ما أمرت بتشييد المساجد»[٤] رواه أبو داوود عن ابن عباس، وقال ابن عباس لتزخرفنها كما زخرفت اليهود والنصارى، وقال عليه السلام:

---

(١) أخرجه ابن ماجه في كتاب: إقامة الصلاة والسنة فيها، باب: ما جاء في الصلاة في بيت المقدس (١٤٠٨).

(٢) أخرجه ابن ماجه في كتاب: إقامة الصلاة والسنة فيها، باب: ما جاء في الصلاة في المسجد الجامع (١٤١٣)، وإسناده ضعيف.

(٣) أخرجه مسلم في كتاب: الحج، باب: سفر المرأة مع محرم إلى حج وغيره (٨٢٧)ج
أما الرواية عند البخاري وهو أيضاً عند مسلم وأصحاب السنن «لا تشد الرحال»، أخرجه البخاري في كتاب: فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة، باب: فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة (١١٨٩).

(٤) أخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب: في بناء المساجد (٤٤٧).

«إن من أشراط الساعة أن تزين المساجد» الحديث، وقال بعضهم هو قربة لما فيه من تعظيم المسجد وقصة سليمان عليه السلام في تزيين مسجد بيت المقدس يؤيد هذا القول، قال صاحب البداية وهذا إذا فعل من مال نفسه وأما المتولي فيفعل من مال الوقف ما يرجع إلى أحكام البناء دون ما يرجع إلى النقش حتى لو فعل يضمن.

وقال ابن همام ولا شك أن الدفع إلى الفقير أولى من تزيين المسجد وعند أكثر علمائنا لا بأس بأن ينقش المسجد بالجص والساج وماء الذهب وقوله لا بأس يشير إلى أنه لا يؤجر عليه لكن يأثم به كذا في الهداية، قال ابن همام ومحل الكراهة التكلف فيه بدقائق النقوش ونحوه خصوصاً في المحراب أو التزين مع ترك الصلاة أو عدم إعطائه حقه من اللفَظ فيه والجلوس لحديث الدنيا ورفع الأصوات بدليل آخر الحديث وهو قوله وقلوبهم خاوية من الإيمان، قلت وحديث النبيّ ﷺ أولى بالإتباع من قصة سليمان لأن شرائع من قبلنا لا يجوز إتباعه إلا إذا لم يثبت في شريعتنا ما يخالفه، وأيضاً كان فيما فعل سليمان حكمة وهي أن تشتغل الشياطين عن إضلال الناس في أعمال شاقة والله أعلم، قال البغوي قالوا يعني أهل الأخبار فلم يزل بيت المقدس على ما بناه سليمان حتى غزاه بخت نصر فخرَّب المدينة وهدمها ونقض المسجد وأخذ ما كان في سقوفه وحيطانه من الذهب والفضة لسليمان باليمن حصوناً كغيرةً عجيبة من الصخرة.

(وتماثيل):

أي صوراً من نحاس وصفر وشبهٍ وزجاج ورخام، قيل كانوا يصورون السباع والطيور، وقيل كانوا يتخذون صور الملائكة والأنبياء والصالحين في المساجد ليراها الناس فيزدادوا عبادة وكانت مباحة في شريعتهم، قلتُ ولعل المراد به تماثيل غير ذي الروح لأن تماثيل الإنسان كانت تعبد قبل ذلك حين قال إبراهيم عليه السلام لأبيه وقومه: ﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾[1] وفي الصحيحين عن ابن عباس قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «كل مصور في النار يجعل له بكل صورة صوَّرها نفساً فيعذبه في جهنم» قال ابن عباس فإن كنت لا بد فاعلاً فأصنع الشجر وما لا روح فيه»[2] متفق عليه، وهذا الحديث عام في كل مصور غير مختص بمصوري هذه الأمة وهو خبر لا يحتمل

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٥٢.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب: اللباس الرينة، باب: تحريم تصوير صورة الحيوان وتحريم اتخاذ ما فيه سورة غير ممتهنة بالفرش ونحوه (٢١١٠).

النسخ والتبديل، وعنه مرفوعاً «من صور صورة عذب وكلف أن ينفخ فيها وليس بنافخ»(١) رواه البخاري، وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يخرج عنق من النار يوم القيامة لها عينان تبصران وأذنان يسمعان ولسان ينطق يقول إني وكلت بثلاثة بكل جبار عنيد وبكل من دعا مع الله إلهاً آخر وبالمصورين»(٢) رواه الترمذي، وعنه قال سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «قال الله تعالى ومن أظلم ممن ذهب بخلق كخلقي فليخلقوا ذرةً وليخلقوا حبةً أو شعيرة»(٣) متفق عليه، وسياق هذه الأحاديث يدل على أن حرمة التصوير غير مختص بهذه الأمة، لا يقال أن عيسى كان يتخذ صورة من الطين، قلنا: كان ذلك بإذن الله كان يخلق من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله وإنما المحرم على من يتخذ صورة فلا يستطيع أن ينفخ فيه الروح فيكلف أن ينفخ فيها وهو ليس بنافخ أبداً ﴿وَجِفَانٍ﴾ جمع جفنة بمعنى القصعة ﴿كَٱلْجَوَابِ﴾ قرأ ابن كثير كالجوابي بإثبات الياء وصلاً ووقفاً وأثبتها ورش وأبو عمرو في الوصل، جمع جابية وهو حوض ضخم كذا في القاموس مشتق من جبى الخراج يقال للحوض الكبير لما يجيء فيه الماء فهي من الصفات الغالبة، قال البغوي كان يقعد على الجفنة الواحدة ألف رجل يأكلون منها ﴿وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ﴾ ثابتات لها قوائم لا يحركن عن أماكنها لعظمهن لا ينزلن ولا يعطلن وكان يصعد إليها بالسلاليم وكانت باليمن ﴿ٱعْمَلُوٓا۟﴾ أي قلنا له ولأتباعه اعملوا جملة مستأنفة يا ﴿آل داوود شكراً﴾ تنكيره للتقليل فإن الشكر الكثير بالنسبة إلى نعماء الله سبحانه خارج عن طوق البشر بل عن طوق كل مخلوق وهو منصوب على العِلّية، أي اعملوا بطاعتي لشكر نعمتي، أو على المصدرية لأن العمل بالطاعة شكر أو على أنه وصف للمصدر أي اعملوا عملاً شكراً أو على الحال أي حال كونكم شاكرين أو على المفعولية أي إعملوا شكراً، قال جعفر بن سليمان سمعتُ ثابتاً يقول كان داوود نبي الله قد جزّأ ساعات الليل والنهار على أهله فلم تكن تأتي ساعة من ساعات الليل والنهار إلا والإنسان من آل داوود قائم يصلي ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ﴾ قرأ حمزة بإسكان الياء والباقون بفتحها ﴿ٱلشَّكُورُ﴾ أي المتوفر على أداء الشكر لسانه وجوارحه في أكثر أوقاته وتقلبه دائماً بلا فتور وذلك بعد

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: البيوع، باب: بيع التصاوير التي ليس فيها روح وما يكره من ذلك (٢٢٢٥).

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: صفة جهنم، باب: ما جاء في صفة النار (٢٥٧٤).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: اللباس، باب: نقض الصورة (٥٩٥٣)، وأخرجه مسلم في كتاب: اللباس والزينة، باب: تحريم تصوير صورة الحيوان (٢١١١).

فناء القلب ودوام الحضور، ومع ذلك لا يوفي حقه لأن توفيقه للشكر نعمة ليستدعي شكراً آخر لا إلى نهاية ولذلك قيل الشكور من يرى نفسه عاجزاً عن الشكر ﴿فلما قضينا﴾ أي حكمنا ﴿عَلَيْهِ﴾ أي على سليمان ﴿ٱلْمَوْتَ﴾ قال البغوي قال أهل العلم كان سليمان عليه السلام يتحرز في بيت المقدس السنة والسنتين والشهر والشهرين وأقلّ من ذلك وأكثر يدخل فيه طعامه وشرابه، فأدخل في المرة التي مات فيها وكان بدء ذلك أنه كان لا يصبح يوماً إلا نبتت في محراب بيت المقدس شجرة فيسألها ما اسمك، فتقول اسمي كذا فيقول لأيّ شيء أنت؟ فتقول لكذا وكذا، فيأمر بها فتقطع فإن كانت نبتت لغرس غرسها وإن كانت لدواء كتب حتى نبتت الخروبة فقال لها ما أنت؟ قالت الخروبة، قال لأيّ شيء نبت؟ قالت لخراب مسجدك، فقال سليمان ما كان الله ليخرّبه وأنا حيٌّ أنت التي على وجهك هلاكي وخراب بيت المقدس فنزعها وغرسها في حائط كريم، وقال اللَّهم أعم موتي على الجن ليعلم الإنس أن الجن لا يعلمون الغيب وكانت الجن تخبر الإنس أنهم يعلمون من الغيب ما شاؤوا ويعلمون ما في الغد، ثم دخل المحراب فقام يصلّي متكئاً على عصاه فمات قائماً وكان للمحراب كوى بين يديه ومن خلفه وكانت الجن يعملون تلك الأعمال الشاقة التي كانوا يعملونها في حياته وينظرون إليه يحسبون أنه حيٌّ ولا ينكرون إحتباسه عن الخروج إلى الناس لطول صلاته، فمكثوا يدأبون له بعد موته حولاً كاملاً حتى أكلت الأرض عصا سليمان فخر ميتاً فعلموا بموته، قال ابن عباس فشكرت الجن الأرضة فهم يأتونها بالماء والطين في جوف الخشبة، وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن يزيد قال قال سليمان لملك الموت إذا أمرتَ لي فأعلمني فأتاه فقال يا سليمان قد أمرتُ بك قد بقيت سويعة فدعا الشياطين فبنوا عليه صرحاً من قوارير ليس له باب فقام يصلّي متكئاً على عصاه فقبض روحه وهو متكىء عليها فبقي كذلك حتى أكلها الأرضة فخر ثم فتحوا عليه وأرادوا أن يعرفوا وقت موته فوضعوا الأرضة على العصا فأكلت يوماً وليلاً فحسبوا على ذلك فوجدوه قد مات منذ سنة.

﴿مَا دَلَّهُمْ﴾ أي الجن أو آله ﴿عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ﴾ أي الأرضة التي يقال لها بالفارسية ديوك وهي دابة صغيرة تأكل الخشب والمراد بالأرض الثرى أضيف إليها الدابّة، وقيل الأرض مصدر أرضت الخشبة بالبناء للمفعول أي أكلتها أرضة فهو من قبيل إضافة الشيء إلى فعله كما في بقرة الحرث ورجل الحرب (تأكل) حال من دابة الأرض ﴿مِنسَأَتَهُۥ﴾ أي عصاه من نسأوتُ الغنم أي زجرتها وسقتُها ومنه نسأ الله في أجله أي أخره، قرأ نافع وأبو عمرو بألف ساكنة بدل الهمزة وابن ذكوان بهمزة ساكنة والباقون

بهمزة مفتوحة على الأصل فإنه مفعول تأكل وحمزة إذا وقف جعلها بين بين ﴿فَلَمَّا خَرَّ﴾ أي سقط سليمان على الأرض ﴿تَبَيَّنَتِ﴾ أي ظهرت ﴿الْجِنُّ أَن﴾ مخففة من الثقيلة اسمه ضمير الشأن محذوف ﴿لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ﴾ ما غاب عنهم كموت سلميان ﴿مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾ أي في التعب والمشقة مسخرين لسليمان وهو ميت يظنونه حيّاً، أن مع صلته بدل إشتمال من الجن يعني ظهر عدم علمهم بالغيب على الناس لأنهم كانوا يشبهون ذلك على الإنس ويؤيد هذا التأويل قراءة ابن مسعود وابن عباس تَبَيَّنَت الإنس أي علمت ﴿أَن لَّوْ كَانُوا﴾ أي الجن يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين، وقيل معنى الآية علمت الجنُّ أن لو كانوا يعلمون الغيب الخ وهذا التأويل مستبعد جدّاً فإن الجن كانوا يعلمون جهلهم وإنما كانوا يدَّعون علمهم بالغيب عند الإنس، قال البغوي ذكر أهل التاريخ أن سليمان كان عمره ثلاثاً وخمسين سنة ومدة ملكه أربعون سنة ومَلَكَ وهو ابن ثلاث عشرة سنة وابتدأ في بناء بيت المقدس لأربع سنين مضين في ملكه.

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾﴾.

أخرج ابن أبي حاتم عن علي بن رباح قال حدثني فلان أن فروة بن مسيك الغطفاني قدم على رسول الله ﷺ فقال يا نبي الله إن سبأ قوم كان لهم في الجاهلية عزو إني أخشى أن يرتدوا عن الإسلام أفأقاتلهم؟ فقال ما أمرتُ فيهم بشيء بعد فنزلت ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ﴾ آية أي دلالة على كمال قدرتنا ووجوب شكرنا، قرأ البزي وأبو عمرو لسبأ بفتح الهمزة من غير تنوين لأنه صار اسم قبيلة فمنع عن الصرف للتأنيث مع العلمية وقنبل

بإسكانها على نية الوقف والباقون بخفضها مع التنوين لأنه كان اسم رجل، قرأ حفص وحمزة والكسائي مسكنهم بإسكان السين بغير ألف على الإفراد غير أن حمزة وحفص يفتحان الكاف على القياس والكسائي بكسرها حملاً على ما شذَّ من القياس كالمسجد والمطلِع والباقون بفتح السين وكسر الكاف وألف بينهما على الجمع، قال البغوي روى أبو سبرة النخعي عن فروة بن مسيك الغطيفي قال قال رجل يا رسول الله أخبرني عن سبأ كان رجلاً أو امرأة أو أرضاً؟ قال: كان رجلاً من العرب ولد له عشرة من الولد تَيا مَنَ منهم ستة وتَشَاءَمَ منهم أربعة فأما الذين يتأمنوا فكندة والأشعريون وأزد ومذحج وأنمار وحمير، فقال رجل وما أنمار قال الذين منهم خثعم وبحيلة، وأما الذين تشاءموا فعاملة وجذام ولخم وغسان، وكذا أخرج أحمد وغيره عن ابن عباس مرفوعاً، وسبأ هو ابن يشجب بن يعرب بن قحطان ﴿جَنَّتَانِ﴾ بدل من آية أو خير محذوف تقديره الآية جنتان والمراد جماعتان من البساطين جماعة ﴿عَن يَمِينٍ﴾ البلد ﴿و﴾ جماعة عن ﴿شمال﴾ البلد أو يكون بستان لكلِ رجل عن يمين مسكنه وشماله ﴿كُلُواْ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ﴾ يعني من ثمار الجنتين ﴿وَاشْكُرُواْ لَهُۥ﴾ على ما رزقكم من النعمة والمعنى إعملوا بالطاعة، يعني قال لهم نبيهم ذلك أو لسانُ الحال يعني دل الحالُ على أنهم كانوا أحقاء أن يقال لهم ذلك ﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ﴾ استئناف للدلالة على موجب الشكر يعني بلدكم هذا بلدة طيبة كثيرة الثمر ليست بسبخة، قال السديُّ ومقاتل كانت المرأة تحمل على رأسها المكتل وتمرُّ بالجنتين فيمتلىء المكتل بأنواع الفواكه من غير أن تمس شيئاً بيدها، وقال ابن زيد لم تكن تُرى في بلدتهم بعوضة ولا ذباب ولا برغوث ولا عقرب ولا حية وكان الرجل يمر ببلدهم وفي ثيابه القمل كلها من طيب الهواء فذلك قوله تعالى بلدة طيبة أي طيبة الهواء ﴿وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ قال مقاتل رب غفور للذنوب إن شكرتم فيما رزقكم.

قال وهب أرسل الله إلى سبأ ثلاثة عشر نبياً دعوهم إلى الله وذكَّروهم نعمه عليهم وأنذرهم عقابه ﴿فاعرضوا﴾ عنهم وكذبوهم وقالوا ما نعرف لله علينا نعمة قولوا لربكم فليحبس هذه النعمة عنا إن إستطاع قال الله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ﴾ أي سيل الأمر العرم أي الصعب من عرم الرجل فهو عارم إذا ساء خلقه وصعب أو سيل المطر الشديد قيل كان ماء أحمر أرسل الله عليهم من حيث شاء، وقيل العرم الوادي وأصله من العرامة وهي الشدة والقوة، وقيل العرم المسناة، وقيل العرم الجُرَاذُ الذكر أضاف إليه السبيل لأنه نقب عليهم سكراً ضربت لهم بلقيس، وفي القاموس عرِمَةَ كفرحة سد يعترض به الوادي جمعه عَرِمٌ أو هو جمع بلا واحد أو هو الإحباس تبني في الأودية والجُرذُ الذكر

والمطر الشديد وواد ولكل فسر قوله تعالى: ﴿سَيْلَ ٱلْعَرِمِ﴾ قال البغوي قال ابن عباس وابن وهب وغيرهما كان ذلك يعني العرم السد بنته بلقيس وذلك أنهم كانوا يقتتلون على ماء واديهم فأمرت بواديهم أفسد بالعرم وهو المسناة بلغة حمير فسدت بين الجبلين بالصخرة والقار وجعلت لها أبواباً ثلاثة بعضها فوق بعض وبنت من دونه بركة ضخيمة وجعلت فيها اثني عشر مخرجاً على عدة أنهارها يفتحونها إذا احتاجوا إلى الماء فإذا استغنوا سدوها فإذا جاء المطر اجتمع ماء أودية اليمن فاحتبس السيل من وراء السد فأمرت بالباب الأعلى ففتح فجرى ماؤه في البركة فكانوا يسقون من الباب الأعلى ثم من الثاني ثم من الثالث...... الأسفل فلا ينفذ الماء حتى يثوب من السنة المقبلة فكان يقسم على ذلك فبقوا على ذلك بعد ذلك مدة فلما طغوا وكفروا سلط الله عليهم جُرَاذاً يسمى الخلد فنقب السدَّ من أسفله فغرق الماء جناتهم وخرَّب أرضهم، قال وهب وكانوا فيما يزعمون ويَجدون في علمهم كهانتهم أنه يخرّب سدهم فأرة فلم يتركوا فرجةً بين حجرين إلا ربطو عندها هرة فلمّا جاء زمانه وما أراد الله عزَّ وجلَّ بهم من التغريق أقبلت فيما يذكرون فأرةٌ حمراء كبيرة إلى هرة من تلك الهرر فساورتها حتى استأخرت منها الهرة فدخلت في الفرجة التي كانت عندهما فتغلغلت في السد فثقبت وحفرت حتى أوهنته للسيل وهم لا يدرون بذلك، فلمّا جاء السيل وجد خللاً فدخل فيه حتى قطع السد وفاض على أموالهم فغرقها ودفن بيوتهم الرمل فغرقوا وتمزّقوا حتى صاروا مثلاً عند العرب يقولون صار بنو فلان أيدي سبأ وأيادي سبأ أي تفرقوا وتبددوا فذلك قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ﴾.

﴿وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتي أكل﴾ قرأ نافع وابن كثير بإسكان الكاف والباقون بضمها وهما لغتان، قال في القاموس الأكل بالضم وبالضمتين الثمر والرزق قرأ الجمهور أكلٍ وأبو عمرو بالإضافة إلى ﴿خَمْطٍ﴾ فعلى قراءة الجمهور خمط صفة له ومعناه حامض أو مرٌّ أو عطف بيان أو بدل ومعناه ثمر الأراك وعلى قراءة أبي عمرو الخمط كل نبت أخذ طعماً مرّاً أو شجرة الأراك أو نحو ذلك فهو لفظ مشترك، قال في القاموس الخمط الحامض أو المرُّ من كل شيء وكخل نبت أخذ طعماً من مرارته وشجر رائحته كالسدر وشجر قاتل وكل شجرة شوك له وثمر الأراك وقيل شجرة الأراك، وقال البيضاوي التقدير أكل أكل خمط فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه في كونه بدلاً أو عطف بيان يعني على قراءة الجمهور وكون الخمط بمعنى الشجر، وقال البغوي الأكل الثمر والخمط الأراك وثمرة يقال له البرير هذا قول أكثر المفسرين، وقال المبرد كل نبت قد أخذ طعماً

من المرارة، وقال ابن الأعرابي ثمر شجر يقال له نسوة الضبع على صورة الخشخاش يتفرك ولا ينتفع به ﴿وَأَثْلٍ﴾ أي الطرفا معطوف على أكل لا على خمط إذ لا ثمر له، وقيل هو شجر يشبه بالطرفا إلا أنه أعظم ﴿وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ وصف السدر بالقلة فإن جناه وهو النبق ممَّا يطيب أكله ولذلك يغرس في البساتين، وقال البغوي لم يكن السدر ذلك بل كان سدراً برّياً لا ينتفع به ولا يصلح ورقه لشيء وتسمية البدل جنتين للمشاكلة والتهكم ﴿ذلك﴾ منصوب المحل على المصدرية يعني جزيناهم ذلك الجزاء أو مرفوع على أنه مبتدأ ما بعده خبره يعني ذلك العقاب والتبديل ﴿جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا﴾ أي بكفرانهم النعمة أو بكفرهم الرسل ﴿وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ﴾ قرأ حفص وحمزة والكسائي نجازي بالنون وكسر الزاء على التكلم والبناء للفاعل والكفور بالنصب على المفعولية والباقون بالياء التحتانية وفتح الزاء على الغيبة والبناء للمفعول والكفور بالرفع على أنه قائم مقام الفاعل يعني ما يناقش إلا هو وما نناقش إلا إياه.

﴿وَجَعَلْنَا﴾ عطف على بدلنا يقال كان هذا سابقاً على التبديل فكيف ذكر بعده لأن الواو لمطلق الجمع دون الترتيب فلا ينافي كونه سابقاً عليه ﴿بَيْنَهُمْ﴾ أي بين أهل سبأ ﴿وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾ بالأنهار والأشجار والتوسعة على أهلها وهي قرى الشام ﴿قُرًى ظَاهِرَةً﴾ أي متظاهرة تظاهر الثانية من الأولى لقربها منها ﴿وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ﴾ أي وقدَّرنا سيرهم فيها يعني كانوا يسيرون فيها وإذا ساروا كانوا يبيتون في قرية ويقيلون في أخرى وكانوا لا يحتاجون من حمل زاد من سبأ إلى الشام، قيل كانت أربعة آلاف وسبع مائة قرية متصلة من سبأ إلى الشام، قال قتادة كانت المرأة تخرج ومعها مغزلها وعلى رأسها مكتلها فتمتهن بمغزلها فلا تأتي بيتها حتى تمتلىء مكتلها من الثمار وكان ما بين اليمن والشام كذلك ﴿سِيرُوا فِيهَا﴾ على إرادة القول يعني قلنا بلسان المقال أو الحال فإنهم لما مكنوا من السير كذلك كانوا كأنهم أمروا به ﴿لَيَالِيَ وَأَيَّامًا﴾ يعني متى شئتم ليلاً أو نهاراً ﴿آمِنِينَ﴾ أي حال كونكم لا ولا سبعاً ولا جوعاً ولا عطشاً فبطروا وطغوا ولم يشكروا وقالوا لو كان بين جناتنا أبعد مما هي لكان أجدر أن تشتهيه ﴿فَقَالُوا﴾ عطف على جعلنا يا ﴿رَبَّنَا بَاعِدْ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو وهشام بَعِّدْ بتشديد العين من التفعيل والباقون بالألف من المفاعلة ﴿بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾ أي إجعل بيننا وبين الشام فلوات ومفاوزات لنركب فيها الرواحل ونتزود الازواد ونربح في التجارات ونتفاخر على الناس فعجل الله لهم الإجابة، قرأ يعقوب ربُّنَا بالرفع على الإبتداء وبعد بفتح العين والدال على صيغة الماضي كأنهم استبعدوا أسفارهم القريبة أشراً وبطراً ﴿وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾ بالبطر والطغيان

عطف على قالوا ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ﴾ يتحدث الناس بهم تعجباً وضرب مثل فيقولون تفرقوا أيدي سبأ ﴿وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ فرقناهم في كل وجه من البلاد كل تفريق، قال الشعبي لمّا غرقت قراهم تفرقوا في البلاد، أما غسان فلحقوا بالشام ومرَّ الأزد إلى عمان وخزاعة إلى تهامة ومر آل خزيمة إلى العراق والأوس والخزرج إلى يثرب وهم آل أنمار وكان الذي قدم منهم المدينة عمرو بن عامر وهو جد الأوس والخزرج ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ الذي ذكر (لآيات) لعبر ودلالات ﴿لِكُلِّ صَبَّارٍ﴾ عن المعاصي وعلى البلاء والطاعة ﴿شكور﴾ على النعم، قال مقاتل يعنيَ مؤمني هذه الأمة صبور على البلاء شكور للنعماء وكذا قال مطرف، قلت بل هو صبور وشكور دائماً فإن الدنيا دار البلاء حتى أن النعمة أيضاً بلاء يبتلى به العبد هل يشكر عليه أم لا موته بلاء وحياته بلاء قال الله تعالى: ﴿خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾(1) فهو صبور دائماً عن المعاصي وعلى المصائب والطاعات وكل بلاء ومصيبة مكفرة للذنوب فهي كما يوجب الصبر يوجب الشكر ثم توفيق الصبر أيضاً نعمة من الله يوجب الشكر، وقال المجدد رضي الله عنه إيلام المحبوب ألذ من إنعامه فهو أولى بالشكر، قال الشاعر فإني في الوصال عبيد نفسي وفي الهجران مولى للموالي، قال رسول الله ﷺ «الإيمان نصفان فنصف في الصبر ونصف في الشكر» رواه البيهقي في شعب الإيمان، قلت: فالمؤمن تامُّ الإيمان جامع للنصفين دائماً غير مقتصر على النصف دون النصف.

﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ﴾ أي على الناس كلهم كذا قال مجاهد وقيل المراد على أهل سبأ أي على الكفار منهم ﴿إِبْلِيسُ ظَنَّهُ﴾ قرأ أهل الكوفة صَدَّقَ بالتشديد يعني ظنَّ فيهم ظنّاً حيث قال ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾(2) ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾(3) فصدق ظنه وحققه بفعله ذلك بهم واتباعهم إياه أو وجده صادقاً وقرأ الآخرون بالتخفيف أي صدق في ظنه أو صدق بظن ظنه مثل فعلتهُ جمدك، ويجوزأن يعدى الفعل إليه بنفسه كما في صدق وعده لأنه نوع من القول، قال ابن قتيبة لما سأل إبليس النظرة ﴿فأنظره الله فقال لأضلنهم ولأغوينهم﴾ ولم يكن مستيقناً وقت هذه المقالة أن ما قاله فيهم يتم وإنما قاله ظنّاً فلما اتبعوه وأطاعوه صدق عليهم ما ظنه فيهم ﴿فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي من أهل سبأ

(1) سورة الملك، الآية: ٢.

(2) سورة ص، الآية: ٨٢.

(3) سورة الأعراف، الآية: ١٧.

أو من الناس كلهم، قال السديُّ عن ابن عباس يعني أن المؤمنين كلهم لم يتبعوه في أصل الدين قال الله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾[١] يعني المؤمنين فمن للبيان، وقيل من للتبعيض يعني بعض المؤمنين الذين يطيعون الله ولا يعصونه ﴿وَمَا كَانَ لَهُۥ﴾ أي لإبليس ﴿عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ﴾ اسم كان ومن زائدة والظرف المستقر أعني لَهُ خبره وعليهم متعلق بالظرف يعني لم يكن له قدرة على أن يوسوسهم ويعدهم ويمنيهم إلا بتسليطنا إياه عليهم حيث قلنا ﴿واستفزز من استطعت منهم بصوتك وأجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم في الأموال والأولاد وعدهم﴾[٢] لشيء ﴿إلا لنعلم﴾ أي لنميز ﴿من يؤمن بالآخرة ممن هو منها في شك﴾ فنجازي كلاً منها على حسب ما عمل، قال الحسن: إن إبليس لم يسل عليهم سيفاً ولا ضربهم بسوط وإنما وعدهم ومنَّاهم فاغتروا، فإن قيل هذه الآية تدل على كون علمه تعالى حادثاً وهو يقتضي الجهل سابقاً تعالى الله عن ذلك؟ أجيب بأن علمه تعالى قديم لكن تعلق العلم بالمعلوم حادث والمراد هاهنا بحصول العلم حصول متعلقه مبالغةً، ويرد عليه أن العلم ما لم يتعلق بالمعلوم لا ينكشف المعلوم عند العالم فإن العلم قبل التعلق بالمعلوم إنما هو العلم بالقوة لا بالفعل فكون تعلق العلم حادثاً يقتضي سبق الجهل فبقي المحذور، فأجيب بأن علمه تعالى قبل وجود الحادث كان متعلقاً به كاشفاً عنده تعالى كونه موجوداً وهذا لا يقتضي سبق الجهل بل سبق علمه تعالى بكونه معدوماً كما هو في الواقع فلا محذور، ومعنى الآية ليتعلق علمنا بذلك موجوداً كما تعلق به معدوماً لكن يلزم حينئذ كونه تعالى محلاً للتغير فالأولى أن يقال أن الزمان بجميع أجزائه وما فيها حاضر عند الله سبحانه متعلق علمه تعالى بها قديماً سرمداً وإنما التعاقب فيها بنسبة بعضها إلى بعض فزيد الذي هو موجود في وقت ومعدوم في وقت حاضر عند الله بكلا الحالتين كما أن كونه في مكان دون مكان حاضر عنده بلا تغير في ذاته تعالى فمعنى الآية لنعلم قديماً سرمداً من يؤمن ممن هو في شك وهذا لا يتقضي مسبوقية علمه تعالى، كيف وأن السابقية والمسبوقية إنما يتصور فيما يجري عليه الزمان كما أن الفوقية والتحتية لا يتصور إلا فيما يحويه المكان ومن هو خالق للزمان والمكان منزه عنها كلها، لكن هذه الآية تدل على أن العلم تابع للمعلوم وكون المعلوم حادثاً لا يقتضي كون العلم به حادثاً فإن المعلوم محفوف بالزمان والعلم محيط به شتان ما بينهما، قال الله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ﴾ من الزمان والزمانيات ومن المؤمن والكافر ﴿حَفِيظٌ﴾ رقيب محافظ

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٦٤.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٦٤.

غير غافل عن شيء فيجازي كلاً على حسب عمله.

﴿قُلِ﴾ يا محمد لكفار مكة ﴿ٱدۡعُواْ﴾ أيها الكفار ﴿ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم﴾ وأي زعمتموهم آلهة هما مفعولان لزعمتم حذف الأول لطول الموصول بصلته والثاني لقيام صفته مقامه أعني ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ ولا يجوز أن يكون هذا مفعوله الثاني لأنه لا يحصل به كلاماً مفيداً ولا لا يملكون لأنهم لا يزعمونه، والمعنى أدعوهم فيما يهمكم من جلب نفع أو دفع خير يستجيبون لكم إن صح دعواكم كانَّ هذا الكلام يدل على الشرطية من القياس الاستثنائي تقديره إن صح دعواكم بأنهم آلهة من دون الله يستجيبون لكم إذا دعوتموهم لكنهم ﴿لَا يَمۡلِكُونَ﴾ فهذا جملة مستأنفة يدل على الاستثناء ﴿مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ﴾ من خير أو شر كائنة ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ فلا يستجيبون لكم فلا يصح دعواكم وذكرهما للعموم العرفي أو لأن آلهتهم بعضها سماوية كالملائكة والكواكب وبعضها أرضية كالأصنام أو لأن الأسباب الظاهرية للشر والخير سماوية وأرضية ﴿وَمَا لَهُمۡ فِيهِمَا مِن شِرۡكٖ﴾ أي شركة زائدة والجملة معطوفة على لا يملكون ﴿وَمَا لَهُۥ﴾ أي لله تعالى ﴿مِنۡهُم﴾ أي من شركائهم ﴿مِّن ظَهِيرٖ﴾ يعينه على خلقها وتدبيرها.

﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡۖ قَالُواْ ٱلۡحَقَّۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ﴿٢٣﴾ ۞ قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قُلِ ٱللَّهُۖ وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٢٤﴾ قُل لَّا تُسۡـَٔلُونَ عَمَّآ أَجۡرَمۡنَا وَلَا نُسۡـَٔلُ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلۡ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفۡتَحُ بَيۡنَنَا بِٱلۡحَقِّ وَهُوَ ٱلۡفَتَّاحُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ قُلۡ أَرُونِيَ ٱلَّذِينَ أَلۡحَقۡتُم بِهِۦ شُرَكَآءَۖ كَلَّاۚ بَلۡ هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوۡمٖ لَّا تَسۡتَـٔۡخِرُونَ عَنۡهُ سَاعَةٗ وَلَا تَسۡتَقۡدِمُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ﴾ لأحد ﴿إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥ﴾ أن يشفع أو أذن أن يشفع له، واللام على الأول كما في قولك الكرم له وعلى الثاني كما في قولك جئتك لزيد، قرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي أذن بضم الهمزة على صيغة المجهول والباقون بفتحها على صيغة المعروف، وهذا ردٌّ لما قالت الكفار على سبيل التنزل أنه سلمنا أن الملائكة والأصنام لا يملكون شيئاً وليسوا شركاء الله لكنهم يشفعون لنا عند الله فقال الله تعالى لا تنفع شفاعة

أحد لأحد ﴿إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ والأصنام ليسوا أهلاً لأن يؤذن الشفاعة لانحطاط رتبتها عنها والكفار لا يستحقون لأن يؤذن لأحد في شفاعتهم لطغيانهم وكفرهم ولا يؤذن للأنبياء والملائكة إلا لشفاعة المؤمنين.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ قرأ ابن عامر ويعقوب فَزَّعَ بفتح الفاء والزاء على البناء للفاعل والضمير المستكن عائد إلى الله، والباقون بضم الفاء وكسر الزاء على البناء للمفعول والجار مع المجرور قائم مقام الفاعل والتفزيع إزالة الفزع كالتمريض إزالة المرض، والضمير في قلوبهم راجع إلى الشافعين والمشفوع لهم المفهومين مما سبق وحتى غاية للجملة المقدرة المفهومة مما سبق أعني قوله تعالى: ﴿لا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له﴾ فإنه يفهم منه أن الشفعاءُ المشفوع لهم ينتظرون الإذن للشفاعة فزعين خائفين احتمال عدم الإذن أو فزعين من غشية تصيبهم عند سماع كلام الله عز وجل هيبةً وجلالاً حين يأذن لهم في الشفاعة قلتُ وكذلك يأخذ هو الغشية كلما قضى الله أمراً. روى البخاري عن أبي هريرة أن نبي الله ﷺ قال: «إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله كأنه سلسلة على صفوان فإذا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمُ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الحَقَّ وَهُوَ العَلِيُّ الكَبِيرُ فسمعها مسترقوا السمع ومسترقوا السمع هكذا بعضهم فوق بعض (ووصف سفيان بكفه فحرفها وبدر بين أصابعه) فيسمع الكلمة فيلقيها إلى من تحته ثم يلقيها الآخر إلى من تحته حتى يلقيها على لسان الساحر أو الكاهن فربما أدرك الشهاب قبل أن يلقيها وربما ألقاها قبل أن يدركه فيكذب معه مئة كذبة فيقال أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا كذا وكذا فيصدق بتلك الكلمة التي سُمعت من السماء»[١]، وروى مسلم عن ابن عباس عن رجل من الأنصار أنه قال رسول الله ﷺ في حديث «ربُّنَا تبارك اسمه إذا قضى أمراً سبح حملة العرش ثم سبح أهل السماء الذين يلونهم حتى يبلغ التسبيح أهل هذا السماء الدنيا ثم قال الذين يلون حملة العرش لحملة العرش ماذا قَالَ رَبُّكُمُ فيخبر ونهم ما قال فيستخبر بعض أهل السماوات بعضاً حتى يبلغ هذه السماء الدنيا فيخطف الجن السمع فيقذفون إلى أوليائهم فَيُرْمَوْن فما جاؤا به على وجهه فهو حق لكنهَّم يقذفون ويزيدون»[٢] وروى البغوى عن النواس بن سمعان رضي الله عنه قال قال

(١) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، باب: قوله: ﴿إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ۝١٨﴾ (٤٧٠١).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب: السلام، باب: تحريم الكهانة وإتيان الكهان (٢٢٢٩).

رسول الله ﷺ «إذا أراد الله أن يوحي بالأمر تكلم بالوحي أخذت السماوات منه رجفة أو قال رعدة شديدة خوفاً من الله فإذا سمع ذلك أهل السماوات صعقوا وخروا لله سجداً فيكون أول من يرفع رأسه جبرئيل فيكلم الله وحيه بما أراد ثم يمر جبرئيل على الملائكة كلما مرَّ بسماء سأله ملائكتها ماذا قال ربنا يا جبرئيل فيقول جبرئيل قال الحق وهو العلي الكبير، قال فيقولون كلهم مثل ما قال جبرئيل فينتهي جبرئيل باوحي حيث أمر الله» والظرف يعني ﴿إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ متعلق بقوله ﴿قَالُوا﴾ يعني قال بعضهم لبعض حين ينكشف عنهم الفزع اللاحق بهم بالإذن في الشفاعة ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾ في الشفاعة ﴿قَالُوا﴾ أي بعضهم لبعض ﴿الْحَقَّ﴾ مقول لقال المقدر يعني قال ربنا الحقَّ وهو الإذن في الشفاعة التي هو الحق يعني لمن هو أهلها وهم المؤمنون ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ أي ذو العلو والكبرياء لا يستطيع ملك مقرب ولا نبي مرسل أن يتكلم فيه إلا بإذنه.

قال البغوي قال بعضهم إنما يفزعون حذراً من قيام الساعة، قال مقاتل والكلبي والسدي كانت الفترة بين عيسى ومحمد ﷺ خمس مائة وخمسين سنة، وقيل ست مئة سنة لم يسمع الملائكة فيها وحياً فلمَّا بُعِثَ محمد ﷺ بالرسالة وسمع الملائكة ظنوا أنها الساعة لأن محمداً ﷺ عند أهل السماوات من أشراط الساعة فيصعقوا ممَّا سمعوا خوفاً من قيام الساعة فلما أنحدر جبرئيل يعني في بدء الوحي جعل يمر بأهل كل سماء فيكشف عنهم فيرتفعون رؤوسهم ويقول بعضهم لبعض ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ﴾ يعنون الوحي ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ فإن قيل على ما قال مقاتل وأمثاله كيف يرتبط قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ بما سبق من الكلام؟ قلتُ لعل وجه ارتباطه أنه متصل بقوله تعالى: ﴿ويرى الذين أوتوا العلم الذي انزل إليك من ربك هو الحق ويهدي إلى صراط العزيز الحميد﴾ والمراد بالذين أوتوا العلم الملائكة وما بينهما اعتراض والمعنى ويرى اللائكة ما أنزل إليك من ربك من القرآن هو الحق ولذلك افزعوا عند نزوله خوفاً من قيام الساعة حيث كان نزوله عندهم من أشراط الساعة ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ وقال جماعة الموصوفون بذلك المشركون، قال الحسن وابن زيد حتى إذا كشف الفزع عن قلوب المشركين عند نزول الموت بهم إقامة للحجة عليهم قالت لهم الملائكة ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾ على لسان رسله في الدنيا قالوا الحق فأقروا حين لا ينفعهم الإقرار، قلت: وعلى هذا التأويل هذه الآية مرتبطة بقوله تعالى: ﴿هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ﴾ يعني هم في شك إلى الموت حتى إذا فزع عن قلوبهم بعد الموت أقروا حين لا ينفعهم الإقرار.

﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم﴾ المطر ﴿مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ و النبات من ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ استفهام تقرير أي حمل المخاطب على الإقرار بأن الله يرزق لا غيره وفيه تأكيد لقوله لا يملكون وهذه الجملة متصلة بقوله قل ادعوا ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾ فاعل لفعل محذوف أي يرزقكم الله إذ لا جواب سواه وفيه إشعار بأنهم إن سكتوا وتوقفوا في الجواب مخافة الإلزام فهم مُقِرُّونَ بقلوبهم ذلك ﴿وَإِنَّآ﴾ أي الموحدين ﴿أَوْ إِيَّاكُمْ﴾ أي المشركين بالله ﴿لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ إذ التَّوحيد نفى الإشتراك فهو نقيضه والضلال نفي الهداية فهو نقيضه وارتفاع النقيضين وكذا اجتماعهما محال فهذه قضية منفصلة حقيقية عنادية والمفهوم مما سبق أن الله يرزق لا غير وهو يستلزم أن الموحد على هُدًى والمشرك ﴿فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ فأنعقد القياس الإستثنائي بأن الموحدين إما على الهدى أو في ضلال مبين لعدم الواسطة لكنهم على الهدى إذ لا يرزق إلا الله فليسوا في ضلال أو لكنهم ليسوا على ضلال فهم على الهدى.

أو يقال المشركون إما على الهدى أو في ضلال مُبين لعدم الواسطة لكنهم ليسوا على هدى فهم في ضلالٍ أو لكنهم في ضلال إذ لا يرزق إلا الله فليسوا على هدى فليس هذا الكلام مبنياً على الشك بل على حصر الإحتمالات وإبطال إحدى النقيضين لإثبات الآخر وإثبات أحدهما لإبطال الآخر كما هو دأب المناظرة وخولف بين حرفي الجر الداخلين على الهدى والضلال لأن صاحب الهدى كأنَّه مستعلٍ على فرس جواد يركضه حيث شاء وصاحب الضلال كأنه منغمس في ظلام لا يدري أين يتوجه.

﴿قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾﴾ يعني ما أمركم به من التوحيد وترك الإشراك إنه إنما هو نصيحة لكم وإلا فلا مضرة لأحد بعمل غيره ففي هذا الكلام حث وترغيب على ما أمر به من التوحيد وفي إسناده الإجرام إلى نفسه والعمل إلى المخاطب رعاية لحسن الأدب وإظهار النصح دون التعصب والتعنت ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا﴾ أي بيني وبينكم ﴿رَبُّنَا﴾ يوم القيامة ثم ﴿يَفْتَحُ﴾ أي يحكم ويفصل ﴿بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ﴾ أي بما يستحقه كل منا بإن يُدخل المحق الجنة والمبطل الدار ﴿وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ﴾ أي الحاكم الفاصل في القضايا المغلقة ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بما ينبغي أن يقضي به في الآية السابقة إلزام للكفار على سبيل المناظرة وفيما بعدها على سبيل النصيحة، وفي هذه الآية على طريقة التوبيخ يذكر حكم الله فيهم يوم القيامة.

﴿قُلْ أَرُونِىَ﴾ أي أعلموني ﴿ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ﴾ الموصول مع صلته مفعول

ثان لأروني وشركاء مفعوله الثالث يعني الذين ألحقتموهم بالله في إستحقاق العبادة أعلموني كونهم شركاء يعني بأيّ صفة جعلتموهم شركاء هل يخلقون شيئاً ويرزقون أو ينفعون أحداً أو يضرون يعني لا سبيل إلى القول بأنهم شركاء الله، في هذه الآية استفسار عن شبهتهم بعد إلزام الحجة عليهم وإقامة البرهان زيادة في تبكيتهم ﴿كَلَّا﴾ ردع لهم عن الإلحاق بعد ظهور عدم المشاركة في شيء من الصفات ﴿بَلْ هُوَ﴾ يعني المستحق للعبادة ليس إلا ﴿ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ صاحب العزة القاهرة والحكمة البالغة لا شريك له شيء في شيء من الصفات فكيف تلحقون به الجمادات النازلة في أدنى مراتب الممكنات المتسمة بالزلة الآبية عن قبول العلم والقدرة رأساً فالضمير عائد إلى المستحق للعبادة والله خبره، والحصر مستفاد من هذا التركيب والعزيز والحكيم صفتان لله أو خبران آخران وجاز أن يكون هُوَ للشأن والله مبتدأ والعزيز والحكيم صفتان له والخبر محذوف أي متوحد لاستحقاق العبادة.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً﴾ صفة لمصدر محذوف أي إلا رسالة كافةً يعني عامةً شاملة ﴿لِّلنَّاسِ﴾ فإنها إذا عمتهم وقد كفتهم أن يخرجوا منها أحد منهم فعلى هذا قوله للناس متعلق بكافةً، وجاز أن يكون كافة حال من كاف الخطاب والتاء للمبالغة يعني ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ﴾ إلا جامعاً لهم في الإبلاغ، عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ «أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلي نصرت بالرعب مسيرة شهر وجعلت لي الأرض كلها مسجد وطهوراً فأيّما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل وأحِلَّت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي وأعطيتُ الشفاعة وكان النبي يبعث إلى قومه خاصةً وبعثتُ إلى النّاس عامة»[1] متفق عليه.

وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «فضلت على الأنبياء بست أعطيت جوامع الكلم ونُصّرت بالرعب وأحِلّت لي الغنائم وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً وأرسلت إلى الخلق كافة وخُتم بي النبيون»[2] وجاز أن يكون المعنى أرسلناك كافة أي كالتي تكفهم عن الكفر في الدنيا وعن الوقوع في النار في الآخرة، عن أبي هريرة قال قال

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الصلاة، باب: قول النبي ﷺ: «جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً» (٤٣٨)، وأخرجه مسلم في أوائل كتاب: المساجد ومواضع الصلاة (٥٢١).

(٢) أخرجه مسلم في أوائل كتاب: المساجد ومواضع الصلاة (٥٢٣)، وأخرجه الترمذي في كتاب: السير، باب: ما جاء في الغنيمة (١٥٥٦).

رسول الله ﷺ: «مثلي كمثل رجل استوقد ناراً فلما أضاءت ما حولها جعل الفراش وهذا الدواب التي يقعن فيها وجعل يحجزهن ويغلبنه فيقتحمن فيها فأنا آخذ بحجزكم عن النار وأنتم تقتحمون فيها»(١) متفق عليه واللفظ للبخاري، وقيل للناس متعلق بأرسلناك وكافة حال من الناس قدّم عليه للإهتمام يعني أرسلناك لأجل إرشاد الناس كافة عامة أحمرهم وأسودهم وأكثر النحويين لا يجوّزون ذلك لأن ما في حيز المجرور لا يتقدم على الجار، وجملة ما أرسلناك حال من فاعل قُلْ أَرُونِيَ غير ذلك على سبيل التنازع يعني قل هذه المقالات لإلزام الكفار وإرشادهم وإلى كونك مرسلاً إليهم كافتهم أو كافاً إياهم ﴿بشيراً﴾ للمؤمنين بالجنة ﴿وَنَذِيرًا﴾ للكافرين من النار حالان من كاف الخطاب مترادفان لكافة على تقدير كونه حالاً داخلان تحت الإستثناء بحرف واحد على طريقة ما ضربتُك إلا ضرباً شديداً قائماً وما حسبك إلا راكباً مسرعاً وجاز أن يكونان حالان من الضمير في كافةً على تقدير كونه حالاً من الكاف ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ﴾ وهو الكفار ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي لا يعتقدون ذلك بل يحملون إرشادك إياهم على العناد والمخالفة ﴿وَيَقُولُونَ﴾ أي الكفار لفرط جهلهم إستهزاءً واستبعاداً ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ أي المبشر به والمنذر عن أو متى هذا الموعود لقولك يجمع بيننا ربنا ثم يفتح بيننا ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ يخاطبون به الرسول الله ﷺ للمؤمنين والجزاء محذوف دلَّ عليه ما قبله يعني ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في الوعد فأنبؤني عن وقته ﴿قُل﴾ لهم في الجواب ﴿لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ﴾ أي وعُد يوم أو زمانُ وعدٍ والإضافة إلى اليوم حينئذ للتبين ﴿لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ﴾ عليه والمراد بذلك اليوم يوم القيامة وقال الضحاك يعني الموت لا تتقدمون ولا تتأخرون بأن يزاد في آجالكم أو ينقص وهذا جواب تهديد مطابق لما قصدوه بسؤالهم من الإستهزاء والإنكار.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا۟

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الرقاق، باب: الانتهاء عن المعاصي (٦٤٨٣)، وأخرجه مسلم في كتاب: الفضائل، باب: شفقته ﷺ على أمته (٢٢٨٤).

ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ ۚ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٣٩﴾﴾.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي بما تقدمه وهو التوراة والإنجيل قالوا ذلك حين سألوا أهل الكتاب عن الرسول الله ﷺ فأخبروهم إنا نجد نعته في كتبنا فغضبوا وقالوا ذلك وجاز أن يكون المراد ﴿بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ محمد ﷺ، وقيل المراد بالَّذِيْ بَيْنَ يَدَيْهِ القيامة والجنة والنار وهٰذه الجملة معطوفة على ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ﴾ الخطاب لمحمد ﷺ أو لكل مخاطب والمفعول محذوف يعني وَلَوْ ترى الظالمين ﴿إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ﴾ محبوسون ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ للحساب الظرف متعلق بترى وجاز أن يكون الظرف مفعولاً لترى والمعنى ولو ترى موضع محاسبتهم ﴿يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ﴾ يعني يتراجعون بينهم القول ويتحاورون والجملة حال من الضمير في موقوفون أو خبر بعد خبر للظالمون ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟﴾ أي الأتباع ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ أي الرؤساء ﴿لَوْلَآ أَنتُمْ﴾ يعني لولا صدكم إيانا عن الإيمان بالله وبرسوله ودعاؤكم إيانا إلى الكفر ﴿لكنا مؤمنين﴾ بالنبيّ فأنتم أوقعتمونا في العذاب ﴿وقال الذين استكبروا للذين استضعفوا﴾ في جوابهم ﴿أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ﴾ إستفهام إنكار يعني نحن لم نصدكم ﴿عن الهدى بعد إذ جاءكم﴾ الهدى ﴿بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ﴾ أثبتهم أنهم هم الذين صدوا أنفسهم حيث أثروا التقليد ومتابعة الكفار بلا دليل وتركوا متابعة الرسول المؤيد بالمعجزات ولذلك أورد همزة الاستفهام على الاسم ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ لم نصد أنفسنا ﴿بَلْ﴾ صدنا عن الهدى ﴿مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ أي مكركم إيانا في الليل والنهار وإضافة المكر إلى الظرف للإتساع، وقيل عنوا بمكر الليل والنهار طول السلامة وطول الأمل فهما صدنا ﴿إِذْ تَأْمُرُونَنَآ﴾ الظرف بدل من الليل والنهار ﴿أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا﴾ أن مفسرة للأمر أو مصدرية بتقدير الباء ﴿وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟

﴿ٱلْعَذَابَ﴾ أي أضمر الفريقان الندامة على الضلال والإضلال وأخفاها كل عن صاحبه مخافة التعيير أو المعني أظهروها والهمزة يصلح للإثبات والسلب كما في أشكيتُه ﴿وَجَعَلْنَا﴾ عطف على ﴿رَأَوُا ٱلْعَذَابَ﴾ ﴿ٱلْأَغْلَـٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ في النار، أورد المظهر موضع الضمير تنويهاً للذم وإشعاراً بموجب الأغلال ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ﴾ أي لا يجزون جزاءً إلا جزاء ﴿مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا تعدية يجزى إما لتضمين فعل متعد نحو تؤتون أو لنزع الخافض.

أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم من طريق سفيان عن عاصم عن أبي رزين قال: كان رجلان شريكين خرج أحدهما إلى الشام وبقي الآخر فلما بعث النبي ﷺ كتب إلى صاحبه فكتب صاحبه يسأله ما عمل فكتب إليه أنه لم يتبعه من قريش أحد إلا رذالة الناس ومساكينهم فترك تجارته ثم أتى صاحبه فقال دلني عليه كذا وكذا فقال أشهد أنك رسول الله فقال وما علمك بذلك؟ قال إنه لم يبعث نبي إلا أتبعه رذالة الناس ومساكينهم فنزلت ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ﴾ الآية فأرسل إليه النبيّ ﷺ أن الله قد أنزل تصديق ما قلتَ، من زائدة ونذيُر في محل النصب على المفعولية ﴿إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ﴾ حال بتقدير قدمن نَذِير يعني إلاّ وقد قَالَ مُتْرفُوا تلك القرية أي متنعميها خص المتنعمين بالتكذيب لأن الداعي إلى التكذيب والإنكار غالباً التكبر والمفاخرة بزخارف الدنيا والإنهماك في الشهوات والإستهانة بالفقراء ولذلك ضموا التهكم والمفاخرة إلى التكذيب فقالوا ﴿إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَـٰفِرُونَ﴾ مقابلة الجمع بالجمع ﴿وقالوا نحن أكثر أموالاً وأولاداً﴾ منكم فنحن أولي منكم، ما تدعون إن أمكن لأنا أحباء الله حيث أعطانا ذلك ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾﴾ إما لأن العذاب لا يكون أو لأن الله اكرمنا فلا يهيننا ﴿قُلْ﴾ يا محمد رداً لحسبانهم ﴿إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ﴾ في الدنيا ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ إمتحاناً ﴿وَيَقْدِرُ﴾ أي يضيق الرزق لمن يشاء إبتلاءً وليس القبض والبسط في الدنيا مبنياً على التوهين والتكريم لأن الدنيا دار الإبتلاء لا دار الجزاء ولذلك يختلف فيها أحوال الأشخاص المتماثلة في الخصائص والصفات ﴿وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ﴾ أي الكفار ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ فيظنون أن كثرة الأموال والأولاد للكرامة.

﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُم بِٱلَّتِى﴾ أي متلبسة بالخصلة ﴿التي تقربكم عندنا زلفى﴾ قال الأخفش زلفى إسم مصدر كانَّه قال يقربكم عندنا تقريباً وجاز أن يكون الباء زائدة والتي محمولاً على أموالكم بإرادة جماعة أموالكم ﴿إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا﴾ الإستثناء منقطع يعني لكن ﴿مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا﴾ فإيمانه وعمله يقربه عني كذا قال ابن عباس، وجاز أن يكون الإستثناء متصلاً من مفعول يقربكم يعني أن الأموال والأولاد لا يقرب إلى الله أحداً

إلاّ المؤمن الصالح الذي ينفق ماله في سبيل الله ويُعَلّمُ ولده الخير ويربّيه على الصلاح، أو من أموالكم وأولادكم على حذف المضاف يعني إلا أموال من آمن وأولاده فإنها تقربه ﴿فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟﴾ قُرأ يعقوب جزآءً منصوباً منوناً على التميز أو على أنه مصدر لفعله الذي دل عليه والضعف مرفوعاً على أنه مبتدأ ولهم خبره والجملة خبر أولئك تقديره فأولئك لهم الضعف يجزون جزاء وعن يعقوب رفعهما على أن الجزاء مبتدأ والضعف بدل منه ولهم خبره، وقرأ الجمهور جزاء بالرفع على أنه مبتدأ والضعف بالجر على أنه مضاف إليه إضافة المصدر إلى المفعول والمراد أن الله يضعف جزاء حسناتهم فيجزون بالحسنة الواحدة عشراً إلى سبعمائة إلى ما لا نهاية له ﴿وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾ قرأ حمزة الغرفة على إرادة الجنس والباقون على الجمع، والغرف رفع الشيء وهي المنازل الرفيعة من الجنة، وقد ذكرنا ما ورد في الفرفان من الأحاديث في تفسير سورة الفرقان في تفسير قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا۟﴾(١) ﴿وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا﴾ أي في إبطال آياتنا ﴿مُعَٰجِزِينَ﴾ مقدرين عجزنا أو ظانين أنهم يفوتوننا ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ﴾ يعني يوسع عليه تارة ويضيق عليه أخرى فهذا في شخص واحد باعتبار وقتين وما سبق في شخصين فلا تكرار، وقال صاحب البحر المواج الأولى لرد فخرهم بالعباد وهذا لرد بخلهم حيث قال ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم﴾ في سبيل الله ما شرطية في محل النصب وقوله ﴿مِّن شَىْءٍ﴾ بيانه وجواب الشرط ﴿فَهُوَ﴾ الرب ﴿يُخْلِفُهُۥ﴾ أي يعطيه ما يخلفه إما في الدنيا وإما بدخوله للآخرة فمالكم لا تنفقون أموالكم في سبيل الله وتبخلون بها وتقديم المسند إليه على المسند الفعلي للتخصيص والتأكيد ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ فإن غيره وسط في إيصال رزقه وإطلاق الرازق على غيره إنما هو بالمجاز والرازق الحقيقي ليس إلا الله، فإن قلت يلزم حينئذ الجمع بين الحقيقة والمجاز في قوله: ﴿ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ قلنا المراد هاهنا عموم المجاز.

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ

---

(١) سورة الفرقان، الآية: ٧٥.

يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ
إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾ وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ
﴿٤٤﴾ وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا۟ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ
﴿٤٥﴾﴾.

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ﴾ أي الكفار ﴿جَمِيعًا﴾ المستكبرين والمستضعفين ﴿ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ عطف على يحشر، قرأ يعقوب وأبو جعفر وحفص يَحْشُرُهم ويَقُوْلُ بالياء والباقون بالنون فيهما ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ﴾ الكفار الذين كانوا يعبدون الملائكة ويقولون هم بنات الله ﴿إياكم كانوا يعبدون﴾ في الدنيا يقول ذلك تبكيتاً للمشركين وتقريعاً لهم وإقناطاً لهم من الشفاعة وتخصيص الملائكة لأنهم أشرف لشركائهم والصالحون للخطاب منهم ولأن عبادتهم مبدأ الشرك وأصله والظرف متعلق بقوله ﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ﴾ أي ننزهك تنزيهاً عن الشريك ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ﴾ يعني أنت الذي خص موالاتنا به دونهم يعني لا موالاة بيننا وبينهم كأنهم بينوا بذلك براءتهم عن الرضاء بعبادتهم ﴿بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ﴾ أي الشياطين الذين زيّنوا لهم عبادة الملائكة.

وقيل كانت الشياطين يتمثلون لهم ويجهلون إليهم أنهم الملائكة فيعبدونهم ﴿أَكْثَرُهُم﴾ يعني أكثر الناس وهم المشركون أو المراد بالأكثر الكل والضمير للمشركين ﴿بِهِم﴾ أي بالجن ﴿مُّؤْمِنُونَ فَٱلْيَوْمَ﴾ أي فذلك اليوم ﴿لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ يعني لا يملك بعض الخلائق من الجن والإنس والملائكة لبعضهم نفعاً إثابةً أو شفاعة ولا تعذيباً إذ الأمر كله لله ﴿وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ بوضع العبادة في غير موضعه ﴿ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ في الدنيا عطف على ﴿لَا يَمْلِكُ﴾.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ أي على أهل مكة ﴿ءَايَٰتُنَا﴾ من القرآن﴿بَيِّنَٰتٍ﴾ واضحات على لسان محمّد ﷺ ﴿قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ﴾ يعنون محمداً ﷺ ﴿إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ﴾ يعنون القرآن ﴿إلاَّ إفْكٌ﴾ أي خبر غيره مطابق للواقع ﴿مُّفْتَرًى﴾ يعنون أنه افترى محمد على الله أنه كلامه ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ﴾ يعني أمر النبوة أو الإسلام والقرآن ﴿لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ يعني بمجرد مجيئه عندهم من غير تدبر وتفكر ﴿إن هذا إلا سحر مبين﴾ أي ظاهر سحريته فالأول باعتبار معناه وهذا باعتبار لفظه وإعجازه وفي تكرير الفعلين والتصريح بذكر الكفرة وما في اللازم من الإشادة إلى القائلين والمقول فيه إنكار عظيم له وتعجيب بليغ منه ﴿وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم﴾ يعني كفار مكة ﴿مِّن كُتُبٍ﴾ فيها دليل على

صحة الإشراك هذه الجملة مع ما عطف عليه حال من فاعل ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ ﴿يَدْرُسُونَهَا وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ﴾ يدعوهم إليه وينذرهم على تركه فمن أين يدَّعون بالشرك ويحكمون على القرآن بالإفك والسحر وعلى النبيّ بالكذب، وفيه تجهيل لهم وتسفيه لرأيهم ثم هددهم فقال ﴿وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ من الأمم رسلنا وهم عاد وثمود وقوم إبراهيم وقوم لوط وأصحاب مدين وأصحاب الأيكة هذا أيضاً حال بتقدير قد أو معطوف على قال الذين كفروا ﴿وما بلغوا﴾ يعني هؤلاء الكفار أي كفار مكة ﴿مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾ أي عشر ما أعطينا الأمم الخالية من العدة والنعمة وطول العمر ﴿فَكَذَّبُواْ رُسُلِى﴾ فحين كذبوا رسلي جاءهم نكيري حيث دمرناهم ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ لهم أي كيف كان إنكاري عليهم بالعقوبة والإهلاك يعني هو واقع موقعه إستفهام توبيخ فليحذر هؤلاء من مثله، ولا تكرير في كَذَّبَ لأن الأول للتكثير وللثاني للتكذيب أو الأول مطلق غير مقيد بالمفعول فإنه نزل منزلة اللازم والثاني مقيد تفصيل بعد الإجمال ولذلك عطف عليه بالفاء، وقال صاحب البحر المواج ضمير فكذبوا رسلي عائد إلى كفار مكة عطف على ما بلغوا فلا تكرار، قرأ ورش نَكِيري بإثبات الياء وصولاً والجمهور بحذفها في الحالين.

﴿وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُواْ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَكَذَّبُواْ رُسُلِى فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾ قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾ قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُواْ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُواْ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾ وَقَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ وَقَدْ كَفَرُواْ بِهِۦ مِن قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُواْ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍۭ ﴿٥٤﴾﴾.

﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿إنما أعظم﴾ أي أرشدكم وأنصح لكم ﴿بِوَٰحِدَةٍ﴾ أي بخصلة واحدة وهي ما دل عليه قوله ﴿أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ﴾ ليس المراد بالقيام ضد الجلوس والرقود بل المراد به الانتصاب في الأمر والتصدي له كما في قوله تعالى: ﴿أن تقوموا لليتامى

بالقسط﴾(١) والمعنى أن تنتصبوا في التفكر خالصاً لوجه الله معرضاً عن التعصب والتقليد ﴿مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ﴾ يعني اثنين اثنين وواحداً واحداً فإن الازدحام يشوش الخاطر حالان من فاعل تقوموا ﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ﴾ في أمر محمد ﷺ وما جاء به، عطف على تقوموا يعني قوموا أما اثنين اثنين فيتفكران ويعرض كل واحد منهما فكره على صاحبه وينظران بنظر الإنصاف أو يتفكر فرد فرد في نفسه بعدل ونصفة حتى يتضح له الحق.

وأن مع صلته أما في محل الجر بدلاً من واحدة أو بياناً له وإمّا في محل الرفع بإضمار هو وإما في محل النصب بإضمار أعني ﴿مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍۚ﴾ متعلق بتفكروا بتضمين يعلموا إرشاد إلى مواد التفكر والمراد أن هذا أمر بديهي وهو أن صاحبكم محمداً ﷺ ليس به جنون فإنه ذو عقلٍ سليم وقلب عظيم وفهم مستقيم لا ينكره إلا معاندٌ أو مجنونٌ، وبديهي أن من له عقل سليم لا يتصدى لأمر عظيمٍ عبثٍ يُعادي بسببه الخلائق مع كونه متوحداً أصفر اليد من غير تحقيق ووثوق ببرهان من غير فائدة معتدة به من جلب نفع أو دفع ضرر، وجلب نفع أو دفع ضرر دنيوي غير موجود أما جلب النفع فمنفي حيث يقول ما سألتكم من أجر فهو لكم وكذا دفع الضرر لأن ضرر معاداة الخلائق موجود فما هذا الدعوى من محمد ﷺ إلا لجلب نفع متوقع في غير هذا الدار ودفع ضرر كذلك فيثبت بهذه المقدمات قوله ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ يلحق بكم في غير هذا الدار فهذه المقدمات يرشد إلى وجوب إتباعه لاسيما قد أنضم ذلك إلى معجزات كثيرة.

قال ابن عباس لمّا نزلت ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾ «صعد النبيّ ﷺ على الصفا فجعل ينادي يا بني فهر يا بني عدي لبطون قريش حتى اجتمعوا فقال أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي؟ قالوا ما جرَّبنا عليك إلا صدقاً، قال: فإني نذيرٌ لكم بين يدي عذاب شديد، فقال أبو لهب تباً لك سائر اليوم الهذا جمعتنا فنزلت تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ»(٢) متفق عليه.

﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ﴾ على الرسالة ﴿فَهُوَ لَكُمْۖ﴾ يعني لا أسألكم شيئاً وقيل معناه ما سألتكم من أجرٍ بقولي: ﴿ما أسألكم عليه من أجر إلا من شاء أن يتخذ إلى ربه

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٢٧.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، باب: تفسير سورة المسد (٤٩٧١)، وأخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: في قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ (٢٠٨).

سبيلا﴾(١) وقولي: ﴿لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾(٢) ﴿فهو لكم﴾ أي لفائدتكم لأن اتخاذ السبيل إلى الله ينفعكم وقربائي قرباكم، قلتُ بل قربى النبيّ ﷺ علماء الظاهر والباطن من أهل بيته وغيرهم ومودتهم يورث التقرب إلى الله سبحانه ﴿إن أجري﴾ قرأ ابن كثير وحمزة والكسائي بإسكان الياء والباقون بفتحها ﴿إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾ في غير هذا الدار الدنيا ولولا ذلك لم أرتكب تحمل تلك المشقة عبثاً فلا بد لكم أن تتبعوني وتعملوا ما يوجب لكم الأجر على الله عزَّ وجلَّ تفضلاً منه بناءً على وعده، قال رسول الله ﷺ «يا معاذ هل تدري ما حق الله على عباده وما حق العباد على الله؟ قلتُ الله ورسوله أعلم. قال: حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً وحق العباد على الله أن لا يعذب من لا يشرك به شيئاً»(٣) متفق عليه عن معاذ ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ فيجازي كل امرى على حسب عمله وأعتقاده (قُلْ) يا محمد ﴿إِنَّ رَبِّى يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ﴾ أي يلقيه وينزله على من يشاء أن يجتبيه من عباده، أو المعنى يرمي به الباطل فيدمغه أو المعنى يرمي به إلى أقطار الآفاق فيكون وعداً بإظهار الإسلام، روى أحمد عن المقداد أنه سمع رسول الله ﷺ يقول «لا يبقى على ظهر الأرض بيت مدرولا وبر إلا أدخله الله كلمة الإسلام بعز عزيز أو ذلّ ذليل إما يعزهم الله فيجعلهم من أهلها أو يذلهم فيدينون لها»(٤) ﴿عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ بالرفع صفة محمولة على محل إسم إنَّ أو بدل من المستكن في يقذف أو خبر ثان لأن أو خبر محذوف أي هو علام الغيوب يعلم من هو أهل للإجتباء بالوحي ويعلم عاقبة أمر الإسلام حيث يدفع به الكفر ويظهره في الأقطار ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ﴾ أي القرآن والإسلام والتوحيد ﴿وما يبدىء الباطل وما يعيد﴾ أي ذهب الباطل يعني الشرك وزهق فلم يبق منه بقية تبدي شيئاً أو تعيده كما قال: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾(٥) وقال قتادة الباطل إبليس أي ما يخلق إبليس أحداً ولا يبعثه وهو قول الكلبي

(١) سورة الفرقان، الآية: ٥٥.

(٢) سورة الشورى، الآية: ٢٣.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: التوحيد، باب: ما جاء في دعاء النبي ﷺ أمته إلى توحيد الله تبارك وتعالى؛ (٧٣٧٣)، وأخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعاً (٣٠).

(٤) رواه أحمد والطبراني ورجال أحمد رجال الصحيح.
انظر مجمع الزوائد في كتاب: المغازي والسير، باب: علو الإسلام على كل دين خالفه وظهوره عليه (٩٨٠٧).

(٥) سورة الأنبياء، الآية: ١٨.

أيضاً وقيل الباطل الأصنام.

قال البغوي إن كفار مكة كانوا يقولون للنبيّ ﷺ إنك قد ظللت حتى تركت دين آبائك فأنزل الله تعالى ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿إِن ضَلَلْتُ﴾ يعني ما تدينتُ به من الدين إن كان ضلالاً كما تقولون ﴿فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِيۖ﴾ يعني وبال ضلال إنما يعود إلى نفسي فكيف أختار الوبال على نفسي مع أنه لا جنون بي ولا منفعة دنيوية يعود إلى ﴿وإن اهتديت فبمايوحي إليَّ ربي﴾ يعني إن كان هذا هداية فليس من قبل نفسي ولا من عند أحد من أهل هذا البلد لظهور أني أمي ما كتبتُ ولا قرأتُ على أحد فليس هو إلا مستفاداً من الله وحياً فيجب عليكم أن تتبعوني فتهتدوا كما اهتديتُ، فهذا استدلال على النبوة وهذا الوجه المقابلة بين الشرطين وقال البيضاوي في وجه المقابلة إن معنى قوله ﴿إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِيۖ﴾ فإن وبال ضلالي عليها فإنه بسببها فإنها هي الضالة بالذات والأمارة بالسوء وإن اهديت فبهدايته تعالى فعلى هذا أوزان هذه الآية قوله تعالى: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَۚ﴾[1] ﴿إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾ يدرك قول كل ضالٍ ومهتدٍ وفعله وإن أخفاه.

(وَلَوْ ترى) أيها المخاطب ﴿إِذْ فَزِعُواْ﴾ وقت فزع الكفار عند الموت، وقال قتادة عند البعث وجواب لو محذوف يعني لرأيت أمراً فظيعاً ﴿فَلَا فَوْتَ﴾ لهم يعني فلا يفوتون الله بهرب أو تحصن أو بإعطاء فداء عن نفسه ﴿وَأُخِذُواْ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ يعني من ظهر الأرض إلى بطنها كما قيل أو من الموقف إلى النار، وقال الضحاك هو يوم بدر فزعوا وأخذوا من مكان قريب بعذاب الدنيا لكن لا يناسب هذا التأويل قوله ﴿وَقَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ أي بمحمد ﷺ وقد مر ذكره في قوله ﴿مَا بِصَاحِبِكُم﴾ فإنهم لم يقولوا يوم بدراً منّا به بل قال أبو جهل حين قتل وكان به رمق وأخذ ابن مسعود لحيته، وقال الحمد للّه الذي أخزاك يا عدو الله قال بماذا أخزاني هل زاد على رجل قتله قومه وهل كان إلاّ هذا، وإنما يقولون آمنّا به عند البأس إذا أخذه سكرات الموت وعند البعث من القبور إذا عاينوا العذاب وعند البعث إلى النار ﴿وأنى لهم التناوش﴾ قرأ نافع وابن كثير وابن كثير وابن عامر وحفص بضم الواو بغير مد ومعناه التناول يعني من أين لهم أن يتناولوا الإيمان والتوبة، والباقون التناؤش بالمد والهمزة، وإذا وقف حمزة جعلها بين بين لأن ذلك من النئش بالهمزة وهو الحركة في الإبطاء يعني إني لهم أن يتحركوا ويطلبوا الإيمان والتوبة،

(١) سورة النساء، الآية: ٧٩.

وجاز أن يكون من النوش بمعنى التناوش فيكون أصله الواو ثم يهمز للزوم ختمها، فعلى هذا يقف حمزة بضم الواو ورد ذلك إلى أصله كذا قا الداني في التيسير، قال في القاموس النأش يعني بالهمز التناول كالتناوش والأخذ والبطش والنهوض والتأخير ولا يستقيم التأخير هاهنا ويستقيم غير ذلك والنوش يعني بالواو التناول والطلبُ المشي والإسراع في النهوض ﴿مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ فإن تناول الإيمان إنما هو في حين التكليف أنه بعد عنهم حين التكليف وهذا تمثيل حالهم في الإستخلاص بعدما فات عنهم وبعد عنهم مجال من يريد تناول الشيء من غلوة مثل تناوله على ذراع في الإستحالة، وعن ابن عباس أنه قال إنهم يسألون الرد إلى الدنيا فيقال وإني لهم الرد من مكان بعيد أي من الآخرة إلى الدنيا.

﴿وَقَدْ كَفَرُوا بِهِۦ﴾ أي بالله وقد مر ذكره أو بمحمد وقد ذكر بقوله ما بصاحبكم أو بالقرآن المذكور بقوله ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ﴾ أو بالعذاب المفهوم من قوله ﴿اخذوا﴾ والجملة حال من فاعل قالوا ﴿مِن قَبْلُ﴾ ذلك الوقت في أوان التكليف ﴿وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ أي من جانب بعيد من أمر النبيّ ﷺ وهو الشبه الذي تمحلوها في أمر الرسول ﷺ وحال الآخرة كما حكاه من قبل ولعله تمثيل لحالهم في ذلك بحال من يرمي شيئاً لا يراه من مكان بعيد لا محال الظن في لحوقه، قال مجاهد يرمون محمداً ﷺ بما لا يعلمون يقولون شاعر ساحر كذّاب بلا تحقيق هذا تكلم بالغيب، وقال قتادة يرمون بالظن يقولون لا بعث ولا جنة ولا نار وهذا معطوف على قوله وقد كفروا به على حكاية الحال الماضية أو على قالوا فيكون تمثيلاً لحالهم بحال القاذف في تحصيل ما ضيعوه من الإيمان في الدنيا.

﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ من نفع الإيمان والنجاة من النار أو الرجوع إلى الدنيا أو كل ما يشتهيه الطبع من المأكولات والمشروبات وغيرها التي كانت لهم ميسرة في الدنيا والظرف قائم مقام فاعل حيل أو ما مسند إلى مصدره أي حيل الحيلولة، قرأ ابن عامر والكسائي حيل بإشمام الضم للحاء والباقون بإخلاس الكسر ﴿كما فعل بأشياعهم﴾ أي بأشباههم من كفار الأمم الخالية ﴿مِن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ﴾ من البعث ونزول العذاب بهم ﴿مُرِيبٍ﴾ موقع للريبة أو ذي الريبة منقول من المشكك أو الشاك نعت به الشك للمبالغة.

تم تفسير سورة السبأ من التفسير المظهري في العشرين من المحرم من السنة السابعة بعد ألف ومائتين سنة/ ١٣٠٢ من الهجرة ويتلوه تفسير سورة الملائكة ان شاء الله تعالى وصلى الله على خير خلقه محمد وآله وأصحابه أجمعين.

المحتويات

سورة الفرقان ٥

سورة الشعراء ٥٩

سورة النمل ١٠١

سورة القصص ١٥٠

سورة العنكبوت ١٩٧

سورة الروم ٢٢٥

سورة لقمان ٢٥٣

سورة السجدة ٢٧٣

سورة الأحزاب ٢٨٩

سورة سبأ ٣٩٤

طبع على مطابع
دار إحياء التراث العربي